جورجي أمادو

الدونا فلور وزوجاها الاثنان

مكتبة
Telegram
Network
2020

الدونا فلور

وزوجاها الاثنان

جورجي أمادو

الدونا فلور

وزوجاها الاثنان

رواية

نقلها إلى العربية عوض شعبان

دار الفارابي

الكتاب: الدونا فلور وزوجاها الاثنان

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل

DONA FLOR E SEUS DOIS MARIDOS

Copyright © 2008, Grapiúna Produções Artísticas Ltda

All rights reserverd

المؤلف: جورجي أمادو

الترجمة: عوض شعبان

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2016

© جميع حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الفارابي

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إلى زيليا، في المساء الهادئ في الحديقة مع القططة، في الرقة الدافئة من نيسان هذا؛

إلى جوان وپالوما، في صباح القراءات الأولى والأحلام الأولى؛

إلى إشبينتي نورما دوس غيماراييس سامبايو، وهي شخصية جاءت عرضاً وحضورها شرف وتلوين لهذه السطور الشّاحبة؛

إلى بياتريز كوستا التي كان فادينيو معجباً بها ومخلصاً لها؛

إلى اينيبدا التي امتازت بسماع النشيد الوطني يعزفه على المزمار الدكتور تيودورو مادوريرا؛

إلى جيوفانّا بونينو التي تمتلك أصباغ الرسام جوزيه دومي – صورة الدونا فلور المراهقة بالألوان الباهتة الصفراء، أربع صديقات لصيقات هنا بتأثر المؤلّف؛

إلى دياولاس رييديل ولويز مونتيرو.

«الله بدين»،

(إعلان فادينيو عندما عاد).

«الأرض زرقاء»،

(أكّد غاغارين بعد تحليقه الفضائي الأول).

«مكان لكل شيء وكل شيء في مكانه»،

(لافتة على جدار صيدلية الدكتور تيودورو مادوريرا).

«أواه!»-،

(تنهّدت الدونا فلور).

(1)

صديقي العزيز جورجي آمادو، حلوى البوبا التي أُعِدُّها بدون وصفة. ويحسن بي القول «إنني أخذت إيضاحات عنها من الدونا آلدا زوجة السيّد ريناتو من المتحف، وتعلمت كيف أصنعها، محطمةً رأسي إلى أن عثرت على طرف المسألة، (لم أعرف الحب حتى تعلّمت أن أحِبّ، ولم أعش حتى تعلمت أن أعيش!).

عشرون قرصاً من الحلوى من عجين البوبا أو أكثر، حسب الحجم الذي تريده، وأنصح الدونا زيليا أن تصنعها كبيرةً دفعةً واحدة، فالجميع يحبون حلوى البوبا ويطلبون منها المزيد. حتى هما الاثنان المختلفان جداً، متفقان فقط في جنونهما بحلوى البوبا أو رقائق معجنات المانديوكا، وبشيء آخر أيضاً. دعني في سلام يا سيد جورجي، لا تثرني، فلا تتكلّم في هذا سكر وملح وجبن مفروم وزبدة وحليب جوز الهند، المخفّف والكثيف، فأنت بحاجة إلى الاثنين. (قل لي أيها السيد الذي تكتب في الجرائد: لماذا ينبغي للمرء دائماً أن يحتاج إلى غرامين، لماذا لا يكفي قلب المرء حبّ واحد؟) الكميات حسب ذوق الشخص، فلكلٍّ ذوقُه، فيفضلها أحلى أو أملح، أليس كذلك؟ يجب أن يكون المزج دقيقاً جداً، والفرن ساخناً.

وبانتظار أن أكون قد استجبت لطلبك يا سيد جورجي، هاك الوصفة التي ليست بوصفة، بل مجرد رسالة. تذوّق الحلوى التي تأتيك معها، فإذا أحببتها أبلغني بذلك. كيف حال أفراد أسرتك؟ هنا في المنزل الجميع بخير. اشترينا حصة أخرى من الصّيدلية، وأخذنا بيتاً لقضاء الصيف في إيتاباريكا وهو جميل جداً. وغير ذلك أنت تعلم، ففي ذلك الأمر بالذات، لا جدوى من إصلاح ما هو أعوج. لن أحدّثك عن أيامي في ساعات الفجر، فقد يكون ذلك بمثابة قلّة احترام. لكن الواقع أن التي تشعل ضياء النهار فوق البحر هي خادمتك فلوريبيديس بايفا مادوريرا الدونا فلور أوس غيمارايس.

(رسالة حديثة من الدونا فلور للروائي)

القسم الأول

I

عن موت فادينيو، زوج الدونا فلور الأول، عن السّهر إلى جانب الميت، وعن دفن جثمانه.

(مع كافاكينيو لاعب الغيتار السامي كارلينيوس ماسكارينياس).

مدرسة الطَّهي مذاق وفنّ

ماذا ومتى يُقدم الطعام والشراب أثناء السهرة على الميت

(إجابة الدونا فلور عن سؤال تلميذة)

على الرغم من كونه يوم تحسّر وحزن ونحيب، فهو ليس سبباً لأن تمضي السّهرة على الميت من دون تقديم أي طعام. فإذا كانت سيدة المنزل متفجعة وعلى وشك أن يغمى عليها، غارقة في الألم، أو ميتة في النعش، غير قادرة على القيام بذلك، فإن قريباً أو شخصاً صديقاً سيقوم عندئذ بهذه المهمة، لأنه لا يجوز أن يُترك هكذا بلا طعام أو شراب، أولئك المجتمعين المساكين الذين يمضون ليلة بطولها تضامناً معها، وأحياناً يكون ذلك الوقت في الشتاء البارد.

ولكي تخلو السهرة من الرتابة وتشرِّف المتوفى في الواقع، بجعل الليلة الأولى لوفاته خفيفة الوقع، من الضروري العناية بالمعنويات وبالشهية.

فمتى وماذا يجب أن يُقدَّم؟

متى؟ الأمر بسيط جداً: الليل بطوله، من أوله حتى آخره. القهوة تُقدّم بلا حساب طوال الوقت، قهوة بمقادير قليلة – هذا واضح – إنّما قهوة كاملة: مع حليب وخبز وزبدة وجبن وبعض البسكويت وبضعة أقراص من حلوى الآيبين أو عجين المانديوكا، إضافة إلى شرائح فيها الكسكسي مع البيض المخفوق، لكنّ هذا لا يقدّم إلا عند الصباح ولمن طَلَع عليه الفجر وهو هناك.

ومن الأفضل إبقاء الماء في الإبريق على النار بحيث تبقى القهوة جاهزة باستمرار لكي تقدم مع البسكويت للذين سيصلون باستمرار للتعزية. وبين الفينة والفينة يُقدَّم طبق فيه مأكولات مالحة، قد تكون شطائر من الجبن أو قديد الخنزير أو المارتاديلا أو أشياء أخرى بسيطة حيث يكفي استهلاكها ويفيض احتراماً للمتوفى.

وإذا كانت السّهرة تضم أناساً من الطبقة الراقية، عندئذٍ يقَدّم فناجين كبيرة من الشوكولاتة السَّاخنة عند منتصف الليل، أو مرقة الدجاج السمين. وتُستكمل هذه الخدمة بأقراص من قديد السمك وأطعمة مقليّة وبسكويت من اللوز المطبوخ بشكل عام، إضافة إلى حلوى متنوّعة وفاكهة مجففة.

وفي حال كان صاحب المنزل ثرياً، يُقدم - علاوة على القهوة - مجرد كأس من الجعة أو النبيذ، لمرافقة فخذ الدجاج والأطعمة المقليّة، ولا تقدّم الشّامبانيا أبداً، إذ لا تعتبر حسنة الوقع.

وسواء أكان السَّاهر على المتوفى ثرياً أم فقيراً، فالأمر يتطلب بلا شكّ أيضاً تقديم الكاشاسا الجيدة. يمكن ألّا يقدم أي شيء، حتى القهوة، فالكاشاسا فقط لا يمكن الاستغناء عنها. فمن دون النشاط الذي تولده لن يكون للسهرة أي قيمة؛ فسهرة جنائزية من دون مشروب هي تقليل لاعتبار المتوفي، وهذا يعني بعضاً من اللامبالاة والقسوة.

* * *

1

مات فادينيو زوج الدونا فلور الأول صباح يوم أحد من أيام الكرنفال، بينما كان يرقص السامبا في إحدى الحلقات، مرتدياً ملابس امرأة باهيّانية، في ساحة «الثاني من تموز/ يوليو» غير البعيدة عن منزله. لم يكن واحداً من المجموعة، إنما كان قد انضم تواً إليها برفقة أربعة آخرين من أصدقائه كانوا يرتدون جميعاً ملابس باهيّانيّة وخارجين من حانة في كابيسا حيث شربوا الويسكي بغزارة على حساب شخص يدعى مويزيس آلفيس، وهو ثريّ ماجن صاحب مزرعة للكاكاو.

كانت الحلقة ترافق أوركسترا صغيرة منسجمة بالقيثارات والمزامير، وعلى الكافاكينيو كارلينيوس ماسكارينياس، وهو أعجف مشهور في بيوت العازبين، آه! كافاكينيو، يا إلهي! ارتدى الشباب ملابس الغجر، في حين ارتدت الفتيات ملابس الفلاحات الهنغاريات أو الرومانيات؛ لكن لا الهنغاريات ولا الرومانيات أو حتى البلغاريات والسلوڤاكيات تمايلن يوماً كما يتمايل هولاء الخلاسيات المزهوات بزهرة عمرهن.

تقدم فادينيو الذي كان الأكثر حيوية بين الجميع، إذ رأى الحلقة تتكون في الناصية وسمع عزف ماسكارينياس على الكافاكينيو السامي، تقدّم مسرعاً، وانتصب أمام الرومانية الضخمة كتمثال أو ككنيسة – كنيسة سان فرانسيسكو، إذ كانت مغطاة بدالية من القماش الموشى بخيوط ذهبية – وأعلن:

– ها أنذا أمضي، ياروسيتي من تورورو...

وراح الغجري ماسكارينياس أيضاً، الذي ينفق ماله على فصوص زجاجية وقطعٍ صغيرة من البلّور اللامع، وملاقط معدنية تتدلّى من أذنيه، يعزف بشدّة على الكافاكينيو، وأنّت المزامير والقيثارات، فانخرط فادينيو في السامبا بحماسته النموذجية التي تميز كل ما كان يفعله – باستثناء العمل. وكان يدور وسط الحلقة، ويخبط بحذائه أمام الخلاسيّة، ويتقدّم نحوها محرِّكاً ذراعيه كمن

يمتشق حربةً ويضرب على بطنه، عندما أطلق، فجأةً، شخرة صمّاء، وترنّح على قدميه، ثم انحنى على جنبه وتدحرج على الأرض وهو يبصق زبداً أصفر من دون أن تستطيع تكشيرة الموت أن تطفىء كلياً الابتسامة الرّاضية للمهرج الكرنفاليّ الذي كانه دائماً.

اعتقد الأصدقاء أن السبب هو الكاشاسا وليس ويسكي صاحب المزرعة: فلن تكون أربع جرعات أو خمس قادرة على القضاء على معاقر للخمرة من درجة فادينيو؛ لكن، ربما تكون كل الكاشاسا التي تراكمت منذ العشية حتى الظهر، عندما دشنّوا الكرنفال رسمياً في حانة تريومفو في ساحة البلدية، قد صعدت إلى رأسه دفعة واحدة، وطرحته أرضاً غير لاو على شيء . لكن الخلاسية الضخمة لم تخطىء: كممرضة محترفة كانت معتادة الموت الذي كانت تواجهه يومياً في المستشفى، لكن ليس لدرجة حك بطنها واستراق النظر إليها ورقص السامبا معها. فانحنت فوق فادينيو واضعةً يدها على عنقه، فارتعشت إذ شعرت بقشعريرة في بطنها وفي عمودها الفقري.

– إنّه ميت، رباه!

وأراد آخرون أيضاً أن يلمسوا جسد الشاب، وأن يأخذوا نبضه، فرفعوا رأسه ذا الشعر الطليق الأشقر، محاولين الاستماع إلى نبضات قلبه. لم يجدوا شيئاً. لم يستطيعوا القيام بشيء. لقد غادر فادينيو إلى الأبد كرنفال باهيًا.

2

حدث ضجيج في المجموعة وفي الشارع، وتدافع في الجوار، وحالة اضطراب صعقت الكرنڤاليين – وفوق كل ذلك أن آنيتي الفضائحية ، وهي مدرّسة صغيرة رومانسية تعاني حالة هستيريا، اغتنمت الفرصة لتصاب بنوبة من نوبات فقدان الوعي والصراخ الحاد والإغماء؛ كل ذلك على شرف المدلل كارلينيوس ماسكارينياس الذي كانت الفتاة المزاجيّة التي تتوتر بسهولة، تتنهّد له، ممّا يعبر عن أنها هي نفسها ذات إحساس خارق، تنتفض كقطّة عندما يحرّك هو أصابعه على الكافاكينيو الصامت الآن، ولا فائدة منه بين يديْ الفنان، كما لو أن فادينيو قد حمل معه إلى الآخرة أنغامه الأخيرة كلها.

جاء أناس كثيرون من جميع الأنحاء، وشاع الخبر في الجوار بسرعة، ووصل حتى سان بيدرو وإلى جادة سيتي(سبعة) وإلى كامپو غراندي، حيث اجتمع الفضوليون. وتجمع حول الجثمان عدد صغير من الأفراد كانوا يعلقون على ما جرى. واستُدعي طبيب مقيم في سودريه، وانتزع شرطي المرور صفّارته وراح يصفر بلا توقف، كأنه يبلغ المدينة كلها والكرنفال بأجمعه عن نهاية فادينيو.

– لأن هذا هو فادينيو، مسكين! علق شخص مقنع. كان الكلّ يعرف الميت وشعبيته الواسعة، بفرحه الصارخ، وبشاربيه الرفيعين المقصوصين، وبشقاوته المحببة خصوصاً في الأماكن التي كان يعاقر فيها الخمرة ويلعب القمار وتقام الحفلات الصاخبة؛ وهناك في المحيط القريب جداً من مسكنه، لم يكن ثمة من لا يعرف هويّته.

ثمة مقنّع آخر، يرتدي ملابس من نسيج القنّب ومغطى برأس دب كبير، اخترق الجمع المغلق، وتمكّن من الاقتراب والمشاهدة. انتزع القناع فبدا وجهه المتكدر وشارباه المتدليان ورأسه الأصلع، وهمس:

– فادينيو، صديقي، ما الذي فعلوه بك؟

«ماذا جرى له، ممَّ مات؟»، كانوا يُسائلون بعضهم بعضاً، فأجاب أحدهم:

–إنها الكاشاسا، وذلك أسهل إيضاح لموت غير متوقع أبداً. ثم توقّفت أيضاً امرأة عجوز مقوّسة الظهر، وألقت نظرة على الميت وقالت بأسف:

– لا يزال فتياً جدّاً. فلِمَ مات هذا الفتى؟

أسئلة وأجوبة كانت تتقاطع، فيما الطبيب يضع أذنه على صدر فادينيو، ليتأكد نهائياً لكن بدون جدوى.

«كان يرقص السّامبا. بحيوية متدفقة، وسقط، من دون إنذار، على جنبه ميتاً» – فسّر أحد الأصدقاء الأربعة وقد طارت الكاشاسا من رأسه تماماً وصار، فجأة، معتدلاً في تناول الكحول،

وبدا متأثراً وشبه مرتبك في ملابسه النسائية ذات الزي الباهيّاني، ووجنتيه الحمراوين القانيتين، وبشرته الغائرة حول العينين السوداوين، وتحتهما ندوب بقشرة محروقة.

إن كونهم متنكرين بملابس نساء باهيّانيات، يجب ألَّا يدفعنا إلى إساءة الظّنّ بالفتيان الخمسة، فجميعهم ذوو رجولة معترف بها ومجربة. لقد ارتدوا ملابس النساء الباهيّانيات ليلفتوا النظر بشكل أفضل، ومن أجل التمثيل الهزليّ، وعبث الأولاد، وليس لميول أنثويّة، أوشبهات مستهجنة. لم يكن بينهم أي منحرف، ليباركهم الله! فادينيو بشكل خاص، كان يربط تحت الغلالة البيضاء المنشّاة، جذراً كبير الحجم من المانديوكا، وفي كل خطوة يرفع التّنورة ويعرض ذلك النصب غير العاديّ الماجن جاعلاً النساء يخفين وجوههن بأيديهن، وكذلك ضحكهن، بحياء وخبث. والآن يتدلّى الجذر مهملاً على أعلى الفخذ مكشوفاً عاجزاً عن إضحاك أي كان. تقدّم أحد الأصدقاء وحلّ حزام فادينيو. لكن ذلك لم يجعل الميت لائقاً ومتواضعاً، فهو أحد موتى الكرنفال، ولا يوجد أي أثر لا لرصاصة ولا لجرح ولا لطعنة سكين تُسيل الدم على صدره، الأمر الذي أنقذ هيئته التنكرية.

وصلت الدونا فلور برفقة الدونا نورما التي تقدمتها لشقّ طريق لها، في الوقت نفسه الذي وصلت فيه الشرطة على وجه التقريب. وعندما ظهرت في أول الساحة، محاطة بأذرع العرّابات المتضامنات معها، توقع الجميع بأنها الأرملة، إذ كانت تنتحب وتئنّ من دون أن تحاول السيطرة على غصّاتها وتفجعاتها. هذا إضافة إلى أنها كانت ترتدي فستاناً قديماً تستخدمه عند القيام بأعمال المنزل، وكانت تنتعل خفّين رديئين وشعرها غير مُسرَّح. وحتى وهي على هذه الحال، كانت جميلة مبهجة للنظر: صغيرة ممتلئة الجسم، بدينة بلا شحم، لونها برونزي كأهل الرأس الأخضر وشعرها الأملس شديد السواد بحيث يبدو ضارباً إلى الزّرقة، وعيناها متملقتان وشفتاها غليظتان منفرجتان قليلاً فوق أسنان ناصعة البياض. بدت شهوانية كما اعتاد فادينيو نفسه أن يصنّفها في أوقات مداعبته لها التي ربما كانت نادرة لكنها لا تُنسى. ومن يدري! ربّما بسبب نشاطاتها في الطَّهي كان أثناء غرامياتهما يقول لها «يا أقراص الذرّة الخضراء» يا «سمكتي العطرة»، يا فرختي السَّمينة وغيرها من التشبيهات المستوحاة من الطعام التي كانت تعطي فكرة عن سحر حسّي وطبيعي ما للدونا فلور خفي تحت طبيعة هادئة لطيفة. كان فادينيو يعرف نقاط ضعفها ويعرّضها للشمس، خوف المنضبط الخائف ذاك، وتلك الرغبة الخجولة التي كانت تتحول إلى عنف وحتى إلى شبق

ينطلق في السرير. فعندما يكون فادينيو جاهزاً لا يعود هناك من هو أكثر فتنة منه، وتعجز أي امرأة عن مقاومته. فالدونا فلور لم تستطع يوماً أن تقاوم سحره حتى عندما كانت ترغب بذلك بدافع السّخط والغضب المستجدين. لأنه في مناسبات عديدة بلغ بها الأمر أن تكرهه وتلعن اليوم الذي ربطت فيه مصيرها بهذا الرجل البوهيميّ.

بيد أنها – وهي فريسة للقلق بسبب موت فادينيو الذي أتى في غير أوانه، كانت الدونا فلور تسير وهي في حالة من الضياع، لا تتذكر شيئاً، حتى لحظات اللطافة العميقة، ناهيك عن أيام الكرب والوحدة القاسية، كما لو أن الزوج بعد مماته أصبح خالياً من جميع نقائصه، أو كأنه لم يكن لديه يوماً أي منها خلال مروره القصير في وادي الدموع هذا، كما قال المدرّس المحترم إيبامينونداس سوزا بينتو المتأثر والمضطرب، محاولاً توجيه التحية إلى الأرملة وتقديم تعازيه لها حتى قبل أن تصل إلى جثة زوجها. ولكنّ الدونا جيزا – وهي أيضاً مدرّسة، وإلى حدٍّ معيّن محترمة أيضاً – احتوت تسرّع الزميل وهي ممسكة نفسها عن الضحك. فإذا كان مرور فادينيو في الحياة سريعاً في الواقع – إذ أكمل بالكاد سنته الإحدى والثلاثين–، فالمؤكد أن الدنيا لم تكن بالنسبة إليه وادياً للدُموع، وهذا ما تعرفه الدُونا جيزا جيداً، وإنما سلسلة من المهازل والمزايدات والأكاذيب والخطايا. بعضها كان مؤلماً ومربكاً بلا شك، عرّض قلبه لتجارب قاسية، ولأحزان ولنوبات من الفزع: ديون مستحقة، وسندات للحسم، رهانات للتنفيذ، التزامات مأخوذة، مُهل غير قابلة للتأجيل، تهديدات بالإفلاس، دوائر كُتّاب العدل، مصارف ومتلاعبون بالبورصة، أشخاص مقيّدون بكلّ ذلك، وأصدقاء يختبئ منهم، ناهيك عن العذاب البدنيّ والنفسي الذي تعانيه الدونا فلور. فإذا كان للدونا جيزا أن تقول ببرتغاليتها التي تنطقها بصعوبة – فقد كانت بشكل مبهم أميركيةً شماليةً تجنست، وتشعر أنها برازيلية لكنها لم تستطع أن تتقن تلك اللغة – إذا كان ثمة دموع في مسيرة فادينيو الحياتيّة القصيرة فلا شكّ في أن من ذرفتها هي الدونا فلور، وكانت دموعاً غزيرة فاضت عن الزوجين.

أمام مثل هذا الموت المفاجئ، لم تفكر الدونا جيزا في فادينيو إلا بأسف: فقد كان يبدو لها لطيفاً، بالرغم من كل شيء، يتمتع بجانب محبب وآسر. لكن هذا لم يكن سبباً، فليس لأنه كان موجوداً هناك ، في ساحة «الثاني من تموز/ يوليو» ميتاً، ممدداً في الشارع، متنكراً بزي امرأة

باهيّانية، سوف تقوم بتطهيره من خطاياه وتشويه الواقع وتخترع فادينيو آخر دفعة واحدة. هكذا شرحت الأمر للدونا نورما، جارتها وصديقتها الحميمة، لكنها لم تلق من شريكتها الدعم المتوقع؛ فغالباً ما قامت هذه الأخيرة بتوجيه إهانات لا عدَّ لها إلى فادينيو، وكم تشاجرت معه ملقيةً عليه عظات احتفالية، حتى بلغ بها الأمر أن هددته يوماً بالشرطة. لكن في تلك الساعة الأخيرة المحزنة لم تكن تشعر برغبة في التعليق على الجوانب السيئة للمتوفى مكتفية بإظهار جوانبه الحسنة ولطفه الطبيعي وتضامنه مع الآخرين ووفائه لأصدقائه وسخائه الذي لا نقاش فيه (خصوصاً إذا كان يمارسه بنقود الآخرين)، إضافةً إلى حبه الجامح للعيش. وبكلمات أخرى كانت جدّ منهمكة في مرافقة الدونا فلور ومساعدتها بحيث لم تُصْغِ للدونا جيزا وحقيقتها القاسية. فهكذا كانت الدونا جيزا: الحقيقة عندها فوق كل شيء، إلى حد يجعلها تبدو أحياناً قاسيةً ومتشبثة بموقفها. ربما هو موقف دفاعي ضد صدقها، إذ إنها كانت ساذجة حتى العبث وتثق بجميع الناس. لا لم تتذكر مساوئ فادينيو لتنتقده أو لتدينه. فقد كانت تحبه وكم من مرة استغرقا في نقاشات طويلة ومستفيضة: كانت الدونا جيزا تهتم باكتشاف سيكولوجية العالم الموبوء بالرذيلة والجريمة الذي ترعرع فيه فادينيو، وكان هو يروي لها الحكايات مسترقاً النظر من فتحة الثوب إلى تكوين نهديها المنتصبين المنقطين بالنمش. قد تكون الدونا جيزا فهمته أفضل مما فهمته الدونا نورما، لكنها، خلافاً للأخرى، لم تكن تغفر له أياً من نواقصه، وهي لن تكذب لأنه مات. فلم تكن الدونا جيزا تكذب على نفسها إلا عندما يكون لا بد من ذلك. والحال لم يكن كذلك بشكل واضح.

سارت الدونا فلور بين الناس في أثر الدونا نورما التي كانت تشق طريقاً بمرفقيها وبشعبيتها الواسعة:

– أفسحوا الطريق، من فضلكم، ودعوا المسكينة تمرّ...

كان فادينيو في وسط الطريق المرصوف ببلاط متوازي الأضلاع، تعلو فمه ابتسامة، أبيض وأشقر، مفعماً بالسلام والبراءة. ظلّت الدونا فلور متوقفة لحظةً، تتأمله كأنها تأخرت في التعرّف إلى زوجها، أو ربما، وهو الأرجح كي تتقبّل واقع موته، والذي لم يعد يحتمل النقاش الآن. لكن توقفها لم يستمر إلا لحظةً واحدة فقط. فبصرخة منسلخة من أعماق أحشائها، رمَت نفسها على

فادينيو، وتشبثت بجثته الهامدة، تقبّل شعره ووجهه المصبوغ بالأحمر القاني والعينين المفتوحتين والشاربين الجريئين والشفتين الميتتين... الميتتين إلى الأبد.

3

كان يوم أحد من أيام الكرنفال. فمن لم يكن لديه في تلك الليلة عرض السيارات، أو حفلة يلهو فيها، أو برنامج حتى الفجر؟ حسناً! على الرغم من كل هذا، كانت سهرة فادينيو نجاحاً كبيراً. «نجاح حقيقي»، كما أكّدت الدونا نورما معلنةً ذلك باعتزاز.

وضع رجال سيارة دفن الموتى الجثّة فوق السرير في غرفة النوم، وبعد ذلك نقلها الجيران إلى القاعة. كان أفراد دفن الموتى في عجلة من أمرهم: فقد تزايد عملهم في الكرنفال. وبينما كان الآخرون يلهون، كانوا هم يهتمون بالموتى وبضحايا الكوارث والمشاجرات. انتزعوا الملاءة المتّسخة التي كانت تلفّ الجثمان وسلّموا الأرملة وثيقة الوفاة.

بات فادينيو عارياً كما خلقه الله على السرير الزوجي، وهو سرير حديدي له رأس وقوائم محفورة ابتاعته الدونا فلور مستعملاً، في مزاد علنيّ للمفروشات قبل زواجها بست سنوات. وجدت الدونا فلور نفسها وحيدة في الغرفة، ففتحت المغلّف ودرست آراء الأطباء، وهزّت رأسها غير مصدِّقة. من كان ليتنبّأ بذلك؟ فقد كان يبدو قوياً جداً وصحيح الجسم، وما زال فتيّاً جداً!

كان فادينيو يتبجح بأنه لم يتعرض قطّ للمرض وبقدرته على البقاء ثمانية أيام من دون أن ينام: يلعب القمار ويعاقر الخمرة أو يضاجع النساء. ألم يكن أحياناً يغيب ثمانية أيام عن المنزل تاركاً الدونا فلور وحيدة كالمجنونة؟ مع هذا، فها هو تقرير الأطباء يقول بأنه كان رجلاً محكوماً عليه بالموت. فكبده لا فائدة منه، والكليتان تالفتان والقلب منهك. كان سيموت في أي لحظة، وكيف مات؟ هكذا فجأة. إن الكاشاسا والليالي التي قضاها في الكازينوهات والعربدة والسعي المجنون وراء المال من أجل لعب القمار، كل ذلك قد حطّم ذلك الجهاز الجميل والقوي والذي لم يبق منه سوى مظهره. أجل، فمن كان يقول بأنه محكوم عليه بالموت هكذا؟

تأملت الدونا فلور جسد زوجها طويلاً، قبل أن تستدعي الجيران المتطوّعين للمساعدة وقد نفد صبرهم بانتظار المهمة الدقيقة ألا وهي إلباس الميت ثيابه. وهناك كان، عارياً كما كان يجب أن يبقى في السرير، ووبر أشقر يغطي ذراعيه وساقيه وغبة من الشعر الأشقر على صدره وعلى الكتف اليسرى ندوب من طعنات سكين. كم كان جميلاً، وكم كان فحلاً خبيراً باللذة! ومرة أخرى ترقرقت الدموع في عينيّ الأرملة الشابة. حاولت ألا تفكر في ذكرياتها معه، إذ إنه لم يكن لائقاً أن تفكّر هكذا يوم السهرة الجنائزية.

لكنها عندما شاهدته على هذا النحو ملقى فوق السرير، عارياً تماماً، لم تستطع رغم ما بذلته من جهد إلا أن تتذكر كيف كان في نشوة الذروة الجنسية: لم يكن يحتمل وجود أي قطعة ملابس على جسديهما حتى ولا ملاءة خجولة تغطيهما؛ وكان حينما يشدها إلى السرير، يقول لها: «هيّا نمارس الجنس يا جميلتي!» كانت ممارسة الحب بالنسبة إليه عيد فرح وحرية غير متناهية ينخرط فيه بحماسته المعهودة وبمهارة مشهود لها من عدد لا يحصى من النساء اللواتي ينتمين إلى طبقات وفئات مختلفة. كانت الدونا فلور في الفترة الأولى من زواجهما تخجل وترتبك عندما يصرّ بأن تتعرى له تماماً، ويقول:

– أين رأيت من يمارس الحب بقميص النوم؟ فلِمَ تختبئين؟ إن الحب هو امر مقدس، اخترعه الله في الجنة، ألا تعرفين ذلك؟

لم يكن ليكتفي بتجريدها من ملابسها تماماً معتبراً ذلك غير كاف، بل كان يلمسها ويداعب تفاصيل جسدها بانحناءاته العريضة وثنياته العميقة حيث يتقاطع الظل والضوء في لعبة من الألغاز. كانت تحاول أن تغطي نفسها، فكان فادينيو ينتزع عنها الملاءة وهو يضحك، فيكتشف نهديها الصّلبيْن وفخذيها الرائعين وبطنها العاري تقريباً من الوبر. كانت بالنسبة إليه، لعبةً أو بُرعمَ وردةٍ مطبقاً يتفتح له كل ليلة من ليالي اللذّة. وبدأت شيئاً فشيئاً تفقد خجلها مستسلمة لذلك العيد الشهواني المتزايد عنفاً، وتحوّلت إلى عشيقة لا تعرف الخوف . لكنها لم تفقد الحشمة كلياً، وحافظت دائماً على نوع من الانزعاج. فكان عليها ان تستعيدها كل مرة لأنها ما كانت تستيقظ من تلك الأفعال الجريئة المجنونة ومن تأوهات النشوة حتى تعود تلك الزوجة الخجولة المحتشمة.

في تلك اللحظة، وهي وحيدة أمام موت فادينيو، أدركت الدونا فلور أنها أصبحت أرملة، وأنها لن تحظى به بعد الآن، ولن يغمى عليها مرَّة أخرى بين ذراعيه. لأنه منذ لحظة النبأ الفاجع المنتقِل من فم إلى فم حتى وصول سيارة دفن الموتى، في نهاية فترة ما بعد الظهر، عاشت أستاذة الطبخ ما يشبه الكابوس المثير: صدمة النبأ والسير مغرورقة الدموع إلى ساحة «الثاني من تموز/ يوليو» ورؤية الجثمان والحشد المحيط به واهتمامه بها وتضامنه وتعزيتها، ثم العودة إلى المنزل محمولةً تقريباً على أيدي الدونا نورما والدونا جيزا والمدرّس إيبامينونداس والأسباني مينديز صاحب الحانة. جرى كل ذلك بسرعة وغموض لم يترك لها وقتاً للتفكير واستيعاب موت فادينيو.

حُمل الجثمان من الساحة إلى المشرحة، لكن حتى في هذه الأثناء لم يتسنَّ لها لحظة هدوءٍ واحدة. فقد تحول فجأة مركزاً للحياة ليس في شارعها فقط وإنما أيضاً في جميع الشوارع المؤدية إليه، وذلك يومَ أحد من أيام الكرنفال. وإلى أن عادوا به ملفوفاً بملاءة عارياً وملابس المرأة الباهيانية في صرَّة صغيرة ملوّنة، لم تتوقف الدونا فلور عن تلقي التعازي، وعرابين الصّداقة وكلمات اللّطافة، في موكب متواصل من الجيران والمعارف والأصدقاء. أما الدونا نورما والدونا جيزا فقد تركتا أعمالهما المعتادة في منزليهما المهمَليْن للغاية نتيجة الكرنفال، وأمرا تحضير وجبات الغداء والعشاء لأصحاب النفوس الحسنة. ولم تبتعد أي منهما عن الدونا فلور بل تنافستا على الالتصاق بها ومواساتها.

هناك في الخارج كان الكرنفال بمتنكريه، وبحلقاته وتجمعاته البشرية، وبأنماط الفانتازيا الثرية المسلية، يضجّ بموسيقى الأوركسترات المتعددة حيث الطبول الضخمة، والحلقات، والتجمعات، والصاخبون بطبولهم الصغيرة، والاتاباكي. ومن حين إلى آخر، كانت الدونا نورما تسارع إلى النافذة، تحني رأسها لتلقي نظرة، وتتبادل نِكاتاً مع أحد المتنكرين من معارفها، وتنقل خبر موت فادينيو، وتصفق لتنكر متميز أو لمجموعة ناجحة. وكانت تنادي أحياناً الدونا جيزا إذا ما ظهر تجمع حيوي مميّز في زاوية الشارع، وعندما دخل الصّاخبون من «أبناء البحر» الشَّارع بأشكالهم التي لا تُنسى، بمواكبة جمع كبير يرقص السامبا، اقتربت الدونا فلور نفسها من النافذة، حابسة دموعها بألم، وراحت تراقب المجموعة التي تكلمت عنها جميع الصحف، وهي أجمل ما في

الكرنفال الباهيّاني. شاهدتهم من دون أن تظهر لهم، مختبئة وراء كتفيْ الدونا جيزا العريضتين. أما الدونا نورما فقد صفّقت بحماسة متناسية الموت والآداب.

هكذا استمر الوضع طوال النهار. حتى الدونا نانسي، الأرجنتينية الحذرة والمتعالية التي تسكن في الشارع منذ فترة، المتزوجة بصاحب مصنع للسيراميك، بيرنابو الغامض، التي نزلت من منزلها الفخم المكوّن من طبقتين، ومن عليائها لتقدّم تعازيها وعزاءها للدونا فلور، بدت لطيفةً ومثقفة بتبادلها مع الدونا جيزا تعليقات فلسفية حول قصر الحياة وعدم ضمانتها.

لم يتسنَّ للدونا فلور الوقت للتفكير في حالتها المستجدّة وفي التحولات التي طرأت على حياتها. فقط عندما أحضروا فادينيو من المشرحة ووضعوه عارياً في سرير الزوجية حيث مارسا الحب مرّات عديدة، عندها، وعندها فقط، وجدت نفسها وحيدة وجهاً لوجه مع موت زوجها، فأحسّت بأنها أرملة، وأدركت أنه لن يعود أبداً ليلقيها على السرير الحديدي، منتزعاً ثوبها وغلالتها وما تبقى من ثيابها الداخلية طارحاً الملاءة، على طاولة زينتها، ليأخذها بكل تفاصيل جسدها، دافعاً إياها إلى هذيان محموم.

«أوّاه! لن يحدث ذلك أبداً بعد الآن»، فكّرت الدونا فلور وأحست بغصة في حنجرتها ورجفة في ساقيها، وأدركت آنئذٍ أن كل شيء قد انتهى. بقيت واقفة هناك، بلا كلام وبلا دموع، مجرّدة من أي انفعال، بعيدة عن كل تمثيل يحيط بالموت. وحدها هي والجثة العارية، وحدها هي والغياب النهائي لفادينيو، لن تنتظره بعد اليوم عند الفجر، ولن تخفي عن نظره المال الذي تدفعه التلميذات، ولن تراقب علاقاته مع النساء الأجمل منها، ولن ينالها بالضّرب أيام الكاشاسا والمزاج السيِّىء ولن تسمع تعليقات الجيران الخبيثة، كما أنها لن تتقلّب معه على السرير، مستسلمة بكليّتها لرغبته، مجردة من ثيابها ومتخلية عن حشمتها من أجل حفلة حبّ، الحفلة التي لا تُنْسَى. الغصة في حنجرتها تخنقها؛ وألم في الصدر حاد كطعنة سكين.

– فلور، ألم يحن وقت إلباسه ثيابه؟ (دوى صوت الدونا نورما ورجع صداه في الغرفة آتياً من القاعة.) سوف تبدأ الزيارات...

فتحت الأرملة الباب وكانت الآن هادئة صامتة، بدون نحيب ولا تأوهات، باردة ووقورة. ودخل الجيران لمدّ يد المساعدة. ثم جاء السيد فيفالدو من محل «الفردوس المزهر» لدفن الموتى شخصياً ليسلّم النعش الرخيص الذي أجرى عليه حسماً هاماً، إذ كان رفيق فادينيو على طاولات الروليت والبكارا وساهم بفعالية وبخبرة في تحويل البوهيمي إلى ميتٍ محترم. كانت الدونا فلور تراقب ما يجري من دون أن تنطق بكلمة، ومن دون أن تذرف الدموع. لقد أصبحت وحيدة في الدنيا.

014

وضعوا جثة فادينيو في النعش، ونقلوه إلى قاعة الزوّار حيث أَعدت منصّة محاطة ببعض الكراسي. ووصل السيد فيفالدو حاملاً باقة من الزهور، كمساهمة مجانيّة من محل دفن الموتى. وتدبّرت الدونا جيزا وضع زهرة لونها بنفسجي ضارب إلى الحمرة، بين أصابع فادينيو المتشابكة. أما فيفالدو فقد اعتبر ذلك تصرفاً عبثياً، إذ كان يجدر بهم أن يضعوا بين أصابع الميت «فيشة» قمار، أجل «فيشة» بدلاً من زهرة لونها بنفسجي ضارب إلى الحمرة. وبدلاً من أن يضعوه في مكان يضجّ بموسيقى الكرنفال وضحكاته، كان عليهم أن يضعوه قرب ضجيج طاولات الروليت وصوت مساعد مدير اللعب الأبحّ قليلاً ورنين الفيش والصراخ العصبي للاعبين، فلربما كان فادينيو سينهض من النعش، وينفضُ عنه غبار الموت، كما كان ينفض عنه التعقيدات التي تلاحقه بحركة كاريكاتورية يهزّ بها كتفيه ثم يمشي ليضع فيشة على الرقم 17، رقمه المفضل. ماذا تنفعه الزهرة ذات اللون البنفسجي الضارب إلى الحمرة؟ فسرعان ما ستذبل وتموت، ناهيك عن أن أي طاولة روليت لن تقبلها.

لم يتأخر السيد فيفالدو عن الحضور. وهو الشغوف بالكرنفال لم يكن ليفتح محل دفن الموتى يوم أحد من أيام الكرنفال، إلا لأن الأمر يتعلق بصديق مثل فادينيو. فلو كان المتوفى شخصاً آخر، لكان عليه أن يتدبّر الأمر بنفسه.، ولما كان فيفالدو ليقطع كرنفاله.

كان ثمة صفوف طويلة من الناس في السهرة الجنائزية. وقد جاء بعضهم لأن فادينيو كان يتحدّر من عائلة فقيرة وهوهجين من عائلة مهمة، آل غيمارايس. كان أحد أجداده عضواً في

مجلس شيوخ دولة باهيا وسياسياً بارزاً. وقد تبوأ أحد أعمامه المُلقّب بسثيمبو، مركز المفوض المساعد لعدة شهر. هذ العم، أحد أفراد آل غيمارايس النادرين الذين اعترفوا بفادينيو كقريب شرعي، وهو الذي دبّر له وظيفة مفتش حدائق في البلدية، مركز وضيع للغاية بمرتب بائس لا يكفي حتى ليلة احتفالية واحدة في التاباريس. لا حاجة للإشارة هنا إلى إهمال الموظف البلدي الشاب: ففادينيو لم يفتش يوماً حديقة من أي نوع كان، ولم يأت مرة إلى الدائرة إلا ليتسلّم المرتبات الشهرية الهزيلة ذات القطع النقدية الصغيرة، أو ليطلب كفالة مستحيلة من رئيسه، أو ليستدين من زملائه عشرين أو خمسين ألف كروزيرو. وما كانت الحدائق تهمّه، ولم يكن لديه وقت يضيّعه مع الأغراس والزهور، ويمكن لحدائق المدينة كلها أن تختفي دون أن تؤثر عليه بشيء. فهو طائر ليلي، مكانه الطبيعي طاولات القمار، وأزهاره كما كان يعتبر السيد فيفالدو، الفيش وورق اللعب.

الذين قدموا بتأثير من اسم غيمارايس يُعَدّون على الأصابع وهم أقارب مبهمون على عجلة من أمرهم. وجميع الآخرين، ذلك الصف الذي لا يعد، جاؤوا ليودعوا فادينيو، ليتفرّسوا مرّة أخرى في وجهه، ويبتسموا له في ذكرى مفرحة، ويقولون له وداعاً. كانوا يحبونه، لذا كانوا يجدون له أعذاراً لتصرفاته الجنونية ويقدّرون الجانب الطيب فيه.

أحد الذين جاؤوا لرؤيته وقد كان يرتدي بزة رسمية للسهرة لأنه كان عليه أن يصطحب بناته، ثلاث فتيات رائعات، إلى الحفل الراقص في نادٍ كبير، كان القائد سيليستينو، البرتغالي المولد، وصاحب مصرف ومصدّر. لم يكن الأمر أكثر من مهمَّة يقوم بها، كمن يؤدي التزاماً مملاً. بقي في الغرفة يتحدث، متذكراً إنجازات فادينيو، بعد أن احتضن الدونا فلور وقدم لها تعازيه. فمن أين جاء تقديره لموظف البلدية الصغير، لبوهيميّ الكباريهات من الدرجة الثانية، لمقامر يلاحقه القضاء باستمرار؟

كان فادينيو عذب اللسان، فقد انتزع ذات يوم توقيع البرتغالي الثري على سندات كل منها بقيمة مئات الألوف من الريالات. ولم ينسَ الدفع، لأنه لم يكن ينسى قطّ مواعيد استحقاق السندات المختلفة التي يوقعها والموزعة في المصارف وفي أيدي المضاربين بالأوراق المالية؛ لكنّه لم يستطع

دفع المبالغ المختلفة. فهو على وجه العموم لم يكن يستطيع الدفع أبداً، ولم يكن يدفع؛ إلا أن عدد السندات كان يتزايد كل يوم، ويتزايد عدد الضامنين الاحتياطيين. فكيف كان يحدث ذلك؟

لم يكرر سيلستينو ضمانته. فهو لا يقع مرتين في الكمين نفسه. ومع هذا، كان يلقي إليه بعض القطع النقدية من فئة المائة والمائتين وحتى الخمسمائة ألف ريس حينما يظهر فادينيو أمامه يائساً، بلا فلس وبقناعة أنه سيفجر المصرف في ذاك اليوم. كان ثمة آخرون يضمنونه، مرتين أو ثلاثاً، كما لو أن فادينيو مسدِّد مستقيم، صاحب أفضل سجلٍ مصرفيٍّ بالممتلكات. الجميع مقتنعون بحذاقته، وبقصصه الدرامية المقنعة.

زيه سامبايو، زوج الدونا نورما بالذات، الذي أنشأ محلاً لبيع الأحذية في «المدينة الواطئة» وهو شخص، نادراً ما يخوض في الأحاديث، عنيد لم يعتد الزيارات ولا العلاقات الحميمة مع الجيران، على عكس زوجته، حتى هو قد أوقع به فادينيو عدة مرّات، ورغم ذلك لم يقلل من تقديره له ولا ألغى الاعتماد الذي منحه إياه في المتجر.

حتى عندما اكتشف الحيلة التي لا تصدّق: اشترى فادينيو ذات صباح بالدين من منشآته عدة أزواج من الأحذية الجيدة والأغلى ثمناً وباعها فوراً من جديد، تحت أبصار موظفي سامبايو الوجلة، وبسعر أدنى، إلى متجر منافس حديث الإنشاء في الجوار. إعادة البيع والمال النقدي– كان يتعلق بفادينيو المحتاج بشدة للنقود ليلعب القمار.

أخذ التاجر في عين الاعتبار، مقدراً مسؤوليات المحتال، أسباباً تخفيفية تفسر الخطوة الخاطئة وتعذر صاحبها.

وفادينيو المرح واللامبالي، الذي أخبره في اليوم نفسه، أنه قد حلم طوال الليل بالدونا جيزا المتحوِّلة إلى نعامة وهي تطارده في بريّة لا نهاية لها، ولم يكن يدري بالضبط ما إذا كان في نيتها اللهو معه في المراعي الخضراء – كانت نعامة أنثى في عينيها يلمع ضوء مخادع – أو بنيَّتها التهامه وهي تنقده وتطارده بمنقارها، الهائل المفتوح الذي يهدّده. وقد استيقظ منزعجاً، فطرد الحلم وحاول النوم مفكراً في شؤون أبهج، وهناك عادت المدرّسة نفسها تجري خلفه بعينيها الداعرتين

ومنقارها العدوانيّ. لو أن الدونا جيزا ظهرت في قامتها اليومية من لحم ودم، لما هرب فادينيو، وإنما لواجه المغامرة واستولى على تلك المرأة حالاً، وأوقع بها بنبرته الأميركية ومعارفه في علم النفس. لكن، بما أنها كانت مكتسية بالريش، متحوّلة إلى نعامةٍ ضخمة الجسم، لم يعد أمامه سوى خيار واحد: الانسحاب غير المخجل. وتكرر الكابوس أربع أو خمس مرات، وفي الصباح استيقظ تعباً لكثرة الركض، مغمساً بالعرق، لا يملك فلساً واحداً لكن توقعاته بالكسب كانت متفائلة. ففتش المنزل جيداً. كانت الدونا فلور مفلسة أيضاً. فقد سبق وأخذ منها في العشية حتى قطع النقد الصغيرة. خرج بأمل الاستدانة من بعض الأصدقاء، فبدت له العملية غير مجدية. وقد استنفذ كل رصيده القليل. وبينما كان مارّاً أمام «محل ستيلا»، متجر زيه سامبايو المجهَّز جيداً، خطرت له الفكرة الساطعة والمسلِّية بأن يكرِّس نفسه لفترة قصيرة للتجارة بالأحذية، وهي الوسيلة الوحيدة للحصول بسرعة على بعض النقود.

لو لم يقم بتلك العملية التجارية، غير الشريفة والكارثيَّة ظاهرياً، ولكنها في الواقع سامية ومربحة، لما غفر لنفسه أبداً، لأن النعامة ظهرت في لعبة البيشو – الدونا جيزا التي لم تكن تكذب حتى ولا في الأحلام – وربح فادينيو مبلغاً كبيراً من المال، فذهب على الفور، وهو شاكر ومحترم، ليقابل زيه سامبايو في المحل، وأمام الموظفين المندهشين، دفع له قيمة البضاعة المشتراة في الصباح، وعلق مازحاً على الإنجاز العبقري ودعاه إلى كأس للمناسبة. رفض زيه سامبايو الدعوة لكنّه لم يقاطع فادينيو، واستمر في التعاطي معه وبيعه أحذية بحسم وبمُهَل للدّفع. حسم عشرة في المائة من قيمة الحساب، اعتماد محدود لقاء كل زوج من الأحذية في كل شراء لكنه فقط بعد أن يدفع الفاتورة السَّابقة.

برهان آخر أيضاً أكثر دلالة على التقدير الذي كان يكنُّهُ زي سامبايو لفادينيو، كان في حضوره السهرة الجنائزية. صحيح لدقائق قصيرة، لكنها كانت المرّة الأولى التي يحضر فيها التاجر سهرة جنائزية طوال السنوات العشر الأخيرة. كان يتملكه رعب من أي التزام اجتماعي خصوصاً من الطقوس الجنائزية والسهرات مع الأموات والمقابر وقداديس اليوم السابع، مما كان يحمل الدونا نورما على الصراخ حينما يرفض مرافقتها إلى إحدى عمليات الدّفن الأسبوعية العديدة التي تحضرها.

– عندما تموت أنت يا سامبايو، لن يكون ثمة أناس حتى ولا لحمل التابوت... وسيكون الأمر مخجلاً.

كان ينظر إليها بنظرة محذرة، ولا يجيبها، واضعاً إصبع يده اليمنى بين أسنانه، في حركةٍ خضوع مألوفة أمام اضطراب زوجته الدائم.

حضرت شخصيات هامة، مثل سيليستينو وزيه سامبايو، ومثل القريب شيمبو والمهندس المعماري شافيس والدكتور بارّيروس، وهو شخصية بارزة في القضاء، والشاعر غودو فريدو فيليو. كما حضر زملاء المكتب مجتمعين، وكان فادينيو مديناً لكل منهم بمبالغ صغيرة. على رأسهم دخل الخطيب البليغ واللامع، مدير المتنزهات والحدائق مرتدياً بذلة سوداء. ثم توافد الجيران، الأثرياء والفقراء منهم، والمُكتَفون أيضاً. وجاء جميع الذين كانوا في باهيا يترددون، في ذلك الوقت، إلى كازينوهات القمار، والكباريهات ومنصّات البيشو وبيوت البغايا – ميراندون وكورفيلو وبيه ده جيكي وفالدوميرو لينس مع أخيه الشاب ويلسون وأنا كريون وكاردوزو بيريبا وآريغو. كان البعض، مثل الدكتور جيوفاني غيمارايس الطبيب والصحافي، ينتمي إلى المجموعتين، أبناء العائلات الكبيرة والمتواضعة، والعائلات المحترمة وغير المبالية.

كان الأشخاص المرموقون يتذكّرون فادينيو بين الضحكة والأخرى وقصصه الزاخرة بقلّة الحياء والخبث، وطرائفه المسلّية، وخداعه الوقح، وارتباكاته واضطراباته، وقلبه الطيب، ولطافته، وظرفه غير المعقول. والجيران أيضاً هكذا تذكّروه؛ بوهيمياً بلا توقيت أو حدود. كان الجميع يضخّمون الواقع ويخترعون التفاصيل، ويعزون إليه حالات ومغامرات متعددة. وبدأت أسطورة فادينيو تبصر النور هناك قرب جثته، في ساعة موته بالذت تقريباً، وكان الدكتور جيوفاني غيمارايس المذكور يتخيل قطعاً كاملة من القصص، يزين بها الأحداث، وقد توصل إلى أكذوبة مدعومة جيداً بالتواريخ والأمكنة الدقيقة:

– ذات يوم، منذ أربع سنوات في شهر آذار/ مارس، التقيت فادينيو في مقهى «تريس دوكيس» يلعب ال– 17. كان يرتدي معطفاً من المطاط وعارياً من أي ثياب تحته. فقد وضع كل شيء في محل للرهونات: رهن السروال والسترة، والقميص والسروال الداخلي، ليستطيع اللعب. وكان

راميرو، ذلك الأسباني البخيل ابن السابعة والسبعين من العمر، لايريد أن يرهن سوى السروال والسترة. فماذا سيفعل بقميص ياقتهُ متهرّئة، وبسروال داخلي عتيق وبربطة عنق رثة؟ لكن فادينيو اقنعه بأخذ زوج الجوارب، محتفظاً بالحذاء فقط. ولقد كان معسول اللسان بحيث استطاع أن يجعل راميرو، ذلك الجني الذي تعرفونه، يعيره معطفاً شبه جديد، وبذلك لا يخرج عارياً إلى الشارع، في اتجاه منزل «تريس دوكيس»...

– وهل كسب يومها؟، سأل ذلك الفتى أرثور، ابن السيد سامبايو والدونا نورما، وهو طالب ثانوي معجب بفادينيو، وهو مصغ فاغر الفم لرواية الصحافي.

تطلّع الدكتور جيوفاني إلى الفتى، واتخذ وضعاً معيناً، ثم ابتسم بملء وجهه:

– أي شيء من هذا... لقد خسر عند الفجر معطف الأسباني في لعبة الـ 17 وحُمل إلى المنزل ملفوفاً بأوراق صحيفة...

تحوّل الابتسام إلى ضحك مدوٍ معدٍ، فلا أحد ينعش السهرة الجنائزية مثل الدكتور جيوفاني.

وإذ دخل في تلك اللحظة روباتو الجذل، أضاف الصحافي في البرهان النهائي على الكلمات التي ما زالت ممزوجة بالضحك:

– ها هو جاء من لا يكذبني... أما زلت تتذكر يا روباتو تلك الليلة التي رجع فيها فادينيو عارياً إلى البيت، ملفوفاً بجريدة؟

لم يكن روباتو رجلاً متردداً؛ فحدّق إلى الذين حوله، متفحصاً الجمع المستريح في إحدى زوايا غرفة العشاء؛ خائفاً من أن تسمع النساء اللواتي يفشين الأسرار، وأن تصل إلى الأرملة الحزينة مثل تلك الذكريات، لكن بالنسبة إلى التردد فهو لم يتردد، لم يكن يرفض التحديات، كان ذا بادرة سريعة، فالتقط المناسبة:

– عارٍ، تحت صحيفة؟ كيف لا أتذكّر... (سعل لكي يوضح الصوت المنمّق ويحل عقدة المخيلة) إذ إن الجريدة كانت جريدتي... وحدث ذلك في شقة أونيسي أون دينتي صو (ذو السن الواحدة) ، وبالإضافة إلينا نحن الاثنين وفادينيو، أذكر كلّاً من كارلينيوس وماسكاريتياس وجينر وفيرباتو تاناجورا... وكنا قد قضينا الليلة بطولها نحتسي الخمرة، سكرة بلا حدود...

كان روباتو هذا أحد متسكعي الليل مع فادينيو، لكنه من نوع آخر. لم يكن يحاول اللعب ولا الهروب من العمل؛ على العكس من ذلك، كان رجلاً متعدد المهارات، ومشهوراً بأنه رجل نشيط وكفوء، يصنع أطقم أسنان، ويصلح أجهزة الراديو والفونوغرافات، ويسحب نسخاً لبطاقات الهويّة، ويحسن اللعب على كل ما هو آلة، ومشحوناً بفضول حاذق. كانت طاولة الروليت خاصته الشعر، الموزون جيداً، والغني بالقوافي. والكازينو بالنسبة إليه هو الحانات والكباريهات حيث يمضي الفجر بصحبة مبهجة مع أدباء آخرين حميمين وفتيات يمارسن البغاء متعاطفات مع ربّة الشعر وعَبَدَتها، ينشدن قصائد بدائية وأغاني متحررة، وقصائد غنائية ماجنة، وصونيتات الحب. كلها من نظمه. وهو بالذات أعلن نفسه «ملك الصونيت العالمي» وضرب جميع الأرقام القياسية المعروفة، فنظم إلى ذلك التاريخ عشرين ألفاً وثمانمائة وخمسة وستين من الصونيتات تتراوح ما بين ذوات العشرة مقاطع والاثنتي عشر مقطعاً، الكبيرة منها والصغيرة، والأناسكلية. ولم يكن الصلع الذي يهدد الشعر الأسمر للشاعر، ليقلِّل من وسامته المشعة.

تناول الكلام، وراح فادينيو يعبر الغرفة مجدداً ملفوفاً بالجرائد، صورة لن ينساها الفتى أرثور أبد الدهر. سوف يذكرها إلى الأبد: ملفوفاً بأوراق جريدة «المساء»؛ فادينيو، بطل عالم ممنوع وساحر.

وتتالت القصص فيما الدونا نورما والدونا جيزا والآنسة ريجينا، وأخريات من فتيات وسيدات يقدّمن فناجين القهوة الصغيرة مع أقراص الحلوى، وكؤوس الكاشاسا وشراب الفاكهة. وقد حرص الجيران على ألا ينقص السهرة أي شيء.

كان الأشخاص الجالسون في غرفة العشاء، وفي الممشى وعند الباب المؤدي إلى الشارع يتذكرون فادينيو وسط النكات والضحك، أما شركاؤه في اللعب والاحتيال، فكانوا يتذكّرونه بصمت،

جديين متأثرين، واقفين إلى جانب الجثمان. وعند دخولهم توقفوا أمام الدونا فلور، وشدّوا على يدها، خائفين، كما لو أنهم مسؤولون عن مساوئ فادينيو. كثيرون منهم لم يكونوا يعرفونها قطّ، ولم يروها قبل ذلك، لكن لفرط ما سمعوا عنها، كانوا يعرفون كيف كان فادينيو يأخذ منها أحياناً حتى نقود النفقات ليقامر بها في البالاس والتباريس، في أباشادينيو وفي وكر زيزيه مينينجيتي وفي وكر آبيليو موكيكا، وفي ألعاب الروليت غير الشرعية في المدينة، وبخاصة في منزل طاولات القمار السيِّئ السمعة الذي يديره الزنجي باراناغوا فينتورا، حيث مدير اللعبة وحده هو الذي يجب أن يكسب.

كم هو مزعج ومخيف هذا الزنجي باراناغوا فينتورا باستدعائه المتكرّر إلى مراكز الشرطة وبلائحة الاتهامات التي لم تثبت بشكل كامل؛ فضلاً عن سمعته كلص ومغتصب نساء وقاتل. مثل أمام القضاء بتهمة اقتراف جريمة قتل لكنه أطلق سراحه لعدم توافر الشجاعة لدى المحلّفين أكثر منه لعدم توافر الأدلة. ويقولون إنه مرتكب لجريمتيْ قتل أيضاً، ناهيك عن المرأة المطعونة بالسكين في منحدر سان ميغيل في رابعة النهار، حيث طويت قضيتها من دون نتيجة. ولا يختلف إلى وكر باراناغوا إلا المحتالون ومحترفو لعب الورق الغشاشون، واللصوص، ونشالو المحفظات، وأناس ليس لديهم ما يخسرونه. حسناً؛ حتى هناك شوهد فادينيو بنقوده الهزيلة وضحكاته المرحة، وقد كان دون شك، أحد النادرين الذين استطاعوا أن يعتدّوا بأنفسهم بأنهم قد كسبوا من وقت إلى آخر في لعبة الزهرالمغشوش. وحسب ما يقول البعض كان الزنجي يسمح من آن إلى آخر لشريك معيَّن ممن يميل إليهم بأن يصيب إحدى الضربات.

لقد جاء أيضاً إلى السهرة الجنائزية تلميذات الدونا فلور، جميعهنَّ تقريباً. تلميذات وتلميذات سابقات اجتمعْنَ على الرغبة في مواساة المدرّسة المحترمة والقادرة، الطيبة جداً، المسكينة! كانت المجموعات تتجدد كل ثلاثة أشهر في دروس الطَّهي العام (في الصباح) والطَّهي الباهيّاني (في فترة ما بعد الظهر)، لكي يتخرَّجن في الفرن والموقد، ويحصلن فيما بعد على ديبلوم مطبوع وتدرج أسماؤهن على لوحة التخرج المعروضة في واجهة في جادة سيتي، منذ أول دفعة قديمة ضمنها الدونا أوسكارليندا وهي ممرضة لها مكانتها، وموظفة في المستشفى البرتغالي، ممشوقة وجذابة ومولعة بالمكيدة. لقد ألحّت على الديبلوم واللوحة، وحرّكت زميلاتها، وأحدثت اضطراباً شيطانياً، وحصلت على رسوم اشتراك، ووجدت رساماً متطوعاً، وواكبت كل نشاطات التحضير.

هكذا وافقت الدونا فلور، تحت هذا الضغط الذي مورس عليها بشكل خاص من الرسام، وهو أحد معارف الدونا أوسكارليند، وليس من دون الإعلان، مع هذا، عن قدرة شقيقها آيتور – الذي رسم الملصق مع اسم المدرسة، على منحدر دير آلفو يومها – ولسوء الحظ قد نقل الآن إلى نازاريت داس فارينياس. على كل حال، كانت فخورة بأن تقرأ في الديبلوم وفي لوحة التخرّج، بأحرف كبيرة مميزة:

مدرسة الطَّهي مذاقٌ وفنٌ

ويأتي تحته، في خط مُزَخرف:

المديرة - فلوريبيديس بايفا غيمارايس

كان فادينيو، في الأيّام النّادرة التي ينهض فيها مبكّراً، يبقى في المنزل، يدور حول التلميذات، مندساً في صفوف تلميذات الطَّهي، فيزعجهنّ. وكنّ، وهنّ مجتمعات حول المدرّسة مرحات ظريفات، يسجلن الوصفات والمقادير المضبوطة من القريدس وزيت الدنديه ومن جوز الهند المفروم مع قليل من الفلفل. كنّ يتعلمن كيف يحضرن السمك، واللحم، وكيف يخفقن البيض. وكان فادينيو يقطع عليهن عملهن بنكات تحمل معنيين فتضحك عديمات الحياء منهن.

جميعهن تقريباً عديمات الحياء. يمنحن الدونا فلور الكثير من الصداقة والود لكن عيونهن تلاحق السَّافل. وهناك كان، بهيئته الخداعة المتعالية إمّا مسترخياً على مقعد وإمّا ممدّداً على عتبة باب المطبخ يقيسهن من أعلى إلى أسفل، يطيل النظر بوقاحة إلى السيقان، إلى الرُّكب صعوداً نحو أعلى الفخذين، ثم إلى ارتفاع النهدين. كنَّ يخفضن العينين، أما هو فلم يكن يخفضهما.

كانت الدونا فلور تُعِدُّ الأطباق المالحة والغاتو والتورتة والحلوى، في الدروس التطبيقية؛ بينما كان فادينيو يطلق الأفكار، ويتجشأ ظرفاً ويأكل الأطعمة ويدور حولهن، يغازل أجملهن، مجازفاً باستخدام يده الوقحة إذا ما اقتربت منه إحدى الملتهبات.

كان هذا يجعل الدونا فلور متوترةً مكتئبةً لدرجة أنها كانت تخطئ في مقادير الزبدة التي تسكبها على المانويه الصعب، متوسلة إلى الله أن يخرج فادينيو إلى الشارع، إلى الاحتيال، إلى

شقاء القمار، شرط أن يترك التلميذات بسلام.

الآن في السهر على الميت، كن يحطن بالدونا فلور ويشجِّعنها. غير أن إحداهن وهي الصغيرة ليدا، بوجهها الشبيه بوجه قطة شرسة، استطاعت بالكاد حبس دموعها ولم يغادر نظرها وجه الميت. فما لبثت الدونا فلور أن أدركت المغالاة في الإحساس، وشعرت بضيق في صدرها. هل جرى شيء ما بينهما؟ لم تلاحظ قطّ شيئاً مشتبهاً فيه لكن من يستطيع أن يضمن أنهما لم يلتقيا خارج المدرسة، ولم ينته بهما الأمر في إحدى شقق العازبين؟

كان فادينيو، منذ مسألة نويمي المضطربة، قد أقلع ظاهرياً عن ملاحقة التلميذات. لكنه كان رجلاً مهووساً جداً، وباستطاعته أن ينتظر عديمة الحياء في الناصية، ويقوم بإغرائها، وأي امرأة بإمكانها أن تقاوم طلاقة لسانه؟ راحت الدونا فلور تتابع نظر ليدا، وتراقب بارتجاف شفتيها. لم يبق لديها أي شكك، آه! فادينيو مرّة أخرى. إنه غير قابل للإصلاح.

لكن المصاعب كافة التي سببها لها زوجها لم تكن لتقارن بالذي سببته لها مسألة الفتاة نويميا، تلك العاهرة الصغيرة المتحدرة من عائلة محترمة، وفوق ذلك هي مخطوبة، يا للعار! لكن الدونا فلور لم تكن تريد أن تتذكر ذلك الحزن القديم في السهرة الجنائزية، فيما هي تتفحص للمرّة الأخيرة وجه فادينيو. لقد مضى كل ذلك وأصبح بعيداً، وتزوجت المذكورة ورحلت مع عريسها، وهو شخص لا قيمة له، صحافي مغمور، مع أنه فتيّ جداً وزوج مخدوع، اسمه ألبرتو. وفوق ذلك، وما إن تزوجت المدعية حتى ازدادت قبحاً وسمنة.

هذه المرة، كل شيء انتهى بشكل جيد بأعجوبة، وقال لها فادينيو في حرارة السرير والمصالحة: «أنت المرأة االوحيدة التي أستطيع أن أتحمّلها بشكل دائم. والأخريات لسن سوى عابرات لتضييع الوقت». وهنا، خلال هذه السهرة الجنائزية على الميت، وهي محاطة بكثير من الناس وبكثير من التعاطف، لا تريد الدونا فلور أن تتذكر تلك القصة المنسيّة، ولا حتى مراقبة حركات الصغيرة ليدا ونظراتها وبُكائها والسرالذي تفضحه دموعها. بعد موت فادينيو لم يعد ثمة ما يهمها، فلِمَ الاستيضاح والاتهام والتحسّر؟ لقد مات، ودفع ثمن كل شيء حتى مع الفوائد بما لأنه كان فتيّاً جداً. أحسَّت الدونا فلور بالسلام مع زوجها، فلم يعد لديها حسابات تسوِّيها معه.

خفضت رأسها، وأقلعت عن مراقبة حركات الفتاة. كانت ترى فقط فادينيو يتلمس جسدها بيده، في السرير الحديدي، ويهمس في أذنها: «مجرد «كزيكزيكا» لا أهمية لها، أنت الدائمة فقط يا فلور، يا زهرة الأكاسيا، وليس أي امرأة سواك». أي شيطان كانت «كزيكزيكا»؟ – أرادت الدونا فلور فجأة أن تعرف. يا للأسف، فهي لم تسأله قط، لكنه لا يبدو شيئاً حسناً. ابتسمت. كل شيء لم يكن سوى «كزيكزيكا»، وهي فقط الدائمة، فلور، زهرة فادينيو العارية من وريقاتها في يده.

5

جرى الدفن بتشييع هائل في اليوم التالي، في الساعة العاشرة صباحاً. لم يكن ثمة حلقة أو تجمع في صباح ذلك الاثنين من أيام الكرنفال، يمكن مقارنته من حيث الأهمية والحيوية بجنازة فادينيو.

– «أنظر... أقلّه أنظر من النافذة...»، قالت الدونا نورما لزيه سامبايو، متخلية عن إلحاحها عليه ليذهب إلى المقبرة. أنظر لترى ما يعني دفن رجل كان يعرف كيف يرعى علاقاته ولم يكن وحشاً من وحوش الغابة مثلك أنت... كان محتالاً ومقامراً وله نقائصه، وبائساً، ومع هذا، انظر... كم من أناس وكم من أناس مهمّين... وذلك في يوم كرنفال... أما أنت يا سيد سامبايو عندما تموت لن تجد أحداً ليمسك بمقبض تابوتك...

لم يجب زيه سامبايو ولم ينظر من النافذة. بل دسَّ نفسه في السرير في بيجامة عتيقة، مع جرائد الأمس، وأصدر أنيناً واهناً ووضع إصبعاً في فمه. كان مريضاً وهمياً، لديه خوفٌ مجنون من الموت، ورعب من زيارات المستشفيات، ومن السهرات الجنائزية والدفن، وفي تلك اللحظة كان على وشك الإصابة بذبحة قلبية. فهو كذلك منذ البارحة، منذ أن أخبرته زوجته بأن قلب فادينيو توقف فجأة. قضى ليلته ككلب ينتظر انفجار الشريان التاجي، يدور على نفسه في السرير، يتصبّب عرقاً بارداً، ويده تضغط على جانب صدره الأيسر.

أمّا الدونا نورما التي وضعت على رأسها ذي الشعر الكستنائي الجميل شالاً أسود، خاصاً بالمناسبة، أكملت حديثها غير مبالية:

– أنا، إذا لم يكن هناك أقلّه خمسمائة شخص في دفني أعتبر نفسي فاشلة في الحياة. من خمسمائة وما فوق...

يُعتبر فادينيو قياساً على هذا المبدأ، منتصراً تماماً ومُحقِّقاً لما يريد. فقد شارك نصف سكان باهيّا في جنازته. حتى الزنجي باراناغوا فينتورا هجر وكره المظلم وحضر إلى هنا، بالبذلة اللماعة ببياض الساتان، وربطة عنق سوداء ورباط أسود على الكم الأيسر، وورود حمراء في يده. وكان يتهيأ ليمسك بأحد مقابض التابوت؛ وعندما قدّم التعازي إلى الدونا فلور، لخَّص التفكير بكل شيء في عظة جنائزية لفادينيو كانت الأقصر والأجمل:

– كان شخصاً رائعاً!

استراحة

لمحة قصيرة (غير ضرورية تماماً) عن الجدل المُثار حول مَنْ نظم القصيدة المغفلة المنتشرة من حانة إلى حانة، والتي يبكي فيها الشاعر موت فادينيو – لقد تم كشف الهوية الحقيقية للشاعر الجوّال، على قاعدة من البراهين الحسية.

روباتو فيليو

كلا، لن تتحوّل بالتأكيد، مع مرور الزمن، إلى لغز لامقروءِ للرسائل الأدبية، إلى أحجية إضافية غامضة للثقافة العالمية، متحدية بعد قرون، جامعات وعلماء وبحاثة وكتاب سِيرَ وفلاسفة ونقاداً، ومتحوّلة إلى مادة للأبحاث والاتصالات ولأطروحات تشغل الطلاب والمؤسسات ، وأساتذة مقاعد في الجامعات، ومؤرخين ومسنين يبحثون عن الوجود السهل والمبهج. لن تكون قضيّة شكسبير جديد، فلن تتجاوز مجرد شك بسيط جداً إزاء الحدث الضئيل الذي يفيده موضوع؛ موت فادينيو وما يوحيه ذلك.

ورغم ذلك فقد جرى تحقيق في الأوساط الأدبية في سالفادور، وثار حوله الجدل: أي شاعر من شعراء المدينة ألّف – ونشر – «مرثية الموت القطعي لفالدوميرو دوس سانتوس

غيماريس، فادينيو بالنسبة إلى البغايا والأصدقاء؟» وسرعان ما احتدم النقاش حتى أصبح سبباً للعداوات والهجاء والتعابير وصولاً إلى تبادل الصفعات. ورغم ذلك، فان التداول والضغينة، والشكك واليقين، والتأكيد والتكذيب، والشتيمة واللكمة لم تتعدَّ طاولات الحانات حيث كانت تتجمع ليلاً، حول أكواب البيرة المثلجة المواهب الفتية غير المكتشفة (مدمرة وماحية لكل أدب وفنّ سابق للظهور المناسب لهذا الجيل الجديد الحاسم) والأدباء الرديئون العنيدون الجامدون والمقاومون لكل تجديد، بجناسهم وطباقهم، بتعابيرهم وبجملهم الرنانة؛ هؤلاء وأولئك– عباقرة مردة وأدباء مُطلقون لحاهم – ممسكين بالاستعداد العنيف نفسه للقراءة، نتاجاتهم الأخيرة في النثر والشعر، كل منها وجميعها موجهة لتثوير الأدب البرازيلي، بإرادة الله.

لم يبقَ التداول محصوراً في إطار ولاية باهيّا (الولاية وليس العاصمة فقط) فقد انعكس حتى في أبعد محافظات منطقة زراعة الكاكاو. وفي حوليّات أكاديمية الآداب في إيليوس ثمة مراجع مضمونة عن أمسية أدبية مكرّسة لدراسة المشكلة إلا أنها لم تحظ بأي صدى في الملاحق والمجلات، فتلاشت في نقاشات شفوية؛ وعلى الرغم من هذا كلّه، فإن المداولة الحادة أحياناً، لا يمكن إلا أن تحظى بالاهتمام عندما تروى قصة الدونا فلور وزوجيها الاثنين، التي يعتبر فيها فادينيو شخصية هامة وبطلاً قائماً في المصاف الأول.

بطل؟ من هو إذن القبيح، اللص المسؤول عن آلام الفتاة الصغيرة، وهنا الدونا فلور، الزوجة الوفية والمتفانية؟ هذه هي مشكلة أخرى منفصلة عن المسألة الأدبية التي تقلق شعراء وناثرين كثراً وربما هي أصعب وأخطر؛ الجواب عندكم، إذا ما قادكم صبر عنيد إلى نهاية هذه الصفحات المتواضعة

عن المرثية! ما من شك بأن فادينيو كان البطل الذي لا نقاش حوله. «من المؤكد أنه لن يأتي أبداً شخص آخر غيره بهذه الحميمية للنجوم وكذلك للأزهار والبغايا، ومنشد مشعوذ»، كانوا يزنون أبيات الشعر في مديح لا شبيه له. وإذا كانت القصيدة، – نموذج الجدل – لم تحظ بمساحة في الصحف الأدبية، فلم يكن ذلك بسبب عدم أهميتها. فأودوريكو تافاريس، وهو شاعر اتحادي يحلّق فوق من يسمون بالأنبياء المحليين – جميع هؤلاء يأكلون من فتاته، ويأتمرون بأمره، لأن هذا

الطاغية كان يهيمن على جريدتين ومحطة إذاعة – عندما قرأ نسخة من المرثية مطبوعة على الآلة الكاتبة تحسّر:

– يا للأسف، لأنني لا أستطيع أن أنشرها!

واعتبر شاعر آخر هو كارلوس أدواردو:

– لو لم يكن مجهولاً...

كارلوس أدواردو هذا شاب يميل إلى الوسامة، خبير بالقطع القديمة، كان شريكاً لتافاريس في تجارة مشتبه فيها، تجارة إيقونات قديسين قدامى. أدباء الصف الثاني الاكثر خيبة والنابغون الشباب الأكثر حيوية، أولئك الذين لا أمل لهم في طبع أسمائهم في ملحق يوم الأحد في «أودوريكو» كانوا يتهمونه هو وكارلوس أدواردو بإخفاء أيقونات القديسين القديمة المسروقة من كنائس من قبل لصوص اختصاصيين بزعامة شخص ذي شهرة مريبة، شخص خفيض الصوت يدعى ماريو كرافو، وهو أيضاً صديق لفادينيو ورفيق له. كان نحيل الجسم وذا شاربين، يعيش وسط قطع السيارات واللوحات الحديدية والآلات غير المستعملة، فيقطع ويوصل ويلوي تلك المعدات ليسبغ عليها قيمة فنية بتشجيع من الشاعرين وغيرهما من المثقفين المجمعين في الخطوط العريضة على أن ذلك الحديد القديم أصبح من النحت الحديث، وأن الرجل الخبيث هذا هو فنان ثوريّ مرموق. وهنا تبرز مشكلة أخرى ألا وهي القيمة الحقيقية للمعلم كرافو، التي لا مجال لمناقشتها هنا، ولن نحلل قيمة عمله الفني في هذه الصفحات. سوف نقدم فقط، على سبيل المعلومات، واقع أن النقد قد كرّس عمله السابق، وأنه كان موضع دراسات لعدد من الصحافيين المغمورين الأجانب. في ذلك الوقت، لم يكن قد أصبح فناناً معتبراً بل كان قد بدأ يحظى ببعض الشهرة، وهو مدين بها خصوصاً، لنشاطاته المشكوك بها في غرف خدم الكنائس ومذابحها.

يبدو أن فادينيو نفسه قد شارك، في ظروف عوز شديد ألم به، في حج ليلي صامت إلى كنيسة دو ريكونكافو العريقة في القدم، حج نظّمهُ الهرطوقي ماريو كرافو. أثارت سرقة الكنيسة جدلاً واسعاً. فإحدى القطع المسروقة، وهي أيقونة تمثل القديس بينيديتو، ويملكها الراهب آغوسطينيو

دابييا داري، وقد أشاع الرهبان ذلك الخبر في العالم. واليوم توجد هذه الإيقونة الثمينة في أحد متاحف الجنوب، ويُعتقد في أوساط المغتربين من الأدباء الرديئين أنّ ذلك من عمل شريكين ونعمتهما في الشعر الغنائي وفي التجارة التقية.

وفي ذلك الصباح قبل الترويقة، كانا يتحدثان في إدارة التحرير، عن أيقونات القديسين واللوحات، عندما أخرج كارلوس أدواردو من جيبه نسخة من المرثية وأعطاها للشاعر أودوريكو ليقرأها.

أبديا حسرة لعدم تمكنهما من نشرها – «ليس بسبب إغفال توقيع الشاعر، بالإمكان أن نضع اسماً مستعاراً أياً كان...» لكن بسبب الكلمات النابية – وكرر تافاريس: «يا للأسف...» وأعاد قراءة بيتاً آخر من الشعر بصوت مرتفع:

«إنهم في حداد: المقامرون وزنجيات باهيّا».

– هل اكتشفت الناظم؟ سأل صديقه.

– هل تظن أنه هو؟ بدا لي، إنما...

– بالتاكيد... إسمع: «لحظة صمت على كل طاولات الروليت،الأعلام منكسة على أبواب المواخير، الأرداف حزينة، النحيب.»

– باستطاعته نظم ذلك...

باستطاعته؟ إنه هو، بالتأكيد (ضحك) العجوز اللئيم!

لم يكن لدى الأوساط الأدبية اليقين نفسه. ونُسبت المرثية إلى شعراء عديدين، شعراء معروفين أو شبان ينشرون للمرة الأولى. تعاملوا معها كما لو أنها لسوسيجينيس كوستا، لكارفاليوفيليو، لألفيس ريبيرو، لإيليو سيمونز، لأوريكو ألفيس، وأشار كثُرٌ إلى روباتو على أنه الناظم الأكثر احتمالاً. ألم يعلنها هو، متحمساً، وهو يتهادى بصوته الرخيم؟

«معه طلع الفجر يطفّي القمر».

لم يتمكنوا من استيعاب قيام روباتو بإلقاء أبيات هي لشاعر غيره، وهو تصرف غير مألوفٍ كثيراً في تلك الأوساط؛ متناسياً الطبيعة المعطاء لناظم قصائد الصونيتو، وطاقته في الإعجاب والهتاف لعمل أدبي من أعمال الغير.

يمكن، على كل حال، تسجيل بداية رواج المرثية والجدل الذي أثير حولها، بدءاً من الليلة المرحة في شقة كارلا، «كارلا البدينة» المحترفة القادرة القادمة من إيطاليا والتي تتجاوز ثقافتها المهنة (التي ربما هي «ممتازة» فيها حسب نيستور دوارتي، المواطن المعروف، بذكائه والخبير الدائم السفر) التي كانت تقرأ لدانّونتسيو، وتحب القوافي حتى الجنون. «إنها رومانسية متطرفة»، هكذا صنفها ذو الشارب كرافو، والذي كانت له علاقة معها لفترة من الوقت. لم يكن بوسع كارلا أن تقضي الوقت بدون غرام دراماتيكي وأن تبحر من بوهيميٍّ إلى آخر، متنهدةً متأوّهةً تمزّقها الغيرة، بعينيها الكبيرتين الزرقاوين، ونهدين كنهدي «البريمادونا» وفخذيها المدهشين. كان لفادينيو، حصته من نعمها الطيبة وقليل من النقود. حسناً، إنها تفضل الشعراء ينظمون فيها بالذات قصائد «بلغة دانتي الرائعة بكثير من الإلهام والوحي»، كما كان روباتو يتملّقها.

كانت كارلا تعقد في ليالي أيّام الخميس، نوعاً من الصّالون الأدبي في شقتها الواسعة؛ يحضره شعراء وفنانون وبوهيميون وبعض الشخصيات المرموقة، مثل قاضي الأمور المستعجلة آيروزا، والفتيات البغايا الحاضرات في الشقة للثّناء على القصائد والضحك على النكات وتقديم الخمور والحلوى.

كانت كارلا ترأس السهرة، متكئة على كنبة تغصُّ بالوسادات والمساند، مرتدية ثوباً طويلاً يلتصق بجسمها حسب الزِّي اليوناني أو تتزيّن بمجوهرات أثينية عليها رسوم خاصة، أو مصرية من هوليوود، حديثة الخروج من إحدى الأوبرات. وكان الشعراء يلقون القصائد، ويتبادلون عبارات عن الروح والهجائيات والجناس والطباق، ويصدر القاضي موضوعات بديهيّة محضرة بمشقّة خلال الأسبوع.ولحظة الذروة في السمر كانت تحدث حين تنتصب ربة المنزل، كارلا العظيمة، فوق الوسادات، كل تلك الأطنان من اللحم الأبيض المغطى بالجواهر الزائفة، وتنشد بصوت خافت، شاذ

أن يكون لامرأة ضخمة مثلها، بأبيات شعر إيطالية متكلفة، حبها لآخر شخص مفضَّل لديها. أثناء ذلك كان الفنان كرافو وآخرون ماديين وأجلافاً يغتنمون شبه العتمة السائدة في القاعة – فالضوء الخافت في سهرة كهذه أي شبه عتمة، أفضل للاستماع إلى الشعر وتذوقه – من دون احترام للوسط الروحي السّامي، بمشاعره الرّاقية جداً، كانوا يحتكون بأفخاذ الفتيات البغايا بدون حياء، محاولين الحصول على خدمات مجانية منهن، مسيئين لصندوق الشقَّة.كانت الأمسيات الأدبية تنتهي دائماً بالسّقوط من الشعر إلى درك النكات الإباحية. وآنذاك يتألّق فادينيو وجيوفاني وميراندون وكارلينيوس ماسكارينياس، وخصوصاً ليفي، وهو مهندس معماري في بداية حياته العملية، ابن مهاجرين، طويل كزرافة، في جعبته أخبار لا تستنفد وراوٍ جيد. كان اسم عائلته روسياً صعباً ثقيلاً على اللسان، وقد أطلقت عليه الفتيات البغايا لقب ليفي اللسان الفضي، ربما بسبب نكاته.

في أحد هذه «اللقاءات الأنيقة للذكاء والمشاعر الرقيقة»، أنشد روباتو بصوته المتهدج، المرثية المستوحاة من موت فادينيو، مقدماً لها بكلمات مؤثِّرة حول غياب صديق جميع مرتادي ذلك «الكهف الجميل الزاخر بالحب والشعر». واسشهد مروراً بكون المؤلّف يفضِّل ضباب التستر على شمس الدعاية والمجد. وكان روباتو قد تسلّم نسخة عن القصيدة من يدَيْ ضابط في الشرطة العسكرية هو النقيب كريزوستومو: صديق آخر حميم لفادينيو. ولم يكن بإمكان العسكري أن يزوّده بمعلومات دقيقة حيال هوية الشاعر.

نسب كثيرون الشعر لروباتو نفسه، لكن أمام احتجاجه الجازم، أخذوا ينسبونها إلى كل من كان ينظم الشعر في المدينة، وبصورة خاصة المروبصين والبوهيميين المعروفين. ووُجِد أيضاً من لم يصدّق إطلاقاً نفي روباتو آخذاً إياه على محمل التواضع، وأصرّوا على اسمه. وحتى اليوم ثمة من يعتقد أن مقاطع المرثية هي من نتاجه.

احتدَّت المداولة لدرجة أنها تجاوزت ذات مرّة حدود الأدب والتهذيب وتطورت إلى صدام كلاميّ، وذلك عندما أطلق الشاعر كلوفيس آمورين، صاحب لسان كالأفعى في فم الهجائيات، وهو يمضع باستمرار وبرائحة كريهة، سيجاراً من السوق النموذجي، منكراً أي احتمال أن يكون باردو إيرنيس كليماكو هو من نظم الشعر المتداول، إذ ينقصه الكثير من النبوغ وقواعد اللغة.

– عن كليماكو؟ لا تقل هذه البلاهات.. فقد أنتج، بكثير من الجهد، رباعية من سبعة مقاطع. إنه شاعر مضطرب...

ولعجائب الصدف، ظهر الشاعر كليماكو في باب الحانة، ببذلته السوداء الأزلية، ومعطفه المشمّع ومظلته الأزلية هي الأخرى. فرفع مظلته وهدد بغضب:

– المضطربة هي العاهرة التي جاءت بك إلى هذا العالم...

تشاجرا وتبادلا الشتائم واللكمات، وكانت الغلبة بيّنة لمصلحة آمورين، الأفضل في نظم الشعر فضلاًعن كونه رياضياً قوياً.

والغريب الجدير بأن يروى، هو ما حدث مع أحد مؤلفي ديواني شعر قام بعض الجاهلين بنسب نظم المرثية له. في البداية، أنكر ذلك بحزم. وبعدها، بما أن الآخرين قد أصروا، أصبح أقل إصراراً على نفيه، وانتهى به الأمر إلى أن يتصرف بردة فعل مرتبكة جداً وخجولة بحيث بدا معها النفي تأكيداً خجولاً.

«إنها له، لا شك في ذلك!» كانوا يقولون ذلك خصوصاً عندما يرونه يفرك يديه خافضاً بصره، مبتسماً بصمت:

– من حيث أنّها تبدو كأشعاري، فهذا صحيح. لكن، كلا، ليست أشعاري...

كان دائماً ينفي لأنّه في الوقت نفسه، لم يقبل إطلاقاً أن تُنْسَب لآخرين. وإذا فعلوا ذلك، أسرع يفنّد ذلك ويبرهن استحالته. وإذا تشبَّث أحدهم بالجدال في عناد، كان يهمهم حاسماً في غموض:

– ماذا؟ أتريد القول إنها لي... لديّ أسباب لأعرف...

وعندما كان يستمع إليها حين تُلقى، كان يرافق المنشد، مصحِّحاً له إذا بدَّل كلمةً ما، غيوراً على القصيدة، حريصاً وكأن العمل الأدبي المذكور هو له. إنما بعد وقت، مع كشف اسم

النَّاظم الحقيقي جاء يودِّع المجد الذي لا يستحقّه. بدأ يقول فوراً كلاماً مرعباً عن المرثية، نافياً عنها أي قيمة أو جمال:

– «شعر المواخير والمزابل!».

وسط النقاش المحتدم، أدّت المرثية غايتها: فقد قُرِأت وزُخرفَتْ، قِيلت على طاولات البارات عند الفجر، حينما كانت الكاشاسا تطلق أنبل الأحاسيس: وغيّر المنشدون في مفاعيلها وأفعالها، ولعبوا أحياناً الورق أو جرعوا المقاطع الشعرية. لكن سواء قُدّمَتْ صحيحة أو مشوّهةً، مبللةً بالكاشاسا أو ساقطة على أرض الكباريهات، فقد كان يجري تداولها لتثني على فادينيو وتمدحه.

كائن من كان ناظمها، فقد كانت تعكس شعوراً عاماً في العالم التحتي حيث كان يعيش فادينيو منذ مراهقته والذي خرج منه كنوع من الرمز. لقد بلغت المرثية قمة المديح لذلك الشاب المقامر. ولو قُيِّض له أن يسمع مثل كلمات الإطراء الكثيرة هذه المليئة بالأشواق لما صدّق نفسه. فهو لم يكن يوماً في حياته هدفاً للثناء والإطراء؛ وإنما العكس هو الصحيح: فقد كانوا يُحَيُّونه بتقريع أذنيه وبالتأنيب والنصائح والمواعظ مستهدفين حياته السيئة ومشاعره، الشِّرّيرة.

على كل حال، فالتسامح مع مساوئه، وهذا العرض العلني للمزايا التي ادَّعُوها له، الذي حوّله بطلاً للقصيدة وشخصية شبه أسطورية، لم يستمر سوى فترة قصيرة. فبعد أسبوع على وفاته بدأت الأمور تأخذ موقعها الطبيعيّ، ليروج رأي الطبقات المحافظة المسؤولة عن الأخلاق والفضيلة على شفاه الإشبينات، والجارات، في محاولات لتثبيته كامرئ فوضويٍّ ومدّاح متحلل منغرس في الطبقة السفلى الانقلابية في شقق العازبين والكازينوهات، والتي اعتادت محاولة تدمير العادات والنظام.

وظهرت عندها مشكلةٌ جديدةٌ ومحببةٌ، كما لو أن مشكلة هوية من نظم الشعر لم تكن كافيةً. وفيما يتعلق بهذه الأخيرة، فقد كشفت بالبراهين الهوية الحقيقية للناظم وسجلت إلى الأبد في كتاب ذهبيّ للآداب الوطنيّة.

عندما تسلم الشاعر أودوريكو، بعد سنين من موت فادينيو، نسخته من «المراثي الفاجرة» – وهي إحدى ثلاث نسخ فقط قدّمها الشاعر مجّاناً – من طبعة فاخرة رائعة من مائة مجلد بخط المؤلف مزينة بالرّسوم المحفورة على الخشب نفّذها كالازانس نيتو، التفت إلى كارلوس أدواردو، مقدماً له الكتاب الثمين.

كان الصديقان جالسين في غرفة إدارة التحرير ذاتها حيث قرءا معاً في يوم بعيد، المرثية وناقشاها. أما الآن فقد أصبحا سيدين بدينين محترمين – وثريّيْن، ثريّيْن جداً، يملكان مجموعات وأبنية.

تذكر أودوريكو:

– «أما قلت لك في تلك المناسبة؟ إنّه هو» قال أودوريكو مذكراً صديقه.

وخَلُص إلى القول بالابتسامة والكلمات السابقة ذاتها: «يا للحقير...».

وضحك كارلوس أدواردو بدوره ضحكتَه الودودة، ضحكَة رجل حقّق ذاته ومطمئن وأظهر إعجابه بالطبعة المُتْقَنَة. لقد حفر على الغلاف اسم الشاعر: «غودوفريدو فيليو». وأخذ يقلِّب الصفحات على مهل؛ يتساءل بنوع من الرغبة: «أي شوارع ومنحدرات مائلة، أي أزقَّةٍ معتمة في الغسق، أي مغاور سوداء عطرة اكتشفاها وأحباها معاً، الشاعر المعروف والمشرِّد الفقير، بحيث تفتحت بينهما زهرة صداقة نادرة!!» وفيما كان يكشف ببطء هذه الألغاز، كان كارلوس أدواردو يتحسس الورق كما لو أنه يداعب بشرة امرأة ناعمة، من يدري؟ مخمل ليليّ؟ المرثية الرابعة من بين المراثي الخمس التي يتكوَّن منها المجلد، كانت مكرَّسة لموت فادينيو، «الفيش الأزرق المنسيّ على السجّادة».

وهكذا حُلَّت المشكلة حسب الوعد الذي قطع. غير أن أخرى قد ظهرت فارضةً نفسها، ومن يدري إذا ما كان بالإمكان العثور على حلٍّ لها؟ إن هذا اللغز الجديد لفادينيو هو خاضع لنفاذ بصرك

من كان فادينيو؟ ما كانت حقيقته؟ وما حجم أهمّيته؟ هل كان وجهه كرجل مغتسلاً بالشمس أم مُغَطًّى بالظِّل؟ من كان، مهزار المرثيَّة، رجل جملة باراناغوا فينتورا، أو المحتال النكد، اللاسع الذي لا يمكن إصلاحه، الزوج الشرير في أحاديث الجيران، أصدقاء الدونا فلور؟ من كان يعرفه أفضل ويحدده تحديداً أدق؟ التقيّات اللواتي يحضرن إلى قداس الساعة السادسة في كنيسة سانتا تيريزا أم زبائن التباريس الفاسدون، «الكرة تدور في الروليت، ورق اللعب والرهانات ثم الرهن الأخير؟».

القسم الثاني

المرحلة الأولى للترمل، زمن الحزن والحداد، مع ذكريات الآمال والأخطاء، عن الحب والزواج، عن حياة فادينيو والدونا فلور الزوجية، مع الهبات والأيام السيئة، والانتظار القاسي الذي هو الآن بلا أمل (وحضور الدونا روزيلدا المشؤوم).

مدرسة الطَّهي مذاق وفنّ

وصفة الدونا فلور: يخنة السلطعون الرخوة

(يحضر هذا الطعام بسلطعون باهيا، فقط في مرحلة الانسلاخ، عندما تكون درقتها لا تزال طرية، شبه جيلاتينية).

درس نظري:

توابل (لثمانية أشخاص): فنجان من زبدة جوز الهند، صّاف، من دون ماء؛ فنجان من زيت النخيل، كيلو غرام من السلطعون الرخو. وللمرق: ثلاثة فصوص من الثوم، وملح حسب الذّوق، عصير ليمونة حامضة، كزبرة، بقدونس، ثوم قصبي، بصلتان، نصف فنجان من زيت الزيتون، فلفل حلو، كيلوغرام من البندورة. احتياط: أربع حبات بندورة، بصلة، حبة فلفل حلو.

درس عملي:

إفرِمْن بصلتين، بعدها عليكنّ دقّ الثّوم في الجرن؛

البصل والثوم لا يتعفّنان، يا سيداتي، إنهما فاكهتا الأرض العطرتان.

إفرمن فرماً ناعماً الكزبرة والبقدونس وبعض حبات البندورة، والثوم البصلي والبصلة الصغيرة ونصف حبة فلفل حلو.

اخلطن ذلك كله مع زيت الزيتون وضعْن جانباً هذا المرق العَطر الرائحة.

(كيف تجدن تلك الغبيات اللواتي يجدن أن البصل ذا رائحة كريهة!

ماذا يعرفن هؤلاء عن الروائح النقية؟

فادينيو كان يحب أن يأكل البصل النيء

وقبلته كانت تحرق).

إغسلن السلطعون بكامله في ماء الليمون الحامض،

إغسلنه جيداً، ثم اغسلنه أكثر،

لتنظفنه دون أن يؤدي ذلك

إلى إزالة رائحته البحرية

والآن التتبيل: عليكنّ بوضع

القطع في المرق، ثم في المقلاة،

كل واحدة معطرة جيداً.

اسكبن بقية المرق على السلاطعين،

بكثير من التمهل لأن هذا الطبق نعم جداً

(كان طبق فادينيو المفضل!).

تناولن حبات البندورة الأربع المنتقاة وحبة فلفل حلو

وبصلة، وضعنها جميعاً فوق السلطعون مقطعة شرائح مدوّرة

لإضفاء لمسة عذبة.

بعد ساعتين على النار يمكنكنّ

التّذوّق، ثم ضعْنَ المقلاة على نار قوية.

(كان يشتري بنفسه السلطعون الرخو، من بائع قديم، في السوق...).

عندما يصبح شبه ناضج وعندها فقط،

أضفن زبدة جوز الهند وأخيراً

القليل من زيت النخيل، قبيل إطفاء النّار بقليل.

(كان يأتي لتذوق المرق باستمرار،

لم يكن أحد يملك مثل تذوّقه للطعّام).

ها هو ذا الطبق العذب، المطلوب،

مطهيٌ على أفضل وجه!

والتي تنجح في إعداده يحق لها أن تتباهى

بأنها طاهية ماهرة.

لكن إذا كانت تنقصها الموهبة

فمن الأفضل ألا تحاول

فالناس لا يولودون كلهم فنانين في الطَّبخ.

(كان هذا الطبق المفضّل عند فادينيو،

ولن أقدمه بعد الآن على مائدتي.

كانت أسنانه تقضُمُ السلطعون،

وشفتاه صفراوين من زيت النخيل!

لن تعود بعد الآن أبداً شفتاه

ولا لسانه،

لن يعود أبداً فمه الملذوع بالبصل النيء).

1

في قداس اليوم السابع، الذي ترأَسه دوم كليمينتي نيغرا في كنيسة القديسة تيريزا، التي بدَتْ رحابها المدهشة ملتفحة بنور صباحي شفّاف يميل إلى الزُّرقة آتٍ من البحر أمامها، كما لو أنّ المعبد سفينة على أهبة الانطلاق – عُبِّر عن التعاطف والتضامن في تعليقات هامسة وُجهَتْ إلى الدونا فلور، الراكعة في الصَّفِّ الأمامي قبالة المذبح، وهي مُتشحة بالسواد، حيث يخفي الوشاح المخرّم المستعار من الدونا نورما شعرها ودموعها، تمسك سبحة بين أصابعها. لم تكن الوشوشات تتحسّر على فقدانها زوجها، بل على ما عانته جرّاء زواجها به. منحنية على المركع، لم تكن الدونا فلور تسمع شيئاً، كأن لا أحد غيرها في الكنيسة، فقط هي والقس وغياب فادينيو.

تصاعد همس النساء التقيّات، فئران هَرعتْ متمسِّكة بالمقدّسات، مبالغات بتمسكهنّ بالقديم، ضدّ الظرف والضحك مع فقدان الإحساس، همس يقطُرُ سُمّاً:

– لا يستأهل ذلك المارق حتى ولا لحظة من الصلاة.

– لو لم تكن قديسة، لأحيت له بدلاً من القداس، حفلةً. راقصة، إلخ...

– كان موته انعتاقاً لها منه...

وقف دوم كليمينتي على المذبح يقيم القداس على روح فادينيو منهكاً من السهر على الكتب القديمة، لا يشعر في جو الصباح الساحر الذي يستيقظ توّاً إلا ببعض الاضطرابات، بعض النوبات المُضِرَّة، كما لو أن شيطاناً ما، لوسيفر أو إيشو – على الأرجح إيشو – يطوف في رحاب الكنيسة. لماذا لا يترك فادينيو في سلام، لماذا لا يسمح له بالرَّاحة؟ كان دوم كليمنتي يعرفه جيداً؛ فطالما كان يأتي ليتحادث معه في فناء الدّير، يجلس فوق السّور، يروي قصصاً لم تكن تنسجم

دائماً مع تلك الجدران الوقورة، لكنها تحظى بسمع وانتباه الرّاهب المستغرب والمُشفق على مجمل التجربة البشرية.

ثمة مذبح في الممر بين رحاب المعبد وخزانة المقدسات فيه ملاك محفور في الخشب، منحوتة مجهولة وشعبية، تعود من دون شك إلى القرن السَّابع عشر، ويقال إن الفنّان قد اتَّخذ من فادينيو نموذجاً له. نفس الملامح البريئة الماكرة نفسها، الصفاقة ذاتها والرقّة أيضاً. كان راكعاً أمام أحدث أيقونة أكثر حداثة وزخرفة للقديسة كلارا، وكان يمدّ إليها يديه. في أحد الأيام أخذ دوم كليمينتي فادينيو ليريه المذبح والملاك، قاصداً بذلك معرفة ما إذا ما كان البوهيمي سيلاحظ الشبه؟ وما إن شاهد فادينيو الأيقونتين حتى انفجر ضاحكاً.

– لِمَ تضحك على هذ النحوّ؟ سأله الرّاهب.

– لكي يغفر لي الله يا أبتاه... لكن ألا يبدو لك أن الملاك يضاجع القديسة؟

– ماذا؟ ما هذه الألفاظ يا فادينيو؟

– أستميحك عذراً يا دوم كليمينتي، لكن لهذا الملاك وجه قَوَّاد فهو لا يبدو ملاكاً... أنظر إلى عينه... عين شهوانية...

ولما رجع إلى المذبح ليمنح البركة، ويداه مرتفعتان، شاهد القس المتعصبات يهمهمن: هناك يكمن الاضطراب والشيطان آه! يا أفواه الوحل والسوء، آه! عذارى فاسدات وحاقدات ، عانسات مسكينات وبشعات، وفي طليعتهن الدونا روزيلدا، ليغفر لهن الله الذي لا حدود لطيبته!».

– لقد عانت المسكينة كثيراً معه، وأكلت الخبز المعجون من الشيطان!...

– فهي أرادت ذلك، وأنا لم أُقصِّر في نصحها... لو لم تكن مهتاجة كثيراً لاستمعت إليّ... لقد فعلت كل ما أستطيع..

كان ذلك خطاب الدونا روزيلدا والدة الدونا فلور، التي وُلدت لتكون أماً بدون حنان، محاولة إتمام رسالتها بصلافة.

– لكنها لم تكن تستطيع أن تكون هادئة، كانت عاشقة، لينجني الله! لم تشأ أن تصغي، وتمرّدت عليّ... ووجدت من يدعمها، وبيتاً لتختبئ فيه...

قالت ذلك، ونظرت إلى الدونا ليتا، أختها، التي كانت تصلّي راكعةً، وأكملت:

– إقامة قداس من أجل راحة هذا التافه يعني رمي المال من النوافذ ولن تفيد إلا لملء كرش الكاهن..

أخذ دوم كليمينتي المِبْخَرة ونثر البخور على الرائحة الكريهة لنفس الشيطان التي كانت تخرج من أفواه المتزمتات. نزل عن المذبح، وتوقّف أمام الدونا فلور ووضع يده الودودة فوق كتفها، ثم قال لتسمعه الجوقة الشريرة للمتعصبات السامّات:

– حتى الملائكة المتمردون يجدون مكاناً لهم يرتاحون فيه إلى جانب الله، في مجده.

– «ملاك؟... كان شيطاناً من الجحيم...» زمجرت الدونا روزيلدا.

واجتاز دوم كليمينتي – وظهره مقوس قليلاً – رحاب الكنسية متوجهاً إلى خزانة المقدسات، فاستوقفه في الممر التأمّل في تلك الأيقونة الغريبة حيث أثبتَ الفنان المجهول الظّرافة والبذاءة معاً. ترى أي إحساس دفعه إلى صنعها، أي رسالة أراد أن ينقلها؟ كان الملاك وقد أخذ العشق الإنسانيّ منه كلّ مأخذ يلتهم بعينيه العاهرتين القديسة المسكينة، «عيني الشهوة» على حدّ تعبير فادينيو مع ابتسامتِهِ الداعرة، ووجهه غير المغسول من دون تزييف. مثل فادينيو تماماً، شبه كبير لم يسبق له مثيل. ألم يبالغ دوم كليمينتي؟ وهل تسرّع في تأكيده على وجود فادينيو إلى جانب الله، في مجده؟

اقترب من النافذة المفتوحة في الصَّخر، وحدّق إلى فناء الدير. هناك اعتاد فادينيو الجلوس فوق السور، وتحت قدميه تجوب الزوارق في البحر، ويقول:

– أبتاه، إذا شاء الله أن يظهر قدرته بالذات، فليجعل الرقم 17 يربح اثنتيْ عشرة مرّة متتالية فتكون هذه معجزة حقيقية! عندها سأصلي وأملأ الكنيسة كلها زهوراً..

– الله لا يدسّ نفسه في القمار يا بني...

– إذن يا أبتاه، فهو لا يعلم ما الحسن وما السيئ، الكآبة في رؤية الكرة الصغيرة وهي تدور، تدور في الروليت، والناس يجازفون بالفيش الأخير، ودقات القلب تتسارع...

سأله في وشوشة توحي بسرٍ، سرٍ بينه وبين الكاهن فقط:

– كيف لا يعلم الله يا أبتاه؟

– في المدخل، رفعت الدونا روزيلدا صوتها:

– مال يُبَذَّر... ليس ثمة قداس يخلّص ذاك الشقي. إن الله عادل!

وفي الداخل بدت الدونا فلور والشال يخفي وجهها المتألم، تستند إلى الدونا جيزا والدونا نورما. وفي ضياء الصباح الأزرق، بدت الكنيسة كقارب صخري، يبحر في الضبَاب.

2

لم يبلغ نازاريت داس فارينياس خبر وفاة فادينيو إلا يوم الثلاثاء من أيام الكرنفال، حيث كانت تقيم الدونا روزيلدا بصحبة ابنها المتزوج والموظَّف في سكة الحديد، مسممة حياة كنَّتها، عبدة قيادتها الديكتاتورية. ودون أن تضيع وقتها، انتقلت بسرعة إلى باهيّا يوم أربعاء الرماد، اليوم الذي يشبهها، على حد قول صهرها الآخر السيد أنطونيو مورايس الذي كان يقول عنها: «إنه ليست امرأة، إنه أربعاء الرَّماد، سوف تقضي على البهجة عند كل إنسان» ولا شك في أن رغبته في إبقاء أكبر مسافة ممكنة بين بيته وبيت حماته هي من الدوافع التي جعلت انطونيو موريس يسكن منذ سنوات في إحدى ضواحي ريو ده جانيرو. فبصفته ميكانيكياً ماهراً، قبل دعوة أحد الأصدقاء وذهب يجرّب حياته في الجنوب حيث حظي بالنجاح. وقد رفض العودة إلى باهيّا حتى ولو للنَّزهة «ما دامت تلك المرأة القاسية تنتن البيئة».

لم تكن الدونا روزيلدا تكره أنطونيو موريس ولم تكره كنتها أيضاً. لكنها كانت تكره فادينيو، ولم تغْفِر لفلور قطّ هذا الزواج الذي شكَّل مكيدةً شريرةً ضدّ سلطتها وقراراتها. صحيح أنها لم تظهر ترحيباً كبيراً بالنسبة إلى زواج موريس من روزاليا كبرى ابْنتيها، لكنها لم تعترض. لم تكن ترتاح إليه

ولا إلى كنّتها لأنها – هي الدونا روزيلدا – كانت بطبيعتها ميّالة إلى جعل حياة أقربائها صعبةً. وعندما لا يعود لديها من تعارضه تشعر بالفراغ والتعاسة.

لكن الأمر مع فادينيو كان مختلفاً؛ إذ كانت تُكنّ له كراهيةً منذ بداية علاقته مع فلور، عندما اكتشفت شبكة الأضاليل والإغواء التي كان يمارسها طالب الزواج غير المرغوب فيه. فحقدت عليه، ولم تعد تستطيع حتى سماع اسمه. «لو كان ثمة شرطة في هذه البلاد لكان ذلك السافل في السجن». كانت تكرر ذلك عندما يجري الكلام عن صهرها أو إذا طُلِبت منها أخبار عن المتسكع، أو إرسال أشواقهم إليه.

وعندما كانت تزور الدونا فلور في إحدى زياراتها النادرة، فإنما تفعل ذلك لتحوّل حياتها إلى جحيم، فلا تتحدث إلا في موضوع أعمال الغش التي يقوم بها فادينيو، مؤكدة أن وجوده الفاسق، وتاريخه المخجل هما، عبارة عن فضيحة يومية مستمرة.

ولم تتمالك نفسها حتى وهي على سطح السفينة، حيث كانت تطلق العنان للسانها اللاذع وتصرخ بالدونا نورما الواقفة على رصيف المرفأ التابع للشركة الباهيّانية في انتظارها، بطلب من الدونا فلور:

– أخيراً جرجر متقبل القربان السابق قدميه، هه!

كانت الباخرة ترسو مزدحمةً بجمهرةٍ فاقدة الصبر من المسافرين الذين أخذوا يتزاحمون مع طرود وسلال وأكياس صغيرة وصرر مختلفة تحوي الفاكهة ودقيق المنديوكا والإنيامي والآيبين والقديد والشوشو والقرع، والدونا روزيلدا تزعق :

– لقد أصابه مسٌّ من الشيطان، كان يجب أن ينفجر منذ وقت بعيد!

أحسَّت الدونا نورما أنها قد هُزمت. فالدونا روزيلدا تمتلك القدرة على تجميدها بلا حراك في حالة قنوط كاملة. لقد ذهبت الجارة باكراً إلى رصيف المرفأ الصغير وفي نيَّتها أنها تؤدي خدمة ووجهها الطيّب يرشح عزاءً وقد استعدّت لتشجيع حماة في حداد دامعة العينين، ولكي تتحسّر معها

على تقلّبات الدَّهر! فاليوم أنت حيَّةً وغداً أنتِ في تابوت المُتوَفِّين. كانت قد أعدت نفسها لتواسي حسرات الدونا روزيلدا، وتخفف آلامها بالقول إن المسألة قضاء وقدر من عند الله، فهوعليم بماذا يفعل! وستتداولان معاً، الأم والصديقة الحميمة، في الظروف المستجدة للدونا فلور، الأرملة التي أصبحت وحيدةً في الدنيا وهي في عزِّ شبابها. وصلت الدونا نورما مهيئة نفسها لكل ذلك؛ لكل تصرّفٍ أو كلمات أو رد فعل، وباختصار لكلّ ما هو مخلص حسّاس – وهو ما كانت تفعله في سلوكها وتمنحه من كل جوارحها. لقد كانت تشعر بأنها مسؤولة إلى حدٍّ ما عن العالم كله، كانت الملاك الحارس للحي، فرقة إنقاذ سريعة لجيرانها: فهم جميعاً عندما يطلبون المساعدة يلجأون إلى باب منزلها – أفضل منزل في الشارع، باستثناء منزل الأرجنتينيين أصحاب مصنع السيراميك، وبيت آل بيرنابوس اللذين يضاهيانه، أو هما ربما أفخم منه – كانوا يقصدونها للاستعارة، من الملح والبهارات إلى أواني المطبخ لمآدب الغداء والعشاء وحتى لملابس الحفلات:

– دونا نورما، أمّي أرسلتني لأسأل عمّا إذا كان بوسعك سيدتي أن تقرضيها فنجاناً من دقيق الرينو لأقراص حلوى تعدّها، ثم ستعيده إليك....

والمتكلِّمة هي آمينيا، أصغر بنات جارها القريب الدكتور إيفيس الذي تغني زوجته الدونا أمينة أغاني عربية ويرافقها على البيانو.

– لكن، يا ابنتي، ألم تذهب أمك إلى السوق أمس؟ يا لها من امرأة ذاهلة... هل يكفي الفنجان؟ قولي لها، إذا احتاجت إلى المزيد، أن تُرسل من يأتي به... أو الولد في مسكن الدونا آميليا الذي يعوي صوته كالكلب:

– دونا نورما، أرسلتني معلمتي لأطلب ربطة العنق السوداء لزوجكِ السيد سامبايو، التي لها عقدة الفراشة؛ إذ إن ربطة عنق السيد رواس قد نخرتها حشرات العث...

وصرخت لها مرة أخرى الدونا ريزوليتا وهي تبدو دراماتيكية بهيئتها المُنهكة:

– نورمينيا، أغيثيني حبّاً بالله...

– ما بك يا امرأة؟

– سكير وقف على باب بيتي ولا أجد طريقة لإخراجه، ماذا أفعل؟

اتجهت الدونا نورما إلى باب المنزل فعرفته فوراً وقالت مبتسمة:

– إنه باستيون كاشاسا، إنني أعرفه... هيّا انصرف يا باستيون، أخرج من هنا وخذ إغفاءة في مرآب المنزل هناك...

وهكذا كان الحال طوال اليوم، قصاصات من الورق، استدانة نقود، استدعاء مستعجل لمساعدة معتوه، أو للاهتمام بمريض، وزبائن الحقن – في الحقيقة، إن الدونا نورما تقوم بمنافسة مجانية للأطباء والصيدليات، بالإضافة إلى مستودعات الألبسة فضلاً عن أن جميع القططة في الجوار تقصد الفناء الخلفي لمنزلها لتَلِد صغارها، حيث لا تنقصها المعونة ولا الغذاء. وكانت توزع عيّنات من الأدوية – التي يزوِّدها بها الدكتور إيفيس – وتفصل فساتين ونماذج – كانت تحمل دبلوماً في التفصيل والخياطة – تكتب رسائل العاملين في المنازل، وتوزِّع النّصائح، وتستمع لحسرات البعض، تساعد على إنجاح مشاريع الزواج، وتدعم لقاءات الغزل، كما كانت تحلّ مختلف المشكلات وهي منفعلة دائماً ممّا يدفع زيه سامبايو إلى الاستنتاج:

– إنها كالنحلة لا تتعب ولا صبر لديها للجلوس على كرسي المرحاض... وتضع إصبعها الأكبر في فمها، مستسلمة.

– حضَّرت الجارة الطيبة نفسها لترحِّب بكسيرة الخاطر الدونا روزيلدا،فضمّتها إلى صدرها معزِّية. وإذ بالأخرى تنتفض كما لو أن موت صهرها كان نبأ مفرحاً. كانت قد هبطت السلم، وفي يدها صرة دقيق نازاريت التقليدية العطِر المحمَّص جيداً، إضافة إلى سلّة يتحرك فيها عدد من السرطانات حصلت عليها على سطح الباخرة، وفي يدها الأخرى المظلّة والحقيبة الصغيرة. حسناً، فكرت الدونا نورما، لم تكن الحقيبة كبيرة ما يوحي بأنها لن تتأخر في مكوثها؛ فالصندوق الخشبي جاهز للأسفار السريعة التي لا تستغرق إلا أياماً قليلة؛ تقدّمت منها لتساعدها ولتضمها كما هو معتادٌ في التعْزية، فلن يحول أي شيء في الدنيا دون قيامها بواجب المؤاساة الحزين.

– تعازٍ؟ لي؟ كلا يا عزيزتي! لا تهدري مجاملاتك. لقد مات بالنسبة إليّ منذ أمدٍ بعيد، إنني لا أشعر بفقدانه بل بإمكاني الآن أن أقرع صدري وأعلن مجدداً أنه لم يعد هناك أي سافل في عائلتي. ويا له من عار،؟ اختار أن يموت متنكراً وسط الكرنفال... عن قصد...

ثم توقّفت أمام الدونا نورما، ووضعَتِ الحقيبة الصغيرة والسلّة والصرّةِ على الأرض وراحت تتأمل المرأة الأخرى مليّاً، تقيسها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، ثم قالت في إطراء ماكر:

– حسناً أيتها السيدة... لا أنوي إطراءك لكن حضرتكِ سمنت قليلاً... أنت جميلة وعصرية وسمينة شهيّة، ليباركك الله وينجيك من النظرات الشريرة...

ركّزت السلّة التي كانت السرطانات تحاول الهروب منها ومضت تقول:

– هكذا أحب المرأة: لا تعير لسخافات الموضة أي انتباه... واللواتي يسرن ههنا ويمارسن الحمية ليهزلن، سوف ينتهي بهنّ الأمر إلى أن يصبحن مسلولات.. حضرتكِ...

– لا تقولي هذا يا دونا روزيلدا. وأنا التي ظننت أنني قد أصبحت أنحف... واعلمي بأنني أمارس حمية من تلك الحميات القاسية... أنام بلا عشاء وقد مضى عليّ شهر لا أعرف فيه طعم الفاصوليا...

عادت الدونا روزيلدا تتفحّصها بعين نافذة:

– لكن لا يبدو عليك ذلك... تناولت مرة أخرى حاجاتها واتجهت بمساعدة الدونا نورما إلى مصعد لاسيردا وهي تردد:

– والسيد سامبايو؟ أما زال يدسّ نفسه دائماً في السرير؟ لم أرَ رجلاً قطّ عديم الظُّرف مثله. إنه يبدو ككلب عجوز...

لم يعجب الدونا نورما هذا التشبيه، فابتسمت وقالت محتجّة:

– إنه بطبعه كئيب.

لم تكن الدونا روزيلدا ممن يتقبلون الأعذار للضعف البشري:

– أقسم لكِ... إن زوجاً معتداً بنفسه مثل زوجكِ يجب أن يعقاب. إن زوجي... المرحوم جيل... حسناً، لن أدّعي أنه كان يساوي شيئاً كثيراً، فما كان قديساً أبداً... لكن مقارنةً بزوجكِ... آه! يا ابنتي، أقول لكِ: لو كنت مكانك لما تحمّلت، أبداً – رجلاً لا يخرج من المنزل، لا يذهب إلى أي مكان متقوقعاً دائماً داخله...

حاولت الدونا نورما إعادة الحديث إلى سياقه المنطقي: ففي النهاية فقدت الدونا روزيلدا صهراً، ولهذا جاءت إلى العاصمة، أما هذا الموضوع الدراماتيكي والملحوظ جداً فيجب أن يُطوى فلم تكن الدونا نورما مستعدة لمثله:

– ما زالت فلور حزينة جداً وكأنها مصعوقة. لقد تألّمت أكثر ممّا ينبغي..

– لأنها خرقاء، بلهاء. هكذا هي دائماً، إنها حتى لا تبدو ابنةً لي فهي تشبه أباها، حضرتك لم تعرفي المرحوم جيل: أنا كنت الرجل في المنزل، ولا أقول ذلك مفاخرةً! لم يكن يقشّر ذرةً أو يصدر خُواراً. محسوبتك التي كانت تحل وتربط كل شيء. فلور تشبهه، فهي كسولة، عديمة الشخصيّة وإلا كيف تحمّلت مثل هذا الزوج المذكور طوال هذا الوقت؟

واعتبرت الدونا نورما في داخل نفسها أنّه لو لم يكن المرحوم جيل هو الآخر، مغفلاً وكسولاً من دون شخصية، لما تحمَّل بالتأكيد هذه الزوجة طوال حياته! وتحسّرت على والد الدونا فلور، وعلى الدونا فلور المهددة الآن بتواصل زيارات أمِّها لها، – الله أعلم – فقد تأتي لتقيم مع ابنتها الأرملة، وتفسد الجو الودود في سودريه وفي الجوار.

قبل وفاة فادينيو، كانت الدونا روزيلدا، عندما تأتي، تمرّ مروراً سريعاً، فقط لتوجه الإساءة إلى صهرها وتعود بسرعة قبل أن يظهر الشرير بنوادره البذيئة . لأن الدونا روزيلدا لم تكن تخرج منتصرة مع فادينيو، ولم تكن الكلمة الأخيرة لها قط، كما لم تنجح حتى في استفزازه. فحالما يجد أنّ لسانها قد بدأ يشتغل، يأخذه الضحك، ويشيع الرضا في قسمات وجهه، كما لو أن الحماة هي زائرته المفضلة، النكتة:

– انظروا من هنا؛ حماتي الصغيرة القديسة! أمي الثانية، صاحبة القلب الذهبي، الحمامة التي لا حقد في قلبها. كيف لسانُكِ؟، أما زال حاداً جداً؟ أجلسي يا قديستي هنا قرب صهرك الصغير العزيز ولنكنِّس معاً قمامة باهيّا...

ثم يضحك ضحكته المجلجلة والمرحة، ضحكة رجل متهتّك راض بحياته؛ فإذا كانت كل تلك السَّندات المستحقة والديون هنا وهناك وحاجته الماسة إلى المال من أجل الرِّهانات، إذا كان ذلك كله قد عجز عن إصابته بالحزن أو بالقُنوط فكيف تأمل الدونا روزيلدا أن تصيبه بأي منهما؟ لهذا السبب كانت تكرهه، وأيضاً بسبب ما فعله معها في الفترة الأولى من علاقته مع فلور.

وبثورة غضب حانقة، تفِرُّمن ساحة المعركة مهزومة من ضحك فادينيو، لتصُبّ جامَ غضبها على الدونا فلور، موجهة إليها في الشارع لعناتها السامة:

– لن أضع قدميَّ في هذا المنزل أبداً، أيتها الابنة اللعينة! إبقي مع الكلب زوجك، دعيه يُهين أمَّك! إنسي الحليب الذي رضعته... سأنصرف قبل أن يضربني... فأنا لست مثلك أحب أن أضرب!

ومع تعقب ضحك فادينيو لها في الزوايا، ليدوي في الأزقَّة قهقهات ساخرة، تفقد الدونا روزيلدا عقلها. فقدته كلياً ذات مرة: فإذ نسيت وضعها كأرملة ووقورة توقفت في الشارع المكتظ بالناس، والتفتت إلى النافذة حيث كان صهرها يضع يديه على خاصرتيه من شدّة الضحك، وراحت توجه إليه بذراعها العارية سلسلة من الحركات الفاحشة، مرفقة إياها بسلسلة من الشتائم والإهانات بصوت يكاد يختنق:

– خذ، أيها القذر، خنزير، خذه وأدخله فيك...

أحدث سلوكها الفاضح فضيحة لدى المارة، وعلق كل من المدرّس الوقور إيبا مينونداس والأنيقة الدونا جيزا:

– «يا لها من امرأة غير لائقة...» .

– «إنها مصابة بالهستيريا...» .

وعلى الرغم من معرفتها الجيدة للدونا روزيلدا ومن كونها شهدت هذه الحادثة ونوبات الغضب الأخرى، ومن اعتيادها على شخصيتها المعتدة، وحدتها الخلقية، رغم كل هذا، صُعقت الدونا نورما هناك أمام المصعد. فلم تتصور يوماً أن يدوم النفور بين الحماة والصهر إلى ما بعد الموت فلا تمنحه ولو كلمة تحسّر واحدة، حتى لو كانت لا تعنيها، محض كلمة شكلية تخرج من فمها وانتهى الأمر. لكن حتى هذا لم يحصل.

– حتى الهواء الذي يتنفسه المرء هنا صار أخفّ بعد أن مات البائس...

لم تستطع الدونا نورما أن تتمالك نفسها:

– أكنتِ غاضبة إلى هذا الحد على فادينيو ؟

بالتأكيد! أليس ثمة سبب لذلك؟ إنسانٌ متشرد سكير، مقامر لا يساوي شيئاً... واندسّ في عائلتي، غيَّر رأس ابنتي، وانتزع البائسة من المنزل ليعيش على حسابها..

الحقيقة أنه كان مقامراً معاقراً للكاشاسا متسكعاً وزوجاً سيئاً فكّرت الدونا نورما لكن كيف يستمر إنسان ما على حقده إلى ما بعد الموت؟ من واجبنا تجاهل الضغائن والخلافات حتى عندما يكون الميت من أشقى الناس؟

كان للدونا روزيلدا رأي آخر:

– كان يدعوني بالعجوز الثرثارة، لم يحترمني قطّ بل كان يسخر مني... خدعني منذ البداية، وجرجرني على طريق المرارة... فلماذا يجب أن أنسى؟ ألمجرد كونه أصبح في المقبرة؟ لهذا السبب فقط؟

فيما كان يغادر هذه الأرض نحو عالم أفضل، ترك المأسوف عليه جيل، التافه وعديم الشخصية، أسرته في صعوبات جدية وضائقة خطيرة. في حالته هذه، لم تكن المسألة مسألة جملة كاملة أو مكان عام – «غادر هذا العالم إلى آخر أفضل»–، لكن التعبير عن الحقيقة أمر جيد. أياً يكن ما ينتظره في أسرار الحياة الثانية– فردوس النور، الموسيقى والملائكة المضيئون؛ جحيم مظلمة بمراجل تغلي، ليمبوس رطب؛ ارتحال نحو الدوائر الفلكية؛ أو العدم، إعدام الوجود – ، أي شيء هو أفضل من الحياة المشتركة مع الدونا روزيلدا.

رجل نحيل وصامت، يزداد كلّ يوم نحولاً وصمتاً، كان يعيل عائلته بتمثيلات تجارية متواضعة، منتجات قليلة الرواج، وربح زهيد بالكاد يكفي للنفقات: للطعام اليومي التافه ولإيجار الطابق الأول في لاديرا دو آلفو وثياب الأولاد وتطلعات الدونا روزيلدا البورجوازية مع نزوات حبِّ العظمة لديها، وطموحها للعيش مع العائلات المخملية والتسلل إلى دوائر الأثرياء. كانت تصبّ جام غضبها على معظم الجيران الذين لم يحالفهم الحظ – فظلّوا باعة في المتاجر والمخازن وموظفين في المكاتب، وباعة جوَّالين وخيّاطات – وتُعرِب عن ازدرائها لأولئك الناس غير القادرين على إخفاء فقرهم؛ وكانت تشيع أجواء محمّلة بالحثالة، متنبّهة فقط إلى بعض سكان لاديرا، إلى «العائلات المرموقة»، وتردد مغتاظة من المرحوم جيل حينما تقبض عليه بالجرم المشهود وهو يحتسي الجعة بصحبة غير المحترمين أمثال كازوزا فونيل، لاعب قمار البيشو المستدين الذي يعتبر نفسه فيلسوفاً، وهو أحد المستأجرين في آلفو الأكثر إثارة للنقاش. على فكرة، «فونيل» ليس اسم عائلته، هل من الضروري أن أوضح أكثر من ذلك؟ كان لقباً ذا مغزى يعني الحلق المفتوح دائماً والظَّمأ الذي لا يرتوي.

لماذا لم يكن جيل يذهب إلى الدكتور كارلوس باسوس، الطبيب المميز أو يتردّد على المهندس فالي، ذي النفوذ في نظارة الطيران أو موظف التلغراف بيشوتو، الطاعن في السن على مشارف التقاعد بعد أن بلغ قمة وظيفته البريدية، والصحافي ناصيف الذي لا يزال شاباً، لكنّه كسب مبلغاً محترماً من المال من وراء «صاحب المتجر الحديث»، مؤلّف كرّسه كما كتب في مقدِّمته «لدفاع لا يلين عن التجارة الباهيّانية»، كانوا جميعاً يسكنون متجاورين في لاديرا، أفراد «العائلات المرموقة». أقلّ ما يُقال عن الزوج الوضيع الشأن إنه لم يحسن اختيار صداقاته: فعندما لا يكون

مع فونيل في «بونتو فينو»، في باشا دوس ساباتيروس، يحشر نفسه في منزل أنتينور ليما ليلعب النرد أو الدّاما. لربما كان ذلك المرح الوحيد الفعليّ في حياته. كان أنتينور ليما، صاحب المتجر في تابويون – من أهمّ زبائن جيل – وكان جديراً بأن يصنّف في لائحة الجيران البارزين، لولا معاشرته العلنيّة الفاضحة للزنجية جو جوفينتينا، التي عملت طاهيةً لديه. وهي الآن تقبع في نافذة المنزل الخاص بالتاجر، ولديها خادمة تقوم عنها بالأعمال المنزلية، وهي سليطة اللسان وقحة تهوى الثرثرة مع الدونا روزيلدا في لاديرا دو آلفو. حسناً؛ هناك كان جيل يتنزه، ويوزّع التحيات، ويعامل تلك المرأة الوضيعة كما لو كانت سيدة متزوجة بعقد شرعي.

ذهبت هباء جهود الدونا روزيلدا لتحقيق صداقات نافذة: فأسرة كوستا متحدّرة من سياسي قديم وصاحبة حقول شاسعة في ماتاتو – لقد سمِّي شارع باسم السياسي والحفيد نيلسون الذي كان مصرفياً وصناعياً، وهناك آل مارينيو فالكون، من فيرا دو سانتانا، الذين تعلّم جيل المهنة في مخزنهم (والسيد جوان مارينيو هو الذي أقرضه المال ليباشر عمله في العاصمة)؛ ثم الدكتور لويس إينريكي دياس تافاريس، مدير الدائرة، عقل من ذهب، الذي كان ينشر مقالات في الصحف موقّعة باسمه، اسم رنّان تلوكُه بلسانها متذوقة بلذة قربها منه: «إنه عرّابي، وقد عمَّد ابني إيتور».

وأثناء قيامها بخلق مثل هذه العلاقات رفيعة المستوى كانت تسخر في الوقت نفسه من عائلة جيل، بهيئة تسائل دراماتيكية كل من يخاطبها من الجيران واللاديرا والمدينة بل العالم كله: ماذا فعلت هي للرب كي تستحق كعقابٍ مثل هذا الزوج العاجز عن توفير المستوى الحياتي الجدير برفعة نسبها ووسطها؟ فجميع الذين كانوا ممثلين تجاريين ذاقوا طعم النجاح وازداد زبائنهم وتوسَّعت مكانتهم وانتفخت أرباحهم الشهرية من المبيعات، وحصلوا على عمولات جديدة قيّمة. وكثيرون اشتروا منازل خاصة بهم، فيما لم يكونوا يملكون قطعة أرضٍ واحدة يشيدون عليها بيوتهم بل إن بعضهم عاش ترف السَّيَّارات، مثل روزالفو ميديروس أحد معارفهم. كان من الآغواس ووصل من ماسييومنذ سنوات قليلة ويداه إحداهما إلى الأمام والأخرى إلى الوراء وكلاهما الآن في مقود سيارة ستود يباكر. وصار لورداً بحيث أنّه لم يعرف الدونا روزيلدا ذات يوم وهو يقود سيارته في شارع تشيلي، وكاد أن يدهسها، فاندفعت متودّدة أمام السيارة، مشتاقة للسلام على زميل زوجها الناجح. ولم تجزع وترتعب بسبب زموره المنفلت بقدر ما انزعجت من الشتيمة التي صرخ بها في وجهها:

– هل تريدين أن تموتي يا «قملة الخشب؟».

ها هو هذا الفظّ يحصل خلال ثلاث أو أربع سنوات، بمنتوجاته الصيدلانية وطلاقة لسانه وظرفه، على سيارة وصار شريكاً للباهياني تينيس، وصديقاً حميماً لسياسيين ولأثرياء، يعيش من عائدات أملاكه بدون عمل مفعم بالاعتزاز، وملك في تناول الطعام! وصرَّت روزيلدا على أسنانها، أمّا جيل الخانع؟

آه! جيل! كان يتنقل على قدميه أو بالتَّرام، مع عيّناته من الشَّرائط النسيجية والأربطة والعقود والأواني الصلدة. فقد كان اختصاصه المنتوجات التي تجاوزتها الموضة، ويقتصر زبائنه على بعض أصحاب المتاجر في الضواحي ومحالّ الخرضوات القديمة. ولم يحد عن خطِّه هذا، بل مشى على هذ النحو طوال عمره. لم يكن ثمة من يؤمن بقدرته، حتى ولا هو نفسه.

وفي أحد الأيام ضاق ذرعاً بكثرة الشكوى والاحتجاج، بكثرة الجهود التي يبذلها من دون نتيجة أو بهجة. صحيح أن بورتو عديله زوج ليتا أخت روزيلدا، كان يكافح من أجل لقمة العيش، فيعلّم الرسم والرياضيات للفتيان في إحدى المؤسسات الإيالية، ولتلاميذ الحرف، في مساحات من الأرض في باريبي. يذهب بالقطار، كل يوم في الصباح الباكر، إذ ينهض مع بزوغ الشمس، ويعود في نهاية فترة العصر. لكنه كان يتجول أيام الآحاد في شوارع المدينة، مع صندوق الألوان والفراشي ليرسم بيوتاً ريفيّة الطّابع ملوّنة وينتزع من ذلك الشغل فرحاً شديداً، لدرجة أنّ أحداً لم يكن قطّ في مزاج سيّئ أو مكتئب. أضف إلى ذلك أنه تزوّج بليتا، لا روزيلدا، وهي نقيض أختها، كانت امرأة قديسة لا تتكلم بالسوء عن أي كان.

جيل هذا لم يحالفه الحظ حتى ولا في لعب الداما أو الغامون: ناهيك أن أنتينور لم يكن ليقبله شريكاً في اللعب إلا عندما لا يأتي من هو أقوى منه. بالنسبة إلى السيد زيكا سيرا، بطل لاديرا، فلم يكن الأمر هكذا، حتى ولا لتمضية الوقت – لم تكن لديه نعمة الصراع على لوحة جد ضئيلة الحجم، وهو غير مبال أو فطن. ورغم ذلك أصرَّت الدونا روزيلدا على أن يقطع علاقته نهائياً بكازوزا فونيل، حين كان هذا الصديق بأمسِّ الحاجة إلى تضامنه معه بعد خروجه الحديث من السجن، فراح جيل يقطع ناصية الشارع، غارقاً في خجله ليتجنبه، خاضعاً لأوامر الزوجة.

وتوصّل جيل إلى قناعة بأن عمله وتضحياته لا فائدة منها، فانتهز بعض أيام الشتاء الرطبة ليُصاب بفقر دم هزيل – «حتى إنه ليس فقر دم شديداً» تهكّم الدكتور كارلوس باسوس – وترك الدنيا إلى ما وراء النجوم بهدوء، في سعال مكتوم خجول. لو كان شخصاً آخر لاستطاع النجاة، ولتغلّب على المرض الذي هو أكثر بقليل من مجرد نزلة صدرية. لكن جيل كان تعباً، تعباً للغاية! لا يقدر على انتظار مرض جدي خطير. ناهيك عن كونه واثقاً من أن ذلك لن يحصَل عنده؛ فالمرض المميّز المهم هو علّة على الموضة، عزيزة، يتكلمون عنها في الجرائد، لذا لن يصله يوماً. فالأفضل له أن يقنع بفقر دم هزيل. وهذا ما فعله، ومن دون وداع غاب بجسده وارتاح.

4

منذ زمن بعيد، كانت الدونا روزيلدا تمسك بيد من حديد، إدارة مدخولها الزهيد من عمولات البيع، فتسلم الممثل التجاري أسبوعياً نيكلات محدودة للترام ولعلب السجائر العطرة: علبة كل يومين. ومع ذلك كانت النقود المُقْتَصَدة بالكاد كافية لنفقات الدفن وثياب الحداد. وآخر عمولات قبضتها عن المبيعات الأخيرة، كانت شبه معدومة وزهيدة بحيث وجدت الدونا روزيلدا نفسها مع ابنها الغلام، التلميذ الثانوي، وابنتيها الشابتين – كانت فلور آنذاك مجرد مراهقة – من دون أي مورد.

وكونها كانت بطبيعتها قاسية وصعبة المراس، لا يجعلنا نتجاهل الخصائص الإيجابية في شخصيتها ألا وهي تصميمها وقوة إرادتها وكل ما فعلته لتربية أولادها والاحتفاظ أقلّه بالموقع الذي تركها فيه موت الزَّوج من دون أن تنتقل من لاديرا دو آلفو إلى زوايا الشوارع أو إلى الغرف القذرة في البيوت الرخيصة في بيلو رينيو.

لقد تمسكت بالطابق الثاني من المبنى حيث ظلّت تقيم بعنادها العنيف. فالانتقال من هناك إلى مسكن أقل ثمناً كان يعني وضع حدٍ لآمالها في الارتقاء الاجتماعي. وكان عليها إبقاء إيتور في المدرسة حتى نهاية المرحلة الثانوية، ومن ثمَّ توظيفه، إضافة إلى تزويج ابنتيها؛ وهذا ما حصل. من أجل ذلك كان عليها أن تحافظ على مستواها ولا تدع الفقر يجرجرها وينزع سترها، بلا حياء ولا خفر كما لو أنها ارتكبت جريمةً تستحق العقاب.

كان عليها البقاء في الطابق ذاته في لاديرا دو آلفو مهما كلّف الأمر: هكذا فسّرت الوضع لصهرها عندما جاء إليها ليُقرضها مدخرات الدونا ليتا (سددتها الدونا روزيلدا بعد ذلك، حتى آخر فلس، قبل الاستحقاق حفاظاً على شرفها) لا منزل بسعر معقول في بلاتافورما، في نهاية العالم، ولا مسكن أرضي في لابينيا، ولا غرفة أو قاعة مؤجرة من بعض المستأجرين في بورتاس دو كارمو. بقيت مزروعة في لاديرا دو آلفو، في الطابق الثاني المرتفع الإيجار نسبياً، خصوصاً، بالنسبة إلى شخص مثلها لا يملك شروى نقير.

لقد استطاعت، من هناك، من على شُرفات الطابق الأول الفسيحة أن تتطلع إلى المستقبل بثقة؛ فما ضاع شيء. لقد غيّرت مشاريعها السابقة دون أن تتخلى عن ادعاءاتها. ولو أنها تخلّت عنها يومذاك وتركت المنزل المؤثث جيداً والمفروش بالسجاد والستائر، لتذهب إلى مسكن مشترك ما، لما كان مسموحاً لها أقلّه أن تتأمل أو تحلم؛ ولرأت إيتور خلف طاولة للبيع في حانوت بقالة، وفي أفضل الأحوال في متجر ما، بائعاً صغيراً طوال عمره ولرأت الابنتين مع مصير مشابه، هذا إذا لم ينته بهما الأمر نادلتين في الحانات أو المقاهي، مطايا لأرباب العمل وللزبائن وهو أقصر طريق إلى الرذيلة، إلى رعب شوارع النساء الجانحات. أما من هنا، من الطابق الثاني، فكان بوسعها مقاومة كل هذه الأخطار التي تهددها، بينما هجره بمثابة إعلان استسلام من دون صراع.

لهذا السبب رفضت عرضاً لتوظيف إيتور بائعاً في متجر، بواسطة إنتينور ليما. ولم ترضَ حتى بمناقشة روزاليا، حين أظهرت الابنة استعدادها للعمل كعاملة استقبال وسكرتيرة في «فوتو إليغنتي»، وهي مؤسسة نامية في باشا دوس ساباتيروس، حيث يستغل أندريس غوتييريز – الإسباني الأسمر صاحب الشاربين المقصوصين – الفن الفوتوغرافي بمختلف أنواعه: من الصور الفورية بمقاس 3/4 إلى بطاقات الهوية والبطاقات المهنية (التسليم خلال أربعٍ وعشرين ساعةً) إلى «الصور المكبّرة الملوَّنة» التي لا تضاهى، مروراً بالصور ذات الحجوم المختلفة في مناسبات العمادة والزفاف والمناولة الأولى والوقائع الاحتفالية الأخرى الخليقة بأن تُخَلَّد بحجم صغير في الألبومات العائلية. وحيث ثمة مجال لالتقاط صورة، يظهر أندريس غوتييريز مع آلته ومساعده الصيني الذي لا تستطيع تقدير عمره لشدة هرمه، وهو متغضّن الوجه متردد. فقد انتشرت شائعات وصلت إلى أسماع الدونا روزيلدا، المستعدة دائماً لسماع مثل هذا اللغو – بشأن أندريس واستوديو

«فوتو اليغانتي» تقول إن الصيني يبيع طوابع بريدية معيّنة من إنتاجه، ضمن مغلّفات مغلقة هي ذروة الفن الطبيعي، «صور فنية للعراة» نجاحها مضمون. وقالت العرّابات إن فتيات صغيرات فقيرات سهلات المنال كن يتموضعن له في أوضاع خلاعية مقابل بضعة آلاف من الفلسات، ثم سيتمتع أندريس بهنّ ومن يدري؟ ربما الصيني أيضاً. وروَتِ المتعصبات قصصاً مخيفة عن مشغل التصوير الفوتوغرافي. فلا عجب في أن الدونا روزيلدا قد وبّخت ابنتها عندما حدثتها عن أمر العرض المقدّم من الأسباني، وهي متحمّسة بسذاجة:

– إذا كلمتني مرّة أخرى في هذا الأمر، سأشبعك ضرباً...

أما أندريس فقد هددته باستخدم كل دوائر علاقاتها لترميه في السجن، إن هو حاول أن يتصل بابنتها، ولسوف يتحمل النتيجة، هذا الغاليسي الخنزير ابن العاهرة، بقذارته، وبفسقه، إذ ستذهب إلى الشرطة بنفسها، هي الدونا روزيلدا.

أندريس، الأسباني الفظ، ردّ بدوره على شتيمتها بشتائم من العيار نفسه: الغاليسي هو أبوها المخدوع المقرون. أما هو، فقد آلمه وضع العائلة بعد موت السيد جيل، الرجل الطيب، والذي كان يستحق أفضل الزوجات فعرض الوظيفة على الفتاة – وهو بالكاد يعرفها – وهدفه الوحيد كان مساعدتها، فكان ثوابه على ذلك أنّ تلك البقرة الهستيرية جاءت تولول عند أبواب متجره، مهددةً العالم بقصص مختلقة وافتراءات تعيسة! فإذا لم تغلق ذلك المرحاض الذي تستعمله كفم، فسوف تتفتح أبواب جهنّم وبسرعة عليها، ويقوم هو باستدعاء السلطات، هو المواطن الرزين الخاضع للقوانين، الذي يدفع الضرائب، هو، الأندلسي الطيب المحتد الذي تشتمه هذه المرأة المشعوذة بأنه غاليسيّ... أما الصيني فراح ينظف بعود كبريت، أظفاره الطويلة كالمخالب غير مبال بالنزاع – على حدّ وصف بعض ذوي الألسن السيّئة...

سواء أكانت تلك القصص حقيقية أم لا، فالواقع أن الدونا روزيلدا لم تقم بتربية ابنتيها الجميلتين والموهوبتين وتثقيفهما، ، لكي تقدمهما لقمة سائغة لأندريس غوتييريز أندلسياً كان أم غاليسياً أم صينياً... فهما الآن الوسيلة لتغيير اتجاه مصيرها، وسلّمها لترتفع وترتقي إلى الاوساط المرموقة. فقد سبق ورفضت وظائف أخرى أكثر فاعلية لروزاليا وفلور، ولم تقبل تعريض

ابنتيها للأخطار وللنّاس. إن مكان الفتاة هو البيت، وهدفها هو الزواج: هكذا كانت تفكر الدونا روزيلدا. وكان إرسال الابنتين إلى طاولات البيع في محال النوفوتية أو صناديق بيع البطاقات في دور السينما أو قاعات الانتظار في عيادات الأطباء وأطباء الأسنان، بمثابة استسلام واعتراف بالفقر ثم عرضه وكأنّه جرح كريه ومُنْتِن. نعم، سمحت للابنتين بالعمل لكن في البيت، بالحرف المنزلية التي تقوم بتجميعها، واضعة نصب عينيها عريسين لهما. وإذا كانت الحرفة والزواج تفاصيل مهمة في خطط الدونا روزيلدا، فقد تحولتا الآن إلى جزءين لا يتجزّءان من مشاريعها.

عندما كان جيل حيّاً، كانت الدونا روزيلدا تخطِّط ليتخرّج ابنها في الجامعة طبيباً أو محامياً أو مهندساً، فتدعمها سمّاعة الطبيب وشهادة الكلية. وكانت واثقة من أنه بفضل لقبه كدكتور، وشهادة الكلية سوف ترتقي إلى مصاف الأقوياء في العالم. وسيكون خاتم التخرج الذي سيشعّ في إصبع إيتور مفتاحها لأبواب الناس من الطبقة العليا، هذا العالم المغلق والنائي في فيتوريا وكلانيلا وغراسا. أضف إلى ذلك في النهاية الزيجتين الصالحتين لابنتيها من زميلين لابنها، دكتورين لهما مكانتهما الاجتماعية وأمامهما مستقبل زاهر.

لقد حال موت جيل السخيف دون تحقيق هذا المخطط الطويل الأمد. فإيتور كان لا يزال في المدرسة الثانوية وأمامه سنتان لإنهاء هذه المرحلة– وقد تأخر لأنه رسب في الامتحانات. كيف ستعيله خلال خمس أو ست سنوات في الكلية، وفترة الدّرس طويلة مُكلِفة؟ تمكنت بالجهد والتضحية من إبقائه في المدرسة – كان تلميذاً في ثانوية باهيّا، وهي مؤسسة إيالية مجانية – أنهى فيها المرحلة الثانوية. وعندما ينهي هذه المرحلة، نتيجة دروس خاصة إضافية قد يتمكن من الحصول على مركز في أحد المصارف، أو – ولِمَ لا؟ – وظيفة رسمية بدون عمل، وظيفة في القطاع العام، مع ضمانات وحقوق ومكافآت وعلاوات وترقيات، وسلفٍ وإضافات أخرى. وكانت الدونا روزيلدا كثيراً ما تعتمد على علاقاتها النَّافذة.

لم تعد تعتمد بعد ذلك على لقب الدكتور – خاتم التخرّج المميز المشع: من الزمرد للطبيب والروبي للمحامي والياقوت للمهندس – لبلوغ الارتقاء إلى المراتب العليا التي تحلم بها. يا للأسف!، لم يعد لديها أي وسيلة. فمرة أخرى يفشل زوجها القَميء مخططاتها بموته الأبله.

أقله، لم يعد بإمكانه تدمير خططها المحولة التي نضجت في أكثر أيامها صعوبة. ففي هذه المشاريع الجديدة كان المفتاح الأساسي الذي يفتح أمامها أبواب الترف والاستقرار، الزواج، زواج روزالي وزواج فلور: لتتزوجا («لتستقِرّا»، بتعبير الدونا روزيلدا تقول) أفضل زيجة ممكنة، من شابين ذوي حسب ونسب من عائلتين محترمتين، مثلاً: ابنيْ عقيدين أو صاحبيّ مزرعتين، أو من رجال التجارة – الأفضلية لتجار الجملة – مستقرين، لديهما أموال وأرصدة في المصارف. إذا كان هذا هو الهدف الذي يجب بلوغه، فكيف تجازف الابنتان بذلك من أجل وظيفتين تافهتين؟ ولم يظهران فقرهما، إذا كان ظرفهما وسحرهما لا يوقظان في الأثرياء المهمين، سوى الغرائز السفلى، والرغبات الآثمة، والعروضات المشبوهة وليس، بالتأكيد، العروضات الشريفة للخطبة والزواج؟

أرادت الدونا روزيلدا أن تبقي ابنتيها في المنزل، خجلتين، يساعدانها في العمل وفي التصرّف بما يساعد على الاحتفاظ بذلك المظهر الذي إن لم يبديهما ميسورتين فأقلّه مثقفتين ومهذبتين. وحينما كانت الفتاتان تخرجان لزيارة عائلات معروفة صباح كل أحد، ولحضور بعض الحفلات الصغيرة في منزل صديقة ما، كانتا تذهبان أنيقتين ومرتديتين ملابس جميلة، في مظهر خادع كأنهما وريثتان لعائلة راقية. الدونا روزيلدا امراة اقتصادية، تحسب القروش بدقة في محاولة لإيجاد توازن مع الشؤون المالية المنزلية، ثم تمضي قدماً، لكنها لم تكن تتحمل إهمال الابنتين في اللباس، حتى ولا في حميمية المنزل العائلي. فتصرّ على أن تكونا دائماً على أتمّ استعداد، جديرتين بأن تستقبلا في أي لحظة الأمير الساحر عندما يظهر فجأة. من أجل ذلك لم توفّر روزيلدا أي جهد.

ذات مرة، دُعيت روزاليا إلى حفلة راقصة صغيرة في عيد ميلاد الابنة الكبرى للدكتور جوان فالكون الثري؛ دار فخمة مزينة بثريات من الكريستال وملاعق وشوك وسكاكين من الفضة، وندلاء صارمين. وحسبك أن ترى المدعوين الآخرين، وجميعهم من أرفع المستويات تفوح منهم رائحة الثراء، لوردات. حسناً، تركت روزاليا انطباعاً جيداً، فقد كانت الأكثر تألقاً وأناقةً، لدرجة أن الدونا ديتينيا المضيفة الطيبة أطْرتْها قائلةً:

– إنها أجمل الحاضرات... روزاليا تحفة، حب...

بلا، كانت الأجمل والأثرى والأكثر أرستقراطية. وفي الوقت نفسه، كانت في الحفلة فتيات أثرى منها، بنات نبلاء المنطقة ذوات الدم الأزرق، إضافة إلى حاملي إجازات جامعية في الحقوق والفلسفة والآداب والطب، وموظفين وأصحاب مصارف وأصحاب متاجر وتجار. كانت روزاليا ببشرتها الدكناء، بشرة خلاسية من دم هندي، عذبة متوردة، البضّة والأكثر أصالة بين كل تلك الباهانيات المصقولات المنتقاة من كل حدب وصوب. وإنصافاً للحقيقة، هجينات من أرقى واجمل النسل الخلاسي!

إنّ كل من رآها بتلك الأناقة لم يتصور أن فستانها الذي أجمع الكلّ على إطرائه هو من صنع يديها بالذات وبدي الدونا روزيلدا، الفستان وكل ما ارتدته، خصوصاً تحويل زوج قديم من الأحذية إلى عمل رائع من الساتان. وبين مواهب روزاليا، كانت الخياطة هي الأكثر بروزاً، فقد فصّلت ودرزت وطرّزت وحاكت بالصنّارة.

أجل، إن ابنتيها بمواهبهما، وبتوجيه صارم من الدونا روزيلدا، هما من صنعتا تلك المعجزة: بقي إيتور في المدرسة لينهي المرحلة الثانوية، وإيجار الطابق الأول يدفع في موعده مثله في ذلك مثل أقساط الراديو والطبّاخ الجديد، إضافة إلى توفير بعض النقود القليلة لإتمام جهاز الزفاف، كالطّرْحتين والتَّاجيْن المزدانيْن بالزهور؛ وشيئاً فشيئاً ثمَّ جمع الملاءات وغطاءات الوسادات وقمصان النوم والغلالات في الصَّناديق.

إنَّ الابنتين، روزاليا بالقدم على ماكينة الخياطة تخيط بالأجرة، وتفصّل الفساتين، وتطرّز البلوزات الناعمة. وفلور، تهتمّ بإعداد أطباق الأطعمة المالحة والحلوى للحفلات العائلية والاحتفالات الصغيرة وأعياد الميلاد والمناولة الأولى. وإذا كانت الخياطة نقطة قوّة عند روزاليا، فقد كان الطَّهي نقطة ضعف عند الصغرى التي ولدت بحسِّها المرهف، مع هبة التذوّق واستعمال التوابل. كانت منذ صغرها تصنع أقراص الحلوى والأطعمة الدقيقة، وتدور دائماً حول الفرن، تتعلَّم أسرار الفن السامي من خالتها ليتا، وهي متطلّبة. فلم يكن لدى العم بورتو من إدمان – إلى جانب الرسم أيام الآحاد – سوى الأطباق الجيدة. وغالباً ما كان يرتاد مطاعم الكارورو والساراباتيل، ويتهالك على أكلة فيجوادا (فاصولياء بلحم الخنزير) أو لحم يُقلى مع كثير من الخضار. فضلاً عن أطباق الفطائر باللحم

والمُعجَّنات المحشُوَّة بالقريدس، المعدّة للغداء، الأمر الذي استحوذ على اهتمام فلور فأصبحت في النهاية مُدَرِّسةً للطهي.

واحدة تفصِّل على آلة الخياطة وتخيط وأخرى في المطبخ، مع الفرن، والدونا روزيلدا تدير الدَّفَّة، وكانتا تمضيان، بتواضع واعتدال بانتظار الفارسين الجوّالين اللذين سيظهران في إحدى الحفلات أو النُّزهات تغمُرُهما الأموال والألقاب؛ فيخطف الأول روزاليا، ويسوق الثاني «فلور»، على أنغام لحن الزفاف إلى المذبح وإلى عالم الأقوياء المَرِح. لكن روزاليا أولاً، فهي الكبرى.

كانت روزيلدا ترصد بتصميم منعطفات الشوارع منتظرةً الصهر الذهبي والفضي، مطعِّمةً إياه بالماس. أحياناً يجتاحها القنوط: ماذا لو لمْ يأتِ الأمير الساحر؟ لقد آن أوان ظهوره، ومن المستحيل الانتظار مدى الحياة، فستصل الفتاتان إلى السِّنِّ الحَرجة. روزاليا، عشرون سنة، تمزقها التنهدات أمام النافذة. وأتخمتْ من تحريك قدميها على آلة الخياطة، وتطلب حضوراً عاجلاً لهذا الدوق، هذا الكونت، هذا البارون – فمتى يُفْتَرَض أن يُحرِّرها؟ كم تأخّر، ويا له من انتظار مُتْعب. وتتخيّل روزاليا نفسها فجأة في زاوية المنزل، عانساً عذراء قاسية القلب، مع تلك الرائحة الحامضة لدى العوانس القاسيات، كما يصفها العم بورتو الطيب مبتسماً ساخراً من اندفاعات ابنة حميه الأرستقراطية.

بين حين وآخر تعتقد روزاليا أنها تستشفّ طالب الزواج المشتاقة إليه؛ في حفلات الرقص النادرة أو في نزهاتها إلى منزل الخالة في ريو فيرميليو، أو في حفلات السينما الصباحية أو أثناء تنقّلها بالسيارة مرتدية لباساً أبيض يوم أحد يُجرى فيه سباق للزوارق: أكاديمياً محباً للسخرية، أو محباً للدرس يتأبَّط مجلدات ضخمة في العلوم، أو مقوس الظهر في بهلوانية رقصة تانغو أرجنتينية، تراه بكل نزواته رومنسياً يقيم لها سيريناتا في الليل.

وكانت الدونا روزيلدا من جهتها، تنتظر أيضاً، ويتضاءل صبرها مع الأيام، فمتى؟ متى يظهر هذا الصهر المنتظر، هذا المليونير، هذا اللورد، هذا النبيل، هذا الدكتور ذو الشرّابة والقبّعة، هذا التاجر الذي يبيع بالجملة في أسفل المدينة، هذا المزارع الذي يزرع الكاكاو أو التبغ، هذا التاجر صاحب متجر الأقمشة أو محل الخرضوات أو أقلَّه هذا الغرينغو الناضح عرقاً في مخزن البقالة؟

5

لقد انتظرنا أسابيع وأشهراً وسنين وهما على أتمِّ الاستعداد وبكامل الاناقة، ولم يظهر أي نبيل؛ حتى ولا فتى أرستقراطي من بارّا أو غراسا، ولا ابن عقيد من عقداء مزارع الكاكاو، ولا أي سيد من كبار التجّار، حتى ولا غاليسي أُثري في الأعمال الشاقة في المخازن والمخابز.والذي وصل كان أنطونيو موريس مع مرآبه الميكانيكي، وكفاءته العِصَامِيّة وبذلة عمله ملطخة بالشَّحم. وصل في الساعة المُحددة، لذا استُقبل بحفاوة. كانت روزاليا قد بدأت تذرف الدموع وهي على يقين من أنها ستصير راهبةً محكوماً عليها بالوحدة؛ أما الدونا روزيلدا فلم يعد لديها العَزْم على المعارضة. صحيح أنه لم يكن الصهر الذي طالما انتظرته في لياليها الطويلة وهي تعمل على دواسة آلة الخياطة أو في ظل حرارة الفرن، ولم يعد بإمكانها أن تحدّ من اندفاع روزاليا بتعليقات منها أو جدال أو أن تهددها بنوبة غضب: عشرون سنة (وهذا كثير!) من دون العثور على زوج، إنه لأمر مقلق فعلاً.

بالإضافة إلى ما تقدَّم، يكفي أن أنطونيو موريس ليس أجيراً عند رب عمل ما، وليس مهماً أن لا يكون ثرياً. فلديه ورشته الصغيرة التي يقصدها الزبائن، وهو يكسب ما يكفي لإعالة امرأته وأولاده. وهكذا انحنَتِ الدونا روزيلدا أمام القدر، نصف انحناءة، المهم أنها انحنت، فهل من وسيلة أخرى؟

في ذلك الوقت كان إيتور قد استقر في السِّكة الحديدية في نازاريت بوساطة من عرّابه الدكتور لويس إينريكي، وذهب ليعيش في مدينة دو روكو كافو، ونادراً ما يأتي إلى العاصمة. كان له مستقبل في الوظيفة، فلا ضرورة لأن تقلق الدونا روزيلدا عليه. كما أن فلور، بدأت تعطي دروساً في الطَّهي للفتيات والسيِّدات، وتكسب المال والشهرة كمدرّسة طهي كفوءة. وتتحمَّل الآن القسم الأكبر من نفقات المنزل، لأن روزاليا، الخائفة من مضي الوقت، تنفق كل ما تكسبه على التبرج، والثياب والأحذية والعطور والمُطرَّزات.

وعوّض أنطونيو موريس روزاليا عمّا فاتها، وذلك عندما التقاها في حفلة صباحية في دار سينما أوليمبيا، حيث، علاوة على الفيلمين والمسلسل، قام السيد موتا بتقديم فنانين كانوا يمرّون

بباهيا، مسوخٍ رديئي التمثيل يجولون في البلاد ونجمات شبقات ذوات بشرات باهتة. وبينما كانت «ميرابيل، حلم فارصوفيا الشهوانيّ» وهي بولونية محترمة استهلكتها الحرب وأضواء المسرح ومخادع العازبين، تهزّ مؤخرة عتيقة رخوة من أجل ثرثرة الأطفال الذين يتعلمون التهذيب، كان أنطونيو مورايس يراقب الدونا روزيلدا والفتاتين: روزاليا في حالة الانتظار المثير، وفلور النامية الصَّدر والردفين.

لم يعد الميكانيكي يعير اهتزاز «حلم فارصوفيا» المستهلك أي انتباه. ومرّت عليه نظرات روزاليا الضّارعة المتعجرفة في آن. وعند الخروج واكب الشاب، الأم وابنتيها، القاطنات في المسكن البورجوازي في لاديرا دو آلفو على مسافة محترمة. ثم ظهرت روزاليا للحظة على الشرفة ووجهت إليه ابتسامة ذات مغزى.

وفي اليوم التالي بعد العشاء، كان أنطونيو مورايس يتمرّن على الرصيف المحاذي للمنزل ذي الطبقتين ويفكر: لاديرا فوق لاديرا تحت. ومن النافذة كانت روزاليا تختلس النظر إليه مضطربة. راح الميكانيكي يصعد ويهبط، وعيناه على الشرفة العالية، وهو يردّد ألحان بعض الأغنيات. وبعد قليل، ظهرت روزاليا تواكبها فلور، عند أسفل الدَّرج. وفي خطوة غير مبالية، اقترب مورايس منهما.

لاحظت الدونا روزيلدا اليقظة دوماً، نظرات الغزل في حفلة السينما الصباحية ، وعندما وجدت روزاليا مضطربة بشكل جامح راحت تتقصى المعلومات عن الشخص. ومن حسن الحظّ أن أنتينور كان يعرفه فزوّدها بمعلومات صحيحة جاءت في مصلحته: قال إنه ميكانيكي ميسور الحال، يملك مرآبه في غاليس، وهو وحش عمَل. فقد أباه وأمه في التاسعة من عمره في حادث تدهور أوتوبيس، فنزل إلى الشوارع، وبدلاً من أن ينضم إلى زمر الرمال وينخرط في مغامرات حياة التشرّد ومجتمع الشرّ، دسّ نفسه في مشغل بيه ده بيلون، وهو زنجي أضخم من كاتدرائية، ميكانيكي وعمله مزدهر. وفي المرآب بدأ الولد يقوم بكل شيء، ينفذ كل الأعمال بفطنة لا نظير لها. لم يكن له مرتب ثابت لكنّه منح حقّ المبيت في المرآب، ناهيك عن الإكراميات، وكان بعضها سخياً. وتعلّم القراءة والكتابة بمفرده، وعلّمه وبيه ده بيلونه المهنة، ثم بدأ يعمل لحسابه الخاص وهو

لا يزال فتياً، ويقبض لقاء أعمال إضافية. كان يتمتع بيدين ماهرتين ورأس حيوي؛ فمحركات السيارات تحكي عن تطلعاته. صحيح أنه ليس طبيباً أو ملاكاً، لكنّ ميكانيكيين قليلين يدّعون منافسته. كان كسبه للمال مضموناً، قادراً على أن يكون زوجاً من الدرجة الأولى. فإلى ما تريد أن تطمح روزاليا أكثر من ذلك، وهي ليست أميرة ولا تملك حقل كاكاو؟ – راح قليل التهذيب ليما يسأل جارته البلهاء المزمجرة.

أكدت لها معلومات أخرى الحقائق نفسها، فتشاورت الدونا روزيلدا مع عرّابها الدكتور لويس إنريكي، العالم مثل روي بابوزا ذي النصائح التي لا تقدَّر بثمن، ووازنت كثيراً بين من هم معه ومن هم ضده ثم قررت أخيراً لمصلحة الميكانيكي.

وبدأت تردد أنه ليس الصهر الذي تحلم به، الأمير النبيل الدم بخزائنه الذهبية. فالدم النبيل الوحيد الذي في عروق موريس ورثه عن أحد أسلافه البعيدين، أوبيتيكو الذي كان أمير قبيلة أفريقية استورد كعبد إلى باهيّا، دم أزرق امتزج بدم الرّعاع البرتغاليين والهولنديين المُرتزقة. فأنتج هذا الامتزاج خلاسياً مشرق الوجه سهل التبسّم، لطيفاً أسمر. أما خزائن الذهب، فإن مدّخرات وتوفيرات الميكانيكي لا تسمح له إلا بتأسيس بيت لا أكثر. لكن روزاليا دافعت عن غرامها المندفع، ولم تقبل أن تناقش الأصول الغامضة أو المهنة المشرّفة وهزالة توفيرات الفتى. وأمام هذا الإصرار من روزاليا السريعة الانفعال والتأثر بالإهانة، طأطأت الدونا روزيلدا رأسها. بعد مجيء موريس لزيارتهن للمرة السادسة – يُقاوَم بثيابه البيضاء المنشّاة، وقبّعته المعوجّة الطَّرف فوق عينيه، وحذائه ذي اللوْنين – اتجهت إليه بكلِّيَتها.

كان العاشقان متلاصقين، العينان في العينين، واليدان باليدين، يتكلمان بأمور سخيفة، حينما قطعت عليهما الدونا روزيلدا خلوتهما وراء الدّرج من دون إنذار وكمن يحقِّق معهما بصوتها المخيف القاسي قالت:

– روزاليا، يا ابنتي، ألا تريدين أن تقدِّميني إلى الفارس؟

– تمت التقديمات: وتأتأت روزاليا بالكلمات في حين ارتبك موررايس، وفي الحال اندفعت الدونا روزيلدا، بلا مراسم ودون اعتبارات:

– إن ابنتي لا تُغَازل عند أسفل الدَّرج ولا في زوايا الشارع، إنها لا تخرج بمفردها للتنزه مع الحبيب، ليس لدي بنات لتسلية الفتيان المتسكعين.. فأنا لا أربي بنتاً لتسلية أي فتى..

– لكن، أنا...

– من يريد محادثة ابنتي عليه أولاً أن يعلن عن نيّاته.

أكد أنطونيو موررايس نقاء نيّاته الصادقة المتعلقة بالزواج، فهو ليس ممَّن يعبثون مع بنات الناس. أجاب بسرعة وتواضع عن الاستجواب الدقيق، وتحقَّقتِ الدونا روزيلدا من المعلومات التي أعطاها وعلى رأسها إيراد المرآب.

– تم قبول الميكانيكي وجرى السماح الرسمي لحضوره الليلي إلى باب المنزل ذي الطبقتين ابتداء من تلك المحاضرة، وكانت روزاليا تنتظره جالسة على مقعد. ومن النافذة كانت الدونا تقوم بمراقبتها الخلقية العائلية؛ فابنتها لن تكون متعة لأي متسكع. وهكذا، حين قرّب موررايس يده الرقيقة من يد الفتاة الرقيقة سقط عليه التقريع الأبحّ للدونا روزيلدا من فوق:

– روزاليا!

هذا ما سرع أيام الخطبة. وموررايس كان مشتاقاً إلى حرية أكبر، وإلى مراقبة أقل للحميمية. وأخذ الخاطب يتردد إلى المنزل، ويخرج مع روزاليا لمشاهدة الحفلات الصباحية أيام الآحاد، في دار السينما، مصطحباً فلور لموازنة الوضع مزوّدة بأوامر حاسمة لمراقبة الحبيبين وضبطهما ومنع القبلات والتصرفات العاطفية؛ فقد أصرّت الدونا روزيلدا على أكبر قدر من الاحترام. لكن فلور لم تولد لتكون جاسوسة، بل هي متفهمة ومتضامنة مع أختها، تدير ظهرها لها ولصهر المستقبل، مركزة حواسها على الفيلم، تمضغ بذوراً محلّاة، تاركة بسلام العاشقين وشغفهما، مشغولي الفمين والأيدي.

كانت الدونا روزيلدا، خلال فترة الغزل والخطبة، ودودة بالقدر الذي تسمح به طبيعتها، مسيطرة على حدةٍ طباعها القاسية. فقد كانت بحاجة إلى تزويج الابنتين، إذ وصلت روزاليا إلى السن المحددة، ناهيك عن أنّ الفتيات اللاتي يطلبن أزواجاً يتكاثرن بينما يتناقص عدد الشبان القادرين على الزواج. كانت المعركة قاسية، معركة تزويج ابنتيها، هذا ما توصلت إليه جيداً. ومعظم معارفها من النساء اعتبرْنَ الميكانيكي مشروعاً جيداً. وإحداهن،الدونا إلفيرا، بخاصّة، كانت والدة ثلاث عذراوات قبيحات يؤذي منظرهن العين ولا شك في بقائهن مترهبّات، جعلت بُوماتِها الثلاث يحاصرن المتقدم للزواج، ويلجأن إلى ابتسامات ونظرات واعدة، بحيث لم يكن ينقصهنّ إلا جرَّه إلى السرير! بالإضافة إلى ذلك، كان مورايس عاملاً مجداً معتدلاً، لن يصعب على الحماة أن تأمره فتسوقه حسب هواها بعد الزواج. وفي هذا المجال قد خُدعت، فالصهر قد فاجأها.

غير أن الحرفي لم يعرف الحقيقة الكاملة حول روزيلدا، إلا بعد الزواج. فقد اتفقوا على السكن جميعاً في الطابق الأول في لاديرا دو آلفو، وهذا حل اقتصادي وعاطفي، لأنهم سينفقون أقل ويستمرون معاً. إضافة إلى أنّ مورايس والدونا روزيلدا ما كانا يرغبان بشيء سوى البقاء مجتمعين إلى الأبد. لكن روزاليا كانت تقاوم هذه المشاريع المتهوّرة، وتذكّره أن «الزواج يعني الزواج» لكن ماذا تفعل أمام شهر العسل هذا بين الأمِّ والخطيب؟

لم يطل شهر العسل أكثر من ستة أشهر، فتلاشى الوفاق، وكما أعلم الصهر معارفه: «المسيح وحده الذي يستطيع السكن مع الدونا روزيلدا، حتى هذا غير مؤكد فيجب أن يجرّب العيش معها كي نحكم على ما إذا كانت للناصري قدرة كافية، فربما لن يَحتمل!».

انتقلا إلى أبعد مناطق العالم، إلى كابولا وهي منطقة شبه ريفية. وفضَّل مورايس أن يستقل ذلك الترام المتأخّر والبطيء في رحلة لا تنتهي أبداً والذي ينحرف عن السّكّة في كل ساعة، فيتأخر دائماً. لقد فضَّل الخروج فجراً ليصل في الوقت المحدد إلى المرآب الكائن في جوار لاديرا دوس غاليس، ودس نفسه في ذلك المكان المخفي حيث تفح أفاعي سامة من نوع الكاسكافيل، وحيث يقوم ممارسو السحر بطقوس الكاندومبليه في الجوار، بالتجوال في الطرقات يأتون بأعمال بائسة، على العيش يومياً مع حماته، بالأحرى الكاسكافيل وممارسو السحر.

في الطابق الأول في لاديرا دو آلفو، فلور، المراهقة التي أصبحت شابّةً جميلةً – وجه رقيق ناعم، ونهدان عارمان وردفان متكبّران – والدونا روزيلدا، التي تزداد فظاظة مع مرور الأيام وهي تصب جهودها الآن على سحر ابنتها ومزاياها، كآخر إنجاز في معركة خسرتها عدة مرّات.

غير أنها لم تتخلَّ عن كفاحها ولم تتناقص رغبتها الثَّابتة في الصعود بخطوات متسارعة على السلم الذي سيوصلها إلى عالم الأغنياء. فقد صممت في ليالي أرقها المتعبة، أن لا تنام إلا قليلاً لتفكر في مشاريعها، على ألا تُسلم ابنتها الصغرى لمورايس آخر. لقد تربت فلور لتكون من نصيب إنسان أفضل. شاب مُمَيَّز أبيض نقيّ، لدكتور متخرّج أو لتاجر. سوف تدافع بأظفارها وأسنانها عن ذلك الحصن الأخير، ولن تكرر ماحدث مع روزاليا. هذا لا يعني أن فلور كانت أكثر انصياعاً لها أو أذكى من أختها، أو أنها تخْشى أن تبقى عانساً، فلم تكن قد تحدثت بعد عن الزواج، ولا تنتفض ضد أمها حينما تمنعها من ملاطفة مستخدمي المكاتب الصغار أو بائعي الخرضوات الجوّالين أو الغاليسيين العاملين على منصة البيع في المخبز. كانت تطيعها من دون أن تتذمر، لا تتمرد بالصراخ والزعيق، ولا تغلق على نفسها باب غرفتها مهددة بالانتحار، كما كانت تفعل روزاليا عندما كانت الدونا روزيلدا القلقة على مستقبلها، تحول بينها وبين مغازلة أحد أبناء الطبقة الدنيا. والنتيجة؟ تزوجت من ذلك التافه من آل مورايس، شخص لا قيمة له، ليس بائعاً جوّالاً بل مجرد حرفي بسيط، عامل، يا له من أمر مرعب! لقد كان من دون مستواهم اجتماعياً. ربما يكون ممتازاً في العمل، يكسب مالاً، ويصير زوجاً جيداً رقيقاً مرحاً؛ لكن تبقى الحقيقة هي أن المرتبة الاجتماعية لابنتها قد هبطت بدلاً من أن تصعد، كانت تلك هي أقلّه، المرارة في نفس الدونا روزيلدا، مرارة الطامحة إلى مراتب أخرى. أمّا مع فلور فسيختلف الأمر: لن يتكرر ذلك الخطأ.

بينما كانت الدونا روزيلدا تخطّط لمستقبل فلور أصبحت هذه الأخيرة مدرّسة معروفة في الطَّهي، خصوصاً في المطبخ الباهيّاني. فقد ولدت ولديها موهبة التوابل؛ ومنذ طفولتها، كانت تعود مع وصفات عديدة متعلِّمة أطعمة معقَّدة، راشَّة الملح والسكر؛ ومنذ فترة طويلة وهي تتسلم توصيات على أطباق باهيّانية، وتُستدعى بانتظام لتُساعِد في أطعمة الفاتاپاس والإيفو، في الموكيكا، خصوصاً في الكارورو الخاص بكوزمي وداميان كما هو في منزل خالتها ليتا وعند الدونا ألفيس، حيث يجتمع عشرات المدعوين ومع ذلك يتبقى طعام يشبع الكثيرين. كارورو سنوي، نذور مقدمة

للقدّيسين التوائم. وبمرور الوقت انتشرت شهرتها، وبدأ الناس يقصدونها لوصفات معيّنة، أو يأخذونها إلى بيوت الأثرياء لتعلمهم كيفية صنع هذا الطبق الصعب أو ذاك. الدونا ديتينيا فالكون والدونا ليجيا أوليف والدونا لاوريتا تافاريس والدونا إيفاني سيلفيرا وسيدات أخريات «من ممثلات الطبقة الراقية» والتي كانت الدونا روزيلدا تطري صداقتهن كثيراً، كنّ يوصين بها صديقاتهن، حتى طفح العمل ولم يعد لديها الوقت الكافي، فأوحت لها إحدى هؤلاء السيدات الراقيات بفكرة المدرسة، إذ طلبت منها وصفات نظريّة وعروضاً عمليّة مصرَّة على أن تدفع لها لقاء عملها، موضحة أنّ المال هو للمدرّسة الرائعة، الصديقة الطيّبة، لا لأنها مجرد طاهية. كانت لفتة رقيقة من الدونا لويزا سيلفيرا، السيرجيبيةالنبيلة الملأى بالنباهة والنعومة.

بدأت فلور بتجهيز مدرستها بشكل جدّي وشرعت في التعليم إثر رحيل روزاليا وموريس إلى ريو ده جانيرو. فقد استخلص الميكانيكي بأن المسافة بين مرتفعات كابولا ولاديرا دو آلفو غير كافية، فأراد أن يضع بين منزله ومنزل حماته المحيط كلّه، مؤكداً كراهية مقدسة للدونا روزيلدا «المرأة القاسية» وكما كان يصفها: «إنها الطاعون والمجاعة والحرب!».

وسرعان ما حظيت المدرسة بالازدهار، حتى إن سيدات من كانيلا وغراسيا، ومن بارّا نفسها قدمن لاكتشاف أسرار زيت الزيتون وزيت الدينديه؛ من أولى تلميذاتها الدونا ماغا باتيموسترو، وهي ثرية جداً لها علاقات كثيرة، داعية متحمسة لمواهب فلور.

ومضى الوقت، والسنون تجري، وفلور ليست مستعجلةً على العريس، والآن بدأت الدونا روزيلدا تقلق؛ فالبنت الصغرى لم تعد صغيرة. أما فلور فكانت تهزّ كتفيها ولا تهتم إلا بمدرستها. وفي إحدى زيارات شقيقها قادماً من نازاريت، قام برسم لافتة بالألوان علقتها تحت الشرفة (أثنوا على طريقته في الرسم):

1. مدرسة الطَّهي مذاق وفنّ

كان إيتور قد قرأ في الصحف خبراً مفصَّلاً عن مدرسة «مذاق وفن»، تجربة أنيزيوتيشيرا القادم من الولايات المتحدة، فتبنّاه لمصلحة شقيقته مع تبديل كلمة في العنوان. وإلى جانب الحروف البارزة رسم ملعقة وشوكة وسكيناً متقاطعة في ركيزة جميلة ذات ثلاث قوائم، ممّا شكل اللمسة

النهائية على عمل الفنان (لو حدث ذلك الآن لفكّر إيتور بإقامة معرض فردي يبيع فيه بعض اللوحات بسعر جيّد، لكن ذلك حدث في وقت اكتفى فيه موظّف السكة الحديدية بإطراء أخته وأمه وتلميذة معيّنة لفلور، تلميذة نَدِيّة العينين اسمها سيليستي).

وفَّرت دروس الطَّهي ما يقوم بمصاريف المنزل والنفقات الزهيدة للأم وابنتها، ولادخار قليل من المال لنفقات زفاف مستقبلي. والأهم من ذلك كلّه أنّها ملأت وقت فلور وحررتها نوعاً من الدونا روزيلدا التي مازالت تردد على مسامعها كم كلّفتها تربية أولادها وتعليمهم من تضحيات، خصوصاً تربيتها هي الابنة الصغرى وتعليمها، وكم من الضروري العثور على زوج ثري ينتزعها من هنا، من لاديرا دو آلفو، ومن الفرن، إلى أمكنة البارّا وغراسا وفيتوريا.

لكن فلور لم تكن تعبأ بمغازلة ما أو خطبة ما: ففي الحفلات الصغيرة ترقص مع فلان هنا، وفلان هناك، تسمع كلمات الإعجاب فتبتسم شاكرة لا أكثر ولا أقل. لم تتجاوب حتى مع نداءات طالب دكتوراه في الطب عشقها وكان من ولاية بارا، مرحاً، محباً للحفلات أنيقاً. لم تبدِ اهتماماً به، رغم تشجيع الدونا روزيلدا: فأخيراً أتاها طالب يكاد أن يصبح طبيباً، يتوق إلى طلب يد ابنتها.

وأعلنت فلور جازمةً:

– لا أحبه... بشعٌ كالكلب...

لم تُجْدِ أي نصيحة أو توبيخ من الدونا روزيلدا التي تلتهب بالغضب في حَمْلها على تغيير رأيها. أصيبَتِ الأم بالرعب: فهل ستكرر حالة روزاليا، وهل فلور عنيدة مثل أختها، عنيدة، مستعدة لأن تحل مسألة العريس والزواج على حسابها الخاص؟ وعندما يخطر على بالها أن شخصية ابنتها الصغرى هي نسخة طبق الأصل عن طبيعة المرحوم جيل خاضعة لأهوائها فلا تستلطف الدكتور الشابّ الذي على قاب قوسين أو أدنى من الحصول على الديبلوم، وابن إقطاعي في بارا صاحب بواخر وجزر وحقول أشجار المطاط وغابات من أشجار الكستناء وقبائل الهنود المتوحشين، والأنهار الهائلة.. مدماك من الذهب. وبدأت الدونا روزيلدا تستعلم عنه فعادتْ بعد مقابلة مع بعض

معارفها تحلم بنفسها في أمازونيا تحكم على فراسخ من الأرض، تأمر وتنهي الهُجَناء والهنود؛ وأخيراً ظهر الأمير الساحر، ولم يكن انتظارها بدون طائل، ولا تضحيتها بلا مردود. سترسو في نهر الأمازون وترسو في البيوت المتغطرسة في بارّا، في الدّارات التي طالما أَقْفِلَتْ بوجهها في غراسا، وسيحتفي بها أصحابها بإلقاء التحية عليها وتملُّقها.

لكن فلور ابتسمت بوجهها اللطيف المستدير، بلون الماتي، تبتسم بغمازتيْ خديها الرائعتين، بعينيها المندهشتين، وتكرر بصوتها المتعب، صوت متمارض بليد:

– لا أحبه... إنه قبيح مثل الحاجة...

«أي شيطان تفكرين فيه؟» بالكاد استطاعت الدونا روزيلدا أن تتمالك نفسها. ففلور تتصرف كما لو أنّ الزواج هو مسألة حب أو لا حب، كأنما هناك رجلٌ قبيح ورجل جميل، وكأن هناك فائض من طالبي الزواج أمثال بيدرو بورجيس في لاديرا دو آلفو!

– الحب يا كونتيستي التافهة يأتي مع المعاشرة، مع الفوائد المشتركة، مع الأولاد، يكفي ألا يكون ثمة نفور. هل تنفرين منه؟

– أنا؟ معاذ الله، إنه طيب. لكن المسألة هي أنني أريد رجلاً أحبه... فبيدرو هذا هو حيوان لشدة قبحه... كانت فلور تلتهم الروايات الرومنسية، وتشتهي فتىً فقيراً جميلاً، جسوراً وأشقر.

وتروح الدونا روزيلدا تزبد منفعلةً غاضبة؛ ويدوي صوتها عبر الشارع مرجِّعاً صدى النّزاع؛ بحيث يسمعه كلّ الجيران:

– قبيح! أين رأيتِ رجلاً قبيحاً أو جميلاً؟ إن جمال الرجل، أيتها الشقية، ليس في وجهه، بل في خُلُقِه، في مركزه الاجتماعي، في ممتلكاته. أين رأيتِ رجلاً ثرياً يُعتبر بشعاً؟

لم يكن بالنسبة إليها ثمة أي مجال للمقارنة بين بورجيس البشع (لم يكن بشعاً إلى هذا الحدّ فهو معافى طويل القامة، صحيح أن وجهه كان بشعاً نوعاً ما...) وذلك الحشد من الأولاد الوقحين والمهينين في ريّو فيرميليو، بلا أي توستون (قرش) في جيوبهم، لا يملكون أي مكان حيث

يرقد بعض العاطلين وهم على صورة الأموات. أما الدكتور بورجيس – كانت تستبق اللقب – كان شاباً خيّراً، كما تستشف من سلوكه فوراً، ومن أسرة فاضلة من بارّا، عريقة في الثّراء. لقد علمت هي، الدونا روزيلدا أنهم يسكنون قصراً في بيلين وخدمهم أكثر من دزينة، دزينة! أسمِعت يا ابنتي السيّئة؟ صاحبة النزوات البلهاء المغرورة العابثة. كل بلاط قصرهم من المرمر، وسلالمه من المرمر أيضاً. وبسطت يديها بحركة مسرحية قائلة:

– أين رأيتِ رجلاً ثرياً يُعتَبَر بشعاً؟

وتبتسم فلور في وجهها (ما أجمل غمازتيها!) لم تكن مستعجلةً الزواج. وقد أغلقَتْ فم أمها نهائياً إذ قالت:

– يا سيدتي أنتِ تتكلمين كما لو أنني عاهرة، أقيس الرجال بالمال... أنا لا أحبه، وانتهى الأمر...

دار الصراع بين الدونا روزيلدا، المتحفِّزة والمُثيرة المتوتّرة توتراً ملحوظاً وبين التي بدت هادئةً كأن شيئاً لم يقع، صراع موضوعه بيدور بورجيس المذكور، وبلغت الأزمة ذروتها في احتفالات تخرج تلك السنة عندما دعاهما طالب الطب إلى حضور الحدث المهيب والحفل الراقص.

وبمناسة حفلة التخرج المهيبة في القاعة الكبرى في الكلية، ارتدت الدونا روزيلدا ثياباً تليق بحماةٍ ما، وزيَّنت نفسها بالتافتا حتى بدت جليلةً بقدر ما هو جميل أي ديكٍ حبشيّ، وقد شبكت في عرفها مشط راقصة إسبانية. في حفل التخرّج الرّاقص، تألّقت فلور بالمطرزات وبقماش الفيلو. لم تهدأ قطّ ولم تهمل رقصة كونترا دانسا واحدة. وسعى إليها كثيرون من الفرسان. لكنّها لم تقم حتى هنا بتشجيع آمال حديث التخرج.

حتى عندما جاء عشية عودته إلى أمازونيا النائية، لزيارتهما برفقة أبيه، واسمه ريكاردو الثري البارايي، وهو عملاق ذو صوت كالرعد وأصابعه مزدانة بالخواتم، كاد يُغمى على الدونا روزيلدا عندما تأملت هذه الأحجار الثمينة الكثيرة. كان ثمة ماسة سوداء كبيرة الحجم، تساوي أقلّه خمسين كونتواً من الريالات، أوّاه، يا إلهي!

تحدث العجوز عن أراضيه، وعن ترويض الهنود وعن المطاط، عن قصص نهر الأمازون، كما تكلم عن فرحته برؤية ابنه دكتوراً يحمل سماعة الطبيب. ولا ينقصه الآن إلا أن يراه متزوجاً، من فتاة مستقيمة متواضعة مخلصة، لا أهمية للمال: فقد جمع منه ما يكفي الجميع – كان يحرّك أصابعه، فتشع القاعة وتلمع – يريد كنّة تمنحه أحفاداً وحفيدات ليملأوا بالضجيج والحرارة أرجاء ذلك المنزل الصارم المرمريّ في بيلين، حيث عاش عجوزاً متفرداً وحيداً طوال سني وجود ابنه بيدرو في الكلية. كان يتكلم وينظر إلى فلور كمن ينتظر كلمة، أو حركة أو ابتسامة! إذا لم يكن ذلك تمهيداً لطلب الزواج فهي، الدونا روزيلدا أميّة، إذاً، في هذه المسائل. بدأت ترتجف من الانفعال والقلق. فها قد حانت الساعة المباركة، ولم تكن يوماً أقرب إلى تحقيق أهدافها ممّا هي الآن؛ وراحت تنظر إلى ابنتها الحمقاء منتظرة موافقتها الخجولة، والقاطعة، لكن فلور قالت فقط بصوت مغرور:

– لن تعدم فتاة جميلة مستقيمة تتزوج من بيدرو، فهو يستحق ذلك حقاً! وكم كنت أود أن يحدث ذلك هنا في باهيّا، كي أكون أول من يحضّر حفلة الزفاف.

أعاد بيدرو بورجيس بلا ضغائن، خاتم الزواج الذهبي إلى جيبه، وسعل العجوز ريكاردو، وغيّر الموضوع فأحسَّت الدونا روزيلدا أنها على غير ما يرام، مختنقة، يكاد قلبها ينخلع من مكانه. فخرجت من القاعة في حركة مفاجئة ساخطة، وخشيت على نفسها من نوبَة قلبية وتمنت لو رأت ابنتها ميتة مدفونة، تلك الجاحدة البهيمة البلهاء عدوة أمها بالذات، الملعونة! كيف تجرأت هي على رفض يد دكتور – هو الآن دكتور فعلاً – يد شاب ثري، يد وريث جزر وأنهار وهنود، صاحب قصر كله من المرمر، خواتمه متلألئة مشعّة، أوّاه، كيف تجرأت تلك النغلة البائسة؟

آه! أي سور من الحقد والعداء من سوء فهم لا يغتفر ومن ضغينة دفينة، انتصب بين الأم وابنتها، فانفصلتا بعضهما عن بعض إلى الأبد. ألم يظهر فادينيو، مطلع تلك السنة ومباشرة بعد رحيل بورجيس خائباً؟ آه! أمام الألقاب، مركز وثروة فادينيو – لقد استعلمت الدونا روزيلدا بشكل كافٍ عن فادينيو بالذات وعن أصدقائه – فإن البارايي لم يكن أكثر من فقير بائس، مع كل المرمر في قصره وخدمه الاثنيْ عشر؛ فقير بائس، مع كل أراضيه وكل أنهاره.

6

استأذن ميراندون في انحناءة سريعة ومهذّبة، ، واللطف يشعّ من وجهه وجلس قرب الدونا روزيلدا. كانت كراسي القش مصفوفةً على طول محيط الغرفة مسندة إلى الجدار. كان الطالب المزمن («المواظب»، يستدرك فيقول: «المواظِب» عندما يشيرون إلى سنواته السبع في مدرسة الزراعة) مدَّ ساقيه، وقوّم بحذر استقامة بنطاله، متفحّصاً كل زوجين يرقصان التانغو الأرجنتيني العاطفي بحركاته الصعبة، وخطواته شبه البهلوانية، وابتسم بسمة رضا: فلم يكن هناك بين الرّاقصين من يضاهي فادينيو، فلا أحد يرقصُ كما يرقص هو، ليباركك الله ويقيك من إصابة العين الشريرة، يا حسرة! كان ميراندون ممن يؤمنون بالخرافات؛ وهو خلاسي نقي البشرة مغرور يبلغ من العمر ثماني وعشرين سنة، وله شعبيّة واسعة في شقق العازبين وفي بيوت القمار في باهيّا.

أحسَّ بنظرة الدونا روزيلدا تتابع نظراته، فالتفت إليها رامياً إياها بابتسامته الآسرة، يتفحصها بعين ناقد خبير. «عاهرة قطعاً، لا فائدة منها»، استخلص بأسف. ليس بسبب العمر. فمنذ وقت طويل دوّن ميراندون في دستور سلوكه مع النساء فقرة تنصّ على ألا يخيّب مطلقاً آمال أي امرأة لمجرد كونها ناضجة أو عجوزاً، ولو فعل عكس ذلك لوقع في أخطاء قاتلة: فأحياناً تظلّ النساء فوق الخمسين يتمتَّعن بقالب جسدي وبشباب نادرين مدهشين، قادرات على أن يفاجئنك بما لا تتوقّعه، ويحطّمن أرقاماً طالما ظننتها قياسية. هذا ما علّمته إياه التجربة الحيّة. والآن، فيما هو يحدِّق إلى الدونا روزيلدا المنهارة، يتذكر البهاء الغسقي لسيليا ماريا بيا دوس فاندرليز وبراتا، كل هذه الأسماء هي لامرأة من هذا الحجم، سيدة من المجتمع المخملي، امرأة مفعمة بالحيوية، تحرّكها الشياطين. كانت تتجاوز الستين سنة – وتعترف بذلك – وقد وفَّرت لزوجها ولعشاقها غابة من القرون الطويلة بشبقها رغم أنّ لها حفيدات بلزاكيّات وحفيدات في سن الزواج وهي تمنح جسدها إحساناً ويا له من إحسان! كم كانت أنثى ناريةً كريمة – مع الطلاب المُعْوِزين. وأغلق ميراندون عينيه كي لا يرى المرأة المُجاورة له القبيحة العجوز بلا موارد ولا مفر من جهة، وكي يتذكر بشكل أوضح شبق رحم سيليا ماريا بيا دوس فاندرليز وبراتا الذي لا يُنْسى وما كانت تدسّه في جيب سترته من قطع النقود من فئة الخمسين والمائة ألف ريس خفية؛ كانت تسعى وراء النشوة ثريةً! يا لتلك الأوقات الرائعة حين كان ميراندون يبدأ بالدّرس وبالغوص في متاهات الحياة، كطالب في السنة

الثّانية في كلية الهندسة الزراعية، وكطالب تحضيري في الليل، وكانت ماريا بيا دوس فاندرليز ترشّ عطوراً باريسية أصيلة على غضون عنقها وعلى قسمها الأسفل.

فتح عينيه مجدداً على القاعة، وهو يشمّ أريج الجدة الذي لا يُنسى؛ وبجواره هذه المرأة التافهة بوجهها الشبيه بوجه عجوز تمارس السحر والشعوذة – بذبول وجنتيها، وعرف شعرها – كانت مصرّة على التحديق إليه بعينيها الصغيرتين، إنها فزّاعة، لا بدَّ أن رائحةً كريهةً تنبعث من تحت غلالتها من كتلة لحمها المتهرّئ، واستعاد ميراندون بسرعة رائحة بقايا عطر فرنسي من أعماق ذاكرته – آه! فاندرليز النبيلة، أين أنت الآن، أصبحتِ سبعينيّة؟ أما هذه الهرمة الرّابضة على الكرسيّ فيا لها من عجفاء قبيحة!

وهو مثقف، يشرّفه أن أصبح طالباً دائماً في الهندسة الزراعية، لذا لم يبتسم للدونا روزيلدا: فهي بغيّ، عاهرةٌ رخيصةٌ، بقايا سمكة مقدّدة، لا تنفع لأفكار وتصرّفات العاهرة، وهي حتى في ذلك لم تستوجب الاحترام والانتباه؛ بدت أرملةً أمّ العائلة المنهوكة؛ وكان ميراندون في أعماقه أخلاقياً ممّا لم يكن مألوفاً في بيوت القمار. إضافة إلى ذلك فقد حانت لحظة نشوته:

– حفلة صغيرة حيوية، أليس كذلك؟ – سأل الدونا روزيلدا منطلقاً في حواره التقليديّ.

وكان هكذا، دائماً، في كل سكراته المتكررة. يشعر بادئ الأمر بسرور عارم يعبّر عنه بالصفير، ومعه يصبح العالم كله كاملاً جميلاً، والحياة مرحة سهلة، وفي مثل تلك اللحظة يصير قابلاً لتفهّم الأمور وتقديرها، ويحس برابط فكري مشترك شامل بينه وبين سائر الكائنات، حتى بينه وبين هذه الببغاء المتغطرسة جارته على كرسيّها برائحتها النتنة. وبدا رقيقاً محافظاً وبدأت مخيّلته تعمل من دون توقف. وهكذا تراجعت شخصية الطالب الفقير، «الطالب الدائم العطش إلى الأبد» – وهي شخصية خلقها بنفسه يعيشها فعلاً – لتترك مكانها شخصية الشاب المهم المهندس الزراعي الناجح الذي يترقّى في المركز الذي يشغله في أوقات فراغه بإضافة مزايا أخرى إلى مزاياه: فيقوم بمهامّ خطيرة ويغوي النّساء. كانت روايته للقصص تصعق المستمعين إليه؛ كيف كان يرويها! كان بارعاً في الرواية مبدعاً في أسلوبه، تقليدياً في نثره الجيد.

لكن حالما يمتد السكر إلى آخر الليل، يأخذ هذا التفاؤل المُفرِط والفرح، بالاضمحلال؛ وتنتهي العربدة فيبدأ ميراندون يغلّف نفسه بالتحسّر والنَّدب، يتقوقع على نفسه يضرب ذاته بسكاكين النقد الذاتي بدون شفقة، متذكراً زوجته ضحية الذل الذي تعانيه، وأبناءه الأربعة بلا طعام، وكيف أن العائلة كلها مهددة بالطرد من المنزل، «كم أنا بائس سافل!» ويفتخر ميراندون بأنه قد تألّم، وإن متأخراً، ألماً صادقاً، فقد كان، امرءاً أخلاقياً. لكن ظهور هذا الجانب الآخر المنتحب كان نادرَ الحدوث، إلا في مناسبات السكر العظيم.

في الساعة العشرين والدقيقة الثالثة والثلاثين، في المنزل وفي حفلة المقدم بيرجينتينو بيمنتيل، المتقاعد، من الشرطة العسكرية في الولاية، وجد ميراندون نفسه راضياً عن العالم، ودوداً يقتنص الفرصة لتبادل الأفكار مع الدونا روزيلدا. فقد انتهى من الأكل والشرب في قاعة العشاء، متذوقاً جميع الأطباق، ساكباً مراراً من بعضها مسرفاً في الأكل. كان هناك على طاولة العشاء ليتوني باهيّاني، وفاتابان وإيفو وآبارّا وكارورو وموكيكا السيري الرخو والقريديس والسمك والأكاراجيه والأكاسا ودجاج الشينشين وأرز الهاوسا، علاوة على أكوام من الفراريج والديك الرومي المشوي وأفخاذ الخنزير وشرائح من السمك المقليّ لأولئك الجهلة الذين لا يتذوّقون زيت الدينديه (وكان يقول ملء فمه وبلا مبالاة، إن هناك ضواري من كل نوع في هذا العالم، أشخاصاً هم قادرون على أي عار). وبعد كل هذه المآكل ارتوى من الآلوا والكاشاسا والجعة والنبيذ البرتغالي. لقد اعتاد المقدّم إقامة حفلته هذه منذ أكثر من عشر سنوات وفاءً لنذرٍ نذره عندما أنقذت الآلهة زوجته من خطر الموت بسبب حصى في كليتها. ولم يكن يوفّر شيئاً، بل يجمع المال طوال السنة لينفقه في هذه الليلة وهو راضٍ. ويتابع ميراندون غِيِّه: ملعقة من هنا وكأس من هناك.. وهو الآن متخم، مخنوق لكثرة ما أكل وشَرب، لا شيء يساعده على الهضم إلا إجراء محادثة شيّقة.

في القاعة، راح كل ثنائيّ راقص يدور على أنغام التانغو الأرجنتيني، وكان جوانزينيو نافارو على البيانو. يكفي أن تقول: جوانزينيو نافارو. فلم يكن في باهيا من هو أشهر منه في العزف على البيانو. وراح أناس معروفون، مثل القاضي كوكيجو الخبير بالموسيقى، بإدارة المذياع ليسمع العازف وهو يلعب على البيانو عازفاً أغاني شعبية. ألم يكن يبعث الحيوية في فجر التباريس

بعزفه على البيانو؟ من الصعب أن تحصل عليه لحفلة خاصة. فلا وقت لديه لأولئك الهواة. لكنّه جاء إلى حفلة المقدّم المنزليّة التي لا يستطيع تجاهلها بسبب ملاطفات قديمة يدين بها إليه.

كان ميراندون يتطلّع إلى الراقصين بارتياح، معبراً عن إعجابه بعزف جوانزينيو بهز رأسه – فيا له من ماهر! – وابتسم لجارته وقد تأكد من غياب مطلق متطفّل آخر، باستثنائه، هو، وفادينيو، حيث كان التسلل إلى حفلة المقدم تيريركا (كما لقّب الأولاد في ريو فيرميليو بيرجينتينو الشجاع) مأثرة مستحيلة، مثار مراهنات وتحديات. واعتبر ميراندون أنه كسب الرهان؛ إذ استطاع هو وفادينيو، من اختراق الحاجز الذي أقامه المقدم أمام الباب الثقيل المصنوع من خشب البلوط، والمغلق بالمفتاح – الممر الوحيد الذي لا يفتح إلا للمدعوين، وللمدعوين فقط وجميعهم وجوههم مألوفة لصاحبيْ البيت، وأصدقاء منذ زمن بعيد – فقد تمكّنا من جعله يفتح أمامهما وسمح لهما بالدخول. بل لقد استقبلهما المقدّم وزوجته الدونا أورورا بالأحضان رغم حرص الزوجة على التأكد من هوية من تعاشر. وفي الخارج، في ذلك الهدوء المُفْعَم بالانتعاش أحسّ المحبطون بمرارة الهزيمة وهم يرونهما يدخلان الحفل بعد حوار مقتضب مع المقدم تيريريكا، مجتازين العتبة المستحيلة العبور إلى حيث الهتافات الصاخبة من الدونا أورورا. فكيف تمكنا من ذلك؟

تنهد ميراندون ببطن ممتلئ، وابتسامة طوباوية. وهناك كان فادييفو، في القاعة يراقص سيّدة جميلة محيطاً إياها بذراعيه. سمراء، ممتلئة مكتنزة باللحم، فالكلب وحده الذي يحب العظام! ذات عينين بلون الزيت وبشرة نحاسية بلون الشاي، رائعة الردفين والنّهدين.

– «إنها الإغواء بعينه، شريحة من ضلال، يا للسمراء التي تقود إلى الهلاك!» – أبدى ميراندون إعجابه بالشابة التي تراقص صديقه.

تنبّهت جارته مندهشةً، ونفخت صدرها الأعْجف، ونبحت بصوت ينذر بالمعركة:

– إنها ابنتي...

لم يبدل ميراندون موقفه:

– إذن تقبّلي تهانيّ، يا سيدتي. فالمرء يرى فوراً أن الفتاة مستقيمة، ابنة عائلة محترمة. إن صديقي...

– هل صديقك من يرافقها؟

– صديقي؟ بل هو صديقي الحميم، يا سيدتي! أخ...

– ومن هو، هل تستطيع أن تخبرني؟

تمركز ميراندون على الكرسي، وتناول من جيبه محرمة معطّرة، ومسح بضع قطرات عرق من على جبينه العريض وقد ازداد سروره؛ فأحب شيء إليه هو رواية قصة كاذبة، قصة مسلّية للغاية.

– اسمحي لي أولاً أن أقدم نفسي: الدكتور جوزيه رودريغيز ده ميراندا، مهندس زراعي، معيّن في مكتب المفوَّض المساعد... ومدّ يده متودداً.

في بادرة ارتياب أخيرة قاست الدونا روزيلدا من يخاطبها بنظرة نفّاذة. لكن وجهه الذي ينضح كبرياء وابتسامته الصريحة أخمدا كلّ اشتباه وقضيا على كلّ مقاومة، كانا يجرّدان أياً كان من سلاحه ويستوليان عليه حتى لو كان خبيثاً ومشاكساً كالدونا روزيلدا.

7

بين معترضتين

مع شيمبو وريتا ده شيمبو

في عصر ذلك اليوم، عند نهاية فترة ما بعد الظهر، عندما كان الطقس الحار والرطب متعاظماً، والجو كثيفاً، وقد انتصب على الإسمنت المسلّح فادينيو وميراندون في سان بيدرو، في بار آلميدا، ليحتسي كلّ منهما أول كأس كاشاسا له في ذلك اليوم، يضعان الخطط لليلة الاحتفال في ريو فيرميليو. ثم شاهدا عند باب الحانة شيمبو قادماً بوجهه الملتهب، كان قريباً مهماً لفادينيو، مفوضاً مساعداً بالوكالة، أو قلْ، الشَّخص الثاني في الشرطة.

وكان كاتب وقائع الزواج وابن سياسي له نفوذه مؤيّد للحكومة، بلا احترام من قبل قساوة والده التقليدية، من دون أن يبدي اهتماماً للمنافع، ابن العم البعيد لفادينيو هذا، غيمارايس الثري الأصيل كان بوهيمياً، مرحاً مدمناً على الشرب، وعلى لعب النَّرد ومعاشرة العاهرات، يقول لجميعهن: صيحة غضب مجنونة.لكنّه اعتزل اللهو فيما بعد نوعاً ما مُجبراً ليصبّ اهتمامه على المركز الذي أصبح فيه والذي لم يستمر فيه طويلاً، إذ فضّل حريته على المركز، لا يبدلها بترقية مهما كانت رفيعة، ولا بلقب مهما كان مستواه. فقد استقال من منصبه الذي دبّره له أبوه (عضو مجلس الشيوخ الإقطاعيّ) كمحافظ لمدينة بيلمونتي بعد انتخاب صُورَيّ. وتخلّى عن المركز واللقب، وعن الواجبات والمميزات، ودفع في سبيل ذلك ثمناً باهظاً. فسكان بيلمونتي لم يقتنعوا بمزاياه الإدارية الحقيقية، وكانوا يلحّون على حاكمهم بضرورة الالتزام بعاداتهم التي لا تُمَسّ، في تعسُّف لا يُحتمل.

وانفتحت أبواب جهنّم إثر انفجار فضيحة لا سابق لها لمجرّد أنه تجرَّأ واستقدم من باهيّا عدداً من النساء الجانحات، في رغبة منه لإبعاد الملل والوحشة عن البلدة: فاستقدم ريتا ده شيمبو، وهي من معالم ليل التباريس الحيوية.ولقبت بشيمبو لغرام قديم وطيد وحّدهما، حبّ مبهج كتب البوهيميون فيه شعراً ونثراً. وكم تشاجرا، وتشاتما وانفصلا نهائياً ثم تصالحا بعد بضعة أيام وعادا إلى غرامهما، متحابين. من هنا أضافت ريتا اسمها إلى لقب حبيبها، كعروس تتبنّى اسم عائلة العريس في الزواج. وحين علموا بأمر المحافظ، الذي يمارس حق الحياة والموت على السكان المجرّدين من إمكانية الدفاع، أصرّوا في رسالة برقية، على أن تشاركه السلطة. أي فرح في العالم يمكن أن يضاهي الاغتباط بالسلطة وبالحكم؟ أراد أن يذوِّقَه لريتا شيمبو الشّهوانية، وهو يجد نفسه وحيداً في ليالي بيلمونتي الطويلة المُملة الفارغة، ودرس بإمعان الطلب الحار، ثم أمر بإحضار المرأة الجانحة.

كان شيمبو محافظاً أي ملكاً على مدينة، ونزول ريتا ده شيمبو من الباخرة إلى هذه الأمبراطورية لم يمرّ مرور الكرام، فقد كانت المَحْظيّة الملكيّة الأثيرة. لقد دعاها لتكون في حاشيتها ثلاث نساء رائعات الجمال، مختلفات عن بعضهن البعض لكنهن ممتازات جميعاً: زُليخة مارّون، الخلاسية اللامبالية صاحبة الأهواء، بردفيها المهتزّين اللذين يغلقان الشوارع، فيتعثر بهما المارّة،

وآماليا فوينتيس، البيروفية الغامضة بصوتها الناعم، وأصولها المختلطة، وزيزي كوليوندينيا شقراء هشّة ككوز ذرة عندها أسلوب خاص بها في مطارحة الغرام. القافلة المذكورة الرائعة – والثقيلة كما يُقال – لم تلقَ في بيلمونتي الاستقبال الحماسيّ الجدير بها؛ بل العكس: فقد أصبحت هدفاً لعداوة مفتوحة من جانب السيدات وحتى السَّادة، وإذا استثنينا جماعات اجتماعية معيّنة: الطلاب الذين لم تنبت لحاهم بعد ومتسكعي الليل النادرين ومعاقري الكاشاسا عموماً نستطيع التأكيد بأن الناس كانوا عموماً مرتابين متباعدين.

ثم شوهدت ريتا ده شيمبو عند منتصف الليل، عند أسفل درج دار المحافظة سكرى لدرجة أنها سقطت مراراً على الأرض، تحيي المدينة بمجموعةٍ لا تنضب من النّعوت القَذِرة. وانتشرت الأخبار المذهلة: كيف أن العجوز إبراهيم التاجر والجَدّ يزحف على بطنه تحت قدميْ زُليخة مارّون بشكلٍ مضحك، مبذِّراً إرث أحفاده على القصف مع عشيقته؛ ثم بيريكو، وهو ما زال غلاماً آنئذٍ، مستقيماً وعفيفاً، موظفاً في البريد، رئيس أعمال بياس الإبداعية، هام بآماليا فوينتيس، واكتشف فيها نقاء جذورها وتديّنها فقدَّم لها خاتم الخطبة جاعلاً عائلته صاحبة المفاهيم التقليدية بلا حولٍ ولا قوة؛ أما ذروة الفضائح فكانت لدى كوليوندينيا التي أصبحت المعشوقة المفضلة عند كلّ الطلاب الثانويين: حلمهم وملكتهم المتوجة، رايتهم في المعركة ومثالهم الأعلى. وكانت تجلس بكل شقارها في ليالي بيلمونتي، محاطة بتلامذة المدارس وبالشاعر سوسيجينيس كوستا الذي كرّس لها عدداً من الصونيتات. آواه! يا للعار!

حتى الأسقف بالوكالة، الأب المُخْتال بكلامه الشبيه بالنباح راح يعظ ضد شيمبو، اتّهامات كاتيليناريه مشبعة بالحماسة ضد غلمته الفاضحة. فصنّف الجانحات العزيزات ب– «قمامة البغاء القادمة من العاصمة»، و«نصيرات الشيطان». يا للبنات المسكينات! طقس مضطرم، والكنيسة ممتلئة بالناس في قداس يوم الأحد، والمحترم يتهم شيمبو بأنه يحوّل بيلمونتي الوادعة إلى سدوم وعمورة، يدمّر بيوتها ويحرقها ويشتِّت عائلاتها، هذه البلدة التعيسة المنكوبة بالمحافظ الفاسق، «نيرون بسراويله الداخلية». وكان شيمبو يمتلك حسّ الفكاهة. فضحك من عظة الأب اللاذعة. وبكت الجانحات، وطالبت ريتا ده شيمبو بالانتقام، فاقترح ميغيل التركيّ – وهو عربي يحب

التمجيد، أمين سر المحافظة، معروف بتملّقه غير المحدود لآل غيماريس ، أن يقوموا بالانتقام عن طريق إرسال اثنين من القبضايات موضع ثقة، فيمزقان رداءَه الكهنوتي من على جسده.

جفَّف شيمبو دموع ريتا، وشكر للسوري وفاءه لآل غيماريس، وأَثنى على الشريرين المجرمين القاتليْن قاطعي الطريق من إيليوس. فقد كان شيمبو حذقاً متبصراً بالأمور، ولم تكن الحنكة السياسية تنقصه. فقد تخيّل ردة الفعل لدى العجوز إذا دخل في حرب مع الكنسية، وضرب كاهناً لإرضاء بعض العاهرات!علاوة على ذلك، يحقّ للأب أن يغضب على هذا النحو بهذا الشكل. ففي وصفه له «بنيْرون بسراويله الدّاخلية»، كان يشير إلى ما حدث في تلك الليلة عندما اجتاز المحافظ المرموق المدينة لا يستر عورته سوى سروال داخلي مُقَلَّم، فقد باغته الكاهن في مرحلة متقدمة من تعاطي الغرام مع ماريكوتا الطيّبة – وهي ربة منزل محترمة تخدم الكاهن على المائدة وفي السرير: نعجته المفضلة.

لم يتبقَّ للمحافظ شيمبو إلا جمْع المُهانات اللائي ينزلن بضيافته وتأبُّط ذراع ريتا ده شيمبو ليستقلّوا جميعاً باخرةً تابعة للشركة الباهيّانية. وهكذا استقال من منصبه، من فضائله، ومن لجنة القمار على الحيوانات المدرّة للكسب. وأصبحت بيلمونتي محرومةً من طاقته الإدارية وتعاطفه مع حسناوات العاصمة. ويشهد على كفاءة إدارة شيمبو ترميم جسر النّزول من البواخر وتوسيع المجمع المدرسي وإصلاح سور المقبرة؛ وبقي منظر الجانحات وهن يهربْن يقضُّ مضجع بيلمونتي.

التجأ شيمبو إلى مركز مغمور، لكن مُكْسِب في خدمة القانون ككاتب محلَّف لوقائع الزّواج ومفوض مساعد لرئيس الشرطة حيث لا يوجد من يحاسبه على أعماله: واستسلم مرة أخرى لحياة الليل من التباريس (حيث عادت ريتا ده شيمبو تهيمن على ليله مجدداً) إلى بالاس، إلى أباشادينيو، إلى منزل «الدوقات الثلاث»، إلى شقة كارلا، إلى إيلينا بيجا فلور، إلى الاحتفالات الليلية، ومن وقت إلى آخر كان يلجأ إلى والده الشيخ ليستخدمه في مناوراته السياسية، فيتسلم منه تزكية بمراكز لآخرين طموحين لكنه لم يطلب قطّ شيئاً له: كل ما كان يرغب فيه هو أن يعيش حراً على مزاجه.

وكان شيمبو يحب فادينيو، ليس بسبب القربى البعيدة بينهما، بل بسبب خصائص الشاب رفيقه في الروليت والكباريهات. وهكذا عندما سمع في مناسبة معيّنة شخصاً ما يقرّع فادينيو بأنه

عاطلٌ عن العمل وبدون مورد للعيش، دبّر له وظيفة متواضعة كمفتش حدائق البلدية، إذ يجب أن يكون «لكل فرد من آل غيمارايس مركزه المحدّد في المجتمع».

– ما من أحد في عائلة غيمارايس، عاطلٌ عن العمل.

إنها متناقضات شيمبو الظريف هذا، فهو متقيد للغاية بالقناعات والأعراف، مع حسٍّ عميق بعائلته وحرصه على سمعة قبيلته: آل غيمارايس.

حسناً، في عصر ذلك اليوم، التقى فادينيو وميراندون شيمبو في سان بيدرو، بينما كان المفوّض المساعد متجهاً نحو مبنى قيادة الشرطة. بدا ضائقاً بحياته وقد حشر نفسه بثياب دكناء تحتفظ بحرارة الجسم وهي الثياب التقليدية لمراسم الدفن أو الزواج – ياقة منشّاة بقبة واقفة وصدار القميص وصدريّة وطماق للحذاء وعصا بمقبض ذهبي – كم كان شيمبو متوثباً ذلك النهار الحاد من شباط/ فبراير، والهواء الساخن الرَّطب خانقاً، والقيظ قاتلاً، والأفواه متعطشة لكأس جعة مثلجة للغاية.

قال فادينيو محتضناً قريبه الحامي لظهره: «لا ينقذ حياتنا اليوم إلا هبوب عاصفة قطبيّةٍ ثلجية».

لعن شيمبو حظّه بأقصى ما يجود به لسانه الحادّ موزِّعاً الشتائم قائلاً بامتعاض: «إنها لحياة خُرائيَّة لا يوجد أتفه منها، كم هي ابنة عاهرة هذه الوظيفة» فأنا مُجبر على مرافقة الحاكم إلى كلّ مكان، إلى كل المراسم الاحتفالية، إلى كل جهة قذرة خُرائيّة... لم يكونوا قد اعتادوا رؤيته غاضباً بهذا الشكل. لكن تبيّن لهم أنه مضطرٌّ بحكم موقعه إلى حضور مؤتمر علميٍّ مهيب هو المؤتمر الوطني للتوليد، في كلِّيَّة الطُّب، مع خُطَب وأُطروحات، ومداولات وتبادل آراء حول الولادة والإجهاض، وفي ذلك إزعاج عظيم. جرع شيمبو بسرعة كأس الجعة، محاولاً إخماد الحرّ والغضب في نفسِه، لاعناً والده بأسلوبه الأزلِيّ في استخدامه في السياسة...

وممّا زاد في الطين بلّةً – وهنا التعاسة! – أن ذاك المؤتمر الذي تقررت إقامته يوافق في توقيته حفلة المقدم بيرجينتينو، المقدّم تيريريكا من ريو فيرميليو، وعرفوا فوراً بالتأكيد عمَّن يتكلّم. لقد

عمل معروفاً مع العسكري فأطلق حسب طلبه فوضوياً من السجن، والآن يريد المقدّم إكرامه بأي ثمن محضراً له تكريماً ضخماً. وحفلات تيريريكا، كما يقولون رائعة، تستحقّ عناء الحضور، يأكل فيها المرء ويشرب حتى التُّخمة. وشيمبو هو ضيف الشرف، تخيّلوا كم كان سيلهو!

– بدلاً من ذلك يتوجَّب عليّ أن أصغي لطبيب يتكلم في شؤون الولادة وشجونها. ما هذه الوظائف التي يدبِّرها لي والدي!

وتساءل كيف يقنع أباه عضو مجلس الشيوخ بأن يتركه وشأنه حيث هو. فالعجوز كان قوي الشخصية لدرجة أن الحاكم كان يخافه! وهنا أخذت عينا فادينيو تلمعان، فابتسم ميراندون، وفتح شيمبو لتوِّه أمامهما باب المجد: باب منزل المقدم.

8

في تلك الليلة، أمام مكان الحفلة، راهن المحتالان متسكِّعين آخرين بأنهما سيتسللان إلى الحفلة الراقصة وسيستقبلان استقبال ضيوف الشرف. وهذا ما جرى: دخلا فاستُقبلا بكل مظاهر التقدير على الرحب والسِّعة، ذلك أن فادينيو عرّف المقدّم والدونا أورورا بنفسه كابن أخِ المفوَّض المساعد الذي يعتذر لعدم تمكُّنه من مغادرة مركز عمله؛ فيما عرَّف ميراندون عن نفسه كأمين سر لشيمبو، أمين سرّ غير موجود قطعاً.

– لقد اضطرّ عمِّي الدكتور آيرتون غيمارايس إلى مرافقة الحاكم إلى مؤتمر للتوليد. لكنه أصرعل تلبية دعوتك، فأرسلني وأمين سره، الدكتور ميراندا، نيابةً عنه. أنا الدكتور فالدوميرو غيمارايس...

اعترف المقدم بتأثره بهذه البادرة اللطيفة من المفوض وأبدى أسفه لعدم تمكّنه من حضور الحفلة؛ فقد كان بودّه أن يكرِّمه كما يستحق؛ ثم استقبلا، هو وزوجته، بالأحضان ممثِّل صديقهما المحترم. كان يمدّ يده لفادينيو عندما صحَّح ميراندون، بوقاحة مذهلة ووضع الأمور في نصابها:

– سامحني على تدخّلي أيها المقدم، لكنّ ممثل الدكتور المفوّض المساعد هو شخصي المتواضع، أنا الدكتور جوزيه رودريغيز ده ميراندا، أستاذ محاضر في مدرسة الهندسة الزراعية،

استدعاني الدكتور آيرتون... وإن صديقي الدكتور فالدوميرو، وهو ابن أخ المفوض، يمثله هو، إنما يمثل السَّيد الحاكم...

- «الحاكم؟» - صاح المقدم، مسحوقاً بهذا الشَّرف العظيم.

«نعم»، صحَّح فادينيو وضعه. «عندما سمع الحاكم المفوض المساعد يطلب من أمين سره وابن شقيقه أن يذهبا إلى حفلة المقدم، طلب منه (إذ كان يخدم في ديوان سعادته) بأن يحتضن «صديقه الطيب بيرجينتينو ويُحيي زوجته الفاضلة».

انتفخ المقدم والدونا أورورا زهواً، ففتحا أمامهما الطريق وقدَّماهما إلى الحاضرين، وأمرا بأن تُملأ الكؤوس لهما، وتحضر الأطباق فكل شيء كان قليلاً على فادينيو وميراندون.

في الخارج، وقف رفاقهم في البذاءة مصعوقين لا يصدِّقون عيونهم. أي حيلة اخترعها السافلان ليحظيا بمثل هذه الحفاوة؟ لم يسبق أن تمكّن أي شخص من التسلل عبر مصاريع باب المقدم الذي يعتبر اقتصار الحفلة على مدعويه، وأصدقائه المعروفين الفاضلين مسألة شرف، مقسماً على ذلك برتبه العسكرية المجيدة، مفاخراً بزهو: «تسلّل، وإلى حفلتي؟ لن يمرّوا إلا على جثّتي!» وها هما أكبر طُفيليّيْن طالما تسلَّلا إلى حفلات مغلقة مهيبة، تحرسها الشرطة، ناهيك بحفلات قصر الحكومة وبيت الدكتور كليمينتي مارياني، حفلات تبدو بجانبها حفلة المقدم حفلاً راقصاً مرتجلاً، بسيطاً، مرقص فقراء، مجرّد مأدبة في أحد الأحياء، ومع ذلك فشل كل هؤلاء الطُّفيليون، في كل المحاولات التي بذلوها للتسلل إلى حفلة المقدم، محاولات تتجدّد سنوياً ولم يتجاوز أي منهم حدود عتبة المنزل المحميَّة جيداً.

نبالغ إذا قلنا إن أحداً لم يستطع التسلل إلى هذه الحفلة. فهناك إيديو غانتويس الطالب الجسور، وطالب جامعي شاب فتيّ مثله كان يلقَّب ب– «ليف اللسان الفضي» وقد تمكَّنا من التسلل مرّة قُرابة النصف ساعة داخل الحفلة لكي يُطردا في النهاية بالضرب واللَّكم بعد أن انخرط إيديو صاحب العضلات المفتولة في عراك جسدي مع المدعوين، وأخذ ليف الضَّخم يتبادل الرَّفسات مع المُقدِّم.

كيف انتصرا ثم فشلا؟ حسناً هذه قصَّةٌ أخرى، يجدر بنا أن نرويها لنقدِّر ما صنعه فادينيو وميراندون، حقَّ قدره. لقد وصل في تلك الاثناء، من باهيّا، موسيقار غريب سبقته حملة دعائيّة في الصحف لتقديم عرضين فقط لا غير في الكونسرفاتوار. كان موسيقاراً غير عاديّ يستعمل آلة موسيقية فريدة في نوعها: ألا وهي منشار يصدر أنغاماً كأي كمان رفيع المستوى. كان المذكور روسياً يحمل اسماً غريباً، هو «الرّوسي صاحب المنشار السِّحري» كما وصفته ملصقات الدعاية وأخبار الصحف. وكان لدى إيديو منشار نجارة قديم، أما ليف، فقد كان روسي الأصل، يحمل اسماً أجنبياً. وفي جنونهما لإنجاز عمل صبيانيّ جيد، لفّا المنشار بورق بُنّيّ، وشربا قليلاً من الكاشاسا لينتعشا، ثم قدَمَّا نفسيهما عند باب المقدم على أنهما الروسي صاحب المنشار ومُتَعَهده.

كان المقدم تيريريكا يمتلك حدْساً خاصاً عندما يتعلّق الأمر بمتسللين: كان يشتمّ رائحتهم من على مسافة ميل. حدّق بليف وإيديو وقرع في داخله ناقوس الخطر: لكن، ما إن سمع المدعوون بحضور «الروسي صاحب المنشار السحري» حتى بادروا إلى تحيتهما متحمّسين لسماع الروسيّ يعزف. وفي صمت هادىء، فتح المقدم الباب سامحاً بدخول المحتالين والشكوك تتنازعه. لكنّه استمر يراقبهما. وأسندا المنشار خلف قطعة أثاث، ولمس المقدم الجشع في أعينهما وهما يندفعان نحو القاعة حيث العشاء، متلهفيْن إلى الأكل والشُّرب. فتبادل نظرة مع الدونا أورورا التي لم يرق لها – مثله – كل ذلك التَّمثيل. عندئذ ألحّ المقدم عليهما بدعم من جميع المدعوين المتلهفين لسماع الروسي، على أن يعزف ليف حالاً: أولاً العزف، ثم يكون لكل منهما حصَّته من الطعام. وبرغم محاولات إيديو تأجيل لحظة الكارثة بحديثه الماكر لم ينجح بذلك.

وممّا زاد في الطين بلّة أن تحوّلاً غريباً طرأ على شخصيّة ليف، الذي شعر فجأةً أنه ملهم، وراح يعيش دوره فعلاً حتى اعتبر نفسه في الحقيقة الروسي العازف!. وهكذا، وقبل أن يلح عليه أحدٌ، تناول المنشار القديم في خضمّ التصفيق والهتاف، وفي حركة متقنة ببراعة: – انحنى هيكله الهزيل والطويل بشكل زاوية، وشعره منفوش وعيناه تتطلعان إلى السماء كأنه مايسترو حقيقيّ – بحيث خدع الجميع وأثر حتى في المقدم بالذات وفي الدونا أورورا، طالما لم يخدش هو بملعقة قهوة، جسم المنشار. لكن مع الضربة الأولى، أدرك الحاضرون جميعاً أنهم أمام مهزلة. وحده ليف استمرّ وكأنه عازف فعلاً يمتلك القدرة على إحداث الذَّبذبة بضربات الملعقة على المنشار؛ لكن لا المقدم ولا زوجته أو أحدٌ من المدعوِّين أظهر أدنى تعاطف مع فنّه وإصراره على متابعة العزف.

وتقدّم المقدم يتبعه بعض أصدقائه ممن ساءَهم ذلك المزاح السمج. وكان اجتياز الممر المؤدي إلى الباب الموصل إلى الشارع طويلاً وملحمياً، ولا يُنسى حقيقةً. سوف يتذكر إيديو وليف طوال العمر الصفع والرّكل واللكم والسقوط على الأرض والتقريع. كان بودّ الدونا أورورا لو تفقأ عيونهما، لكن المقدم اكتفى بقذفهما إلى الشارع، وسط أناس رابطي الجأش ورموْا فوق الجسدين الممدّدَيْن على الأرض المنشار الذي أصدر صوتاً ضئيلاً.

أما مع فادينيو وميراندون فلم يحدث شيءٌ من هذا القبيل، فلا المقدم ولا الدونا أورورا ساوَرَتْهما أدنى الشّبهات حولهما. فأكلا وشربا من أطيب وأفضل الموجود وراح فادينيو يرقص الفالس حول القاعة، فيما كان ميراندون يتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان لزاماً عليه أن يقف منتصباً ليشرب باسم شيمبو، نخب المقدم والدونا أورورا. وابتسم جالساً في مقعده عندما سمع الدونا روزيلدا تسأله عن هوية الشاب الراقص، الفارس الذي يشكل ثنائياً مع ابنتها. فأجابها بسؤال مضادّ من أجل إحداث أبلغ الأثر في نفسها:

– ألم يقدِّمه إليك المُقَدَّم؟

– كلا. لقد كنت في الدّاخل هناك، فلم أره حينما وصل.

– إذن، أيتها السيدة المبجلّة، أتشرف بإعلامك أنه الدكتور فادينيو غيمارايس، ابن أخ الدكتور آيرتون غيمارايس، المفوَّض المساعد، حفيد الشيخ...

– لا تقل لي إنه حفيد الشيخ غيمارايس، هذا الذي يتكلم عنه الناس كثيراً!...

– هو بالضَّبط، يا سيدتي الفاضلة. صاحب النفوذ، الآمر الناهي، مسيح السياسة، إنه بالذات إشبيني...

– إشبينك؟

– بالزيت المقدس. وجدّ فادينيو.

– فادينيو؟

– إنه لقبه، لقب الولد، الحفيد الأثير لدى الشيخ.

– هل هو طالب؟

– أما قلت لكِ دكتور؟ محامٍ متخرج يا سيدتي، موظف رسمي في ديوان الحاكم، بلدي رفيع المستوى، مفتش...

– «مفتش على الرسوم؟» بدأت هذه المعلومات تداعب أقصى آمال الدونا روزيلدا.

«مفتش قمار، يا صاحبة السيادة»، وهمس لها: «إنه التفتيش الذي يعود عليه بثروة في الشهر، ناهيك عن الإكراميّات، فيش صغير من هنا وآخر من هناك... هذا، إضافة إلى كونه شخصاً ذا مركز هام في ديوان الحاكم...».

وتمادى في السَّخاء، فسألها: «سيدتي أليس عندك قريب فقير يريد أن يتوظف؟ لو كان عندك، يكفي أن تقولي لي اسمَه..» أخذ نفساً عميقاً، راضياً عن نفسه وتابع بلا هوادة «أترَيْنَه وهو يرقص؟ لا تعجبي إذا صار نائباً في الانتخابات المقبلة..

– ما زال صغيراً...

– ماذا تريدين سيدتي؟ لقد وُلِدَ وفي فمه ملعقة من الذهب، وجد كل شيء جاهزاً، أمامه، دربه مفروشةٌ بالورود».

– كان ميراندون يشعر أنه شاعر المجد تلك الليلة إلى حدٍ، أنه ارتجل خطاباً مهيباً استدّر الدموع من عينيْ الدونا أورورا نفسها، جنيّة ريو فيرميليو.

زمّت الدونا روزيلدا عينيها الصغيرتين وهي ترى أمامها لهيب طموحها يشتعل. وراح جوانزينيو نافارو ينهي التانغو بضربات عاطفيّة في حين أنّ فادينيو وفلور كانا يبتسمان كلّ منهما في وجه الآخر. ارتعشت الدونا روزيلدا من انفعالها؛ فلم ترَ يوماً وجه ابنتها على هذا النّحو، وهي تعرفها جيداً. وتساءلت: هل هذا الفتى هو المقدَّر لها أن تحصل عليه إلى الأبد؟ كان على وجه فادينيو مسحة من البراءة، والطيبة والصراحة. وهاجت الدونا روزيلدا آه! أيها الربّ دو بونفين القادر على اجتراح المعجزات: أيكون هذا الصهر الغني المهم الذي أرسلته إليها السماء؟ إنه أغنى وأهم من ابن بارا بيدرو بورجيس، فما يملكه هذا الأخير من فراسخ الأرض وعشرات الخدم، إنه صهر، حفيد شيخ، مقرَّب من الحكومة وهو في حدّ ذاته حكومة؛ «آه أيتها السيدة العذراء، احميني! لا تتخلي عني! أيها الرب دو بونفين أحمدك على هذه المعجزة وسأسير حافية القدمين في زيّاح الغسل، أحمل زهوراً وإبريقاً فيه ماء نقيّ».

تقدم المقدم، فشكرت الدونا روزيلدا ميراندون، وتوجهت نحو صاحب البيت، وأشارت إلى مجموعة تتألف من فادينيو وفلور والدونا ليتا وبورتو، في إحدى زوايا القاعة. ولحِظ ميراندون مناورة العجوز الشمطاء. فجاهد حتى وقف على قدميه، ومضى يحتسي كأسَ الجعة. وطلبت الدونا روزيلدا من المقدّم:

– أيها المقدّم، قدّمني إلى ذلك الشاب...

«ألا تعرفينه؟ حسناً إنه قريب الدكتور آيرتون غيمارايس، المفوض المساعد، صديقي الحميم...» (كان يبتسم بخُيَلاء) مضيفاً: «بالنسبة إلى أصدقائه الحميمين، اسمه شيمبو... هو

نفسه قال لي. بيرجينتينو نادني بشيمبو، ألسنا صديقين؟ إنه رجل مستقيم... أدى إليّ خدمةً كبيرة...». كان يتكلم بصوت يسمعه الجميع، مبالغاً في صداقته مع المفوّض.

شدَّت الدونا روزيلدا على يد الشّاب. وأوضحت فلور:

– أمِّي، الدكتور فالدوميرو...

– فادينيو بالنسبة إلى الأصدقاء...

– الدكتور فالدوميرو يعيش في حمى رئيسنا السامي، الحاكم، ويعمل في ديوانه...

– الحاكم يحبك كثيراً أيها السيد. حتى إنه قال لي اليوم بالذات: «عانق صديقي جنتينو، صديقي العزيز...».

احمّر المقدّم خجلاً من فرطِ سعادته!

– شكراً يا دكتور...

بورتو، الذي يشعر بالارتباك عندما يواجه مثل هذه الحميمية الأرستقرطية، علّق قائلاً:

– مسؤولية كبرى... وأيضاً أهمية كبرى...

تظاهر فادينيو بالتواضع:

– تفاهات... بل إنني لست أدري ما إذا كنت سأستمر في القصر الحكومي..

«ولماذا؟» استعلمَتْ الدونا ليتا.

– جدي، الشيخ... أسرّ لها فادينيو.

– «الشيخ غيمارايس...»، تمتمت الدونا روزيلدا. فابتسم لها فادينيو، واكتسى وجهه طيبةً، وابتسم بحزنٍ في وجه فلور، الجميلة جداً.

– يريدني جدي أن أذهب إلى الرِّيو، يعرض عليَّ مركزاً هناك...

«وأنت هل ستقبل أيها السيد؟». سألت فلور وقد خمدَ شيء ما في عينيها اللتين بلون الزيت.

– لا شيء يربطني إلى هنا... لا أحد... فأنا وحيد للغاية.

وتنهدت فلور: وحيد للغاية...

طلبوا المقدم إلى مائدة العشاء فلم تكن لديه لحظة يستريح فيها، كان عليه أن يقوم بتلبية حاجات مدعوِّيه، فهو مضيف ممتاز، ثم صفّق أحدهم فوراً، طالباً صمتاً مُطْبِقاً إذ سيحيي الدكتور ميراندا صاحبيْ البيت. وسُمع صوت فرقعة زجاجة شمبانيا تُفتح، وطارت سدادتها إلى السقف.

مشى فادينيو وفلور مبتسميْن ليسمعا الخطاب، «فخطاب ميراندون» نبّهها فادينيو، «لا يُفَوَّت». وعلّقت الدونا روزيلدا، وقلبها يكاد يقفز من صدرها على مسمع الدونا ليتا وتاليس بورتو وهي ترى الاثنيْن يسيران نحو غرامٍ محتوم:

– ألا يشكلان ثنائياً متكاملاً؟ أليس من الواضح أن أحدهما قد خُلِق للآخر؟ إن شاء الله...

«ما هذا يا امرأة؟ لم يتعرّفا إلى بعضهما البعض إلا اليوم، وأنت تعدين زواجاً بينهما؟» هزّت ليتا رأسها، معتبرةً أن أختها قد جُنَّت بوسواس إيجاد عريس ثريّ لابنتها.

نفخت الدونا روزيلدا صدرها الأعجف وحدَّقت بخيلاء إلى المتشائمة. ومن غرفة العشاء وصل صوت الخطيب صريحاً مبلاً بالجعة، يشرب النَّخب ويلقي التحية. توجهت الأرملة إلى هناك وكلها أمل. وحيَّت الأكف عبارة مفرِحة قالها ميراندون، ثم واصل رابط الجأش:

– سيّداتي سادتي، إن صفحات تاريخنا الخالدة ستبقى تحمل بأحرف برّاقة من ذهب، الاسم المبجل للمقدم جينتينو، المواطن السامي الفضائل (ورنّ صوته في القاعة باسم المقدّم)، واسم

زوجته الفائقة النبل، زينة مجتمع الأرض الطيبة، الدونا أورور، الملاك... أجل، إنها، سيداتي سادتي، ملاك طاهر (وردَّد الصوت المغرّد «طاهر») المزايا، الزوجة المخلِصة، عذراء البرونز...

وقف ميراندون الطّفيْليّ في وسط القاعة وذراعه مرفوعة بكأس الشّمبانيا وقد استحوَذ كليةً على المدعوين على صاحبيْ البيت، وأسرهم ببلاغته. كان المقدّم يبتسم ابتسامة إلهية، وغضَّت زوجته المخلصة، عذراء البرونز، من بصرها متأثرة: فلم تصِلْ حفلتها يوماً إلى هذا المستوى الرفيع من النجاح.

– ... «الدونا أورورا، الإنسانة المحبوبة، القدِّيسة، القديسة إلى أبعد حدود القداسة...».

وهنا فاضت عينا القديّسة بالدموع المُحْرِقة!.

9

انتهى الغزل بين فلور وفادينيو مباشرة إلى الزواج، لأنه لم تحصل خطوبة، كما سنرى لاحقاً عند عرض سبب هذا الشذوذ عن التقليد المألوف لدى كل العائلات المحترمة. لقد انقسمت فترة الغزل إلى مرحلتين واضحتي المعالم لكل منهما مزايا خاصة بها: الأولى، هادئة ومنشرحة، وردية وزاهرة، تحت سماء صافية، عيد حقيقي، وفاقٌ كلي. أما الثانية مرتبكة ومضطهدة مليئة بالحقد اللاذع، جحيم على الأرض، نيات سيئة ونفور، حرب لا هوادة فيها. في الفترة الأولى كانت الدونا روزيلدا تفيض لطفاً وتفهّماً، وساهمت بإيجابية رائعة في إنجاح حكاية العِشق. ثم شوهدت بعدها تزبد وترغي منادية بالويل والثّبور وعظائم الأمور – مشهد ربما هو أصيل لكنه لا يُسِرّ المشاهدين – مستعدة لتكريس جميع إمكانياتها لتمنع زواج ابنتها من ذلك النّوع القذر – «الوغد، الوقح، النذل»– ، ماذا أصبح فادينيو ذاك الذي اعتبرته يوماً العازب الأفضل في باهيّا، طالب الزواج النّموذجي، الجميل اللطيف، صاحب القلب السخيّ، الشاب اللؤلؤة صاحب الخلق الطاهر، الماسيّ.

بقيت الدونا روزيلدا غارقة حوالى الشهرين في السَّعادة الناجمة عن تلك الخِدعة الضاحكة والرواية المعقّدة التي طرحها عليها ميراندون في حفلة المقدم تيريريكا، شهرين جديرين بالتذكر،

ضاربة فيها عرض الحائط كل منطقة لاديرا والطرق المتفرعة عنها، من الزنجية جوفينتينا بمظهرها كسيدة، إلى الدكتور كارلوس باسوس وزبائنه المعروفين. كانت تعرض لنفوذها وقربها الحميم من الدوائر الحكومية، والأوساط العليا، ولعلاقته الوثيقة بالحاكم الذي يجسده فادييتيو. ناهيك عن استحواذه على ابنتها بغزله وأناقته الشرّيرة وفصاحته وحديثه العذب، وكلامه المنمَّق. كان فادينيو إلهاً صغيراً، كان كل شيء بالنسبة إليها. واعتبرت أن ذلك قليل، فكانت الدونا روزيلدا تحرص على إبهاجه، كي تمسك به وتربطه إليها.

وصودف أن حدث التباس غير مقصود كانت روزلدا معنية به. فمن بين صديقات فلور وهي زميلة لها في المدرسة، سيليا الفقيرة، العرجاء، بحياتها المليئة بالحسرات القاسية، مصابة بالعرج لأن إحدى رجليها معطلة. أكملت المرحلة التعليمية في دار المعلمين، وحصلت على ديبلوم كمدرّسة مرشَّحة لمركز في التعليم الابتدائي الإيالي، وهي تكافح منذ أشهر، عبثاً، لتحظى على مقابلة مدير الثقافة. وكانت الدونا روزيلدا تكنّ لها تقديراً كبيراً، وتحميها. ربما لأن الفتاة كانت جد بائسة، حتى لتبدو هي وفلور بقربها ثريتين. وكانت تصغي بكل جوارحها للعرجاء تشكو الحياة والكبار في العالم، راويةً أموراً مرعبة عن الموظفين، مظهرة خصوصيات سافلة لأولئك «الوطاويط مصّاصي دماء الثقافة» كما كانت تفحّ من بين أسنانها المسوسة الدكناء. هناك كن يحصلن على التعيين فقط الفتيات اللواتي يتقدمن إلى الوظيفة، وكلهن استعداد لقبول دعوات للتنزّه ليلاً في آمارالينا وبيتوبا وإيتابووا أو لحضور حفلة صغيرة حميمة في إحدى شقق العازبين! أما هي الفتاة المستقيمة فلم يكن لديها حظ معهم، وطالما سخروا منها وهي جالسة على المقعد الجلدي في غرفة الانتظار. ولكثرة ما سخروا منها، صارت سيليا مخزناً للنكات اللاذعة السَّيئة عن الموظفين ورؤساء الشعب، ناهيك عن مدير التعليم، الشخصية المعروفة والتي كانت طالبة الوظيفة المرفوضة تعلم عنه كل شيء: عاداته وأملاكه وما يُفَضّله وزوجته، وأبناؤه والبغي التي يعاشرها، لم يكن يخفاها شيء. ومع هذا لم تحظَ يوماً بمقابلته لينظر في مسألتها البائسة.

وهكذا ذات ليلة في مستهل فترة الغزل، قدّمت فلور في منزلها إلى فادينيو المدرّسة القانطة وكانت قد انتهت مهلة تعيين المدرّسات الجديدات ذلك الأسبوع. كانت الدونا روزيلدا تحب أن ترى الفتاة موظفةً، وتحب أكثر من ذلك أيضاً التأكيد أمام الجارات على أن ما يحظى به الفتى طالب

الزواج وصهر المستقبل من تقدير لدى أصحاب النّفوذ في إدارة الدولة إنّما يوظّفه من أجلها هي، الدونا روزيلدا، من أجل إرضائها.

كانت الأرملة بدون شك، مفتونة في شبكة من الخدع في شخصية ذلك المُحتال الذي يحوم حول ابنتها، لكنها لم تقترف خطأً حين أثنت على قلبه الطيب وهي تصف لمعارفها فضيلةً لديه لا تشوبها شائبة، ألا وهي أنه لا يسمح بمعاناة معيّنة ليست في محلّها. وحالما روت الدونا روزيلدا أمامه قصة سيليا، مضفية شيئاً من المأسوية على المسألة، مركّزةً على تشوّهها الخَلْقِيّ («حتى لو أرادت ذلك، فإنها عاجزة عن تقبل الدعوات الداعرة من أولئك الأنذال في الدائرة، فليس لديها ما تقدِّمه») وبالغت في المظالم، وفي وصف جوع الفتاة وإخوتها الخمسة وأمها التي تعاني الروماتيزم، وأبيها الحارس الليلي. تعاطف فادينيو حالاً مع هذه القضية النبيلة، جاعلاً من نفسه بطلها. وهو إذ قرر في الواقع أن يتحدث في الموضوع مع شركائه في لعب القمار ممّن لديهم نفوذ معيّن – فأقسم بحدّة أمام الدونا روزيلدا وفلور أنه سيُلِ– حّ على مدير التعليم، صباح اليوم التالي حالما ينصرف من عند الحاكم، بأن يعيِّن المدرِّسة فوراً. اليوم قبل الغد: فلتذهب سيليا إلى المديرية في عصر اليوم التالي وتسأل عن المسؤول، فالتعيين والبدء بالعمل مضمونان.

– اعتمدي عليّ..

– اعتمدي عليه... ردّدت الدونا روزيلدا.

لم تقل فلور شيئاً إنما ابتسمت فقط. ما همّها إن كان فادينيو يحظى بالتقدير الكثير أم لا؟ فهي تفضل أن يكون أقل نفوذاً وبالنتيجة أقل انهماكاً في العمل. وقد مضت أيام من دون أن يظهر، من دون أن يأتي ليتحادثا عند أسفل الدرج، وعندما جاء كان وجهه كالمستيقظ فجأة من النوم نَعِساً بسبب الليالي التي قضاها ساهراً يَصرّف أعمال الحكومة!

سجل فادينيو الاسم الكامل للمرشّحة بالإضافة إلى معطيات أخرى ضرورية. وسجلت سيليا مجدداً الكلمات الباردة نفسها على قصاصة من الورق من دون أي أمل؟ فطالما كتبتها من دون نتيجة. طلبات وتوصيات لا تُعدّ ولا تحصى، بدون نتيجة. فلمَ يستطيع زير النساء المتأنّق هذا

الذي له هيئة رجل محتال، ساخر، أن يحصَل لها في الحال على الوظيفة؟ فالأب باربوزا نفسه أعطاها بطاقةً للمدير، فإذ كان الأب لم يستطع شيئاً، فكم بالحري حبيب فلور هذا؛ ومن هوالذي يفقد تقديره من أجل هذا النوع من الناس؟ لم يكن شخصاً سيئاً، كان يُرى بوضوح أنه لا يحظى بقسط كافٍ من النوم. لقد دأبت سيليا على اختزان الإحباط والمرارة وهي تجرجر ساقها العرجاء في قاعات مديرية الثقافة التي لا ترحّب بها، بحيث أن سعادة الآخرين لا تلين قلبها، حتى ولا جهود أولئك الذين يرغبون في مساعدتها. فلقد كان قلبها جافاً وقاحلاً، راحت تكتب اسمي أبيها وأمها وتاريخ مولدها وسنة تخرُّجها معتبرة ذلك هدراً لوقتها وجهدها، فلن يتَّخذ الرجل السيئ أي إجراء، لقد أتخمها هؤلاء التافهون المغرورون: مجرد وعود سهلة فقط لا غير. لكن «ما العمل؟» فالدونا روزيلدا واقعة تماماً تحت تأثير المزهُوِّ بنفسه. دكتور فالدوميرو تعالَ إلى ههنا، دكتور فالدوميرو اذهب إلى هناك، وسيليا تتناول العشاء عند المرأة العجوز النشطة. وبالنسبة إلى الشّاب يكفي المرء النظر إلى وجهه ليعرف قصده فوراً: يلتهم كل ما تقدمه له فلور من ذاتها، ثم يغدر بها ويختفي من دون وداع ولا أحد يراه بعد ذلك».

لكن سيليا لم تكن مُحِقّة بالنسبة إلى فادينيو. لقد أراد الفتى أن يخدمها، فقام في تلك الليلة بجولة استكشافيَّة كاملة على بيوت القمار، ليصاب بنحس مزدوج: خسارة ما في جيبه، وعدم التقائه بأيٍّ من معارفه المهمين كي يكشف له مأساة المدرسة ويطالبه بتحقيق مطلبها: لا جيوفاني غيمارايس ولا ميرابو سامبايو ولا سميّه فالدوميرو لينس، لم يظهر أحدٌ منهم وكأنهم تبخَّروا جميعاً، تاركين الروليت والبكارا، الكبيرة والصغيرة والمستديرة والواحد والعشرين. انتظر فادينيو طوال الليل، ولكن أهم من ظهر كان ميراندون فانتهيا إلى التوجّه معاً لتناول الساراپاتيل الشهيّ في منزل أندريزا ابنة أوشون وإشبينة طالب الهندسة الزراعية.

وعلّق فادينيو في طريقهما إلى كوخ زنجيّة أوشون: «البنت منحوسة حقاً... عرجاء، عجفاء ناهيك عن هذا النحس كلّه...».

نصح ميراندون فادينيو بألّا يضطرب. ثمة أناس مثل هذه الفتاة يعشقون البؤس فلا جدوى من التصميم على إغاثتهم، ناهيك عن أن القلق يفقد الشهية، والساراپاتيل الذي تعده أندريزا جدير

بالاحتفال به حتى من قبل الدكتور غودو فريدو فيليو، رغم كل ما يتمتع به من سُلطة.

في اليوم التالي سيكون على فادينيو أن يقدِّم تبريراً لفشله، وفي النهاية أن الفتاة القلقة قد انتظرت طويلاً ولن تنتحر بسبب يوم أقلّ أو يوم إضافي تنتظره. أما الساراپاتيل الذي تقدمه إشبينته أندريزا، فبأي عبارة وصفه بالضبط المعلم غودو فريدو؟ أو بالأحرى شعر المعلم غودو فريدو؟

لم يلتقيا إلى مائدة ابنة القديس إلا بالشاعر غودو فريدو بالذات، يشرّف طعام أندريزا، ولا يُسَوِّف في إطراء التوابل والطَّاهية: قطعة ملكية هي هذه الزنجية، نخلةٌ امبراطورية، نسمةٌ صباحية، حيزوم المركب. وكانت أندريزا تبتسم بكل نسبها وملوكيتها، وهي تفرك توابل المرق.

حيّى ميراندون: «انظروا من هنا! عزيزي الأزلي، معلمي، إنني أركع أمام ثقافته».

– «كلّنا نجثم راكعين أمام هذه الساراپاتيل الإلهية» – ضحك الشاعر وشدّ على يديْ الشابيْن.

جلسا وسرعان ما استشفّت أندريزا القلق على وجه فادينيو. إنه دائم الفرح وشديد السخرية زاخر بالمكر والحيلة، فما الذي دهاه ليعتريه الغمّ ويكتسي وجهه بالكآبة؟ أخبرني قديسي، إغسل روحك، ضع المنغّصات خارجاً. أندريزا المرتدية ملابس صفراء اللون، وأساور في ذراعيها وعقوداً حول عنقها. هي أشون ذاتها متحوّلة بكلّ خيلائها وجمالها. أخبرني يا رجلي الأبيض، لا تبق مكتئباً، فزنجيتك هنا لتصغي إليك وتواسيك.

جلسوا إلى المائدة التي تتضوَّع برائحة البتولا، والأرض المعطّرة بأوراق كبش القرنفل. بين الساراپاتيل وكاشاسا سانتو آمارو الصافية، روى فادينيو تعاسة المدرّسة الابتدائية البائسة وتأثّرتِ الزنجية الجالسة على الوسادة بما رواه، فضغطت بيدها على صدرها الذي يتنفس بصعوبة.

«يا للفتاة المسكينة بتشوهها، ورغبتها في العمل ولا تجد وظيفة! تُرى، ألا يستطيع غودو، الذي يظهر اسمه في الجرائد، وهو نفسه موظف رفيع المستوى، أن يقول شيئاً، أن يقوم بشيء من أجل هذه البائسة الصغيرة؟» ارتعدَتْ أندريزا وهي تتوسل. لفادينيو الحقّ بأن يحزن، كيف يشعر

إنسانٌ ما بالفرح بينما هناك من يعانون على هذا النحو، حياةً قاسية للغاية؟ ولامَتْ نفسها لأنها طلبت الاستماع إلى هذه القصة البشعة: فلن تستطيع أن تبتسم بعد اليوم إلا إذا علمت أن الفتاة قد عُيّنت. وعد الشاعر غودوفريدو بالتوسّط، فربما استطاع أن يفعل شيئاً من أجلها عندما يعود إلى المديرية؟ غداً... لا بل اليوم، فالفجر كاد أن يبزغ – هذا ما طلبه فادينيو.. حسناً، مهما كانت هويتها فسينظر غودوفريدو في أمرها... لم يوضح لهم أنه قريبٌ مباشر لمدير الثقافة وصديقه الحميم، وأن طلباته أوامر تُستجاب. فلم يكن يحبّ أن يعرض عضلاته رغم رواج قصائده في ماندر. كل ما يريده هو إعادة البسمة لأندريزا، فالليل حزينٌ من دون ابتسامتها والدنيا قاحلةٌ باردة.

هكذا، في عصر اليوم التالي، جرّت سيليا قدمها العرجاء بمثابرة، لكن بشتائم على الدرج ودلفت إلى غرفة الانتظار في ديوان مدير الثقافة، وهناك فوجئت مفاجأة عظيمة عندما قام أمين سرّ سعادته يحييها بشوقٍ وحرارة، وهو الذي طالما كان معها جافاً فظّاً:

– الدونا سيليا، كنت أنتظركِ يا سيدتي. تهانيّ، فتعيينكِ قد صدر، وقد وُقِّع.

«هيه؟ ماذا؟»، ارتجفت المدرسة الصغيرة.

وازدادت لطافته وهو يُسِرُّ لها:

– اسمعي ما أقول لكِ... أول ما فعله المدير حينما وصل... لا بد، أن شخصاً على أرفع المستويات قد أعطاه الأوامر، لا أشكّ في ذلك لقد كان آخر مركز شاغر، فكلها كانت محجوزة، أتريدين النصيحة؟ اذهبي حالاً وقدّمي نفسك، لا تضيعي الوقت.

قدّمت نفسها وتسلّمت منصبها، وجمعت عائلتها الهزيلة ومضت إلى الطابق الأول في آلفو لتقديم الشكر. «شخص ما على أرفع المستويات»، أخبرت الدونا روزيلدا التي رددت كلماتها، وهي تتذوقها بلسانها متلذذة بها وتلفظها ملء فمها، كان لها مذاق السُّلْطة. ثم عبّرت عن رضاها: «لم أكن أنتظر تعييناً سريعاً كهذا، لا بدَّ أنّها أوامر مباشرة من الحاكم بالذات». الحاكم يا ابنتي، الحاكم بالذات لا أي شخص آخر، ففادينيو يصدر الأوامر ويلغيها في الحكومة.

وصل النبأ إلى لاديرا، حتى إذا ما قدم فادينيو ليلاً آملاً في الاختلاء بفلور وحيدين في عتمة السلّم رحّبت به شبه تظاهرة تقدير من الجيران. وفوجئت الدونا روزيلدا بعبارات الشكر والعناق والتمجيد في إفراط هستيريّ. كان الشاب قد قضى النهار نائماً وقد نسي تقريباً شقاء المرشحة التي لا تنسى. فقال: «آه! ليس هذا بشيء، لستم مدينين لي بأي شيء، اعملوا معروفاً!».

لقد وفى الشاعر بوعده وفعل ذلك من أجل أندريزا أكثر مما فعله من أجله فادينيو. لكن كيف يوضح لهم الحقيقة، ويكشف الحيلة؟ كلا، إن الدونا روزيلدا وجيرانها، والمدرّسة التي تذوّقت طعم المرارة وأهلها الفقراء الوسخين، بلون القذارة المتجمعين هناك ليشكروه، لن يفهموا أبداً الطُرق المُعَقَّدة التي يسير عليها العالم والبشر، لن يصدقوا أبداً أن سيليا مدينة بتعيينها لزنجية طاهية أفقر منها بكثير، مرحة في كوخها المصنوع من الخشب عند شاطئ البحر في «آغواس ده مينيونوس» تزوّد عمال القوارب والحمّالين بوجبات الطعام، إنها الزنجية أندريزا ده أوشون.

وانتشر الخبر فانهالت عليه المطالب كالمطر: من توسلات بتعيين مدرّسة ابتدائية أجرت ثماني مقابلات في أقل من أسبوع، إلى مطالبته بوظيفة سائق ترام أو مفتش ضريبة الدخل. لم يعد هناك من مرشح يتطلّع إلى أحد المراكز إلا وتملّق الدونا روزيلدا، إلا وصفّق بيديه أمام باب المنزل المؤلف من طبقتين في لاديرا دو آلفو. حتى وظيفة قندلفت في كنيسة كونسيبسون دا براتا، التي سمعت أنها شغرت، لكن لم تتأكد من ذلك حتى قصدوها ليطلبوا منها المركز. لن يستطيع فادينيو أن يكفي الجميع حتى لو كان حاكماً ومطراناً، في الوقت نفسه.

10

الدونا روزيلدا بلغت ذروة السلطة، واستطابَتْ مذاق الشهرة الذي لا يضاهى؛ في حين راح فادينيو يداعب نهدي فلور الصّلبين في عتمة الدَّرج، ويتحسس المذاق الذي لا يضاهى من فمها المرتجف والظامئ عاضّاً على شفتيها. يكشف لها عالماً من اللذائذ المحرّمة، منتصراً كل ليلة من ليالي الغزل على قطعة من جسدها ومن مقاومتها، ومن حشمتها، وعاطفتهاالخفية. كانت الرغبة تحرقها في فرن من اللهيب الشديد، وكان الجمر يؤجج النار في رحمها، لكن فلور كانت تحاول أن تسيطر على نفسها وكبح جماح رغباتها. لكنّها أحسّت أنها تصبح مع مرور الأيام أقل سيطرة على

رغبتها الخاصة بهشاشة رفضها وضعف ممانعتها، وأنها تصبح عبدةً مطيعة للشابّ الجسور الذي تمكن من كل جسدها الملتهب بحمى لا دواء لها!

يا له من سافل فادينيو هذا! لم يعلن لها حبّه ولم يعرب لها يوماً عن مشاعره تجاهها، حتى إنه لم يطلب منها السماح بمغازلتها. وبدلاً من العبارات الشاعرية والكلمات المنمّقة، كان يُسمعها مفاهيم ملتبسة، تلميحات سيئة النية. وبينما كان يصعد درج لاديرا دو آلفو، وراء فلور (التي كانت عائدة من منزل خالتها ليتا في ريو فيرميليو، بعد أيام على حفلة بيرجينتينو) همس السافل، عند قراءته الإعلان عن «مدرسة الطَّهي»، في أذنها، في وشوشة رومانسية كمن يتصنّع ملاطفة بريئة:

– مدرسة الطَّهي مذاق وفن... مذاق وفن... (خفض صوته فيما شارباه تداعبان أذن الفتاة :) آه! كم أريد أن أتذوّقك.... لم يكن هذا الجناس اللغويّ يدلّ عن ذوق رديء فقط، بل كان بمثابة إعلان صريح عن نيّاته، مشروع وقح، برنامج واضح لممارسة الحب.

لم يسبق لفلور أن كان لها حبيب مثله، فهو جد مختلف عن الآخرين، ولم تكن تتصور مغازلة بهذه الطريقة. فكيف لم تطرده فوراً؟

لم تكن فلور من تلك الفاسقات اللواتي يلازمن النوافذ ولهنّ قصص غرامية فاضحة عند زوايا الشارع، عند أسفل الدرج ووراء الأبواب. لم يجرؤ أي ماجن على أن يذهب معها إلى ما يتجاوز قبلةً خجولة. أما بيدرو بورجيس فحالما ظهر أمامها نفرت منه. يكفي أن يمدّ الوقح يده الجريئة ليلمسها، حتى تتَّقِد غضباً وتبعده؛ كانت تحفظ نفسها كليّةً لمن ستقع في حبِّه. لذلك لن ترفض له شيئاً، لم تصرف فادينيو هذا عنها كما صرفت الآخرين قبله، بلا فظاظة ولا فضائح، لكن بحسم نهائي.

لم تصدّه حتى في المرّة الأولى ولم يكونا قد تعرّفا إلى بعضهما البعض إلا منذ ساعات معدودة، لأن ذلك حدث في«أحد باندو آنونسيادور»، وغداة حفلة المقدم تيريريكا قبل أسبوع من الكرنفال. جاءت فلور برفقة صديقاتها يشاهدن الحلقات الرّاقصة فظهر فادينيو وانتصب قربها.

عندها ابتعدت الأخريات ضاحكات: من المؤكد أن ساعة الإعلان الذي لا بدَّ منه (إعلان يتخذ منحى عنيفاً أو مَرِحاً حسب مزاج طالب الزواج ورغبته، وهناك من كانوا يتهيّبون الموقف فيفضلون أن يعلنوا عن أنفسهم بالرسائل، مستخدمين، إذا لزم الأمر، مساعدة «أمين سر العشاق»). لقد كن يعلِّقن على الفتى الماجن الذي لم يترك فلور بمفردها في الحفلة بل شكل معها ثنائياً دائماً. سوف يعلن عن نفسه الآن، جاءت اللحظة الحرجة، قرّرت الفتاة فوراً حق منح إجابته بالقبول أو أن تطلب وقتاً لمزيد من التفكير لا أكثر من أربع وعشرين ساعة. وأعلنت فلور لصديقاتها نيَّتها في أن تترك فادينيو يعاني بضعة أيام، لكنهن شككن في ذلك، فهل لديها الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة؟

لم يتفوَّه بأيِّ تصريح، ودارت بينهما محادثة مسلِّية حول مسائل متنوِّعة؛ كم هو رائع فادينيو هذا! كانت ثمة حلقتان من حلقات الكرنفال تمرحان بكل حيوية وتحدٍّ، لصق الجدار الخارجي لكنيسة سانتانا، فانتهز حالة الهياج التي حصلت جرّاء لجوء الناس إلى هناك مضغوطين، ليلتصق بها ويحتضنها من الخلف، ضاغطاً على نهديها بيديه، مقبّلاً عنقها بنهم. وكانت ترتجف وعيناها شبه مغلقتين، وسمحت له أن يفعل ذلك وهي تكاد تموت خوفاً وفرحاً.

مرّت أيام الغزل الأولى من دون تصريح شكليّ أو موافقة شكلية لكنها كانت أياماً لا تُنسى. وكان من عادة فلور أن تقضي بعض الوقت مع خالتها وزوجها في فصل الصيف وفي الأعياد في الحي، إذ كانت تحبّهما جداً. في شهر شباط/ فبراير كانت مدرسة الطَّهي تغلق أبوابها.

كانت تأتي إلى موكب تكريم الإلهة يمانجا، في الثاني من شباط/ فبراير حينما تدفع الأمواج القوارب، حاملة الزهور والهبات للدونا جانايينا، أم المياه، والعاصفة، والصيد، والحياة والموت. كانت تقدم لها مشطاً أو قارورة طيب أو خاتماً مبتكراً. تقيم يمانجا ريو فيرميليو وينتصب معبدها على رأس هضبة فوق المحيط.

كانت تلهو برفقة فتيات الحي في برنامج احتفالي مكثّف: في الصباح استحمام في البحر، وبعد الظهر نزهات إلى منارة الميناء في آمارالينا، وأحياناً كنّ يذهبن حتى إلى بيتوبا؛ ثم يتدربن على دورة الكرنفال؛ عجلة مرحة ونزهات إلى إيتابووا يتناولن فيها الطعام في الهواء الطلق، أو في منزل الدكتور ناتال، وهو طبيب صديق للعم بورتو، أو في بحيرة آبايتيه، مع قيثارات وأغان،

ومعارك بقصاصات الورق الملونة. وفي الليل كن يدرن في ساحة كنيسة سانتانا أو في ماريكيتا، بين الأكواخ الملوّنة، حين لا يكون ثمة رقص مُبرمج في مساكن العائلات الصديقة فيجتحن قاعة الزوار ويحتللنها ليقمن حفلة رقصٍ سريعة مُرتجلة.

كان منزل بورتو المزين بالطلح والنباتات المتسلّقة، يقع في لاديرا دو باباغايو، ودوماً يخرج العم بورتو أيام الآحاد مع عاشق رسم آخر وهو سيد من ولاية سيرجيبي، مقيم في لارغو، لا مثيل له في حيائه وخفره، يدعى جوزيه ده دومي، فيخرجان ويرسمان سلسلةً من البيوت والمناظر الطبيعية. وقبل سنتين، عندما انتقلت روزاليا وأنطونيو مورايس إلى الريو، أحست فلور الحزينة الوحيدة، بميل غامض إلى الرسام الذي صار رجلاً ناضجاً، في سنيه الأربعين من العمر لكن يبدو أنه أقلّ سناً، هجين قوي وجاف. وتغلّب على خجله الشديد يوماً ليقترح عليها أن يرسم صورتها، وبدأ برسمها على لوحة بألوان طينية وصفراء صارخة، تغيّر معه لون فلور النّقي. «عمل مجانين، هراء، وبعبارة أخرى هذا الشخص أبله»، حددت الدونا روزيلدا التي لا تفهم في الفن شيئاً، ما عدا أوراق الزينة، عندما رأت تلك الألوان الصّارخة وذلك الضوء الفاقع. ولم يتوصل جوزيه ده دومي قط إلى إنجاز الصورة. قبل كل شيء لم يكن لديه متسع من الوقت، وكانت فلور تعود إلى لاديرا دو آلفو، واعدةً إيّاه بأن تأتي لتقف أمامه أيام الأحاد، ولم تفعل ذلك مطلقاً. فهي قلّما تفهم رسم السيرجيبي. كانت تتعاطف، أجل، مع ابتسامته ووحدته. لكن ذلك الإحساس لم يبلُغ الحب، فلا يمكن أن نعتبر حباً فترات الصمت الطويلة وتلك الابتسامات السريعة في ساعات الوقوف أمامه. لم يكن أكثر من ميل آني لا يدوم إلا أيام الصيف، غير قادر حتى على إزالة خجل الفنان. وعند عودتها إلى ريو فيرميليو التقت فلور مجدداً صديق العم بالتودّد نفسه، لكنها كسرت افتتان العطلات السابقة، كما لو أن شيئاً لم يحدث بينهما. وبالنسبة إلى الصورة، ومتى تنتهي، فلا تزال إلى اليوم على جدار مشغل الرسَّام، في الطبقة الثالثة من منزل عتيق، متعدد الطبقات، في زاوية ساحة سانتانا؟ يستطيع كل من يريد أن يراها، شرط أن تكون لديه الشجاعة لارتقاء السُّلَّم الذي نخر السوس درجاته.

يختلف الأمر تماماً مع فادينيو... لقد سيطر عليها وقرّر مصيرها كأنه انهيار ثلجي لا يمكن كبحه أو إيقافه. وأدركت فلور في نهاية تلك الأيام السريعة في ريو فيرميليو، أنها لن تستطيع

بعد اليوم أن تعيش من دون لطف الشاب وفرحه وحضوره المجنون. وفعلت كلّ ما طلبه هو منها: فلم ترقص في الحفلات الصغيرة إلا معه، وراحت تتأبّط ذراعه في مهرجانات الكِرْمِس في الساحة، كما انحدرا معاً نحو عتمة الشاطئ كي يتبادلا القبلات بشكل أفضل في عتمة الليل، على حدّ قوله. وراحت تتحسَّسُ بارتعاش اليد التي تداعبها وهي تصعد من تحت فستانها مضرمة النار في أعلى فخذيها وفي ردفيها. أما الدونا روزيلدا فمن كان يتخيّلها ديمقراطية هكذا تسمح بهذا القدر من الحرية؟ كانت تغمض عينيها عن سوء التصرف الواضح لذلك الحب الجامح وغير المراقب؛ حتى أن الخالة ليتا، القليلة التمسُّك بالتقاليد القديمة أعربت عن استغرابها وحذّرتها:

– ألا ترَين يا روزيلدا، أن فلور تتجرف مع هذا الشاب؟ يخرجان معاً إلى كلّ مكان كأنهما خطيبان، ولم يتعرفا إلى بعضهما بعضاً إلا قبل أيام...

أتت ردة فعل الدونا روزيلدا هائجة تنذر بالشِّجار:

– لا أعلم أي شيطان يدفعك أنتِ وزوجكِ ضدّ فادينيو... لمجرّد أن الفتى ثري يشغل منصباً بارزاً! هذه مجرّد شائعات ضِدَّه؛ لست أدري لِمَ تسيئا الظَّنَّ به... إنكما متأثران أكثر مما يلزم بذلك القذر البائس المدّعي أنه رسّام؛ ولو كان الأمر لكما لأعلنتما زواجه بابنتي هذه الساعة، هه كما لو أنني أرضى بتقديم ابنتي لهذا الصرصار!!. إنكما لا تظنَّان بفادينيو إلا السّوء. إنني لا أرى أكثر من أنه يغازل فلور، وهي في العمر المناسب للزواج، وحين أصغى رب النهايات السعيدة لدعائي، وأرسل لي وسيلة كهذه تحقق أحلامي، تبدأين أنتِ وبورتو تزعجانني بطنينكما، فتريان هذا وذاك... اتركيني في حالي يا امرأة، انتبهي...

– إنني لا أرى شيئاً، يا قديستي، أنتِ انتبهي. كنت أتكلم فقط... لِمَ أنتِ مشحونة هكذا بالتوتر والألم؟ يكفي أن يرى الناس فتاةً تمرُّ بمفردها مع فتى فيقال عنها حالاً إنها فتاة ضائعة... والآن تحولت المياه إلى نار، وفقدت الفتاة مقاومتها...

– هل تعتبرين أنها أصبحت فتاة ضائعة؟ إذا كان هذا ما ترينه فقولي حالاً...

– مهلك يا روزيلدا، فأنتِ تعلمين أنني لم أقل ذلك..

أنهت الدونا روزيلدا المناقشة قائلة:

– إنني أعرف ما أفعله، فالبنت هي ابنتي، سيتزوجان فليساعدنا الله، هذا العام...

– يمكن أن يصير، إن شاء الله....

– يمكن أن يصير؟ سيصير حتماً... لا تأتيني بأهزوجة باللهجة العامِّية، فأنتما تنفُران من فادينيو...

كلا، لا أحد يبدي نفوراً من فادينيو، لقد أغوى الجميع بفصاحته وخياله: أغوى أولاً معارفه في ريوفيوميليو، وبعدهم الذين في لاديرا دو آلفو. والدونا ليتا وبورتو يعتبرانه صديقاً لهما ويرغبان في رؤيته زوجاً لفلور، فيما تنكر الدونا روزيلدا رغبتهما هذه، وتراقب نزوات العاشقين.

نزوة واحدة فقط، في الحقيقة، هي أن ينفرد بفلور ويحتضنها، ويتغلّب على مقاومتها وحيائها، وراح يمتلكها شيئاً فشيئاً، في كل لقاء. لقد قيَّدها إليه بحبال الرغبة، لكنه قيّد نفسه بها أيضاً، فغدا أسير هاتين العينين اللتين بلون الزيت والدهشة فيهما، أسير هذا الجسد المزمجر المذعور، الشَّره إلى اللذّة، المردوع بالخجل، وأسير أولاً لوداعة فلور، لجوّها المنزلي، لبيئة منزلها بالذات ونفسها اللطيفة البسيطة بجمالها الهادئ، وهو جوّ سحر فادينيو سحراً.

لم يسبق لفادينيو أن عاش يوماً حياة عائلية حقيقية: لم يعرف أمّه التي ماتت لدى ولادته، أو الأب الذي اختفى باكراً من حياته. كان نتاج علاقة عابرة بين الابن البكر لأبوين بورجوازيين ميسوري الحال وخادمة المنزل، وكان آنذاك عازباً. لكن حالما تزوّج زواجاً محظوظاً حاول الخلاص من ابن الزنى، الذي كانت زوجته التقية الأميّة، تشعر تجاهه برعبٍ مقدس – «ابن الخطيئة!» فأدخل إلى مدرسة رهبان ثانوية داخلية، واجتاز فادينيو كلّ العوائق حتى وصل إلى سنته الأخيرة في الدراسة الثانوية. لكنه لم يجتزْها. فقد هام، في أحد آحاد الزيارات، بوالدة زميل له، وهي أربعينية تلفت الأنظار وزوجة تاجر في سيدادي باشا، كانت معروفة في أوساط المجتمع الرّاقي في العاصمة بأنها أسهل العاهرات فيه؛ وكان عشقاً ملتهباً متبادلاً.

كما كان عشقاً رومانسياً أيضاً. وقد ألقت المرأة المشهورة عليه نظرة من عينيها الفاترتين، فتنهّد فادينيو وأخذ يدور حولها في قاعة الزيارات في المدرسة الكئيبة كسجن. سجن محزن للأولاد. كانت تعطيه الشوكولاته والبسكويت من لفّة تجلبها لابنها. وقدّم فادينيو لها زهرة أوركيديا خِفيةً، سرقها من المنزل الزجاجي في حديقة الرهبان. وفي يوم خروجه المقرّر (الأول من الشهر – وهو يوم أحد لم يكن أحدٌ يأتي ليأخذه، وهو لا يعلم إلى أين يذهب) أخذته لتناول الغداء في منزلها، وهو قصر صغير في لارغو دا غراسا وقدمته إلى زوجها:

– زميل زيزيتو، يتيم بدون عائلة...

كان زيزيتو فتًى شبه أبله يربي سمك البِريا وفي أيام الآحاد التي يخرج فيها من المدرسة، يكون لديه قليل من الوقت ليتعرف إلى ما يجري حوله حيث يقضي وقته في داخل المنزل مع قوارضِه الصغيرة، فيما يغطُّ التاجر في قيلولته. وسرعان ما جرَّت المرأة فادينيو إلى غرفة الخياطة، تغمره بالقبلات والحنان، وتمتلك جسده «يا ولدي، يا ولدي التلميذ الثانوي، يا تلميذي، إنني مدرّستك، أوَّاه يا فتاي». وعلمته الحب وإي تعليم!

لقد نما العشق، نهماً ووحشياً، وكانت تعبّر عنه بتأوّهاتها وقسمها بأنها: «لم تحب هكذا قطّ»، وظلّت تردّد له، بقحة وهدوء، أن فادينيو هو عشيقها الأول، وأنها لا ترغب في أي شيء قدر رغبتها في الفرار معه إلى حيث يعيشان غرامهما الكبير، مختفيين في أي زاوية منعزلة لكنه للأسف تلميذ داخلي في مدرسة ثانوية....

وسألها «إذا خرجت من المدرسة الثانوية فهل ستأتين لتعيشي معي بالفعل؟».

وهرب من المدرسة، ظهر أول الليل ليأتي بها، ليحررها من «البورجوازي الوغد» الذي طالما عذّبها وأشعرها بالمهانة عندما يمتلكها. استأجر غرفة بائسة في بنسيون من الدرجة الثالثة، واشترى خبزاً ومارتاديللا (كان يعبد المارتاديللا) ونبيذاً رديئاً وباقة أزهار. وبقيت لديه بضعة ألوف الريالات: فزملاؤه المتعلّقون به قاموا عندما وقفوا على المسألة بالتضامن معه واجتمعوا لتمويل عملية فرار العاشق. فبالنسبة إليهم كان فادينيو المتحدي.

وكادت السيِّدة المحترمة أن تموت خجلاً حين اجتاح منزلها بينما زوجها في الغرفة المجاورة ينكث أسنانه ويقرأ الصحف. وردت عليه ساخطةً بأنه مجنون بالتأكيد. لم تكن السيدة مغامرة بحيث تترك منزلها وزوجها وابنها وترفها ومكانتها في المجتمع لتذهب وتعيش بشقاء وفضيحة، عشيقة لطفل. فادينيو بلا عقل، عليه أن يرجع إلى المدرسة، لربما لم ينتبهوا إلى فراره وفي أحد الزيارة المقبلة تعدُه بأنّها... آه!

لم يشأ فادينيو الإصغاء إلى وعدها بل اجتاحه الغيظ والعار، وأحس بأنه مخدوع. ومن دون أن يأخذ في الحسبان قرب التاجر بقرنيْه الطويلين، أمسك بشعرها الطويل المصبوغ بالأوكسيجين، وصفعها على وجهها مراراً، ونعتها بصفات حقيرة حتى تجمّع لإسعافها لا الزوج والخدم فقط، بل الجيران أيضاً في شارع لارغو دا غراسا الأنيق. ويشهد فادينيو فيما بعد أنّ ذلك اليوم جعل منه رجلاً، ورجلاً حقيقياً إلى الأبد وأنه استفاد من تجربته تلك.

تسلل فادينيو بعد هذه الفضيحة إلى حياة الليل في المدينة، غلاماً في السابعة عشرة من عمره. فأعجب أناكريون، وهو من روّاد بيوت القمار المشهورين، موزّع ورق رفيع الأسلوب. لا يضاهيه أحد، في تعريف عديم الخبرة على المهارة، وتدريبه على الخفّة في لعب الزَّهر، والواحد والعشرين، والبكارا والروليت، والبوكر وتعريفه إلى ديالكتيك طاولات الروليت وتصوّف الزَّهر، ولم تكن لديه الكفاءة فقط بل كان صاحب قلب وفيّ كذلك لمن يواجهون الحياة، من النمط الذي يكثر الشكوى.

وحدث لقاءٌ سريع بين فادينيو وأبيه، رفض فيه العودة إلى القسم الداخلي في المدرسة، فرفض غيمارايس السّافل في المقابل أن يعطيه بركتَهُ أو أي مساعدة مالية. «فلا موارد لديه لإعالة الفوضوي». لقد أصبح بخيلاً وأخلاقياً بعد حصوله على ثروة امرأته، ناهيك عن أن اسمه صار يذكر في أعمدة الصحف في باب المجتمع، ثم تناهت إليه شكوك جدية بصدد أبُوّته لفادينيو: هل هو ابنه فعلاً؟ كانت فالديتي المتوفاة تتهمه بين القبلات، بأنه صاحب عذريتها وأنها حبلت منه. لكن أيمكن أخذ كلمة خادمة في المنزل كوثيقة يجب أن تُصَدَّق؟ كما أكّدت صديقاتها الباكيات على جثمانها أنها لم تعرف قطّ رجلاً غيره. لكن كلمة هؤلاء الخادمات لا تقدّم ولا تؤخّر، فهل يمكن

الحصول على برهان قاطع مهما كان؟ لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد – وذكريات الشباب مضطربة. أثناء مراهقة لا مسؤولة حمقاء. ربما يكون ابنه، وربما لا يكون. فمن يستطع الظهور ليبرهن ذلك علناً؟ أين الدليل الأكيد؟ المؤكد فعلاً أن فادينيو هو ابن عاهرة، بل ابن عاهرة من أردأ صنف؛ وها هو حين لا يزال فتىً يحاول انتهاك عرض سيدة شريفة طيبة، أمّ زميل له، استقبلته في منزلها كابن لها... وصنّفَ شيمبو أبا فادينيو الذي لم يرحّب به يوماً في العائلة الكريمة الرفيعة المقام، قائلاً: «لقد كان غيمارايس والد فادينيو مسحوقاً تحت وطأة الحياة».

منذ ذلك الوقت، لم يعد يشتَمّ لا من قريب ولا من بعيد عطر الإحساس العائلي لكن ذلك لم يسبّب له أية عقدة نفسية. فحياته العاطفية كانت ثرية ومتنوعة.

كانت له عشيقات كبيرات في السن، من مختلف المراكز الاجتماعية ومن مختلف الألوان. وكان يقضي معهن وقته معظم الأحيان في شقق العازبين والكباريهات حيث يغازل الجانحات، ويتخذ العشيقات، إضافة إلى مغامرات مع متزوجات من دون أن يكون لأيٍّ من هذه الارتباطات قوة الحب. لم تجعله أية مغازلة يشعر بامتلاء الحياة أو ألقها، ولم يجعله غياب أي أنثى عن مسرح حياته أو غرام ما يوماً مهموماً ضائعاً ميّالاً إلى الانتحار. كان يتنقَّل من جسد امرأة إلى أخرى كما يتنقل من طاولة لعب إلى أخرى حين يخذله رقمه السبعة عشر.

ثم التقى فلور في حفلة المقدم، ومن دون إنذار اشتعلت فيه ثانية تلك الحاجة القديمة إلى المنزل وإلى حياة الأسرة والمائدة المبسوطة والسرير عليه الملاءات النظيفة. لم يكن لديه حتى عنوان ثابت، متنقلاً من نزل رخيص إلى آخر شهرياً لعجزه عن الدفع. كيف تنتظر أن يهدر مالَه على الإيجار وهو لا يملك إلا القليل منه للعب؟

أعطت فلور حياته مذاقاً جديداً، الهدوء والطمأنينة، مذاق الحنان العائلي:

– أحبكِ لأنكِ هادئة كالحمل يا حبيبتي....

وهكذا كان مفتوناً بها إلى حدّ تحمل أمِّها، العجوز المُرعبة، اللجوج، المثيرة للسخرية والإحباط. كان يحب بساطة الفتاة ووداعتها ومرحها المطمئن وتهذيبها، مناضلاً يومياً ليكسر

مقاومتها وينتهك عفتها، وفي الوقت نفسه يحسّ بالفخر والرِّضا بحيائها وبرصانتها. ولماذا كان عليه أن يُروِّض هذا الخفر ويختزل متعة استمتاعه بذلك الحياء! اكتشف أصدقاء فادينيو البريق في عينيه، وكان يحدث أن يقف طويلاً أمام الروليت ناسياً وضع فيشة عليها، حالماً.

لم يفاجأ أصدقاؤه الحميمون أمثال ميراندون حين شاهدوه في الكرنفال في عصبة «باعة الجرائد المرحين» التي تنظمها عائلات ريو فيرميليو، بزخرفة من العم بورتو؛ فتيات وفتيان متنكرون كباعة صحف، يبيعون «دياره ده باهيّا» و«آثاردي» و«أو دياريو دو نوتيسياس» و«أيو إيمپا رسيال». كرنفال قصاصات وشرائط الورق الملوّنة والأغاني، حيث تستهلك القوارير النفَّاثة للعطر على العشيقات لا للتنشق، كرنفال من دون كاشاسا! كم يتعارض مع كرنفالات فادينيو التي تطول من السبت إلى الثلاثاء يقضيها في السكر فقط، وينخرط في حلقات المقنّعين، يدور مع البنات الجانحات، يرقص السامبا وسط الشارع، والشراب حسب الرغبة، فيسقط ثملاً في إحدى خمارات المنطقة، وهكذا دواليك طوال أيام الكرنفال الأربعة.

«أنظروا من أتى في تلك العصبة، وبيده دفّ. إنه فادينيو يخرج مع هذه الزمرة! من كان يحلم بهذا؟» كان المارة العاديون يتعجبون عندما يرونه في ذلك التصرّف الهَزلي الكامل، يرقص على إيقاع الدفوف السّريع. لقد كان فادينيو هناك بصحبة فلور التي تغطيها قصاصات الزينة، ويغمرها حنانه.

إن شيئاً من هذا لم يمنعه من الغوص في وحل أسوأ الأمور، يتناول الكاشاسا بإفراط عبثيّ، بعد أن يودّع فلور عند منتصف الليل. كان ينطلق مباشرة إلى التباريس أو ميبا – لوز أو فلوزو؛ وتذرّع يوم الاثنين بعمل مستَعْجل في القصر الحكومي، وذلك عند العاشرة ليلاً، لكنه لم يستطع الوصول ولو متأخراً إلى الاحتفال الرّاقص الكبير المُقام في غافييرا دو بينغويلو حيث أندريزا ونساء زنجيات ملكيات غيرها يتقمَّصن شخصيات سيدات بلاط ماري أنطوانيت، منفقات أموالهنّ على شراء قماش الساتان والمخمل وعلى الشعور المستعارة البيضاء المصنوعة من القطن.

ولم يخطر ببال فادينيو أن يُغيّر من نمط حياته حتى ولا في أعنف لحظات الغرام وأعذبها التي تستثير في ذهنِهِ صوراً عائلية حميمة، أو أن يبدل عاداته القديمة بعادات جديدة فيجدِّد نفسه.

وقد هدّد ميراندون يوماً بأن يفعل ذلك دفعةً واحدة:

- يا شقيقي، سوف أجدِّدُ نفسي... ابتداءً من الغد...

لم يتكلم فادينيو في هذا الموضوع إطلاقاً. صحيح أنه متيَّم بفلور حتى أنه يخطط للزواج بها، لكنه لم يكن مستعدّاً للتخلي عن التزاماته السامية، سواء مقامراته واحتيالاته اليومية أم السُّكر والمشاجرات في أندية القمار أم ارتياد شقق العازبين!

11

بحرٌ من الورود، آفاق زرقاء بديعة، وتحت تلك الزرقة السماوية يرقد العالم بسلام وهناء: ففلور وفادينيو حبيبان. وفجأة، تثور الزَّوبعة العاصفة ، وتغدو السَّماء رماديةً، فتنشب حربٌ عاتية على فلور وفادينيو لوضع حدٍّ لحبهما.

ميراندون الخجل من أن يكون له علاقة بما حصل- أليس هو الذي بدأ ببناء قصر الرَّمل ذاك الذي لا يتحمّل هبَّة تساؤل واحدة؟ ميراندون الأخلاقي مع ادعاءت فلسفية، يعتبر:

- أي ضمانة لدينا؟ لا ضمانة... حتى محرّك الشاحنة عندما يتم إصلاحه يُضمن على مدى ستَّة أشهر... لكن حالما ننظر إلى واقع الحياة ونأمل أن تنضبط الأمور في النهاية يُلطّخ كلّ شيء حتى القدِّيس يسقط عن المحمَل ويتحول إلى حطام...

حسب رأى ميراندون فإنّ فادينيو قد سقط عن المحمل، القدِّيس تحول إلى حطام يرمى على مزابل المدينة، ولن ينفع أي ترقيع مهما كان في إصلاح سمعة عضو في حكومة مستقيلة. سمعة فُضحت، على كل حال، أمام فلور أيضاً: فكيف ستقبل بالكذّاب الذي خدعها ؟ ويعرف ميراندون حقاً أنّ أولئك الوديعين الهادئين عندما يفقدون الثقة بشخصٍ، فهم يتمسكون بكبريائهم بعناد ولا يتراجعون.

- عندما تغضبن تغضبن بحزم، استنتج متشائماً.

سافل، حقير! كانت الدونا روزيلدا ترى كل هذه النعوت غير كافية لوصف هذا النموذج البشري المنحطّ الذي كان حتى عشية ذلك اليوم طالب الزواج النموذجي، القديس المرفوع على محمل الموكب، مغموراً بالإطراء. أما الآن بإمكان ابنتها أن تتزوج حتى شرطياً أو مجرماً قاتلاً محكوماً عليه بالسّجن، لكنّها لن تدعها تتزوّج من هذا السافل الشقي أبداً! وبلغت هذه الأقوال الفجّة جوار آلفو، بحيث هزّ ميراندون رأسه منزعجاً نادماً، معتبراً أنه إذا اختار فادينيو أن يستمر في هذا الحب البريء فهو لا يعرف شيئاً عن النساء. فقد كان دائماً ماجناً والآن أعماه العشق حتى لم يعد يحسب حساباً للواقع ويستهتر بكل شيء. وطلب ميراندون القلق كأساً أخرى من الخمر في بار تريونفو لتساعده على التغلّب على اضطرابه.

لم يكترث فادينيو بإصلاح سمعته لدى الدونا روزيلدا أو بتخفيف غضبها عليه، هي المرأة العجوز المسكونة بالشياطين، العاهرة التي لا تطاق، الدواء المُسهِل. ولم يكن يقبل بأن يقطع علاقته بفلور، أن يفقد ابتسامتها الوديعة، ورقتها الهادئة وتنهدها المجروح. بل ازداد تصميماً الآن على الزواج بها. ما يهمه في الأمر هو ذلك الحنان، والرغبة الطيبة في الحب بينهما، والباقي ليس أكثر من مجرّد مزاح غبي. فمن تحب فلور؟ تحبه هو، فادينيو لِشخصه، لا للمركز الذي ادّعاه، أو الوظيفة التي اختلقها أو المال الذي لا يملكه.

لكنَّ أمراً واحداً اشمَأزّ منه في هذه القصة: سيليا هي التي نزعت قناعه! نعم! سيليا مَحْمِيَّته تلك التي تعاني تشوهاً في ساقها. ورغم ذلك هي الآن مدرّسة في القطاع العام بفضل تدخله. هي التي أثارت الفضيحة، وحلّت رموز مكائده ووشت به إلى الدونا روزيلدا. وصلت إلى الطبقة الأولى وهي تكاد تختنق منفعلةً بشدة لدرجة أنها كادت تفقد صوتها. ورمت بالخبر في وجه الحاضرين:

شخص رفيع المستوى؟ لم يصل ذلك المحتال يوماً إلى سلَّم القصر الحكومي، والقصر الوحيد الذي يعرفه حقّ المعرفة، هو ال- «بالاس»، وكر القمار والضياع، وكر المومسات... التقدير؟ نعم في أحطّ شوارع البغاء حيث المواخير وضروب الاحتيال... موظف في ديوان الحاكم؟

لو تجرّأ ودخل ديوان الحاكم فسوف يُعتقل ويُرمى في السجن. تعيينها مدرّسة؟ احتمالٌ بعيد، بل مستحيل. فمن يعلم الأضرار والأماكن التي يمارس السافل فيها ضروب الاحتيال؟

كيف تسنّى لسيليا، المدرّسة الابتدائية التافهة، أن تكتشف كل خيوط شبكة أكاذيبه، راسمةً بكل وضوح تفاصيل المهزلة من البداية إلى النهاية من دون أن تَدَع ظلًّا واحداً من الشك تتمسك به الدونا روزيلدا الغارقة في بحر هذا الوجود البائس؟ أي تصميم على فضح المحتال الغاوي الرخيص دفعها إلى الوشاية به؟ هذا ما فاجأ فادينيو وآلَمَه:

– لمَ هي؟... لم أُسئ إلى هذه الفتاة قطّ، بل على العكس...

ربما هنا يكمن السَّبب: فحين تدبَّر لها فادينيو الوظيفة، أحسَّت سيليا بأنها ممتنة له وأنها مُهانة في الوقت نفسه. ففي أعماقها لم تغفر له كونه قد احتال في موضوع يخصّها، ولم يكن وهو زير النساء، يهجس بأثر الامتعاض والشر؛ لقد جعلتها الحياة السيِّئة تعيسة وحسودة. ويوماً بعد يوم كان امتنانها يتناقص وتكبر مهانتها. لا وسيلة لدى هذا الإنسان تجعله مفيداً... وبالصّدفة عثرت على طرف الخيط فانكبّت على تتبّعه قلقةً حتى كشفت كل التفاصيل الصغيرة لمكيدة الأكاذيب التي بدأها ميراندون في منزل المقدم والتي غذّاها ونمّاها سلوك فادينيو نفسه. وحينما وصلت إلى هنا شعرت بأنها حققت ما تريده. فهي لا تُخْدع بهذه السهولة، فلديها نظرة خبيرة حتى لو قدّم لها ما يتجاوز الوظيفة فلن يخدعها، حتى ولا بالتعيين ولا بالمركز. وأحسَّت أنها راضية، سعيدة بقلة حيائها، حتى لم تعد ساقها العرجاء تزعجها وهي ترتقي سلّم الطبقة الأولى حيث جلست الدونا روزيلدا وفلور تخيطان قطعاً لجهاز العرس. «لن ينام على وسادة حرير زير النساء البائس، إنها سيليا، لم تشكّ يوماً في حقيقته السيئة، وأشرق وجهها القبيح. قلّما أحست بمثل هذا الفرح، فالكثيرون سيبكون هذا اليوم، سيضطرب الشيطان، وتصطكّ أسنانه. وهل هناك في الدنيا ما هو أروع وأكثر إثارة من رؤية الآخرين يتعذّبون؟ هذا أروع ما يمكن أن تحصل سيليا عليه؛ فلم ينظر أي رجلٍ إلى جسدها نظرة اشتهاء، أو يبتسم لها بسمةَ حبّ، حتى الأطفال في المدرسة يخافونها، ويهربون منها».

دعَت الدونا روزيلدا في نوبة توتر عصبي، أن تُقتل أو تموت ثم أنَّتْ طالبةً كأس ماء. لكنّ فلور لم تعرها اهتمامها ولم تسمع أنينها، إذ انهمكت في شجار مع سيليا.

– انصرفي من هنا أيتها الكلبة السافلة، ولا تعودي بعد الآن...

– أنا يا فلور؟ هل تتكلّمين جدياً؟ لماذا؟

– حتى لو كان ما قلته صحيحاً لم يكن يجدر بك أن تأتي هنا لتكيدي له، إنه هو الذي وظَّفكِ.... كان عليكِ أن تستري ما علمتِه ضدّه، كنتِ تموتين جوعاً، وهو الذي تدبّر لكِ المركز...

– ومن يضمن لي بأنه هو الذي قام بذلك؟... ومن رآه يتدبّر لي الوظيفة؟ بالنسبة إليّ، المسؤول عن تدبّرها هو رسالة الأب باربوزا...

بالكاد كانت فلور ترفع صوتها، لكن كلماتها كانت تنضح قرفاً واحتقاراً.

– انصرفي من هنا قبل أن أعلّمكِ بألا تحشري أنفك في حياة الآخرين، أيتها الكلبة المشَرّدة...

– إذن إبقي معه، سيستغلك أحسن استغلال! حقاً، لقد وُلدت لتكوني فاقدة الحياء...

هبطت السلّم وهي تصرخ مستنكرةً نكران الجميل لدى البشر..

حرب؟ أجل. أي كلمة أبلغ وصفاً لما جرى؟ كانت حرباً بلا شفقة ولا رحمة بدأت ذلك اليوم بالذات، وفي تلك الساعة بالذات بين فلور وأمها. عندما سكت صوت الباب وهو يُطرق بوجه سيليا تمالكت الأم نفسها وتخلّت عن الإغماءة المدرسة مناديةً بأعلى صوتها، وهي ترغب بمواصلة الحديث عن فادينيو، لقد نُكِئ الجرح:

– سيليا! سيليا! لا تغادري...

فأجابت فلور بصوت مثقل:

– لقد طردتها...

– جاءت تفعل معنا معروفاً وأنتِ تطردينها بدلاً من أن تشكريها!

– لن أدع هذه المخادعة تضع قدميها ههنا بعد الآن..

– منذ متى أنتِ تأمرين وتنهين في هذا البيت؟

– إذا دخلت هي أخرج أنا...

لقد أصاب ميراندون في ما تنبَّأ به من هبوط رصيد فادينيو عند الدونا روزيلدا. لكنه أخطأ تماماً في تقديره لردة فعل فلور وأربكه الأمر. يعني بوضوح أنه قد أساء التقدير. وأربك ذلك فادينيو أكثر ممّا أربكه. فبرغم كل أكاذيبه لم تفكر في أي لحظة بقطع علاقتها به، ووضع حدّ لحبهما. كانت تحبه، وقلما تهتم بمهنته أو بوظيفته أو بمركزه في المجتمع، ناهيك عن أهميته في عالم السياسة.

هذا ما قالته له عندما تحدّثْ، من دون تبصُّرٍ بعواقب الأمور، أوامر الدونا روزيلدا وذهبت في تلك الليلة لتتحدث مع الحبيب في زاوية قريبة. استمعت إليه وتقبّلت تفسيراته، وأراقت بعض الدموع وهي تدعوه «مجنوناً بلا عقل، المجنون الجميل». كانت تلك أوّل مرّة يكلمها فيها فادينيو عن حبِّه لها، وكيف يريدها ويرغب فيها، هو الجائع والظامئ إليها؛ يريدها ويرغب أن تكون زوجةً له. إن، هذا بالنسبة إلى فلور، قد محا كلَّ الانزعاج والألم اللذين أقْحَمَها فيهما.

قالت له إن عليهما أن ينتظرا ويلوذا بالصبر – عشرة أشهر أقلّه – حتى تكمل الواحدة والعشرين، فهي لا تزال قاصراً، تحت وصاية الأم، ولا يفكر فادينيو في الحصول على موافقة الدونا روزيلدا المستحيلة.. ولم ترَ فلور أمّها قطّ منفعلةً وغاضبة على هذا النحو. ولم تعد اللقاءات بينهما سهلة، فيجب أن يدرسا الطريقة الفضلى للالتقاء لماماً من دون أن ترتاب العجوز. فالغزل الذي كانت الأم ترعاه وتتقبّله وتسهِّل الأمور أمامه صار عليه أن يتمّ بطرق سرية، ونصيب فادينيو من

منحدر آلفو لم يعد يساوي ذرَّةَ غُبار من الشارع. ومسح هذا الأخير دموع فلور بالقبلات في تلك الزاوية بالذات غير عابئ بالمارّة.

كان لدى الدونا روزيلدا الغاضبة سَوْطٌ في متناول يدها: قطعة من جلد غير مدبوغ لمعاقبة الحيوانات والأبناء العاقّين. لقد مرّ زمن طويل لم تستعمله فيه، منذ كانت لسعاته مقصورة على إيتور، التلميذ المُذنب؛ أضف إلى اللائحة روزاليا التي نالت نصيبها منه. أمّا فلور فلم تنل غير بضع صفعات وهي صغيرة. وعُلِّق السَّوط البدائيّ على جدار غرفة الطّعام رمزاً حازماً لسلطة الأم، وإن خفّ تأثيره نتيجة قلَّة الاستعمال. لكن ما إن اجتازت فلور الباب حتى رَفَعت الدونا روزيلدا السَّوْطُ طالت بالضربة الأولى حضنها وعنقها تاركةً وراءها ثلماً أحمر علامة حرب دامت أكثر من أسبوع.

ضُربت من دون أن تبكي، مدافعةً عن وجهها بيديها، مؤكدة على حبّها مجدداً، ما دفع أمَّها إلى الزمجرة: «لن تتزوجي منه ما دمتُ على قيد الحياة!». في اليوم التالي لم تتمكن فلور من النهوض إلا بالكاد، فجسمها كله كان يؤلمها، وأثر اللسعة بدا أزرق في عُنقها. علَّقت اللاديرا كلها على الحدث؛ كانت الزنجية جوفينتينا الملكة توزّع التفاصيل من نافذتها. وانتقد الدكتور كارلوس باسوس أسلوب الدونا روزيلدا في التربية من دون أن ينفِيَ حقَّها في الغضب والاشمئزاز.

ظهر فادينيو في السَّاعة المُحدَّدة المعتادة ليجد الطبقة الأولى كلها مغلقة، والشُّرفة فارغة، والباب الحديدي عند عتبة السلَّم مقفلاً؛ أما نافذة غرفة فلور المطلة على الشارع فكانت مغلقة، ومن بين شقوق الأباجور يتسلل الضوء. وفي الحال وُجد من يخبره بما نالها من ضرب عشيَّة البارحة. حسب العرّابات، كانت فلور تتنهَّد حبيسةَ غرفتها المُقْفَلة بالمفتاح.

وافق فادينيو على الوصف الذي أعطته الزنجية جوفينتينا عشيقة أنتينور ليما للدونا روزيلدا والذي استعملت فيه تشبيهاً أدبياً دقيقاً؛ «إنها ضبعٌ متوحشة، إنها كذلك يا سيد فادينيو» واستمع بصمتٍ إلى الأخبار ثم قال: «إلى اللقاء»؛ وانصرف. ليعود بعد منتصف الليل ليفتح جميع نوافذ الجوار، ليوقظ اللاديرا والشوارع القريبة، بسيريناتا تعزف أرق الأغاني الغرامية التي لا تضاهى لاهنا ولا في المدن الأخرى. كلّ من استمع إليها خلّد ذكرها في أذنيه وفي قلبه.

جمع فادينيو لفلور أفضل الموجودين: أتى بالهزيل كارلينيوس ماسكارينياس، الكافاكينيو الذهبي. وقد عثر عليه في شقَّة كارلا، وجرّه من سرير ماريانينيا بينتيليودا المِضْياف. وعلى الكمان، شوهد إدغار كوكو الشعبيّ، الذي لا مثيل له اللهمّ إلا في ريو ده جانيرو أو في البلدان الأجنبية؛ وكان ينفخ بالمزمار – وبأية عظمة وأية احتفالية، المجاز في الحقوق فالتر ده سيلفيرا، وقد انتزعه فادينيو من بين الكتب، حيث كان حديث التخرّج ويحضّر الأساس لمسابقة القضاء، وسرعان ما سيعيَّن قاضياً له هيبته وكرامته بحيث يتوقّف عن استعمال مزماره الشهير، حارماً الجماهير من هذه المتعة السَّماوية. أما القيثارة، فراح يداعب أوتارها بأنامله شاب عزيزٌ على جميع الناس لثقافته ومرحه، ولسلوكه المتواضع مع كونه نبيلاً، ولكفاءته في معاقرة الخمرة ولرقَّته في التعامل، ولموسيقاه؛ لقد كان لقيثارته ميزة فريدة لم تكن لغيرها، ناهيك عن صوته الغامض الفاجر. لقد عزف وغنّى مؤخراً في الإذاعات فكلّلَه النجاح حتى شاع اسمه، دوريغال كاييمي، ومجّد الأصدقاء الحميمون مؤلفاته الموسيقية غير المنشورة، نعم، حالما ستنتشر موسيقاه سيصبح هذا الأسمر مشهوراً جداً. كان صديقاً حميماً لفادينيو، شاركه في تناول كؤوس الخمر الأولى، وكم سهرا معاً حتى طلوع الفجر. هذا، كما أتى على سبيل الاحتياط بجينير آوغوستو مغني الكباريه الشَّاحب اللون، وغاب ميراندون لأنه كان ثملاً.

توقَّفوا عند مطلع اللاديرا بضع دقائق، ثم اختار كمان إدغار كوكو النغمات الأولى المُعذّبة. ودخل على الأثر، الكافاكينيو فالمزمار ثم القيثارة، وخرق كاييمي الصمت، مطلقاً العنان لصوته في غناء ثنائيّ مع فادينيو، الذي لم تكن لتغريدته قيمة كبيرة، لكن قضيته كبيرة، غرامه ممنوع، تتملكه الرغبة في التخفيف عن الحبيبة، وشفاء أحزانها، وتوفير نومٍ هادئ لها، فراح يواسيها بالموسيقى معبّراً عن حبّهِ:

«الليل في هزيعه الأخير

والسماء ضاحكة

الهدوء شبيه بحلم

وضوء القمر يهمي

على الغاب

حيث للمطر الفِضّي

بهاء نادر نادر...

فارقدي أنت،

دون أن تصغي

إلى من يغنّيكِ...».

تعالَت أغنية كانديدو داس نيفيس في سماء اللاديرا بسرعة، فبرزت رؤوس فضولية، لبثت طويلاً في النّوافذ أسيرةَ سحر الموسيقى وصوت كاييمي. وصفَّقت الزنجية جوفينتينا مُحيِّيَة، كانت من حزب فلور وفادينيو مجنونة بالسيريناتات. واستيقظ البعض حانقين عازمين على الاحتجاج، لكنّ عذوبة الأغنية تغلّبت عليهم، وسرت في أجسادهم كالخدر فراحوا يستمعون إلى نداء الحب. من هؤلاء الدكتور كارلوس باسوس الذي قفز عن سريره في غضب قاتل فنهاره زاخر بالعمل؛ يبدأ عمله في المستشفى عند السادسة صباحاً وأحياناً لا يعود إلى المنزل إلا عند التاسعة ليلاً. لكن أثناء خروجه من الغرفة إلى النافذة بدأ غضبه يستكين، وجعلته الأنغام يشبك ذراعيه عند حافة النافذة ليصغي بارتياح:

«أيّها القمر، أرسل

ضوءَك الفِضّي

ليوقظ حبيبتي...».

توقفوا تحت ضوء مصباح الشارع عند الزاوية المقابلة تماماً للمنزل بطبقتيه. ابتعد فادينيو قليلاً عن المجموعة ليتَّخذ موضعاً أفضل تحت ضوء المصباح الكهربائي بحيث يسهل على فلور

أن تراه. وكانت أنغام مزمار الدكتور سيلفيرا ترتقي الجدران، وآهات الكافاكينيو تتسلل إلى الشرفة، وكمان إدغار كوكو يفتح نوافذ غرفة الفتاة، بل يهمّ بانتزاعها من السرير برعشة. «يا ربّ السموات، إنه فادينيو!». أسرعت إلى النافذة، وشرّعتها فرأته هناك تحت الضوء، بشعره الأشقر، يمد ذراعيه نحوها:

«أريد أن أخمد رغباتي

أخنقك بقبلاتي...».

تجمّع بعض الساهرين حولهم وخرج كازوزا فونيل مرتدياً بيجامة قديمة، منجذِباً بالموسيقى أو باحتمال استفادته من زجاجات الخمر في أيدي أفراد السيريناتا.

وظهرت في عتمة شرفة الطبقة الأولى الدونا روزيلدا، فقاطعت ثورة غضبها الموسيقى والشعر.

– مشردون! عاطلون!

وزادت الأغنية في الارتفاع حتى صعد صوت كاييمي إلى الثُّريّا:

«أَغنِّي...

والمرأة التي أحبها كثيراً

نائمة، لا تسمعني...».

أين عثرت فلور على تلك الوردة التي من شدة احمرارها كادت أن تكون سوداء؟ التقطها فادينيو وهي في الهواء، يا لها من ليلة رومانسية للمحبين، قمر يشعّ في السماء وعطر شجرة إكليل الجبل يفوح في الأرجاء، واللاديرا بأسرها تغني لفلور سجينة غرفتها:

«هناك في العالي

القمر يبتعد

في السماء في تفكير عميق

والنجوم جدُّ هادئة...».

وصلت الدونا روزيلدا إلى الباب المطلّ على الشارع، ففتحته على مصراعيه، ملتفة برداء مهلهل وهي منفوشة الشعر، مشحونة بالحقد. واندفعت قدُماً في نوبة هذيان من الغضب، تزعق بيأس: «إلى الخارج، اخرجوا من هنا. سأطلب الشرطة وسأشكوكم للمخفر، أيها الرعاع».

كان ظهورها عنيفاً غيرمتوقع بحيث فقدوا رباطة جأشهم وأوقفوا الغناء. وانتصبت الدونا روزيلدا منتصرةً في الشارع الذي خيَّم عليه الصمت.

– انصرفوا، يا عصبة الكلاب! إلى الخارج!

لكنّها كانت لحظةً ومرَّتْ. وسرعان ما أسمعها مزمار الدكتور سيلفيرا نغماً كضحكة استهزاء، كصفير أحد الصبيان، موسيقى فيها استهزاء وسخرية أكثر مما فيها من الموسيقى:

«إيايا، دعيني

أصعد هذا المنحدر...».

وعندها شاهد الجميع فادينيو يتقدم باتجاه حماته المستقبلية، وأمامها متابعاً نغم المزمار، ويقوم برقصة السيري – بوسيتا بإتقان وهزل، في إيقاع القدمين وتمايل الجسم، خطوة السيري – بوسيتا، نعم الخطوة الصعبة والشهيرة للسيري – بوسيتا استجمعت الدُّونا روزيلدا، المختنقة برعبها، الفاقدة لصوتها آخر قواها لتصعد الدرج راكضة.

عادت السيريناتا تحتل الليل والشَّارع حتى بزوغ الفجر. وعزَّز العائدون من السهر الليلي وهم شبه سكارى الجوقة؛ والحارس الليلي قَدِمَ في دورته وبقي هناك يستمع ويصفّق؛ وظهرت الزجاجة التي هجس بها كازوزا فونيل، واتّسعت المجموعة شيئاً فشيئاً. غنّى فادينيو وكاييمي، غنّى

جينير أوغستو، غنّى الدكتور فالتر بصوت خفيض، عميق، حتى الحارس الليلي غنّى، كان حلمه أن يغنّي في الإذاعة. غنّى الشارع بأكمله في السيريناتا المكرّسة لفلور، وفلور منحنية في نافذتها العالية ، ترتدي مِريلة مُطرَّزة، وضوء القمر يلفُّها. تحتها، في الشارع، يقف فادينيو، الفارس المقدام، ممسكاً بوردة من شدة احمرارها كادت أن تكون سوداء. إنَّها وردة حبه.

12

يوم هربت فلور من المنزل لتتزوج فادينيو طلبت ملجأ يؤويها، حصلت عليه فوجدته في حنان ومنزل خالتها ليتا وزوجها تاليس بورتو في ريو فيرميليو. تردّد بورتو لأنه لم يكن يريد مشاجرات صعبة مع الدونا روزيلدا الوقحة والاسفزازية. كان يحب العيش الهانئ مطمئناً في ركنه راضياً بوظيفته الصغيرة وشغفه بالرَّسم. لم ينسَ أنّ ابنة حميه سبق لها أن اتهمته وزوجته بأنهما ناهضا حب ابنتها، بينما راحت هي أثناء العطلات، تثقل هامة فادينيو بالفضائل حتى بدا وكأنّه يسوع الطفل، الرب المنقذ لا ينقصه ليكونه سوى البهاء. كانت حمقاء متغطرسة تعتبر نفسها ذكية، مشحونة بالعدائية والمزاج السيئ، هذه هي الدونا روزيلدا، وهو لا يريد أن يكيد لهذه المتعجرفة المضطربة للغاية. لكن ماذا يفعل، إذا ظهرت فلور تبكي منفوشة الشعر وفادينيو يجلس بقربها رصيناً وقوراً مستعداً لتحمّل تبعة مسؤوليّاته؟ جاءا يعترفان بحدوث ما لا يمكن علاجه: لقد سلبها عذريتها، أكل عنقودها، والآن يجب أن يتزوّجا سواء رضيت الدونا روزيلدا أم لم ترض؛ وسواء بلغت سن الرشد أم لم تبلغْه؛ يجب أن يتزوجا، فهي لم تعد عذراء والزواج وحده يعيد لها شرفها الذي سلبه فادينيو.

طلبت فلور، والدموع تبلل خديها، من خالها وزوجها أن يسامحاها. فإذا كانت قد بلغت هذا الحد من تجاوز المبادئ العائلية الثابتة وانتهكت الخوف والحياء، مسلّمة عذريّتها لمفتش حدائق مِلحاح، فالمذنبة الحقيقية هي الدونا روزيلدا بسبب مكائدها وعدم تساهلها ومنعها من الاتصال بحبيبها، وحبسها داخل المنزل وكأنها طفلة مع أنها تكاد تكون امرأة كاملة ولا ينقصها سوى أعوام قليلة تضاف إلى عمرها. حتى الضَّرب! نعم، ضربتها! فمن ذا يتحمل هذه الدرجة من القسوة؟ وفي النهاية فإن فادينيو ليس مجرّد طائش أو لصّ، تطارده العدالة أو كانغاسيرو من عصابة لامبيون؛ ولا هي، فلور، ابنة الخمس عشرة سنة، بريئة كل البراءة، لا تفهم من أمور الحياة شيئاً. ونفقات

المنزل: أليستْ فلور هي التي تتكفّل بها، فتسدّد الإيجار وتدفع للطعام؟ أما مساهمة الأم فكانت محدودة جداً: إذ بعد رحيل روزاليا اقتصر عمل مشغل الخياطة على طلب من هنا وطلب من هناك. وفي المقابل تطوّرت مدرسة الطَّهي، ومنها كانت الأم وابنتها تعتاشان. فلماذا تدّعي الدونا روزيلدا حق التقرير لنفسها وتدينها من دون أن تمنحها حق الاستئناف؟ لقد رفضت حتى الإصغاء إلى عقلاء مثل الخالة ليتا والسيد أنتينور ليما والدكتور لويس إينريكي بالذات، عرّاب إيتور، الذي طالما قدّرت رأيه من قبل، أما هذه المرّة فقد تصدّت لنصائحه بحدة. وبينما كانت فلور تتكلم كان تاليس بورتو يهزّ رأسه موافقاً: لقد فقدت قريبته رشدها تماماً.

لم يكن بوسع فلور ولا فادينيو تحمل الوضع، فقد تحول الأمر عند الفتى إلى عناد كعناد من يضع كل أمواله مراهناً بها في لعبة من ألعاب القمار كالروليت أو النَّرْد، مغامراً بحظّه. أما فلور فكانت رغبته بفلور تمتلكه امتلاكاً كلياً، من رأسه حتى أخمص قدميه، تشوش عقله وكأنها المرأة الوحيدة في الدنيا، وكأنّها هي بجسدها الممتلئ ووجنتيها المستديرتين – أجمل وأشهى أنثى في باهيّا – الوحيدة القادرة على إشباع جوعه وإرواء عطشه، وإلغاء وحدته. ومازالت الدونا روزيلدا تردّد: «كلا، أبداً ما دمت حية»، رداً على اقتراحات بالزواج، تتجدّد من فادينيو، ينقلها إليها أقارب وبعض الأصدقاء.

حتى الخالة ليتا بالذات تدخّلت قبل أيام، كما تذكر فلور، لكنها عادت هي الأخرى بخفَّيْ حُنيْن وبموعظة من الشَّتائم:

– لن يتزوّج هذا السافل من ابنتي طالما يمتّعني الله بالحياة والصحة. ليس لأنها تستحق مني هذا الموقف الحذر، فهي مخدوعة ناكرة الجميل، وُلدت لتكون خانعةً. لكنني لن أكلّ ولن أملّ من معارضة هذا الزواج طالما هي تحت وصايتي. أفضل أن أراها ميتة على أن أراها متزوِّجة من هذا المشرد...

صرّت الدونا روزيلدا على أسنانها متهمة شقيقتها:

حاولت ليتا أن تجادلها، أن تقنع شقيقتها، وتكسر جدار الحقد ذاك قائلةً إن الحبّ يفعل المعجزات، فلِمَ لا تحاول إصلاح أمر فادينيو؟

«يكفي العار الذي ألحقته أنتِ بالعائلة حينما تزوجت من بورتو. على أمل أن يَصْلُحَ أمره، لِمَ لم يصلح أمره؟ لِمَ واظب على قلّة الحياء طوال عمره؟» لفظت «قلّة الحياء» ملء فمها بنيّة خبيثة شريرة.

كانت تشير إلى ماضي بورتو، الذي قضى شبابه في ريو ده جانيرو، في الوسط المسرحي، وقام بجولات داخل البلاد يجوب المدن ككاتب سيناريو، يراقص في أمكنة السوء، بل صار أيضاً، بقوة الظروف، ممثلاً ومديراً ورساماً للشخصيات: وبعد الزواج استقامَ واستقرّ في باهيّا. ولم يعد هناك ما يذكّره بحياته تحت الأضواء سوى ألبوم قصاصات من الصحف وحفنة من النّكات. وكان يجد دائماً المناسبة لعرض ألبومه وسرد نكاته.

«أوَلم ينجحْ؟» ردّت الدونا ليتا فخورة في أعماقها بماضي زوجها البوهيميّ. «هل رأيتِ أنتِ زواجاً أسعد من زواجي؟ لم يكن يسرق أو يخدع أحداً، أو يزني منتهكاً عفاف العذارى...».

– وكيف كان ينتهك عفاف العذارى إذا كانت كل النساء حوله عاهرات حتى أدبارهنّ مفتوحة؟ أين كان سيتدبّر فتاة عذراء ليغتصبها؟ لم تكن الرغبة تنقصه، ولم يكن شخصاً مرموقاً...

لم تكن تتحمّل الدونا ليتا ، الوديعة والمحبة على العكس من شقيقتها، أي إهانة لزوجها، وإذا جرحت يندفع الدم إلى رأسها:

– اعملي معروفاً أيتها السيدة ضعي لسانكِ في مؤخرتك ولا تتكلمي عن زوجي بالسوء، فما جئت إلى هنا لأسمع وقاحتكِ...

أطاعتها الدونا روزيلدا وأطبقت فمها مهمهمةً بالاعتذار. فالدونا ليتا هي الوحيدة في الدنيا التي تحميها وتقدّرها، ولم تتشاجر معها قطّ.

– جئت لأنني أريد الخير لفلور، كما لو كانت ابنتي... فلِمَ بحقّ الشيطان لا تدعينها تتزوج؟ إنها تحب الفتى وهو يهيم بها حباً. هل لأنه بلا سلطة كما كنت تظنين؟

– لم أظنّ شيئاً، وأنت تعلمين جيداً لماذا، لقد سخرا مني، الشقيان (طالما أغضبها الاستهزاء بها) أتعلمين؟ أظنّ أنّ من الأفضل لنا أن نضع حداً لهذا الحديث: لن تتزوج من ذلك العاطل ما دامت تحت وصايتي. بعد أن تبلغ الحادية والعشرين، بوسعها ترك المنزل لتلحق الشقاء بنفسها، إذا كانت لا تزال تريد ذلك. لكنني لن أسمح لها بالزواج قبل ذلك. انتهى الموضوع.

– إنّك تسعين إلى الجرب لتهرشي جسدك... سترَيْن....

وهذا ما حدث. فبعد فشل هذه السَّفيرة الأخيرة صمَّمت فلور على الاستجابة لنداء العقل، أو، لنقل الاستجابة لوسوسة فادينيو الذي حاول إقناعها بالحل العمليّ الوحيد الممكن والذي لا يخيب، وهو، في الوقت نفسه، برهان رقيق لذيذ على حبها له وثقتها به.

واقتنعت وتورَّطت، فتحَتْ له فخذيْها وتركته يفضّ بكارتها كما طلب منها وألحَّ عليها. واسمحوا لنا أن نقول الحقيقة، كلّ الحقيقة من دون إخفاء التفاصيل (حتى وإن كانت النّية وراء إخفائها المحافظة على مظهر بطلتنا في عيون الجمهور ببراءتها وخفرها، فنصوِّرها كضحيَّة ساذجة لدون جوان لا يُقاوم). والحقيقة هي أن فلور كانت تموت شوقاً لتستسلم، لتهب نفسها بكليتها، مهجوسة بنار كانت تحرق أحشاءها وحشمتها مثل لهيب مجنون.

استعار فادينيو بيتاً لصديق ثريّ هو ماديو بورتوغال، العازب الشَّاذّ، بيتاً متوارياً عن الأنظار في ناحية من نواحي إيتابووا. كان النسيم يفك شعر فلور الأسود الأملس،وتعطيه أشعّة الشمس ظلالاً زرقاء. هاج الموج وهبّت الريح. انتزع ملابسها عنها قطعةً قطعةً وقبلةً قبلةً. وقال ضاحكاً بينما يعريّها ويتمكّن منها:

– لا أستطيع أن أضاجع تحت الملاءة فكيف مع الملابس على جسدينا؟ فمِمّ تخجلين يا حبّي ؟ ألا نتزوَّج ؟ حتى لو لم يَكن ذلك فإن خوض غمار اللذة هو أمرٌ من عند الله، فهو الذي أمرنا بالمتعة: «فلتتمتّعوا يا أبنائي، وليكن لكم ذرية يا أبنائي» هذا أفضل ما قاله الله وأحسنه.

– ارجوك يا فادينيو، لا تخرق المقدسات.

لفّت فلور جسدها بشرشف أحمر. كل ما في الغرفة كان مثيراً: لوحات نساء عاريات معلقة على الجدران ونسخ عن لوحات تطارد فيها آلهة الحقول الحوريات مطاردة عنيفة، وقبالة السرير مرآةٌ كبيرة. إن ماريو المذكور لورد، فنان بخلق جو الإثم! وعلى طاولة الزينة قوارير العطور وشراب معتّق مع الثلج. وأحست فلور بالبرد في بطنها.

– لو شاء الرّبّ ألا يتمتع الناس لخَصَاهُمْ جميعاً، وجعل الأولاد يولدون من دون أمٍّ أو أب. هيا! لا تكوني بلهاء! انزعي هذا الغطاء...

وأزال عنها القماش الأحمر فبَدَت فلور وردةً تتفتّح في شرشف أبيض. وندت عن فادينيو صيحة مرح مفاجئة.

– ما هذه النعومة يا حبّي، لا وبر لديك تقريباً، لا بل أبداً. كم هذا جميل غير متوقّع..

– فادينيو.

غطى بجسده خفرها فأغمضت عينيها. وانتشر الفرح فوق بحر إيتابووا، وحمل النسيم آهات الحب إليه فصمت السمك يصغي إلى صوت فلور المختنق باللذّة؛ اللذّة في البحر وفي الأرض، وكذلك في السماء وفي الجحيم!.

خرجت فلورصباح ذلك اليوم، لتساعد الدونا ماغاباتير نوسترو، تلميذتها القديمة الثريّة، في غداء عيد ميلاد، احتفال لأكثر من خمسين شخصاً، وأيضاً موائد للحلوى وللأطعمة المالحة لفترة ما بعد الظهر. وتركت الحفل إلى حيث التقت فادينيو، وحدث ما كان لا بدَّ منه. وبينما كانت الدونا روزيلدا تعمل في فرن الدونا ماغا، كانت هي تعبّر بفخذيها مع فادينيو في إيتابووا.

أخذت منذ ذلك اليوم تختلق الحجج لتعود مع فادينيو إلى المنزل الصغير عند الشاطئ. وسعت إلى صديقاتها وتلميذاتها؛ «إن سألتك أمي إن كنت قد خرجْتُ معك، فقولي لها نعم»، وكنَّ

يقلن ذلك، فجميعهن يحتفظن لها بالمودة وكثيرات منهن يتعاطفن مع قضيتها، وبعد الدرس تعلن إحداهن:

– سآخذ فلور معي إلى حفلة السينما الصباحية، فالبائسة بحاجة إلى السَّلوان.

وبدا أنها نسيت ما جرى، فأعربت أمّها عن فرحها. ففي هذه الأيام لم يَعد لفلور تلك السّحنة المتوترة، ناهيك عن أنها تخلّت عن البقاء داخل غرفتها بانتظار ظهور حبيبها في الشارع.

كانت حتى ذلك الوقت تظهر في النافذة، بتحريض صريح. الشيطان يتجاذب الحديث على رصيف منزل جوفينتينا الزنجية ذلك الوباء. والجارات الفاقدات الحياء رحن يخزِّنّ أخبار الحبّ وقلق الدونا روزيلدا التي سيجعلنها تدفع لهن الحساب مع الفوائد. كانت فلور تلقي بقصاصات من الورق لفادينيو وترسل إليه قبلات بأطراف أصابعها. حتى فقدت الدونا روزيلدا رشدها، وانفجرت في تصرُّف غير مألوف ضد ابنتها والغشّاش السافل الذي يستهزئ بها في الناصية.

مع ذلك، شعرت روزيلدا، في الأيام الأخيرة، ببشائر التغَيُّر، فتصرّف فلور قد تبدّل، لم تعد تغنّي أغنيات حزينة، ولم يعد على شفتيها طوال الوقت لقب الحبيب المقرف، ناهيك عن أنه تخلّى عن الظهور في الشارع. وأشرقت مجدداً ابتسامة فلور، عادت لتلقي عليها تحية الصباح وتحية المساء، وتجيبها عندما تكلِّمها. في باشا دوس ساباتيروس أوصتها الصديقة الطارئة وهي تودّعها:

– كوني عاقلة، هيه! – وضحكت ضحكة غامضة.

وضحكا هما أيضاً، فلور وفادينيو بينما كانا يدلفان إلى سيارة أجرة – دائماً هي ذاتها، تخصّ الغجري، وهو سائق قديم في الساحة ورفيق قديم لفادينيو – تتجه بهما بسرعة قصوى نحو إيتابووا، وأيديهما متشابكة، يختلسان القبلات في الطريق، وتعيدهما مع الغسق على مهلٍ، ورأس فلور يرتاح على كتف فادينيو وشعرها الأسود يداعبه النسيم، متكاسلين يرغبان في أن يبقيا معاً، فلِمَ يجب أن يفترقا؟

إزداد إلحاح فادينيو، على قضاء ليلة بطولها معها، فلم يعد يكتفي بأن تكون إلى جانبه ويمتلكها، بل يريد أن يغفو مع تنهداتها، وينام في نعاسها. كانت فلور من جهتها ترغب في تلك الليلة الكاملة، وفي الحصول على تلك الساعات غير المحدودة ، السَّاعات التي تتقلص مع ازديد لذتها.

قالت له ذات مساء حين طلب منها ذلك: «لكنني لن أستطيع الرجوع إلى المنزل بعد أن أمضي الليل خارجه».

– ولِمَ تعودين؟ لقد تمسك كل منا بالآخر وانتهى الأمر. أنتِ التي لا تريدين إلى الآن أن تعرضي الحقائق كاملة.. ولست أدري لماذا!

وأين سأبقى حتى الزواج؟

بقيا في منزل الخالة ليتا والخال بورتو، في ريو فيرميليو. كان منزلها الثاني. وعندما اتخذت فلور قرارها أغلقت في اليوم التالي على نفسها باب غرفتها وجهَّزت حوائجها، فملأت حقيبتين وصندوقاً. وبعدها أغلقت الباب ووضعت المفتاح في جيبها وخرجت مدَّعيةً أنها ستذهب إلى سوق يانسا في باشا دوس ساباتيروس. وهناك كان فادينيو بانتظارها مع سيارة الأجرة، ومرّة أخرى أخذهما الغجري، لكنّه لن يعيدهما في الصبّاح التالي.

وأخبرت الدونا روزيلدا امرأة من معارفها قَدِمت لتخيط لها:

– خرجت فلور لتشتري شيئاً ما وستعود حالاً. لحسن الحظ لم تعد تتكلم عن الشخص الذي تعرفين، وهي أقلّ غضباً...

– سينتهي بها الأمر أن تنساه... هذا ما يحدث دائماً...

– عليها أن تنسى، شاءت ذلك أم أبَتْ.

طالت الزيارة وطال الحديث، والدونا روزيلدا تروي أموراً عن عائلة حديثة العهد في اللاديرا من آل آمارغوزا:

– حسناً تأخّرت فلور، سوف أنصرف. بلّغيها تحياتي.

انتظرت الدونا روزيلدا وحيدة. اعتراها بادئ الأمر شكٌّ ضعيف، ثم القلق ومع هبوط الليل تأكّدت أن فلور فقدت رشدها وهربت من المنزل. خلَعت باب غرفتها مستعينةً بسكّين، وشاهدت الحقيبتين المعدّتين والصندوق الملآن. لقد خدعتها الهاربة بتصرّفها وكأنّها قطعت علاقتها بالسافل، لتتمكن من الخروج طليقةً لتشقي نفسها. وظلّ النور عند الدونا روزيلدا مضاء طوال الليل والسكين في متناول يدها. آه! يا ليتها تتجرّأ وتعود...

وعندما جاء في اليوم التالي أختها وصهرها قبل الغداء، وكان بورتو مرتبكاً تماماً مثّلت مشهداً تقليدياً بانتزاع شعر من رأسها:

– لا أريد أن أعرف شيئاً... فلن تدخل منزلي امرأة بغيّ، ومكان العاهرات شقق العازبين...

– اعملي معروفاً واحترمي وجودي. ففلور في منزلي، ومنزلي ليس شقة عازبين. وإذا كنتِ لا تهتمين لسعادة ابنتكِ فهذا شأنكِ. أما أنا وتاليس فنهتمّ لها كثيراً. جئت لأقول لكِ إن فلور ستتزوج، وإذا شئتِ يتمّ الزَّواج هنا حسب الأصول، وإذا لم ترغبي، فسيتم في منزلي وبسرور. قالت لها الدونا ليتا والانزعاج واضح من لهجتها.

– الفاجرة لا تتزوج، إنها تعاشر...

– اسمعي، أيتها المرأة...

لم تسفر مجادلة الخالة ليتا وحضور بورتو الصامت عن شيء. سوف لن تحضر ولن تعطي موافقتها على الزواج، فليحصلا على ترخيص من القاضي، وإذا أرادا فليكشفا أمامه كل ما جرى معلنين عار الجاحدة. عليهما ألّا يعتمدا عليها لتغطية النَّذالة، ولسدّ ثقب بكارة عديمة الحياء تلك!

سافرت الأم، في اليوم التالي، إلى نازاريت، حيث استقبلها ابنها من دون حماسة كبيرة. كان يفكر في الزواج، ولم يتمكن حتى الآن، لأن مرتبه لا يسمح له بذلك. لكنّه مستعد لأن يتزوج حالما تأتيه ترقية ما، واستطاع توفير بضعة آلاف من الريالات. أما خطيبته فهي إحدى تلميذات فلور السابقات، صاحبة العينين النديتين التي يدلّعها بمناداتها سيليستي.

13

بينما كانت فلور تسير مسرعة إلى سودريه لتزور منزلاً معروضاً للإيجار، التقت صدفة إحدى تلميذاتها السابقات، وهي سيدة انيقة، زوجة تاجر في سوق المدينة، تدعى الدونا نورما سامبايو، مرحة جداً، محبة للمزاح، جميلة ومعروفة بطيبتها الطبيعية وكرم قلبها. وكانت تقيم في الجوار. أما المنزل فهو ما تطلبه فلور وكأنه بُنيَ ليكون منزلها ومدرستها، وفضلاً عن ذلك إيجاره رخيص نسبياً. وبما أنّ الدونا نورما مستأجرة سابقة، فقد كفلتها، وكان المالك من معارفها، فمن الطبيعيّ أن يفضّلها على سواها، وأن يترك المسألة لها.

كانت الدونا نورما السلوى والعزاء للفتاة في محنتها. اهتمت بمعظم مشاكلها وعملت على حلها جميعاً بإيجاد حل لكل منها.

بدأت برفع معنوياتها المنهارة. فعرضت لها فلور تقريراً دقيقاً عن كل ما حدث معها. فكانت الدونا نورما تدقق بالتفاصيل وتجمّعها لتكوّن صورة واضحة عما حدث. وتولّد لدى فلور انطباع بأن كل الناس على علم «بخطوتها الناقصة» (على حدِّ تعبير الخالة ليتا) كأنها تحمل وصمة عارٍ على جبينها؛ امرأة عديمة الحياء، تعرف رجلاً وتتظاهر بأنها بِكر.

– حسناً يا فتاتي، لا تكوني بلهاء... من ذا الذي يعرف أنكِ مكّنتهِ من نفسكِ؟ أربعة أو خمسة أشخاص، نصف دزينة على الأكثر وانتهى الأمر... بوسعك إن شئت أن تتزوجي بالطّرحة والإكليل ومن ذا الذي سيحتجّ؟ أمُّكِ سافرت، وهي، أجل، كانت قادرة على أن تحضر وتفضحك عند باب الكنيسة..

لم يكن بوسع فلور إخفاء عارها، لقد أساءت التصرُّف حقاً، لكنّ هذا كان الحلّ الوحيد أمامها. وبالنسبة إلى الدونا نورما ما حدث يجب ألّا يؤدي بها إلى هذا الذعر:

– يحدث هذا التعاطي قبل الزواج لاثنين من بين كل ثلاثة، لأناس طيبين جداً، يا عزيزتي...

أخذت تروي نشرة أخبار موسّعة طريفة، أمثلة تواسي بها الفتاة: «فابنة فلان الدكتور في الكلية، ألم تسلّم نفسها لصديق خطيبها عشيّة الزواج، منتهكة عهد الخطبة، هاربة مع الآخر، لتتزوجه بسرعة؟ ألا تُعتبر اليوم من صفوة المجتمع، يرد اسمها في الصحف: «الدونا فلانة استقبلت أصدقاء... إلخ..، وهكذا...؟» وتلك فلانة ابنة القاضي في محكمة الاستئناف، ألم تُضبط وهي تسلّم نفسها لخطيبها – أقلّه هذه سلّمت نفسها للخطيب ذاته – خلف منارة المرفأ؟ والحارس الذي ضبطها بالجرم المشهود، لم يأخذهما إلى المخفر لأن الفارس الواعي رمى إليه بإكراميّة باهظة. لكنّه عرض وسط الناس، سروالها التحتي القصير المصنوع من القماش الشفاف الأسود؛ كان قطعةً جميلةً عن المطرّزات؛ ومع ذلك، وعلى الرغم من عرض ملابسها الدّاخلية على الملأ لم تتخلّ عن الزفاف بالطرحة والأكليل، وبفستان من التافتا رائع الجمال؛ كانت حقاً ذات ذوق رفيع ومال وافر. ثم هناك أخرى – أبوها شرس الطباع، أين منه الدونا روزيلدا، يضيّق الخناق على بناته ويتركهنّ حبيسات المنزل وقد داهموها في أونDينا، في الأدغال، تسلم نفسها لرجل متزوج، إشبين لأبويها! ثم تزوجت رجلاً بائساً وهي الآن تسلم نفسها لأيٍّ كان متى استطاعت إلى ذلك سبيلاً وشعارها: «في الإكثار فضيلة» تتعاطى مع العازبين والمتزوجين، الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم، الأثرياء والفقراء. كثيرات يا ابنتي، لم يتعاطيْن الجنس قبل الزواج، إما لأن لذَّته كانت خافيةً عليهنّ وإما لأن الخطيب لم يطلب ذلك. أخيراً، بربِّك قولي لي ، ما الفرق في أن يحدث ذلك قبل الزّواج أوبعده؟!».

إنها لَمْ تقلل من فظاعة خطيئتها فحسب، بل أعادت إليها الحيوية، ورافقتها في عمليات الشراء التي لا غنى عنها لتأهيل المنزل: أثاث وحاجات للاستعمال اليومي، خصوصاً السرير الحديدي برأسه وقوائمه المحفورة والذي ابتاعته مستعملاً من جورجي طرّاب، وهو بائع مزاد علني في متجر لبيع التُّحف والأشياء القديمة في شارع روي باربورزا، ناهيك عن أنه صديق الدونا نورما؛

كان طبيباً جورجي هذا، سورياً طويل القامة وأحمر الشعر، مصاباً بالقلب، وحين علم بقرب زواج فلور قدّم لها إكراميَّةً وهديةً نصف دزينة من كؤوس الكحول. وساهمت الدونا نورما بزوج من مناشف للحمام وللوجه، منشفتين من صنع ولاية آلاغوواس من الصنف الممتاز. وتنازلت لها بسعر الكلفة القديم أي بلا مقابل تقريباً، عن شرشف رائع من الساتان الأزرق بلون الأورتنسيا، طبعت عليه أغصان زهر المنثور بلون ليلكي، كان قطعة فنية رائعة. كان في جهاز عرس الدونا نورما الفخم قطعةٌ لا يمكن مقاومتها، هدية ثمينة من أحد أعمامها والمقيم في الريّو. يومها، لم يطمئن المهووس زيه سامبايو للشرشف لأنه قرأ في مكان ما أنّ زرقة الأورتنسيا هي لون جنائزي بين الأحمر القاني والبنفسجي، فاعتبر أن الشرشف لا يصلح إلا لتغطية التوابيت. وبسبب الشرشف اللعين كادا يتشاجران ليلة الزفاف ذاتها. ولو لم تكن الدونا نورما فتية تتطلع بكل جوارحها وبفضول إلى ما سيحدث تلك الليلة، لكانت لها ردة فعل على زمجرات زي سامبايو وسوء تهذيبه. ولم يرتح حتى خبَّأته نهائياً، فلم يستعمل بعد ذلك اليوم فبقي جديداً بورقته كما اشترته من تشيلي، وكلّف مبلغاً باهظاً من المال.

وما دمنا في معرض الحديث عن الشراشف، يجدر بنا أن نتذكر هنا أن مساهمة فادينيو الوحيد في جهاز العرس كان شرشفاً ملوّناً من قطع قماش مختلفة خاطته في عمل جماعي عاهرات بيت إيناسيا. كنّ جميعهنّ معجباتٍ بالعريس؛ وكانت صاحبة الفكرة إيناسيا النبيلة الخلاسية التي نقّش الجدري وجهها. كانت أصغر صاحبة منزل دعارة في باهيا، لكن هذا لا يعني أنها صاحبة تجارب أقل؛ وطالما لجأ فادينيو بين الفينة والأخرى إلى سريرها ولبث فيه في حمى الغرام أياماً بل أسابيع.

لم يشعر بالذّنب لكونه لم يقدّم غير هذه المساهمة الضئيلة جداً في هذه النفقات التي لا تنتهي والتي سرعان ما استنفدت مدخرات فلور خلال سنوات عملها. لكن كان بودّه أن يتكفّل بكل النفقات أو القسم الأكبر منها، وفي سبيل ذلك بذل جهوداً هائلة. ولم يره أصدقاؤه يوماً على مثل هذا التوتّر والمثابرة على طاولة الروليت، لكن رقمه السبعة عشر نادراً ما أتى، وكأنه أصبح ملغى من بين الأرقام. وحاول في الروندا وفي البكارا، مع الأرقام الكبيرة والصغيرة على السواء، لكن الحظ

بقي بعيداً عنه واستمرَّ النحس. أجهد نفسه حتى لم يعد هناك من يقرضه المال، فاضطر أن يسرع إلى العروس ذاتها ليستولي منها على بعض المئات، قائلاً:

– لا يمكن أن يستمر نحسي اليوم يا حُبِّي. سآتي صباحاً إليك مع عربة مثقلةٍ بالمال، فتشترين نصف باهيًا، على أن لا تنسي شراء صندوق شمبانيا ليوم زفافنا!

لم يجلب مالاً ولا شمبانيا، كان حقاً منحوساً، فإلى مَتى يدوم سوء حظّه؟

وهكذا، لم يكن ثمة شمبانيا إلا في الزواج المدني الذي عُقِد في منزل الخالة. فقد فتح تاليس بورتو زجاجة، وشرب القاضي نخب العروسين والعائلة. ناهيك عن أن الزواج الكنسيّ كان بسيطاً وسريعاً، لم تحضره إلا بضع صديقات فلور الحميمات وصديقها أنتينور ليما، إضافة إلى الخالة ليتا والعم بورتو (والدونا نورما بالطبع). الدونا ماغا باتيرنوسترو المليونيرة لم تستطع المجيء لكنها أرسلت صباح يوم العرس طاقم أدوات المطبخ؛ وهي قطعاً هدية نافعة. أما من جانب فادينيو فلم يأتِ سوى مدير دائرة المتنزهات والحدائق في البلدية (اغتنم فادينيو الموظّف مُناسبة زواجه ذريعةً ليستقرض مالاً من زملائه) ثم ميراندون وزوجته الهزيلة الشقراء، التي تبدو أكبر من عمرها وأخيراً شيمبو. حضور المفوض المساعد حمل تاليس بورتو على التعليق أمام الدونا ليتا: «لم تكن قصة فادينيو مختلقة كلها، أقلّه، قرابة فادينيو لغيمارايس المهمّ ليست مختلقة».

أقام مراسم القداس دوم كليمينتي، راعي كنيسة سانتا تيريزا بطلب من الدونا نورما. وقد تألّق فادينيو في أناقته الوسيمة التي عرفته بها الكباريهات؛ أما فلور فلبسَتِ الأزرق وظلّت خافضةً عينيها وعلى شفتيها ابتسامة دائمة. لم تتمكن الدونا نورما من إقناعها بارتداء الأبيض مع الطرحة والإكليل، فلم تجد الحمقاء في نفسها الشجاعة الكافية. وكان خاتما الزواج مستعاريْن من ميراندون قبل قليل. ذلك أن روّاد التباريس قاموا في العشيَّة بتجميع المال اللازم كي يدفع فادينيو ثمن الخاتمين المختاريْن في محل الصائغ رينوت، لكنه خسره بعد نصف ساعة في منزل «الدوقات الثلاث» حتى آخر توستون. وكان بوسعه الحصول عليهما بالدين لو ذهب ليأتي بهما. فالصائغ المعروف بفطنته لم يكن يصمد أمام فصاحة فادينيو ومراراً أقرضه نقوداً. أمضى العريس الليل ساهراً، ثم نام طوال الصباح، وخرج مسرعاً إلى ريو فيرميليو بسيارة الأجرة التي يمتلكها الغجري.

إثر مغادرتهم الكنيسة، وصل المصرفي سيليستينو ممسكاً باقةً صغيرةً من البنفسج قدّمها إلى فلور – الدونا فلور منذ اليوم كما لمّحت سيدة متزوجة. قبّل يدها معتذراً عن تأخّره فلم يعلم إلا الآن بالحفل، ولم يكن لديه وقت لشراء هدية الزواج. وبدلاً من ذلك مرّر إلى فادينيو سنداً بمبلغ من المال. سارع المدعوّون وأولهم شيمبو والدون كليمينتي إلى تحية النّافِذ البرتغالي.

ودّعوا المتزوجين حديثاً في فناء الدير. وحدها الدونا نورما رافقتهما إلى باب مسكنهما الجديد حيث عُلقت على مدخله لوحة خشبية عليها «مدرسة الطَّهي: مذاق وفنّ». وعند باب المنزل دعت الدونا فلور جارتها إلى الدخول:

– ادخلي لنتحادث قليلاً...

ضحكت الدونا نورما، بخبث وردّت:

– سأكون فظة بدون إحساس لو فعلت... وأشارت إلى الغيوم السوداء فوق البحر وأردفت:

– الليل يقترب وقد حانت ساعة النوم...

فوافق فادينيو:

– تكلمت قليلاً لكنك أفصحت. والحقّ أنني دائماً مستعد لهذا ليلاً نهاراً، لا فرق لديّ ولن أتقاضى أجراً منك لقاء أعمالٍ إضافية!

احتضن خصر الدونا فلور وقطعا معاً، وسرعان ما بدأ يفكّ أزرار ملابسها ويعريّها.

في الغرفة، ألقاها على ظهرها على الشَّرشف الأزرق بلون الأورتنسيا، منتزعاً غلالتها وسروالها. أمسَتِ الدونا فلور عاريةً ممدّدةً على السَّرير، وظلال الشَّفق الأولى تسقط على نهديها.

– «أرجوك يا حبيبتي، هذا الشرشف الذي جلبته، يبدو كأنه كفن ميت. اسحبيه عن السرير، يا امرأتي الرقيقة، وافرشي ذلك الشرشف ذا القصاصات، فعليه سيبدو عريك أوضح وجمالك أنصع. أما هذا الشرشف فعلينا الاحتفاظ به بعناية، فهو بلا شك يساوي مبلغاً كبيراً من المال...».

فوق الشرشف الملوّن ذي القصاصات، استلقت الدونا فلور متزوجة أخيراً وقد أخرسها خجلها ولا يغطي عريها سوى ظل الشّفق. الدونا فلور مع زوجها فادينيو، الذي اختارته بنفسها متجاهلةً نصائح المُجرّبين، معارضة رغبة أمّها الصريحة، بل سلّمته نفسها وهي تعرف كل شيء عنه قبل أن يتزوجا. ربما أقدمت على عمل جنوني، لكن لو لم تفعل ذلك لما كان هناك ما يدفعها إلى العيش؛ وأخذت النار تلتهمهما، نار تنبع من لهاث فادينيو، من نَفَسه المحموم وأنامله التي تلهب جلدها. الآن، وهما متزوجان، فله كلّ الحقِ في أن يفعل بها ما يشاء، أن يعرّيها، وهي إلى جانبه على السرير الحديدي، يتطلّع ويبتسم لها. زوجها جميل، ووبرٌ ذهبيٌّ اللون يغطي ذراعيْه وساقيْه وعلى صدره غابة من الشعر الأشقر، ندبة طعنة موسى على كتفه اليسرى. كانت تبدو بجواره امرأة زنجية سوداء جرداء وقد تعرَّت من الداخل أيضاً وراحت الرغبة تتآكلها، فيتسارع أنينها ويتسارع، كما لو كان فادينيو يجرّدها من روحها، وكان يقول أشياء مجنونة.

تمتّعا حتى لم يعد بوسعهما التمتّع بعد، آنذاك سحبت الشَّرشف وغطَّتْ نفسها، واستسلمت للنّوم. كان فادينيو يبتسم وأصابعه تتخلل شعرها ليساعدها على الرقاد. كان زوجها الجميل الفحل، الرقيق الطيّب.

استيقظت الدونا فلور عند الفجر والمنبّه عند الوسادة يشير إلى الثانية صباحاً، فلم يكن فادينيو في السرير. هبّت واقفة وخرجت تبحث عنه في أرجاء المنزل. لكنه اختفى ومن المؤكد أنه مضى ليقامر بالنحاسات التي أعطاها له صاحب المصرف. كان ذلك أكثر من أن تتحمله ليلة زفافها بالذات. وبكت الدونا فلور وسالت دموعها الأولى كامرأة متزوجة. على الشرشف، كان الحزن يأكلها والشهوة تحرقها فتصرّ على أسنانها من شدَّة الرغبة.

14

سبع سنوات تفصلُ بين تلك الدموع الأولى التي ذرفتها الدونا فلور ليلة زفافها والدموع التي ذرفتها في صباح يوم الأحد الحزين حينما سقط فادينيو ميتاً، خلال رقصة سامبا في إحدى الحلقات، بين الفانتازيا والأقنعة. «لقد مات اليوم، إلى الأبد»، على حدّ تعبير الدونا جيزا حينما رأت جسد الشاب ممدداً على حجارة «ساحة الثاني من تموز». فلطالما بكت الزوجة في تلك السنوات

السبع بسبب خطاياها التافهة ومن زوجها – ولكم كانت ذنوبه وعيوبه عديدة وثقيلة – ولطالما انهمرت دموعها: دموع العار والعذاب، دموع الألم والمذلّة.

دموع ذرفت بشكل رئيسي في المساء. في الليالي المقفرة بغياب فادينيو، ليالي أرقٍ وانتظار طويلة لا تكاد تنقضي وكأن الفجر يتقهقر فيها إلى ما لا نهاية. كانت تسمع أحياناً ترانيم المطر المنعشة على السطح، والبرد يطلب وجود جسد الرّجل لتسعى إلى دفء صدره بغابة شعره وتلجأ إلى قوة ساعديه، في الهزيع الأخير من الليل. كان يستحيل على الدونا فلور أن تخلد إلى النوم. كانت الرغبة في احتضانه تصبح جرحاً مفتوحاً فترتعد مرتعشة، في حزن مضطرب، في ذلك السرير الفارغ إلا من الشوق والهجران.

عندما كان فادينيو هنا– آه! عندما كان موجوداً، لم يكن ثمة لا برد ولا أحزان. فمنه كان يأتيها الدفء والمرح الذي يتصاعد من ساقيها إلى وجهها، ويروح الليل ينفتح في غبطة، وتحسّ الدونا فلور أنها في أمان، مرغوب فيها، منتشية قليلاً وكأنها شربت كوب نبيذ أو كأساً من الكحول. كان حضور فادينيو الليلي يسكرها، كالنبيذ المعتّق، وأنّى لها أن تقاوم إغواء لسانه وفمه بكلماته المعسولة؟ ليالي اندفاع مثير، ليال اللذة الجنونية.

مع هذا، نادرة كانت الليالي التي لم يكن يخرج فيها بعد العشاء، فيرتاح على الكنبة المستطيلة، واضعاً رأسه في حضنها، يستمع إلى الراديو أو يروي لها قصصاً، ويده تتحرّش بها بطيش، يثيرها محاولاً إذكاء غلمتها، لينتهيا معاً في السرير الحديدي، في ليل حب طويل. لم يكن يصل ذلك سوى نادراً. فقط عندما كان فادينيو، في نوبة قرف مفاجئة وغير متوقعة، يهجر التبذير والحياة البوهيمية، والعربدة والكاشاسا والقمار على مدى ثلاثة أيام أو أربعة، وربما لأسبوع كامل ويبقى في المنزل، فينام معظم الوقت أو يبحث في الخزائن ويناكف تلميذاتها، ملحاً على الدونا فلور بأن تستسلم له في أي ساعة كانت وبمختلف الظروف الجريئة غير اللائقة. كم كانت تلك الأيام القصيرة مليئة بالحياة حين كان يتدخّل في كل شيء، فتدويّ ضحكتُهُ المشاغبة في الممرّ، يتحادث من خلال النافذة مع الجيران مصغياً إلى نقاشات الدونا نورما الحادة، وينخرط في أحاديث طويلة مع الدونا جيزا، مشيعاً الحركة والبهجة حوله وفي الشارع. كانت تلك ليالي تُعدّ على الأصابع مفعمة

بالنشوة والغبطة والضحك الطليق والرغبات والمداعبات والملاطفة، وتنتهي بالتحام جسدين منطلقين بلا قيود في السرير الحديدي. كان يخاطبها: «يا حلو جوز الهند الذي أحبه، يا زهرة الغاب، يا ملح حياتي، شوكولاتتك هي العسل بشهده بالنسبة إلي». لهفي على ذاك الذي كان يقوله، فلم يعد بالإمكان تكراره.

كانت ليالي الانتظار تتكرر. والدونا فلور في أرق دائم قلقة مضطربة، تستيقظ عند أقل ضجة. أو كانت تقضي الليلة متكئة بغضبٍ وألم على الوسائد حتى تسمع وقع قدميه من بعيد، وتسمع المفتاح يدور في القفل. فتعرف حالما يفتح الباب مقدار الكاشاسا التي شرب، ونتيجة اللعب الذي لعب. فتغلق عينيها متصنّعة النوم.

يصل أحياناً عند الفجر فتستقبله بحنانها، وتحتضن نعاسه المتأخر، ووجهه المتعب وابتسامته القسْريّة، كان يلف نفسَه ككرة من الخرق في حمى جسدها. كانت تبتلع دموعها كي لا ينتبه إلى بكائها وحزنها. فقد تكاثرت أحزانه، ونخر عظامه الكفاح المستميت مع حظه السيئ. عادةً يتناول قليلاً من الخمرة، لكنّه مراراً ما يأتيها وهو سكران فينام فوراً، لكن ليس قبل أن يمد لها يده يلاطفها ملاطفة ويهمس: «زنجيتي صاحبة البشرة السوداء الناعمة، اليوم قد خسرت، وغداً انتزعكِ مما أنتِ فيه...». كانت الدونا فلور تبقى مستيقظة تتحسس جسد فادينيو لصق جسدها يرتعش في نومه؛ فحتى في أحلامه كان يلعب ويخسر ويكرر أرقاماً في رقصة الروليت: «ستة عشر، ثمانية عشر، عشرون، ثلاثة وعشرون»، أرقامه المحتومة. أو كان يعلن بغضب: «كسِبَت القطّة». كانت تتابع تبدّلات حلمه، فتسمعه يراهن على «الأرنب الفرنسي» ويفضّل كلمة: «الكبير والصغير». وعلمت أنّ مدير اللعبة يأخذ فيشات الكلّ عندما تكسب القطة. وقد انتهى بها الأمر إلى أن تعرف جميع المصطلحات، وتدور الأرقام المجنونة والإغواء السرّيِّ لأكذوبة القمار. وأخيراً، عند الفجر، كانت تحميه من العالم والفيشات والزهر، ومن مساعدي مدير اللعبة والنّحس. فتغطيه بجسدها وتدفئه. ويصبح فادينيو النائم طفلاً أشقر، ولداً كبيراً.

وكان يحدث أيضاً أن لا يأتي أبداً. فتنتظره طوال اليوم إلى ليلِ اليومِ التالي حتى يتآكلها الذل. وإذ تشاهدها التلميذات صامتةً حزينة، يتجنبن إحراجها بالأسئلة كي لا تنطلق دموع العار

المرتبكة من عقالها. لكنهن يعلّقن فيما بينهن على سوء سلوك وحياة ذلك السافل بانتقادات مُرّة. كيف يجد الجرأة على إبكاء زوجته الطيبة جداً؟ لكن، يكفي أن يظهر بينهنّ بصوته المجرّب، وأحاديثه المُنمقة وحِيَله، حتى يذبْن شبقاً، ويعتريهن حكاك في الأرداف.

أثناء النهار يضاعف فادينيو جهوده وركضه، بدون فائدة أحياناً، ليتدبّر مالاً يقامر به : فلا استدانة على طاولة الروليت ، الفيش لا يباع إلا نقداً. كان يدور على المصارف، يتسكّع حول المديرين ومساعديهم، من أجل ضمانة حسم أحد السندات، يستعمل سحر أحابيله ليقنع الضامنين الاحتياطيين أصحاب الرهونات من أجل هذا الحسم الموعود، أو لانتزاع بضع مئات من الريالات تقريباً، بالقوة وبفوائد عبثية، من براثن شحيحة لمتلاعب بالبورصة، إنّه قادر على ملازمة بخيلٍ معيّن طوال ما بعد الظهر، ممّن يُظَنّ أنهم أمْنَع من أن يقعوا بين يديه. فقد كانت لديه قناعة بأنه سيتغلّب عليهم، وفي النهاية سيراهم وهم يأخذون قلم الحبر ليوقعوا على السند المطلوب من دون أن يبذل جهداً كبيراً. لا فرق بين كفالة سندية أو إعطاء نقدي، فالأمر سيّان بالنسبة إليه. لكن بعضهم كان يميل إلى إعطائه المال. كان فادينيو يتوجه إليهم مع سند بقيمة كونتو واحد من الريالات، ويطلب الكفالة فيلقي إليه الضحية بورقة نقد من ذات المائة أو المائتين ليتخلّص منه، وإلا يعرّض نفسه لخطر التوقيع، وسرعان ما يعود إليه بعد ثلاثين أو ستين يوماً، مع سند مستحق يلزمه التسديد. وهذا خطرٌ جدِّي لأن فادينيو لا يبالي بأيٍّ كان؛ ففصاحته لا تُقاوم بالبُخل وحده، بل تتطلّب إنساناً له قناعات عقائدية راسخة لا يتأثر بمآسي الحياة، إنساناً متعصّباً، متشيّعاً لمذهب بلا قلب. فكيف يا ترى استطاع الإيطالي غيلييرمو ريتشي، من لاديرا دو تايوون، الأسطوري في بخله أن يقاوم فادينيو طوال سنين؟

هناك شخص آخر قاوم بعناد، ألا وهو المكتبي دميغال شافيس، مذ كان مدير مكتبة بسيطاً، حتى أصبح الثريَّ الذي نعرفه اليوم. لكن ذات يوم لزمَهُ فادينيو منذ الصباح الباكر، وتناولا الغداء معاً، ثم دخلا في المساء. وأنهكه طوال ست ساعات متواصلة، وهي فترة كان يحسبها ميراندون بساعته السويسرية الأصلية حتى داخ، وتعبت أذنيه فاستسلم دميغال الفطن:

– فادينيو، أقسم لك إنّ هذا أول سند أكفله في حياتي...

– إذن هذه بدايةٌ حسنة يا صديقي، أفضل انطلاقة ممكنة. من الدرجة الأولى؛ لا ينقصك الآن إلا أن تواصل، فمن يضمنني مرة لا يتوقّف لأنه يَسْتذوق الأمر...

أسرع إلى المصرف، تاركاً المدير البدين فاغراً فمه، منحنياً على طاولة المكتب المستطيلة، يقرضه الهمّ من دون أن يعرف سبب تصرفه الأحمق، وتوقيعه العبثيّ.

في الأوقات التي كان يمارس فيها لعبة القمار في المساء وفي الليل، لم يكن فادينيو يأتي حتى ولا للعشاء. كان يأكل أي شيء: طبق أكاراجيه أو طبق آبارا أو شطيرة، ولم يكن يتناول عشاءه إلا في ساعات الفجر الأولى، بعد أن يوصد آخر باب لآخر منزل سيئ السمعة. فيعمد آنذاك هو ومن بقي معه إلى نهاية السهرة مثل جيوفاني، وآناكريون وميرابو سامبايو وميبا يوركون والزنجي أريغوف الأنيق – كأمير الرواية الروسية – إلى التوجّه معاً نحو رامبا دو ميركادو أو الأبواب السبعة أو منزل أندريزا أو إلى أي منزل في الريف القريب، حيث يتوافر كارورو ده فوليا وفاتابا بالسمك وجعة مثلجة وكاشاسا صافية.

وعندما يصدف أن يأتي المنزل ليتناول العشاء لا يلبث أن يخرج سريعاً قبيل التاسعة – وهو دائماً على عجلة – قاضياً على آمال فلور في أن تراه يصل من الشارع مثل أزواج الأخريات الذين يعودون من أعمالهم فيفعل كما يفعلون: يرتدي البيجاما، ويقرأ الصحف ويعلق على الأحداث، وربما يدعوها للقيام بزيارة معيّنة أو إلى دار سينما. كم من الوقت مضى عليها منذ ذهبت إلى السينما آخر مرة؟ كان لازماً أن تجرها الدونا نورما إلى حفلة ما بعد الظهر، فمن النادر جداً أن تذهب مع فادينيو – نادراً لدرجة أنه أصبح غير متوقَّع – ، وقد تنقضي أشهر وهما لا يخرجان معاً. لكنّها لم تيأس يوماً ولم تتخلَّ عن سؤاله عندما تراه يخلع سترته ويرخي عقدة ربطة عنقه:

– لن تخرج فيما بعد، أليس كذلك؟

وكان فادينيو يبتسم لها قبل أن يجيب:

– سأخرج لكن سرعان ما أعود يا حبي. لن أتأخر أبداً، إنني ملتزم بموعد لكنني سأقضيه بسرعة...

كانت إجابته دائماً هي نفسها.

كان يأتي أحياناً قبل العشاء لكن لغرض في نفس يعقوب. يحدث ذلك أيام الهزيمة الشاملة، حين لا يحصل على أي مال مع هبوط المساء، ويفشل فشلاً مطلقاً في كل محاولاته للحصول عليه، فتخيم عليه خيبة هاجس الكسب في البيشو؛ عندما يصبح مدراء المصارف بلا إحساس ويختفي الضامنون الاحتياطيون، ولا يجد من يقترض منه. في تلك الأيام المتواصل نحسُها يأتي إلى المنزل يئنّ ويشكو. كان عادةً شرهاً يحب تذوّق حلوى الدونا فلور مثنياً على طعمها الذي لا يُضاهى. أما في فترات بعد الظهر تلك فقد كان يأكل بصمت، قلقاً، يأكل القليل، وبسرعة، لا مبالياً بالطعام، ومن حين لآخر يوجّه نظرات ماكرة باتجاه زوجته كأنه يقيس مزاجها، وقابليّة تأثّرها. فقد جاء يطلب منها مالاً، طبعاً هي مجرّد قروض سيردّها لها ويعدها وعوداً لم يفِ بها حتى اليوم. وينتهي الأمر بأن تسلّمه بعض المال سواء بمطلق إرادتها أم غصباً عنها، وأحياناً بعنف مؤلم ومقرف. كانت تلك الأيام هي أسوأ أيام فادينيو، إذ يتحول إلى وحشٍ هائج وتحلّ محلّ سحره ولطفه فظاظةٌ قاسية.

وكانت الدونا فلور تعلم بسوء نيّاته قبل أن يتلفظ كلمةً واحدةً. كان يصل منزعجاً من فشله في الشارع، على سيمائه غضب أخرس. خلال تلك السنوات تعلّمت كيف تعرف نفسيته من أصغر التفاصيل، من ثقل خطواته ووقعها، تفهم حتى البريق الماكر في عينيه حينما تقعان على كلّ أنثى، على تليمذاتها الصاخبات، على فتحة ثوب الدونا جيزا، أو عندما يسير مع الدونا فلور في الشارع فيلتقيان جمعاً من النسوة، فيشيّعهن بعينيه حسب ما يستحققن: إذا كن جميلات أو قبيحات.

كان فادينيو يكرّس وقته بعد الظهر في السعي للحصول على أموالٍ يقامر بها، وسواء جاء إلى العشاء أم لا، حنوناً كان أم فظاً، ففي الليل يسير مجدداً إلى مصيره المضطرب.

مضطرب؟ لم تكن مثل هذه الصفات الكئيبة تتلاءم مع طبيعة فادينيو ولا تتطابق مع الواقع. الأفضل أن نقول: المصير الليلي، نعم، أما المضطرب: فلا. إن الظلال والعتمة والشدائد والمآسي ليست شيئاً يُذكر إزاء تذوّق الرفقة الفاضلة في ليالي القمار. ولم تكن يداه ترتجفان وهو يودع الفيش ولا كان يعضّ على أصابعه ندماً عند الفجر.

لا شك بأن القلق كان ينتابه وهو ينظر إلى الكرة تدور في الروليت وقلبه يعتصره الخوف، لكنه قلق لذيذ. ولم يفكر يوماً بالانتحار: فالندم النبيل لم يتآكله قطّ. كما لم يتهمه ضميره بصوت مأسوي. عاش طليقاً حراً خالياً من كل هذه السلسلة المُرعبة المذهلة التي تصعّب حياة الأشقياء ممّن يتحكّم بهم الإدمان على القمار. إنه لامر مؤسف طبعاً، لكن ما العمل، إذا كان الحال هكذا؟ من المحال أن يُقْدِمَ فادينيو تحت هذا الضوء المتعاطف جداً، كلاعب مربوط إلى قدره المحتوم، يكره نفسه ، ويريد أن يتحرر ولا يستطيع، فيحرر نفسه برصاصة يطلقها على صدغه عند مخرج الكازينو.

كان مصيراً متوتراً فظاً، مصير فحل بالتأكيد. أي امرئ غير الفحل لم يكن ليتحمل تلك المعركة المستمرة أثناء الليل والنهار. لكن فادينيو لم يعتبر يوماً أي صدام حاد يحدث، جرماً أو كارثة يستحق تبكيت الضمير، أو مصيبة كئيبة ليس لها علاج. كئيبة؟ لقد كان مصيره متنوعا ومسلياً؟ دائماً يجد من يُقرضُه نقوداً. صدِّق أو لا تصدّق أن كثيرين يقررون أن يقرضوه المال بملء إرادتهم. من يدري ربما يفعلون ذلك ليجازف في القمار فلا يرتاد الكازينوهات المحظورة، والأوكار سيئة السمعة؟ كان قدره مفعماً بعميق الانفعالات المجيدة.

كما حدث في تلك الليلة من آب/ أغسطس حيث حاول فاندينيو أن يأخذ النقود من الدونا فلور التي قاومت، لأن هذه النقود كانت للنفقات. وتطوّر النقاش، وانهالت الشتائم والإهانات وعلا الصراخ والاحتجاجات، وفي النهاية رمت في وجهه بآلاف من الريالات بدأ بها فادينيو مسيرة مجيدة. ففي آباشادينيو تدحرج الزهر على «الأرنب الفرنسي». وضع فادينيو عشرة آلاف على «الكبير» – كان لا يراهن إلا على الكبير – وكان حظاً سعيداً، كسب «الكبير»، صدِّق أو لا تصدق، أربع عشرة مرّة متتالية، وفادينيو مستمرٌّ بالرهان، وازدحم حوله اللاعبون والمومسات في توتر وقلق، لكنه كان مستعداً للمراهنة على «الكبير» إلى ما لا نهاية. حالما علم ميراندون بالخبر اندفع راكضاً كالمجنون من القاعة الثانية حيث كان يلعب «المستديرة» وصرخ به:

– توقف حباً بأبنائك، فالحظّ سينقلب عليك.

لم يكن لفادينيو أبناء، لذا لم يكن يتوقف. لكن ميراندون الذي كان لديه أبناء، وضع يديه على الفيش وسحبها بنفسه، دافعاً فادينيو من على الطاولة. لقد كان على حق، لأن الذي كسب هو «الصغير» وبعده كسبت القطة، ومجدداً «الصغير» والقطة مرّة أخرى، فيما خرج فادينيو، رغم إرادته، ثرياً.

في تلك الليلة، وجيوبه ممتلئة، تذكّر الدونا فلور تقول له دامعة العينين «أنت لا نفعَ منك، لا تساوي شيئاً ولا تحبني ولو قدر قيراط». أراد أن يصل إلى المنزل مبكراً ومع هدية، لكنها هدية ثمينة تماماً لا مجرد شيء بسيط زهيد الثمن. عقد، خاتم، سوار، حلية ثمينة. لكن من أين يحصل عليها، والسوق التجاري مغلق؟ اقترح ميراندون أنهما قد يجدا هدية مدهشة عند عاهرة في المنطقة! فالبغايا يتقبلن أحياناً عطاءات ثمينة، إذا ما ارتبطن بعلاقة حب مع عقيد من عقداء الكاكاو، أو مزارع في السرتون، فيقتنصن الفرصة ليملأن جيوبهنّ بالمال، بل بعضهن يتركن ممارسة البغاء ليؤسسْن صالونات تجميل أو محلات نوفوتية. ويعرف ميراندون اثنتين انتهى بهما الأمر إلى الزواج وصارتا سيدتين شريفتين جداً.

راحا يفتشان هنا وهناك ويتنقلان من ملهى ليليّ إلى آخر، من شقة عازبين إلى أخرى، ومن نَزْلٍ إلى آخر، وحيثما كانا يصلان يبتاعان الجعة والفيرموت والكونياك لكل من يريد أن يشرب على حساب فادينيو. استعرضا وقلّبا عشرات الحليّ الفقيرة لعشرات البغايا فلم يعثر إلا على خرضوات معدنية مطلية بالكروم أو من الزجاج الملوّن، أو الصفيح – والليل يتقدم.

«أريد أن أصل إلى البيت باكراً مع مفاجأة كاملة». فادينيو في عجلة من أمره، يعتريه الخجل، يتصوّر وجه الدونا فلور وهي تراه قبل منتصف الليل، والهدية في يده. لا ينقصه سوى أن يحظى بهدية ثمينة، تملأ العين، لا مجرّد تفاهة معدنية من التي يبيعها المسكاتي. وأخيراً عثرا على بُغيتهما في لاديرا سان ميغيل في غرفة مدام كلوديت التي انتهت بغياً تعيش على حساب قلّة من الزبائن من الطلاب الجامعيين الذين كانوا يختلفون إليها بسبب من جنسيتها الفرنسية ومزاياها «الفرنسية» المعروفة، وبسعر متدنٍ!

عقدٌ من الفيروز الأزرق رائع الجمال لدرجة أن فادينيو وميراندون انبهرا بجماله البراق وسحره. كله مشغول بالذهب. كانت البغي العجوز تضغط عليه بين أصابعها كأنها تدافع عنه. حلية العائلة، وأسرّت لهما أنه حلية عائليّة جلبتها معها من أوروبا، كان لأمها ولجدتها قبلها، لذا قيمتُهُ مضاعفة. لن تتخلى عن العقد الغالي على قلبها إلا مقابل مال كثير، فهو ذكرى عالمها الضائع في اللورين، ذكرى من طفولتها. ففادينيو المسكين لم يلمس يوماً مبلغاً كبيراً كهذا الذي تطلبه قطّ، ولا تظنّ أنه إذا فعل يوماً قد ينفقه على شراء حلية لامرأة.

مدام: متى اهتم فادينيو بالمال؟ حتى وهو مفلس تماماً لا يهتمّ بالمال إطلاقاً، وإذا كان يسعى إليه سعياً حثيثاً فإنما ليقذفه على طاولة الروليت. وهكذا اندفع يُفرغ جيوبه من المال المحشور فيها حتى كادت تصبح فارغة، والتهبت عينا مدام كلوديت الصغيرتان بالطمع تحت قناع مسحوق الأرز والكريم، وراحت تلك المومياء ترتجف وهي ترى أوراق النقد من فئتي المائة والمائتين.

حملته سيارة التاكسي التي يقودها الغجري إلى باب المنزل عند الحادية عشرة والدقيقة الأربعين، قبيل منتصف الليل، كما شاء هو. ولمّا تكد الدونا فلور تغلق عينيها وتغطّ في النوم قليلاً حتى صار فادينيو في الغرفة وانتزع الملاءة التي تغطي جسدها، ووضع فصوص الفيروز البرّاقة بين ثدييها المتورّمين وقهقه في وجهها:

«وأنتِ التي ما أردتِ إقراضي النقود، أيتها السيّدة البلهاء...» نثر أوراق النقد على السرير، إذ بقي معه أكثر من كونتوين من الريالات.

كيف تتوقّع «مصيراً مرعباً» لمن كان هكذا، مقامراً مرحاً يضحك من الحظ ومن النحس، مفعماً بفرح العيش؟

مصير مرعب، ربما كان مصير الدونا فلور، من وجهة نظرها، من موقعها – وبتعبير أدقّ – من موقع انتظارها له. كم خافت وهي تنتظره في سريرهما. ظلّت تنتظره طوال السبع سنوات، عمراً كاملاً. وكم بكت بدموع غزيرة، وكم تمتَّعت بلحظات الرّقة الحلوة والتملك تعويضاً عن ساعات

الغياب المرّ والإذلال. ذات يوم استعانت الدونا جيزا بخبايا علم النفس والتحليل النفسي ووصف الحالات النفسية وظواهرها وكل المُبتكرات الأميركية الأخرى لتفسّر لها أنها – الدونا فلور – كانت متزوجة من شخص شاذ – وليس استثنائياً بالمعنى الذي كانت الدونا فلور تستعمل فيه الكلمة، كمرادف للعظيم، للكبير، للأفضل من الجميع، لا شيء من هذا. شاذّ: يعني مختلفاً، غير عاديّ، شخصاً لا تنطبق عليه المقاييس المعروفة ولا يمكن ضبطه في حدود اليوميّ العاديّ الرّتيب. هل كان على الدونا فلور أن تفهمه كي تسعد معه؟ كانت تلك إحدى مكائد الدونا جيزا، الصديقة الطيبة بدون شك، لكن المثقفة التي تركبها شياطين الثقافة وتملأ رأسها ولسانها بالأباطيل.

وطالما رغبت الدونا فلور في أن تصبح مثل كلّ الناس، وزوجها مثل غيره من الأزواج. أليس موظفاً في البلدية على يد قريبه الثّري، الدكتور آيرتون غيمارايس الملقب بشيمبو؟ كانت تودّ لو تراه يوماً قادماً إلى المنزل من عمله، متأبطاً صحيفته وصرّة بسكويت أو حلوى جوز الهند، آبارا وآكاراجيه؛ يتناول عشاءه في الساعة المحددة كالآخرين، ويخرج للتنزه معها في ليال معيّنة، يتأبط كل منهما ذراع صاحبه، متمتعين بالنسيم وبضوء القمر. ثم الحب في السرير والتمتع، التمتع قبل النوم، باكراً كالآخرين وفي أيام معيّنة كالآخرين.

وكيف يحدث ذلك وفادينيو ينام قبل أن يصل إلى المنزل مراراً في الشارع، أحياناً بالتأكيد في أسرة المتسكعات، في أسرة عشيقاته القديمات منهنّ والجديدات؛ وعندما يطلبها للذة يحدث ذلك في ساعة جد متأخّرة أو في أسوأ الأوقات، بغضّ النظر عن اليوم والساعة والظروف. لم يكن يخضع لتوقيت أو لنظام، ولا لعادة يدرج عليها أو جدول زمنيّ يتفق زوجان عليه، لا شيء من هذا القبيل. كانت مرغمة على العيش في تلك الفوضى: هو في الشارع كل ليلة من دون أن يعلمها، وهي على السرير الحديدي يتآكلها الغمّ والعذاب والألم الحاد في الصدر. لماذا كل المتزوجات يتّفقن مع أزواجهن، ما عداها؟ لماذا لا يكون فادينيو مثل كل الآخرين: تنضبط حياته في نظام، من دون ذعر، أو تهامس أو مكائد أو انتظار دائم؟ لماذا؟

وبمرور الوقت تحول كل ذلك الانتظار، والقمار والكاشاسا والليالي خارج المنزل، والصراخ والعنف والخشونة، تحوّل إلى أمور اعتيادية؛ لكن الدونا فلور لم تتجاوب معها كلياً وقد تموت من

دون أن تعتادها.

لكنّه هو الذي مات، فادينيو، في الكرنفال. ومن الآن فصاعداً، آه! من الآن فصاعداً لم تعد تملك حتى الحق في انتظاره وكلّها رغبة، كلها توقعٌ واشتياق. لقد أصبح لغياب فادينيو بعدٌ آخر، وللعذاب كذلك، ثقلٌ مختلف. لم يعد يفيدها البقاء متيقّظة ترهف سمعها لأدنى ضجّة على الرصيف، وتتسارع ضربات القلب. الآن بدون انتظار وبلا أمل، لا فائدة من الانتباه لوقع الخطى، فلن تسمع وقع خطاه السكرى أو تكتكة القفل والمفتاح يدور فيه أو نغمة أغنية ضائعةٍ أو لضوضاء في المدى.

أجل، لضوضاء في المدى. فقد مرَّت ليالٍ خلال تلك السنوات السبع من الزواج والانتظار، أيقظها فيها فادينيو بالسيريناتا، مع القيثارة والكافاكينيو، الكمان والمزمار، النَّفير، والماندولين، مُكرِّراً تلك السيريناتا الشهيرة التي لا تنسى في لاديرا دو آلفو، عندما كانت قد اكتشفت توّاً حقيقة من تحبّ: فقيرٌ من دون فلس، موظف تافه، غشاش، يستدين نقوداً، يعاقر الكاشاسا، داعرٌ مقامر.

15

الآن، وهي مستلقية على السرير الحديدي، حاولت الدونا فلور ألا تستمع إلى الإزعاج الذي تحدثه الدونا روزيلدا عند الباب المطل على الشارع، وهي في محادثة مثيرة مع الدونا نورما، لكي تستعيد في الذاكرة الضائعة بشكل أفضل، في مدى الزمن، أصوات المغنين، وإيقاع الآلات الموسيقية، في تلك السيريناتا المؤثرة في لاديرا دو آلفو، لتملأ ساعاتها وتضبط قلبها في هذه الليالي التي لم تعد تنتظره فيها، فزوجها قد مات. كانت تحسب نفسها الآن وحيدة مع عالم من الذكريات، تستعيدها ملتجئة إلى رماد الذكريات، تطفئ فيه جمرة الرغبة الحيّة. كما لو أن سوراً لدير يحرّم الدخول إليه قد أقيم، يفصلها عن التهامس والوشايات، وعن الأحاديث والتعقيبات التي أزعجت كثيراً ترمّلها الحديث، ذلك الواقع الجديد المؤلم للغياب، في الأوقات الأولى للحداد، كانت تتحرك فقط في الألم والاشتياق، في الاحتياج وفي استحالة الحصول عليه، إلى جانبها. إنه المستحيل الآن وإلى الأبد.

مسحوقة تحت ثقل الموسيقى والغناء الباعثين على الذكرى، يدفعها صوت الدونا روزيلدا للّجوء إلى ذكريات الماضي: في تلك الليلة، عندما وصلت إلى النافذة مع أوّل نغمة، كان جسمها يؤلمها، فجلد السوط القاسي ترك لها ندبة على عنقها كانت مزقة بالية موسومة بالعار. صعد فادينيو اللاديرا وهو يغني، وقد رفع يديه إلى أعلى. وتعرفت إلى الآخرين: الصوت غير الخجول الذي لا مثيل له كان صوت كاييمي، جينير أرغستو الشاحب اللون لا يزال تحت القمر، ويرافقهما على الآلات الموسيقية في الجوقة كارلينيوس ماسكارينياس وإدغار كوكو والدكتور فالتر دا سيلفيرا. لقد استدارت لتجلب تلك الوردة الدكناء اللون والنّادرة، التي قطفتها في العشية من حديقة الخالة ليتا. كان كل شيء في حياتها يتمرّد ويتململ في ارتباك واضطراب كلي، حتى وهي خاضعة لسلطة الدونا روزيلدا الحديدية. ومنحتها الموسيقى الجرأة والشجاعة. وفجأة أحست برضا لكون فادينيو ليس أكثر من موظف بلدي بسيط، وظيفة بائسة، ولم يعد يهمها أن يكون مقامراً لا فائدة منه.

مع ذكرى ليال كهذه، ليالي ضوء القمر والرقّة، لم تستطع الدونا فلور أن تنام وهي تحاول تخفيف ألمها وقنوطها الناتجين من معرفتها بأن فادينيو لن يأتي بعد اليوم ليلمس جسدها ويشعل فيه النار. في ليل الانتظار الطويل، لن تعود لتصغي في الشارع لصوته الناشز في سيريناتات أخرى.

وكان يحدث أحياناً أن يتجاوز فادينيو كل الحدود – ليالٍ متواصلة لا ينام خلالها في المنزل أو كما حدث تلك المرّة عندما كانا حديثي عهد بالزواج وقامر بنقود الإيجار ولم تقل له شيئاً، لكنّه دفعها إلى التهرّب من سداد الإيجار – ثم حاول أن يتصالح معها. آنذاك كانت تتجاهله ولا توجّه إليه الكلام وكأنه ليس زوجها. أما فادينيو فكان يدور قلقاً حول تنورتها يتملّقها بكلامه ودعواته وتحريضاته ليثيرها ويقودها نحو اللذة. وكانت تقاوم في خنادق الألم والعار.

كان فادينيو يجّهز نفسه للمقامرات الكبيرة، فيذهب معها إلى السينما، ويردّ معها الزيارة المتوجبة منذ وقت بعيد للدونا ماغا، أو لعرّاب إيتور، الدكتور لويس إينريكي، أو حسناً، كان ينظم سيريناتا، مبهراً الشارع، لكنه لم يعد يُحْضِرُ دوريغال كاييمي، بغموض صوته، ولا الدكتور فالتر دا سيلفيرا. فكاييمي هاجر إلى الريو، حيث راح يقدّم في الإذاعة الكاريوكية ويسجل أسطوانات، يغنّي

أغانيه مغنون مشهورون يطلقون أغاني السامبا التي يلحنها، أغنيات مستقاة من طابع ولاية بيرنامبوكو. أما عن الدكتور فالتر فلا تسَلْ: منذ أصبح قاضياً في المناطق الداخلية وهو لا يستعمل سحر مزماره إلا لهدهدة نعاس أبنائه الصغار، فرقة من الأولاد والبنات، طفلٌ كل سنة هذا إذا لم يكن توأم في بطن واحد. لم يكن من السهل أن تجد، في تلك الأوقات المتسرّعة من عدم التبصّر والحماقة من يفي بواجباته – جميع واجباته بلا استثناء – بحس كبير من المسؤولية حين يكون المحتاط هو قاض مثقف.

أمّا اليوم فلن يأتي، ولن يأتي مطلقاً بعد الآن. أواه! لن يأتي مطلقاً بعد اليوم! فادينيو! لا صوته، لا ضحكته الساخرة، ولا يده السريعة الحركة وغابة الشعر الأشقر ولا شارباه الوقحان، ولا نومه المُهَلْوِس بالفيش وبمبالغ الرّهان. لم يعد لها حتى ذلك الانتظار المؤلم الذي لا يفترض فيها أن تدفعه لكي يُتاح لها الحق مجدداً بعذاب الاحتفاظ به، بكآبة الاستماع إلى الصّمت الليليّ في الشارع الهادئ، بتحسس خطوة الزوج غير المتزنة من فعل الكاشاسا!

كانت الدونا نورما تتضرّع بلا جدوى، للدونا روزيلدا عند الباب الأمامي، تستجدي تفهّمها:

– كلما قلَّ كلامك عن فادينيو، كان ذلك أفضل، يُسهِّل عليها النسيان. ما زالت فلور متأثرة كثيراً، فلماذا تواصلين تذكيرها بالمساوئ، مستثيرة دموعها؟

لا جدوى! فالدونا روزيلدا قد جاءت أصلاً بنية استثارة دموعها. لم تكن تعرف طريقة أخرى لتقديم العزاء. كيف تحبس تلك الدموع التي لا تستحقها، إذا لم تبث سموم أحقادها وتنهش في سيرة المتوفى؟ فراحت تقول وتكرر: ذلك لم يكن موتاً يستحقّ البكاء عليه، بل الاحتفال به بإطلاق الأسهم النارية. وفي المحادثة الليلية أخذت تتوسّع مرّة أخرى في طرح رأيها بصوت أقرب ما يكون إلى الصراخ لا مبالية بمن يسمعها.

على كل حال، لم يكن إسكاتها يجدي نفعاً لأن الدونا فلور لن تنسى، لا في الضوضاء ولا في السكوت. لا مساوئ فادينيو وتصرفاته السيئة، ولا خصوصاً ساعاته الحلوة وحضوره اللطيف،

وجنون كلماته تدعوها للضياع وقوته كرجل عندما يمتلكها، وهشاشته كرجل يلتجئ إلى جسدها، يحمي نفسه في رقتها.

عذاب شبه مرضي، لا مبالاة مُرَّة بالوجود. مع هذا، راحت الدونا فلور تجاهد يومياً، تحاول السيطرة على الفراغ الداخلي التي تعيشه وأن تحبس دموعها وأن تستمر في العيش. فبعد قداس اليوم السابع، أعادت فتح مدرسة الطَّهي، وعادت التلميذات اللواتي كنّ، في البدء، يتجنبن المزاحات المألوفة والتلميحات الخبيثة والنكات والقهقهات بين الوصفَة والأخرى، وخلقن جواً ودوداً متعاطفاً مع حزنها حول طبّاخ الحطب وطبّاخ الفحم. لكنّ سيناريو الحداد هذا لم يدم إلا يومين أو ثلاثة أيام، إذ سرعان ما فرض مرح الألفة نفسه وهو ما شاءته الدونا فلور نفسها كي تتسلّى، وتكسر طوق الحداد.

لقد عدن جميعاً باستثناء الصغيرة ليدا بوجهها الشبيه بوجه القطة الشرسة وسرها الذي لم يَعُدْ سراً. هل بسبب الخوف من مواجهة الدونا فلور، أم خوفها من مواجهة المنزل الذي أصبح محروماً من لطف فادينيو، من ضحكته، من دهائه، ومن نذالته؟

لو كان الأمر يعود للدونا فلور لما منعتها من الحضور، فلم يعد يهمها أن تعرف ولا أن تناقش، فما بالك بأن تتّهم! جُلّ ما كانت تريد التحقق منه هو هل تلك الهاربة منتفخة البطن تحمل ابنه، ابن فادينيو؟

لم تلد الدونا فلور أولاداً قطّ، لكنها كانت تعرف أن الذنب ذنبها هي، لا زوجها، هذا ما أوضحته لها الدكتورة لورديس بورغوس، طبيبتها، وأكده الدكتور جايير مقترحاً إجراء عملية جراحية سريعة يحتمل أن تجعلها تحبل! لكنها تهرّبت من الجراحة لشدة خوفها، ثمّ إن الدكتور جايير لم يؤكّد لها أن نجاحها مضمون. وهكذا، فإن ما كان يقلقها هو خوفها من أن يكون زوجها قد أنجب ولداً صدفة في مكان ما في الشارع.

لم تستطع الدونا فلور أن تعرف إذا ما كان فادينيو يرغب حقاً بأن يكون له ولد . فخوفها من المستشفى والمبضع هو الذي منعها، دون شك، من إجراء نقاش أكثر صراحة وجعلها تحجم

عن طرح أسئلة محددة. هي نفسها لم تكن تعرف. لكنّها سألته عدة مرات:

– ألا ترغب في أن ننجب ولداً؟

ربما لأن فادينيو كان يعرف أنها عاقر وشديدة الخوف من العملية، ربما لهذا أخفى رغبته بطفل مشاغب في المنزل؛ أو ببنت شعرها أشقر مسترسل مموَّج كشعره أو بصبيّ أسود وبشرته نحاسية مثلها. ومرّةً سمعته يطري جمال طفل ورديّ الوجنتين سمين كعجل، حصل على جائزة الصلابة الطفولية معروض بالكروم في روزنامة تلك السنة، فتشجعت وطَرَقت الموضوع المزعج:

– إذا كنت ترغب حقاً بإنجاب طفل سأقبل بإجراء العملية. يقول الدكتور جايير إنها قد تنجح، لكنه لا يضمن ذلك.

كان يستمع، بعيداً، كأنه ضائع في أضغاث حلم، ولم يجب حالاً، ما دفعها إلى رفع صوتها بغضب تقريباً، لتنتزعه من ذلك السَّرَحان:

– حتى لو لم تنجح العملية، أقلّه لن يستطيع أحد أن يقول بعدها إنك أردت ولداً ولم أفعل ما بوسعي لأنجبه لك.. سأضع خوفي جانباً، يكفي أن تقول كلمةً واحدة.

خرجت الكلمات الأخيرة مبللةً بالدموع مخنوقة بالشهقات.

ربما لهذا السبب، لأنه لم يتحمل قطّ رؤيتها تبكي، راح يلاطف وجهها الحزين، ويبتسم ليفرحها:

– بلهاء، خرقاء... ما هذا الهوس بخوض حماقة العملية؟ دعي حماقتك جانباً، يا حبي، فلن أسمح لك بالعبث بهذه البشرة الجرداء لتغدو فجأة رخوة أو مشوَّهة من الداخل... اطرحي عنك فكرة الولد هذه...

وبما أنه كان يريد إقفال النقاش، احتضنها بذراعيه وجرَّها إلى غرفة النوم ليمارس الحب معها، دون أن يقول نهائياً إذا ما كان يرغب أو لا بهذا الولد الذي تعجز عن إنجابه له، هذا الولد

الذي يسهل عليه إنجابه من أية امرأة أخرى. وبتمكّنه المبكر من جسدها ألغى مناسبة الأسئلة والأجوبة وألقى الظلال على وجود الطفل غير الموجود المنتصب بينهما، حتى غيّبه تغييباً تامّاً.

أما بالنسبة إلى حبّه للأولاد، آه! كم كان يحبهم...! وهم، كانوا يفضّلونه على أي لعبة كانت، ينادونه بالاسم، راكضين إليه. فمع الأطفال كان فادينيو يصبح طفلاً مثلهم، كأنه من جيلهم، يبدي معهم صبراً لا حدود له. قدّم لهما ميراندون أصغر أبنائه الأربعة ليكون ابنهما الروحي، فما لبث أن أصبح مجنوناً بعرابه؛ حالما يراه يفتح فمه الكبير كفم الضفدع، ويشير إليه بيديه. ويهجر ذراعيْ أمه ليَقْبع بين ذراعيْ فادينيو. ثم يلعبان معاً ساعات، يقلد فيها فادينيو زئير الحيوانات الضارية، واثباً كالكانغارو، وفرحاً. فكيف لا يريد ابناً من كان كذلك، مجنوناً بالأطفال؟ لكنه لم يعترف بذلك قطّ، ربما لكي لا يرغمها على المجازفة بنفسها في عملية جراحية مشكوك في نجاحها.

شعرت الدونا فلور المستلقية على سرير الأرملة بوجع النّدم؛ كان عليها أن تحاول وتجري العملية رغم ما أظهره الطبيبان من تشاؤم بنتيجتها. لكنّها تركت خوفها يتحكّم بها. من يدري؟ ربما كان ذلك أفضل حسب رأي الدونا جيزا، وجيران آخرون. حتى الخالة والعم، والدونا جيزا المثقفة راحت تتحِفُها بنظريات في الوراثة لتواسيها حين كانت تتهم نفسها بالعقم وبأنها لا تنفع لشيء. والخالة ليتا بالذات، القويّة الطيبة، والتي تجد دائماً الأعذار لسلوك فادينيو، قالت لها مراراً:

– عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، يا ابنتي. ماذا لو وضعت في الدنيا ولداً كفادينيو، لا فائدة منه؟ هل فكرت بذلك؟ إن الله بصيرٌ عليم...

– تماماً تماماً، ليتا على حقّ. أقرّ تاليس بورتو بذلك مؤيداً زوجته. فليس من الضروري أن يكون للمرءِ ولد كي يعيش سعيداً. أنظري إلينا... ليس لدينا أولاد... ونحن في الواقع سعيدان، كل منّا يكرّس نفسه للآخر: بورتو بلوحاته التي يرسمها أيام الآحاد، والدونا ليتا بأزهار حديقتها وقطها العجوز السمين الذي يترك برازه في كل مكان، ويزمجر في موائه ويتدلل وكأنه الابن الوحيد.

حاول أناس كثيرون تعزيتها وتشجيعها، لكن فلور كانت تنمي خوفها، خوفها و– لماذا لا نقول – أنانيتها؟

اقتنعت الأرملة الشابة، وهي مستلقية على السرير الحديدي، بين صوت الدونا روزيلدا الحاد وموسيقى السيريناتا العذبة، بأنّ المسألة في الحقيقة لم تكن مجرد خوفٍ من العملية. فلو كانت رغبتها في إنجاب الولد قوية كما لدى فادينيو لكانت وجدت الشجاعة لمواجهة مبضع الجرّاح والمستشفى. المسألة أنها، هي الدونا فلور، لم تكن تحِنّ إلى الولد، إلى طفل يملأ المنزل ضجيجاً وضحكاً. كانت تعيش وتفكّر من أجل فادينيو، نعم، كان هو طفلها، هو من تريده في المنزل، زوجها وابنها، «ابنها الكبير». وعند الباب المطلّ على الشارع، كانت الدونا نورما تؤكد، كقاضٍ يصدر حكماً وكصديقة:

– إنها بحاجة إلى النسيان، وهذا كل ما تحتاجه. فما زالت شابة، تستطيع أن تبدأ حياتها من جديد...

– «هي التي أرادت أن تتزوج»، من هذا الشقي، يعلو صوت الدونا روزيلدا.

إذا كان فادينيو لا يساوي شيئاً، فهذا سبب آخر كي لا تتحدثي عنه، لماذا العيش متشبِّثين بتابوت المتوفى؟ علينا أن نجعل المسكينة تفرّج عن كربها، وألا نترك لها وقتاً للذكريات، عندها المدرسة لكنها غير كافية، يجب أن تخرج، أن تروّح عن نفسها، إنها بحاجة لأن تنسى....

وتعلو طيبة الدونا نورما على زمجرة الدونا روزيلدا:

– حبذا لو كان لديها ابن، أقلّه...

وتصل الجملة إلى سمع الدونا فلور، «لو كان لديها ابن، أقلّه...» أجل، لكان الأمر أسهل بكثير... ما كانت ستظلّ وحيدة هكذا فارغة إلى هذا الحدّ، بلا سبب تعيش من أجله. في الشارع، في الجوار، في القداس وفي التبريك، في السوق وفي كل مكان، كانت عصا الدونا روزيلدا ترتفع كعصا قائد الفرقة الموسيقية، مديرة جوقة اللعنات على فادينيو وذكراه، ذلك الشخص الذي لا يُسمّى بسبب دناءته. وتغلق الدونا فلور سمعها فلا تسمع إلا أنغام السيريناتا القديمة. وحيدةً في السرير الحديدي، وحيدة مع غياب زوجها الذي لا رجعة له، وحيدة ولا ابن يواسيها.

من بين كل ما حدث خلال السنوات السبع تلك، لم تخف يوماً كما خافت عندما سمعت إشاعة وجود ابن لفادينيو من ديونيزيا، الخلاسية المقيمة في جوار تيرّيرو. فطالما خَشِيَت ظهور ابن له من أخرى فيهجرها من أجله. وعندما كانت تسمع عن انحراف ما لفادينيو، عن علاقة تحمل خطر الاستدامة، أو مغامرة تتعدى نطاق النوم لليالي معدودة في شقق العازبين، يعصف في قلبها الخوف من حَملٍ من طفل يولد، ويمدّ ذراعيه لفادينيو.

لم تكن تخاف النساء الأخريات، هي مجرّد غيرة: «كل ذلك كرمى لقضاء الوقت»، لم يكن يقول لها ذلك معتذراً بل لتفهم الدونا فلور ولا تخاف. لكن ماذا لو ظهر له ولد؟ سيكون من المستحيل أن تربح في معركتها ضدّ ولد، إذ لا جدوى. كانت ستصبح كالمجنونة، قلقة وضائعة، حينما كانت الدونا دينورا – دائماً الدونا دينورا هي التي تخبرها، فمن أين كانت تستقي أخبارها؟ – تعطيها ملمّحة متحسّرة اسم المرأة الأخرى وتفاصيل العلاقة. كانت ترتجف مرتعبة من وجود طفل، من ولد، من الابن الذي لم تُنْجِبْهُ له لأنها لم تستطع، بل، آه! كذلك، لأنها لم تشأ.

تخيّلوا اضطرابها وصدمتها حينما أخبرتها الدونا دينورا يوماً بـ «آخر أخبار فادينيو»: ألا وهي أنه أنجب ابناً من ديونيزيا الخلاسية المشهورة بجمالها الرائع، والتي كانت تعمل أحياناً نموذجاً لرسامين (كانت تقف أمام رسام رديء من المحدثين، يدعى كاريبيه يرسمها وهي ترتدي ملابس ملكة، كرمزٍ متعمّد فظ) وطوراً تزيّن شقة لوسيانا باكا الشعبيّة الكثيرة الزبائن، في منطقة تعجّ بالحركة.

لقد نقلت إليها الدونا دينورا هذا النبأ بطيبة خالصة، كما ادّعت، وليس بقصد المكيدة أو النميمة، لأنها ليست من هذا الصنف. فهي تقوم، آسفة، بواجبها كصديقة وفيّة، كي لا تبقى المسكينة الدونا فلور الطيبة جداً والفاضلة للغاية، آخر من يعلم، والآخرون يضحكون منها من وراء ظهرها...

– لقد راح لينجب ابناً من إحدى بنات الهوى..

كانت تقول «بنات الهوى» كي لا تستخدم نعتاً أقوى. فالدونا دينورا كانت الدماثة بشحمها ولحمها، ولديها رعب في أن تسبب أي ألم أو جرح مشاعر لأي كان، حتى لو كانت امرأة ضائعة قليلة الحياء، تحبل من رجل متزوج، تملأ بطنها من زوج امرأة أخرى. «لست من أولئك النمّامات، فأنا لا أسيئ إلى أحد». هذا ما كانت الدونا دينورا تؤكده وهناك أحياناً من يصدقه.

في سرير الأرملة، عندما سكتت خرست آخر أنغام السيريناتا وتلاشت أصوات المغنين واختفت الوردة السوداء، ارتعدت الدونا فلور من ذكرى تلك الأيام التي اتسمت برعب كبير ورافقها قرار قاس. لماذا عجزت عن أن تسمح لنفسها بفقدان فادينيو وأرادت ، أن تحصل عليه، وتحتفظ به إلى جانبها كما هو: مقامراً وزير نساء،، وله عشيقة في منزل معيّن، وابن في الشوارع؟ فقد أظهرت عندئذ ما كانت قادرة عليه.

16

خرجت المرأتان، في الساعة الحادية عشرة، من القداس الاحتفالي في كنيسة القديس فرانسيسكو، في صباح أحد مشرق من شهر حزيران/ يونيو بلَّله المطر، واجتازتا بخطى ثابتة تيرّيرو ده جيسوس في اتجاه متاهة الشوارع الضيقة في بيلورينيو، حيث كان هناك أولاد يغنون أغنية سامبا وقد وقفوا في حلقة يقرعون اللّحن على علب من الصفيح فارغة، مردّدين:

«امرأة البالايو!

امرأة البالايو!

– البالايو الطيّب!

التفتت الدونا نورما إلى رفيقتها وقالت متبرمة:

– يا لهؤلاء الغلمان الأشرار! ألا يجدر بهم أن يكونوا في أحضان أمهاتهم؟...

ربما كان الأمر مجرد مصادفة، ولم يكن الأولاد مأخوذين بجاذبيتها الطافحة؛ لكن الدونا فلور ألقت نظرة مخيفة على الوقحين، نظرةً سرعان ما رقّتْ عندما اكتشفت وجود ولد صغير في

الثالثة من عمره، وجهه متسخ وينتعل أسمالاً بالية ، ويرقص السامبا في وسط الحلقة:

– تأمّلي كم هو لطيف، يا فلور، يا له من شيطان صغير جميل جداً، إنه يرقص...!

تأملت الدونا فلور مجموعة الأطفال رثّي الثياب. وكان هناك كثيرون غيرهم منتشرين في الساحة المفعمة بالحياة وبالنّاس الذين يختلطون بالمصوّرين، محاولين سرقة فاكهة من سلال البرتقال والليمون الأفندي، والليمون الحلو والأنبو والساپوتي وكانوا يستحسنون الغش في بيع وشراء مستحضرات صيدلانية ذات أعاجيب، أفعى متكوّرة على عنقها، وشاح باعث على النفور. وكانوا يتسوَّلون عند أبواب كنائس الساحة الخمس، يريدون سحب النقود سحباً من المؤمنين الأغنياء. ويتبادلون كلمات ساخرة مع المومسات النَّعِسات ومعظمهن من الشابات، اللواتي يشكّلن حلقات في الحديقة بانتظار زبون صباحيّ على عجلة من أمره. مجموعة أطفال منحرفين وقحين، أبناء نسوة المحلّة، لا آباء ولا منازل لهم يعيشون مهمَلين يتجولون في الأزقة، وسرعان ما يغدون قباطنة رمال، ويتعرفون إلى مراكز الشرطة.

ارتعشت الدونا فلور: إذ تذكَّرت أنها كادت تأخذ أحد هؤلاء الأطفال – كان طفلاً حديث الولادة – لتؤكد هكذا ما هو مضاد لها ولأمها. لكن قلبها امتلأ شفقة، إحساس نبيل ونقي إذ رأت الأولاد طليقين في ساحة تيرّيرو. ولو تسنّى لها لتبنّتْهم جميعهم في تلك الساعة وليس ابن فادينيو وحده. ولو كان ابن فادينيو لما أتى إليها. ففادينيو لم يكن ليتركه قطّ، لم يكن من طبيعته أن يُهْمل طفلاً، فكيف بالحري إذا كان جزءاً منه، من لحمه ودمه؟ بدلاً من إنكار أبوّته كان سيعلنها، ويتباهى بها، مسروراً فخوراً.

كانت الدونا فلور تعرفه تمام المعرفة، معرفة لا شك فيها. فرغم سكوت زوجها وكتمه أسراره عنها، فإن وجود ابن له كان سيغدو أكبر الأحداث، ضربة «حظ سعيد حقيقية» العرض الذي لا يضاهى، انفجار حصيلة المراهنة. لهذا اضطربت بشدة للنبأ الذي جاءت به الدونا دينورا. كان ذلك الخطر الأكبر الذي طالما أخافها؛ فإن فادينيو في النّهاية كان يخصّها ولو قليلاً لأنه تحت سيطرة لعبة القمار والبوهيمية، فماذا يتبقى لها إذا وقف ولد بينهما، يناديه من زقاق مظلم، من زاوية شارع، من سرير امرأة مشرّدة؟ هذا الولد الذي لم تستطع هي أن تمنحه إياه!

عندما وصلها الخبر، غرقت في اليأس، وألم بها حزن شديد بحيث كادت الدونا نورما ذاتها تفقد عقلها، وهي عادة متَّزنة للغاية طالما وجدت حلاً للمشكلات العديدة التي كانت تبرز في كل لحظة، فها هي مضطربة ومرتبكة لا تنجح في إيجاد حل ممكن.

– ماذا لو أنك قلتِ له إنّكِ حامل؟

لم يتبادر إلى ذهنها أفضل من هذه الأكذوبة البائسة.

– وما الفائدة؟ كان سيكشفها في النهاية، وهذا أسوأ...

الدونا جيزا هي التي نجحت في حلّ المُعضلة، وذلك بطريقة شريفة وعملية. حل قادر على حل كل شيء وربما أكثر. من يدري؟ كانت هذه الغرينغا خبيرة في شؤون علم النفس والماورائيات، حتى إن الأستاذ إيليا مينونداس سوزا بينتو كان يرفع لها قبعته معترفاً: «امرأة متضّلعة للغاية»، – وهذا الأخير لم يكن شخصاً عادياً، ولم يخطئ أبداً في استخدام الضمير، وكان يذكر القواعد النحوية في الصحيفة الأسبوعية التي يصدرها باولو ناصيف، وهي صحيفة قليلة الانتشار، إنما ناجحة بفضل الإعلانات.

عندما عرفت الدونا جيزا بمجرى الأحداث – الدونا فلور مكتئبة، الدونا نورما ضائعة – اتخذت حالاً قرارها وطرحته على صديقتيها في برتغاليتها الركيكة: إذا كان فادينيو يرغب في ولد إلى حدّ صنعه في الشارع مع بغيّ، وحيث إن الدونا فلور عاقر، وإذا كان هذا الابن المولود من أخرى قادراً أن يدفع فادينيو إلى هجرها إلى الأبد، فلا يبقى آنئذٍ أمام الدونا فلور من وسيلة لتحتفظ بزوجها وبيتها، إلا أن تُحضر إلى المنزل ابن السفاح هذا وتكون أَمّاً له، فتربيه كما لو كان من لحمها ودمها.

لِمَ لا؟ لماذا تصرخ الدونا فلور بهذا الشكل، وتشتم وتلعن كامرأة أميركية شماليّة مليونيرة (التشبيه للدونا جيزا، المندهشة إزاء ردة فعل جارتها على اقتراحها) مقسمة على أنها لن تقوم بهذا أبداً، ابن المرأة الأخرى، ابن الفاجرة، ابن القحباء عديمة الحياء؟ لماذا تحدث فضيحة، فالمدهش في البرازيل هو، حسب قول الغرينغا، القدرة على التفاهم والتعايش؟ إنه لأمر عادي جداً أن تربي نساء

متزوجات أبناء سفاح لأزواجهن، وهي تعلم بعض الحالات التي جرت بين الفقراء كما بين الأثرياء: في جوار شارعنا ألا تربي الدونا أبيغايل ابنة زوجها من إحدى النّساء، وألا تقوم بذلك بحبها وحنانها نفسيهما المُكرّسين لأبنائها الأربعة الذين من لحمها ودمها؟ كم جميل ذلك! من أجل هذا أحبت الدونا جيزا البرازيل وتجنّست برازيليةً.

فما ذنب الولد، وأي إثم اقترف؟ لماذا يُترك طفل مسكين، من دم فادينيو، زوجها، ولحمه عرضة لحياة الفاقة، لسوء التغذية، فينمو في الجوع والشر فأراً في مجارير بيلورينيو، من دون أن يكون له الحق في تربية صحيحة وفي تذوق مباهج الحياة؟ إضافة إلى ذلك، ألا تخشى الدونا فلور – وهي على حقّ – من أن يبقى فادينيوأسير أم الطفل، فيلزم جانب ابنه؟ وأي برهان أكبر على حبّها له من أن تمضي الدونا فلور وتحضر الطفل لكي تربيه كابن لها، سيكون هذا الطفل المولود من أخرى، سيكون توثيقاً لعرى الرابط الأبدي بين فادينيو وفلور، بدون خوف وبلا تهديد.

ومن يدري، من يدري يا عزيزتي المحترمة، ربما وجود هذا الابن في المنزل حيث يحظى بتربية صحيحة ويكبر مهذباً وجميلاً في حنان الدونا فلور سيشكل فرحاً دائماً لفادينيو، لكنه يعني أيضاً مسؤولية دائمة. ومن يدري فقد يحمل المحتال على تغيير نمط حياته، فيترك نهائياً القمار والعربدة، وتأخذ حياته مساراً جديداً شريفاً؟ هذا ممكنٌ جداً، وكم من حالات مشابهة لا تعدّ ولا تحصى.

«لا تعد ولا تُحصى»، نعم أيدتها الدونا نورما، بحماسة وهي تقول «هذه الغرينغا اللعينة ذكية!» وفوراً تذكر الدونا نورما أسماء وعناوين. من كان أكثر إدماناً على القمار والكاشاسا من الدكتور سيسيرو آراووجو، من سانتو آمارو دا بوريفيكاسيون؟ كم عانت زوجته المسكينة الدونا بيكينا جحيم العذاب. ثم حمَلت ذات يوم، وقبل أن يولد الولد كان الدكتور سيسيرو قد تحوّل نموذجاً للمواطن الشريف. والسيد مانويل ليما، الذي كان مجنوناً في حب إحدى الجانحات... حسناً، الحقيقة أن هذا لم يكن يحتاج إلى ابن بمجرد أن تزوّج استقام، ولا من زوج أصلح منه.

أعطت الدونا جيزا مفتاح البلبلة: ذلك الولد الذي ترى فيه الدونا فلور خطراً حقيقياً على استقرار منزلها، قد يصبح بضربة سحرية، عامل استقرار وأمان، ضماناً لحبها من التحطّم، بل وقد

يصلح أمر فادينيو. هنا تحسّرت الدونا جيزا في سرِّها. فإصلاح فادينيو سيفقده تلك الإثارة، ذلك الغموض المحيّر، ذلك اللطف الفاجر.

وانفتحت عينا الدونا فلور على الحقيقة، فهمت، فومضت عيناها فرحاً وألقت بنفسها في أحضان صديقتها تشكرها. ثم قاما برسم الخطة خطوةً خطوة، بكلّ تفاصيلها. ولم يكن ذلك سهلاً على الدونا فلور، بل كان صعباً. ولولا دعم الدونا نورما لما تمكنت من أن تستجمع شجاعةً كافيةً لتتوجه إلى محلّة النساء الضائعات، إلى سوق «البغاء السفلي» الذي غالباً ما يُحاط ذكره بالرعب في صفحة الجرائم في الجرائد، تبحث بجنون عن ديونيزيا المذكورة لتلح عليها بإعطائها ابنها الحديث الولادة، لتأخذه منها نهائياً، تأخذه إلى الأبد بوثيقة رسمية من الكاتب العدل، بتواقيع شرعية وشهود عدل. الدونا نورما، المتضامنة معها كأنها شقيقتها، عرضت عليها مرافقتها تشجيعاً لها من جهة، وإرضاء لفضولها هي من جهة أخرى، لأنه – والحقّ يُقال، لطالما كانت ترغب في أن تتاح لها الفرصة لتتلصص على سوق البغاء، على مساكن المومسات وحياتهن القذرة. ولم تعثر قبلاً على ذريعة قيّمة كهذه للقيام بالجولة المذكورة. فبينما كان زيه سامبايو زوجها، لا يزال تحت تأثير الخبر سألته: أيعقل أن تترك فلور المسكينة تغامر بمفردها في تلك المتاهات الخطِرة؟ وراح الزوج يحاول إقناعها بالعدول عن ذلك فردت: «لست فتاة صغيرة بلهاء، إنني سيدة ناضجة، محترمة، لن يجرؤ أحدٌ على التعرُّض لي». ثم كشفت لزيه سامبايو المغلوب على أمره، المستسلم أمام حيوية اندفاعها: «سنذهب الأحد صباحاً. سأذهب لأزور ابني في العمادة، حفيد جوان آلفيس. ثم أطلب من جوان مرافقتنا إلى منزل المذكورة. وجوان، أنت تعرف جوان: إنه معلم الأولاد المنحرفين...».

وهذا ما حصل فعلاً: يوم الأحد صباحاً، حضرتا القداس في كنيسة القديس فرانسيسكو (حملت الدونا فلور شمعة مزيّنة بزهور نذر لتسير الأمور على ما يرام)، ثم اجتازتا التيرّيرو والتقتا الزنجي جوان آلفيس عند بسطته لمسح الأحذية، في الممشى المؤدي إلى كلية الطب. كان محاطاً بالأطفال، بينهم الزنجي الصغير الجعد الشعر، والخلاسيون المتدرجون لوناً بين الأبيض والأسود إضافة إلى الأشقر وشعره بلون القمح، الجميع كانوا ينادونه بالجدّ. فقد كانوا أحفاده، كل أولئك الأولاد وكلّ الآخرين الطلقاء في متاهات الأزقة بين التيرّيرو وباشا دوس ساباتيروس. الواقع أنه لم يكن للزنجي جوان آلفيس أولاد: لا من زوجته، ولا من غيرها، لكنه تدبّر عرّابات لأحفاده، وطعاماً

وثياباً عتيقة وحتى بطاقات ال- «أ ب ث». كان يعيش هناك في فناء قريب مسقوف، مع المشعوذين الماندينغا، ورجال العنف سيئي السمعة إضافة إلى بعض أحفاده، حيث الفناء المسقوف ينفتح على واد مزروع أخضر، ومن جحره هذا كان الزنجي جوان آلفيس يطل عل ألوان وأضواء كرنفال باهيّا.

– يا إلهي! يا لها من مفاجأة طيبة! اهلاً بك يا إشبينتي الدونا نورما... وكيف حال السيد زيه سامبايو؟ قولي له إنني سآتي إلى محلّه قريباً لأجلب أحذية للأولاد...

تحلّق الأولاد حول الصديقتين. كانت الدونا نورما قد احتاطت للأمر: ففي يدها كيس من الكراملّة. أرسل جوان آلفيس أحد الصغار في مهمة وسرعان ما حضر عددٌ من الأولاد يركضون وبينهم الخلاسي كافوزو وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره، فداعب الزنجي رأسه قائلاً:

– أطلب البركة من عرّابتك أيها اللعين الصغير..

منحته الدونا نورما بركتها ونيكلاً بعشرة توستون، بينما راح الزنجي يستفسر عن الرياح الطيّبة التي حملت عرَّابته إليه.

– حسناً، يا إشبيني أريد منك معروفاً، مسألة دقيقة جداً.

– مسألة دقيقة؟ لا أستطيع، فأنا لا أمسك إلا ما هو جلف كما تعرف حضرتك، جيداً...

– أريد أن أقول: أمراً يجب التحفّظ عليه، ولْيبق سرّاً.

– هه! وصلْت! فلست طويل اللسان ولست واشياً، تستطيعين أن تفكي عقال لسانكِ وتبوحي بالسرّ يا عرّابتي...

– أتعرف أيها الإشبين امرأة هنا تدعى ديونيزيا؟ لست متأكدة، لكنّني سمعت من يذكر أنها تسكن في الجوار.

– وحضرتكِ، هل لديكِ عمل معها؟

– أنا شخصياً؟ لا يا إشبيني. صديقتي هنا تريد أن تتداول معها في مسألة...

قاس جوان آلفيس الدونا فلور بنظره من أعلى إلى أسفل.

– لديها مسألة تتداول بشأنها مع ديونيزيا ده أوشوصي؟

– ربما هذه هي... سمعتهم يقولون إنها جميلة جداً.

حكّ جوان آلفيس شعره الجعد:

– جميلة جداً!! عذراً يا إشبينتي صححي كلامك: أية امرأة بيضاء ربما كانت جميلة، أمّا الخلاسيّات بجمال ديونيزيا فقلّة قليلة، لو جُبْت الدنيا لما وجدت مثلها نصف دزينة.

– امرأة أنجبت طفلاً منذ وقت ليس ببعيد...

– إذن، هذه هي نفسها، لها مولود حديث ولم تعد بعد إلى العمل...

ولأول مرّة فتحت الدونا فلور فمها، تريد أن تعرف:

– ماذا تعمل؟

ومجدداً قاسها جوان آلفيس بعينيه مع قلّة اهتمام بشدة جهلها:

– ما تعمله المرأة البغيّ، فهذه مهنتها، أيتها الدونا الشابة.

أمسكت الدونا نورما بدفّة الحديث:

– وإشبيني على علاقة طيبة بها؟ أتعرف أين تسكن؟

– حسناً، ولم لا أكون على علاقة طيبة بها، يا إشبينتي؟ تسكن قريباً من هنا، في ماسييل.

– إشبيني سيأخذنا إلى هناك، فصديقتي تريد محادثتها، ومعالجة مسالة معها...

تأمل جوان آلفيس مرة أخرى الدونا فلور طويلاً وراح يحكّ رأسه كأنه يجد الأمر مشتبهاً به ومريباً:

– لماذا لا تذهب هي بمفردها يا إشبينتي؟ أنا سأريها المنزل..

– يا إشبيني، كن كريماً ومقداماً. أتترك سيدتين في هذه الشوارع لا يرافقهما أحد؟ قد يحدث غير المعقول ويتحرّش بنا أحدهم...

لا يلجأ أحد إلى شهامة جوان آلفيس ويخيب أمله:

– إذن سأذهب مع حضرتيكما، لكنني أضمن لكما أن أحداً لن يتحرش بكما، فالجميع هنا محترمون...

نهض، وسلّم كرسي مسح الأحذية لعهدة أحفاده. كان الزنجيّ ممشوق القامة ممتلئاً ومتين البنية، تجاوز الخمسين وبدأ شعره الأجعد يبيضّ، وكان يضع حول عنقه عقداً للإلهة أوريشا مع فصوص حمراء لشينغو، وينم احمرار عينيه الضيّقتين الصغيرتين عن إدمانه على الكاشاسا. وحالما وقف أراد أن يعرف:

– عرّابتي الدونا نورما، ما الموضوع الذي تريد الشابة معالجته مع ديو؟ – قال «شابّة» بصوت ساخر.

– ليس فيه ما يسوؤها يا إشبيني...

لو كان في الأمر سوء لما صحبتكما إليها، رغم احترامي لكِ... كما لن تنفع الإساءة لأن قديسها قوي.

كان يدق الأرض بأطراف أصابع قدمه، محيِّياً أوريشا – أوكيه آرو أو شوهي! لا سحر أو تعويذة قادرة على أذيّتها، فالسحر ينقلب على السَّاحر.

– متى ستصحبني يا إشبيني إلى أحد طقوس الماكومبا؟ لدي رغبة ملعونة في حضور طقس الكاندومبليه؛ إنه فضول قديم آخر للدونا نورما.

وهكذا دار الحديث حول الأمور السارة وطقوس التيرّيرو ده سانتو، ودخلوا سوق البغاء وتوغلوا فيه، وبما أن الصباح كان صباح الأحد – ويمتدّ صخب السبت إلى الفجر – كانت الحركة معدومة في الشوارع، مجرد امرأة هنا وامرأة هناك، واحدة تجلس عند الباب وأخرى شبكت ذراعيها في النافذة، تتأمل الصباح، وليس لتجد رجلاً يضاجعها. بوسعك القول إن الجوّ كان جوّ سكينة وطمأنينة، سلام يوم الأحد. شعرت الدونا نورما أنها مخدوعة. كان يجب أن تجيء ساعة الازدحام. ففي هذا الصباح المثير للنعاس لم يكن الحيّ يختلف في شيء عن أي حيّ مألوف، أضف إلى ذلك أن منزل ديونيزيا كان الأول الذي وصلوه بمجرد أن دخلوا حدود المنطقة.

صعدوا السلالم متخلخلة الدرجات، فعبر أمامهم في الظلام جرذ كبير الحجم راكضاً. كلمات وجمل تضطرب في الطوابق، وهناك من يغني أغنية حزن بصوت خفيض. حينما وصلوا إلى فسحة مدخل الطابق الثالث، شمّوا رائحة غصن لاوند محروق في مبخرة طينية ما يشير إلى وجود طفل حديث الولادة. دلفوا في ممر وجدوا في آخره باب غرفة الجانحة.

طرق جوان آلفيس الباب، فسأل صوت دافئ ومرتاح:

– من؟

– إنني رسول سلام، يا ديو... أنا جوان آلفيس، معي صاحبتا سعادة تريدان التكلم معكِ. واحدة أعرفها، فهي عرّابتي نورما، من الناس الطيبين، تستحق كل خير..

– إذن ادخلوا واعذروني على قلّة الترتيب، فلم يتسنَ لي بعد الوقت لكي أرتب الغرفة...

دخلتا وراء الزنجي. في القاعة الضّيقة سريرٌ مزدوجٌ وخزانة مخلّعة، ومغسلة من حديد مع طشت ودلو مطلي بالميناء، ومبولة عند ركيزة السرير، وكلها نظيفة. وفي الحائط مرآة مشقوقة

وصورة للسنيور دو بونفين عُلِّقت عليها شرائط مباركة. ومن النافذة المطلة على منزل بطابقين كان يتسلّل الضوء والأغنية الحزينة.

متكئةً على الوسادات، شبه مغطاة بالملاءة، مرتدية عباءة مطرّزة تسمح فتحة صدرها برؤية نهديها الممتلئين، ابتسمت الخلاسية ديونيزيا ده أوشوصي بتودّد للزائرتين المندهشتين. وكان الطفل نائماً في تقوّس ذراعها، وفي حرارة صدرها. كان طفلاً ضخماً، أسمر ممتلئاً. وتحت الكرسي يحترق اللاوند في مبخرة، معطّراً قطع ملابس الطفل الحديث الولادة الموضوعة فوق حشوة المقعد المصنوعة من القش. علاوة على الكرسي يوجد صندوقان كبيران من صناديق الكيروسين مغطّيان بأوراق الحرير يستعملان أحياناً ككرسيين من الخشب. وفي زاوية الغرفة، مكان لعبادة الكاندومبليه مع أسلحة أوشوصي، القوس والنشاب، إيروكيريه، صورة للقديس جرجس يصرع التنين، حجر أخضر، ربما تعويذة سحر من يمانجا، وعقد ذو فصوص زرقاء فيروزية.

أمرت الخلاسية بصوتها المرتاح:

«يا سيد جوان، إعمل معروفاً وتناول هذه الملابس عن الكرسي ثم ضعها في الخزانة، إنها غِيار الطفل بعد الحمام. أعط الشابة هذا الكرسي...». كانت تشير إلى الدونا نورما ثم التفتت بعد ذلك إلى الدونا فلور موضحة لها بابتسامة: «أما أنتِ أيتها السيدة الأصغر سناً فاعذريني. إذ ليس أمامك إلا أن تجلسي على الصندوق».

راحت من على السرير حيث كانت متكئة تدير عملية الترتيب في الغرفة، وتحرّك ماسح الأحذية جاراً الكرسي والصندوقين فيما بدَتْ هادئة مبتسمة، كأنها ليست مستعجلة لمعرفة سبب هذه الزيارة غير المنتظرة. من يراها هكذا، هادئة على هذا النحو وهي تأمر، يدرك لماذا رسمها الرسام كاريبيه مرتديةً ملابس ملكة على عرشها.

سبقَتِ الدونا نورما الزنجي وتناولت قميصاً صغيراً وقماطاً ووضعتهما في الخزانة. وخلال ذلك ألقت نظرة فاحصة سريعة على الفساتين وحقائب اليد، والأحذية والأخفاف.

– جرّ صندوقاً حضرتك أيضاً، يا سيد جوان، واجلس.

– سأظلّ واقفاً، يا ديو، أنا مستريح هكذا.

– الأفضل للمحادثة أن تكون متمهلة، فيجب أن تجلس. إن وقوف السيد جوان مستعجلاً لا يساعد على التفاهم.

لقد فضَّل الزنجي أن يتكئ إلى النافذة ونور الصباح يشتد ضياءً وأشلاء أغنية تتسلل إلى الغرفة، وتموت منتحبة على سرير ديونيزيا:

«في سلاسل حبك

أنا عبدتك

يا سيدي!»

جلست الدونا نورما والدونا فلور، وساد صمت قصير، سرعان ما بدَّدته ديونيزيا بصوتها الناعم، بملاحظة عن جمال ذلك النهار، مشتكيةً من كونها لا تستطيع بعد الخروج إلى الشارع لأنها لا تزال نفساء:

– لا أتحمّل البقاء في المنزل بينما يغسل المطر وجه النهار فيشعّ ضياءً جديداً قشيباً؛ إنه شيء جميل...

كانت الدونا نورما هي الأخرى لا تتحمّل البقاء في المنزل في هذه الحالة. وراحت الاثنتان تتحدثان عن الشمس والمطر والليالي المقمرة في إيتابووا، أو في كابولا، ولم تدريا كيف حطّتا رحالهما في رسيفي حيث تسكن أخت الدونا نورما، المتزوجة من مهندس من ولاية بيرنا مبوكو، وحيث أقامت ديو بضعة أشهر:

– قبل سبعة أشهر وأكثر ذهبت من أجل شخص خارج على القانون، إنسان فتح عينيّ على العالم، إنسان مجنون. تركني هناك...

لم تتركا مكانا إلا وتكلّمتا عليه حتى المرافئ البعيدة: حوار عقيم على غير هدى حديث لمجرد الحديث. سمعت الدونا فلور مجموعة أجراس لإحدى الكنائس في تيرّيرو تعلن منتصف النهار، فقطعت من دون سابق إنذار، الحديث السار:

– يا نورما الصغيرة، سوف نتأخر كثيراً على هذا المنوال...

– لا مشكلة عندي في ذلك، فإنها متعة... قالت ديونيزيا.

– نأتي في مناسبة أخرى، حين يكون أمامنا مُتَّسعٌ من الوقت. أما اليوم فقد أتينا لغرض... وعدتها نورما.

– كلي آذانٌ صاغية..

– صديقتي هذه الدونا فلور ليس لديها أطفال، وهي عاقر بسبب يتعلق بتركيبة جسدها، ما علينا...

– أعرف: الرّحم لديها مقلوبة، أليس كذلك؟

– تقريباً...

– لكن باستطاعتها إعادتها إلى وضعها؛ فماريلديس، إحدى معارفي، صحَّحت وضعها...

– لا فائدة في وضع فلور، هذا ما قاله الطبيب.

«طبيب؟»، ضحكت ضحكة مبهمة، في استهتار. «الطبيب ألفاظه جميلة وخطه رديء. هلّا سعت الدونا الشابة إلى بايزينيو، فيفيدها سريعاً. ما الذي تراه يا سيد جوان؟».

أيّد جوان آلفيس قائلاً:

– بايزينيو؟ إنه سيعمل الأعمال في بطنها: طفل كل سنة!

سكتت الدونا نورما على تجاهل الموضوع المستجدّ، متجنبة السحر رغم شهرته، وصيته في الرجم بالغيب. ألقت نظرة على الطفل النائم. أليس من الأفضل أولاً إبعاد كل شكّ ومعرفة ما إذا كان هو ابن فادينيو فعلاً؟ فهو أسود، لا يشبهه! لكن الدونا فلور، تبيّنت مآل الحديث، فرفعت صوتها، في تصميم عنيد لامرأة خائفة:

– جئناك لنتكلّم في موضوع جدي، لكي نقترح اقتراحاً عسى أن نتفق عليه.

– تكلمي أيتها الدونا الشابة، فأنا، من جهتي، مستعدة تماماً للتجاوب معك.

«الولد...» قالت الدونا فلور، وضاع منها الكلام.

أخذت الدونا نورما دفة الكلام مجدداً:

– أنتِ أنجبت الولد منذ أيام، أليس كذلك؟

تطلّعت ديونيزيا إلى ابنها وابتسمت في تأكيد مرح.

– «إن صديقتي جاءت إلى هنا لتتحدث معكِ... لقد نذرت نذراً حينما كانت على شفير الموت أن تجعل أول ابن لها راهباً، بمشيئة السنيور دو بونفين ومعافاتها». كانت الدونا نورما تتكلم بهدوء، لأنها لم تُعْجَب تماماً بالقصة المؤلفة في العشية «والله استجاب لها فشفيت، كانت معجزة!».

استمعت الخلاسية بفضول لاكتشاف العلاقة بين مرض الشابة ومعجزة السنيور دو بونفين وبين ولدها. وأسرعت الدونا نورما في المتابعة، المهمة غير مريحة:

لكن بما أنه لم يكن لها ولد فماذا تفعل بنذرها؟ كيف تفي به؟ ليس أمامها إلا أن تتبنى طفلاً تربيه كأنه من لحمها ودمها ثم تضعه في مدرسة إكليريكية ليدرس... وقد علمت بابنكِ، واختارته...

ابتسمت ديونيزيا بدعة، أليس في ذلك إطراء لابنها؟ اعتبرت الدونا نورما ابتسامتها دليلاً على الموافقة، فأوضحت:

– إنها تريد أن تتبنى الطفل فعلاً، بورقة من الكاتب العدل، كل شيء شرعي قانونيّ ونهائي. ستأخذه وتربيه وكأنه ولدها.

ظلّت ديونيزيا ساكتة بدون حراك، وعيناها شبه مطبقتين. ترى، هل وَعَتْ كلمات الدونا نورما أم كانت تصغي إلى الأغنية البعيدة؟

«كنت أرغب

في أن أموت بين ذراعيكِ

فالموت أفضل

من أن أحيا هكذا...»

« الموت أفضل»، همست لنفسها، وحين فتحت عينيها كان الوُدّ السابق قد اختفى منهما، وتولّد جو جديد من نظرتها الزجاجية، من الخط المحفور تحت فمها.

سألت من دون أن ترفع صوتها: «لماذا، لماذا اختارت ولدي؟ لماذا ولدي أنا بالذات؟».

لا شيء يبرّر هذا العذاب اللاإنساني، فكرت الدونا نورما. أي أم تقبل أن تفترق عن ابنها؟ حتى لو كانت فقيرة، بلا موارد، تتمرّغ في الشقاء، فإنّ ذلك ليمزّق القلب تمزيقاً.

– هناك من ذكر لنا ابنكِ: كم هو قويٌّ وجميلٌ... وأن لا وسائل لديك لتعليمه...

لو لم يكن الأمر لما فيه خير الطفل، لو أنه لا يتعلق بابن فادينيو، لما وجدت الدونا نورما نفسها متورّطة تتوسط مروَّجة لاقتراح من هذا النوع، منتزعةً الكلمات من حنجرتها انتزاعاً. لكن أيكون فعلاً ابن فادينيو؟ كم هو قذر بطن ديونيزيا هذه! لقد جاء الولد أشدّ سواداً منها، أين شعر

فادينيو الأشقر؟ لكنّها كانت تبذل جهدها من أجل الولد، سيكون ذلك أفضل، سيكون مستقبله مضموناً.

– التيرّيرو يغصّ بالأولاد، في الشوارع، وإشبيني جوان آلفيس لديه حفنة أحفاد، وأنا نفسي عرّابة أحدهم. جميعهم يتضوّرون جوعاً، يتمرَّغون في القذارة، يتسوّلون، بل يسرقون... إن صديقتي ليست مليونيرة لكن لديها ما تعتاش منه وبإمكانها منح المسكين الصغير الاطمئنان وحياة مغايرة، لن يتضوّر جوعاً ولن ينتهي إلى السجن، سوف يدرس ليصير كاهناً ويقيم قدّاساً...

وكأن الطفل سمع موعظة الدونا نورما وفهمها فاستيقظ يبكي. ففتحت ديونيزيا عباءتها وأجلست الطفل، وأخرجت ثديها، ثم أَلْقَمَتْهُ إيّاه واستمعت صامتةً وكأنها تزن كلامها فيما راحت الدونا نورما تزيّن لها مستقبل ابنها، محاطاً بالرّفاهية والحنان، لا يحتاج شيئاً. أكيد في ذلك تضحية من الأمّ ما بعدها تضحية، لكن الأم الأنانية وحدها التي تحكم على ابنها بالجوع، بالحياة البائسة، بينما هناك إنسانٌ طيب يريده... إن الدونا فلور طيبة القلب للغاية، ومن المستحيل العثور على إنسانة أفضل منها...

ضبطت ديونيزيا وضع حلمتها في فم الولد الشّره. وأجابت وهي تنظر إلى النافذة التي كان يجلس الزنجي جوان قربها، كما لو أن أيّاً من المرأتيْن لا تستحق أن تتوجه إليه بالحديث:

– أترى يا سيد جوان، كيف يعاملون الفقراء؟ فهذه (الدونا فلور) لأنها عاقر، وقد نذرت نذراً تريد أن تفي به، سعت أن تعرف أين ولد طفل مؤخراً وعلمت أن ديونيزيا ده أوشوصي، البغيّ صحيحة البدن شديدة الفقر قد أنجبت طفلاً. هنا، قالت لصديقتها: هيّا نذهب، ونأتي به... يجب أن تشكرنا، تلك المرأة الموبوءة السيئة.

حاولت الدونا نورما مقاطعتها:

– لا تكوني ظالمة... لا...

لكن صوت الخلاسية المرتاح ارتفع بدون تسامح، بمرارة وبرودة:

– لكنها لم تجد الشجاعة لتتكلم بنفسها، فطلبت من الدونا إشبينتها أن توصِلَ رسالتها، فجاءت محامية تدافع عنها.

«هيا نأتي بولد ديو، إنه عجلٌ ضخم جميل، ستجعله راهباً صاحب مكانة عالية. أما أمه فلْتمُتْ، لا يهمّ، لكن لتهبه لنا مدى الحياة، بوثيقة رسمية وهي في النهاية سترضى إذ تجد نفسها متحررة من مسؤوليته. أما إذا رفضَتْ فستكون عاطلة، تافهة لا نفع منها، ليست أهلاً إلا لتكون عاهرة». هكذا تكلمت، يا سيد جوان، وحضرتك سمعت. لأنها تعتقد أن الإنسان الفقير ليس لديه إحساس ولا مشاعر، تظن أنه لمجرد كون المرأة جانحة تحيا هذه الحياة القاسية، تفقد حتى الحق في تربية أولادها..

وحاولت الدونا نورما أيضاً أن توضح:

– لا تقولي هذا...

أنهى الولد رضاعته، تجشّأ متخماً، فوقفت ديونيزيا وابنها بين ذراعيها، منتصبة بكل جمالها، ملكةً في جلال غضبها وأمومتها. كانت تتكلم وتتحرّك معتنية بالطفل، تنظفه في الطَّسْت المطلي بالميناء، ثم أبدلت قماطه، ونثرت عليه البودرة وألبسته القميص الصغير المعطر باللاوند.

– لكنهما أخطأتا العنوان، فأنا امرأة أستطيع تربية ابني جيداً، أجعله رجلاً محترماً، لست بحاجة إلى صدقة من أحد. قد لا يصير راهباً ذا لحية، بل ربما أصبح لصاً، كل شيء يمكن أن يحدث. لكن أنا التي سأربيه، على طريقتي. سيصبح قبضاي المحلّة، لن يتطاول عليه أحد، ولن أعطيه لثريّة لا تريد أن تتألم ألم الولادة.

ضحكت للطفل وكلمته بعذوبة.

– ولا تنسَ أن لك أباً يعتني بك...

هنا انفجرت الدونا فلور فجأة صارخة دون إنذار مشحونة بقوة اليأس وقالت:

– إنما أبوه هو زوجي... لا أريد ابنكِ، أريد ابن زوجي... لم يكن لديكِ الحق بأن تنجبي ابناً منه، وإذا عاشرته، فذاك شأنكِ، لكن لا حقّ لك في ابن منه، أنا صاحبة هذا الحق...

ترنّحت ديونيزيا كأنها تلقّت صفعة على وجهها:

– أتقولين إنكِ متزوجة منه؟... هل أنتِ متزوجة منه حقاً؟

بعدما انفجرت وخفّفت عن قلبها المثخن بالآلام، عادت الدونا فلور إلى حيائها، موضحة بصوت خفيض يائس:

– متزوجة منه منذ ثلاث سنوات... أعذريني، لهذا السبب فكرت بتربية الولد كما لو كان ابني، ما دمت لا أستطيع أن أعطيه الولد. لكنني الآن رأيت أنكِ على حقّ سيدتي، أنتِ التي يجب أن تربيه فأنت أمه... ثمّ، ما الفائدة؟ جئت لأنني أحب زوجي كثيراً، أخاف أن يهجرني بسبب الولد. لهذا جئت. وما تبقى فكله كذب. لكن بعد أن رأيتك، أدركت أنه لن يتركك أبداً: سواء بوجود ابن أو لا... يا سيدة..

– لست سيدة، إنني بغيّ لا أكثر ولا أقلّ. لكنني أقسم بصحة ابني، إنني لم أكن أعلم أنه متزوج. لو كنت أعلم لما أنجبت منه ابناً، ولما فكرت بأن أتخذه عشيقاً، بأن أتخلّى عن هذه الحياة لأقيم في منزل وأقطن معه كزوج وزوجته..

أنهَتْ إلباس الولد ثيابه. وتناولت الدونا نورما المنشفة، وخفّت حِدّة الجو. وهمست الدونا فلور:

– أقسم إن فادينيو هو زوجي، وكل الناس يعرفون ذلك...

– «فادينيو لم يقل لي شيئاً قطّ... تسلّمت ديو القميص الصغير من يديْ الدونا نورما، وأضجعت الطفل على السرير لإلباسه «لماذا لم يقل لي؟ لماذا خدعني هكذا؟» – راحت تتأمّل وقد اختفى حنقها وباتت تُجامل الدونا فلور باحترام تقريباً – «كل الناس عرفت بالزواج، أنتِ أيتها

السيدة قلتِ لي... هذا يحدث... لكن لماذا لم يقل لي أحد شيئاً؟ وأنا التي تعرف كل أهله، كلهم، حتى أمه...

– أمّ فادينيو؟ إن أمه ميتة...

– أعرف أمه، نعم، وجدته... أعرف أخاه، روكي، النجار..

– «إذن ليس هو فادينيو زوجي»، – ضحكت الدونا فلور، وضحكت ثم ضحكت ببلاهة الرِّضا – «أواه! ما هذا الجنون، ما هذا الأمر الأحمق الجميل... نورمينيا إنه فادينيو آخر! أودّ لو أبكي..!».

من جهتها، تركت ديونيزيا ده أوشوصي، الولد على السرير، وأسرعت إلى الغرفة ترقص رقصة «إياوو» حول أوريشا، جارّةً الزنجي جوان آلفيس معها، أمام البيجي، محيية وشاكرة أوشوصي – أوليه، يا أبتاه، آرو أدكيه!

– إنّه ليس فادينيو رجلي، فرجلي فادينيو ليس متزوجاً، امرأته هي ديونيزيا وحدها، خلاسيته ديو...

توقفت فجأة ونظرت إلى الدونا فلور (كانت الدونا نورما قد أخذت تداعب الطفل وهو بين ذراعيها):

– لا تقولي لي إنكِ يا سيدتي زوجة سميّه...

– أي سميّ؟

– رجلي فادينيو وهم ينادونه فقط هكذا، السميّ، إذا كان هناك اثنان باسم فادينيو. إنما رجلي فادينيو من فالديمار وسميّه لا أعلم من أين أصله... شخص ضائع في... – لم تكمل الجملة.

بل أكملتها الدونا فلور:

– ... في القمار... هذا هو بالضبط، فادينيو من فالدوميرو، زوجي فادينيو...

– وقالوا لكِ إنني أنجبت ابناً منه... ما أردأ هؤلاء البشر..

فُتح الباب وظهر فيه زنجي قوي البنية فتيّ، تفتحت شفتاه عن أسنان بيضاء، عيناه تلمعان بفرح يوم الأحد:

– صباح الخير للجميع...

توجهت نحوه الخلاسية وهي لا تزال ترقص، مودعةً كل ذعرها وغضبها. مدت ذراعيها، فأعطتها الدونا نورما الطفل ووضعته هي بين يديْ رجلها، يديْ أبيه.

«هذا هو رجلي فادينيو، سائق الشاحنة، والد ابني». – ثم قدَّمته إلى الدونا نورما والدونا فلور – «تلك التي هناك هي عرّابة السيد جوان آلفيس، والأخرى هل تعلم من هي؟».

– وكيف لي أن أعرف؟

– حسناً، هي امرأة فادينيو الآخر، ذاك...

– زوجة سميّي؟

– تماماً.. جاءت إليّ تعتقد أن الولد هو ابنه، ابن زوجها، وجاءت لتأخذه، كانت تريد أن تربي حيواننا الصغير، وكانت ستجعل منه راهباً ذا جبة... – ضحكت ضحكتها الطليقة، بصوت مرتاح: – «ما هو اسمكِ بالضبط؟ فلور؟ إذن ستكونين عرابتي، ستعمّدين ولدي... جئت لتأخذي ولداً، ابناً لا أستطيع إعطاءه لكِ حيث ليس لديّ سوى ولد واحد فقط، لكن بوسعي أن أعطيكِ ابناً روحياً...».

– عرابتي الدونا فلور... قال سائق الشاحنة.

أخذت ديونيزيا الولد وسلّمته إلى الدونا فلور. وكانت العصافير تملأ صفحة السماء، تطير، ثم تحط على نتوءات سقف المطرانيَّة.

17

في أوقات الترمل الأولى، أوقات الحزن والحداد الصارم، بقيت الدونا فلور مرتدية السواد، صامتة، غارقة في تفكير خيالي، لا حلم ولا كابوس، بين همسات الإشبينات المتزايد عددهن من جهة وذكريات سبع سنوات من الزواج. فالإشبينات كنّ عشراً، كنّ مئة، بل كانّ ألفاً بتضامنهن الثابت والصاخب على خطى الدونا روزيلدا، ليحطنها بجوقة شائعات، حيث ترتفع الأصوات في كورس من الاتهامات ضد فادينيو، الدونا روزيلدا بدور المنفرد، والدونا دينورا كمساعدة، والاثنتان بارعتان بمجال القدح والذم.

وكانت الدونا فلور، منغلقة على نفسها في انفعالها وقلقها، تتذكر لحظات الفرح وساعات المرارة، تتشبّث بما يجعل صورة فادينيو حيّة بشبحه الذي ما زال يحوم في أرجاء البيت، خصوصاً في غرفة النوم غرفة اللذة.

فماذا كانت، في النهاية، غاية كل أولئك الإشبينات اللواتي لا حصر لهنّ ولا عدد؟ الجارات والمعارف والتلميذات والصديقات، وأمها التي تحملت تعب السفر من نازاريت لكي تكون إلى جانبها، وحتى الغريبات المتحفّظات مثل الدونا إينايدي التي تربطها صلة ما بالدونا نورما؟ فهذه الفاضلة تجهد نفسها في المجيء من شاميس حيث تسكن – بلا زوج ولا أبناء أو التزامات منزلية – لتعرض لها مساوئ فادينيو، تحت ستار تعزيتها. ماذا يردْن؟ ماذا يقصدن، بنكء الجراح المندملة، وإعادة إضرام النار في جمرات العذاب الخامدة؟ لماذا تسرُّ لها الدونا إينايدي وكأنّها متضامنة معها، بأنها تعرف عن كثب تلك المشؤومة نويميا التي أصبحت سيدة بدينة متزوجة (زوجها يكتب في الصحف) لكنها لا تزال تحتفظ بين أوراقها الخاصة بصورة فادينيو؟

كانت الدونا فلور تعيش مع الذّكريات الطيبة والسيئة، لكنّهن كنّ يدفعنها نحو الغثيان، نحو تحويل ذلك الوقت الرمادي من اليأس والغياب، إلى صحراء من الرّماد. حتى عند استعادة الذكريات والصورة المقرفة، مثل صورة التلميذة السابقة بضحكتها الساخرة ووقاحتها السافلة، حتى عند جرحها مجدداً بهذه الأشواك، عند تذكر ذلك الإذلال كانت تشعر بنوع من العزاء الممتعض، كما لو أن الذكريات والصور والإذلال، كل ما عاشته يخفف عذابها الرّاهن. وأخيراً، من سيخرج منتصراً، من

سيفوز في الرهان، من سيبقى معه؟ ولو كان صبر الدونا فلور، قد نفد ذات يوم، وقدّمت لفادينيو إنذاراً إما هي وإما الأخرى، ليرحل مع المرأة المبتذلة إذا شاء لكن ليقرر ذلك، في أقرب وقت، حالاً... فأي قرار كان سيتخذه؟

جاءت نويميا، عشية زواجها، لتتعلم فن الطَّهي، فقد أصرَّ العريس على أن تلمّ نظرياً وعملياً بالتوابل. كان يحبّ تقليد المجتمع الراقي، فيدسّ أنفه في شؤون السينما والأدب، مغروراً مدّعي معرفة وثقافة، يستشهد بمؤلفين ويتجشّأ نقداً، عبقري شاب يلمع في ضوء شمس المجد على باب المكتبة. واستحسن أن تتعلم نويميا فن الفاتابا والكارورو، «أريد أن أراها بروليتارية تعمل، هذه البورجوازية...» وافتُتِنَت هي بالفكرة فانتسبت إلى «مدرسة الذوق والفن».

كانت ابنة أسرة نبيلة في حي غراسا، ثريّة وأنيقة، تعتبر نفسها مهمّة لأنها أصبحت خطيبة مثقف كبير، لكن في الوقت نفسه بدا لها فادينيو أكثر جاذبية بمظهره اللعوب وعينيه الناعستيْن. وحين تنبهت عائلتها اللامعة وخطيبها الموهوب المدّعي، كانت نويميا قد تعلمت قلة الحياء، وعلى أعلى المستويات مع فادينيو، في شقة أماريلديس. وثارت ضجّة صاخبة، كادت أن تتحول إلى فضيحة رائعة. ولحسن الحظ تغلّبت مدنيّة الخطيب الرفيعة على الظرف الآنّي، فعالج الوضع بمرونة وديبلوماسية، ولم يخسر لمجرد الظن صندوق الذهب ذاك. لكن رغبته الطيبة، تعاونه المتفهم لم يكونا كافييْن؛ فالمعنيّة بالأمر لم تُرِد إنهاء المغامرة غير المعقولة، معتبرة نفسها أصبحت خبيرة في هذا المجال. أرادت إلحاق العار بخطيبها وعائلتها، أرادت الفرار مع فادينيو إلى جهة مجهولة. لكن هذا الأخير هو الذي رفض. وعندما سقطت الأقنعة وصارت مغامرته موضوعاً للأقاويل والإشاعات أصرّت الدونا فلور، باندفاع نادر عنيف على أن يختار فوراً بينها وبين الأخرى. فأعاد الفتاة إلى خطيبها، الذي أصبح بعدها أكثر تأنقاً وتكبراً، إذ جمع إلى موهبته وسعة معرفته، القرنين، فأصبح مثال الخطيب الذي يصعب الحصول عليه.

«كلها تفاهات لتمضية الوقت»، قال لها فادينيو حين واجهته منفعلةً أشدّ انفعال ملحةً عليه بأن يحدد نهائياً موقفه من كل شيء، فلم يفكر لحظة في أن يرحل مع نويميا تلك، بل مجرّد إشباع غرور زائف؛ فهي لم تكن عاهرة فقط، بل كانت كذابة معروفة بكذبها.

ماذا تريد الإشبينات؟ الدونا روزيلدا والدونا دينورا، والدونا إينايدي التي تخلّت عن راحتها في شامي – شامي، وعشرات الأخريات بل مئات بل ألوف الإشبينات اللواتي ألّفن جوقة شائنة من الحسرات وكتب الهجاء، ماذا يردن؟ لماذا يذكّرنها بذلك الحادث كبرهان على شقائها في زواجها، كبرهان على أن فادينيو كان أسوأ الأزواج؟ العكس هو الصحيح: فالحادثة هي أفضل برهان على حبه لها، كيف أنه فضّلها على كل النساء. أما كان لنويميا تلك ثراء وأناقة ودارة في غراسا ودفتر شيكات وحساب مفتوح في المصرف – كان فادينيو يقامر بمبالغ باهظة في تلك الفترة الانتقالية – وسيّارة مع سائق، وقطعت المرحلة الثانوية وتعلّمت المبادئ الأساسية للغة الفرنسية، كانت في منتهى الأناقة تغرق في العطور، والفساتين والأحذية التي تبتاعها من الريو؟ مع من بقي هو، من فضّل حين أجبر على الاختيار؟ لم يفدها في شيء دفتر الشيكات ولا ترف السيارة التي كانت تأخذها وتأتي بها، ولا فساتين الريو أو عطور باريس، أو رطانة، التعابير: Mon chéri, mon petit coco, merde, quelle merde! À le sait de parler ... كما يُقال في فرنسية باهيّا.

لم يعرها فادينيو أي اهتمام، ولا اهتم للثمرة التي قطفها، ولا لتوسلاتها: «لقد سلبتَني شرفي»، ولا للتهديدات: «سترى، سيطاردك أبي، ويزج بك في السجن». لم يفعل سوى هزّ رأسه في لحظة الاختيار: «كيف تستطيعين أن تفكري بما هو مستحيل؟ وتظني أنني أتركك لأعيش مع تلك القذارة؟..».

علّق المتبجّحة بقرنيْ خطيبها، ومضى إلى السرير مع الدونا فلور، آه! يا لها من ليلة من ليالي اللذّة والغفران! «كل ذلك تفاهات لتمضية الوقت، أنت وحدك الدَّائمة يا فلور، يا زهرتي البرّية..».

بالنسبة إلى الإشبينات، كان فادينيو أسوأ زوج يمكن أن يوجد في الدنيا، والدونا فلور أتعس النساء. لا يحق لها البكاء والتحسّر، بل يجب أن تحمد الله على أنه حررها في الوقت المناسب. بالطبع، كانت الدونا فلور الطيبة بذاتها، ووحدها الدونا روزيلدا كانت تريد منها أن تفرح، وأن تحتفل بموت فادينيو المفاجئ. فزوجها كان الرداءة بنفسها. أما هذه المشاعر الفيّاضة، هذا الحداد المغلق، هذا الغثيان المبالغ فيه، الذي يزيد عمّا هو مفروض في طقوس الترمل، هذا الوجه الجامد الضائع،

هاتان العينان اللتان تنظران إلى داخل نفسها أو تحدّقان إلى الأفق، تحدقان إلى اللامحدود، إلى اللاشيء، كل هذا كان غير مقبول بالنسبة إلى الإشبينات.

واتَّفقن جميعاً على أمر وحيد، الدونا روزيلدا والدونا نورما والدونا دينورا والدونا جيزا، الصديقات الحقيقيات والواشيات؛ هو أن الدونا فلور بحاجة إلى أن تنسى – وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل – تلك السنوات اللعينة، بحاجة إلى أن تمحو صورة فادينيو من حياتها، وكأنه لم يوجد قطّ، وبالنسبة إليهن طال وقت الحداد أكثر ممّا يجب، لذا كن يتحلقن حولها ليؤكدن لها – بالوقائع – أن الله قد رحمها بموته.

حتى الخالة ليتا بالذات، التي كانت تجد دائماً الأعذار لفادينيو، لم تستطع أن تخفي دهشتها.

– ما فكرت قط أنها حساسة هكذا..

الدونا نورما أبدت عجبها هي الأخرى:

– بهذه الطريقة لن تنسى أبداً... وكلما مرّ الوقت ازدادت معاناةً..

والدونا جيزا العليمة بعلم النفس، لم تتفق مع المتشائمتين:

– هذا طبيعي... ستستمر على هذه الحال بضعة أيام أخرى، لكنّها في النهاية ستنسى، وتعود إلى العيش...

أقرَّتها الدونا دينورا على رأيها: «أجل، مع مضيّ الوقت ستدرك أن الله نظر إليها بعين رحمته..».

لكنهن اختلفن على أفضل طريقة لمساعدتها. اقترحت الدونا نورما، تدعمها الدونا جيزا، تجاهل كلّ ما له علاقة بفادينيو؛ أما الباقيات بقيادة صارمة من الدونا روزيلدا – الدونا دينورا كانت رقيباً في هذه الفرقة المحاربة – لم يوفرن بوقاً من الكيْد والسباب والتحسّر، لإقناعها بأنها أصبحت تحيا حياة هادئة سعيدة، بسلام، وراحة وأمان. كان عليها أن تنسى بأية وسيلة كانت: سواء

بالصمت المُشفق أو بالهجاء الصاخب، عليها أن تجد طريق النسيان. فما زالت فتية، أمامها الوجود بكليّته..

– لو أرادت ذلك، فلن تبقى أرملة وقتاً طويلاً.. – تنبأت الدونا دينورا، التي كانت حين تتناول حياة الآخرين، تمتلك حاسة سادسة، هي الحدْس بالغيب، خصوصاً عندما تكون في منزلها (إرث من كوميندادور اسباني) وتلبس رداءها، وفي لحظة ذعر، تضع أوراق اللعب أمامها فتستشرف أحداث المستقبل، مستشيرة كرة من البلور.

وتساءلت الدونا فلور كيف لم تستطع إحداهنّ أن تذكر صنيعاً طيباً لفادينيو؟ فرغم كل مثالبه التي لا حصر لها كان يغلُبُ عليه في تصرفاته اللطف والسخاء والعدل والحب. لماذا لا يريْن فيه إلا السوء، يزنَّه فقط بميزان اللعنات؟ دائماً كان يحدث ذلك حين كان على قيد الحياة، تنقل المزعجات، الجشعات أخباره غير السارة، وتتحسّرن على الدونا فلور، مسكينة! تستحق زوجاً مستقيماً وطيباً، يُحسِن معاملتها ويحترمها.

فلم يحدث قطّ أن أزعجت إشبينة نفسها وهرعت، تاركةً مشاغلها وتسلياتها، لتخبرها بعمل جيد قام به فادينيو:

– فلور سأقول لك شرط ألا تقولي إنني أخبرتكِ... كسب فادينيو في البيشو وأعطى المال كله لنورما لتشتري هدية لكِ لمناسبة عيد ميلادكِ.. صحيح أنه لا يزال بعيداً لكنه خشي أن ينفق النقود، فأراد أن يضمن الهدية في الحال..

هذا ما حدث ذات مرة. جميع الإشبينات كن يعلمن، كانت الدونا نورما وحدها ملتزمة بكتم السرّ. ولو لم تنتهك هي قسمها، حين لم تعد تطيق الصمت بعد عشرين يوماً لما عرفت الدونا فلور بالأمر. فالباقيات أغلقن أفواههن، من منهن كانت ستزعج نفسها في نقل البشائر المستجدة، فحين يتعلق الأمر ببشارة لا ضرورة للاستعجال ولنفاد الصبر، ولا واحدة منهن ركضت في الشارع نحوها. أما حين يتعلق الأمر بأخبار سيئة كنّ يسرعن إليها لامباليات بأعمالهنّ أو راحتهن، يضحين بأنفسهن في سبيل إعلامها بالخبر السيئ، في حماسة قلّ نظيرها.

الصّدفة وحدها هي التي حالَت دون رحيل الدونا فلور في عصر يوم سقوط فادينيو في عاره العميق وفي سفالته! بل لقد هيَّأت الحقائب. وهناك دائماً غرفة في تصرّفها في منزل الخالة والعم في ريو فيرميليو. كادت أن تقطع علاقتها به نهائياً، من أجل أمور تافهة، وفي الوقت نفسه كان الشارع يغصّ بالإشبينات، اللواتي جذبهن الصراخ، وكلهن رأين الغجري حين وصل، وكلهن سمعنه يتكلم بصوت مرتجف، كن شاهدات على ردة فعل فادينيو.

هل روى بعضهنّ ما حدث للدونا فلور وردّدن على مسامعها كلمات الغجري؟ حسناً، نعم. أي أمل! ولا واحدة منهن قدمت علاجاً، كأنهن لم يشاهدن ولم يسمعن شيئاً. خلاف ذلك أيدن تصميمها على الرحيل مؤكّدات بأن لها من الدوافع ما يكفي ويزيد لتقطع علاقتها بالسافل مرة واحدة وإلى والأبد، بل إن بعضهن ساعدنها في حزم حقائبها..

18

عندما وصل فادينيو ذلك المساء، عرفَتِ الدونا فلور الدافع وراء حضوره غير المنتظر. وكلما أمعنت إليه النظر، زاد تيقّنها من سبب حضوره، فلم يتصرف بقلة حياء مع التلميذات، بل اختفى في إحدى زوايا الغرفة، وتركهنّ ينهين في المطبخ بهدوء، الدرس العملي، كعكة حلوى عيد الميلاد. كانت الفتيات جديدات، فوجاً جديداً، رحْنَ يضحكن بفضول واضح، برغبة للتعرّف إلى زوج المدرّسة الذي كثر الكلام عنه، عن شهرته الفريدة وسلوكه. فقد كان فادينيو ذائع الصيت. انتهى الدرس. ودَعَتْهُنّ لتناول قطع كعكة الحلوى وكؤوس من شراب الكاكاو الكحوليّ – من مستحضرات المنزل الخاصة، مصدر اعتزاز الدونا فلور المعروفة بكفاءتها في صنع المشروبات الروحية المعدة من البيض والفواكه، مهارتها في استعمال توابلها – وبشيء من الخيلاء الشبيه بالكبرياء، قدّمتْهُ لهنّ:

– فادينيو، زوجي...

لم تصدر عنه نكتة واحدة، بل ولا عبارة ذات معنى مبطّن ولا رفّة جفن. بقي جادّاً حزيناً تقريباً، كانت تعرف معنى ذلك التعبير وتخشاه. آه! لو كانت تستطيع استبقاء التلميذات طوال الليل، مطيلة الحديث، حتى مع خطر رؤية اللعوب يتصرف بحميمية معهن ويتجرأ عليهن. آه! لو كان

باستطاعتها تجنب النقاش، الحوار مع فادينيو عندما يكون عاجزاً عن أن يحدِّق إلى عينيها، مثقلاً بوزن ثّياته الأشد سوءاً... لكن التلميذات، فتيات وسيدات، اللواتي كن يعشن حياة اجتماعية كثيفة، كن يحتسيْن المشروب بسرعة وينصرفن.

في العشية، بعثت إليها الدونا ليجيا أوليفا من يدفع لها – كالعادة – ثمن الحلوى والأطعمة المالحة، طلبية ضخمة لوليمة على شرف بعض الأثرياء البارزين من سان باولو. كانت الدونا فلور قد قصَرَت عملها منذ زواجها على المدرسة، رافضة الطلبات الموصى عليها. لكنها في الوقت نفسه، وضعت بعض الاستثناءات لأشخاص تقدّرهم؛ «للدونا ليجيا، أنا دائماً مستعدّة» قالت عندما جاءها الطلب.

ودأبت الدونا فلور على وضع هذه النقود الاستثنائية، التي تتسلّمها عادةً في غياب فادينيو، جانباً تستبقيها للنفقات غير المنتظرة، لمشتريات هامة، لمرض، للضرورة الملحة، وأحياناً تجمع بعض الكونتوات من الريالات، كمية من أوراق النقد تخفيها في مخابئ في المنزل، توفرها لشراء أدوات منزلية أو لهدايا عيد الميلاد أو للأقساط الشهرية من ثمن آلة الخياطة، لكنّها تستهلك معظمها لإقراض فادينيو، مئة أو مئتي ألف ريس...

وصدفة، كان فادينيو في الغرفة، متبرماً، حين كلف الدكتور زيتلمان أوليفا نفسه عناء المجيء شخصياً إلى منزلهما – هو المنهمك جداً بوظائفه الثماني، المهمة والمشرفة– ليدفع.

– هذه النقود في جيبي منذ ثلاثة أيام... كادت ليجيا أن تضربني اليوم عندما اكتشفت أنني لم أدفعها لك..

– لا بأس، يا دكتور، لا يشغلنك هذا... غير مهمّ...

– قل لي، يا سيد فادينيو – قال الشخص المهم متفكهاً – ماذا تفعله لتزداد امرأتك جمالاً وشباباً؟ – كان يعرف الدونا فلور منذ نعومة أظفارها، ويعرف منذ زمن بعيد فادينيو الذي كان يحاول بين الفينة والأخرى، أن يستقرض منه (بلا نجاح، فالدكتور زيتلمان استعصى عليه).

– الحياة السعيدة، يا دكتور، الحياة السعيدة التي تعيشها هي السبب. إنها متزوجة من زوج مثلي، لا يسبب لها وجع رأس، لا يقلقها... تعيش مرتاحة، سعيدة في الحياة... وضحك ضحكته اللامبالية، الراضية جداً! وراحت الدونا فلور هي الأخرى تضحك من شدة وقاحة زوجها.

لم يطلب فادينيو منها نقوداً في ذلك اليوم. لا بدَّ أنّه كسب في العشية، فلديه احتياطيّ ما. لكن حينما وصل في المساء التالي فجأة، وقد خفض عينيه بوجهه الرصين الحزين تقريباً، تنبأت حالاً بالسبب الذي جاء من أجله؛ لقد جاء من أجل المال. وفيما راحت تلميذاتها يحتسين المشروب الروحي ويتذوقن الحلوى بمرح وحبور، يسترقْنَ النظرات إلى الشاب الهادئ، أقسمت الدونا فلور لنفسها، سراً، وقلبها يختنق بأنها لن تعطيه تلك النقود، لا كلها ولا جزءاً صغيراً منها، حتى ولا ريالاً. لقد خصصتها لشراء جهاز راديو جديد. كان الاستماع إلى الراديو، هو أفضل طريقة عندها لتمضية الوقت، تسليتها الكبرى. كانت مجنونة بالسامبا والأغاني، التانغو والبوليرو، بالبرامج المضحكة، وقبل كل شيء، بالتمثيليّات المذاعة. كانت تستمع إليها مع الدونا نورما والدونا دينورا وجارات أخريات، يرتجفن ويترنحْن مع مصير الكونتيسة المتيمة بالمهندس الفقير، باستثناء الدونا جيزا المثقفة التي ترفض الهبوط إلى مثل هذا الدّرك المنحطّ.

كان الراديو خاصتها جهازاً قديماً ومستهلكاً، يستوجب إصلاحه دائماً وذلك يتطلب مالاً، وتزداد حاله سوءاً – يوماً بعد يوم – فيسكت في أحرج اللحظات، يخرس في أهمّ المشاهد. وأصلحته مرة بعد مرة، لكن دون جدوى. هذه المرة لا رجوع عمّا صمَّمت عليه؛ لن تتنازل له عن توفيراتها وليحدث ما يحدث. آن أوان وضع حدّ لذلك التعسف.

كانت التلميذات يشعرن وهن يضحكن بخيبة أمل شديدة: هل ذلك الشخص الكئيب القلق في إحدى الزوايا هو زوج المدرّسة الذي طالما سمعوا عنه، المشهور بخطره الذي لا يقاوم، صاحب قصة مسألة نويميا فاغونديس دا سيلفا؟ بصراحة، لا يبدو أنه يستحق أن يشتهى، ناهيك عن أنه أقل بكثير من الأسطورة الوقحة التي تحيط به.

وجدت الدونا فلور نفسها وحيدةً معه، وجهاً لوجه مع خوفه، وقلبه المسحوق. انتصب في عناء، واتجه إلى المائدة وملأ كأساً بالمشروب الروحي:

– هذا لذيذ لكنّه يُسكر، يؤدي إلى سكر مريع، وإرهاق مرعب... وجع رأس أشد من أي مشروب من الجينيبابو...

أراد أن يظهر بمظهر غير قلق، فاقترب منها وعرض عليها جرعة من كأسه، متودداً رقيقاً:

– تذوقيه، يا حبيبتي...

رفضت الدونا فلور، كما رفضت مداعبة يده المنحدرة على عنقها في الطريق إلى ثدييها من فتحة البلوزة. «نفاق، لا أكثر ولا أقلّ، مداعبات كي يخدرني، وليجعل مقاومتي له مستحيلة، مداعبات تستهدف ضعفي كامرأة». فاستجمعت قواها مستمدة إياها من كل إهاناته القديمة، وحاجتها إلى راديو جديد، ووقفت مهانة ومذلة:

– لماذا لا تقول حالاً ما جئت من أجله؟ أوتظن أنني لا أعرف؟

حزيناً وجادّاً كان وجه فادينيو، فقد جاء لأنه كان مضطراً، لأنه عجز عن توفير المال من أي مكان، لكنه لم يأتِ بقلب مفتوح وضحكة رنانة. آه! لو استطاع ألّا يأتي!

لقد كان يعرف نيّة الدونا فلور بالنسبة إلى المال. فالسيد إدغار فيترولا لم يأتِ بعد، فالراديو القديم لا يزال في القاعة كما لاحظ فادينيو حينما فتح الباب. لكنه قد يظهر في أية لحظة مع العجيبة الثامنة في الدنيا. قطعة موبيليا جميلة من خشب العاج والمعدن المطلي بالكروم، آخر إنجاز في ميدان الآلات، في الموجات، والخطوط، والكيلواط، والفولتات، قادر على التقاط أبعد الإذاعات، إذاعات اليابان وأوستراليا وأديس أبابا وهونغ كونغ، ناهيك عن البرامج المعادية لنظام موسكو، المرغوب بقدر ما هو ممنوع. فالدونا فلور أرسلت إشارة عاجلة إلى السيد إدغار، بواسطة كامافيو، عازف البيريمباو ورفيقه الملازم له.

عندما ركب الترام إلى منزله كان مضطرباً خجلاً ثم مشى في الشارع، تتنازعه رغبتان حتى كأنه مشطور إلى شخصيتيْن: شخصية تستعجل الوصول قبل بائع الراديوات، وقلبه يخفق كما

لم يخفق من قبل. وأخرى ترغب بالوصول متأخرة، بعد السيد إدغار، فلا تجد الراديو القديم ولا نقود الدونا ليجيا التي كسبتها زوجته بجهدها وعرق جبينها، وقضت الليل ملازمة الفرن، بعد نهار لم تعرف فيه طعم الرّاحة. كان مشطوراً إلى شخصيتين: في الترام، وعندما دخل المنزل وفتح الباب. فاذا كان السيد إدغار لم يمر بعد، فأي علامة هي أكثر تأكيداً لفشل حدثهن؟ لكن إذا وجد الجهاز الجديد، سيبقى في المنزل تلك الليلة ممدّداً قرب الدونا فلور يستمع إلى الموسيقى، يضحك للنكات. كان مشطوراً إلى شخصيتين، مشطور في الوسط، هكذا دخل فادينيو المنزل.

لماذا لم يمرّ السيد إدغار؟ الآن قُضي الأمرولم يعد ثمة مفر.

– هل تعتقدين أنني لا ألاطفك إلا لمصلحة معينة؟

– للمصلحة فقط، لا غير... لمجرد المصلحة، مصلحة خسيسة.

فلماذا لا تقول ما تريد حالاً؟ قالت الدونا فلور بتوتر شديد.

ارتفع سور بينهما في ساعة الغسق تلك، حين يقتحم الحزن الأفق الرمادي والأحمر، حين كل شيء وكل حي يموت قليلاً مع موت النهار.

– إذا كان هذا ما تريدين فلْيكن! لن أضيع المزيد من الوقت. ستقرضينني حتى لو مئتي ألف ريس.

– ولا توستوناً واحداً... لن ترى مني ولا توستوناً... كيف تجرؤ على أن تتكلّم عن ديْن؟ فمتى دفعت أنت ولو كان فينتيناً واحداً. لن تخرج هذه النقود من يديّ إلا إلى إدغار وحده.

– أقسم إنني سأدفع لكِ غداً، أنا اليوم بحاجة إلى المال، إنها مسألة حياة أو موت. أقسم إنني سأشتري لك غداً راديو وكل ما ترغبينه... أقلّه مئة ألف ريس...

– ولا توستوناً واحداً...

– تجمّلي بالصبر يا حبيبتي، هذه المرة فقط...

– «ولا توستوناً واحداً» ظلت تردد العبارة كأنها لا تعرف غيرها.

– اسمعي...

– ولا توستوناً واحداً...

– حذارِ، لا تمزحي معي، سآخذها بالتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ.

قال ذلك وتطلّع حوله كمن يحدد مكان المخبأ. عندها فقدت الدونا فلور عقلها، واندفعت يائسةً إلى جهاز الراديو القديم حيث خبأت النقود قرب الصمامات المستهلكة. أمسك فادينيو بها، وهي متشبثةً بأوراق النقد، تتحدّاه صارخةً:

– لن تنفقها في القمار إلا على جثّتي...

قطعت الصرخات المساء، فخرجت الإشبينات إلى الشارع بحذر:

– إنه فادينيو يأخذ نقود فلور، يا لها من مسكينة...

– كلب مجرم! كلب الليل!

هجم فادينيو على الدونا فلور وقد أعماه الحقد وأطار عقله على ما يفعله. فأمسكها من رسغيها صارخاً بها:

– أتركي هذا الغائط!

هي التي ضربته أولاً: إذ أفلتت منه وكي لا يمسك بها مجدداً، لكمته على صدره بكلتا قبضتيها، ففتح يده وصفعها على وجهها. «أيتها العاهرة، ستدفعين ثمن ذلك». في حين راحت تصرخ: «أتركني أيها الشقي، لا تضربني، أقتلني حالاً، فهذا أفضل». عندها دفعها فسقطت على أحد المقاعد، تصرخ: «قاتل، شقيّ». وصفعها: مرة، مرتين، أربع مرّات. ورنّت قرقعة الصفعات في الشارع، مثيرة حسرات واستهجانات جوقة الإشبينات. فتحت الدونا نورما الباب، ودخلت من دون إذن:

– إما أن تتوقف يا فادينيو، وإما أستدعي الشرطة.

بدا وكأن فادينيو لا يراها. كان يقف والنقود بيده في حالة يُرثى لها «الشعر منفوش» ينظر من خلال المرآة إلى الدونا فلور ممددة أرضاً، تئن أنيناً خافتاً، وفي نحيب وأنين. فركضت الدونا نورما لإسعافها، وخرج فادينيو من المنزل، يشدّ على النقود بأصابعه. وابتعدت الجارات عن رصيف الطريق، وكأنهنّ يشاهدن إبليس نفسه.

في تلك البرهة بالذات توقّفت سيارة الغجري قرب الباب. وعندما رآه فادينيو ابتسم، معتبراً تلك المصادفة برهاناً آخر على صحة ما يتوقّعه ويحدس به. كان يسير في الشارع واثقاً من نفسه حين يحسّ بذلك الحدْس: حدس شامل ومطلق، لا يتهدّده الغش ولا النحس، يؤكد له بأنه سيفجّر هذا المساء وهذه الليلة جميع صناديق القمار في المدينة، الواحد تلو الآخر بادئاً بآلات الروليت في التباريس، منتهياً بالوكر الخفي الذي يملكه باراناغوا فينتورا. ونما ذلك اليقين في داخله وسيطر عليه، ملحاً على التحرّك، مجبراً إياه على الدوران في حج لم يجده نفعاً محاولاً استدانة النقود، من هنا ومن هناك، وأخيراً أوصله إلى ما هو ضدّ إرادته إلى انتزاع المال من الدونا فلور.

لكن عندما صفعها تلاشى ذلك اليقين، ولم يبق إلا الخفقان، ومن الداخل الخَواء، لا يعرف ما يفعل بنقود الدونا فلور تلك، كما لو أن كل شيء أصبح من دون فائدة. أما في الشارع، وبعد أن ظهرت سيارة الغجري – إذ كان فادينيو مسرعاً ليبدأ الدورة المسائية، ماراتون القرن العشرين – هدأ مجدداً. فتلك قضية أخرى، لا جدال، لمغزى الخفقان. شعر فادينيو بحرارة تتآكل يديه، مستعجلاً الانطلاق. وحدها طاولات الروليت الآن، والكرة الصغيرة تدور، الكروبييه، الرقم 17، المحطات، النظرة المتوترة لميراندون إلى يساره كالعادة، الفيش، لم يُخلق اللعب إلا له وحده. استعد لدخول سيارة الأجرة لكن الغجري قفز بين الجارات وهو في هياج شديد: في عينيه آثار الدمع وصوته متهدّج يقول:

«فادينيو، يا أخي الصغير، لقد ماتت عجوزتي، أمي الحبيبة... علمت وأنا في الشارع، أنا قادم الآن من المنزل. لم أرها تموت، قيل إنها استدعتني حينما انتابها الألم..».

في البدء لم يعر فادينيو انتباهاً لكلمات صديقه، لكنه سرعان ما أدرك ذلك فشدّ على ذراعه: ماذا يقول هذا؟، أي قصة مجنونة هذه؟

– من الذي مات؟ الدونا آنجيلا؟ هل أنت مجنون؟

– لم يمضِ عليها ثلاث ساعات. عجوزتي، يا فادينيو...

مرّات كثيرة، عندما كان عازباً، وحتى بعد أن تزوج وبصحبة الدونا فلور، أكل الفيجوادا التي تعدها الدونا آنجيلا يوم الأحد من كل أسبوع، في نهاية خطّ شارع بروتاس. كانت بدينة جداً وطيبة القلب، تعامله كابنها، ضعيفة أمام الشاب المقامر، تغفر له حياة التهتك. ألم يكن هو نسخة طبق الأصل، حتى شعره الأشقر، عن المرحوم آنيبال كارديال، المقامر المشهور، عشيقها ووالد الغجري؟

– نسخة طبق الأصل.. كلاهما ضائع... أحس فادينيو مجدداً أنه يختنق غصباً عنه، ها هو يوم آخر مقرف، متعثر؛ أولاً فلور بعنادها الذي يورث المصائب، ثم الغجري الذي يجرّه في انعطافات الغسق ويقذف على الرصيف جثمان الدونا آنجيلا...

– كيف حدث ذلك؟ هل كانت مريضة؟

– لم أرها يوماً مريضة، على ما أذكر. اليوم، عندما خرجت بعد تناول الغداء، تركتها عند الحوض تغسل الثياب، راضية على أحسن حال... ألا تعلم أن اليوم كان يوم تسديد آخر سندات السيارة؟ وكانت لديّ النقود كلّها. منذ الصباح كنّا مسرورَيْن، نحن الاثنان، وعددنا النقود هي وأنا.. وقد سلمتني ما جمعته شهراً بشهر من قطع نقد ذات العشرة توستونات، والمجموع: ألفا ريس. كانت فرحة لأن السيارة ستصبح الآن لي حقيقة – وبذل جهداً ملحوظاً كي لا يبكي – قالوا لي إن ألماً انتابها في الصدر فجأة. ولم يتسن لها الوقت إلا لذكر اسمي ثم سقطت ميتة... ما يؤلمني هو أنني لم أكن هناك، كنت أسدد سند السيارة. ايزيدرو، صاحب الحانة، هو الذي جاء لإبلاغي النبأ في الساحة... فذهبت راكضاً... آه! يا أخي الصغير كان جسمها بارداً: وعيناها جاحظتين... لقد جئت

إليك الآن لأنني لا أملك شيئاً: لقد دفعت كل النقود لسداد قسط السيارة... سيارتي وسيارتها، سيارة عجوزتي...

كان يتكلّم همساً تقريباً، فهل سمعتِ الإشبينات؟ لقد سمعْن، بل فجعن نوعاً ما تحت الشمس الكئيبة وهنّ منتشرات في الظل عندما سلم فادينيو الغجري النقودَ القذرة المنتزَعة بالعنف وبخفقان نصره الواضح.

– إنها كل ما لديّ...

– ألن تأتي معي؟ هناك الكثير لنفعله...

– طبعاً يجب أن أذهب معك؟

وإذ تحرّرت الإشبينات من حضور فادينيو دخلْن منزله، فوجدْن الدونا فلور مع حقائبها، والدونا نورما تحاول ثنيها عمّا عزمَت عليه. لم تتفهَّم المتملّقات أسباب الدونا نورما. فالدونا فلور وحدها محقّة كل الحقّ؛ بذلك تعالت الوشوشات:

– أواه! حياة شديدة الظلم، كيف تستطيع أن تضحي بنفسها هكذا..

– كان عليها أن تتركه نهائياً...

– يتواقح فيضربها... يا للعار!

لم تعرف الدونا فلور أنهن سَمعْن حديث الغجري، وإعلانه موت أمّه. لولا السيد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى، لم تعرف بوفاة الدونا آنجيلا، ولا كيف وظّف فادينيو المال، فقد مرّ السيد فيفالدو عَرَضَاً، اغتنم كونه في الجوار، فأتى يطلب وصفة لطبق معيّن من الباكالباو، ذي الأصل الكاتالوني، مذاق تذوقه في غداء بانتاغرويلي في منزل آل تابواداس، حيث لا يقدمون على مائدتهم أقل من ثمانية أو عشرة أطباق، تبذير فعلي! وعندما لمح عينيْ الدونا فلور النديَّتيْن بالدَّمع، علّق على النبأ المحزن، مسكينة الدونا آنجيلا، لقد عرفت حين التقيت فادينيو والغجري، وجهزت التابوت

من دون ربح عملياً فهي تستحق ذلك، كانت تكِدّ كالعبْدة، دائماً مرحة، كانت إنسانة رائعة... وذهب السيد فيفالدو مع فادينيو يقدمان التحية إلى فيجوادا...

عندئذ، وعندئذٍ فقط انفكّت عقدة لسان الدونا دينورا وألسنة الإشبينات: لقد انتقل المال من يده في ظلال الغسق، وليصدق من يريد.

انصرف فيفالدو واعداً بأن يأتي ليتذوق الطبق الإسباني، وقد كلفتها الوصفة جهداً كبيراً؛ كان عليها أن ترشو قهرمانة منزل آل تابواداس، الدونا أنطونييتا، إذ كان هذا الأمر من أسرارها في الطَّهي.

لقد عرفت الدونا فلور الدونا آنجيلا في تلك الأيام التي لا تنسى من أيام الحب المطلق، عشية الزواج، عندما بدأت تقضي فترات ما بعد الظهر مع فادينيو في الكوخ السري في إيتابووا. فالبوهيمي صاحب المنزل كان مشغولاً نهاراً بتجارة التبغ، وكان يستبقي للنساء ساعات الفجر الميتة. لكن حدث أن مرت في باهيّا امرأة من الريو فائقة الجمال، لم تكن حرّة سوى في فترة ما بعد الظهر. وتسلّم فادينيو رسالة بألا يستعمل في ذلك النهار المكان المذكور.

تناقشا في سيارة الأجرة، إلى أين يذهبان. رفضَتِ الذهاب إلى السينما والحفلة الصباحية على أنها فكرة حمقاء، ولم يكن في مقدوره هو أن يأخذ زوجة المستقبل إلى شقّة عازبين. أيزورون الخالة ليتا في ريو فيرميليو؟ ماذا لو جاءت الدونا روزيلدا إلى هناك؟ واقترح الغجري أن يذهبا لرؤية الدونا آنجيلا التي أبدت رغبتها برؤية خطيبة فادينيو. فقضيا فترة ما بعد الظهر مع الغسالة البدينة، يتحادثون ويشربون القهوة، وفادينيو يغمرها بالقبلات، وهي في قمة خجلها، وسرّت الدونا آنجيلا بالفتاة، فأوصتها محذرةً متعاطفة:

– ستتزوجين هذا المجنون... ليحمكِ الله وليمنحكِ الصبر، فستحتاجين إليه كثيراً. المقامر هو أسوأ إنسان في الدنيا، يا ابنتي. لقد عشت أكثر من عشر سنوات مع شخص له شعر أشقر مثله، أبيض أزرق العينين... ضائع في القمار، ينفق كل شيء عليه. حتى الميدالية التي ورثتها

عن أمي، باعها المجنون ليدفن النقود في القمار. خسر كل شيء وزاد في الطين بلة أن جاءني ثائراً، يصرخ في وجهي، يلطمني...

– «وجه إليكِ لطمة؟» – ردّد صوت الدونا فلور المتجهِّم.

– حينما يكثر من شرب الخمرة لا يتورّع عن ضربي... لكن ذلك لا يحدث إلا حينما يشرب أكثر ممّا يجب...

– وأنتِ تحملت أيتها السيدة؟ هذا لا أقبله... من أي رجل... – كانت الدونا فلور ترتجف من الغيظ لمجرد التفكير في الأمر: – لن أقبل به أبداً.

ابتسمت الدونا آنجيلا متفهمة ومجرّبة: لا تزال الدونا فلور صغيرة، لم تدعكها الحياة بعد:

– ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كنت أحبه، كان قدري! أكان يجب أن أتركه وحيداً في هذه الحياة الكئيبة، من دون أن يكون هناك من يعتني به؟ كان سائقاً كالغجري، لكنّه كان لا يعمل لحسابه، بل لحساب الآخرين مقابل عمولة. لم يستطع أن يجمّع نقوداً ليدفع دفعة أولى من ثمن سيارته الخاصة، كان مبذراً. ما كنت أجمعه أنا كان هو يخسره، كان يأخذ منّي كلّ شيء. قتل بحادث سير، ولم يترك لي سوى ابن صغير أربيه...

نظرت إلى الدونا فلور بتأثر وحسرة:

– لكن سأقول لكِ شيئاً واحداً يا ابنتي... لو عاد إليّ من جديد، لاخترته هو مرة أخرى. لقد مات، ولم أنظر إلى رجل آخر، انتبهي، هذا لا يعني أن أحداً لم يعرض عليّ الزواج بل العكس كنت أحبه، فماذا كان عليّ أن أفعل: قولي لي، يا ابنتي، إذا كان هو قدري؟

«كان قدري، وأنا أحبه...» ماذا بوسع الدونا فلور أن تفعل؟ «قولي لي يا نورمينيا، ماذا بوسعي أن أفعل؟». أفرغت الحقائب، وارتدت ملابس سوداء لتذهب إلى السهر على جثمان الدونا آنجيلا. «ماذا بوسعي أن أفعل إذا كان هو قدري، إذا كنت أحبه؟».

رافقتها الدونا نورما، أجل. كانت الدونا نورما تحبّ السهر على جثمان ميت إذا كان إنساناً يستحقّ ذلك: بدموع، ونشيج، وزهور باهتة، وشموع مشتعلة، عناق تعزية طقوسي، عظات، قصص وذكريات، نكات وضحك، قهوة شديدة السخونة، بعض البسكويت، جرعة مشروب روحي عند الفجر؛ لا شيء يضاهي حراسة المتوفى.

– سأبدل ثوبي في دقيقة...

«ماذا بإمكاني أن أفعل، قولي لي يا نورمينيا، إذا كان هو قدري؟ هل أتركه هنا، وحيداً، من دون أن يكون ثمة من يهتم به؟ ماذا بوسعي أن أفعل، قولي لي، إذا كنت مجنونة به ومن دونه لا أعرف كيف أعيش؟».

19

من دونه لا تُحسن العيش ولا تستطيع الحياة. كيف تعوّد نفسها على ذلك طالما ضوء النهار مغطًّى بالرماد، والغسق معدنيّ اللون، ويختلط الأحياء والأموات في الذكريات نفسها؟. كم تخيّلت فادينيو وتصوَّرته، كم ضحكَتْ وكم بكتْ، ضجيج، حرارة، رنين الفيش وصوت مساعد مدير اللعبة. لم تكن تجد توكيداً لحياتها إلا في أعماق الذكريات، كاملة مع نور الصباح ونجوم الليل، حيث تتأكد منتصرةً على هذا الغسق الذي يهجع في حشرجة الموت.

على السرير الحديدي، تعاني الأرق، في الهجران والغياب. وترحل الدونا فلور في اتجاه ما حدث، تبحث عن مرافئ آمنة في بحر العواصف، وتروح تجمع لحظات متناثرة وأسماء، وكلمات، وأنغاماً... محاولةً تجاوز ذلك الحزام الفولاذي لهذا الغسق. ومع ذلك كانت تعيش، تعمل نهاراً وترتاح ليلاً... أليس هذا هو العيش في زمن الحداد الرمادي، والنموّ في مستنقع وحول خانق؟ هذه هي حياتها من دون فادينيو. كيف لها الخروج من دائرة الموت هذه، كيف تعبر الباب الضيق لهذا الزمن العاري؟ من دونه كانت لا تُحسن العيش.

في بعض الأحيان كان فادينيو رديئاً فعلاً كما تصفه الإشبينات، كالدونا روزيلدا والدونا دينورا والأخريات محترفات النّدْب في الجنائز. لكنّهن كنّ أحياناً أخرى، يُلصِقْن به تهماً لا يد له

فيها. ومراراً فعلَتْ ذلك الدونا فلور هي نفسها.

مثلاً سافر ذات يوم فجأة وعلى عجل؛ ولم تعلم إلا في آخر لحظة فتخيّلَتِ الأسوأ، واعتبرت أنَّها فقدته إلى الأبد. أيقنت أنه لن يعود من ريو ده جانيرو، سحرته أضواؤها، وجاداتها التي تغصّ بالناس، الكازينوهات، مئات النساء رهن تصرفه. فقد سمعته مراراً يعلن: «ذات يوم سأذهب إلى الريو، فهناك الحياة! ولن أعود أبداً...».

كانت تلك السفرة جنوناً محضاً. وعندما احتاج ميراندون إلى المال اختلق رحلة لطلاب الهندسة الزراعية بهدف «زيارة مراكز الدراسة في ريو ده جانيرو» أثناء العطلة. فجاب السوق التجاري برفقة خمسة زملاء، وحصلوا على النقود من أقصى الأمكنة. اقترضوا المال من مصرفيين وصناعيين ومتمولين وأصحاب متاجر، وتجار آخرين وسياسيين مؤيدين للحكومة ومعارضين لها. حتى جمعوا في بضعة أيام مبلغاً معتبراً مع مشكلة واحدة: في المجاملات للسياسيين، فقد عقدوا ثلاثة اتفاقات مجاملة للسياسيين وغيّروا ثلاث مرّات إكراماً لهم اسم لجنتهم. فعلى أي اسم سيرسو اختيارهم؟ من سيُنتقى الآن؟ وفوراً اقترح ميراندون حلاً بسيطاً للغاية، هو اقتسام المال الذي جمعوه في ما بينهم. وحلّ البعثة فوراً على أن يتصرفوا وكأنهم زاروا مراكز الدراسة فعلاً. لكن الزملاء الخمسة رفضُوا جميعاً: كانوا يريدون القيام بالرحلة، والتعرُّف إلى الريو (كانوا ينوون زيارة مدرسة الهندسة الزراعية والتجوال في فروعها إذا واتتْهم فرصة مناسبة).

حصلوا على بطاقات السفر مجاناً، من دائرة الزراعة في الولاية، وللمرة الرابعة غيّرت البعثة اسمها، تكريماً للمدير الإيالي الكريم. لكنّ يوم ركوب الباخرة حين كانت على وشك مغادرة الميناء، حدث ارتداد. فقد راح أحد الستّة يرتجف بحمّى المستنقعات، ومنعه الطبيب من السفر وليس لديهم الوقت لدعوة طالب آخر يحل ملّه، ولبيع البطاقة بسعر مُتدنٍ.

كان فادينيو قد رافق ميراندون إلى رصيف المرفأ، وحضر النقاش، وفجأة سأله صديقه:

– لِمَ لا تأتِ أنت مكانه، وتستفيد من البطاقة؟

– لست طالباً...

– ولو... لا بأس، ليكن... إنما أسرع، فالباخرة تبحر بعد ساعتين...

وبالكاد استطاع أن يسرع إلى المنزل ليجمع بعض ثيابه الدّاخلية وقمصانه وبذلة الجوخ الزرقاء تاركاً ميراندون، الصديق الصَّدوق يواجه دموع الدونا فلور.

كانت مقتنعة بأنه لن يعود أبداً. ليست حمقاء لكي تصدق قصة البعثة الطلابية غير المعقولة، رحلة للدراسة!. فادينيو ليس طالباً، فكيف يشارك في بعثة جامعية؟ الكتاب الوحيد الذي يقرأه هو كتاب التوقعات في القمار مع تفسير تام للأحلام والكوابيس، الكتاب الضروري لمن شاء الكسب في القمار على البيشو. لا تشكّ أنه يرحل وراء امرأة مشردة معيّنة، امرأة تهوى الاستسلام لغرائزها في ريو ده جانيرو. وكلما ألح ميراندون في القسم بذكرى أمه المقدسة، بصحة أبنائه ازدادت ريبةً؛ فالرواية التي اخترعوها لا اساس لها. كيف يجرؤ ميراندون على الاستهزاء بمشاعرها، بأكذوبة تافهة كهذه؟ وإذا لم يكنّ لها التقدير والاحترام فكيف يطلب منها أن تكون عرّابة لابنه؟ وإذا كان فادينيو يريد أن يهجرها، ويرحل مع إحدى الغانيات منتقلاً إلى الريو، فليتصرف أقلّه كرجل، ليأتِ شخصياً، ويقول لها الحقيقة، لا أن يرسل عرابه بتلك الرواية البلهاء مستغلاً ودّها له ويمنحها شهادة في الحمَاقة. «لكن أيتها الإشبينة، إنها الحقيقة، الحقيقة الخالصة؟. إقسم أننا سنعود خلال شهر». لِمَ يُجهد نفسَه بهذه المهزلة؟ ففادينيو لن يعود أبداً، هذا ما كانت متأكدة منه.

ومع ذلك، عاد. عاد في الوقت المحدد، مع البعثة التي اقتنعت الدونا فلور بوجودها حين أرسل أكبر أبناء تلميذتها الدونا سينيا تيرّا، المشترك في الجولة، إشارة في إحدى رسائله إلى فادينيو، «الرفيق المِقدام». لم يعد فحسب، بل جلب لها قطعة فاخرة من الحرير، هي نسيج أجنبي جميل باهظ الثمن، دلالةً على أنه كان محظوظاً في الروليت.عرفت الدونا فلور أن فادينيو لم ينسها رغم النزهات والحفلات ومستجدات الريو وليالي القمار والقصف. «كيف أنساكِ يا حبيبتي؟ وأنا لم أذهب إلا خدمة للفتيان فما كانوا سيسمحون للبعثة بالرحيل إلا مكتملة العدد». جاء يرتدي صداراً وكأنّه من أبناء الريو، كثير الكلام عن علاقاته التي أقامها ذاكراً أسماء كالمغني سيلفيو كالداس وبياتريز كوستا، نجمة المسرح.

لقد قدّمه إلى سيلفيو، كاييمي بيشوتو، في كازينو أوركا الذي تعاقد معه مغني السيريناتا. وراح فادينيو يطريه لبساطته وتواضعه. «قد تظنون أنه ليس سيلفيو المشهور لفرط تواضعه، سترين حين يأتي إلى هنا. قال لي إنه سيأتي في شهر آذار/ مارس، وعدته بأنّك ستحضّرين له غداء، من الأطباق الباهيّانية. فهو يهتم بالمطبخ». بأي سرور ستطهو الدونا فلور ذلك الغداء إذا تحقق ذلك الاحتمال البعيد؛ كانت معجبة به متحمسة له، مدمنة على الإصغاء إلى غنائه، كم كان صوته برازيلياً قحاً!

متدثّرة بقطعة الحرير المتدلّية على كتفيها، تغطي جسدها بها ثم تنزعها عنه، فرحة بعودة فادينيو، ومطلقة الضحك والتنهّدات في السرير مع زوجها في بحر اللذة. كانت ثمة نقطة من تأنيب الضمير تزيد ذلك الحب لذة. لقد أساءت الحكم عليه، ظلمته وأساءت إليه حين ارتابت به، «بطالبها الجميل جداً...».

أما ما لم تعرفه الدونا فلور فهو ما بذله ميراندون من جهدٍ كبير لينتزع فادينيو من بين ذراعيْ جوزي، وليضعه على الباخرة عند العودة. جوزي كان الاسم الفّني للوزا جوزيفينا، المغنية في جوقة الفرقة البرتغالية لاستعراضات بياتريز كوستا، والتي هامت بغرام الشاب الباهيّاني، (والعكس صحيح). جرى التعارف بينهما عندما حصلت البعثة الأكاديمية على بطاقات مجانية لحضور عرض مسرح الجمهورية، وتوجهت إلى الأروقة بعد العرض، لتحيَّة بياتريز وأعضاء فرقتها. وما إن ألقى فادينيو نظرةً على جوزي وهي في ملابس بائعة السمك في شمالي البرتغال، وقاست جوزي الطالب الزائف بنظرها من أعلى إلى أسفل حتى ضحك كلٌّ منهما للآخر. وبعد نصف ساعة كانا يتناولان طعام العشاء معاً، شرائح من السمك المقدد في حانةٍ قريبة. ودفعت جوزي ثمن العشاء، وظلّت تدفع إلى أن سافر. ووزع فادينيو وقته بين الفرقة البرتغالية والكازينوهات، فنسي كليّاً موعد ركوب الباخرة وساعة الرحيل والرجوع إلى باهيّا. واضطُرّ إلى استخدام كل طاقته وتوظيف كلّ عواطفه:

– كفاني رؤية عرابتي باكية مرةً واحدة، ولا أريد أن أرى بكاءها مرةً أخرى... وإذا وصلت إلى هناك من دونك، ماذا ستقول؟

لم تعلم الدونا فلور بما حدث قطّ، ولن تعرف أبداً القصة الحقيقية لقطعة الحرير الفرنسي: لم يشترها من الريو، بل كسبها على متن الباخرة في البوكر عشية الوصول إلى سالفادور، حين راهن أعضاء البعثة في لعب الورق على الهدايا والتذكارات التي حملوها من الريو بعد أن نفدت نقودهم. كسب فادينيو قطعة الحرير من طالب، ومن آخر كسب حذاء لماعاً وربطة عنق وفراشة عليها كرات صغيرة زرقاء، رائجة في موضة تلك الأيام. لقد راهن عليها بصورة جوزي الزجاجية ذات الإطار الذهبي، الكبيرة الملونة الرائعة، التي تظهر فيها القروية البرتغالية ترفع ساقها في مشهد مسرحي، بثيابها الداخلية التحتيّة. يا لها من غانية! وكتبت عليها بخط متأنٍ: «إلى معبودي الباهيّاني، حبيبتك المشتاقة جوزي». وبعد فترة حصل على الصورة محام شاب يرغب في إذكاء الغيرة بصدور أصدقائه بالقصص والبراهين على غزواته المؤثرة في العاصمة. وهكذا حدث، فجوزي هي التي موَّلت مغادرة فادينيو الباخرة وساهمت في فرح الدونا فلور.. الدونا فلور التي تتمتّع في أحضان زوجها، وقطعة الحرير تخفي جسدها وتكشفه، لتستقر في النهاية عند قائمة السرير.

كيف تعيش من دونه؟ مختنقة بغيابه، مضطربة في الضباب، حبيسة سجن الذكريات، كيف تتعدى حدود الرغبة المستحيلة؟ كيف تجد مرة أخرى ضوء الشمس وحرارة النهار، ونسيم الصباح وضباب المساء ونجوم الليل ووجوه النّاس؟ كلا، من دونه لا تستطيع العيش، وهو يتوارى عنها وراء ضباب الأحزان ذاك، الضحكات والانفعالات، في عالمه المليء دوماً بالمفاجآت.

لتتذكر الإشبينات اللحظات السيئة والمخاصمات الممتعضة، الإزعاجات في مسألة النقود، الليالي التي لم يأتِ فيها إلى المنزل وقضاها يعاقر الخمرة، ومن يدري؟ ربما مع النساء، في جنون القمار. لكن لم لا ينبَسْنَ ببنت شفة عن فترة إقامة سيلفيو كالداس في باهيّا المؤثّرة، حينما لم تجد الدونا فلور دقيقة واحدة للراحة، ولا للحزن؟ أسبوع كامل تتذكر الدونا فلور كل دقيقة منه: ثروة من الفرح والاحتفال. ويجوز القول إنها أصبحت في ذلك الأسبوع الملكة في الحي القائم على قدمٍ وساق من كابيسا إلى ساحة «الثاني من تموز»، من آريال ده سيما إلى آريال ده باشو، من سودريه إلى سانتا تيريزا، من بريغيسا إلى ميرانتي دوس أغليتوس. وغصّ منزلها بأشخاص مهمين، مهمين فعلاً، طرقوا بابها، مستأذنينها الدخول؛ فعلى الرغم من نزول سيلفيو في فندق بالاس لكن الشّهرة كانت لمنزل فادينيو حيث كان يستقبل ويتحادث كأنه في منزله، وكأنّ الدونا فلور أخته الصغرى. ناهيك

عن المعارف، مثل المصرفي سيليستينو، الدكتور لويس إينريكي كليمينتي نيغرا نفسه. جاء إلى منزلها كبار أصحاب النفوذ في باهيّا، سواء إلى الغداء المشهور، أم لمجرد إلقاء التحية على مغني السيريناتا ومصافحته. زيارات خليقة بجعل الدونا روزيلدا في حالة هيجان، في ذروة الانفعال، لو لم تكن لحسن الحظ، في نازاريت داس فارينياس منهمكة في تحويل حياة كنتها إلى جحيم؛ مع أن هذه الأخيرة كانت حسب رسالة إيتور تنتظر ولادة ابنها البكر.

لم تحتفظ الدونا فلور، بالذكرى الطيبة عن هذا الغداء وحسب، وإنما احتفظت كذلك بقصاصات الأخبار عنه في الصحف. صحافيان من معارف فادينيو هما جيوفاني غيمارايس ذاك، صديق الضحك ورواية الأحاديث الملفقة، والمدعوّ باتيستا وهو زنجي شغوف بالنساء ذو صيت محترم في شقق العازبين، وكلاهما شرهان نهمان على مستوى عالٍ؛ وقد تناولا الحدث في جريدتيهما. فأشار جيوفاني إلى «الوليمة التي لا تضاهى التي أقامها على شرف المغني المشهور السيد فالدوميرو غيمارايس الموظف البلدي الحصيف، وزوجته الموقرة، الدونا فلوريبيديس باييفا غيمارايس والتي جمعت إلى فضائها في الطَّهي أقصى الطيبة وكامل التهذيب». في حين أبدى الزنجي جوان باتيستا تأثّره لكمية الأطباق: «... مأدبة رفيعة المستوى وسخية جداً نكهة لا يشبع منها، قُدِّمت فيها كلّ الأطعمة الرئيسية المقلّية في المطبخ الباهيّاني، إضافة إلى اثنيْ عشر صنفاً من الحلوى ما يُبرهن على روعة فن الطَّهي عندنا والذي تميزت به المرأة الرائعة السيدة فلور غيمارايس، زوجة مسؤولنا فالدوميرو غيمارايس، موظف البلدية وهو من أكفأ الموظفين المخلصين». وكما يبدو لقد شبع الأكولان النهمان تماماً ورضيا تمام الرضا لدرجة أنهما لم يطريا الطعام، ونكهة الدونا فلور فحسب، وإنما رقّيا فادينيو إلى درجة الموظف المُخلص الفعّال اليقظ، وفي ذلك مغالاة واضحة.

لماذا لا تذكر الإشبينات غداء ذلك الأحد؟ كان المنزل حاشداً يغصّ بالناس حتى يكاد المرء يعجز عن التحرّك فيه والموائد ممتلئة بالأطعمة. الدكتور كوكيجو، من المحكمة، موسيقي في ساعات الفراغ، ألقى خطاباً، امتدح فيه فنّ الدونا فلور وذوقها؛ والشاعر إيليو سيمونز وعد بصونيتو مديح لتوابل «سيدة المنزل الرائعة، راعية أعظم تقاليدنا المتفنّنة بزيت النخيل والبهارات». كانت الإشبينات حاضرات، جميعهن، يتهامسن، وكلهن رأين سيلفيو يتناول القيثارة ويفتح صدره البرازيلي

المتيّم. وقد تجمع أناس عند الباب المطل على الشارع يستمعون إليه؛ وعند الساعة الخامسة مساء، كان الكثير من المدعوين والمتطفلين الآخرين لا يزالون يحتسون الجعة والكاشاسا، ويطلبون أغاني جديدة من المغنّي الذي كان يلبي طلبات الجميع.

لكن أفضل من كل شيء، والذي تجاوز المدائح الخطابية والمطبوعة، وما كتب عنها في الصحيفتين من مقالات وقصائد، ما وضعته الدونا فلور فوق غناء سيلفيو كالداسى الذي ملأ بالسلام والانسجام السماء والبحر، كان تصرّف فادينيو. فهو لم يتكفّل بدفع كامل نفقات الغداء (من أين تدبّر كل تلك النقود دفعةً واحدةً؟ فطلاقة لسانه وحدها قادرة على اجتراح هذه المعجزة...) ولم يثمل ذلك النهار، ولم يشرب الخمرة سوى بمقدار معتدل، وأشرف على راحة المدعوين كربّ منزل ممتاز، وحين أمسك المغني بالقيثارة من تلقاء نفسه، يريد أن يعزف ويغني لأنّه في منزل صديقيه، حينما شكرهما على الغداء داعياً الدونا فلور «فلورزينيا، أختي...» اقترب فادينيو وجلس قرب زوجته وتناول يدها. فارتفعت الدموع إلى عينيْها، ذلك كان أكثر من أن تتحمّله.

كيف تعيش من دونه؟ فمن دونه، كيف تجد اللطف والمفاجأة، كيف تعتاد فقده؟ قرأت في العشية خبر وصول المغني المذكور لإحياء موسم قصير في بالاس والتباريس؛ وسيلبي دعوة البلدية ويقيم سيريناتا في كامبو غراندي، متيحاً للجمهور فرصة رؤيته وسماعه والغناء معه. ألم يذهب فادينيو لانتظاره أم أنه لم يعلم بالخبر؟

عندما رجع من الريو قبل بضعة أشهر لم يسكت لسانه عن ترديد اسم سيلفيو كالداس. لم يكن لديه موضوع آخر يتكلّم فيه. لقد وعده بغداء تحضّره الدونا فلور. مستحيل.. شخص مشهور كهذا، يظهر في عناوين الجرائد وعلى غلاف المجلات يأتي إلى باهيّا لمدة أسبوع، لن يكون لديه الوقت الكافي لتلبية دعوات الأثرياء؛ حتى لو أراد، أين سيجد الوقت الكافي لتناول الطّعام في منزل فقير؟ فالصحيفة تقول: «نظّمت شخصيات المجتمع الراقي احتفاءً بحضور الفنان بيننا». كانت مستعدة وسعيدة لبذل كل جهدٍ ممكن لتحضير حفل الغداء، مستعدة حتى لإنفاق مدخراتها الزهيدة، المخبأة في أحد أعمدة السرير الحديدي، لتنفق نقود ميزانية الشهر، وتستدين إذا لزم الأمر، كي تستقبل في منزلها سيلفيو وتتيح له أكل الطعام الباهيّاني الحقيقي. لم تكن تشكّ في وِدّية العلاقات

التي نشأت في الريو. ألم يكن هو المغني الدائم الحضور على طاولات القمار؟ لكن أن يأتي ذلك المشهور إلى منزلها، فذلك أمرٌ بعيد الاحتمال. بالنسبة إلى فادينيو لا توجد مسافات، ولا عقبات مهما كان نوعها، بالنسبة إليه كل شيء يسير قُدُماً، فلا مستحيل مع الحياة. علّقت الدونا فلور باكتئاب على الموضوع أمام الدونا نورما:

– كم هو مجنون فادينيو!... يبتكر ابتكارات، غداء لسيلفيو كالداس، هل فكرتِ بهذا؟

بدورها الدونا نورما تحمست للموضوع:

– وما أدراك أنّه لن يأتي؟ أيتها البنت، ستكتسحين السوق...

لكنها كانت تأمل بأقل من ذلك بكثير:

– لا أطمع بأكثر من الذهاب إلى سيريناتا له... طبعاً، إذا تسنى لي من يصحبني... وإلا، لن أذهب...

– بالنسبة إلى من يصحبك فلا تقلقي، لأنني سأذهب في مطلق الأحوال. إذا لم يرد زيه سامبايو الذهاب معي، فعليه أن يصبر لأنه سيبقى وحيداً في المنزل. سأذهب مع أرثور...

ضمن برنامج التسع عشرة ساعة، أعلنت أخبار الإذاعة عن حفلة المغني الافتتاحية تلك الليلة بالذات، عند منتصف الليل، للعائلات في قاعة فندق بالاس الأنيقة المجاورة لقاعات القمار، ثم عند الساعة الثانية صباحاً في التباريس للبوهيميين ولبنات الهوى. استسلمت الدونا فلور للنوم وهي تدرك أن هناك شيئاً واحداً أكيداً بالنسبة إلى ما يدور حول المغني؛ لن يجديها نفعاً انتظار وصول زوجها تلك الليلة مع سيلفيو كالداس في سلفادور، صارت وكأن لا زوج لها. وعندما سيخرجون من الكباريه عند الفجر، سيتبعهم آخر ظل من ليل باهيّا في غياهب بيلورينيو، على طريق الأبواب السبعة، إلى البحر وإلى مراكب المعدّيات في رامبا ده ميركادو.

نامت وحلمت حلماً غامضاً اختلط فيه ميراندون وسيلفيو كالداس وفادينيو مع شقيقها ايتور وزوجة أخيها والدونا روزيلدا. والجميع في نازاريت داس فارينياس، حيث الدونا فلور تساعد

زوجة أخيها الحامل، المقيّدة بسلسلة إلى خزانة ثياب حَماتها. واجتمعت أخبار الجرائد والإذاعة ورسالة الشقيق في ضوضاء حلمٍ شاذٍ. وثارت الدونا روزيلدا، تريد معرفة سبب حضور سيلفيو كالداس إلى نازاريت، فيجيب أنه جاء ليرافق فادينيو في سيريناتا للدونا فلور، تمتمت أمّها: «كم اشمئزّ من السيريناتا». لكنه يمسك بقيثارتها، وتتفتّح براعم صوتها المخمليّ الذي يوقظ سكان ريكونكافو في ليل باراغواسو. وابتسمت الدونا فلور في حلمها الدّافئ.

يتعالى الصوت في الشارع، فيوقظ الدونا فلور، لكن الحلم يتواصل بشكل عجائبي! والأغنية تقترب، أحلم هو أم واقع؟ لقد نهض الناس وأسرعوا إلى الشّرفات ولفّت الدونا فلور نفسها في ردائها على عجل، وذهبت إلى النافذة.

كانوا هناك: فادينيو وميراندون وإدغار كوكو والسامي كارلينيوس ماسكارينياس، والشاحب جينّير آوغوستو من كباريهات آراكاجو. وبينهم وقف ضامّاً القيثارة إلى صدره، وقد أطلق عنان صوته، سيلفيو يغني للدونا فلور:

«... على نغمة اللحن العاشق في أوتار القيثارة الشجيّة..».

لقد حدثت السيريناتا، واهتاج الحيّ وماج. وحصل غداء يوم الأحد الذي تكلموا عنه حتى في الصحف. ويوم الاثنين، حضر سيلفيو ليعدّ العشاء، جلب معه كل شيء، وارتدى مئزراً، ودخل المطبخ، كان فعلاً يحسن الطَّهي. لم يكن لديه في أيام أخرى وقت كاف، فراح يدخل ويخرج، ومضوا جميعاً لمشاهدة عرض الكابويرا. لكن، من كل ما حدث في ذلك الأسبوع، لا شيء يضاهي الاحتفال الشعبي يوم الثلاثاء، عشية رحيل سيلفيو إلى رسيفي. ففي ليلة مكتملة البدر وقف على المنصة في كامبو غراندي، يغنّي للجمهور، للشعب المحتشد في الساحة.

لم تسأل الدونا فلور فادينيو عمّا إذا كان سيذهب؛ فهو لم يكن ليترك صديقه. أبلغته أنها ستحضر بصحبة الدونا نورما والسيد سامبايو؛ فحتى تاجر الأحذية نفض عنه تعبه الأزلي ليشاهد مغني السيريناتا.

وكم كانت دهشة الدونا فلور رائعة بُعيد العشاء حين نزل من سيارة الغجري، فادينيو وسيلفيو وميراندون، عند باب البيت، جاؤوا يصطحبونها. «وزوجتك؟» سألت ميراندون فأجاب بأنّها ذهبت مع الأولاد قبلهم. فيجب أن تكون الآن في الساحة. وفيما كانت تتزيّن، أعدوا لأنفسهم شراب الليمون.

جلست هي وفادينيو في منصّة الشرف حيث جلس أصحاب النفوذ. لم يأتِ الحاكم لأن الرشح قد ألزمه السرير لكنهم وضعوا مكبراً للصوت على مقربة من القصر بحيث يستمع صاحب السعادة وزوجته إلى الغناء. وجلس على المقاعد معهم محافظ المدينة وزوجته ورئيس الشرطة مع أمه وشقيقاته ومدير دائرة التعليم والثقافة، وآمرو الشرطة العسكرية وفرقة المطافئ، مع أفراد عائلاتهم والدكتور جورجي كالمون وغيرهم من النبلاء. وسط كلّ تلك الأبهة ابتسمت الدونا فلور لفادينيو قائلة:

– كم أتحسّر لأنّ أمي لا ترانا الآن... ما كانت ستصدّق!! أننا سنكون معاً جالسَيْن مع الرسميّين...

ابتسم فادينيو ابتسامته الساخرة، وقال:

– أمكِ عجوز خرقاء، لا تعرف أن لا شيء في الحياة يجدي نفعاً سوى الحب والصداقة. والباقي كله تفاهات وسخافات، لا تستأهل التحسّر عليها..

فجأة تصاعد نغم القيثارة وأُخمد الضجيج المرح في الساحة. آه! صوت سيلفيو كالداس، والقمر والنجوم والنّسيم وأشجار المتنزّه وصمت الناس.. أغمضت الدونا فلور عينيها، وأسندت رأسها إلى كتف زوجها.

كيف تعيش من دونه؟ كيف تجتاز هذه الصحراء، تعبر هذا الغسق، تقف في هذا المستنقع؟ من دونه كل شيء تافه سخيف لا يستحق أن يُعاش.

فكرة وحيدة تسحق الدونا فلور في السرير الحديدي وتخترق أحشاءها فتمزّقها من الداخل. سوف لن تراه أبداً ، يضج بالحركة، فادينيو الذي يخصّها، لن تراه أبداً أبداً. كان اليقين يخترقها ويمزقها، شفرة سامة، تفتح صدرها وتتلف قلبها، تطفئ رغبتها في العيش، وشبابها النهم للبقاء. الدونا فلور منحورة في السرير الحديدي. وحدها الرغبة تبقيها حية وتلحّ عليها الذكرى. لماذا تتوقّعه بلا طائل؟ لماذا تنتصب الرغبة في لهب، نار تحرق رحمها، تبقيها حية؟ إذا كان لا جدوى من الأمر، ولن يعود عشيقاً خالع العذار، ينتزع قميصها الداخلي أو قميص نومها وسروالها المطرّز بالمخرمات، فيكشف عُرْيها الممتقع، مردداً على مسامعها عبارات مجنونة حتى لا تجرؤ على استعادتها في ذكرياتها، مجنونة وغير محتشمة لكنها جميلة.. لن يأتيها فيلمس حضنها، وردفيها وأسفل بطنها؛ يوقظها وينيمها، يعصف بها إعصار الشوق، يجرفها طوفانه الأعمى ثم يداعبها نسيم رقّته، ريح غبية لطيفة من التنهدات والغيبوبة إلى أن تستيقظ مجدداً. أواه، لن يكون ذلك بعد اليوم! وحدها الرغبة تبقيها حيّة والذكرى تلح عليها.

«مثل روح متوجعة في منزل رطب ومظلم، سجينة ضريح». رائحة العفونة تفوح من الجدران، ومن القرميد ومن الأرض، هجر بارد بانتظار العناكب وشباكها. «قبر دُفنت فيه مع ذكرى فادينيو». كانت الدونا فلور غارقةً في السواد، في الحداد من الداخل ومن الخارج، متعفنة. قالت لها الدونا نورما صديقتها:

– هذا غير معقول، يا فلور. غير معقول! مضى شهر وأنت تعيشين كروح حبيسة، متكوّمة داخل بيتك. وبيتك الذي كان رائعاً أصبح الآن ينضح عفونه، ويبدو – ليغفر لي الله – قبراً لا منزلاً، تقوقعت فيه. تَحرّكي ثانية، ضعي حداً لذلك، خفِّفي من هذا الحداد...

كانت التلميذات محتارات في ذلك الجوّ، وكانت الضحكات والنكات تجلجل فارغة زائفة. كيف يمكنها الاحتفاظ بحميمية الدروس اليومية ، والشعور العذب بمرور الوقت، السبب الأساسي لنجاح «مدرسة الطَّهي مذاق وفن»، إذا كانت المدرّسة تضحك غصباً عنها؟ ففي الماضي البعيد، حيث كانت المليونيرة الدونا ماغا باترنوسترو لا تزال تلميذة، كانت تطالب عند ولوجها عتبة باب الطابق الأول في آلفو، بأنشودة:

«حيّوا المدرسة الضاحكة الصريحة ومدرّستها الفتيّة المهزارة...»

ازداد الطّلب، منذ ذلك الوقت على الانتساب إلى المدرسة، لأن كل سيدة كانت تروّج لها تلقائياً، موصية صديقاتها: «إنّها رائعة، لا يضاهيها أحدٌ في الطَّهي، وتحسن التعليم وإنها فاتنة. كم تتسلى التلميذات، تمر الساعتان في الضحك، والنكات، والنّوَادر. لا شيء أفضل من مدرستها لتمضية الوقت»، وقد اضطرّت مراراً لردّ طلب البعض لكثافة الإقبال على المرحلتَيْن. ومع ذلك، فقد انسحبت الآن ثلاث فتيات من المجموعة، بل هناك إشاعة عن إقفال المدرسة قريباً. أين تلك «المدرّسة الشابة المهزارة؟» أين «ساعتا النكات والنّوادر؟». فخلال الدرس عندما تضحك الفتيات فجأة كانت الدونا فلور تبدو وكأنها غير موجودة، تائهة العينين قلقة الوجه. من ذا الذي يحب أن يحمل الحزن على الميت مع أهله، أياماً وأياماً يدور مع الميت في فلك واحد، وكأن لا مكان يدفن فيه!

جاءت إشبينتها ديونيزيا ده أوشوصي لزيارتها ومعها طفلها بالعمادة. كانت ترتدي ملابس سوداء دكناء كما تقتضي أصول اللياقة، لكنها كانت تبتسم، فقد مضى شهر تقريباً، وتلك هي زيارتها الثالثة لها. عبّرت عن قلقها لمسحة الحزن على وجه الدونا فلور، فمثل هذا الاكتئاب أمرٌ سيئ .

– ادفني ميّتك نهائياً أيتها الإشبينة... وإلا ستفوح رائحته ويستهلك كل شيء هنا حتى حضرتكِ...

– لست أدري ماذا أفعل. لا أرتاح إلا عندما أتذكره...

– إذن، اجمعي كل ما يذكّرك به، اجمعي أشياءه وادفنيها في قرارة قلبكِ. اجمعي كل شيء، الحسن والسيئ، وادفني متاعه وبعدها استرخي ونامي مطمئنة...

أما مستشارتها الدونا جيزا، المتأبطة كتباً، فبدَتْ منتعشة في فستان صيفي رقيق يكشف نمشها وعافيَتها فوبّختْها قائلة:

– ما هذا؟ إلامَ سيستمر هذا العرض؟

– ماذا أفعل؟ لا أفعل ذلك بملء إرادتي...

– أين قوة إرادتكِ؟ قولي لنفسكِ: غداً أبدأ حياة جديدة، أغلقي الباب على الماضي، وعودي إلى الحياة...

ورددت جوقة الإشبينات فيما يشبه النشيد الكنائسي.

– الآن، من دون الطاعون، الذي كان زوجها... تستطيع هي أن تعيش سعيدة... يجب أن تحمد الله.

دوم كليمينتي نيغرا في فناء الدير فوق البحر الشاسع بلون الزيت الأخضر المُزْرق، لمس وجهها الحزين، متأملاً هزالها وإحباطها وحدادها الصارم . جاءت الدونا فلور تطلب إقامة قداس الثلاثين على نية زوجها.

:

– يا ابنتي، همس الراهب، ما هذا اليأس؟ فادينيو كان مرحاً جداً، يحب الضحك كثيراً... كان دائماً يجعلني أفكر أن أعظم إثم مميت نرتكبه هو الحزن، لأنه وحده الذي يهين الحياة. ماذا كان سيقول لو رآك هكذا؟ لم يكن يحبّ ذلك، لم يكن ليحب قطّ أن تكوني حزينة. إذا أردتِ أن تكوني وفيّة لذكرى فادينيو، واجهي الحياة بالفرح...

وعلا صوت النادبات المأجورات في الحي:

– صح، الآن بوسعها أن تفرح لأن الشيطان قد ذهب إلى الجحيم.

راح الأشخاص يتحركون أمامها في الغرفة كمن يؤدون رقصة مشتركة: الدونا روزيلدا والدونا دينورا والطوباويات مع أشياء الكنيسة المقدسة والدونا نورما والدونا جيزا ودوم كليمينتي فيما تقول ديونيزيا ده أشوصي المبتسمة مع ابنها:

– ادفني متاع المذكور في قلبكِ، يا إشبينتي، ثم استلقي ونامي مطمئنة.

لكن جسدها لم يكن يقبل بل يطالب به. كانت تفكر، وتصغي إلى صديقاتها فتجد أن الحقّ معهنّ: يجب أن تضع حداً لهذا الموت المتكرر يومياً مراراً. ومع ذلك لا يطاوعها جسدها، بل يلحّ عليها بمتطلّباته الميؤوس منها. وحدها الذكرى تعيده إليها وتحضره أمامها. فادينيو بشاربه الوقح، ابتسامته المستهزئة، بسلاطة لسانه، بكلماته البشعة والجميلة معاً، بغابة الشعر على صدره وندب السكين في كتفه. كم تودّ لو ترحل معه ممسكة بذراعه، مثارة بمساوئه، وكم كانت كثيرة! تئن بدون حياء، وتغيب وهي على جسده. لكن، آه! عليها أن تتحرّك أن تعيش، أن تفتح منزلها وشفتيها، فتُدخل الهواء إلى الغرف وإلى قلبها، تأخذ حاجات فادينيو، وتدفنها عميقاً. من يدري؟ ربما تروي بذلك غليل رغبتها. كانت تسمع دائماً أن الأرملة يجب أن تكون بلا شهوة لا تفكر هذا التفكير الآثِم، يجب أن تكون بليدة الأحاسيس زهرة يابسة بلا عطر. فشهوة المرأة الأرملة تذهب إلى القبر مع تابوت المتوفى، وتدفن معه. وحدها المرأة البذيئة جداً، التي لا تحب زوجها، قد تفكر في هذه الأمور قليلة الحياء، يا لبشاعة ذلك!. لماذا لم يأخذ فادينيو معه الحمى التي تحرقها، اليأس الذي يخدّر ثدييها ويوجع أحشاءها الجائعة؟ آن أوان دفن الميت من جديد، ميتها ومع متاعه بأكمله؛ بتصرفاته السيئة، وشروره وسفالاته ومرحه ولطفه، واندفاعه السخيّ، وكل ما زرعه في وداعة الدونا فلور، من شعلات تضطرم بألم الشوق بجنون حبها، بذكاء شهوتها. أواه! شهوة دنسة، شهوة أرملة قليلة الحياء!

لكن قبل ذلك، ستستحضره لمرّة واحدة، مرّة أخيرة. تواجهه وترحل معه، حبيسة ذراعيْه. سترحل بأناقة امرأة ثرية، كما عندما كانت عزباء، حينما كانت تحضر مع روزاليا، في حفلات البورجوازيين الأثرياء، وكانتا الأكثر أناقة بين الحاضرات متفوّقتين على الأخريات رغم فقرهما.

آه! ليلة تجمع كل ما هو جميل ومريع ومفاجئ، تجمع بين الخوف والهياج، بين الانكسار والانتصار! تجمع الانفعال في قاعة الرقص وقاعة القمار، والأعصاب مشدودة، والقلب في احتفال، يا لها من ليلة هائلة!

لتكن المرّة الأخيرة معه على مهل، خطوة خطوة، تمهّد الطريق المستحيل لتلك الليلة الليلاء، كيف خرجوا من المنزل، هما والدونا جيزا ثم تناول العشاء، فالتانغو، والاستعراض والخلاسيات يدرن حول أنفسهن والزنجيات يغنين..، الروليت، والبكارا، المواجهة والرقّة ثم العودة في سيارة الأجرة التي يملكها الغجري كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي، ولا يصبر فادينيو بل يأخذ شفتيها بين شفتيه هناك، على مرأى من الدونا جيزا المبتسمة. وحالما يدخلا غرفة نومهما ينزع عنها فستانها بإلحاح ويمزقه:

– لست أدري ما بكِ اليوم، يا حبيبتي، أنتِ أرملة ولا كلّ النساء!، وأنا مجنونُكِ. هيّا، بسرعة... سأريك كيف تكون اللذة، سأمتعك كما لم تتمتعي من قبل. واليوم يومنا، فاستعدي. لقد أعطيتكِ ما طلبتِه، والآن ستسددين لي..

ساقطة ترتعش على السرير الحديدي. هذه الليلة تحول المزاج السيئ إلى عسل، ومجدداً انفتح الألم عن أسمى مسرّة. لم تكن يوماً بغلة هائجة يمتطيها الحصان الفحل الناري كما كانت يومها، كلبة شهوانية في طور الغلمة ممتَلَكة، عبدة خاضعة لتدميره، أنثى تجوب جميع دروب الرغبة، خمائل الزهور والملذات، غابات ظليلة ورطبة ومسالك محرّمة، حتى المساحات المغلقة النهائية. ليلة التسلل عبر الأبواب الموصدة الضيقة جداً، ليلة استسلمت فيها آخر قلاع عفتها، أواه! «المجد لله، هللويا!». حين يتحول المزاج السيئ إلى عسل والألم كان هو النادر، الغسق، المتعة الإلهية، ليلة فيها تعطي وتستقبل.

حدث ذلك يوم عيد ميلاد الدونا فلور ولما يمرّ عليه وقت طويل، فقد حدث في كانون الأول/ ديسمبر على مقربة من ناتال.

21

بين قوسين مع الزنجي آريغوف

والجميل زيكيتو ميرابو

استيقظ فادينيو متأخراً بعد الحادية عشرة. كان قد وصل إلى منزله عند ساعات الصباح الأولى، وقد أكثر من شرب الكاشاسا. وعندما كان يحلق ذقنه، انتبه إلى الصمت غير المألوف، إلى غياب تلميذات المجموعة الصباحية. لماذا لا يوجد تعليم في النهار؟ كانت إحدى التلميذات، وهي خلاسية فتيَّة ذهبية الشعر، هيفاء نحيلة، تنظر إليه بعينيها الآسرتين، وتكلّمه بغنج. فصمم فادينيو على أن يأخذها في نزهة حالما يتسنى له ساعة يكون فيها حراً مستعداً ليعلّمها الحياة الوحشية الجميلة في الشواطئ المقفرة مع مذاق رائحة البحر. إن صاحبة الجسم الممشوق الرقيق، تلك المحتالة ليدا، كانت في قاعة الدرس تنتظر دورها بلطف وريبة. وكان فادينيو في تلك الفترة يلبي إلحاحات أحاسيس زيلدا كاتوندا الجنسية، وهي إحدى ثلاث شقيقات من آل كاتوندا وأشدّهن تلاعباً، شاعراً أيضاً بضرورة وضع حد لقصة الغرام هذه؛ استرسلت الفاتنة في تطلباتها، وباتت تحاول أن تتحكّم فيه، تراقب خطواته بهوس الغيرة حتى من الدونا فلور.

إذا لم يكن هذا اليوم مقدساً أو يوم عطلة، فلماذا ليس هناك تعليم؟ وعند خروجه من الحمام، جابهه جو احتفاليّ: الدونا نورما تساعد في المطبخ والخالة ليتا تنظف الأثاث وتاليس بورتو مسترخٍ على الكنبة مع بعض الصحف وكأس من الشراب الروحي. لاح في الأفق جو غداء احتفالي، فلم هذا الاحتفال من دون سبب ظاهر؟

غداء مترف، والبيت يعجّ بالأصدقاء، حفلة يوم أحد، إنها من مسرّات فادينيو. لو لم تكن نقوده زهيدة في معظم الأحيان لكرر التهام ذيل الخنزير أو العجل والساراباتيل، أوراق المنديوكا والفاتابان. وعندما تهبّ عليه رياح الحظ يضع في برنامجه طبق فيجوادا، لحماً مقدداً مع ثريد

الدقيق والمانديوكا بالحليب، مرق الكونكين الأدكن، ناهيك عن الكارورو الكلاسيكي لكوزمي وداميان، في أيلول/ سبتمبر، والكانجيكا والجينيبابو من سان جوان. لكن ها هي الأطعمة هذه تظهر من دون سابق إنذار أو طلب، فأي حفلة شيطانية هي؟ أجابته الدونا نورما مُوَبّخة:

– «ألديك الشجاعة لتسأل يا فادينيو؟ ألا تذكر أن اليوم هو عيد ميلاد زوجتك؟».

– عيد ميلاد فلور؟ في أي يوم نحن؟ التاسع عشر من كانون الأول/ دسيمبر؟

– ألا تخجل من نفسك؟... قل! ماذا اشتريت لها، أي هدية ستعطيها لهذه القديسة؟..

لا شيء، يا دونا نورما، لم يشتر لها شيئاً. إنه يستحق تعنيفك، وتقريعه على إهماله، لكن هل كان رجلاً يتذكر أعياد الميلاد، ويختار الهدايا من المتاجر؟ يا للأسف! أضاع فرصة ذهبية ليفعل شيئاً جميلاً بإحضاره هدية جميلة. كانت الدونا فلور ستُجَنُّ من الفرح كما حدث في عيد ميلاد سابق حين استبقه هو وسلّم نقوداً وفيرة للدونا نورما، وكلّفها ابتياع «تذكار رائع، ولا تنسي قارورة عطر نفاذ الأريج من رويال بريار، الذي تحبُّه كثيراً».

من المؤسف أنه لم يفكر بذلك وهو يدخل فترة حظ غير عاديّ، كاسباً بوفرة منذ أربعة أو خمسة أيام. لا في الروليت فقط، وإنما في البكارا، في الزهر، وأيضاً في قمار البيشو؟ بادئاً أسبوعه بالحصول على الألوف على مدى يومين متتاليين.

كان مكتنزاً بالمال لدرجة تسديد سند كان يهدد بإفلاس شخص توسل إليه، فأنقذ رصيده واسمه وهو ليس حتى صديقه بل مجرد زميل عادي في الحانة أو الكباريه. والحقيقة أنه، في التباريس في إحدى جرعات الكاشاسا تلك، قبل بحماسة كبيرة، فكرة ضمانة سند وقّعه فادينيو ومهلته ثلاثون يوماً.

بعد أكثر من شهر، استُدعي فادينيو إلى مكتب مدير المصرف حيث حسم السند؛ فسارع إلى تلبية الدعوة لأنه كان يلتزم سياسة مرنة وعلاقات طيبة مع مدراء المؤسسات المصرفية التي كان يعتمد عليها ونوّابهم.

قال جورجي تاركينيو، الجلاد: «يا سيد فادينيو: لديّ هنا سند مستحَقٌ عليك».

– عليّ أنا؟ لست مديناً لأحد. دعني أراه...

– انظر وادفع... – وعرض عليه السند.

عرف فادينيو توقيعه وتوقيع الضّامن:

– لكن يا سيد تاركينيو، إذا كان للسند ضامن، فلماذا تدسّ الذعر في نفسي لتقول لي إنني مَدين... لا يتطلب الأمر سوى الذهاب إلى رايموندو ريس وقبضه، فالرجل وافر الثراء، لديه مزرعة مواشٍ ومصنع للسكر، ومنصة مرافقة كأي محام له حقّ مكتسب من دون أن يكون حائزاً شهادة محاماة، ويسافر إلى أوروبا كل سنة... وهو الذي يتوجب عليك استدعاؤه...

– من الطبيعي أننا ذهبنا إليه أولاً، فهو الضَّامن... لكنه قال إنه لن يدفع أبداً. رفض ذلك...

استبدت الدهشة بفادينيو للفضيحة، لهذه الوقاحة.

– قال إنه لن يدفع؟ رفض؟ أنظر يا سيد تاركينيو كل شيء متوافر له.. كم هو دنيء قليل الحياء!... يبقى في الكباريه، وهو يتجشأ ثراءً، إذ لديه فراسخ من الأرض، وأكثر منها قطعان من الماشية والسكر، وكل ما يريده يحصل عليه، حتى أنه التهم ثلاث نساء دفعة واحدة في باريس، مليونير! إنه مليونير! من هنا نثق به فنقع في خديعة محتال، فيقبل الضمانة كأيّ شخص مستقيم. والنتيجة: يستحقّ السند ولا يسدّده، فيهتز رصيدي من الثقة! وأنت، أيها السيد، تستدعيني.

– لكنّ يا فادينيو، أنت في النهاية من استدان النقود...

– من فضلك يا سيد تاركينيو، حباً بالله!... إذا كان هذا المُختلِس لا يستطيع ضمان أحد، فلِمَ تطوّع وعرض نفسه؟ في النهاية ألم يتحمّل المسؤولية، ألم يلتزم بدفع الدين إذا لم أدفعه؟ لقد فعل، وكنت مطمئناً مرتاحاً... والآن يحدث هذا... هذا ليس عدْلاً... إن مثل هؤلاء النّاس هم الذين

يسيئون إلى وضع البعض مع المصارف.. فحين يضمن شخص معيّن سنداً، فذلك يعني أنه مستعدٌ للدفع، يا سيد تاركينيو. رايموندو ريس هذا يجب أن يكون في السجن؛ المخادع! العاطل!!

أعتقد السيد تاركينيو أنّ كل ذلك السخط الذي لا طائل منه يهدف إلى تطويقه، لتجديد السند، الذي استحق. وكم كانت دهشته حين دسّ فادينيو يده في جيبه وسحب منها النقود. شيء لا يُصدّق.

– ها أنت ترى، يا سيد تاركينيو، الخسارة التي يسببها لي هذا النوع من الناس؟ هذه هي نتيجة التّعامل مع هؤلاء التجار... وأنا الذي كنت دائماً أختار ضامني أدقّ اختيار... رايموندو ريس؟ من كان يقول!... لنرَ ونتعلم...

لم يشعر بالاختلاس، فمدّ الحظ مستمرٌّ دون انقطاع، والمال يدخل في الدائرة فيشات ملوّنة، ويخرج قطعاً نقدية ورقية ومعدنية، أسبوع مآدب كثر فيها الشراب، لها صخب الاحتفال.

وبلغ الحظ أقصى مداه، ذروة سعده، عشية اليوم السابق، فقد حلم فادينيو بالسيد زيه سامبايو، ولم يكلف نفسه عناء الاستعانة بكتاب التنبؤ في اللعب، فما الفائدة؟ لا شك في أنه الدّب! وهكذا كان: اندفع الدّب بعنف في خانة المئات، في خانة الدزينات وفي المجموعة وتضاعفت أرباحه بعد ذلك في التباريس، في لعبة الكلب السلوقي الفرنسي، وفي البكارا، كانت ليلة سوداء بالنسبة إلى مسؤولي طاولات القمار، فقد اجتاز فادينيو المرحلة رابحاً مرة بعد أخرى، وإن لم يكن ربحه فاحشاً؛ في حين تمكن الزنجي آريغوف، المسكون بالشيطان في ذلك الفجر، أن يكسب على ستة وتسعين كونتو في أقل من عشر دقائق، في الروليت.

دخل في آخر الليل في اللحظة التي كان مدير اللعبة يعلن انطلاق الكرة الأخيرة. لقد قدم من وكر «الدوقات الثلاث»، وذيله بين ساقيه مخذولاً، والتهمت الدورة آخر قطعة نقود في جيبه. لقد مرّ في أباشادينيو وفي مصيدة كاردوزو بيريبا، حتى ألقى مرساته هناك، في التباريس، آخر مرفأ في إبحاره الكئيب.

كان التباريس نوعاً من الأماكن في العالم، نصف كازينو، نصف كباريه، يشغله ملتزمو فندق بالاس أنفسهم. وفيه يقدّم العروض، الفنانون المعروفون المتعاقدون للعمل في بالاس، وفئة من الدرجة الثانية حيث يقدم كل شيء، من الطاعنات في السن المتحطمات في نهاية مهنتهنّ، إلى الفتيات الصغيرات البالغات لتوّهن، واللواتي يحميهن، الواحدة والأخرى، السيد تيتو المدير مطلق الصلاحية. كان يشفق على النساء العجائز، فلا مأساة تضاهي مأساة ممثلة طاعنة في السن بدون عقد. أما الفتيات فقد كان يجرّبهن ويعلِّمهن في مكتبه القذر؛ فإذا وجدهنّ لا يصلحن للعمل، جعلهنّ يعملن كبغايا فقط. ومع انصرام الليل يبدأ التباريس باستقبال مرتادي بالاس وهم عموماً أثرياء وأصحاب مراكز رفيعة، ورعاع علب الليل الأخرى، من آباشادينيو، وهي مجرد حانة تصرّ على أنها كازينو، إلى وكر باراناغوا فينتورا. إلى هناك كانوا يأتون جميعاً لإنهاء ليلتهم وخوض آخر تجربة متشبثين بالأمل الأخير.

دخل آريغوف ولاحظ أن فادينيو في قمة حظّه، محاطاً بحلقة من الفضوليين يستحسنون أسلوبه الراقي في لعب البكارا، وميراندون إلى يساره، يأخذ منه بين الحين والآخر فيشة، وعدد من السيدات إلى يمينه، وبينهن الشقيقات كاتوندا. «أسرع، مرِّر لي فيشاً، يا أخي الصغير، أسرع فسيقفل باب المراهنة»، طلب آريغوف في همس مؤثر. فادينيو المأخوذ بورق اللعب، وضع يده في جيبه وسحب فيشاً، من دون أن يتأكّد من قيمته. كان من فئة صغيرة، خمسة آلاف ريس، ولم يكن الزنجي يريد أكثر من ذلك. أسرع إلى الروليت، وأودع العطية الرقم 26 وعليه توقفت الكرة الصغيرة كالميتة؛ وكرر الرقم مرتين. وبعد عشر دقائق انتهى اللعب، وحصل آريغوف على ستة وتسعين كونتو، وفادينيو على اثنيْ عشر، ناهيك عن الكونتو والثلاثمائة في جيب ميراندون.

وحدث في تلك الليلة الرائعة أن الزنجي آريغوف، المعروف بأناقته الإنكليزية وتصرفاته كغراندوق، أوصى ودفع مقدماً ثمن قماش وتفصيل لست بذلات من الكتان الإنكليزي الأبيض. كان مديناً منذ زمن بعيد بستين ألف ريس لآريستيديس، وهو خياط مجنون بطاولات الروليت وحذر جداً في اللعب. ولم تتح له المسكنة أكثر من مرحلة أو مرحلتين من اللعب في الليلة، وهي مراحل متواضعة، وكان يدور على الطاولات مترنحاً مع رهانات الآخرين، مقترحاً تخمينات، متضرعاً في تعليقات حيال الحظ والنحس.

كان الخياط يصلّي منذ وقت طويل من أعماق قلبه للحصول على البقية الباقية من حسابه. وأمام المنظر الاستعراضي للزبون المتطلّب النصّاب، فقد هدوءه وأخلاقيته، ونبش الدين القديم وقام بالتحصيل هناك بالذات، على مرأى من رفاقه في اللعب والبغايا. إهانة! ولم ينفعل الزنجي.

– ستون ألف ريس؟ عن تلك الملابس... قل لي، أيها الولد، كم تتقاضى اليوم لبذلة من الكتان الأبيض؟

– كتان عادي؟

– إنكليزي، س 120، قشرة البيضة. من أفضل ما هو موجود في السوق.

– حوالى الثلاثمائة ألف ريس...

دس آريغوف يده في جيبه، وأخرج مبالغ من فئة الخمسمائة:

– حسناً إليك كونتوان.. جهِّز لي ست بذلات جديدة. أحسم ستين ألف ريس خاصتك وابق البقية لك إكرامية لمكابدتك مشقة المجيء لتحصيل حساب من زبون على طاولة القمار...

قذف المال في وجه الخياط، ثم أدار له ظهره، فيما أخذ هذا الأخير يجمع، مخبولاً، أوراق النقد من على الأرض، بين نظرات استهزاء النسوة به.

كان أريغوف هذا نبيلاً، في ملابسه وفي سلوكه، وكنبيل طيّب لم يكن يفعل شيئاً آخر في الحياة غير لعب القمار؛ فقير مثل جو، حالك السواد ماهر في المبارزة بالسكاكين، منع من دخول فندق بالاس بعد حادثة معيّنة وارتكاب جرم لا يغتفَر، حين ضحك أحد المدللين اللطفاء وهو صاحب نزعة عنصرية، عند رؤية الزنجي آريغوف وقد ارتدى ملابسه البيضاء، فقال لحلقته: «انظروا إلى هذا القرد الهارب من السيرك». تحوّلت الغرفة إلى أشلاء وما زال المختال الوقح حتى اليوم يحمل زهرة متفتحة على وجهه من أثر ضربة السكين.

كان نجاح الصديقين في القمار الدافع إلى الاحتفال بمأدبة عشاء ترأسها شيمبو المعروف. وتألفت المائدة من ميراندون وروباتو وآناكريون وبيه ده جيغي، والمهندس المعماريّ لينغو ده براتا والصحافيين كورفيلو وجوان باتيستا إضافة إلى خريج كلية الحقوق تيبورسيو باريروس، وطبعاً المضيفين وباقة محترمة من النسوة الجانحات، أو لنقل من الفنانات إرضاءً للشقيقات كاتوندا، غيورات من فن وانتقاء المجتمع المخملي المجتمع في شقة البدينة كارلا. فالشقيقات كاتوندا، «فنانات متعددات المواهب»، حسب ما كتب في ال– «امبارسيال» الصحفي الرديء باتيستا، كن ثلاث فتيات من أمّ واحدة، جاسنتا أبانيا – باغو وآباء مختلفين. كُبراهن تكاد تكون زنجية وصغراهن بيضاء تقريباً، والوسطى خلاسية صغيرة خارقة الجمال والأمر المشترك بينهن هو الجَدّة الواحدة وانعدام التوافق. ضعيفات أمام الإكراميّة، لكن رائعات في الفراش، حيث تبرز بالذات مواهبهنّ المتعدّدة الخصائص، حسب تعبير جوان باتيستا ذاته، فقد راح ينفق بعض نُحاسات راتبه في الجريدة على الشقيقات الجسورات؛ الواحدة تلو الأخرى، وما زال محتاراً أيهن صاحبة أكبر خبرة وأكثر موهبة من اختيْها. أما الوسطى زيلدا، فقد كانت ضعيفة أمام فادينيو.

أراد ليف لينغوا ده براتا والمحامي أن يُحضرا شقيقتا هونولولو لتضفيا المزيد من التألق على المأدبة، لكن من دون نتيجة. فهاتان الشقيقتان لم تكونا أختين فعلاً، لا من جهة الأم ولا من جهة الأب، بل ليستا من هونولولو: كانتا، زنجيتين أميركيتين شماليتين، سوداوتين لكنهما تتمتّعان بجسمين لدنيْن جميليْن. وهما جو، الغزال الهش الرقيق، ومو، النمر الأرقط ذو العضلات. المشترك بينهما علاوةً على رفضهما الذهاب إلى السرير مع أي كان هو جمال الصوت وغرابة التصرف. فلا تقبلان دعوات للنزهات أو للعشاء أو السيريناتا، أو الاستحمام في البحر في إيتابووا ولا في ضوء القمر في لاغووا دو آبايتيه، حتى أنهما لا تقبلان مجالسة الزبائن حتى ولو كان المصرفي فيرناندو غوز نفسه، العازب ذو القوام الممشوق والأنيق، والانيق الثري الذي ترتمي النساء تحت قدميه. حتى هو عجز عن الحصول عليهما، ومع ذلك ما زال يأتي إلى بالاس ليراهما ويفتح لهما الشامبانيا الفرنسية. وكانت جو ومو تغنيان أغاني روحية مع موسيقى الجاز، ترقصان، بأثداء وأرداف عارية. لكنهما ظلّتا معاً منعزلتيْن، تدخلان المكان شبه متسلّلتيْن وتجلسان إلى طاولة رصينة في أحد

الأركان، وهما تشربان من الكأس نفسها. وبعد أن تقدما عرضهما تصعدان إلى غرفتهما، من دون أن تتكلّما مع أحد.

كانت مأدبة العشاء فاخرة مع النبيذ والشامبانيا والشقيقات كاتوندا في أقصى عطائهن الفني. عمّ الانبساط والانشراح باستثناء الخريج الشاب باريروس الذي بقي منزعجاً من رفض الأميركيتين، «المسترجلتيْن بل المنحطتيْن»، يحتسي الخمرة بغضب، غير مبال بالبدينة كارلا التي راحت تقدم له العزاء والشعر. وعندما حان وقت دفع الحساب كاد آريغوف أن يتشاجر مع فادينيو، ورفض أن يعطيه الحق بالمساهمة، ولو بقسط رمزي في دفع قيمة الفاتورة. وأعلن الزنجي أن أي اقتراح بمساهمة مالية هو إهانة خطيرة لشرفه.

جاء عيد ميلاد الدونا فلور في أسبوع البذخ والثروة؛ ففادينيو محشوّ جيداً بالمال. حتى أنه عرض عليها دفع مبالغ معيّنة مساهمة في نفقات المنزل، ووفى بوعده، وهو حدث سعيد نادر. وألحّت الدونا نورما بوقاحة في أن تعرف:

– ماذا ستقدم لامرأتك؟

ابتسم فادينيو للجارة، مبادلاً وقاحتها بمثلها:

– ما الذي سأعطيه لفلور؟ حسناً سأعطيها ما تطلبه مني، مهما يكن... كل ما تريده...

ذهبت الدونا نورما لتأتي بالمحتفلة بعيد ميلادها: «يا ابنتي، اختاري ما تشائين». فجاءت الدونا فلور من المطبخ وهي تمسح يديها بالمئزر:

– حقيقةً يا فادينيو أنك ستعطيني ما أريده؟ تسخر مني؟

– بوسعكِ أن تقولي...

– ألن تخلف بوعدك؟ هل أستطيع أن أطلب؟

– تعرفين أنني أفي بوعدي يا حبيبتي...

– حسناً، الهدية التي أريدها هي الذهاب إلى بالاس لتناول العشاء معك هناك.

قالت ذلك وهي ترتعش، فلم يقبل يوماً أن تختلط بعالمه ذاك، ومن بين كل رفاقه في القمار كانت لها علاقة صداقة بميراندون وحده، إشبينها، الوحيد الذي كان يتردد إلى منزلها مراراً. والبعض كانت تعرفهم بالرواية من بعيد مرةً بعد مرة، أما من تبقى فقد سمعت بأسمائهم وبأخبارهم غير السارة. حتى آناكريون، الذي يقدّره فادينيو جداً، لم يأتِ إلا خمس أو ست مرات في تلك السنوات السبع؛ أمّا آريغوف فلم يأتِ إلا ليتمتع بغداء يوم الأحد. كان عالم الدونا فلور هو الحي وتلميذاتها الحاليّات والسابقات امتداداً إلى ريو فيرميليو، إلى لاديرا دو آلفو، إلى بروتاس؛ كانت علاقاتها مع الناس الطيبين ولا يفترض بها أن ترى حياة زوجها الشاذة. لأن هذا الأخير لم يكن يرضى أن توجد الدونا فلور في مناطق القمار المريبة تلك، في الأمكنة الخاصة بالروليت والزهر؛ فالزوجة هي للمنزل، فأي شيطان يحملها إلى أوساط من هذا النّوع؟

ولم ينفعها الاحتجاج بأنّ فندق بالاس هو مركز أنيق ملتقى للمجتمع الراقي حيث يتناولون العشاء في قاعته الفخمة، ويرقصون على إيقاع أفضل أوركسترا في الولاية، ويشاهدون عرض نجوم الإذاعة والمسرح المستقدمين من الريو وسان باولو، وفيه سيدات أحياء غراسا وبارّا يعرضن آخر صرخات الموضة بل يتطوّر بعضهن في وقاحة التصرف إلى المخاطرة بالفيش في الروليت. كانت قاعة القمار تكملةً لقاعة الرقص ممراً فسيحاً ذا سقف من القناطر لا حدود له.

لماذا الرفض العنيد؟ لماذا يا فادينيو؟ تمضي الدونا فلور في توسلها ملحّة، متطورة من التّضرع إلى الاتهام:

– إنك لا تأخذني لكي لا أكتشف عشيقاتك...

– لا أريد أن أراكِ في تلك الأمكنة...

ألم تذهب الدونا نورما إلى بالاس مراراً، مع السيد سامبايو، طلباً للهو والتسلية؟ والعائلة الأرجنتينية صاحبة معمل السيراميك، هذه لا تتخلّف سبتاً واحداً عن الذهاب، بالرغم من عداء

بيرنابو لأيّ نوع من أنواع القمار. كانوا يذهبون فيأكلون ويرقصون ويصفقون للفنانين. لكن فادينيو لم يقتنع، بل تهرّب بوعدٍ مبهم واضعاً حداً للنّقاش:

– لن نعدم مناسبة للذهاب...

والآن، ها هي أخيراً المناسبة المخيفة، لم تصدّق الدونا فلور أذنيْها عندما وافق وقد فوجئ ولم يجد مهرباً، رغم معارضته الضمنية:

– إذا كان هذا ما ترغبينه فليكن... إن لم يحدث اليوم، يحدث غداً...

وبعد أن اتخذ القرار بدأ يوسع دائرة مشروعه داعياً الخالة والعم والدونا نورما – وعبرها زيه سامبايو – والدونا جيزا. شكرته الدونا ليتا رافضة، ليس لأنها لا تريد، لكن من أين الثياب المناسبة للسهرة، وأدوات الزينة، على مستوى بالاس؟ كما رفضت الدونا نورما، رغم أن الرغبة في الذهاب كانت تقتلها، فليلة في بالاس كانت غاياتها لكن... كان موقف السيد سامبايو صلباً: الدونا فلور جارة عزيزة يكن لها تقديراً كبيراً ويحسّ بالتعاطف مع فادينيو نفسه. فشكرهما على الدعوة، لكنّه اعتذر عن القبول. فهو يخلد إلى النّوم خلال الأسبوع، عند التاسعة ليلاً لينهض الساعة السادسة صباحاً للعمل في محله المخصص لبيع الأحذية. لو كانت الحفلة المسائية يوم السبت أو عشية الأحد، لكان قد وافق بكل سرور. أما ذهاب الدونا نورما إلى بالاس من دون أن يرافقها كما اقترحت الدونا فلور، فاسمحوا لي أن أقول إنه أمر مستحيل، لا مجال للتفكير فيه. فالتردد إلى مثل تلك الأوساط حيث القمار والمشروبات، كانت تتميز باختلاط الفاضل بالسيئ في تشوش يضم معتوهين ومتحللين لم يكن لديهم أدنى مفهوم للاحترام الضروري للعائلات.

ففي إحدى المرّات النادرة التي وجد نفسه فيها هناك بعد أن جرَّته الدونا نورما، رغبةً منها في سماع مغن فرنسي (لم يشاهد السيد سامبايو هجيناً مخنثاً مثله، والغريب في الأمر أنّ النساء كنّ يعشقنه)، حصل حادث مزعج. فمجرّد أن ترك السيد سامبايو الطاولة هنيهةً مضطراً للذهاب إلى المرحاض، ظهر توّاً من تجرّأ وحاول مغازلة الدونا نورما بدعوتها إلى حلبة الرقص، وهو يطري زينتها والهالتين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد حول عينيها، كما لو كانت أي امرأة تافهة. كاد

السيد سامبايو أن يضرب السّافل لولا أنّه كان يعرف عائلته، فأمه الدونا بيلينيا، وشقيقتاه لهما مكانة رفيعة، وجميعهنّ زبونات ممتازات لمحله، كما أن الشرير نفسه معتاد القمار والبوهيمية وهو زيكيتو ميرابو، المعروف بين البغايا «ميرابو الجميل».

هكذا اقتصرت الرّفقة على البروفيسورة جيزا، التي أسعدتها الدعوة لأنها تتيح لها فرصة الاستماع إلى THE HONOLULU'S SISTERS كما تمنحها فرصة الاستكشاف بعينها السوسيولوجية والتحليل النفسي للعالم الغامض: عالم الإدمان على القمار، فتنشئ له علم ما وراء الطبيعة القطعي.

أمضت الدونا فلور بقية نهارها منهمكة باختيار أي فستان سترتدي، واختيار القفازين والقبعة والحذاء والحقيبة في تلك الليلة، في قاعات بالاس بمساعدة الدونا نورما والدونا جيزا. يجب أن تكون أجمل النساء طرّاً وأكثرهنّ أناقة، فلا تضاهيها أي امرأة أخرى ولو كانت نبيلة من أشراف غراسا ترفل بثياب من الريو، حتى ولا عشيقة مصرفي أو صاحب مزرعة من مزارع الكاكاو تستورد زينتها من باريس. تلك الليلة ستجتاز، أخيراً، الباب المحرَّم.

22

عندما اجتازت الدونا فلور، وهي ترتجف متأبطة ذراع فادينيو، باب قاعة فندق بالاس، شاءت الصُّدف أن تعزف الأوركسترا التانغو القديم الذي لا يشيخ أبداً، والذي رقصا على أنغامه في لقائهما الأول في منزل المقدم تيريريكا، على نغم بيانو جوانزينيو نافارو، أثناء الحفلات في ريو فيرميليو خلال أسبوع موكب يامانجا الدينيّ. أحسّت أن قلبها يتسارع نبضه، فابتسمت لزوجها:

– هل تذكر؟

أمامهما، كانت القاعة في عتمة تكاد تكون تامة لولا بعض الأضواء المموّهة بغطاء من الورق الملوّن حول كلّ مصباح، منتهى الذوق السيء؛ لكن وجدت الدونا فلور كل شيء جميلاً، شبه عتمة، الطاولات مزدانة بزهور من ورق الكريب المقوى وأغطية على المصابيح، يا للجمال! يا

إلهي! تطلّع فادينيو حوله فلم يجد أي ذكرى، كان كل شيء بالنسبة إليه مألوفاً حميماً، وليس هناك ما يمكن أن تشير إليه الدونا فلور.

– عمّ تتحدّثين يا حبيبتي؟

– عن اللحن الذي يعزفونه. إنه اللحن نفسه الذي رقصنا على أنغامه يوم تعارفنا..

ابتسم فادينيو: «نعم، هو بالضبط...» وشغلوا الطاولة المحجوزة لهما، طاولة قرب حلبة الرقص أمام الممر المشترك بين القاعتين، قاعة الرقص وقاعة القمار. كان بوسع الدونا فلور والدونا جيزا، وهما تجلسان هنالك، استحسان الحركة كلها، كيف يتحرّك الراقصون، واهتياجات المقامرين. وتفحص فادينيو، وهو لا يزال واقفاً، الحلبة التي لم يحتلّها إلا زوجان من الراقصين كفوءان في رقص التانغو لدرجة أن أحداً لم يجرؤ على منافستهما. كانت المرأتان اثنتين من الأخوات كاتوندا.

كانت الكبرى– والاكثر سواداً، ترقص مع شخص فارع الطول وورومانسي، ملابسه حسب آخر صرخات الموضة وكأنه نجم سينمائي من أميركا الجنوبية، ومنظره منظر قوّاد. وعرف فادينيو في ما بعد، حين قُدّم إليه، أنه أتى من سان باولو في نزهة إلى باهيّا، ويدعى باروس مارتينس، وهو ناشر كتب محترم، وكما هو واضح، ناشر ثري جداً. إنه مبدع في التانغو بأساليب وكفاءة مهنية، ينفذ بدقة عالية سلسلة حركات معقدة.

كانت الصغرى البيضاء بين ذراعيْ زيكيتو ميرابو، «ميرابو الجميل» نفسه، صاحب البغايا والإشكال مع السيد زيه سامبايو. عيناه تنظران إلى أعلى، يعضّ على شفتيه، وبين الفينة والأخرى يرفع يداً متوترة إلى شعره المتطاير. ولم يكن هذا الباهيّاني أقل كفاءة إذ كان يرقص التانغو بمرونة عالية، منافساً السانباولي بالرشاقة والابتكار، كانت رقصة تانغو صارخة.

لاحظ فادينيو المشهد وهو يبتسم، فمدّ يده إلى الدونا فلور مقترحاً وهو يساعدها على النهوض:

– تعالي يا حبيبتي لنفضح أخطاء هؤلاء التافهين، هيّا نعلمهم كيف يرْقصون التانغو؟

– ترى! أما زلت أحسن راقصة؟ مضى وقت طويل لم أرقص فيه، لقد تصلّبت مفاصلي..

كانت قد رقصت آخر مرة قبل ما يزيد عن الستة أشهر عندما حصلت المعجزة ورافقها فادينيو إلى الدونا ايمينا، عيد ميلاد على سبيل المزاح. كان ممتازاً في رقصة الفالس كما رقصت هي بشكل حسن؛ كانت تحبُّ الرقص. وممّا كان يزعجها هو أنهما لم يعودا يرقصان معاً قطّ تقريباً، فنادراً ما يصحبها إلى حفلات صغيرة في منازل الأصدقاء. وعندما تذهب من غير صحبة زوجها تمضي وقتها في تبادل القال والقِيل بين الأحاديث وموائد الحلوى، ولم تكن تخطر في رأسها حتى فكرة الرقص مع فارس آخر، فهذا ما لا تستطيع القيام فعله المرأة المتزوجة إلا بموافقة صريحة من زوجها وفي حضوره. أما فادينيو، فقد كان يعيش حياته بالطول والعرض، ولا من يراقبه، في هذا العالم خارجاً، في الكباريهات والمراقص، في بالاس والتباريس، في فلوزو، مع العاهرات والساقطات...

قدّما عرضاً حقيقياً في منزل جيرانهم في السامبا والفوكس، في الرانشيرا والمارشا. حاول الدكتور ليف والدونا إيمينا أن يصاحباهما في الرقص – كل الناس لديهم ادّعاء ومياه مباركة – وسرعان ما صرفا النظر عن ذلك. صحيح أنهما كانا ينقلان أقدامهما بشكل صحيح، لكن لا مجال أبداً لمنافستهما، الدونا فلور وفادينيو.

لكن الرقص في حفلة عيد ميلاد صغيرة شيء، والخروج إلى قاعة بالاس لرقص مثل هذا التانغو، شيء آخر. بدأ كل شيء منذ سبع سنوات، حينما انتزعها ليرقصا هذا التانغو نفسه في منزل المقدم بيرجينتينو. كانت آنذاك تتقن رقصه طويلاً ثم ها هي الآن، في هذه الليلة شبه السحرية حين جاءت إلى بالاس للمرة الأولى! لم يخطر في بالها أنها المرة الأولى والأخيرة، وأولى لا ثانية بعدها، ليلة لن تتكرر.

الآن فقط، في وحشة الذكرى والرغبة تنتبه إلى أهمية كل تفصيل في تلك الليلة، مهما كان حجمه، منذ دخولهما قاعة الرقص حتى اللحظة الأخيرة من المتعة اللامتناهية ومن المجون في

السرير الحديدي، مع زوجها فادينيو الذي كان يطالب في جذر جسدها بهدية ميلادها: السهرة في بالاس.

حركتان قام بهما فادينيو كلاهما بالتساوي رقيقتان لكن متسلطتان، حددا للدونا فلور بداية تلك الليلة المباركة ونهايتها. الأولى عندما دعاها إلى التانغو، فمدّ لها يده مبتسماً وهكذا قادها إلى حلبة الرقص. والأخرى في السرير في غمرة الإثارة العاصفة عندما دخلها... تلك الحركة المرتعشة عندما جاءت إليه في لحظة النشوة، ذلك التزاوج مع فادينيو عبر ليلة عيد ميلادها. تستعيد ببطء، خطوة خطوة، تفصيلاً تفصيلاً، تتوقف عند المحطات، ترسو عند كل مرفأ من مرافئ الفرح والخوف أو التهتك.

في حلبة الرقص، كانت ذراع فادينيو تطوقها فتحسّ بجسده خفيفاً في إيقاع الموسيقى. فتستحضر عندها تلك الفتاة الصغيرة التي تمضي عطلاتها في ريو فيرميليو، تركن إلى الصمت بلا حبيب،خائفة في لوحات رسام من ولاية سيرجيبي وتقطف الزهور من حديقة الخالة ليتا، ثم إذا بها تتفتح على حين غرة في ليالي الكرمس عندما أضرمت يد فادينيو النار في نهديها وأعلى فخذيها وحرقها فمه إلى الأبد.

راحا يرقصان في قاعة بالاس، هما الاثنان، في تانغو زاخر بالعذوبة والشهوانية، فتىً وفتاة بريئان غارقان في الحبّ وعاشقان شبقان للغاية. كأنها عادت إلى سحر منزل المقدم، إلى تأثير اللقاء الأول، النظرة الأولى، ضحكة البداية، الارتياب؛ وها هما عاشقان ناضجان بعد سبع سنوات، وقت طويل من الحبّ والمعاناة. كانت فتاة عذراء، فلور، فتاة ودودة طيبة، أما بين يدي فادينيو زوجها فأضحت امرأة متفتحة وأنثى ملتهبة، كانت راقصة تانغو لم يسبق لها مثيل، بعذوبتها الشفافة وأحاسيسها الغامضة. وتجمهر الناس ليستمتعوا بمشاهدتهما، حتى من قاعة اللّعب.

السانباولي صاحب الكتب، مع كامل خبراته في كباريهات سان باولو والريو، وبونيس آيرس، وزيكيتو ميرابو مع كل ثقته بنفسه انهزما وتخليا عن الحلبة كلها لتخلو للدونا فلور وفادينيو في ليلة غرامهما.

وتساءل الحاضرون: «من هي هذه السيدة التي ترقص مع فادينيو؟». كان البعض يعرف هويّتها. وسرعان ما انتشرت المعلومة بسرعة: «إنها زوجته، تأتي إلى هنا لأول مرة...» وأظهرت ألطف الشقيقات كاتوندا قلّة اهتمام، لكن الغيرة كانت تعضّ غواربها.

بعد التانغو عادا إلى طاولتهما. وكان فادينيو قد طلب عشاء ومشروبات وراح يجيب عن أسئلة الدونا جيزا، ويزوّدها بمعلومات حول الأشياء والأشخاص. لكن، الفضول ظلّ محيطاً بالدونا فلور. كانت تطير في الهواء كما لو أن هناك هالةً من النظرات الخفية والهمسات تحيط بها، كما لو كانت أسمى من جوّ القاعة، مخلوقة على نمط سيدات النخبة الاجتماعية، بارونات حيّ غراسا، متعجرفات حيّ دا بارّا، أغلى أنواع البغايا الباهظات الثمن والوظيفة الأقل وضوحاً.

أحسّت الدونا فلور بشيء من الدّوار البعيد. دوار بين الاستياء والخوف، مشككة بمغزى تلك النظرات الخاطفة وتلك الحركات الفظة. تلك الابتسامات متعاطفة هي أم ساخرة؟ وكانت بالكاد تسمع معلومات فادينيو:

– لقد تجاوز السبعين سنة... لا يلْعَب إلا البكارا ولا يُرَاهن إلا من فئة فيش الخمسة كونتوات. وفي إحدى الليالي خسر أكثر من مائتين... ومرة وصل أولاده ليأخذوه بالقوّة: سافلان وبغيّ يصحبها زوجها، حاولوا جره بالقوة! وأسوأ الجميع كانت الابنة، كوبرا سامّة راحت تحضّ شقيقيها وزوجها صاحب القرنين... وقد أقاموا دعوى حجر على العجوز مدعين أنه مجنون لا يعقل، غير جدير بأن يدير أمواله...

مدّت الدونا جيزا عنقها لتتلصص بشكل أفضل على العجوز صاحب الشعر الأبيض الناعم، كان بالكاد جلداً على عظم، لكنه يثبّت ساقيه بعصا يستند إليها، ووجهه مشدود، وفي العينين ما زال يلمع بريق أخير نَهِم وكأنّ الإلهام في القمار وحده الذي يُبقيه حياً.

«وفي النهاية من ذا الذي عمل وكدّ وكسب المال الوفير، أليس هو؟» يسأل فادينيو، في ثورةٍ على أسرة العجوز – «ماذا يفعل أبناؤه غير إنفاق المال؟ إنّهم حفنة من المستمتعين برغد العيش، لم ينفعوا في أي مجال. ويريدون الآن أن يلبسوا أباهم بالذات شهادة جنون، ويحبسوه

مغلقين عليه باب المنزل أو باب مصح الأمراض العقلية... لو كان الأمر لي لوضعت هؤلاء الأوغاد جميعهم، وفي طليعتهم ابنته البقرة، في السجن، ولأمرت بطعنهم بالسكاكين...». عارضته الدونا جيزا، بأن ثمة إشكالات جدّيّة في مسألة المال هذه. وفي رأيها أن العجوز ليس حراً في تبديد ثروته في القمار، فلأسرته حقوق شرعية... وانقطع درس الاقتصاد السياسي الذي تقدّمه الدونا جيزا، لأن السانباولي أصرّ على القدوم إلى طاولتهم لتحية فادينيو والدونا فلور. راح زيكيتو ميرابو يقدّمه: «فادينيو، صديقي هنا يريد التعرف إليك، فقد سمع عنك الكثير، وشاهدك ترقص... إنه شخص نافذ من سان باولو...» والتفت إلى الغريب: «هذا فادينيو، أعرّفك إليه، إنّه» كان حضور الدونا فلور يعقد لسانه «... حسناً، إنه صديق عزيز...».

قدّم فادينيو بصوته المهيب تقريباً، السيدتين:

– صديقة زوجتي وصديقتي الدونا جيزا، أميركية، خزان معرفة...

مدّت الدونا فلور أطراف أصابعها، فجأة كأنها مجرد فلّاحة. فانحنى السانباولي وقبّل يدها:

– جوزيه ده باروس مارتينس، خادمكِ، يا سيدتي، نادراً ما رأيت رقصة تانغو تُرقص بهذا الأتقان... تقبّلي إعجابي!

ثم قبّل يد الدونا جيزا، وحدث أن بدأت الأوركسترا تعزف سامبا مشهورة، فسألها:

– أترقصين السامبا؟ أم أنك كأميركية تفضلين انتظار الـ BLUE ...؟

أفقد فادينيو السانبولي كل الرقة التي يتمتع بها:

– ما هذا... إن هذه الغرينغا تتلوى بشكل رائع...

«فادينيو، ما هذا؟ انتبه!». وبَّخته الدونا فلور وهي تبتسم.

لم تكترث الدونا جيزا؛ وبدلاً من أن تغضب، تأبّطت ذراع الصناعي، وأجابت عن كلمات فادينيو المزعجة بهزة لامبالاة من ردفيها الهزيلين. في هذا الوقت علت سحابةٌ وجه فادينيو،

وسرعان ما اكتشفت الدونا فلور السبب، فإحدى الخلاسيات الثلاث الجالسات إلى طاولة زيكيتو ميرابو وكانت جميلة جديرة بأن تشتهى، اقتربت وراحت تدور وتحور على مقربة منهم. كانت تقيس الدونا فلور من رأسها إلى قدميها كما لو كانت تتحدّاها بينما تسأل ميرابو بصوت عذب اللسان وكأنها تطرح نفسها بتصرف الآخرين:

– كم هي جميلة هذه السامبا التي يعزفونها من أجلنا؟ إنني منتظرة، تعال حالاً...

ألقت نظرة لامبالية على الدونا فلور، ونظرة غضب على فادينيو ثم ابتسمت لزيكيتو ابتسامة ملائكية مليئة بالإغواء:

– هيّا، يا زنجيّ الحبيب...

تجنبت الدونا فلور أن يلتقي نظرها بنظر فادينيو. وران صمتٌ مزعجٌ فصلهما بعضهما عن بعض. التفتت نحو حلبة الرقص، وعيناها ضيّقتان فيما راح هو يحدّق إلى قاعة القمار. تساءل لِمَ أرادت أن تأتي؟ لقد عارض ذلك دائماً لهذه الأسباب ولغيرها. والآن، ها هي حفلة عيد الميلاد التي بدلاً من أن تبهجها تجعل المسكينة تعض على شفتيها كيلا تبكي. ستدفع هذه البلهاء زيلدا غالياً هذا التصرف! قرّب فادينيو مقعده وتناول يد الدونا فلور ووشوشها برقة أحسّت بمدى صدقها:

– يا حبيبتي، لا تبقي هكذا. أنتِ التي طلبت المجيء، فليس هذا مكانكِ، يا حبيبتي المجنونة. هل تراك تهتمين الآن لهؤلاء الساقطات هنا، وتلقين إليهنّ بالاً؟ لقد جئت لتمرحي معي، فلتحسبي أنه ليس هنا سوانا نحن الاثنين، لا أحد غيرنا. دعكِ من هذه التفاهات، فليس لديّ علاقة بها...

تركت الدونا فلور نفسها تُخْدَع بسهولة، فقد أرادت أن تقتنع، انسابت دموعها وسألت بصوت مُنتحب قائلة:

– أحقاً ليس هناك علاقة بينكما؟

– هي التي تركض ورائي، ألا ترين؟ دعكِ من ذلك حبيبتي، فهذه الليلة هي لنا فقط، ولسوف تريْن حين نصل إلى المنزل... لن أقامر اليوم، بل سأبقى قربكِ وحدك.

كانت الخلاسيّة الصغيرة تتمايل مع اللحن ملتصقة «بميرابو الجميل»، الذي راح في لحظة انفعاله يعض على شفتيه، وعيناه تنظران إلى السقف. فطلبت الدونا فلور:

– «هيا لنرقص مرة أخرى».

رقصا السامبا، وبعدها الباسو دوبلي. ثم طلبت التعرّف إلى قاعة القمار فقادها فادينيو، وهو على أتمّ الاستعداد لإرضاء كل نزواتها. وأسرعت الدونا جيزا وراءها تريد أن تعرف كل شيء، فهي، بحق الجحيم، لم تشاهد زهراً في حياتها ولا تعرف حتى أهمية كل ورقة من أورق اللعب!

طالما عاشت الدونا فلور بعيدة عن هذا الجو لا تسمع عنه شيئاً وكأنها منعزلة عنه قسراً في معبد سرّي، كأنّها تعيش في «حرَملك» مفروض عليها لأنها غير مهيئة لذلك الجوّ. وها هي تمكنت أخيراً من التسلل إلى الأرض الغامضة حيث كان فادينيو مليونيراً ومتسولاً، ملكاً وعبداً في آنٍ معاً. لكنها تعلم حقّ العلم أنها لم تصل الليلة إلا إلى قسم من هذه الأرض، إلى حافة هذا البحر الرصّاصي. فهناك يبدأ زمن الحلم والانفعال؛ كانت فقاعات بالاس ثرية وهي المركز المضيء لهذا العالم، هذه الطائفة الدينية، هذه السلالة. ويمتد هذا العالم إلى أبعد من بالاس، إلى دروب ليل المدينة، إلى تلك المنطقة المليئة بالصَّخب والأحزان والفيش والنساء، والكحول والمخدرات (الكوكايين، المورفين، الهيروبين، والديامبا، كانت الدونا فلور تقشعرّ من مجرد ذكر الأسماء) ليتّصل بالكباريهات، ببيوت القمار، بشقق العازبين، ببيوت الدعارة، بالأوكار غير الشرعية، بأقذر الأمكنة، بالحانات، بأوكار مدمني الماكونيا المظلمة. من أجل هذه الأزقة كان فادينيو يتحرك غير مقموع، وها هي الدونا فلور أمام طاولة الروليت لا تلمس إلا هامش هذا العالم المحرَّم.

وإضافة إلى بالاس، بمرتبته «العائلية البحتة» كما تقول الإعلانات، بأضوائه وعتمته – حيث غطاء ورق مقوى حَوْل كل المصابيح على الطاولات – بريق البلوّر، الأوركسترا من الدرجة الأولى، سيدات المجتمع المخملي، الجانحات المترفات، السراري والمحظيات المشرّدات وعقداء

الكاكاو وعقداء قطعان الماشية وعقداء السكر، أثرياء المدينة، البوهيميون الشباب والمحتالون، إضافة إلى بالاس، في تقاطعات الليل البائس ووداع المظهر الخادع، ينبسط غموض فادينيو، حقيقته النهائيّة.

في جولة سريعة، تحقّقت الدونا فلور من مساحة هذه الأرض المجنونة، محيط دموعها، جبال ووديان انتظارها القاسي، وحبها المؤلم. بينما كانت الدونا جيزا بعكسها مفتونة بوجوه المقامرين، بحركاتهم. فأحدهم يتكلم مع نفسه، ثائراً عليها بالذات. ولو تركوا لها الاختيار لما قفلت عائدة. لكن النّادل، في تقدير منه لفادينيو، لسعده في اللعب، جاء ليعلن له أن العشاء سيُقدم وحانت ساعة بدء العروض المثيرة.

عادوا إلى قاعة الرقص حيث التقوا ميراندون الذي وصل توّاً. ما هذه المعجزة! عرّابته في بالاس؟ هل جاءت لتفجير منصّة القمار؟ آه! عيد ميلادها! أيا ربي، رب السماوات، كيف نَسِي ذلك؟ سيرسل لها في اليوم التالي مع زوجته وابنه، ابنها بالعمادة، الهدية. قالت الدونا فلور: «يكفي قدوم إشبينتي والولد» كي لا تلزمه بالتعهد ولأنها قد حظيت بهديتها في ذلك العيد، ولا تريد أكثر منها. فها هي مع فادينيو، ولا تريد شيئاً آخر.

الطعام لم يكن طعاماً. ما هذه الأشياء: الأرز بلا ملح، واللحم بلا نكهة، لكن كم كان فادينيو مهذباً وهو يقدّمه إليها ويضع في فمها أفضل قطع فرّوجه، ولم تعد الدونا فلور تشعر بالخوف ولا الخجل.

أطفئت الأضواء كلّها لتضاء مجدداً. عندما أعلن مدير الكباريه في الفندق جوليو مورينو بدء العروض وهي: أولاً الشقيقات كاتوندا، أصواتهنّ تثير الحسرة، لكنّهن أجَدْن عرض الأثداء وهزّ الأرداف:

«سأرقص الليلة بطولها

رانشيرا...

رانشيرا...»

كانت المتعجرفة المذكورة آنفاً أكثرهن دلالاً بحيث لم يكن بوسع الدونا فلور إلا أن تعترف بذلك. لكن فادينيو لم يلتفت إلى الخلاسيات، بل انهمك بتذوّق الحلوى بعد الطعام. والآن كانت الدونا فلور هي التي نظرت إلى المتعجرفة بازدراء؛ ثمّ أمسكت بيد زوجها، وأخذا يتحدثان ويبتسمان، بينما الشقيقات اللطيفات يتلوّين في لعبة الأضواء، تتلوّن أثداؤهن باللون الأزرق وأردافهنّ بالأحمر.

ثم جاءت «الأختان من هونولولو» تغنيان أغنية صاخبة وحزينة فيها أنين الزنوج المقيّدين، فيها صلاة العبيد وألم بشر أذلاء وتمرّدهم. كان الجنس حزيناً، والجسدان جميلين جداً. هذا ما فكرت به الدونا فلور. الخلاسيات، كاتوندا الصغيرات، ناشزات ووضيعات، يبدين شهية لطعام يطهى، زقزقة عصفور، شعاع من شمس، أجساد من النضارة والعافية بالمقارنة مع جو ومو بتحسّرهما بلا أمل. الشقيقات كاتوندا كن يرقصن في طقوس لعبدة آلهة الأوريشا، ولآلهة الزنوج المرحة والحميمة، القادمة من أفريقيا وفي باهيّا كل مرة تصبح أكثر حيوية. كانت الزنجيتان الأميركيتان تتوجهان بتضرعهما إلى آلهة الأسياد البيض القساة البعيدين المتسلطين على العبيد وصفعات سياطهم تحزّ جلودهم. البعض منهن كن يطلقن ضحكاً طليقاً، والأخريات يذرفن دمعاً حزيناً.

وأخبر فادينيو الدونا فلور والدونا جيزا قائلاً:

– انتبها... إنهما عاشقتان. لقد سمعت الدونا فلور بوجود مثل هؤلاء النّساء لكنها لم تصدّق؛ حتى تلك اللحظة، اعتبرت ذلك مجرد لغو من فادينيو، اختراعات عابثة، تصرفات صبيانية.

– ألا يوجد رجل شاذ يا حبيبي؟ إذن فهناك امرأة لا تحب إلا امرأة مثلها..

قال ميراندون: «يا للأسف! سمكتان مثلهما ولا تريدان محادثة أي رجل...».

أكدت الدونا جيزا: «مثل هذه الحالات شائعة كثيراً في البلدان المتحضرة». فردّت الدونا فلور، «سترى أنهما مجرد فتاتين رصينتين».. كانت تريد أن تتذوّق غناءهما الصافي الموجع، من دون أن يشوب ذلك النقيصة المذكورة، ظرفهما المرضي، قدرهما. آه! موسيقى الدم المراق، السّوط الناري.

– حبيبتي، سأدخل وأرجع حالاً، دقيقة واحدة...

عبر فادينيو مسرعاً إلى قاعة القمار، تاركاً الدونا فلور وحيدة مع غناء العبيد الذي يمزق القلب.

أضيئت الأنوار، وتعالى التصفيق، وشاهدتهما حين مدت مو يدها إلى جو وانسحبتا معاً إلى حبهما الملعون. وعاد السانباولي إلى الرقص، في حين انضمّ زيكيتو ميرابو إلى زمرة المقامرين.

رغب ميراندون من أعماق قلبه مرافقة فادينيو وميرابو، لكن إشبينه تركه ليجالس السيدتين، فلا يستطيع أن يتركهما. وهذه البروفيسورة بأسئلتها الغبية، من أين له بحقّ الشيطان أن يعلم ما إذا كان لعب القمار عاملاً من عوامل العجز الجنسي؟ اسمعي، يا سيدتي العزيزة: لقد وُلد ميراندون عملياً على طاولات القمار، ويؤكد لكِ أنه رجلٌ، ورجلٌ فحل، ولم يسمع قطّ بأن القمار يصيب رجلاً بالارتخاء.

راحت الدونا فلور تتابع فادينيو في القاعة الأخرى وهو يتحرّك أمام طاولة الروليت، مراهناً محاطاً بالرجال والنساء. وقدمت الخلاسية الصغيرة لتتمركز إلى جانبه، وفي لحظة معيّنة أراحَت يدها على كتفه حيث استقرّت فيما هو يتابع دوران الكرة في اللحظات الحاسمة المهيبة. كادت الدونا فلور أن تنهض عن مقعدها، غاضبةً، وهي تشعر أنها قادرة على ارتكاب أي حماقة في تلك الليلة، قادرة على الفضيحة والعنف، على أن تتصرف، إذا لزم الأمر، كبغيّ من نساء الليل الرخيصات الضائعات. لكن سرعان ما ابتسمت لأنه بعد أن أعلن مساعد مدير اللعبة الرقم الخيالّي، انتبه فادينيو إلى الحركة الوقحة، فأبعد كتفه ويظهر أنه خاطبها بفظاظة لأن الوقحة سارعت إلى الاختفاء وكان انزعاجها واضحاً.

نظر فادينيو إلى الدونا فلور، اقترب منها، ويداه ممتلئتان بالفيش. وكان ميراندون يجلس إلى الطاولة متورّطاً في أسئلة الدونا جيزا السوسيولوجية – الاقتصادية – الجنسية، ويواسي جهله ببقايا الفيرموت الحلو، يا للاشمئزاز!

انحنى فادينيو وهمس في أذن الدونا فلور:

– اسمعي يا حبيبتي، مرحلتان بعد أو ثلاث فقط ثم ننصرف. لن نتأخر أبداً، لقد أرسلت إلى الغجري لينتظرنا بسيارته. استعدّي، لأنني اليوم سأوسعكِ ضرباً في السرير... – وقرّب فمه أكثر، ثم عضّ أذنها ولحسها، نسيم ولهب!

الدونا فلور، وجسدها في قشعريرة رطبة، انفتحت بتنهدة. آه! ما أحمقك يا فادينيو! ما أشد حمقك ماذا لو شاهدك الناس، ماذا سيقولون عنّا؟ فادينيو أشد طغياناً، فادينيو أكثر اضطراباً.

– لا تتأخر...

عاد، ويداه تمسكان بالفيش، إلى احتلال مكانه مقابل مساعد مدير اللعبة على طاولة الروليت، منحنياً قليلاً، والشعر أشقر، والشاربان وقحان، والعجرفة في ابتسامته، يا له من ماهر!

حدّقت إليه الدونا فلور طويلاً، إلى فادينيو حبيبها، ثم راحت تجمع كل تفاصيل تلك الليلة وكل لحظات حياتها معه، من البداية إلى النهاية، من دون أن تنقص منها شيئاً، لا الألم ولا الفرح.

من على طاولة الروليت أشار إليها فادينيو أن هذه المرحلة الأخيرة، فسيارة الغجري بالانتظار، بضع دقائق أخرى. «كلا يا عزيزي لن أذهب معك بعد اليوم إلى حفلة الليل حين تذوب قطرة الانزعاج في بحر العسل، بحر شاسع من الأخذ والعطاء». رمقت الدونا فلور فادينيو مسمّراً إلى الأبد أمام طاولة القمار، والفيش ملقى على الرقم 17. حينئذٍ جمعت متاعه كله ودفنته في قلبها. انقلبت على بطنها في السّرير الحديدي، وأغلقت عينيها، ثم نامت نوماً مطمئناً.

بعد مرور شهر على موت فادينيو، وبعد قدّاس اليوم الثالث، قصَدت الدونا فلور السوق الصغيرة المُخصّصة لبيع الأزهار في كابيسا. كانت المرّة الثانية التي تخرج فيها من المنزل منذ ذلك الأحد المأسوي، عندم طعن الموت فادينيو في الكرنفال. وكانت المرّة الأولى يوم خرجت إلى قدّاس اليوم السابع.

مشت من الكنيسة تحت أنظار الفضوليين من الناس؛ حيّاها ميندس، من على منصة البيع في البار، ونادى السيد موريرا البرتغالي صاحب المطعم زوجته المنهمكة في المطبخ: «اسرعي يا ماريا، تعالي وانظري الأرملة». وفي الشارع ثلاثة أو أربعة رجال، بينهم الأرجنتيني الأنيق السيد بيرنابو، رفعوا قبعاتهم احتراماً لها.

عند ناصية الملحمة، وقفت الزنجية فيتورينا، خلف بسطتها من الآبارا والأكاراجيه: «لتتمجّدي يا إيايا، آتوتو، آتوتو!» وعند باب الدروغاريا سيانتيفيكا، انحنى أمامها الدكتور تيودورو مادوريرا، الصيدلي، وحياها بمقدار عال من الأسف والتعاطف. أمّا المدرّس إيبامينونداس سوزا بينتو، المرتبك والسائح في الخيال كدأبه، والذي يحمل تحت إبطه المتفصّد عرقاً، كتباً ودفاتر، فقد مدّ لها يده:

– سيدتي العزيزة، إنّها الحياة... أمرٌ لا مناص منه...

كان السكارى في الحانة، يشربون كؤوس الصّباح، وزبائن المخزن وصاحب المزرعة مويزيس آلفيس الذي كان ينتقي أصنافاً محددة من الأطعمة المشهورة لغدائه ، خرجوا جميعاً لرؤيتها، وانحنوا بكل صمت. في حين أنّ صانع الأيقونات ألفريدو، صديق العم تاليس، الذي أنشأ محلاً له قريباً من هناك وملأ بابه بالتماثيل، ترك كتلة الخشب التي كان ينحتها، وانتصب واضعاً نفسه بتصرّفها:

– صباخ الخير يا فلور، هل أستطيع أن أقدّم لك شيئاً؟

وأسرع الباعة إليها ببضائعهم، فابتاعت ورداً وقرنفلاً وسعف نخيل وبنفسجاً وأزهار الداليا وأريغارون شيخ الربيع.

تقدّم زنجي طويل القامة نحيف الجسم، توحي صفحة وجهه بالفطنة ويحيط به الغموض، ويلقى، على الرغم من صغر سنه، آذاناً صاغية واحتراماً من قبل الميكانيكيين والسائقين في موقف سيارات الأجرة، إذ عرف هوية الدونا فلور وسبب شراء هذه الأزهار، تقدم منها وطلب أن تعطيه بعض الأزهار للحظة فقط. فوجئت فلور قليلاً، لكنّها فعلتْ ما طلبه، وبسطت أمامه الباقة الملوّنة، فاختار منها بنفسه، في حيطة طقوسيّة، ثلاث قرنفلات صفراء وأربع زهرات من الأشواق بلون أبيض ضارب إلى الحمرة. ترى، من يكون هذا الرجل الذي أخذ هذه الأزهار القليلة؟

أخرج من جيب سترته خيطاً مجدولاً من القش، وحزم به القرنفلات وزهور الأشواق باقة صغيرة ثم عقد الخيط.

«فكيه عندما تنثريها على قبر فادينيو. إنها ستسكّن شيطانه»، قال لها برقة عذبة مخفضاً من نبرات صوته: – «آلو آبو!».

كان الزنجي كاهن ديانة أيوروبو، القيّم على منزل أوسايين الإلهة إيفا؛ ولم تعرف الدونا فلور اسمه وقدراته وشهرته في التنبؤ ومركزه ككوريكويه أولوكوتوم لكبار سحرة الأرواح إيغونز أموريرا.

كانت الدونا فلور غارقة في السَّواد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، في حداد مطلق ولمّا يمرّ شهر بعد على وفاة زوجها. لكن الخمار الصغير فوق شعرها الكحليّ السّواد لم يستطع إخفاء وجهها، ومسحة الغمّ تلك لم تعد ترتسم على تقاطيعه. صحيح أنها لا تزال حزينة، لكنها لم تعد قانطة ولا راغبة بالانتحار. وفي النسيم العليل في ذاك الصباح الشفاف الخلّاب بالضوء، والذي هو على المقاس الإنساني بحيث تصبح الحياة معه امتيازاً، رفعت الدونا فلور نظرها عن الأرض، وعادت مرة أخرى تنظر وتتطلّع إلى مشهد الشارع وتتعرّف إلى لون النهار، فاكتشفت أو خُيِّل إليها أنها تستشفّ حركات وكلمات الارتياح والتعاطف وسط ضوضاء المدينة حيث يمر النّاس ويتحادثون، ويضحكون. تابعت الدونا فلور طريقها مع باقة الورود المخصصة لحقل فادينيو، سارت هناك باتجاه المقبرة لكنّ الحياة كانت قد تسلّلت إليها مجدداً؛ ها هي تعود، متماثلة للشفاء.

ليست الدونا فلور ذاتها التي كانتها قبلاً. فقد دفنت بعض العواطف والمشاعر، كالرغبة والحب والجنس والقلب لأنها كانت أرملة محترمة. قد تعيش وتتحسّس مجدداً ضوء الشمس والنسيم العليل، قادرة على الابتسام والفرح.

القسم الثالث

عن فترة نصف الحداد، عن حميمية الأرملة في حشمتها وعزلتها كامرأة شابة ومتقدة؛ وكيف بلغت، شريفةً وعذبة، زواجها الثاني، عندما بدأ عبء ذكرى المرحوم يثقل كاهلها.

(وفي كرة البلور

العائدة للدونا دينورا)

مدرسة الطَّهي مذاق وفن

سلحفاة مقليّة وأطباق أخرى نادرة

سألتني منذ أيام – أظنّها الدونا نايير كارفاليو لأنها تحب أن تقدّم الأجود والأفضل دائماً، ما الذي يمكن تقديمه إلى ضيف رقيق، من ذواقة النهكة الراقية، ملحاح يطلب أطعمة مميزة وغير اعتيادية، لا شيء فيها من المطبخ المألوف.

من أجل هذا الضيف أوصي بتقديم طبق لذيذ، سلحفاة مطبوخة على البخار – وأزوّدكم بوصفة علمتني أياها معلمتي المتمرِّسة بالمرق والتوابل الدونا كارمن دياس، وصفة بقيت سراً حتى الآن بوسعكم نسخها من الدفتر. وحسبما أتذكر فإن السلحفاة هي طعام الأوريشا في طقوس الكاندومبليه، هذا ما قالته لي عرابتي ديونيزيا، ابنة أوشوصي، وهي الطبق المفضل عندشانغو.

علاوةً على طبق السلحفاة، أوصي إجمالاً بأطباق الطرائد، خصوصاً حساء ال– «تيو» بعد أن ينضج لحمه مع رائحة الكزبرة وزهرة إكليل الجبل. وإذا استطعتم قدموا خنزيراً برياً مشوياً، ملفوفاً بأوراق عطرة، آه! ملك الأطباق العظيمة هو الخنزير الشّرس، فللحمه نكهة الغابة والحرية.

لكن إذا أراد ضيفكم طريدة نادرة وممتازة فقدموا له في نهاية المطاف، الطبق الأسمى، أفضل ما لديكم، متعة الآلهة، ولمَ لا تقدمه له أرملة شابة جميلة مطبوخة بدموع حدادها ووحدتها، في خفرها وحدادها، حيث تعطيها نداءات رغبتها المحرقة مذاق الذنب والخطيئة؟

سلحفاة مقليّة.

(وصفة الدونا كارمن دياس، كما قدمتها الدونا فلور، التي سمحت لتلميذاتها بنسخها).

خذي سلحفاة تعيش في الماء العذب،بعد أن تنفق بواسطة النشر من الجانبين (يا لها من وحشية!). مع الانتباه كي لا يتفتّت درعها ثم تعلّق من قائمتيها الخلفيتين، ويقطع رأسها، واتركيها

هكذا لمدة ساعة، كي يسيل كلّ دمها، ثمّ مددي السلحفاة على ظهرها، وابتري قوائمها بحذر كي لا تبقى القوائم داخل الجلد السميك الذي يغطيها. وبعد ذلك انتزعي اللحم والأحشاء (القلب والكبد والبيض (إذا وُجد) وتخلّصي من الأمعاء، وهذه العملية تتطلب حرصاً خاصاً، إذ يجب أن تتم كلّ خطوة على حدة. اغسلي كل شيء: اللحم والأحشاء جيداً، ثم انقعيها في التوابل، ثم ضعيها على نار خفيفة حتى يصبح لونها ذهبياً أدكن واعطيها نكهة معيّنة بإضافة الملح والحامض والثوم والبصل والبندورة والفلفل والزيت أو الزيت الحلو كما تحبين. يجب تقديم هذا الطبق مع البطاطا المهروسة المسلوقة بالماء من دون ملح، أو مع دقيق المانديوكا الأبيض المحمص بالزبدة والمغطّى بالكزبرة.

1

بعد ستة أشهر من التَرمّل، بدأت الدونا فلور تخفّف من حدادها الذي كان لا يزال حتى ذلك الوقت حداداً تاماً بحيث تجد نفسها مرغمة على ارتداء الملابس السوداء الرصينة سواء في الشارع أو داخل المنزل. الشيء الوحيد الذي لم يكن أسود فاحماً ضمن ملابسها كان الجوربان اللذان هما بلون الدخان.

من هنا، عندما شاهدتها تلميذاتها في ذلك الصباح (وهنّ مجموعة جديدة لطيفة كثيرة العدد) مرتدية بلوزةً فاتحة اللون مزدانة بأكاليل من الورد غامق اللون وحول عنقها عقد من اللؤلؤ الزائف مع مسحة من الأحمر على شفتيها صفقن بحماسة للمدرّسة المرحة. لكن كان عليها أن تنتظر ستة أشهر أخرى حتى ترتدي الملوّن كالأخضر والوردي والأصفر والأزرق والأحمر والهافانا، ناهيك عن ألوان الموضة الجديدة المؤثّرة: الأزرق – الملكي والأزرق – البيرفانش والأورتنسيا والأخضر الذي بلون البحر.

مدرسة مرحة أيضاً. أجل، كما وصفتها الدونا ماغا باترنوسترو الثرية. لأنّ الدونا فلور في الحقيقة قد خففت من حدادها الدّاخلي، وخلعت خمار الموت، عندما دفنت عشية قداس الشهر في داخلها متاع المتوفى، لكنها حافظت باحترام على العادات والجيران، على صراحة السواد، وإن كانت قد استعادت ابتسامتها الهادئة وتوددها الحذر واهتمامها بالأمور اليومية، ونزوتها كربة منزل، ومن حين لآخر ترمي الكآبة عليها بظلّها فتبدو متأملة وتضفي على جمالها المنزلي ميزة جديدة، سحراً معيّناً مليئاً بالأشواق؛ كما عاد إليها فضولها إزاء الحياة حولها، ما أعاد الانطباع بنشاطها السابق كمدرسة للطهي، والتي تراجعت شهرتها خلال الشهر الأول من الحداد.

لم تعد تلفظ اسم المتوفى، وبدا كأنّها نسته تماماً، كما لو أنها، بعد الأزمة والفكرة المسيطرة على العقل، أصبحت متّفقة مع الدونا دينورا وجماعتها على أن موت الإنسان العادي هو وثيقة حرية، فوجدت نفسها أخيراً منسجمة كأرملة، مع الطوباويّات؛ ولو ظاهرياً أقلّه.

في مناسبة قداس الشهر تلك، وعند عودتها من زيارة القبر حيث تركت الأزهار ونفّذت وصيّة الكاهن موكان أوسايين، فتحت نوافذ بهو الزوار وسمحت أخيراً لضوء الشمس أن ينير المنزل، ويكنس الظلال والأشباح. تناولت المكنسة والممسحة، الخرق والفراشي، واندفعت في التنظيف.

عرضت عليها الدونا روزيلدا أن تساعدها، لكنها، أمام هذا التنظيف الكامل، قررت العودة إلى نازاريت داس فارينياس، حيث كان ابنها وكنّتها قد بدآ يتأمّلان بحياة أفضل من دونها. فمن هو الأحوج إلى المصاحبة الدائمة وإلى التعاطف معه، ومن يحتاج لأم أكثر من الدونا فلور المترمّلة حديثاً ولا يوجد من يواسيها؟ فالدونا فلور وحيدة، ومن دون دفاع، عرضة لمخاطر مضاعفة في حالتها غير السارة. كان من العدل أن تقيم الدونا روزيلدا الأمّ المُجرّبة الشجاعة مع ابنتها الوحيدة لتساعدها على معالجة شؤون المنزل وعلى حلّ المشكلات العديدة. ومن يدري، فقد تحدث المعجزة الرائعة، ويتحرر أخيراً الزوجان، ومدينة نازاريت، من الأم الحماة، التي هي حماة أكثر منها أماً؟. حتى إن كنّتها، الملاك والعبدة قد نذرت نذراً قيّماً لسيدة المبتلين.

لم تُستَجَبْ صلواتها. واتّضح أن قديس الدونا فلور أقوى، فهي تحظى بالحماية من دون أن تدري، في محاور الكاندومومبليه ومعابده، بقوة ملك الكيتو، أوشوصي، حامي عرابتها ديونيزيا (أوكيه!). وهكذا كانت الأرملة هي التي من تحرر من الدونا روزيلدا التي – على كل حال – لم تذهب قبل إظهار حقيقة فظاظتها، قبل مناكدة الجيران الذين شوقتهم على استبدادها، وحملتهم على تقبل ظروف التعايش.

لقد كانت تعيش في العاصمة من دون ترف. فالبيت صغير ليس فيه غرفة خاصة بها، فكانت تنام على سرير نقال من القماش في البهو حيث تعلّم الدونا فلور تلميذاتها النظريات، وليس هناك خزانة مخصصة لأمتعتها، بينما منزل ابنها في نازاريت واسع للغاية تتوافر لها فيه كلّ وسائل الراحة، وفوق كل شيء، كان للدونا روزيلدا شخصية معيّنة هناك. فلم تكن تتصرف فقط كأم للسيد إيتور الموظف الذي له مرتبته في السكة الحديد، والسكرتير الثاني في نادي فارينياس الاجتماعي، وهو من أفضل النّوادي المتخصصة بطاولات الغامون والداما في المدينة (حيث كان يمارس السيد

جيل هوايته المغتصبة) والرسّام البارع: كان ينقل ملامح أي كان ويخلقها من جديد على الورق بقلمه الكروم، بل كانت هي نفسها زينة المجتمع الراقي في نازاريت، حيث تستعرض علاقاتها مع أهل العاصمة، كعائلة مارينيو فالكون والدكتور زيتلمان أوليفا والدونا ليجيا والصحافي ناصيف والدونا ماغا والصناعي نيلسون وكوستا ومزرعته الصغيرة في ماتاتو، وعلى رأسهم عرابها الدكتور لويس إينريكي، «العقل الذهبي»، فخر البلاد.

أما في العاصمة فلم يكن هناك من يوليها انتباهاً أو يعطيها أهمية، حتى ولا البورجوازية الصغيرة وهي بالكاد ميسورة الحال، في عالم ضيق محصور ببعض الشوارع القليلة الواقعة ما بين ساحة «الثاني من تموز» وسانتا تيريزا، بل على العكس، كانوا ساخطات عليها. فصديقات ابنتها المقرّبات كالدونا نورما والدونا جيزا والدونا إيمينا والدونا آميليا رواس والدونا جاسي، ما كنّ يخجلْنَ من تحميلها المسؤولية عن حالة الأرملة غير المشجّعة، فينحين عليها باللائمة على لسعات لسانها وعلى تجريحها وإهاناتها لسيرة الميت، وعلى نفورها غير المعقول منه. فإما أن تبدّل تصرفاتها، متخلية عن استغياب المتوفى وإمطار ذكراه باللعنات، وإما ترحل. هذا إنذار لها.

لهذا بالضبّط، كانت ردة فعل الدونا روزيلدا الشريرة الخبيثة، إطالة زيارتها رغم عدم ارتياحها في المنزل وتقييد الجيران لها. (حتى أن الدونا جاسي تدبرت مدبرة لشؤون منزل الدونا فلور، وهي امرأة بشعة تدعى صوفيا، التي كانت قد تبنتها). لكنها أسرعت في السفر بعد قداس الشهر حالما وصلتها الأنباء عبر عرابها الدكتور، بأنّ المحترم فالفريدو موراليس قد عينها في منصب مرموق كخازنة الحملة الخيرية للأشغال الجديدة في كاتدرائية نازاريت، والتي تتألّق في مجلسها الإداري كل من زوجة قاضي الحقوق (الرئيسة) وزوجة المحافظ (النائب الأولى للرئيسة) وزوجة المفوض (النائب الثانية للرئيسة) وغيرهن من المحترمات في مجتمع البلدة. كانت الدونا روزيلدا تتحرق شوقاً منذ زمن طويل ليكون لها مكان ضمن مجلس الإدارة ولو في آخر اللائحة؛ وفجأة تصبح خازنة. هذا وحي من الروح القدس الذي أنار أمام الأب فالفريدو تعييناته السريّة جداً.

أما الكاهن المذكور فقد استبدّت به الحيرة والشكوك تجاه هذا التعيين، لكنّ صاحب النفوذ الذي قصده ليسدّد ثمن الكميات الغذائية الإيالية، اشترط لمساعدته تعيين الدونا روزيلدا في مركز

تحسد عليه في حوض جمعية الطوباويات. فكّر الكاهن أن هذا ابتزاز حقير وهو يخضع له، لكنه كان مستعجلاً للحصول على المبلغ الكبير، وكيف له أن يدير العجلة البيروقراطية من دون تدخل الدكتور لويس إينريكي؟

كانت الدونا جيزا – التي يناقش معها الدكتور أحياناً مصير العالم وتشوّهات البشر – هي التي أبلغته عشية اليوم السابق:

– إذا لم ترحل الدونا روزيلدا، فلن تذوق فلور المسكينة طعم الراحة حتى يتسنّى لها أن تنسى... وكم هي بحاجة إلى النسيان؛ إن هذه الحالة المعقدة هي حالة مَرَضيّة غريبة. فيا عزيزي الدكتور، إن المحلل النفساني وحده يستطيع توضيحها. وبالأحرى، ذكر فرويد نموذجاً...

قاطعتها الدونا نورما التي جاءت معها، في الوقت المناسب:

– سيكون ذلك أيها السيد عمل خير وإحسان.. أَبْعد هذا الوباء وأرسلها إلى نازاريت، فلم يعد هناك من هو قادر على تحمّل المزيد منها...

كان الدكتور عرّاب إيتور، ففكّر متحسراً «مسكين إيتور، مسكينة سيليستي، مساكين أطفالهما...» لكنه في الاختيار ما بين الدونا الأرملة الفرويدوية، والزوجين اللذين ظلاًّ حبيسَيْ قفص الدونا روزيلدا سنوات عديدة لم يتردّد؛ ضحّى بابنه في العمادة وزوجته اللطيفة، اللذين طالما تناول الغداء في منزلهما، حيث كان يجد دائماً العناية والاهتمام كلّما ذهب إلى ريكونكافو.

اقتنع بأنّ على كلّ إنسان أن يحمل صليبه. حملت الدونا فلور عبء سبع سنوات بالجهد مع زوجها ذاك، وهذا، صليب ثقيل. وليس من العدل في شيء أن يكون عليها – وهي أرملة – أن تتحمّل الدونا روزيلدا، فهي جلجلة في حد ذاتها؛ بالصليب وإكليل الشوك والخلّ والعلقم.

بعد ذهاب الدون روزيلدا لم يعد يُذكر اسم الملعون سوى عرضاً ومن وقت إلى آخر، وذلك احتراماً لإلحاح الدونا نورما والدونا جيزا، وأيضاً لأن الدونا فلور قد استعادت مجرى حياتها العادي، بعدما اجتازت خسائر الغياب اللانهائية. لم تستعد حياتها السابقة، بل، أياماً هادئة، بغياب الزوج

وتصرّفاته غير المتوقعة: لحظات الخوف، المنغّصات، الاضطرابات، اليأس. كل هذا قد انتهى، واعتادت الدونا فلور أن تنام الليل بأكمله، من أوّله إلى آخره. صارت تنام أبكر نسبياً بعد محادثة معتادة مع الدونا نورما في حلقة الصديقات، على مقاعد موجودة على رصيف الطريق حيث يعلّقن على الأحداث وعلى برامج الإذاعة والأفلام. وكانت تذهب إلى السينما مع الدونا نورما والسيد سامبايو أو مع الدونا آميليا والسيد رواس، أو مع الدونا إيمينا والدكتور إيفيس، الذواقة المتحمس لأفلام الغرب الأقصى الأميركي. وأيام الآحاد كانت تتناول الغداء في ريو فيرميليو في منزل الخالة والعم؛ العم بورتو مع هوسه الخالد بلوحات المناظر الطبيعية، والخالة ليتا التي وإن بدأت تشيخ لكن حديقتها وقططها لا تزال في منتهى الروعة.

لم تقبل الدونا فلور الانضمام إلى حلقة لعب البيسكا والثلاث سبعات في منزل الدونا آميليا، وهي حلقة شيّقة لدرجة أن الدونا إينايدي كانت تأتي من شامي – شامي خصيصاً لتحضر أمسية لعب الورق. وفعلت المتعصبات للبيسكا والمتعبدات للثلاث سبعات المستحيل ليفزن بها، من دون نتيجة، كما لو كان المتوفى قد استنفذ كل حصة العائلة من القمار، ولم يترك لها شيئاً. عدو اللعب الأسوأ كان ابن بونيس آيرس صاحب مصنع السيراميك السيد بيرنابو؛ والدونا نانسي مجنونة لمن يساعدها على البيسكا، وهو مستبد لا يمكن نقض قراراته؛ وفي حد أقصى وعلى سبيل المعروف، الألعاب المتفرّدة التي تحتاج إلى بالٍ طويل ولا شيء أكثر من ذلك.

هكذا كانت تمضي حياة الدونا فلور، هادئة بين تلميذات مدرسة الطَّهي حيث يزداد عدد المشتركات في المجموعتين كلّ مرة، وما بين النشاطات الاجتماعية التي يسمح بها وضعها الحرج. ولم تكن الالتزامات بالقليلة كما قد تبدو للوهلة الأولى. فقد مُلئ وقتها كلّه، ولم يعد لديها وقت تقضيه في الأفكار المحزنة. ولا تسَلْ عن الطلبات التي يستحيل رفضها من أجل تحضير الغداء لحفلة، أو عشاء راق أو وليمة أو حفل استقبال. كانت تستسلم للعمل في المطبخ منذ الفجر. وبما أنها متطلّبة جداً في ما يخصّ نوعية أطباقها، فقد قضى التعب على قلقها.

جاءت لمساعدتها صبية في السادسة عشرة من عمرها، ابنة أرملة أخرى هي الدونا ماريا ده كارمو، وريثة حقول مزروعة بالكاكاو تسكن في أريال ده سيما منذ وقت قصير، انخرطت مباشرة

بعد الكرنفال في حلقة الدونا نورما. كانت الفتاة الصغيرة ماريلدا سمراء لها مستقبل مع المرق والتوابل. أنشأت صداقة مع الدونا فلور ولم تتركها، فتعلمت إعداد الأطعمة والحلوى في عطلاتها المدرسية، وكانت هذه الأخيرة تبتسم عندما تراها تتنقّل في المنزل مدندنة مضطربة الشعر، وجهها وجه مراهقة استوائية، شاحب من الجوع والدلع، كلوحة جميلة ملوّنة. لو كان السافل حياً، لما نفعها حرصٌ ولا حذر فقد كان لا يقيم وزناً للسنّ.

ثبت لديها ورأت بعينها أن ثمة الكثير لتفعله بحياتها كأرملة؛ فالوقت قصير، أحياناً لا تستطيع أن تفي بكل التزاماتها. كانت لديها مشاغل كثيرة جداً وعالم من الأشياء، والنهار المتعب يمتدُّ أحياناً حتى الليل، وحالما تتجرّد من ثيابها وتتمدد على السرير كي تنام، تحسّ كم هي متعبة وكم هي بحاجة إلى النوم المريح. فتنام حالما تضع رأسها على الوسادة.

إذا كانت حياتها ممتلئة على هذا النّحو فكيف تفسِّر إحساسها الدائم بالخواء، كما لو كان كلّ ذلك النشاط الذي تقوم به، ويسيطر عليها، غير مجدٍ وفارغاً؟ طالما أن لديها مبلغاً متوافراً يكفيها لتعيش شريفة، وأنها لا تزال تخبئ، حسب عادتها القديمة، بعض المدّخرات، وطالما أن حياتها هانئة وممتعة، فلِمَ، إذاً، تحسّ أن حياتها فارغة بلا جدوى؟

2

كانت الأحياء المحيطة بمنزلها تغصّ بالواشيات، عجائز وشابات، لأن ممارسة هذه المهنة لا تتطلّب عمراً معيَّناً. الأولى بين هؤلاء المزعجات كانت الدونا دينورا التي لاقت في هذا المجال نجاحاً جعل الناس يلقبونها بالعرافة.

سبق للدونا دينورا في هذا المجال أن شوهدت وهي تنشط في لاموراياس في وشايات ومكائد، لكنها بقيت، حتى الآن، شبه مجهولة، وكأنها مجرّد واشية عادية في حلقة الطوباويات. ربما لأن حضور روزيلدا غير المألوف، لحسن الحظ، كونها الآن في المنفى في ريكانكافو، لم يترك مجالاً لمنافساتها. لكن ثمة دائماً متسعاً من الوقت لإصلاح خطأ، ولرفع ظلم ما.

بالنسبة إلى كثيرين، كانت الدونا دينورا أرملة الكوميندادور بيدرو أورتيغا، وهو تاجر إسباني ثري انتقل إلى عالم الأوراح منذ سنوات عشر. ومع أنّها لم تكن يوماً متزوجة، لكنها لم تظلّ عذراء إلا فترة وجيزة؛ فما إن بلغَتْ حتى غادرت المنزل لتبدأ نشاطاً كان لها فيه نوعاً ما وجود لامع مثير للشهوات سيكون وقعه لاذعاً. مع هذا - ليمجد الله! - لم يعد هناك من هو أكثر غيرة منها على الأخلاق وعلى التقاليد الطيبة، منذ لقائها السعيد بابن غاليسيا الذي كان قد تجاوز الخامسة والأربعين. فقد نظرت الدونا دينورا إلى المستقبل بروية، يحدوها خوف مريع من الفقر بعد أن اعتادت الرفاهية؛ ذلك أنها لم تكن جميلة يوماً لكن المسؤول عن نجاحها مع الرجال هو ظرف فاحش معيّن كان يذيب لهم السنين والتجاعيد. وابتسم لها الحظ آنئذٍ مع الكوميندادور «ورقة يانصيب ربحت الجائزة الكبرى» كما أسرّت لصديقاتها في تلك الفترة. لقد أضفى عليها الإسباني الاحترام وقدم لها ضمانات، ناهيك عن المنزل الصغير في الجوار، في ساحة «الثاني من تموز/ يوليو» حيث أقامت.

من يدري؟ ربما خوفها من أن ترى نفسها عجوزاً فقيرة، إزاء ما يتهدد البغاء المشرّع الأبواب، هو الذي حوّلها في كنف التّاجر بسرعة إلى نقيض ما كانت عليه، إلى سيدة محترمة تسهر على الأخلاق. وانكبت على ممارسة نزعتها هذه، بعد موت بيدرو أورتيغا، بشدة متزايدة. فعندما رحل بين الخطب والأكاليل الجنائزية، كانت المحظية القديمة قد تجاوزت الخمسين عاماً - أي ثلاثة وخمسين عاماً ليكون الأمر مضبوطاً - وفي العام الثامن من حياتها كعشيقة تكون لديها التشبث بفضيلة الحياة العائلية.

فالممثل الوقور للطبقات المحافظة، مقدراً لعشيقته وفاءها، وكشفها عالماً من المسرّات كان مجهولاً (كم كان ليضيع أفضل سني حياته قرب الجسد الناشف والجاهل لزوجته القديسة والصارمة!)، - وعلاوة على المنزل ذاته، عش غرامياتهما الآثمة- ترك لها في وصيته أسهماً والتزامات مع الدولة، عائداً زهيداً، لكنه يكفي لضمان شيخوختها من دون مخاوف، والتي وظفتها كلية في خدمة المكائد والطّعن بالأعراض.

وهكذا أصبحت الدونا دينورا فوق الستين، ذات صوت حادّ وقهقهة موتّرة للأعصاب، دائمة الاضطراب. فالتي تبدو عجوزاً وحيدة مجرّبة، هي في الحقيقة «قارورة سم، أفعى كاسكافيل مموَّهة بريش العصافير»، كما وصفها ميراندون بعبارة شعرية له، الضحية الأزلية لهذا النوع من العرّابات. وقد قالها للصحافي جيوفاني غيمارايس عندما رأى السّتينيّة تمرّ به، وقد مضى عليها وقت طويل أرملة حارسة للأخلاق، وذلك بمناسبة الغداء في منزل الدونا فلور، حين زيارة سيلفيو كالداس، وأكمل بنفحة الفيلسوف الأخلاقي:

– إنها رصينة في شيخوختها بقدر ما كانت عاهرة في صباها. فهي عاهرة وشريفة.

– تلك المرأة الهزيلة البشعة؟ من هي؟

– لم تكن في أيامنا، لكنها كان لها اسمها ولقبها. اسأل عنها من يعرفها تماماً، أي أناكريون، فلقد شرب من إبريقها. هل سمعت بعضهم يتحدث يوماً عنها بالذات، إنها المعروفة بدينورا: العجيزة الرفيعة.

عقد الذهول والغمّ لسان جيوفاني، ثم قال:

– أهذه هي؟ هذه العجيزة الرفيعة التي يذكرها الجميع؟ يا إلهي!

اعتبرها الاثنان بتواضع، برهاناً على أمور هذا العالم التافهة، أمام ذلك الاستعراض للفضيلة وأمام جسم بهذه التعاسة: قصيرة مدوّرة، قوية البنية، قصيرة الساقين، مؤخرة واطئة، كبيرة الرأس ترتدي ملابس الحداد وكأنها فعلاً أرملة حقيقية، تتدلى من عنقها ميدالية فيها صورة للكوميندادور، وتتحدث عنه وكأنها كانت زوجته، كأنه كان الرجل الوحيد في حياتها. كانت تتصرف مع أناكريون بتجاهل كأنها لا تعرفه أبداً.

كانت داهية من الدّواهي، فما سلكت يوماً طريقاً مباشرة لتوجيه الاتهامات، بل كانت تزعج الآخرين بنعومة، مظهرة أنها تفهم كل شيء وتعذر كل شيء تطري البعض وتلوم البعض الآخر. من هنا شهرتها كامرأة طيبة القلب لطيفة، والمدائح منثورة في طريقها المحفوف بالوشايات: «فيا لها

من مخلوقة طيبة تذهب إلى هناك...» وعندما تُضبط متلبّسة بالمكيدة، لعامل نحس ما، تتظاهر بأنها ضحية، أرادت أن تقوم بعمل خير، فتلقت ثمن ذلك، عدم امتنان أسود.

– السيد زيه سامبايو رجل وديع يبكر إلى الفراش مع عاداته السيئة المعروفة. جرائد اليوم والمجلات القديمة (كان يعبد قراءة المجلات القديمة والتقاويم العتيقة). حالما سمع لغط الدونا دينورا، وضع يديه على أذنيه، مرتعباً، قائلاً لدونا نورما بصوت المغلوب على أمره إنما بإصرار على أنّه عاجز عن التآلف مع إزعاجها:

– هذه المرأة هي ابنة عاهرة، أكبر ابنة عاهرة هنا....

– أهكذا تقول؟ لا تبالغ في سوء نيّتك... بل إنها طيبة القلب...

هنا برزت مهارة الدونا دينورا؛ فقد تمكنت أن تتجاوز قصة ابن ديونيزيا، عندما تراجع رصيدها إلى الصفر، وعادت تلقى تقدير الدونا نورما ولكن ليس تقدير السيد سامبايو.

– ابنة عاهرة طيبة... من فضلك لو استطعتِ، اعملي معي معروفاً لا تسمحي لها بأن تدسّ أنفها هنا في غرفتي. قولي لها إنني نائم، إنني ارتاح... قولي لها إنني ميتٌ...

لكن من هي الدونا نورما لتمنع الدونا دينورا من أن تدس أنفها حيثما تشاء؟ كانت تدخل من دون استئذان، منازل كل الناس المحترمين الأغنياء فما بالك الفقراء! طيبة، لكن طيبة متشامخة نائية، تبدو وكأنها تدافع عمّن يفتقرون إلى الحماية، لكنّها، في الوقت نفسه، تبقيهم بعيداً عنها في الموقع الذي يستحقونه، أدنى موقع، من دون أن تقدم لهم المساعدة. ها هي تدلف إلى الرواق ثم إلى الغرفة:

– أتأذن لي بالدّخول سيد سامبايو (كان زيه سامبايو يكره ذلك الرأس المصبوغ بالأوكسيجين، «رأس الفيل، أكبر رأس في باهيا»، وأسنان الحصان، وذاك الصوت والحرص) دائماً مريض يا سيد سامبايو؟ طول عمري أقول: «السيد سامبايو رغم ذلك الجسد، صحته هشّة. أي

مرض بسيط ينتابه يجعله يرتجف في السرير، غارقاً في الأدوية». قلت وأقول: «إذا لم يحترس السيد سامبايو فسينهار يوماً من الأيام..».

كظم السيد سامبايو غيظه، كان يودّ لو طردها برفسة من قدمه:

– صحتي من حديد يا دونا دينورا....

– ولماذا تبقى هكذا، في السرير، سيد سامبايو؟ لماذا لا تنهض فتنور الناس بحديثك؟ أنت مثقف كبير، وكل الناس يقولون إنك أيّها السيد لم تتخرّج لأن... حسناً، أنت أدرى! فالناس تثرثر كثيراً.. ولو أصغينا إلى كل ما يقولونه... أنا لا أهتم، ادعهم يتكلمون، يدخل كلامهم من أذني هذه ليخرج من أذني الأخرى..

عرف زيه سامبايو إلامَ كانت تلمّح: إلى مرحلة شبابه عندما كان الابن المدلل، المتهتك الشقيّ. استاء الأب من تهتّكه فقطع عنه المخصصات الشهرية، عندها اضطر لترك الدراسَة، وأصبح يعمل على صندوق المبيعات في المتجر.

– دعي الناس يتكلمون يا دونا دينورا، فالأمر غير مهم...

– أتعتقد أنه يجب ألّا تهتم لما يُقال عنها؟ أليس هذا ما يجب أن يحدث؟. أخذت تحدّق إليه بعينيها الواسعتين كعيني الثور وكلّها انتباه، كما لو كان زيه سامبايو يردد كلام الآلهة في الزمن الحاضر.

– أنا، على كل حال... وتابع بصوت مرتفع: «هل تريدين أن تعرفي ما أريده يا دونا دينورا؟ أريد السلام، أريد أن أرتاح... في سبيل شيء من السلام، قد أعطي الحق لمن ليس لديه الحقّ. وحتى عندما لا أستطيع أن أجد السلام..؟ يلحقني الإزعاج إلى هنا... عن إذنكِ...».

تناول الجريدة، وأدار ظهره إلى الزائرة. «زيه سامبايو أشد وحشية من دابة» – شعرت الدونا نورما بالخجل – «ومع الدونا دينورا، الطيبة القلب جداً...».

كان خشناً فعلاً، لكن بلا جدوى، فلم تقبل الدونا دينورا الهزيمة فأصرّت على خبثها:

– أعلمت أيها السيد بما جرى للسيد فيفالدو؟

بئس هذه الشيطانة! ألم تستطع أن توقظ فيه الاهتمام؟ ترك زيه سامبايو الجريدة، مغلوباً على أمره:

– لفيفالدو؟ كلا، لم أعلم. ماذا حدث؟

– سأروي لك... السيد فيفالدو، رجل مستقيم، جميل، ذو بشرة دكناء، يبدو كأنه غرينغو...

هكذا كانت دائماً، بعد الإطراء يأتي الهجوم والقذف والوشاية عن إدمان المسكر عن كتف زوج واسم امرأة، دائماً هناك اسم امرأة، غالباً ما تكون عاهرة.

وادّعت أنّ السيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى لا يقيم احتراماً لشواهد القبور والتوابيت، فيجمع، في أماسي أيام السبت خلف الستائر الحمراء الفاتحة الموشاة باللون الفضيّ، مجموعة من المارقين في لعبة بوكر لعينة تدور عليها مراهنات باهظة وتبذّر فيها كميات كبيرة من الكونياك والجينيبرا:

– «هذه قلّة احترام، ألا ترى معي ذلك يا سيدي؟ كان بوسعه أن يتدبّر مكاناً آخر لشره هذا...»، وسرعان ما انتقلت إلى مسألة أخرى: «ألا تعتقد أيها السيد أن القمار هو أسوأ الشرور؟».

لم يكن زيه سامبايو يعتقد شيئاً، ولا يريد أن يعتقد شيئاً. جلّ ما كان يريده أن يُترك بسلام. لكن الدونا دينورا استمرت تطلق عليه النّار وقد تفلّت لسانها من عقاله «لا شك في أن السيد فيفالدو شريف مندفع وزوج ممتاز، ووالد رائع لعائلته، لكنه يخاطر بكل ذلك. فالمقامر يفقد السيطرة على نفسه، إن عاجلاً أو آجلاً، ويقامر حتى بامرأته وأولاده. إذا لم يفعل، يتركهم تحت رحمة الله، للإهمال، في هوّة اليأس. أي مثال أفضل من الدونا فلور؟ حينما كان زوجها الشقي حياً كان عبداً للقمار، ينتف ريش الجحيم من أجله، يسيء معاملتها، يتركها وحيدة تعاني الأمريّن... وانظروا اليوم إلى الفرق: ها هي أخيراً متحرّرة منه، تستطيع التمتع بالحياة من دون فواجع، من دون أحزان.

وبالمناسبة، «ما دمنا نتكلّم عن الدونا فلور، فما رأيك يا سيد سامبايو، وأنت يا نورمينيا، يا حبيبتي، ما رأيك؟ أليس من الظلم - وهي العصرية الجميلة - أن تستمر في حزن الأرملة على ميت لم يكن يُرجى منه الصلاح؟ أليس هذا صحيحاً؟ ولماذا يا نورمينا، وأنت صديقتها الحميمة، لا تزودينها ببعض النصائح؟»، وفي هذه الأثناء ستدرس هي، الدونا دينورا، المسألة على ضوء اقتران النجوم، في كرة البلّور وفي ورق اللعب فهي تهوى قراءة المستقبل.

كمجرّد هاوية لأنها لا تتقاضى نقوداً، كانت تقرأ الطالع مجاناً وتلبي الطلبات بدافع الروح الرفاقيّة. لكنّ قلّة من المحترفات يضاهينها في كفاءتها في التنبؤ. كانت قادرة، أقلّه، على كشف كل أنواع الحقارات بحاستها السادسة، بالحدْس الذي تتفرد به. كانت موهوبة في قراءة المستقبل الذي وصلت فيه إلى أعلى المستويات.

ألم تكن هي التي تكهنت، بأسبقية سنة، بالفضيحة الموجعة في عائلة لايتي، وهم أصحاب مال وفير وعجرفة كبيرة، منعزلين عن الناس خلف أسوار دارتهم الراقية المطلة على البحر في لاديرا دا بريغيسا؟ ترى أقرأت ذلك في أوراق اللعب المتسخة، أم نظرت في كرة البلور الزائف، أو أن غريزتها السادية هي التي أنذرتها بما سيحدث؟

حالما وصلت أسترود من الريو، الملاك ذو الهيئة الطيبة، وهي طالبة داخلية في مدرسة القلب الأقدس، لتعيش مع أختها، أنذرت الدونا دينورا حالاً من دون أي سبب واضح، بالمأساة:

- سينتهي الأمر بمأساة...

هذا ما تنبأت به عندما رأت الفتاة في السيارة مع صهرها، الدكتور فرانكولينو لايتي - ولقبه «الماجن فرانكو» ضمن دائرة أصدقائه الحميمين المحدودة - وهو محامي شركات كبيرة، وطنية وأجنبية، يعاقر الويسكي، صاحب مزرعة في السرتون وعضو مجالس إدارة شركات ناجحة، سيد عظيم النّبل شديد العجرفة. كان يجلس وراء مقود سيارة السباق الكبيرة الأميركية ملتفحاً بالشّال، غير منتبهٍ للغط عامّة الناس في سودويه، في أريال وفي شارع دا فورساوفي كابيسا، في ساحة «الثاني من تموز/ يوليو». لكنّ الدونا دينورا كانت تلاحقه ولا تتركه يغيب عن بصرها. كانت تعرف

أدقَّ التفاصيل عن حياة الدارة الكبيرة المحترمة؛ فهي صديقة حميمة للطاهيات والنادلات وللغلمان والبستاني وحتى للسائق. كانت ترمق المحامي وابنة حميه بعينين زاخرتين بالهواجس:

– سينتهي الأمر بسوء، سترون... وضعوا البارود قرب النار...

لم تتأثر بهيئة الطالبة البريئة:

– فتاة دنيئة النظرة قليلة الحياء تتحيّن الفرصة المناسبة...

بدا اتهامها في منتهى الظلم بعيداً عن المعقول لدرجة أنها سمعت كلمات قاسية وأهينت بإشارات استهجان من فتى جار للعائلة المذكورة، هو كارلوس باستوس، معادٍ للقيل والقال وربما سحرته أسترود الحلوة:

– لا تلوثي طهارة الفتاة بلسانكِ المُفتري...

ولما انفجرت الفضيحة، بعد سنتين تقريباً، حين طردت الأخت الغاضبة أسترود البريئة المظهر – ببطنها الحامل بخمسة أشهر من تحت سقف المنزل مع الماجن فرانكو ذي البطن المشبع – شكّل ذلك أدسم طعام للمدينة بأسرها، وردّت الدونا دينورا الصّاع صاعين للرومانسي كارلوس باستوس (ربما كان لا يزال يحبها):

– هل رأيت أيها الأبله؟ لا أحد يخدعني... اللسان المفتري لا يضع طفلاً في بطن فتاة، بل قلّة الحياء هي التي تؤدي بها إلى الحبل.

كانت لها عينان ثاقبتان تريان الآتي وتتنبآن بالمستقبل، تماماً كحاسة الشم عند كلب صيد، ولم ينج أحد من يقظة حواسّها. ويجدر القول إنّ الجيران أنفسهم كانوا يأتونها ليرووا لها خصوصياتهم الحميمة جداً، ولكي يطلبوا منها استعارة ورق اللعب والنّظر في الكرة البلورية. بالنسبة إليها، كان الماضي والحاضر والمستقبل أوراق لعب مكشوفة، سهلة القراءة.

سواء أكانت لها معرفة حقيقية عميقة بالسحر أم لا، أم كانت مجرد هاوية تتجيم من دون أن تكون لها معرفة عميقة به، أم كانت معلمة في علوم الشّرق السريّة، فالحقيقة تُقال: إنها أوّل من

أعلن عن زواج الدونا فلور الجديد حالما خفّفت الأرملة من حدادها لتعود إلى حياتها العادية، من دون منغصات أو مشكلات، بحضور خجول، لا يخطر على بالها مطلقاً أي تفكير متعلق بالزواج ثانيةً.

لقد أعلنت عن العرس وميّزت وجه العريس قبل زمن طويل من بدء الكلام في مسألة الخطبة، وبالتأكيد قبل أن تُدْرَك المشاعر والاهتمامات. فإذا وُجد عند «فلان» ميل خفيّ إلى الدونا فلور، فإن أحداً لم يعرف بوجوده، والأرجح أنه بالذات لم يعترف بذلك لنفسه. حسناً، صدّقوا أو لا تصدّقوا لقد وصفت الدونا دينورا العريس بالتفصيل: أسمر متوسّط العمر، طويل القامة متين البنية، شريف أنيق في الأربعين، جدّي التصرّفات، بشوش، يحمل في يده اليمنى عصاً مستقيمة، وبرعماً من الورد بلون النبيذ. هكذا تبينته في كرة البلّور. الدّامات والملوك والشبان وآسات السبّاتي، والقضبان والكوبا، كلها تؤكد لها ملامحه العامّة ونيته الشريفة في الزواج، مضيفة إلى ممتلكاته وأمواله وذهبه الإشارة إلى أنه يمتلك مؤسسة اقتصادية، ويحمل لقب الدّكتور.

3

لم يكن الأمير متوسط العمر لكنه كان أسمر اللون متين البنية، طويل القامة، أربعينياً متأنقاً. فباستثناء سلوكه المحتشم وجماله كان في مسلكه الكثير من الغرابة. وأخيراً، كان من الصعب عليه حشر نفسه في إطار صورة عريس المستقبل كما رأته الدونا دينورا في كرتها البلّورية ونقلت صورته إلى الجماهير الشعبية في ساحة «الثاني من تموز/ يوليو»، ودفعت بذلك نقابة العواذل الشرسة إلى ذروة الإثارة.

كان رقيقاً شاحب اللون كأنه شاعر رومانسي اوجيغولو، أسود الشعر أملسه، يرش البريانتين والعطر بلا حساب، وابتسامته تتردّد ما بين الكآبة والإقناع، يوحي بعالم من الأحلام، أنيق الشكل والثياب، عيناه واسعتان ضارعتان، العبارات الطيبة في وصف الأمير ستصبح رفيعة الأسلوب: «شبيه المرمر»، «ممتقع»، «مكتئب»، «وسيم»، «جبين الرخام المعرق وعينا العقيق اليماني». أكبر من الثلاثين لكنه يبدو وكأنه بالكاد قد تجاوز العشرين. أما الحزن الذي يغلف وجهه

فهو من أدوات عمله، تماماً كالكلمة السهلة والنظرة الخادعة، فهو محترف ماهر ناجح في تخصصه الغريب النادر. ذلك أنه متخصص بالأرامل، بعد دراسة طويلة وخبرة عميقة.

على وجه العموم، هو معروف باسم الأمير في أوساط اللصوص وفي أوساط الشرطة (وأين هي الحدود، إذا وُجدت، التي تفصل بين هذين العالمين المتضادّين في الظاهر، المتشابهيْن في الواقع؟) لقد استحقّ لقبه عن جدارة لطيبة سلوكه، وإخلاصه في التعامل، ولنسبه. في الحميمية الودودة في شقق العازبين، وضمن نطاق الجانحات الضيِّق، كانوا ينادونه أيضاً بالسنيور دوس باسوس، لوجهه الذي يبدو ضامراً وكأنّما من تأثير الصيام، ولجسمه الهزيل. وفي الواقع كان اسمه إدواردو، وهو من أنشط المحتالين في المدينة وألطفهم، وأفضل من يختلق قصص الاحتيال. أما اسم عائلته فلن نذكره هنا من أجل فهم أفضل لقصة الدونا فلور وزوجيها الاثنين، حبكة وحلّاً.

لطالما كتم الأمير اسم عائلته؛ ولم تنشره الشرطة عندما كانت على علاقة مباشرة مع الشاب، ودعمته الجرائد في أعمدة صفحاتها، عندما كانت تلحظ مروره (السريع عموماً) في السّجن، لم تكن تورد اسم عائلته مستعيضةً عنه بالتعبير المبهم «المدعو»:

«أُلقي القبض أمس في ساحة دا سيه، على المتسكّع إدواردو المعروف في عالم الجريمة السفليّ ب– «الأمير»، وذلك بتهمة استغلال ثقة الأرملة جولييتا فيلول التي تقيم في بارباليو، وغرّرها بالخطبة ووعدها بالزواج، لكي يتردد إلى منزلها إلى أن اختفى مع مجوهراتها وكونتوين من الريالات من نقودها».

وهكذا اتفق الجميع على صون اسم عائلة اللّص وهي عائلة عريقة محترمة في فيرا سانتانا. فإذا كانت السلطات والصحافة والإذاعة قد سلكت هذا النهج بالنسبة إلى اسم عائلة الأمير فلماذا نكون نحن الاستثناء السيئ، ونقذف إلى كلاب الوشاية والفضيحة بشرف واسم عائلة محترمة طالما استحقت احترام الآخرين لتنهش فيهما وتوردها موارد اليأس والقنوط؟ لنتصور المأساة التي كانت ستحدث فيما لو وقفت الدونا دينورا وجيشها من الطوباويات على حقيقة أقرباء المحتال، حتى ولا أحفادهم، ولا أحفاد أحفادهم سيستطيعون تنظيف اسم الأجداد «الملطّخ إلى الأبد بالوحل، الغارق في مستنقع العار» (كما يؤكد الأستاذ إيبامينونداس سوزا بينتو). وفي الوقت نفسه وقعت الطوباويات

جميعهن أسيرات سحر أسلوب الأمير وشحوبه الرومانسي. حتى الدونا دينورا نفسها، ألم تحاول، في لحظة معيّنة، تعديل ملامح نُبُوءتها لتقرِّبها من ملامح المخادع؟ كلّهن استبدّ بهنّ الهمّ حينما ظهر ميراندون مع زوجته وأبنائه الثلاثة، ليزور عرابته الدونا فلور، وأعطى نبذة كاملة عن هويته قائلاً: «هذا المرء لا يربطه بالإنسانية إلا الاسم».

منذ البداية اتّسمت هذه القصة عن الأمير، الذي راح يجوب تلك الأنحاء بأناقته الخدّاعة، بالارتباك والعرقلة. وهذا كان مناخه العاديّ، جوّه المفضل، حيث يتحرك ويتصرف بمنتهى السهولة.

كانت الصديقات والثرثارات يتندرن ضاحكات بالوصف الذي قدّمته الدونا دينورا لعريس المستقبل، وسرعان ما ذاع الخبر من فم إلى فم، بين الثرثارات المزعجات، عندما ظهر الأمير يسير على الأرصفة متنهداً سير رجل واقع في الحب.

جميعهن ضحكن متندِّرات: الدونا نورما والدونا جيزا وآمبليا رواس والدونا إيمينا، والطوباويات العواذل يبحثن بلا كلل عن الفارس الموصوف. لكن، والحقيقة تُقال، لم تكن الإشبينات وحدهن اللواتي تورطْن في البحث العقيم، فالدونا جيزا نفسها جابَتْ بنظرتها السيكولوجية في مجموعة الذّكور في الجوار، باحثةً عن «الأربعيني المتعجرف». بالنسبة إلى الدونا نورما، حدّث ولا حرج، فبعد السهر الطيب على المتوفى وما تبعه من دفن من الدرجة الأولى، لم يكن هناك من أمر يفرحها أكثر من حدوث الخطبة والزواج. ولن تتمكن من إحصاء عدد الفتيات والفتيان الذين ساهمت بزواجهم حتى وقفوا أمام القاضي أو الكاهن، متغلبين على المصاعب، منتصرين على العوائق وعلى سوء فهم المعارضة الشرسة من عائلاتهم. فشلت فقط مع فالدولوير ريغو، وهو متردد لا مثيل له، ومع جارة لطيفة هي ماريا، وحيويتها أقلّ ممّا يجب. لكن حتى هنا لم تفقد الأمل في استقرار ماريا، ومن يدري؟ ربما مع فالدولوير بالذات.

راحت الطوباويات والصديقات على السواء يبحثن بكدٍّ عن الشخصية الغامضة التي تنطبق عليها المزايا الجسدية والخلقية للنبوءة، ثمّ، ألم تكن الدونا دينورا بخيلة في تبصيرها، في تنبّؤاتها غير المكتملة؟ فإذا كان عليها أن تصف عريس المستقبل، يجب ألّا تخفي أي تفصيل؛ كانت تصفه

بمرح وتبذير بخصائص وملامح عامة واسعة الإطار. فمن الصَّعب بمكانٍ أن نحدّد بواسطة الوصف صورة الفارس بشكل دقيق. فلمن توفّر مجموعة التفاصيل المتعدّدة؟

بدأت الطوباويات ينطلقن من مواطن إلى آخر في الجوار وأبعد بقليل، ولم يعثرن على من تنطبق عليه كلّ هذه الأوصاف. كان البعض من خريجي الجامعات الذين لديهم بعض المال، لكنهم ليسوا في السن المطلوبة اللازمة. وآخرون كانوا في السنّ المناسبة لكنّهم يفتقرون إلى السُّمرة وخاتم التخرّج ناهيك عن بعض التّفاصيل الثّانوية. ومع كل ذلك ظهر مرشحون عديدون، وراحت كلّ تقدم مرشحها، هذا إذا لم تحضّر أكثر من واحد كاحتياط.

كانت الدونا فلور تسخر من الملهاة الكبرى، مبتسمة بوداعة. لمَ تضيع وقتها؟ إن فكرة الخطبة والزواج لا تخطر إلا في ذهن الدونا دينورا، لا في ذهنها هي ولمّا يمضي غير سنة على وفاة زوجها، وهي فترة أقصر من أن تستنفد بكاء الأرملة وتمجيد ذكراه وغيابه. يستطيع غيرها من الأرامل الزواج مجدداً بعد ثمانية أشهر من الحداد، إذا أردن ذلك. أمّا هي، فلِمَ تتزوّج إذ كان لديها كلّ ما تحتاجه. فقد كانت تؤمّن مأكلها وملبسها من تلميذات مدرسة الطَّهي، وإذا كانت صديقاتها، وهنّ كثيرات وطيبات، يُحِطْنها بأسباب الرّاحة. فإذا لم تكن تفتقد لدفء الرجل، أمور ماتت إلى الأبد، فلماذا تتزوّج؟

كانت تواجه التحريضات الودّيّة ومحاولات الدونا نورما والدونا جيزا اللتين كانتا، هما أيضاً، تقدّمان لها رؤوس المرشحين على أطباق الصداقة بابتسامة شبه حزينة وباطمئنان إلى نيّتها التي لم تتغيّر.

كان مرشح الدونا جيزا المدرس المثقف أيبامينونداس سوزا بينتو، العازب الناضج، الأستاذ في المدارس الثانوية الخاصة والمؤرخ في أوقات فراغه. كان دائماً على عجلة من أمره ويتصبّب منه العرق، سيّئ الهندام، يرتدي بذلة بيضاء بصدار ومنطقتين من الجلد فوق فردتيْ حذائه وهو يحثّ الخطى نحو الستين عاماً، متقلّباً نوعاً ما، وتافهاً. كانت الدونا فلور تعرفه وتقدّره، لكن إذا كان لا بدَّ لها من أن تقلع عن تصميمها الراسخ في أن تظلّ أرملة فلن يكون ذلك بالتأكيد كي تتحول إلى زوجة للمدرّس مهما بلغت فصاحته ونبرته الخطابية وبساطة ذوقه (ناهيك أمانته وأناقته،

وفذلكته اللغوية). كانت الدونا فلورتضحك وتمزح: صحيح أنها أرملة فقيرة، لكن الأمور لم تصل إلى هنا.

وضحكت معها صديقاتها. كانت الدونا نورما تتردد بين مرشحين عديدين، إذ كانت تعرف نصف الناس. الدونا آميليا، في جولاتها مع كثير من الآخرين. الدونا إيمينا، التي تميل لمرشّحها ماميدي، أحد مواطنيها السوريين، وزميلها في الترمل وجمع الأشياء القديمة، وهو جار غير مقيم على نحو متواصل؛ يبقى في الولاية لشراء أيقونات قديسين عتيقة ومقاعد مهشمة وبلّور مشطور وحتى أصص عتيقة. ماذا؟ ماميدي؟ إنه دميم مثل الحاجة، وأسوأ بكثير من المدرّس إيبامينونداس؛ كان هذا رأي الدونا فلور.

حتى الدونا إينايدي تكلّفت مشقّة الحضور من شامي – شامي، وفي قبضتها مرشح للزواج، شقيق زوجها المعروف في الأماكن النائية المنخفضة من نهر سان فرانسيسكو، أسمر في الخامسة والأربعين، أقرع هزيل جداً، لكنه مرح ومسلٍ، جمع ثروة لا بأس بها، واسمه آلويزيو. كان بين كل المرشحين، الأكثر شبهاً بالذي وصفته الدونا دينورا، هذا، إذا وثقنا بكلام الدونا إينايدي. فهو حائز خصوصاً لقب الدكتور لأنه محامٍ بالممارسة لا بالشهادة، له عملاؤه، وذلك قبل أن يتورّط بالسياسة وبؤسها.

عيبه الوحيد أنه لم يكن عازباً إلا في العرف الديني، أما في العرف المدني فكان متزوجاً. ساءت الحال بينه وبين زوجته، فانفصل عنها منذ أكثر من عشر سنوات. عندما كان فتياً كان ماسونياً ومناهضاً للإكليروس، لذا، استخف بالزواج في الكنيسة، لكنّه الآن مستعد للقبول بزواج كنَسيّ إذا أصرت العروس عليه. لماذا لا ترضى الدونا فلور بزواج يعقده الكاهن، وهو في نظر معظم الناس الزواج الوحيد الصالح، لأنه مبارك من الرّب، أما الزواج المدني فليس أكثر من مجرد عقد بسيط مثبت أمام القاضي، كأنه صفقة تجارية بحتة؟ لقد كتبت الدونا إينايدي رسالة إلى قريبها تمدح له فيها جمال الدونا فلور وطيبتها. «أكون مجنونة لو فكّرت بالزواج، ومجنونة أكثر لو اتخذْتُ عشيقاً سواء بمباركة الله أم من غير مباركته» ناهيك عن العيش في تخوم جوداس، عند ضفاف نهر سان فرانسيسكو حيث الملاريا. أوضحت الدونا فلور أنها غير مؤهلة لذلك، ها هي

الدونا إينايدي، التي تدّعي أنّها صديقتها، تأتي من شامي – شامي لتعرض عليها العار والنفي. هذه مهزلة، للضحك لا أكثر ولا أقل.

كان لكل مرشح صفات تُميّزه تتوافق إلى حدّ معيّن مع نموذج الدونا دينورا. لكنّ الأمير كان الأقلّ شبهاً بين الجميع بالنموذج المذكور: فلا مال لديه ولا لقب الدكتور، وعمره غير مناسب وكذلك الطول الفارع. وعندما بدأ تمركزه في الشارع وراح يقيس بخطى مضطربة رصيف منزل الأرجنتيني المؤلف من طابقين المواجه لنوافذ «مدرسة الطَّهي مذاق وفن» عزت الدونا فلور ظهوره الشاعري إلى اهتمام عاطفيّ بتلميذة شابة أو تدبر لقاء امرأة متزوجة غير محتشمة.

كان من الشائع أن تجيء فتاة بمعيّة حبيبها الذي يعود متنهداً ثانية إلى ناصية الشارع قبيل نهاية الدروس ليرافقها في طريق العودة. وهناك متزوجات يستخدمن المدرسة ستاراً لأعمالهنّ المخجلة ليغرسن زوجاً من القرون في جبين كل زوج من أزواجهن، مستغلّات التوقيت المرن للصف أفضل استغلال. يظهرن في درس واحد، ثم يتهرّبن من الدرس التالي أو، حسناً، يحضرن بداية الدرس حين تملي الدونا فلور عليهن وهن يكتبن في دفاتر عناصر الكيتوتي، وبهذا يصنعن في بيوتهن البرهان العمليّ على ارتيادهن المدرسة. أما الحقيقة فهي: نصف ساعة في المدرسة، وساعة ونصف الساعة في شقق العازبين!

هكذا، عندما رأته الدونا فلور خامداً لصق العمود يدخن بدون توقف، منتظراً، تصوّرته عاشق فتاة معيّنة. على الأرجح حبيب أصغرهن فقد كان وجهه شبيهاً بوجه ولد.

ومرّت الأيام، ولم يفاجئها بصحبة أية تلميذة، وما زالت تراه دائماً هناك طوال ساعات حتى في الليل، ينظر إلى نوافذها. حتى استنتجت، إزاء هذا التوقيت المستحيل، أن لا شيء مشتركاً بين إلحاح العاشق وتلميذات الفرن والطباخ. لكن إذا لم يكن يهتم لتلميذة من مدرستها، فما هو هدف نظراته وتنهداته؟

المؤكد أن ماريلدا، ليست أيضاً هدف حضوره الكئيب. ولو رأى إنسانٌ ما الفتاة تقضي في منزل المدرّسة وقتاً أطول ممّا تقضيه في منزلها بالذات، لتصوّر أنها شقيقة الدونا فلور أو ابنة

أخيها. وكلتاهما كانتا تتمتّعان بلون البشرة الناعم نفسه، والسمار الذي لا يضاهى كزهرة الشاي، كزهرة المتّي الرائعة، فهي مزيج من الدم الهندي مع الزنجي ومع الأبيض ليخلق هذا الخليط المتقن.

ترى أهي ماريلدا التي أثارت المتنهد أو جعلته على مثل هذا الإحباط؟ لقد بلغت الفتاة السن التي تسمح لها أن تحب. بعد سنتين ستنتهي دراستها التعليمية وتصبح خليقة بالخطبة والزواج. لقد تنبهت للوضع، أي اهتمام المذكور، لكنها عزته إلى اهتمام بغيرها. مثلاً بماريا المرتابة أو ابنتي الدكتور إيفيس الجميلتين وربما بالمدرّسة الصغيرة بالبينا، من يدري؟ لكن أيّاً من هؤلاء لم تكن تعيش في مواجهة العمود، ولن يرى من هناك نوافذها، والحقيقة أنه بقي يحدِّق إلى نوافذ قاعة الزوار في منزل الدونا فلور، حيث تلبث ماريلدا طويلاً مصغيةً إلى الراديو تقرأ الروايات من «مجموعة البنت والشابة»، وكان بمقدورها أن ترى من هناك المراقب العنيد والكئيب في وقفته.

نظرتا إليه من ثقب النافذة: «إنّه جميل». تنهدت ماريلدا ذات القلب المتقلّب وقد أصبح مستعداً للتضحية بعلاقتها الغرامية مع ميسيناس، زميلها في المدرسة، المراهق الذي في عمرها بالذات. ووافقتها الدونا فلور: غرام مراهقة فهو لا يزال حدثاً، لم يبلغ أكثر من ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين سنة. وسعيتا للحصول على معلومات، لمعرفة ما إذا كان يمارس عملاً حراً مربحاً، أو إذا كان موظفاً وظيفة حسنة في مصرف أو مكتب ما. قد يكون ثرياً، وهذا ما يبدو، وإلا لم يكن ليجد الوقت الكافي لاستعراض نفسه في الشارع، مستنداً إلى العمود أمام منزل الدونا فلور.

أنفقت ماريلدا ابتساماتها بلا طائل، إذ لم يتجاوب معها. راحت تخرج من المنزل في اتجاه الساحة أو حسناً، إلى حيث تجلس مرتابة عند حاجز فناء كنيسة سانتا تيريزا، أفضل مكان لتصريحات الحبّ وحلف الأيمان، ولم يوجد ولن يوجد إطلاقاً مكانٌ أفضل منه للغرام، بسمائه الزرقاء القريبة جداً، والبحر تحته أخضر أدكن، وجدران المعبد الدهرية، وأيضاً، بالتأكيد، بركة الدون كليمينتي المتفهّمة لأيّ قبلة شاذة هرطوقية.

مع هذا، لم يلحقها الأمير، لا إلى ضجة الساحة، ولا إلى سلام المكان المرتفع فوق المياه وصمته. لم يهجر العمود كما لو كان مسمّراً إليه وقد ركّز عينيه على نوافذ المدرسة. حسناً، إذا لم تكن ماريلدا هدف تنهّداته فلمن تكون إلا للدونا فلور بالذات؟

هذا ما استخلصته الإشبينات والصديقات وحتى ماريلدا بالرغم من صغر سنها وقلّة تجربتها:

– أراه يضع عينه عليكِ، يا فلور.

– عليّ؟ هل جننتِ؟..

بعد ذلك بأيام، عندما ذهبت لشراء الحاجات مع الدونا نورما من متاجر شارع التشيلي رافقهما مستقلاً معهما الترام ذاته، وهو يدخن لفافة إثر لفافة ويبتسم بعذوبة ورقة متناهيتين. كادت الدونا نورما أن تغضب عندما تنبهت إليه، متخيلة الدونا فلور تخفي أسرارها عنها.

– حسناً جداً... ها أنتِ تطلبين الزواج ولا تقولين لي شيئاً...

– لا أعرف من هو... يعيش مزروعاً منذ بضعة أيام في مواجهة منزلي، لم أره من قبل قطّ، اعتقدت أن للأمر علاقة بتلميذة معيّنة، لكنني تبيَّنْتُ خلاف ذلك. وقلت ربما بماريلدا، لكن الأمر لم يكن متعلقاً بها هي الأخرى، بل إن المسكينة الصغيرة أصبحت حزينة. لا أعرف ماذا أقول...

راحت الدونا نورما، وهي مُثارة تماماً، تتفحص الأنيق جداً بنظرات طويلة مباشرة، حتى هي نفسها فكرت بأنها نظرات غير محتشمة وقالت:

– «جميل جداً... إنما يبدو عصرياً أكثر من اللازم...» وبعد نظرات جديدة، صححت قائلة: «ليس عصرياً جداً بل والحقيقة تُقال هو أجمل ممّا يتلاءم مع ذوقي...».

– جميل أم دميم، لا يهمّني...

قفزتا من الترام، وهو وراءهما. في لحظة حاولت الدونا نورما تضليله ليفقد أثرهما. وسرعان ما توضّح الأمر تماماً، لم يحاول الاقتراب أو أن يوجه إليهما أي كلمة، لكنّه احتفظ بمسافة حذرة منهما مع ابتسامته المغرية ونظرته الضّارعة، فلم تغيبا عن نظره لحظةً واحدةً. فإذا دخلتا متجراً،

ينتظرهما عند الباب، وإذا انعطفتا يتبعهما، وإذا وقفتا أمام واجهة يراقبهما من الواجهة الملاصقة. هل ما زال هناك أي شك في قصده؟

بدأت الإشبينات يصلن زرافات ووحدانا ليتلصّصن عليه وهو واقف عند العمود. وبما أنه كان جميلاً ويبدو بائساً، وبما أنّ نظرته وابتسامته تفيضان رقّةً وعذوبةً وأملاً، فقد كان ذلك كله، لمصلحته، حتى حاولن جعله يتطابق مع ملامح العريس التي كشفتها كرة البلّور. أما كان أسمر اللون محتشماً، ربما كان دكتوراً وذا مال؟ أما بالنسبة إلى العمر والخصائص الجسدية الأخرى، فربما يعود عدم تطابقه معها إلى قصر نظر الدونا دينورا، التي رأت النضج حيث كان يجب أن ترى الشّباب، والجذع القوي حيث كان يوجد الصدر الضعيف، والصحة الحديدية مكان الضعف الشاحب. وارتأت كلّ الإشبينات أن من الأفضل للمبصّرة أن تستشير من جديد كرة البلّور والورق لتضع حداً لتلك التناقضات الغامضة. وهكذا أثارت الدونا دينورا، تجاوباً منها مع إلحاح الحيّ المضطرب، موجة متنامية من التعاطف والتضامن مع إدواردو، أمير الأرامل، الذي أرسى مركبه عند عمود الكهرباء، حيث كان ينظر إلى منزل الدونا فلور، محطته القادمة، الميناء الذي سيُزوِّده بالماء والمؤن.

لكنه حدث أن تكرّر في كرة البلّور وفي قراءة الورق، ظهور الصورة الجانبية الحيّة للأربعيني الأنيق، بخاتم الدرجة العلمية ووردته التي هي بلون النبيذ. ولأن الرؤية مغشّاة بالدّخان، كما يحدث دائماً في غموض التظهير، لم تستطع الدونا دينورا التدقيق في خصائص الحجر الكريم في خاتم الدكتور، والذي يظهر مهنته، لكن بوسعها أن تؤكد تأكيداً مطلقاً مع شيء من الحسرة على الشاب الشاحب المتنهد في الزاوية، أن لا شيء مشتركاً بينه وبين طالب الزواج الحقيقيّ، فعريس المستقبل سيظهر لاحقاً.

وكمْ كدَّتْ وجدَتْ، منحنية على البلورة الشفّافة، أو فوق ورق اللعب المكشوف، مركزةً على الهنود الذين يطفون بشفافية في نهر الغانج، على أساطير معابد التيبت السرية، من دون نتيجة. بقيت قوى السحر الشرقي الخفيّة على قرارها الراسخ بنفي مرور الأمير إدواردو (المذكور). أما في سحر الكاندومبليه، في الأضاحي المقدّسة من حمام وديوك، وثور أسود من قبل ديونيزيا ده

أوشوصي لتصون عزّابتها الدونا فلور من الأعمال الشريرة للملاعين المحتالين، قام إيشو بإغلاق الدروب أمامهم موصداً الأبواب أمام الغاوي ملاطف النساء، الاختصاصي بلا منافس، في مواساة الأرامل، سارقاً قلوبهن المستوحشة، وفي طريقه أيضاً يسرق ممتلكاتهنّ ومدخراتهن، النحاسيات والفضّة والمجوهرات.

4

عاشت الدونا فلور أشهر الحداد الثمانية، بعد الشهر الأول المؤلم، في عاصفة من الاهتمامات والانشغالات البريئة. فحتى منتصف مرحلة الحداد، كانت تخرج قليلاً لتخفف من وطأة حدادها في زيارات إلى الخالة والعم في ريو فيرميليو، أو إلى بعض صديقاتها الحميمات؛ وتملأ وقتها في المنزل: بالتدريس، وبطلبيات الأطعمة، وبالجيران. في حزيران/ يونيو طهت أطباق الكانجيكا وأطباق الباموني والمانويه، وقطّرت شرابها الروحي من الفاكهة، شرابها المشهور من الجيني بابو. خلال فترة الأشهر الثلاثة الأولى من الحداد لم تفتح بابها لأحد، لا في ليالي القديسين أنطونيوس، ويوحنا، ولا في عيد القديس بطرس، شفيع الأرامل. وأوقد أولاد الحي شعلة على بابها وجاؤوا ليأكلوا الكانجيكا؛ كانت معهم الدونا نورما والدونا جيزا وثلاث أو أربع صديقات مقرَّبات من دون احتفال. كلّ أطباق الكانجيكا تلك وأطباق البامونيا وقناني الشّراب، قدّمت هدايا للخالة والعم وللأصدقاء ولتلميذاتها، في الطقوس الدينية في شهر حزيران/ يونيو، شهر الاحتفالات بالذرة.

أما بعد الشهر السادس وإلى حين ظهور الأمير، في كانون الثاني/ يناير، فقد ازدادت نشاطاتها الاجتماعية إلى حدٍ بعيد. لقد تخفَّفت من حدادها في أيلول/ سبتمبر عشية الأحد الأول، وهو مناسبة مقدسة يُقدّم فيه الكارورو السنوي في عيدي القديسين كوزمي ودوميان، مناسبة كان يفضّلها الرّاحل؛ فعندما كان فادينيو حياً كانت الاحتفالات تبدأ عند الصباح الباكر، مع الفجر حيث تُطلق المفرقعات، وتنتهي في وقت متأخر من الليل باحتفال صاخب رائع، والمنزل مشرع الأبواب للأصدقاء كما للغرباء. ووفقاً للعادة المتّبعة، طهت الدونا فلور الكارورو وقدمته بشكل محدود إلى بعض الجيران والأصدقاء، وهكذا وفت بالتزامها إزاء الميت. وجاء ميراندون مع زوجته وأبنائه، أما ديونيزيا ده أوشوصي فلم يأتِ معها سوى طفلها، إذ إن سميّ زوجها المتوفى كان يغلفه غبار الطرق وهو ينقل شحنة إلى أركاجو، وبينيدو وماسيو.

كانت الصديقات يرافقن الدونا فلور للقيام بالمشتريات والنزهات إلى دور السينما والزيارات. فحضرت مرّتين عرضاً لبرولوبيو قدمهما مع فرقته على مسرح غواراني. ذهبت أولاً مع الدونا نورما والسيد سامبايو، والمرّة الثانية ذهبت مع الدكتور إيفيس والدونا إيمينا، وفي كلتا المرّتين كانت تضحك ضحكاً متواصلاً.

أحياناً، كانت تبقى في المنزل، ترفض دعوة ملحاحة، فمثل هذه الطلبات الكثيرة كانت تتعبها. وهذا التعب هو المسؤول في رأيها عن أحاسيس معيّنة مزعجة يصعب تحديدها؛ كما لو أن الحركة والعمل والضحك لا تكفي لملء حياتها، فتصبح فجأة كئيبة وكل ذلك يرهقها إرهاقاً مفرطاً. ليس إرهاقاً جسدياً، فمثل هذا الإرهاق يفيد دائماً إذ يجعلها تنام الليل بأكمله نوماً عميقاً لا تنغّصه الأحلام. أمّا هذا الإرهاق فهو استهلاك داخلي، وعدم رضى.

لكنها، مع ذلك، لم تشعر بالمرارة، ولم يدم اكتئابها؛ فأصبحت حياتها مرحة وسارّة كما لم تكن يوماً من قبل. صارت تخرج وتتنزّه، فكان ثمة ألف أمرٍ وأمر يُشغلها، ناهيك عن المدرسة وما تؤمّنه لها مسؤوليتها فيها من تسلية. كما أن القنوط الذي كان يسيطر عليها من حين إلى آخر، مجرد غيمة تعبر أيامها الناصعة القلقة الفرحة. كان لديها صديقاتها والخالة والعم العزيزان وصحبة ماريلدا الدائمة، وهي في مقام أختها الصغرى، بل في مقام ابنتها، فتروي لها أحلامها، ورغبتها في الغناء في الإذاعة. كان لديها النزهات والراديو، المقطوعات الموسيقية والقصص، البرامج الهزلية، روايات «سلسلة للآنسات» تواظب عليها وتثيرها. هناك، القيل والقال من الإشبينات والتنجيم بالغيب من الدونا دينورا وأكوام المرشحين لطلب يدها حسب رغبة الجيران. ماذا كان طالبو الزواج سيقولون لو علموا بسوق الرقيق الجديدة هذه، هذه المهزلة المضحكة، حيث يعرضون على الدونا فلور، بعد وصف صاخب وتحليل مثابر لفضائلهم ولنقائصهم، بين التعليقات والنّكات والقهقهات المتواصلة؟ كانوا مرشحين من دون علمهم وربّما من دون رغبتهم، ورغم ذلك كانت ترفضهم واحداً تلو الآخر.

– السيد رايموندو ده أوليفيرا، أي واحد منهم؟ نحات تماثيل القديسين هذا الذي يعمل مع السيد ألفريدو؟ كلا، ليس هذا، يا جاسي، إنه طيب من دون شك، لكن مع ذلك الوجه الحزين، وذلك النمط من العيش في الكنيسة... تدبّري آخر، اعملي معروفاً...

لم يكن الآخرون أكثر ملاءمة على كل حال: فعندما كانوا يجمعون مواهب جمالهم الذكوري إلى مزاياهم كمواطنين، كانوا جميعاً متزوجين؛ فالمدرس اينريكي أوزفالد، من مدرسة الفنون الجميلة، من أقرباء أسرة آريال. المهندس شافيس، مع عمل له سيصدر عمّا قريب، كان صارخ الأناقة. السيد كارليتوس مايا في وكالة السياحة المزعزعة. والإسباني مينديز. والسيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى. ثم ذلك الذي كانت الفتيات يتنهدن له خفيةً– لأن الدونا نايير لم تكن تقبل أي حميمية مع زوجها، حتى بالتفكير–، جينارو ده كارفاليو أجمل من أي ممثّل سينمائيّ في رأي النساء.

حولت الدونا فلور رواية الزواج الجديد إلى سخرية، بحيث تحولت رويداً رويداً إلى مزحة تلاشت بذاتها، مشاريع ومرشحون. وهكذا استمرت حياتها هادئة وفي الوقت نفسه شيّقةً، إلى أن جاء كانون الثاني/ يناير قائظاً ومعه جاء الأمير ينزرع عند قاعدة العمود الكهربائي كما لو أنه تجذّر هناك.

منذ اليوم الذي خرجت فيه للتسوق مع الدونا نورما في شارع التشيلي، لم يبق هناك شك في هوية ملهمة الشاب الممتقع صاحب التنهدات العميقة والنظرات الفاترة. التهبت الدونا فلور خجلاً، وكأن ذلك الاهتمام يحمل في طيّاته إهانة خطيرة لوضعها أو يعني أنها لم تحسن استبقاء نفسها ضمن حدود التواضع والرصانة المطلوبين بشدة من أية أرملة . ترى هل كانت أرملة لعوباً وجريئة لكي يسمح لنفسه أي وقح بأن يحوم حول بابها ويتلصّص عبر نوافذها؟ يا للإهانة! يا للعار! فما هي نيّاته؟

لا شك أن نيته سيئة، كانا تردد الدونا فلور وهب تغلق الأبواب والنوافذ فيما الدونا نورما تنصحها بألا تستعجل. صحيح أنها، أي الدونا نورما، لم تتعاطف مع ذلك الإنسان – والواقع أنها تشتبه بمن يملك مثل ذلك الشعر الأزرق الكحليّ، الجميل «فوجهه وجه ولد وتصرفاته تصرفات محتال» لكن من يضمن أنهما ليستا مخطئتيْن وأن قصده ربما كان شريفاً ونيته حسنة، وأنّه بالذات طيب مستقيم جديرٌ بالاحترام، وربما، بنيل يد الدونا فلور وحبها!

سواء أكان جديراً بذلك أم لا، فالمهمّ أن الأرملة لم تكن راضية عن حياتها. وكانت نيّة الزواج مجدداً أضعف من أن تجعلها رهن غزل صغير تحت نوافذ منزلها يراودها عن نفسها كما لو كانت من الطائشات اللواتي يتجرّدن من حدادهن في شقق العازبين ويغلّفن بالعار أضرحة أزواجهن. سعت الدونا نورما إلى تهدئتها. فلِمَ ردة الفعل العنيفة هذه، لِمَ كل هذه الكراهية للشاب الذي لا يزال حتى الآن محترماً والذي لم يتعدّ بعد حدود النّظرات والمرافقة عن بعد؟ ولم تكن الدونا فلور أخيراً من السذاجة بحيث تتصور أنّها على هامش مغازلات الرّجال وتأملاتهم وأغراضهم الشريفة أو الدنيئة. فهي شابة وجميلة ووحيدة، فلماذا لا يرغبون بها ويحاولون الحصول على نعمها؟ فمن جهة، هذا تكريم لجمالها الباهر وبرهان على بائناتها وسحرها. أن تكون الدونا فلور قاطعة في قرارها بالبقاء أرملةً، جيد جداً؛ والدونا نورما لا توافق على مثل هذه البلاهة وإن كانت لم تناقشها الآن. إنما لأي سبب تسيئ معاملة من يقصدها بنية الزواج الشريفة؟ لماذا لا ترفضه بلطف: «هذا يزيدني شرفاً، لكنني بلهاء، لم يعد لفرجي وظيفة بعد اليوم، إلا للتبوّل، ولا أريد أن أسمع سيرة الزواج...».

ضحكت الدونا فلور من سلاطة لسان صديقتها، لكنّها بقيت على فورة غضبها الأولى، وعادت من جولتها الشرائية والمتوسّل في أثرها ثمّ أغلقت النوافذ في وجهه. تردّد لحظات، ونظر يمنةً ويسرةً ثم انسحب في خجل وغمّ.

كانت الإشبينات من خلال شقوق نوافذهن، يتأملن المشهد، وجميعهن غير موافقات على تصرّف الدونا فلور، خصوصاً الدونا جيزا، الشاهدة على الحادث؛ الدونا جيزا المتمرّسة جداً بقراءة الكتب، وفي دراسة النصوص، لكنها في منتهى السذاجة، بل البلاهة في مجال التعامل مع الناس. « أوه، ما هذا؟» تمتمت مستنكرة، لدى رؤيتها ما جنته يدا الدونا فلور من تصرّف خشن، وكان هتافها بلسماً للدون جوان المهان. «مسكين هذا الشاب، ضحية العادات الرجعيّة، والخرافة والتّخلف».

كان هذا أقصى ما يبغيه الشاب المسكين، وهكذا ، هناك وسط الشارع، وفي مناجاة مندفعة تستدر الدّموع، فتح قلبه وأودع بين يدي الغرينغا مقاصده الشريفة، حبه المُثار وحسرته المرعبة. وقدّم نفسه؛ أوتونييل لوبيس، خادمكِ وبتصرّفكِ، تاجر من إيتابونا، صاحب متجر للأقمشة

واعتماد في المصارف، مالك لحقلٍ صغيرٍ من الكاكاو، هذا كلّ شيء، عازب، لكنه يرغب في الزواج، وقد اتمَّ الثلاثين من عمره. جاء إلى العاصمة للنزهة وللاهتمام ببعض الأعمال، لمح الدونا فلور صدفة، فأمسى مفتقداً الراحة وسلام النفس. مجنون؟ هراء! بل هو متيمّ لدرجة أن الحياة تبدو بلا جدوى إذا لم تصغِ إلى توسلاته. وكان يعرف أنها أرملة ورصينة، وهذا يكفيه؛ ولا أهمية لخلاف ذلك. بل يفضّلها فقيرة. فأملاكه هو، أوتونييل، تعطي وتفيض بحيث يعيشان معاً عيشاً رغيداً.

سارّت الدونا جيزا بالموضوع بحماسة كبيرة. فالأمير محب، ويحسن الظهور. وقد حرّض الدونا جيزا على أن تعرف كل المعلومات. كان فقيراً ضمن حدود معيّنة، لكنّ الدونا فلور لم تكن مليونيرة ولا متسولة. فمع المدرسة وفي غياب زوج سرق مكاسبها، كان لديها صندوق للتوفير، وبعض النقود تحملها معها، فهي مثلها مثل معظم أبناء ولاية بارا – تفضل أن تضع مالَها في المنزل بدلاً من أن توظفه في المصرف بالفائدة. عقلية متخلفة، قالت جيزا لنفسها وهي غير قادرة على إخفاء تفكيرها وضبط انتقادها للأخطاء والأمور غير المعقولة. «ذات يوم سيعلم أحد اللصوص بالنقود، ويأتي ليسرقها، هل سيكون ذلك جيداً؟».

وحده سافل قذر قد يفكر بسرقة الدونا فلور، رد عليها الأمير معتبراً طريقة تصرف الأرملة برهاناً على طيبة شخصيّتها، وعلى عدم اهتمامها بالخيرات المادية، وعلى تواضعها. فهذه هي بالضبط المراة التي كان يبحث عنها لتكون زوجة ورفيقة صادقة وبسيطة. وشيئاً فشيئاً، في تنميق نثري، زوّدت الدونا جيزا اللص بسجلٍ كامل عن الدونا فلور، خصوصاً مجوهراتها القليلة؛ وعقدها الفيروزيّ الأوروبي، وأقراطها الذهبية المحلّاة بفصوص البرلنت الحقيقي وهي قطعة قديمة من مقتنيات الخالة ليتا، بالإضافة إلى القططة والحديقة، ولوحات الزوج المائية. وبما أنها لم تتزيّن بالأقراط قطّ، وهي إرث لابنة أختها، فقد عهدت بها إليها أمانة بين يديها، لتحتفظ بها. وهكذا يكون بوسع الدونا فلور أن تستعملها متى تشاء. فالعمة ليتا لم تقدمها لها، في الحقيقة، لأن أقراط الأذن هذه كانت الضمانة الوحيدة للعجوزين عند الحاجة: مرض طويل مع مستشفى وعملية جراحية، حريق في المنزل، أي حادث، فمن منّا في منأى من أن يجد نفسه يوماً في حاجة غير متوقعة؟

انتهى الأمر بالدونا جيزا بأن أصبحت مدّعية عامّة ومحامية عن الأمير. وألحَّت على الدونا فلور أن تستقبل ابن إتابونا هذا وتستمع إليه، حتى ولو لترفض اقتراحاته للزواج. فجلّ ما يريده الأمير هو أن تستقبله، لأنه كان متباهيا وواثقاً جداً من نفسه، ومن تجربته ومن حلاوة لسانه. وهو لم يفشل قطّ. وإذا تمكن من جعلها تصغي إليه، لأصبحت الخطبة أمراً مؤكداً ولأصبح مال الأرملة ماله، فلا توجد امرأة تستطيع مقاومة فصاحته.

أضاءت ماريلدا النور في تلك العشية بعد الدروس، في قاعة الاستقبال في منزل الدونا فلور، وفتحت الراديو ثم فتحت النافذة. فلم تر قرب العمود الفارس الدائم في مكانه. نادت صديقتها، وأرتها المكان الفارغ من طالب الزواج.

وصفت لها الدونا فلور آخر إنجازاتها، لقد مضى الشخص مطروداً. ولم يغنم من النّافذة إلا رائحتها. كانت الدونا فلور تتكلم وتسترق النظر إلى الشارع. وفي أعماقها شعرت بشيء من الخيبة. كم كان اهتمامه هشاً، تخلّى عنها أمام أول عقبة. لقد فعلت الدونا أموراً أسوأ بكثير مع بيدرو بورجيس في عزوبيتها. وكم تمرمر ابن ولاية بارا على يديها وتعذّب وكم أعادت له رسائل ورفضت هدايا وأهانته إهانات بالغة، لكنّه بقي ثابتاً وكفّه تقبض على خاتم الخطبة. فعلاً، ذلك هو الغرام حقاً! أمّا هذا الفتى، فسوف يذهب ببساطة ليطرق نافذة امرأة أخرى...ومع مرور الساعات اتجهت الدونا فلور ثلاث أو أربع مرّات إلى النافذة، وكأنها تؤكّد لنفسها أن الشخص قد اختفى نهائياً.

عندما نامت في سريرها، رفعت كتفيها، في حركة لامبالاة، هذا أفضل. فإذا لم تكن ترغب حقاً بالزواج مجدداً، فلِمَ هذا القلق النابع من هشاشة إصرار عاشق تافه، ومن ضعف مشاعره؟ خيلاء مهينة لحالتها كأرملة.

لأول مرة خلال تلك الأشهر، لم تخلد إلى النوم فوراً مستسلمةً لنوم ينسيها وضعها. بقيت عيناها مفتوحتين وهي تفكر. في الحقيقة، هل كان قوياً كما تخيلته، هذا القرار بعدم الزواج ، بأن تعيش حياتها بسلام، من دون أن تغامر بزواج جديد؟ لكنّها قد قرّرت، وانتهى الأمر. لم ترد أن تطيل المناقشة مع نفسها بالذات، مع أنّه لم يكن هناك شك أو خلاف على أنها مستعدة للوفاء

بقرارها لدرجة الضحك بطلاقة مع الصديقات، والتندّر مع الإشبينات حين تأتيها إحداهن بمرشح ما. أو عندما تقتفي الدونا دينورا الصورة الجانبية للأربعيني المتكبّر. كيف إذاً، يطير من عينيها النعاس بمجرد حضور معتوه في الزاوية؟

في اليوم التالي، وفي وقت مبكّر، دخلت الدونا جيزا عليها مزوّدة بأخبار جديدة، راوية بتفاصيل وحماسة الحديث مع تاجر ايتابونا الزائف. فمن المحال أن تأتي في العشية كما كانت ترغب، حتى في الليل كان لديها تلاميذ اللغة الإنكليزية، يأتون ثلاث مرّات في الأسبوع، في دورة دراسية مكثّفة.

استمعت الدونا فلور إلى سردها، وهي تعاني صداعاً ناجماً عن كونها لم تنم جيداً. «هل تستقبليه، هل تصغين إلى مقترحاته؟» لكنّها لم تكن تعي ما يُقال «إذا كنتِ مصممة على عدم الزّواج فلِمَ، إذاً، تضيّعين وقت طالبي الزّواج؟». استمرت الدونا جيزا تجادل وتستجدي من دون أن تحصل في النهاية إلا على الرّفض المُسبق. في النهاية،جاملت الدونا فلور صديقتها، ووعدتها بأن تفكر في الجواب ولن تصرف الشاب برسالة فظة. وقبل نهاية الحديث، ظهرت الدونا نورما تطلب خميرة للحلوى، وسرعان ما طرحت كل ثقلها في المؤامرة. تاجر ثري في إيتابونا؟ انظرا كيف ينخدع الناس... كانت الدونا نورما حذرة منه، فهو يطرح نفسه جدياً، راسخاً، ثرياً، وأيضاً بذلك الوجه الشاحب لونه كلون الغائط...

– المعذرة يا فلور، لو كنتُ قد أهنْتُكِ لكن ألا يبدو كذلك؟ كغائط الطفل الرضيع...

عند العصر استعاد الأمير بثبات موقعه كمراقب، مبتسماً، وعيناه على النوافذ. لمح الدونا فلور مرة أو مرتين، وهي تضع رباطاً للشعر في رأسها كالغواني، وهذا دليل حسن. في ذلك النهار، استغربت التلميذات توتر مدرستهنّ الملحوظ وهي ذات الطبع الضاحك الهادئ. لقد تحمّلت ليلة سيئة، من الأرق، ووجع الرأس، والخفقان، والصداع الشديد من أسوأ الأنواع. وأثناء الاستراحة، طرحت الدونا داغمار، وهي تلميذة جميلة ومضطربة، سؤالاً خبيثاً:

– يا عزيزتي، صداع الأرملة ليس سوى فقدان الرجل في السرير. الدواء سهل، تجده في الزواج...

– زواج؟ لينجني الله ويحفظني...

– ليس هذا الثمن إلزامياً أبداً... بإمكانك تناول الدواء من غير زواج، فالمهم هو وجود الرجل، يا عزيزتي.

وضحكت الثرثارة. وضحك الصف بأكمله، وأحسّت الدونا فلور بحرارة الخجل تلفح خدّيْها وكأنها لصّة قبض عليها بالجرم المشهود أو كذابة أُميط اللثام عنها. أتُراها وهي ملتزمة بالعفّة المحتشمة للأرملة كانت تبدي اشتياقاً للرجل واستعجالاً للعريس، وكأنها متسكعة في الطرقات، ملتهبة بالرغبة تعرض نفسها على القاصي والدّاني؟ ألأنها كانت تمزح، تضحك مع الإشبينات وتنكّت على المرشحين والتنبؤات والهمسات، يتصورونها مجنونة إلى حدّ الاستلقاء على السرير مع زوج أو مع عشيق؟ هذا ظلم. فليس هناك وجود لأرملة شريفة متحررة كلياً من الإثم.

قضت نهارها قلقة، تتجنّب الاقتراب من النوافذ ولم تعد تشبك ذراعيها بعضهما ببعض كما تتشهّى لتصرخ على الدونا نورما أو ماريلدا، لأنها تعرف الآن أنها هي سبب حضور الشّخص، ولأنها لم تشعر يوماً أنها مشدودة بهذا الشكل إلى النوافذ كما لو أن الشارع امتلأ فجأة بالأحداث الجديدة المثيرة. يا له من اضطراب.

لهذا، عندما جاءت الدونا آميليا تدعوها إلى مرافقتها والسيد رواس لمشاهدة فيلم فرنسي واقعي جارح جداً، هو مثال الجدل وقد حظي بنجاح كبير، وافقت باضطراب، خائفة من مرور ليلة قلق أخرى طويلة. وكانت قد اعتادت أن تعود من السينما شبه مستسلمة للنّوم، تتثاءب في الترام. لم يكن الجاران الطيّبان ليختارا لحظةً أفضل من هذه لدعوتها، ناهيك عن أن الفيلم ذاته مثار الجدل وتعليقات الصّحف والجيرة. الدونا إيمينا عبدته، والدكتور إيفيس كرهه – «عهر خالص!» أما الدونا نورما فسلطت لسانها على مقاطع معيّنة... فيه بعض المشاهد أيتها البنت، بمحاذاة البحيرة، حيث ينزع عنها فستانها ويخرج ثديي الحيوانة الصغيرة ويتمسك الاثنان بعضهما ببعض ويفعلان ذلك

على مرأى من الناس: ملتصقان تماماً، وهي عارية، بثدييها الصغيرين الصلبين والصبية يصرخون لكل حركة... أما ماريلدا فقد مرضت لأن الرقابة لم تسمح لها (أو الدونا ماريا دو كارمو) برؤية الفيلم، لأنه ممنوع للقاصرين من دون الثامنة عشرة. يا للقهر الفاشيّ للمراهقين!

وكما يحدث دائماً عندما يذهبان إلى أي حفل مع السيد رواس، وصلوا متأخرين جداً بعد أن بدأ عرض شريط الأخبار. كانت القاعة غارقة في العتمة والمقاعد كلها مشغولة. بعد عناء كبير تمكنوا من إيجاد الأماكن، لكن جلس كلّ منهم في صف وحده بعيداً عن الآخرين: جلست الدونا فلور في أسفل السينما على مقعد إلى جانب زوجين لعلهما عروسان. إذ تشابكت يداهما وتلاصق رأساهما. وبدأ هرج الطلاب عندما بدأت المشاهد الأولى من الفيلم الفرنسي الذي تدور أحداثه في إحدى كباريهات البيغال الملأى بنساء شبه عاريات. حاولت الدونا فلور تجاهل القبلات بين الزوجين المجاورين لها وتنهّداتهما ولمساتهما، وأجهدت نفسها في مرافقة عقدة الفيلم المبلبلة.

وفجأة أحسّت بحرارة لهاث رجل على رقبتها وسمعت صوتاً مجبولاً بالرّقة، همساً عذباً يصب في سمعها جملاً كالشّعر، تصريحات عشق لم تسمعها مذ كانت عاشقة، إطراء لعينيها، لشعرها، لجمالها الأخاذ، لم تكن مضطرة للالتفات كي تعرف هوية صاحب الصوت اللطيف وكلمات الغزل الجميلة؛ كان تنهد الرّجل يدغدغ عنقها من خلف، وتتلاحق عليها أنفاسه الحارة. كان الصوت الذي يُطربها ويتضرّع لها في أذنها حاراً حنوناً.

تقدّمت الدونا فلور بجسدها في مقعدها إلى الأمام، محاولة الابتعاد عن صف المقاعد وراءها حيث استطاع الأمير أن يجلس. لكنها لم تنجح إلا في إزعاج العاشقيْن. فتقدّم العاشق بجذعه إلى الأمام، مثابراً على بثّها تصريحاته الحارّة. لم ترد أن تستمع إليه ولا أن ترى مشهد الزوجين الشبق وهما غير مباليين بالجمهور حولهما. لا تريد سوى متابعة أحداث الفيلم، وفهم قصته، وحبكته الصعبة المجبولة بالجنس والعنف.

تزايد الصراخ في القاعة، فقد بدأ مشهد البحيرة المثير: النجمة الشهوانية شبه عارية ، ثدياها بارزان، والممثل، عملاق على هيئة رجل مشوّه، اعتلاها بغضبة الذكر، في تهتك يوازي تهتّك الزوجين الجارين لها اللذين لم تر في حياتها من هو أقل حياءً وحشمة منهما.

وصوت ذلك الشخص يدغدغها من الخلف بكلمات الحب، مقترحاً عليها الخطبة، ومتضرعاً كي تمنحه شرف زيارة واحدة ليعرض عليها ممتلكاته، وخصائصه ويوضح مقاصده، ملقياً عند قدميها الصغيرتين المعبودتين متجره المتنوّع البضائع في إيتابونا وقلبه المخلص المجبول بنار الهيام.

أنفاس الرجل الساخنة على رقبتها، وهمسات صوته وجمله الأقرب إلى أبيات الشعر، والكلمات تداعبها! فيلم غير معقول والجمهور في هيجان وصراخ، الممثلان في تهتكهما، والزوجان قربها يشد واحدهما الآخر إليه في تهتك وهياج، أضف إلى ذلك الحضور المقلق للرجل غير المرئي وراء ظهرها! أحسّت الدونا فلور أنها محاصرة تكاد تختنق، ينتابها دوار، لا مخرج له، فقد كانت أرملة فاضلة خجولة.

عند باب الخروج، بالكاد رأته يختلس النظر متضرعاً إليها. تجاوزته مطأطئة رأسها برفقة آل رواس، الدونا آميليا ساخطة على الفيلم، وزوجها يدعم انتقاداتها وإن كان غير مقتنعٍ. أجل، كان غاضباً، حقاً، لكن على ولدنة هؤلاء الشبان الطلاب، وبعضهم من الأشرار. ما هو رأي الدونا فلور؟ ودّت لو أنّها لم تأتِ، فالصراخ والقهقهات أصاباها بالدَّوخة، حتى أصبحت شبه مريضة. لم تستطع أن ترى الفيلم جيداً، لأن قليليْ الحياء إلى جانبها – امرأة متوسطة العمر وفتى، رأتهما حينما أضيئت الأنوار – كانا يمارسان أرذل السفالات.

تعبة من السينما ومن ليلة الأمس المؤرقة الطويلة، تناولت الدونا فلور منوِّماً لتنام. لكن حتى وهي نائمة لم تتحرر من ذلك الفارس ولا من أنفاسه، ولا من صوته ولا من دعواته، من مشكلات الرجل والزواج، حالمة طوال الليلة، حلماً غريباً، لا أوّل له ولا آخر.

5

وجدت الدونا فلور نفسها وسط حلقة في الساحة العامة، تمرح كالأطفال في رقصة السيراندا – سيراندينيا، لكن الحلقة كانت مؤلفة من رجال خشنين، هم المرشحون لطلب يدها. جميعهم كانوا هناك: من المتصبب عرقاً المدرّس العفيف إيبامينونداس سوزا بينتو إلى العربي ماميدي تاجر الأشياء العتيقة، من بائع الأيقونات رايموندو أوليفيرا إلى المحامي بلا شهادة في

الحقوق ألوزيو، شقيق زوج الدونا إينايدي، وهذا بين مزدوجين، أبله. وفي المرتبة الأولى تاجر إيتابونا المتموّل أوتونييل لوبيس – أو بالأحرى عزيزنا الأمير المدعو بإدواردو صاحب الأرامل – الذي كما رأيناه لا يكلّ ولا يملّ من شقّ طريقه إلى قلب الدونا فلور المستوحد وإلى قجة مالها (التي يتخيّلها ضخمة ملأى بالمجوهرات) التي فضلت يوماً، لحسن الحظّ، الاحتفاظ به في المنزل، بأمان، بدلاً من أن تخاطر بوضعه في شركة أو مصرف بالفائدة.

كان كل ذلك يجري داخل كرة عملاقة من البلّور. وقفت أمامها من الخارج الدونا دينورا المتباهية بوجبة أسنانها ونظارتيها، تلاحظ المشهد وتدير العرض. كانت تدير الكرة على مهل وتضبط الإيقاع، في حين يرقص المرشحون ويغنون حول الدونا فلور:

«أواه يا فلور الصغيرة، أواه يا فلور الصغيرة

سدخلين الحلقة

وتظلين وحيدة...»

تنطلق الدونا فلور من وسط حلقة الرقص تتفحّص طالبيها للزواج واحداً تلو الآخر، وتجيب:

«وحيدةً أنا لن أبقى

ولا ينبغي أن أبقى

فلديّ المدرّس

ليكون لي...»

سحبت المدرّس إيبامينونداس سوزا بينتو بضربة على سرّته ليرافقها وهو في قمة الارتباك والتردد فاندفع راقصاً أمامها وسط الحلقة، يغني من دون صوت:

«ذهبت إلى التورورو لأشرب، فلم أجد الماء

وجدت سمراء جميلة

تركتها في التورورو»

فقدّم لها ممتلكاته كمهر: كتاب في القواعد منقّح ونسخة من كتاب «أوس فوزياداس» عليها ملاحظاته بقلم الرصاص، الثاني من تموز/ يوليو ومعركة رياشويلو. ما عدا ذلك فلم يكن لديه احتياطاً إلا حفنة من الأعياد الوطنيّة وجنرالاً لا يسمن ولا يغني من جوع وسفينة داخل زجاجة («هيّا نبحر فيها بعيداً أيتها السيدة الدونا فلور»). لكنه تعثر بجرموقيه الناصعيْ البياض كالثلج ما اطاح أناقته كراقص وعلى رأسه قبعة واقية من المطر. وكانت الدونا فلور تتلوى من شدة الضحك وهي تراه يترنح ويكاد يسقط أرضاً. والمضحك أكثر كان أن الدونا جيزا هي وحدها التي كان بإمكانها أن تطرحه كمرشح للزواج من دون أن تراعي مشاعره وتحترمه كما يجب وهو المدرّس الرصين المهيب.

أما الدونا فلور، فما كانت تبدو نفسها. كانت تضحك دون حدود ولا رحمة على العجوز المرح في تعثراته في حلقة رقصة السيراندا، وهو مصرٌّ على الاستمرار في رقصته محاولاً سلبها طرحة العروس، وانتزاع أزهار العذرية عن شجرة البرتقال. وبدفعة جديدة وضعت الدونا فلور السمراء الجميلة، حداً نهائياً لادعاءات المدرّس المحتشمة.

لأن فلور استعادت عذريتها لكنّها فقدت حياءها وعفتها. كانت ترتدي ثوباً أبيض من الدانتيل، رقيق النسيج شفافاً مخرَّماً، والطّرحة الناصعة وإكليل الزهور وتنورتها الطويلة تتطاير في الهواء تلفّها رقصة السيراندا، وتشد المرشحين إليها برائحة شبابها التي تنشرها حركاتها.

اقترحت الدونا فلور، باشتياق وسرعة، الزواج على كل واحدٍ منهم وعرضت عليه نفسها، كما لو كانت عانساً عذراء تعاني غثيان الاكتئاب ولا أمل لديها في الزواج. أخذت تتنقَّل من رجل ناضج إلى آخر، تدعوهم إلى الرقص معها في حلقة السيراندا، من سيراندا صغيرة إلى سيراندا تحدٍ وسباق؛ فأي واحد منهم سيستطيع أن يخطف منها أزهار البرتقال وعذريتها، منتزعاً أوراق الإكليل وعذرية الدونا فلور؟ فبدون ذلك، لن تُعطى شابة عذراء، حتى في عقد الزواج، أثمن شيء لديها.

كانت تتحداهم بغنائها الصادر كدعوة، وتشدهم برقصها الشهواني، جاعلة ردفيها ومؤخرتها وصدرها تترجّح، بحركات شبقة لفتاة سهلة المنال ساحبة، الواحد تلو الآخر، إلى وسط الحلقة، وكأنها من أجمل النساء المتهتكات. لقد كانت ساخرة وقحة، كعاهرة، مثيرة للاشمئزاز.

راحت تحتكّ بكرش ماميدي وسرّته وبمؤخرته، وكأنه حميمها. كان يرقص بحيوية غير متوقعة ولا عادية عند إنسان رصين مثله. وحمل في يدٍ شمعداناً قديماً، وفي الأخرى آنية من البورسلان من ماكاو عليها منظر أزرق للريف الإنكليزي وهي كحقيقة قطعة كاملة الروعة كالشمعدان المصنوع من الفضة الخالصة. أراد أن يقايض القطعتين بعذريتها المعروضة للبيع، مقابل مجرد دورة رقص صغيرة بمفردها، بعض النقود من فئة الألف ريس، وبعض النقود من فئة الأربعمائة وخمسين. لكن كيف يقطف الزهرة ويداه مشغولتان بمقتنياته العتيقة؟ كانت الدونا فلور ترقص حوله، تقترب منه وتحتك ببطنه نافضة الغبار المزمن عنه، وهي غارقة في الضحك والسخرية.

أمّا السيد رايموندودو أوليفيرا فكان له أسلوبه وطريقته الخاصة بالرقص. ممتلكاته: موكب الأنبياء والتوراة والقديسين القدامى والحديثين، وكذلك الحيوانات المقدسة؛ كالحمار والسَّمك، وبالاضافة إلى الأحد عشر ألف عذراء عدا ثلاثاً أو أربعاً قدمت هدية للسيد ألفريدو، الناسك في بيسا، ورب عمله. والأخريات جميعها لم تُمس وكاملة، رفض السيد رايموندو التخلي عنها رغم التقديمات الضخمة من المعدن الرنان، من أعمال ماريو كرافو، المهندس المعماري ليف، المهندس المدني آداوتو ليما، وجميعهم يسعون إلى سكرتيرات طيبات. وبما أن السيد رايموندو كان يمتلك كثيراً من هؤلاء العذارى، فلم، بحقّ الجحيم، يبحث عن عذراء أخرى؟ هل هو إفراط في شهيته أم اهتمام خفي؟ هل شقته كبيرة بحيث تتسع للزبائن الكثيري العدد؟ «إن شقتي هي السماء، أوه! يا دونا فلور، إنما أريد أن أودع فمَك الشبيه بقمر البيناتغا قبلةً واحدةً، فأنا خاطئ قديم، خرجت من العهد القديم وأمضي فوراً إلى سفر الرؤيا». وهنا أجابته الدونا فلور: «إذن اركض إليه».

وتقدم السيد آلويزيو، فلاح متواضع من المنطقة الداخلية، رجل شريف من السرتون، مستقيم جداً في رقصه وفي فصاحته، رجل ماهر طلب يدها على النحو اللائق، وكاد يمسك

بالإكليل والأزهار، كاد يقطف زهرة الدونا فلور البرية. لكن الدونا فلور ليست بلهاء، بل العكس تماماً، خبيرة وماكرة، فلم تنخدع وتؤخذ بحديث الكاتب العدل المحامي غير الحائز شهادة في الحقوق، حديث المراوغة والرصانة.

– هيّا معي إلى الكنيسة، يا سيدتي، فلقد أعددت كل شيء، إعلان الزواج وبركة الأسقف، حتى خضعت للاعتراف، فسقطَتْ عني كل خطاياي.

– يا سيدي، لا تخدعني بالوعود الكاذبة، فإذا شئت أن تأكل ما تشتهيه من ثمرتي فلْتحضر قاضياً وكاهناً.

– تُرى ألا تصل بركة الله والدين إلا مع القاضي؟ ما أهمية القانون الإنسانيّ إذا كانت الشريعة الإلهية في متناولنا؟

– احتفظ أيها الدكتور ببركتك، وبكاهنك واعترافك. فاعذرني ، من دون إذن القاضي لن تأكل ما تشتهيه مني، ولن تنتزع أوراق الأرملة الصغيرة.

«يا أرملتي الصغيرة، يا أرملتي الصغيرة»، هكذا همس بالغزل الفتى الجميل، الشاحب الأهيف، الضعيف المتضرِّع، وهو يدخل الحلقة، ونفسه الدافئ يغلّفها وتدوّخها أغنيته الغرامية:

«عرّي قدميكِ الصغيرتين

وضعيهما هنا قرب قدميّ

ولنسر معاً

ولن تندمي بعدها».

كان يرقص رقصاً لا يضاهيه فيه حتى محترف الرّقص، رقصتة معروفة، ترى ما تكون؟ صوته يدور حول الدونا فلور، يغويها:

«اغتنمي الفرصة أيتها الأرملة الجميلة

إذ إن ليلة ليست شيئاً

إذا لم تنامي الآن

فستنامين عند الفجر».

عند الفجر لن تكون عذراء ولا أرملة. وفجأة كانت الدونا فلور من دون طرحة العروس، من دون فستان الزفاف الأبيض لعذراء على أهبة الزواج، من دون أزهار العذرية من شجرة البرتقال. الآن ترتدي ملابس الأرملة، ملابس الحداد المطلق، وجارباها بلون الدخان أما ما تبقى فبلون الحداد، وخمار يغطي وجهها، ووشاح على رأسها علامة الحزن والحداد. مجرد زهرة، وردة لشدة احمرارها تكاد تكون سوداء. كم كانت تود لو ارتدت فستاناً أبيض للعرس، فلم تفعل ذلك حين كان الوقت مناسباً وكانت في كامل قواها العقلية عندما وقّعت على أوراق الزواج وقد انتزعت أوراق زهرة عذريتها في ضباب المساء الصيفي في إيتابووا. مع مرشحي الصديقات والإشبينات، مع رؤى الدونا دينورا، بإمكانها أن تمزح وتتندّر فتدّعي أنها عذراء بلا عيب وبلا حقد، كل ذلك لم يكن سوى عملية تسلية.

لكنها لا تستطيع ذلك مع الفتى المقدام في الناصية، الأمير النبيل الذي يبدو يافعاً ثرياً جداً، كثيراتٌ هن الفتيات اللواتي يتأوّهن ويتنهدّن له، لكنّه يتأوّه ويتنهد للدونا فلور الأرملة الفقيرة. مع التاجر الناجح في إيتابونا، الخليق بأن يكون النصف الثاني لأيّ فتاة عذراء لا لمجرد أرملة، لم تستطع أن تتندّر به أو تسخر منه، تسلل تنهده حاراً إلى جسدها، مغطياً على لامبالاتها بحرارته، مذيباً ثلج برودتها، معيداً الحياة إلى الأمور داخل نفسها التي اعتبرتها ماتت إلى الأبد، وأزهرت مثابرته رغبتها الذابلة الجافة، وأضاعت سلام الدونا فلور.

لم تستطع أن تضحك منه ولا أن تتجاهل حضوره؛ لم يكن مرشحاً يُسخر منه كالآخرين ولا قصته خيالية ترويها لها الصديقات أو مكيدة من الإشبينات، بل نعم، كان واقعاً منغرساً عند أسفل العمود، يجتاح بعينيه غرفتها. خطوة إلى الأمام فإذا به يتمركز في منزل الأرملة بين ذراعيها. خلفها الشارع في دار السينما يحرقها بنفسه وكلماته، بتصميمه الرَّاسخ، موقداً جذوة الرغبة في داخلها.

عرفت الدونا فلور الآن لماذا تشعر باللاجدوى والفراغ واليأس على الرغم من نشاطاتها الكثيرة وأعمالها وتمضية الوقت.. راح طالب الزواج يرقص حولها «ستتامين عند الفجر». رقصة تعرفها جيداً رقصة حفل راقص في كباريه لا رقصة حلقة ساذجة من السيراندا – سيراندينيا. لكن ما هذه الرقصة، رباه، من أين تعرفها الدونا فلور؟

لا أهمية لماهيّة الرقصة ولا للموسيقى، ولا للزمان ولا للمكان. فباندفاع انتزعت الدونا فلور الخمار عن وجهها، ومدّت يدها إلى العريس، مهشمة كرة البلّور: «لن تبقى السمراء الجميلة وحيدة، تعالَ أيها الشاب الشاحب، فلنتزوج حالاً، حالاً يا نبيلي، يا أميري الفاتن».

وفجأة تتذكر: هذه الموسيقى هي التانغو الصاخب الذي رقصته وهي صغيرة في منزل المقدم، وبعد سبع سنوات في فندق بالاس، لكن الذي أمامها لم يعد الفتى الشاحب الضارع طالب الزواج. فقد تبخّر في الهواء، اختفى مع كرة البلّور ومع الدونا دينورا. وانتصب أمامها المتوفى الذي لم تستطع أن تشرّف ذكراه. أمامها وقف زوجها. يرفع يده، ساخطاً ويتبعها. فتقع الدونا فلور على السرير الحديدي فيجرّدها من ملابس الأرملة منتزعاً أوراق الإكليل وخمار العروس، هو المتوفى زوجها. يريدها عارية تماماً إلا من جلدها ومن الشعر على بعض مناطق جسدها، فمتى سمعتم عن تمتع جسدي حصل والمرأة فيه ترتدي ملابسها؟ آه! كم كان طاغيةً! يا له من طاغية، طاغية قليل الحياء...

أفاقت الدونا فلور في جهد يائس، يلفّها الليل وهي في رعب. وعلى السطوح وفي الفناءات راحت تموء في شبقها. أواه! حلم لا أوّل له ولا آخر.

6

قضت الليل بطوله، وهي تستعرض السلبي والإيجابي، العزلة والضحك، الرغبة الجامحة ودمعة الفجر. في الصباح الباكر، اذ يكسر الفجر دعائم الشك، جلست الدونا فلور أمام المرآة تمشط شعرها. ثم تعطّرت وأتت بقرطيّ الخالة ليتا ووضعتهما في أذنيها، مجرّبة زينتها بالبلوزة والتنورة، فعادت كما كانت ساحرة أيام لاديرا دو آلفو عندما كانت لا تخرج إلا في كامل أناقتها كفتاة

غنية. ما زال الوقت مبكراً جداً وقد ارتدت ثيابها كلياً. فقد حدث مراراً أن ظهر الفتى الشاحب قبل الغداء. وكان ذلك للآخرين يوم عيد، كيوم الأحد بالقداس وبموعظة من دوم كليمنتي.

لكنّ من ظهر قبل الغداء وبقي ليتناوله، كان ميراندون، في إحدى زياراته النادرة. جاء مع زوجته وأبنائه الذين تبنت الدونا فلور أحدهم، فقدمت له ثمر السابوتي والكاجا، إضافة إلى مريلة للعنق مصنوعة من التّنتنا، خاطتها له عرّابته خياطة رفيعة المستوى. لماذا كل هذه الهدايا؟ حسناً يا إشبينتي، استمعي، لا تقولي إنكِ لا تذكرين. ألسنا في التاسع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، عيد ميلادك؟ حسناً، أيها الإشبينان، يا لطيبتكما ولطفكما، لقد نسيت التاريخ، فلم أعد أتذوّق أعياد الميلاد.

– لا تذكريه؟ إذن، لِمَ أنتِ أيتها العرّابة بهذه الأناقة ترتدين ملابس العيد منذ الصباح...سألت زوجة ميراندون.

– ألا تذكرين؟ قال ميراندون، لقد مضى عام على تلك الليلة في بالاس، لم نكن قطّ لننسى عيد ميلادك...

مضت سنة، سنة كاملة. هناك جلست الدونا فلور في كامل أناقتها، وقد سرَّحت شعرها، ووضعت فيه ربطة من نسيج فاخر، وقرطين من الماس في أذنيها وقد رشت عطراً نفاذ الأريج، فكيف تستطيع أن تعتني بنفسها لهذا العيد إذا كانت قد نسيته تماماً. لكن العم والخالة تذكراه، وكذلك فعلت الدونا نورما والدونا جيزا والدونا آميليا، والدونا إيمينا والدونا جاسي والدونا ماريا دو كارمو. فقد وصلن محملين بالهدايا، صناديق صابون طيّب وزجاجات ماء الكولونيا، وصنادل وقطعة قماش.

– كم أنتِ فاتنة يا فلور، ما هذه الأناقة، علّقت الدونا آميليا.

وتذكرت الدونا نورما هي الأخرى الذهاب إلى بالاس فقالت: «في السنة الماضية كانت هي الأجمل. ونالت هدية لها قيمتها».

«هذه السنة أيضاً ستكسب هدية حسنة...»، قالت الدونا ماريا ده كرمو.

«أي هدية؟»، تساءلت زوجة ميراندون.

كشفت الدونا إيمينا والدونا آميليا لها السر.

– لا تقولي...

– رجل مستقيم – أصدرت الدونا جيزا حكماً – رجل خير.

مضى ميراندون إلى إحدى الحانات في كابيسا حيث تجتمع حلقة يوم الأحد من رجال إيليوس الأثرياء، ويشربون الويسكي، بقيادة صاحب المزارع مويزيس آلفيس. وفي الغرفة راحت الصديقات يضحكن وهن يعلّقن، فيما الدونا فلور في المطبخ، بساعدة ماريلدا، تجهد نفسها لإعداد الغداء.

لم يأتِ الأمير إلا بعيد الظهر ليقطف ثمرة ما بُذر في العشية من تدخل من الدونا جيزا، وتصريحه في عتمة السينما. كان بهيّ الطلعة بملابسه وشحوبه، وبغرامه الذي لا يخفى والأمل النافد الصبر، ولم يكن هناك من يشبه مثله، سيد الخطوات في استشهاده. في تلك الليلة قال للو، حبيبته الحديثة التي أنفق على صحبتها السخيفة اللطيفة النكلات الأخيرة التي استحصل عليها من الأرملة السابقة، الدونا أمبروزينا أرّودا، الحيوان الضخم الهستيري:

ميموزا، اليوم سأقتحم القلعة، فأدخل الغرفة، ولا ألبث أن أصبح في السرير مع الأرملة.

ارتكزت لو على صدر سيد الخطوات المسلول:

– وهل هي بشعة كالأخرى؟.. أم هي جميلة؟

كانت غيورة، لا تتفهم قانون الأمير في الفلسفة الأخلاقية القاسية، لم تكن لتتعايش مع محترف خبير مثله، بصرامة مبادئه:

– قبيحة أم جميلة، لقد سبق وقلت لكِ، أيتها البهيمة، أن لا فرق. ألا ترين أن هذا هو الشغل، عمليّة مالية، لا أكثر ولا أقلّ؟ لا يهمني هنا ذيل الأرملة، يا حمارتي، بل مالها ومجوهراتها.

كانت الدونا إيمينا أوّل من رأته عند العمود فأطلقت الإنذار ضاحكة:

– ها قد وصل...

احتدمت الجلبة، والهرج والمرج وركض النساء أيقظت ميراندون السعيد من نومه بعد الغداء المتخم، بأطعمة مقليّة ودجاجة محمّرة. واتجه هو الآخر إلى النافذة إلى حيث تركض الجارات. فرأى في الجانب الآخر من الشارع، عند العمود، على رصيف منزل السيد بيرنابو المؤلف من طابقين، المحتال إدواردوه ده تال، الأمير، يقف بفتور، وينظف أظفاره بعود ثقاب ويبتسم بغنج.

– ماذا يفعل سيد الخطوات هنا؟

– «من هو سيد الخطوات؟» سألت الدونا نورما بفضول.

– أقصد الأمير، المحتال القديم، لصّ وأكثر...

وكان سيزيد: «ملك الأرامل» لكنّه بعد أن رمق الصديقات والإشبينات اللواتي رانَ عليهنّ صمتٌ ثقيل، أدرك كل شيء. لكنه تظاهر بأنه لم يعرف شيئاً وبالتهذيب المعروف عند الباهيانيين تابع ضاحكاً:

– هذا الغشاش المحتال، يعيش من الاحتيال على البُلَهاء بقصص عن ورقة يانصيب ربحت الجائزة الكبرى، عن النقود التي سيهبها للمستشفى، مثل هذه الرّوايات التي تُنشر في الصحف...

قالت الدونا نورما: «هذا الشخص لم يخدعني قطّ... كان كافياً أن أنظر إلى وجهه لأعرف...».

– لا بد أنه يريد سرقة أحدهم في هذه الناحية، ربما الأرجنتيني أو أي شخص آخر. لخّص ميراندون.

– الأرجنتيني، بالتأكيد، ولقد رأيتهما يتحدثان... راحت الدونا نورما تكذب بحرارة، فهي الأخرى باهيانية أيضاً تراعي مشاعر الناس.

لزمت الدونا فلور الصمت، تاركة إياهم يجترون خيبات الحياة، خافية دمعة، دمعة وحيدة، لمثل هذا الإذلال والدناءة. واجتاز ميراندون الشارع باتجاه المحتال. وكأن الأمر يحدث صدفة. ومن شقوق النوافذ المغلقة بقوة، تابعت الإشبينات حديثه مع الشرير. استمرَّ الأمير محتفظاً بابتسامته، حتى عندما ارتبك موضحاً الأمور. وصدرت عن ميراندون حركة حادة إذ أشار إليه نحو لاديرا لينزل إلى المدينة السفلى. مشهد سريع كأنه من السينما الصامتة بالنسبة إلى الإشبينات في شقوق النوافذ. عرف الأمير كيف يتقبّل هزيمته، ولم يكن مستعداً لأن يركب رأسه ويخاطر بأن يُسجن أو يضرب. من نحسه الشيطانيّ أنه تورّط بسرعة مع إشبينة المعلم ميراندون. لكنّه سعيد بأن يهرب سليماً بكامل جلده. كان مخلصاً في تأكيد جهله، فلو كان عالماً بهذه الصداقة لتجنّب الشارع نفسه وأكثر...

لم يرفع عينيه إلى منزل الدونا فلور، بل استدار واتجه إلى الساحة البحرية، وهبط بسرعة نحو لاديرا بريغيسا. وما كاد يصل إلى المدينة السفلى حتى لمح من بعيد أرملة متوجهة لتتعبّد في كنيسة «عذراء الشاطئ»، غارقة في ملابس سوداء وعلى وجهها خمار، فاستحثّ خطاه باتجاه المرفأ الجديد الذي تبدّى لنظره بابتسامته الفاترة ونظرته المتضرّعة؛ مجدداً يمارس الأمير ده تال مهنته الشاقّة.

7

لم يعد الأمير يرى في تلك الأنحاء قطّ، وتوقفت التّعليقات والوشوشات والقهقهات، وسكت مرشحو التبصير والوشاية والرقصة الصاخبة السريعة والسخرية بشأن زفاف الدونا فلور الجديد. فإذا كانت قبلاً تسخر من كل ذلك، في استهزاء مرح، فإنها ترفض الآن أي حديث في هذا الموضوع، غير مخفية اشمئزازها وانزعاجها لسماع إشارة ولو سريعة، إلى حالة الترمل والزّواج، آخذة إياها على محمل الإهانة والفظاظة.

وبما أن الصديقات والإشبينات قد احترمْن بروتوكولاً ضمنياً، وخلال فترة معيّنة لم يتطرقن إلى هذا الموضوع، وكانوا جميعهن متفقات مع الأرملة في حق النَّقض النهائي الذي اتخذته ضد العريس والزواج. حينما تحسّ عجوزٌ لجوجة منهنّ بدغدغة في لسانها ورغبة بمداولة الموضوع الكبير، ذكرى الأمير عند أسفل العمود، فإنها لا تلبث أن تلجم فمها؛ كما لو أن المحتال هناك يضحك من الشارع بأكمله. ناهيك عن صرامة الحظر الذي فرضته الدونا نورما، رئيسة الحي الفعلية، وحكمها على العموم ليبراليّ ديمقراطي، لكنّه لا يلبث – عندما تقتضي الضرورة – أن يتحوّل ديكتاتورياً مطلقاً.

والأسابيع التي تلت عيد الميلاد المضطرب ذاك، كانت ربما أنشط أسابيع حياتها. فلم تجد فيها ثانية واحدة من الراحة. انهمرت عليها الدعوات؛ الجميع يريدون ملء وقتها وملاطفتها. ودخلت أروقة دور السينما الواحدة تلو الأخرى، وزارت نصف العالم، وجالت في السوق التجارية، تشتري الحاجات مع صديقاتها. أنهت توقيت الدروس المسائية، وكانت هي نفسها تسعى إلى التزامات:

– يا نورمينيا، يا زنجيتي، إلى أين تذهبين بهذه الأناقة؟ لِمَ تخرجين باكراً، من دون أن تقولي شيئاً؟

– هناك دفن صغير غير متوقع، يا قديستي. وصلنا النعي اليوم بالذات، مع تأخير مريع؟ فالسيد لوكاس ده ألميدا من معارفنا، وهو أيضاً قريب لسامبايو، مات بنوبة قلبية. وسامبايو لن يذهب كما تعلمين، يا للعار! لم أدعُك لأنّكِ لا تعرفين المتوفى. لكن إذا شئت، الأمر جدير بالذهاب... سيكون دفناً مهيباً، من أفضل إجراءات الدفن.

ذهبت مع الدونا نورما إلى سهرات حراسة الميت وعمليات الدفن وإلى أعياد الميلاد والعمادة. ففي الحزن كما في الفرح، كانت صديقتها فعّالة حيوية، وحيويتها تضمن نجاح أي حفلة أو جنازة تتطوّع فيها فتتسلّم الدفة، تتنكب الطريق، تدير الضحك والدموع. مواسية، مساعدة، محدّثة، آكلة بشهيّة، شاربة بتلذّذ (وبمعيار) ضاحكة على الدوام تقريباً، باكيةً إذا لزم الأمر. لا أحد يضاهي الدونا نورما في الاجتماعات من أي نوع كانت، حتى في المؤتمرات المزعجة تجمع النقيضين، ومستعدة. قالت عنها الدونا إينايدي: «إنسانة هائلة»، «نصب تذكاري» حسب قول ميراندون،

المعجب بها. «قديسة» في نظر الدونا آميليا. «الصديقة الفضلى» بالنسبة إلى الدونا إيمينا وإلى كثيرات غيرها.

– عاصفة عاتية... زمجر زيه سامبايو، في ردة فعل معاكسة لذلك التحرك.

«أنت يا سيد سامبايو، تزوجت بأفضل امرأة في العالم،. فنورمينيا هي أم الشارع...»، أجابته.

«لكنني لا أتحمل كثرة الأولاد، يا دونا فلور، ولا إزعاجات كثيرة كهذه...» كان السيد سامبايو متشائماً.

هذا، كما واكبت الدونا جيزا وترددت معها في كامبو غراندي على معبد تابع للكنيسة المشيخية حيث راحت الغرنيغا تنشد أناشيد وطنية بالإنكليزية. وباليقين التفخيمي الذي تقرأ به فرويد وأدلر كانت تناقش معضلات اجتماعية – اقتصادية وترقص السّامبا حتى وبخها دوم كليمينتي بتقريع حنون:

– قالوا لي إنكِ تحوّلتِ بروتستانتية، يا فلور، فهل هذا صحيح يا تُرى؟

بروتستانتية؟ مستحيل! لمجرد أنني رافقت صديقتي مرتين أو ثلاث مرّات بدافع الفضول البسيط ولتمضية الوقت. إن وقت الأرامل طويل فارغ، أيها الكاهن المعلم.

كما جالت برحلة مسلّية بالقطار مع آل روّاس، فقضت معهما نهاية الأسبوع في آلاغوينياس مسقط رأسهم. وحضرت مع الدونا داغمار درساً في اليوغا قدمته امرأة لطيفة صغيرة، لعبة طرية، تلوي جسدها كما لو كانت المرأة الأفعى في السيرك. وبسبب تضارب التوقيت مع مدرسة الطَّهي، لم تستطع الدونا فلور، رغم شدة رغبتها، الاشتراك في دورة لتعلّم التمارين الصعبة التي – حسب دعاية مطبوعة مغرية للغاية – تجعل «الجسد مرناً رشيقاً والذهن نقيّاً صحياً»، مزوّدة المرء ب– «توازن جسدي وذهني دقيق، وفاق كامل بين المادة والروح». توازن ووفاق من دونهما

تصبح الحياة مجرد «بئر براز قذرة» كما جاء في أسلوب كتابة الورقة المذكورة وكما تحقّقت الدونا فلور أخيراً؛ فوجود صراع ما بين الروح والمادة، يحوّل الحياة إلى «جحيم مرعبة».

أما الدونا ماريا ده كارمو فاصطحبت الدونا فلور وماريلدا، المرشحة المشتركة في السر في برنامج للطلاب الناشئين «ابحثوا عن مواهب جديدة»، حيث يتنافس فتيات وفتيان كل يوم أحد على فترة ثلاثة أشهر، للحصول على لقب «اكتشاف إذاعة سوسييدادي» وإبرام عقد معها. وغنّت التلميذة الجميلة بإحساس مُرهف ولفظ سيئ أغنية عن الغواراني من الباراغواي، ورغم ذلك خرجت من المسابقة بمستوى جيّد، فاحتلت المركز الثاني، وهو مركز مشجّع وواعد. وطمحت التلميذة إلى وظيفة تتيح لها لعب دور مقدّمة موسيقى شعبية، حالمة ببرنامج لها وصورها في المجلات. وإزاء مشاريع الإذاعة كادت ماريا دو كارمو ذات الأنف المعوجّ تصبح هي الشيطان بعينه. فتعمد إلى كثير من التوسّل والمعاناة في ذلك التقديم. أضف إلى ذلك أنها عرفت الدكتور كلاوديو تويوتي صاحب النفوذ في الإذاعة. ولم يكن من السهل إقناعها، والتغلّب على المفاهيم المسبقة المتأصلة عندها والتي انهارت أمامها الذرائع المنطقية لدى الدونا جيزا ولا الدوافع الحسية للدونا فلور. فعندما رأت ابنتها أمام الميكروفون، مليحة للغاية وصوتها يتردّد عبر الأثير فوق المدينة، انهمرت دموعها من الاعتزاز والتأثر، وثارت على الحكم، وكادت تعتدي على المذيع مقدّم البرنامج الشعبي، المذيع سيلفيو لامينيا أو ببساطة سيلفيتيو. ففي رأيها تستحقّ ماريلدا المركز الأول، الذي أُعطي بتحيّز فاضح للمدعو جوان جيلبيرتو غير الجدير به.

أمّا مع إشبينتها ديونيزيا فاستطاعت الدونا فلور الظهور في حفلة أوشوصي في كاندومبليه أشيه أبو آفونجا، مصطحبة الدونا نورما والغرينغا (الشديدة الاستغراب) وما كانت تقوم بذلك بمفردها بسبب زكام قوي وخوف (حوّل الزكام إلى رشح خطير). من الأفضل عدم الخوض في هذه الأمور الغامضة للماكومبا والكاندومبليه؛ فالشوارع تغصّ بالسحر وأعماله وبالشعوذة القوية التأثر. البعض يصدقون، وآخرون لا، والدونا فلور كانت تفضل عدم التعمق بالأمر. فقد قالت لها ديونيزيا ذات يوم:

– يا إشبينتي، إن ملاككِ الحارس هو أوشوم، سآمر من يغوص على الأصداف ليلقي نظرة.

– وكيف هي أوشوم يا إشبينتي ديونيزيا؟

– سأقول لكِ: إنها إلهة الأنهار، هي سيدة ذات محيا هادئ جداً وتعيش في منزلها منعزلة، تبدو وكأنها الوداعة بنفسها. لكن انتبهي فهي ساحرة تزخر بالرّقة والخُيلاء. تبدو لناظرها مياهاً راكدة، ومن الداخل هي ريحٌ عاتية. يكفي أن أقول لكِ أيتها الإشبينة، إن هذه الغادرة كانت متزوجة من أوشوصي ومن شانغو، وبما أنها ربة المياه، فهي تستنفد بالنار.

كل ذلك الركض، كل تلك الحركة، لأنه مع رحيل الأمير هجرها سلامها واطمئنانها وهناءة تلك الحياة الوادعة، والنوم من دون أحلام كل ليلة، نوم عميق حتى الصّباح. فمنذ حلمها العبثيّ عن حلقة رقصة السيراندا انتهى اطمئنانها. وشيئاً فشيئاً، ويوماً فيوماً، تزايد قلق الدونا فلور إلى أن تحوّل غماً دائماً متزايداً مع مرور الوقت عليها وهي أرملة. ولم تعد قط، بعد تلك الليلة في السينما والحلم، عودة تامة إلى لامبالاتها الهادئة، إلى إحساسها المطلق بالحياة المطمئنة، التي ربما كانت خاوية لكنها هادئة. فالدونا فلور هادئة في مسكنها وفي عملها، حتى وإن اتخذت مظهراً وديعاً ومرحاً، فحياتها – مياه راكدة – لن تحظى بعد بيوم كامل من الراحة. وصدرها مستنفد بالنار...

أرملة حكيمة انما مضطرة للدفاع عن حكمتها. ليس ضد وقاحة عرض شائن. فمن، من الذين عرفوها، يجرؤ على مجرد التّغزل بها؟ أما الغرباء الوقحون الملحاحون، عشاق الناصية، فهؤلاء على وجه العموم يختبئون حين يرونها تمر جد محتشمة ورصينة. لكن مع هذا، يجازفون ببعض النّكات عند مرورها، مدح لمظهرها الجسدي («يا لها من مؤخرة مستديرة»!) ولتفاصيل جسدها («أواه، يا للثديين الصغيرين الصلبين جداً»!)، أو دعوات وقحة («هيّا ننجب طفلاً، يا حلوتي»!). كانوا يفقدون الوحي، واللطافة أو قلّة الاحتشام والوقت. وكانت الدونا فلور تمضي قدماً كما لو كانت عمياء خرساء صمّاء، في تواضعها وفي اعتزازها كأرملة، قاسرة نفسها على أن تدافع عن حيائها ضد نفسها بالذات، ضد أفكارها الشاردة، وأحلامها السيئة، ضد رغبتها المتيقّظة الملتهبة، والوخز في لحمها. لقد فقدت «التوازن الكامل بين الذهن والجسد»، الضروري لحياة صحية

حسب القول المأثور في غلاف اليوغا «الوفاق الصحيح بين الروح والمادة». فالمادة والروح في حرب طاحنة، من الخارج أرملة مثالية في تمسّكها بالشّرف والفضيلة وفي داخلها تشتعل النار وتستنفدها.

كانت أول الأمر تحلم ليلاً بين الفينة والأخرى حلماً تأخذها صوره الشبقة إلى عالم محرّم على العذارى والأرامل، يهزّ أسس المرأة منها، ويوقظ غريزتها وشهوتها. فتستيقظ بجهد، وتضع يديها على صدرها، وفمها جاف. حتى أصبحت تخشى النوم. أما أثناء النهار فكانت تنهمك في مسؤوليات المدرسة، وفي قراءة الرّوايات، وفي الاستماع إلى الإذاعة، وتتلهى بمشاغل عديدة بحيث كان سهلاً عليها أن تبعد نفسها عن الأفكار السيئة، وتخنق خفقان قلبها. لكن أنّى لها أن تضبط نفسها، وتعتدل في تصرفاتها في الليالي وهي بدون دفاع، عنْد مذاق أحلامها غير المنضبطة؟

مع مرور الوقت، بدأت، حتى أثناء النهار، تستسلم للمداعبات الغريبة، وللانفصام الكئيب، في آهات ليس لها عزاء. وأصبح من الخطر أن تبقى وحيدة، فقد تجتاحها توّاً فيالق من الذكريات؛ أكثرها غنائيّة وبراءةً تقودها إلى السرير الحديدي، في جماح الرغبة والعطاء. أين حياء الأرملة؟

أصبحت في المدة الأخيرة تتخيّل مشاهد بكاملها، فتخلط نُتَفاً من روايات وأحداث قرأتها في الصحف أو قصص الإشبينات، مع ذكريات حياتها كامرأة متزوجة ونَفَس الأمير حارقاً رقبتها من الخلف في السينما، مدخلاً فيها جسده عبر زفرات الرغبة. لقد دخل دمها وعرّضها لمعاناة مستحيلة أسوأ من معاناة «الجحيم المرعبة» التي نصَّتْ عليها دعاية اليوغا.

وفي لحظة معيّنة اضطرّت، تجنباً للإثارة، للتخلّي، عن قراءة الروايات البلهاء للفتيات، وهي الغذاء الروحي للصَّبيّة ماريلدا التي تتنهد مع الكونتيسات والدوقات، مستلقية على الكنبة الطويلة في ارتخاء استوائي . حسناً، اكتشفت الدونا فلور شراً يكمن بين الأسطر الساذجة، وقوة الجنس في تلك الكتب العاطفية الرخيصة المتدنية المستوى، تعطي بعداً جديداً للتفاهات المقرفة. فكانت تُنتهك بالمكيدة، تبدلها الدراما ذات القيمة المتدنية، والشخصيات، إلى عذراء الأرياف التي تختفي المومس في أعماقها. والغلمان المخنثون، أشباه الخصيان تقريباً، يصبحون فحولاً وحشيين. وبدلاً من «مجموعة البنت والفتاة» للمراهقات، تصبح روايات إباحية ، قراءة في المخدع.

وحدث الأمر نفسه مع أحداث المدينة المثيرة، مع تعليقات الإشبينات، في صفحات الجرائد. في المقاعد على الرصيف، حيث تتشكل حلقة الصديقات الليلية لتتداول قصص أحداث الجرائم الغرامية: قصة الخادمة الزنجية الصبية التي اغتصبها سيّدها. كانت في الخامسة عشرة ولها أحد عشر شقيقاً، وهو في الثانية والخمسين وله خمسة أبناء، دكتوران وثلاث نساء متزوجات، ناهيك عن الزوجة وحفنة من الأحفاد. أتى والدها النجار، والسِّلاح في قبضته ليثأر لشرفه.. ثلاث طلقات في قلب قلعة المجتمع، دعامة المدينة والأخلاق، زعيم المحافظين. كان الجرح مميتاً وسُجن المجرم وأودع زنزانة تحت الأرض رطبة معتمة بعد ضرب مبرح لتهدئة أعصابه. غُسل الشرف بالدم، والشعب يلح على العدالة، على الحرية للمنتقم لشرفه. كانت الصديقات والإشبينات يعطين الحق للوالد، الذي جُنّ وأعماه الغضب عندما وجد ابنته حاملاً، وشرفها مأكول مع شرب الشمبانيا. جميعهن ما عدا الدونا دينورا التي تقف دائماً مع الأغنياء: «هؤلاء الزنجيات الصغيرات سيندسِسْن في فراش ساداتهنّ ثم ليبتززْنهم بعد ذلك». أما الدونا فلور فلم تحفظ من كل تلك القصة إلا بعض التفاصيل الخشنة، ولم تحفظ في رأسها وفي تفكيرها المذِل إلا صورة الفتاة بين ذراعي السافل تئن من اللذة بكل رضى. أما ما تبقى من مناظر الرعب فلم تكن تبالي بها، بل أعلنت تضامنها مع غضبة الإشبينات.

وهكذا كان زمن حيائها الحميم يتقلص شيئاً فشيئاً. ومع هذا، مَن يراها تتحرك في ساعات التدريس، قرب الفرن، أو مع صديقاتها من مكان إلى آخر، في مشتريات وزيارات (لم تكن تذهب إلى الحفلات مراعاة لوضعها كأرملة) لا يمكن أن يتصور المعركة الناشبة في أعماقها، وسهرها في الليالي المجنونة التي تستنزفها. لأن أحداً لم يكن أشرف منها أو أكثر رصانة. ولم يسمعها أحد تتلفّظ باسم رجل باهتمام، خلا إشارة تأتي عرضاً. كانت تسخر، في السابق، من المرشحين المُقتَرحين، وتتندّر عليهم مع الإشبينات، أما الآن فلم تعد تطيق سماع أسمائهم، وهي في الحقيقة مستميتة في سبيل الزواج مجدداً. لم يكن هناك أرملة مثلها في الاحتشام والخجل، لا في ذلك الحي ولا في المدينة بأسرها، وقد تجد مثلها في الدنيا لكن لن تجد أرملة أوفر رصانة منها وأشرف. كانت الدونا فلور مثالاً للأرامل.

من الخارج تلتفح بالخفر. هادئة متحفظة، كأنها الوداعة بالذات. وفي داخلها تحترق بنار الرغبةً مثل أوشوم، إلهتها. آه! ديونيزيا، لو تعلمين كم تحرق نار أوشوم ليالي عرابتكِ وجسدها الأسمر، وفرجها المنزوع الشعر، فهي تطلب منكِ منحها حماماً من أوراق الشجر المعطرة أو زوجاً.

كانت الدونا فلور تزداد قلقاً. لا تمرّ ليلة من دون أن تحلم فيها. وحينما تتمكن من النوم باطمئنان ليلة بكاملها، فذلك نعمة من السماء! لم تكن ترتاح إلا في بداية نومها المطمئن. وسرعان ما تنتصب الأحلام وتحملها إلى عالم الفحش، فتتقلّب على فراشها، صدرها مقهور وبطنها مجنون. في كل مرة تقلّ فترة نومها وراحتها، في حين تطول كلّ ليلة فترة الأحلام والرغبة، فترة صرير الأسنان حيث «تسيطر على الروح»، كما علمتها دعاية اليوغا المثقفة.

فاسقة بلا حياء، فأين حياء الأرملة في أحلامها؟ لم تكن يوماً هكذا. حتى عندما كانت متزوجة، وهي في السرير مع زوجها، لم تستسلم له بسهولة يوماً، وكان مضطراً في كلّ مرة أن يتغلّب على حيائها، ويكسر دفاع طبيعتها المتقشفة. وها هي الآن تخرج في أحلامها لتعرض جسدها على قارعة الطريق. وأحياناً، لا تعود أرملة، بل تتصوَّر نفسها امرأة شارع تبيع جسدها بالمال. يا للعار! فقد حدث أن استيقظت مرة في منتصف الليل وأخذت تسكب الدموع على أطلال ذاتها القديمة، على الدونا فلور ذات الخفر التي كانت تلتفّ بحيائها وتتشبّث بملاءتها، بينما هي اليوم لا تلتفّ إلا باستهتار الحلم، نهمة وسافلة بغي، ذئبة تعوي، قطة في الشبق، عاهرة.

أحياناً، تكون جدّ منهكة بعد نهار مرهق، فتغفو في السينما وتتثاءب خلال محادثتها مع صديقاتها، وهي فريسة النعاس. لكن يكفي أن ترتدي قميص نومها وتتمدّد على فراشها حتى تفقد كل رغبة في النوم. فيطير النّعاس، وتفلت أفكارها السيئة من عقال الحشمة والتفاصيل اليومية عن حصص الدرس وشراء الحاجات أو نزهة أو مرض جار لها أو أحد المعارف، الرّبو الذي تعانيه الخالة ليتا، على سبيل المثال والذي يُسبِّب لها خفقاناً في القلب شديداً خصوصاً وأن العجوز الطيبة تمضي الليالي لا يغمض لها جفن، مهددة بالموت اختناقاً بسبب من هذا المرض الذي لا يرحم.

كانت الدونا فلور مختنقة هي الأخرى، تتآكلها الرغبة. لم يعد تفكيرها يطاوعها. كانت تعود بالذاكرة إلى مشكلات ماريلدا ودورها في الغناء في الإذاعة، والعقبات التي لا تذلل والتي تنتظرها،

وفجأة ترى أمامها الأمير الأزرق الضارب إلى السواد يكرر لها عباراته المستديرة كالقصائد، وكلمات الحب في عتمة السينما. أين ماريلدا ومشكلتها، وغناؤها الممنوع، وصوتها الشبيه بصوت العصفور.

عرفت الدونا فلور شهرة الفتى الأنيق في دور البغاء. فديونيزيا، التي لم تعرف شيئاً عن مغامرتها المضحكة، والتي اعتقدت أن إشبينتها قد علمت عن المحتال من خلال أنباء الصّحف، رغبت في تسليتها بإخبارها قصصاً عن «سيّد الخطوات» الضّعيف. فعندما دخلت ديونيزيا معترك حياة البغاء كان ذلك السافل الغشّاش يتمتّع بتقدير عظيم بين الجانحات، وذلك بفضل جماله الشاحب، وصوته الرومانسي، وبفضل عينيه الذابلتين ونشاطه الملحوظ في السرير؛ فالحقيقة أنه ماهر في إعطاء اللذّة، كما تقول اللواتي تذوقنها معه. كان قادراً على إثارة الهيام المأسوي به. ومن أجله، اشتبكت اثنتان بالأيدي والأسنان، فانتهت واحدة إلى المستشفى، وفيها جرح بالموسى، والثانية إلى السجن بتهمة التسبب بجروح خفيفة.

وفي الحلم، كانت الدونا فلور السكيرة الثانية المعتدية، تمتشق الموسى ضدّ ديونيزيا، في سخرية فظة: «تعاليْ إذا كنتِ امرأة، أيتها المحظية السوداء القذرة، لكي أمزّق وجهكِ». لكن ديونيزيا راحت تضحك منها بسخرية، وبقية المومسات جميعهن أيضاً ضحكن على الأرملة البلهاء. ألم يقلن لها إن الشاب الجميل، الأمير المختص بالأرامل، لا يأخذ منهنّ إلا النقود والمجوهرات؟ فلا زواج ولا قلّة احتشام في السرير. وما دامت الدونا فلور تعرف ذلك، فلماذا جاءته ملتهبةً، غير متفهمة، غير عفيفة، تقدم له عاريةً جسدها الأمرد؟ يا للعار! أين حياء الأرملة؟

أسرعت إلى الحبوب المنوِّمة، التي تضمن لها نوماً طوال الليل. في «مخزن الأدوية العلمي»، في ناصية كابيسا، استشارت الصيدلي، الدكتور تيودورو مادوريرا. وحسب الدونا آميليا، مع تأييد من الجمع عموماً، فإنّ الدكتور تيودورو مجرد صيدليّ، لكنه يستطيع تصحيح أخطاء أطبّاء كُثُر وهو ماهر في مهنته، ليس هناك من هو أفضل منه للمراجعة بشأن الأوجاع العادية، فوصفته طلقةٌ لا تخيب تُسقط المرض وتضمن الشفاء.

أرق؟ توتر عصبي؟ رقاد سيئ؟ تغالين بلا شك، لا شيء خطيراً، شخّص الصيدلي حالتها بودٍ ناصحاً باستعمال حبوب ملبّسة ممتازة لمقارعة آثار التعب. تريح الدِّماغ، وتعيد التوازن

لأعصابها، وتمنحها هدوء النّوم. بوسع الدونا فلور تناولها من دون خوف، فإذا لم تنفعها، لن تضرّها. فليس فيها مخدرات ولا مهيّجات كبعض العقاقير الحديثة الباهظة الثمن الرائجة حسب الموضة. «خطرة للغاية، يا سيدتي، كالمورفين والكوكايين، إذا لم يكن أخطر». موسوعة معارف هذا الصيدليّ؛ لطيف ومتكلف في المجاملة نوعاً، يقوم بتحيّات لطيفة عند الانصراف، وأخيراً لن تنسى الدونا فلور إعلامه بالنتيجة!

لا نتيجة، أيّها السَّيد الدكتور تيودورو، الحقيقة الناصعة هي أنّها نامت فترة طويلة من الليل، ولم تستيقظ إلا حينما راحت الخادمة المذعورة تطرق على بابها، وقد قاربت الساعة موعد بدء درس الفترة الصباحية. نوْم طويل، أجل، لكنه شبيه بالأوّل من حيث تسلّط الفكرة ذاتها على عقلها، وكذلك الهذيان الشَّهوانيّ والحمى الليليّة والضياع المُفرط. بل أسوأ من الأوّل، إذ لم تتمكّن من قطعه والاستيقاظ، استمرت مصلوبة طوال الليلة، في حلم بلا نهاية، فرجها في جوع وظمأ، جرح مؤلم، جرح بالغ مرئي. مع الصباح تتقطع الدونا فلور إرباً إرباً من التعب، مع حبوب أو بلا حبوب دائماً يوقد النوم فيها حِمَم الرّغبة. مثابرة على الخطأ، وضيعة.

مضطربة هي الدونا فلور إذ تتخبط في الغموض. أثناء النهار، مشغولة طوال الوقت، كانت عمياء صماء لا تسمع نداء الرغبة ولا الكلام ونظرات الداعين الثقيلة، ولا المجاملات الشريفة أو القليلة الحياء، ولا نظرة الذكر النهمة الذي يُعرِّيها بنظرة ويأكلها بتنيهدة وهي تعبر الشارع. كانت أرملة شريفة، مثالية في عملها، وسلوكها وفي خفرها. وفي الليل، باحثة في الأرض والجدول عن صوت الرجال، نظرة التملك، التنهد المستهتر، الهمس عديم الحياء، صفير الاستهزاء، الكلمات الخرقاء، الدعوة إلى السرير. منذ متى كانت هي الداعية، تقدّم نفسها بلا خجل إلى الذكور، متسكعة في منطقة الجانحات، وهي أكثرهن انحرافاً وعهراً، أرخصهنّ وأسهلهنّ. حفرة براز قذرة! مع هذا لم يبلغها ذكر أو يحصل عليها، فعندما كاد أحدهم أن يلمسها، أن يلامس بطنها الملتهب، كانت تمنعه الدونا فلور، إذ تستيقظ في جزع وقنوط. كانت أرملة محتشمة خجولة في ليلة كربها ووحدتها.

لم يكن أحدٌ يلاحظ قلقها اللعين. اعتقد الجميع أن حياتها هادئة، بلا مشاكل، مليئة بالاهتمام، مرحة حقاً. لقد عانَتْ في السبق الأمَرَّيْن من زوجها السيئ المقامر، أما الآن فهي أرملة

تكيَّفَتْ مع وضعها، قانعة بحياتها، لا تهتمّ كما يجب بالزواج مُجدّداً، يائسة أكثر ممّا يجب من الرجال. بدت في طُمأنينة لدرجة تثير الإعجاب والتعليق معاً، حالما تظهر في رأس الشارع، متشامخة رصينة، كان الرجال يتناقشون حولها:

– ها هي أرملة مستقيمة. ومع أنها شابة جميلة لم ترفع نظرها إلى رجل قطّ...

– أشرف ممّا يجب. ربما لا يعود ذلك إلى الفضيلة...

– إلام يعود إذاً؟

– شريفة بطبيعتها لكون طبيعتها باردة. باردة كالثلج، طليقة من الرغبة. ثمة نساء مثلها جميلات، تماثيل جامدة، بالنسبة إليهن لا وجود للرغبة. كلا، لا فضيلة في عفتها، بل نعم، برودة، إنهن جبال جليد. وهي منهن، بالتأكيد.

– قد تكون منهنّ أو لا تكون، من يعلم؟ على أي حال، سواء بسبب الفضيلة أو أي شيء آخر، تبقى الأرملة الأكثر استقامة في المدينة...

وأصرّ الآخر بخطابيّة، وهو رديء الثقافة شنيع:

– ثِقّ أنّها باردة كجبل جليد. إنها من المرمر القارس، الجليدي!

ومشت الدونا فلور بخطى حذرة، وملابسها غاية في الأناقة والاحتشام، والبساطة والجمال المتواضع، من دون أن تنظر يميناً أو شمالاً. لكنها تجاوبت مع إشارة مرحة من ألفريد صانع الأيقونات وبائعها ومع تحية مسائية رنانة من مينديس، الإسباني، وتحية محترمة من الصيدلي، وضحكة حانية من الزنجية فيتورينا التي تبيع على لوحها الخشبي الآبارا والأكاراجيه. كان عليها أن تناضل لتبدو بهذه الحشمة الجليلة وذلك الوجه الهادئ – من جهدٍ جاهدٍ – فهي في الحقيقة متوترة من ليلها السيِّء، ومن صراع غير مجدٍ مع الرّغبة المثيرة. في الخارج مياه راكدة، وفي الداخل شعلة متّقدة.

«كنتِ أقسى ممّا يجب، بل... فظّة... من حق إينايدي أن تحنق..» قالت الدونا نورما بصدق.

صباح الأحد بشمسه التي تبعث على الكسل، بعيد ليلة سبت أقيم فيها احتفال صاخب بعيد ميلاد السيد سامبايو، كانت صديقات الدونا فلور يتحلَّقن حولها، وهي تلخص بعض بقايا الإثارة.

– لا أستطيع أن أتحمل التصرفات الوقحة...

– «كانت مجرد مزحة... أخذتِ الأمر بسوءِ نيّة». لم تجد الدونا آميليا شيئاً سيئاً في تصرف الدكتور ألويزيو.

– إنه مزاح قليل الذوق...

عبّرت الدونا نورما الحيوية عما تفكر به الصديقات: «فلور، أعذريني لو قلت لك إنك أصبحت حساسة أكثر من اللازم: تغضبين لأقلّ شيء، وتتألمين... لم تكوني من قبل معتدّة هكذا بنفسكِ... صحيح أنني لم أكن موجودة، حتى ولو غالى بعض الشيء، فإن المسألة مجرد مزحة لا أكثر ولا أقل، لم يكن من الضروري أن تجعلي من الحبّة قبّة».

كانت الدونا جيزا تضع موضوعة علمية لكي تفسر شخصية وسلوك مسجل العقود بيلان أركادو:

– السيد ألويزيو رجل تقليدي من السرتون، أبوي، اعتاد أن يعامل المرأة كونها مجرّد ممتلكات، كحيوان، كبقرة.. انتهزت الدونا فلور الفرصة: «بالضبط.. بقرة... بالنسبة إليه جميع الناس لسن أكثر من بقر... وهو نفسه حصان...».

– أنتِ لم تفهميني يا فلور ولم تفهمي أيضاً السيد ألويزيو. يجب أن تلاحظي أين يعمل ويعيش وسط بيئة مختصّة بالزّراعة والرعي... وبالنسبة إليه هو سيد إقطاعي...

– هو إنسان عديم الحياء... سيئ التصرف... يمسك يدي ويداعبها..

وأدلَتِ الدونا جاسي بدلوها: «نورما مصيبة يا فلور، أصبحت حساسة، كل ما فعله الدكتور ألويزيو هو إمساك يدك».

– ليقرأ لكِ حظّك. لماذا يختلق كلّ المحتالين الذريعة ذاتها عن قراءة اليد؟ أضافت الدونا ماريا دو كارمو:

– أنتِ أيضاً ترينه عديم الحياء؟

– هذا المدعو السيد أو الدكتور ألويزيو؟ ترى، أهو دكتور أم لا؟

السيّد ألويزيو أم الدكتور ألويزيو؟ طَرَحت، عن غير قصد، الدونا ماريا دو كارمو على بساط البحث مشكلة جدّيّة عن التصرف اللائق والبروتوكول. ففي قطاع سان فرانسيسكو ده جوازيرو إلى جانواريا، من لابا إلى ريمانزو وسينتوسيه – حيث يمارس مهنة المحاماة محام بدون ديبلوم كيفما كان، خطيب أمام القضاة– كان دكتوراً عن حقّ. أما في العاصمة، من دون الشهادة الجامعية، يسقطون عنه اللقب الذي لا يستحقّه. كانت ثمة رغبة عامة في إبعاد هذه القصة عن المدينة وعن السرتون، وهو ما تفاهم عليه أصحاب النظرة الشكلية المتصلّبين، مع المتحذلقين الليبراليين، أمّا الصديقات المجتمعات في قاعة منزل الدونا فلور فقد ضربْن بذلك الاتّفاق عرض الحائط. وأوجزت الدونا إيمينا رأيها، بعد أن بقيت صامتة طويلاً: «دكتور أم لا، إنه ثرثار، يجيد الكلام، معسول اللسان.. شاطر».

كنّ يعلقن على الأحداث، خصوصاً على الفضيحة الصغيرة ليلة عيد ميلاد السيد سامبايو. كان تاجر الأحذية عدواً للحفلات والاحتفالات ما جعل الدونا نورما تقتصر الاحتفال رغم أنفها على عشاء مترف دعت إليه الأصدقاء والجيران. وحاول السيد سامبايو النّهم، لكن المقتصد، إقناع زوجته كما يفعل كلّ سنة بألا تحضّر شيئاً في المنزل، بل تخرج لتناول الطعام معه ومع ابنهما في مطعم حيث يأكلون جيداً وكثيراً كما يليق، لا ضجة ولا إرباك، ولا نفقات باهظة. وكما كلّ سنة منذ زواجهما كانت ردة فعلها على اقتراحه الحذر الزهيد أن عشاء أميركياً هو أقل الإيمان بحيث لا تعيبه عليهم حلقة أصدقائهم الواسعة.

في السرير، استنفد زيه سامبايو، وإصبعه الكبيرة في فمه، آخر ذرائعه في عرض لا يقبل الجدل، حسب رايه:

– أنا ضد لعدة أسباب كلها وجيهة.

– قل ما هي أسبابك، لكن لا تأتيني بالقصة القديمة عن تراجع بيع الأحذية، فقد رأيت حساباتك بأمِّ عيني..

– «ليس الأمر كذلك إطلاقاً.. اسمعي، ولا تقاطعيني: أولاً، أنا لا أحب ذلك، عشاء أميركي والكل واقفون. أحب أن آكل وأنا جالس إلى الطاولة. ثانياً، في هذه البدعة التافهة الأميركية يتحلّق كلّ الناس حول الطاولة فيما أنا العنيد التّيس أنتهي بأكل الفضلات. وعندما ابدأ بتناول الطعام يكونون قد أكلوا جميع المأكولات المقلية، ولم يتركوا لي إلا جناحي الديك الرومي وقد اختفى الصدر. ثالثاً، وهو أسوأ ما في الأمر، إنني باعتباري ربّ هذا المنزل ينبغي أن أكون آخر شخص يتناول الطعام فلا أجد ما أتناوله. آكل القليل الرديء... رابعاً، هذا لا يحدث في المطعم. فهناك نجلس، ونختار الأطباق. ولمناسبة كونه عيد ميلاد، يستطيع كل واحد منّا أن يأكل طبقين...». وهذان الطبقان كانا إلزاماً مربكاً له تجاه أسرته وشراهته.

وكانت الدونا نورما لا تتحمّل الاستماع إليه حتى النهاية فتقاطعه: «زيه سامبايو، إعمل معروفاً، ولا تكن سخيفاً. أولاً، نحن دائماً نُدعى إلى أعياد ميلاد الجميع..».

– لكنني لا أذهب أبداً...

– قلّما تذهب، لكنّك أحياناً تذهب... وحينما تذهب تلتهم حصص خمسة أشخاص... ثانياً، لا تكلمّني عن أنك في العشاء الأميركي تتناول قليلاً من الطعام، وأنك عنيد كالتيس. ففي عيد ميلاد السيد بيرنابو، الذي ذهبت إليه لمجرد أنّ الرجل أجنبي، وضعت في طبقك نصف سوفليه القريديس تقريباً، ناهيك عن الفطائر الكبيرة... غصة تنتابك...

تأوه زيه سامبايو: « طعام الدونا نانسي رائع»...

– وطعامي رائع أيضاً... ثالثاً، هنا في بيتك لم تكن يوماً آخر من يتناول الطعام بل الأول. يا لقلّة تهذيبك التي ما رأيت مثلها قط، قبّحك الله! أنت رب البيت. رابعاً، على مائدتي من الطعام ما يكفي الجميع ويفيض! خامساً طعام العشاء...

«يكفي...»، تضرَّع التاجر، وقد لفّ كل جسمه بالشرشف: «لا أستطيع النقاش، بدأ ضغطي يرتفع..».

كان عشاء الدونا نورما مأدبة دعت إليها عشرين شخصاً وأعدت طعاماً لخمسين، وهي محقّة، فجميع الفقراء في الجوار يأتون ليلحسوا قعر الطناجر، وليشربوا فضلات الزجاجات. في تلك السنة، استقطب عيد ميلاد السيد سامبايو كل الجيران، خصوصاً آل بيرنابو. فقد جاءت الدونا نانسي لتنخرط في دائرة الصديقات، فيما يتكلم السيد هيكتور في الأعمال ويتباهى بتقدم الأرجنتين. لقد كان رائعاً في وطنيته السيد بيرنابو هذا: ينتسب إلى المدن – المرافئ، ويُقارن دائماً بين الأرجنتين والبرازيل، وطبعاً يُفضّل وطنه؛ ويبرز في أحاديثه ونقاشه التطور الأرجنتيني، الثروات، المناخ – مع الفصول الأربعة ذات الحدود الواضحة – هذا الحر الشديد هنا طوال السنة؛ ثم هناك أفضل سكك حديد، لا مثل هذه التفاهة ههنا حيث لا مواعيد ثابتة للقطارات؛ هناك أطيب الفاكهة والنبيذ وخبز القمح النقي واللحم الطري الوفير، من القطعان المؤصلة. وترتعب الدونا نانسي حين يندفع في غيرته الوطنيّة، فتخرج عن صمتها لتخفف من اندفاعه: «لكن يا بوبو توجد هنا أشياء جيدة أيضاً... مثلاً، خذ الأناناس... إنه جيد جداً...»، كانت مجنونة بالأناناس وخائفة من أن يتورّط زوجها في صدام أو يتبادل الصفعات مع وطني برازيلي أهاجته كلماته أو مناضل من أنصار الاعتزاز الوطني.

وفعلاً هذا ما حدث مراراً. فذات مرة، أثناء إحدى مداولاته الجيو – اقتصادية، فقد السيد شلهوب – من السوق (ابن سوريين، برازيلي من الجيل الأول، ولهذا بالذات كان شوفينياً منفعلاً) – أعصابه وأخذ ينال من قيمة مصنع السيراميك وفرن الآجر والبلاط، وأخيراً قذف في وجه بيرنابو الثائر السؤال غير المهذب التالي:

– إذا كانت الصناعة هناك أفضل بكثير من هنا، وإذا كانت الحياة هناك بهذه الروعة فلِمَ أتيت لتنشئ مصنعك عندنا؟

من جهته الرسام كاريبيه (الذي رسم صورة ديونيزيا ده أوشوصي مرتدية ثياب الملكة، ممسكة بالأوفان والإيروكيريه) كان يدرس مع الأرجنتيني إمكانية إحراق إحدى القطع الفنية الفولكلورية في فرنه، فوجد نفسه متورطاً في جدال حول التانغو والسامبا وانتهى بأن انفجر قائلاً:

– «هذا مستحيل. البلاد التي ليس فيها خلاسيات وكل النساء بيضاوات، هي مكان لا يقطنه أحد... اعذرني!».

في عيد ميلاد السيد سامبايو، كان المدافع عن العظمة الأرجنتينية شديد التودد. فإذا كان يمجّد بلده، فهو لا يفعل ذلك بنية الحط من قيمة الأشياء البرازيلية. بل على العكس وضع نشيداً حقيقياً لشعب باهيا، لأسلوبه الإنساني ولطافته وطيبته. وهكذا كان عيد ميلاد صاحب المتجر ناجحاً اجتماعياً، لم يعكّر صفوه سوى حادث وحد (على كل حال، لم يتعدّ نطاق حلقة الصديقات والعرابات) بين الدونا فلور والسيد آلويزيو.

ترددت الدونا فلور فيما إذا كان من المناسب لها الظهور في الاحتفالات أم لا. لكنه كان عشاءً لعدد كبير من المدعوين، لذا لا يحمل طابع الاحتفال المتنافر مع حالة الحداد التي كانت تعيشها، ولم تكتمل سنة بعد على وفاة زوجها. في الحقيقة بعد أيام قلائل تكتمل السّنة، لكن علىَ الأرملة أن تلتزم بمبادئها؛ فإيديولوجية الترمل تستدعي التشدّد والصرامة، وأقل انحراف عن السلوك القويم يطلق قطيع العرابات نحو الإدانة والتنديد.

ضحكت الدونا نورما من تردّدها فمتى كان حضور عشاء، عشاء عيد ميلاد بسيط، محظوراً على الأرامل؟ ليس حفلة راقصة، حتى ولا حفلة راقصة مرتجلة. وإذا وضع السيد أرثور وأصدقاؤه من الطلاب والطالبات أسطوانة في الفونوغراف ورقصوا السامبا فهذه تسلية بريئة للشباب لا تتعارض مع عُرف الحداد أو طقوس الترمّل، ولن يسبب الفضيحة للمتوفى في قبره.

إضافة إلى ذلك، كانت الدونا فلور قد قضت النهار عملياً في مهمة تهيئة سهرة عيد ميلاد السيد سامبايو في مطبخها؛ وبمساعدة ماريلدا حضّرت الفتابان – قدر وموكيكا السمك – متعة!، فيما انهمكت الدونا نورما بالكيتوتي الأخرى. وهكذا حضرت الدونا فلور العشاء وهي مقتنعة. كان من الأفضل لو أنها لم تذهب، لكانت تحاشت بعض الإزعاجات.

وبعد أن غصّ المنزل بالنّاس وعمرت الطاولات وصلت الدونا إينايدوي من شامي – شامي، ومعها طبقٌ حلوى من جوز الهند مع ربطة عنق للسيد سامبايو واعتذار من زوجها، الذي اعتاد ألّا يتخلَّف في ليالي السبت عن المشاركة في حلقة البوكر، وكان يرفض أي التزام آخر. وكتعويض، جاء برفقتها السيد ألويزيو أو الدكتور ألويزو عند الكثير من الناس، المحامي بلا ديبلوم المثير للتعليقات والكاتب العدل على ضفاف نهر سان فرانسيسكو، عازب في منتصف العمر، ومرشّح من قبل أقاربه لطلب يد الدونا فلور. حشر نفسه في ملابس جديدة بورقتها، خليط من ألوان دكناء دافئة، كل ما فيه يوحي بالادعاء، أنفه معقوف وجبهته برّاقة وعيناه حيويتان متفحصتان، مضمّخ بماء الكولونيا كعارض أزياء. أنساقت الدونا إينايدي مع نزواتها في التقدم، فخورة بابن حميها النّافذ في السرتون:

– ألويزيو، أقدم لك الدونا فلور غيمارايس، أجمل أرملة في باهيا.

– إينايدي لا تمزحي...

انحنى الدكتور آلويزيو ليقبّل يدها، وحامت موجة من العطر في الجو، مغطية الدونا فلور:

– سيدتي، إنها للحظة مؤثرة في حياتي. لقد كتبت لي زوجة أخي في رسالة بشأنك، تقصّ عليّ روائع... مع هذا، أرى، أنها قصّرت في وصفك والشاعر وحده يستطيع وصفكِ سيدتي...

في الوقت نفسه كان يعرّي الدونا فلور بنظرة متباطئة وشرهة، منتزعاً عنها فستانها وغلالتها، ومنهدتها وسروالها. لم تشعر الدونا فلور يوماً أنها عارية كما شعرت حينها، فكانت نظرته تلك تقيس فيها انحناء مؤخرتها وصلابة ثدييها، وردة فرجها. وتحولت النظرة من نظرة تقدير إلى إطراء، وافترّت ابتسامة المجاملة المتوددة عن ضحكة رضى.

كل هذا ولم يترك يدها، حبسها في يده فيما راح يعرّيها ويتخيّل.

أجل، كان يقوّمها جسداً وروحاً في آنٍ، مستنتجاً أنه أمام سجينة سهلة مضمونة. وعبر تجربته الطويلة كدون جوان، صنّف الدونا فلور كامرأة متصنّعة بل شديدة التصنّع. كان يعرف جيداً هؤلاء النساء ذوات المظهر الوديع. جميعهن تقريباً زائفات، مخادعات، بينما تنطلق في السرير شياطينهن ويندفعن كالوحوش.

في مدن السرتون الصغيرة حيث لا حقَّ يذكر للمرأة بل هي عبدة لرغبات زوجها، سيدها، ملتزمة منزلها، فوجئ السيد آلويزيو مراراً عندما وجد في أعماق بعض العيون الخفيضة وفي تصرف سري مكتوم، إجابة حارة عن دعوته عديمة الحياء.

آه! إن هذه المياه الراكدة تخفي عواصف هوجاء. وتحت هذا التواضع الظاهر وتحفظ الحداد، أي زوبعة داخلية تعصف بالدونا فلور، الشابة المعافاة؟ كم عرف الدكتور آلويزيو أخريات لهن المظهر المتواضع نفسه، في خبايا المنازل، في عقد مجموعة قوانين الشرف، يعشن في القرون الوسطى. مع هذا، عندما تظهر فرصة مناسبة يتكشَّفن عن موهبة لا تضاهى في ممارسة كل ما هو محظور وممنوع، وخبيرات بزرع القرون في رؤوس أزواجهنّ. وبين الفينة والأخرى يلجأ زوج مخدوع إلى تنفيذ القانون ببضع طلقات أو ببعض الطّعنات.

في ساعات فراغه – وهي معظم وقته، إذ لا تلحّ دائرة السجل العقاري عليه بالتواجد إلا قليلاً – يكرس الكاتب العدل نفسه للنساء، يدرسهنّ ويتعرّف إليهنّ (معرفة حميمية إذا أمكن) حاملاً قاضي بيلون أركادو، الدكتور ديفال بينتومبو على تصنيفه «كمرجع في علم النفس، عليم موثوق به في معارف النفس الأنثوية وقارئ علّامة في الآداب الكلاسيكية». كانت الرسائل الآدبية الأجنبية تتلخص بالترجمات الوطنية أو البرتغالية للميثولوجيا الإغريقية، وللمظاهر العامة للتحلل في حياة الإمبراطورية الرومانية. وبالنسبة إلى النساء، كان لديه العين السريرية، التي أثمرت بعض المغامرات وشهرة واسعة مرعبة للأزواج، كغاوٍ لا يقاوَم. وبالرغم من جبهته الصلعاء وأنفه الكبير، انحدرت بعض النّساء إلى الخطيئة بسببه وواجهن الشريعة الإقطاعية، وقوانين الانتقام.

حسناً، إن نظرته الثاقبة هذه، كازانوفا نهر سان فرانسيسكو دخلت صميم الدونا فلور، واخترقت أفكارها، وتمكنت من أسرارها، بعدما جرّدتها من ملابسها ومن زخارفها. نظرة وقحة ليس لها من معنى آخر: عرّاها السيد آلويزيو داخلياً وخارجياً، وأخيراً وجدها طبقاً يتشهاه، شهية وأيضاً سهلة. بالنسبة إليه لم تكن الدونا فلور أشرف أرملة في باهيا، كما أنتخبها السكارى في بار كابيسا، والتي، من أجلها مستعدّة، أسوأ العرابات لأن تضع يدها على النار وهي متأكدة من سلامة موقفها.

وما دمنا نتحدث عن اليد، فالمحامي بلا ديبلوم احتفظ بها طالما هي تمدها له حبيسة يديه، يشدّ عليها بشكل خفيف في ملامسة شبه بريئة. وأدركت الدونا فلور ذلك من الطريقة التي كان ينظر بها إليها، يجرّدها من ثيابها، ويصنّفها، ومن اليد المأخوذة كرهينة تملّك. كان ريفياً وقحاً أنفاً مغروراً. فإذا لم تتحرك سريعاً وتقصُّ جناحيه حالاً، فقد يجرؤ على ارتكاب ما لا يُحتمل. سحبت يدها بفظاظة وعبست. لكنّ غاوي الكاتنغات لم يُلق سلاحه:

– اسمحي لي باعتراف، سيدتي المحترمة... إن لديّ اهتمامات أناقشها في العاصمة بخصوص الدائرة التي أديرها، وأقارب أزورهم، لكن رغبتي في التّعرف إليك هي التي أحضرتني إلى سلفادور... إينايدي، في رسائلها...

لكن الدونا فلور، وقد رأت الدونا داغمار تلميذتها وصديقة آل سامبايو تظهر في القاعة، تركته منصوباً هناك:

– بالإذن منك... أريد أن أتحدث مع صديقتي تلك..

فوراً سألتها الدونا داغمار، وكانت في حالة نفسية مرحة:

– من هو ذلك الببغاء الأصلع؟ طالب زواج؟...

– دعيني في سلام، يا امرأة... إنه ابن حمي إينايدي، المدعو الدكتور آلويزيو، رئيس سياسي لست أدري أين...

– آه! هو هذا... لقد سمعت عنه... يقال إنه صاحب نفوذ في سان فرانسيسكو... أعطني أي شيء أتناوله يا ابنتي ...

في غرفة الطعام، اجتاح الطاولات المقبلون على الطعام والشراب في صخب الأطباق والشوك والملاعق والسكاكين، وصواني الطعام تصل ملأى من المطبخ لتعود فارغة إليه. لقد كان عشاء عيد ميلاد السيد سامبايو إنجازاً! المنزل مزدحم، تجار وزملاء نادي أصحاب المتاجر، وأقارب، وجيران وصديقات الدونا نورما، يؤلفون تجمعات في الغرف وعلى الشرفة. والمطبخ ممتلئ بالطفل المتبنَّى من قِبل الدونا وإشبيناتها، وبفقراء الجوار. في زاوية من زوايا غرفة الطعام، قرب الطاولة الرئيسة، صاحب العيد السيد زيه سامبايو يأكل بشراهة ملقياً نظرات مراقبة على الطاولة، مرعوباً من أن ينتهي الطعام قبل أن يجدّد طبقه.

كان شبه متوارٍ كيلا يأتيه من يحادثه، فيزعجه. لكنّ الأرجنتيني بيرنابو، بشفتيه الصفراوين بزيت النخيل، كال التهاني لصاحب المنزل مع تجشآت التّخم:

– أيها الصديق القوي كم الطعام لذيذ....

ساعدت الدونا فلور قليلاً الدونا نورما والخادمات (جميع خادمات الجوار) ولكنها، عندما فترت الحركة، جلبت كرسياً من إحدى زوايا الشرفة، وراحت ترافق، من هناك، هياج العشاء؛ كان السيد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى، يهمّ بالطبق الرابع، والدكتور إيفيس يملأ بطنه بحلوى ما بعد الطعام.

اقترب منها السيد آلويزيو، وعود نكش الأسنان في فمه، كمن لا يريد شيئاً حتى استند إلى الحائط قربها:

«حفل روماني...» أطلق حكمه.

صمَّمت الدونا فلور على ألا تجيبه لكنها في النهاية أجابت. فلم تكن لديها أسباب كافية لتجاهل هذا الرّيفي.

– حينما تقدم نورمينيا العشاء، لا تعدّ الأطباق...

كان السيد آلويزيو ينظر يمنةً ويسرة مميتاً المحادثة من دون مواصلتها. وكادت الدونا فلور تعود إلى حركة القاعة. وعندها سمعت الشبق الصامت في صوت الكاتب العدل:

– أيتها الجميلة، قولي لي شيئاً واحداً...

– ما هو؟ سألت فلور بخوف.

– ما رأيك لو خرجنا معاً لنشاهد ضوء القمر على بحيرة آباريتيه؟ ستخرجين وأنتظرك في الساحة...

تسمّرت الدونا فلور، وقالت بصوت مخنوق:

– من تظنّني؟

أطلق الدكتور آلويزيو ضحكة كما لو كان يعرف تماماً القيمة الضئيلة لذلك التكرم، وهو معتاد على مثل ردات الفعل الأولى الفظة هذه.

– نزهة، لا أكثر...

عجزت الدونا فلور عن الإجابة، والحزن يحرق خديها ويسحق صدرها. هل الاشتياق إلى الرجل والرغبة المنفلتة من عقالها يظهران بوضوح على وجهها؟ واتجهت إلى القاعة مهرولة.

– ماذا بكِ يا فلور؟ سألتها ماريلدا عندما شاهدتها هكذا متوترة، مرتجفة اليدين.

– لست أدري، اعتراني خفقان.. لا شيء...

– اجلسي هنا... سأجلب لكِ كاس ماء...

– لا لزوم... سوف أجلس هناك مع أمكِ...

وفي حلقة الصديقات أثناء التّندر والتعليقات على شره بعض المدعوين، زالت الصّدمة عن الدونا فلور وتأثير ابتسامة النذل، والكلمات الوقحة الساخرة. هذا السافل، يدعوها لمشاهدة ضوء القمر في ليلة حالكة السواد، وشيئاً فشيئاً دخلت في المحادثة، مرفّهة عن نفسها بملاحظات الدونا آميليا والدونا إيمينا. أما ماريا دو كارمو التي كانت ترى السيد سامبايو لأول مرة يتصرّف في غداء أو في عشاء ذهلت من المشهد.

وبينما تعالى ضجيج الحديث ومرحه، ظهر النجم السانفرنسيسكاني الملحاح مرة أخرى، يتأبط ذراع امرأة أخيه الدونا إينايدي، ليسأل:

– هل من مكان لاثنين؟ أم الحديث محرّم على الرجال؟

– هيّا اجلسا...

لم تبدِ الدونا فلور اهتماماً بحضور الكاتب العدل، الذي أخذ بعد قليل يقرأ يد الدونا آميليا، مضحكاً الجوقة بنوادره. كان طريفاً، حتى أن الدونا فلور نفسها ابتسمت مرة أو مرتين. تنبّأ للدونا آميليا بالرحلة والثراء. بعد ذلك أتى دور الدونا إيمينا. وعدها وهو يتصنع كثيراً من الجد، بولد آخر عما قريب.

– معاذ الله... ألم أكتفِ بأمينيا، وعلى غير انتظار؟ سأنتحس بأخرى...

– هذه المرة سيكون صبياً... لا أخطئ أبداً...

بعد قراءة يد الدونا إيمينا، ألقى نظرة على الدونا فلور، كأن شيئاً لم يحدث. وراحت عيناه تعرّيانها من جديد، ممرراً في الوقت نفسه طرف لسانه على شفتيه، بحركة وقحة بحيث أحسَّت بقلبها يتوقف. إلى أين يظن هذا الشخص أنه سيصل؟ لحسن الحظ لم تنتبه الأخريات. مدّ يده ليمسك بيد الدونا فلور، قائلاً:

– الآن دوركِ...

– لا أريد أعرف! هذه سخافة...

لكنّ الأخريات ألححْن عليها مقهقهات. ماذا سيفكرون لو أصرت على رفضها؟ سيكون الأمر أسوأ. فوافقت. ابتسم الدكتور آلويزيو منتصراً، وهو الاختصاصي في النفس الأنثوية. لم يُخدع قط.

ركّز على يد الدونا فلور اليسرى، وراحتها منبسطة إلى أعلى. وبإصبع ذي ظفر معتنى به جيداً، أخذ يحدد الخطوط الكاشفة، في دغدغة خفيفة ورقيقة، والدونا فلور متصلّبة مشدودة الأعصاب.

«خط الحياة رائع لديك... سوف تعيشين أكثر من ثمانين عاماً...». بقي ثانية صامتاً، كأنه يتفحص، بانتباه يد الأرملة: «أرى أموراً مستجدة عظيمة...».

– أمور مستجدة؟ أية مستجدات؟ صاحت الصديقات متأثّرات.

– خطّ الحب... أرى حباً جديداً... حالة، عشقاً...

قالت الدونا فلور، وهي تحاول تحرير يدها:

– عن إذنك...

لكن السيد آلويزيو استبقاها بين يديه:

– تريثي... لم أنته... أصغي إلى البقية... سيد من المنطقة الداخلية...

انتصبت الدونا فلور بخشونة، وانتزعت يدها من بين يدي المحامي بلا ديبلوم بعنف.

– لم أسمح لك بهذا القدر من التجرؤ...

خرجت من القاعة كالعاصفة، تاركة وراءها الصديقات في ذهول تام، والدونا إينايدي مهانة إهانة بالغة:

– يا لها من زبدة ذائبة... فلتقلن لي: هل فعل ألويزيو شيئاً ما خارج المألوف؟ هل كان فظاً؟ نكتة للضحك... إنني لا أتحمل أناساً مثلها، يتصرفن كالوحوش... وفي النهاية من تظن نفسها؟ أميرة؟

وحده الكاتب العدل أصر على أن يبقى هادئاً، ومنح الدونا فلور عذراً:

– مسكينة... أعرف هذا التوتر... إنه مشكلة جميع الأرامل الشابات اللواتي لا يعثرن على زواج جديد، طريق الهستيريا... المدن الصغيرة ملأى بحالات كهذه... عانسات وأرامل، أي شيء يسبب لهنّ الإهانة، ويبكيهنّ، حياتهن فقدان وعي ومزاج سيئ، وفي شيخوختهنّ يتحولن إلى مجنونات وادعات.

قاطعته الدونا ماريا دو كارمو: «انتبه يا دكتور، فأنا أرملة أيضاً، وأنت تهينني». قيّمها المحامي بلا ديبلوم بنظرة متفهمة: خلاسية ما زالت ذات قشرة طيبة، ناضجة جداً، جسد صلب، يتحمل قفزات إضافية. ولم يكن الدكتور آلويزيو الرجل الذي يضيع وقتاً، فترك الدونا فلور وراءه وقال:

– أريني يدك اليسرى، اعملي معروفاً. أريد أن أرى شيئاً بوضوح..

تناول يد الدونا دو كارمو بين يديه، وتطلع إليها بتلك النظرة ذات الرسالة الفظة:

– هل بوسعي قول الحقيقة أم أكذب؟

خرجت الدونا فلور من الباب الخارجي. وذهبت ماريلدا والدونا نورما لملاقاتها في المنزل حيث وجدنها مغسولة بالدموع، في مثل هذه الحالة من التوتر، بحيث رددت الدونا نورما ما قاله المعلم آلويزيو من بيلون آركادو:

– ما هذا يا فلور، لماذا أصبحت عصبية؟ بهذا الشكل؟

الدونا فلور تستغيث في الصف وفي الحلم

دَعْنَنَي بسلام مع حِدادي ووحدتي. لا تكلّمْنني في هذه الأمور، احترمن وضعي كأرملة. وهيّا بنا إلى الطبّاخ. طبق النزوات والإتقان هو الفاتابان بالسمك (أو بالفراخ) أشهر طبق في مطبخ باهيا. لا تقلن لي إنني فتية، إنني أرملة. فأنا لا أهتم بهذه الأمور. وكمية ألفاتابان تكفي عشرة أشخاص (وتزيد كالعادة).

أحضِرْنَ رأسين من الغاروبا الطازجة – يمكن استعمال أي سمك آخر لكن هذا النوع هو الأفضل – وحضّرن الملح والكوينترو والثوم والبصل وبعض رؤوس البندورة وعصير الليمون الحامض. ثم، أربع ملاعق حساء، ملأى بأفضل أنواع زيت الزيتون، البرتغالي أو الإسباني، سمعت أن اليوناني هو الأفضل. لست أدري، لم أستعمله يوماً لأنني لم أعثر عليه كي أشتريه.

إذا عثرت على عريس، ماذا أفعل؟ هل يستعيد لي إنسانٌ ما رغبتي الميتة المدفونة مع المتوفى؟ ماذا تعلمن أنتنّ يا بنات، عن حميمية الأرامل؟ إن رغبة الأرملة هي رغبة الدلع والخطيئة، فالأرملة الرصينة لا تتكلم في هذه الأمور، لا تفكر في هذه الأمور، لا تتحدث عنها. دعنني بسلام في مطبخي. أعدن السمك في هذه التوابل جميعها، واطبخْنَه مع قليل من الماء، القليل القليل: بضع نقاط لا غير. ثم صفِّين المرق، وضعْنَه جانباً، ولْنكمل عملنا.

إذا كان سريري مجرد فراش كئيب للنَّوم لا ينفع لأي أمر آخر، فماذا يهُمّ؟ أي شيء في هذه الدنيا له ما يعوّضه. فلا شيء أفضل من العيش باطمئنان، بلا أحلام، ولا رغبات، من دون أن أستهلك في لهب الرَّغبة في رحمي المتَّقدة. فهذه أفضل حياة ممكنة بالنسبة إلى أرملة رصينة محتشمة؛ حياة مطمئنة، متحرّرة من الطموح والرغبة. لكن، ماذا لو لم يكن سريري مجرد فراش للنَّومِ، بل صحراء عليّ اجتيازها يومياً، أرض رغبة مُحرقة بلا مخرج؟

ماذا تعرفْنَ أنتن عن حميميَّة الأرملة، عن سريرها المتوحّد، عن تركة المتوفى؟ لقد أتيتنّ إلى هنا لتتعلَّمن الطَّهي، لا لمعرفة ثمن الاعتزال، الثمن الذي يدفع بالشوق والوحدة حتى تبقى الأرملة شريفة محتشمة. لنواصل الدرس.

ضعن مسحوقاً وجوزتيْ هند واسحقنها. اسحقن بعنف! يُقال إن الرياضة تجنّب الإنسان الأفكار الرديئة، لا أعتقد ذلك. أجمعن عجين الجوز الأبيض المسحوق جيداً واجعلنه يسخن قبل أن تعصرنه. هكذا يسهل استخراج الحليب الكثيف، حليب جوز الهند النقي الصافي. ضعْنه جانباً. بعد أن تستخرجن الحليب الأول الكثيف، لا ترمين العجين خارجاً، لا تكنَّ متلفات، فالزّمن ليس زمن تبذير. خذن هذا العجين واجعلنه يسخن بغليه في ليتر ماء؛ ثم اعصرن للحصول على حليب المسحوق. وعندها تتخلصن من العجين المتبقي، إذ أصبح عديم الفائدة.

الأرملة هي مجرد إنسانة لا نفع منها، تقييد ونفاق. ترى أيدفنون الأرملة في قبر الزوج؟ في أي بلد يوقدون النيران في جسدها، في جسد المتوفى؟ أفضل أن تحرق وتصير رماداً دفعةً واحدةً من أن تستهلك نفسها بنار بطيئة محرمة، أن تحترق من الداخل بالاشتياق والرغبة. من الخارج نفاق، ملابس سوداء، خمار يغطي جغرافية مضطربة من الخوف والخطيئة. الأرملة هي هم لا فائدة منه.

قشّرن الخبز وبعد أن تقشرنه ضعنه في هذا الحليب المسحوق ليصبح طرياً. افرمن اللحم في مفرمة (مغسولة جيداً) وهو طري مع جوز الهند، وافرمن الفستق والقريدس الجاف والكاجو والزنجبيل، ولا تنسيْن البهار حسب ذوق الزبون (البعض يحبّون الفاتابان حرِّيفاً ببهاره، وهناك من يحبه لاسعاً مع حدّة بسيطة).

بعد أن تفرمْن هذه التوابل وتمزجنها، ضعنها على المرق المحضَّر جيداً من الغاروبا، وأضفن التوابل إلى التوابل. الزنجبيل إلى جوز الهند، والملح إلى الفلفل والثوم إلى الكاجو. ثم ضعن الخليط فوق النار إلى أن يصبح المرق كثيفاً.

إذا كان الفاتابان القويّ بالزنجبيل والفلفل والفستق ليس قوياً بما يكفي ليؤثر في الناس ولا يبثّ الحرارة في أحلامهم ويجعلها فاسقةً بتوابله، فهل من لضروري إضافة تابل آخر! هل هذا حقاً ضروري! أنا، ما احتجت يوماً للزنجبيل أو الفستق؛ كانت يده تكفيني، يكفيني لسانه، كلامه، شفتاه، صفحة وجهه، لطفه! كان يُعرّيني من الملاءة ومن الحياء ليحملني إلى عالم فضاءٍ قبلته، يشعلني كالنجوم في عسل ليلِه. فمن الذي يجرّدني اليوم من خمار العفة في أحلامي كأرملة وحيدة في

سريرها؟ من أين تأتيني هذه الرغبة التي تحرق صدري ورحمي ولم يعد هناك لا يده ولا شفتاه، لا صفحة وجهه الجميل كالقمر ولا ضحكته الفجّة؟ لم تعد هناك. لماذا مني بالذات تتولّد الرغبة؟ لِمَ كل ذلك التساؤل والاهتمام بمعرفة ما يدور في أعماق الأرملة؟ لِمَ لا يُرخون خمار الحداد الأسود، خمار التصوّر المُسبق، على وجهي ليغطي تردده ما بين الحياء والرغبة الجامحة؟ إنني أرملة، وكلامي في مثل هذه الأمور لا يعود على وضعي بالخير؛ أنا أرملة أمام الطَّبَّاخ تطهو الفاتابان، تزن الزنجبيل والفستق والبهار وهي في منتهى الوحدة.

أضفن فوراً زيت جوز الهند الكثيف النقيّ، ثم أخيراً فنجانين من زيت النخيل موزونين جيداً، زهرة الدينديه، بلون الذهب العتيق، لون الفاتابان. ضعنه على نار خفيفة وقتاً طويلاً، مع تحريكه بملعقة خشب باستمرار وعلى المنوال نفسه. لا تتوقفن عن التحريك وإلا سيصبح الفاتابان كالقرون. وحرّكن وأعدن التحريك، هيّا، بلا توقف، حتى بلوغ الدرجة المطلوبة.

على نار خفيفة تتآكلني أحلامي. ولا ذنب لي فأنا مجرّد أرملة مشطورة نصفين، أرملة شريفة خجولة من جهة، ومن جهة أخرى أرملةٌ فاسقة، هستيرية تقريباً في ضياعها وسوء مزاجها. رداء الحرص هذا يخنقني، في الليل أركض في الشوارع بحثاً عن زوج، زوج أقدّم له الفاتابان بلونه الذهبي وجسدي البرونزي كالزَّنجبيل والعسل.

بلغ الفاتابان درجة الكثافة المطلوبة. أنظرن كم هو جميل! قبل تقديمه، عليكنّ سكب قليل من زيت النخيل النيء فوقه. قدِّمنه مصحوباً بالآكاسا. الخاطبون والأزواج سوف يتلمّظون.

وما دمنا نتكلم على العريس، أنذرن الجميع بل ليعلم الكلّ أن ثمة أرملة هنا، شابة لطيفة وديعة فاتنة، بلون الماتي، مخلوقة من الذهب والبرونز، طاهية متمكِّنة مجدّة في عملها، شريفة طيبة السمعة لا مثيل لها في المدينة كلها في ريكونكافو، أرملة ممتازة من الدرجة الأولى في السرير الحديدي، بحياء العذراء ورحم تحرقها النّار.

لو كنتن تعرفن من يهمّه الأمر فأرسلنه راكضاً إليها في أي ساعة، في الصباح أو في المساء، في منتصف الليل أو في الفجر، مع الشمس أو مع المطر؛ لكن أرسلنه سريعاً، أرسلنه مع

القاضي، مع أوراق عقد القران، أرسلنه على وجه السرعة، بأقصى سرعة.

أطلق هذا النداء إلى الرياح الأربع، حسب اتجاه التيارات الجارية تحت البحر، ومراحل القمر والمد، في إثر أي مركب أو زورق. لأنني ميناء يصعب اكتشافها، خليج خفي، مرسى للغرقى. فمن يعرف عازباً يبحث عن أرملة للزواج، ليقل له إنه سيعثر ههنا على الدونا فلور عند حافة الطباخ قرب الفاتابان المعدّ بالسمك، مستنفدة بالنار والعار.

10

ذات يوم، لم تعد تستطيع أن تتحمّل المزيد ففتحت قلبها إلى الدونا نورما: «من الخارج زهد عفيف، ومن الداخل بئر غائط». فالرغبة تتولّد منها، من صدرها، من الصمت، من الهذيان، من الوحدة، من الحلم. من دون سبب، من دون نقطة انطلاق، من دون بذرة ولا جذر. يتولّد منها – «من دماري نفسه، يا نورمينيا» – من جسدها المحموم، نامياً في ذلك البدن القذر من الغياب، من الاحتياجات، من اللعنات؛ فالاشتياق مزروع في روث خراجها.

– إنني منهكة يا نورمينيا، لا أريد التفكير وأفكر. لا أريد أن أرى وأرى. لا أريد أن أحلم وأحلم الليل بطوله. كل شيء ضد رغبتي، ضد إرادتي. لا يطيعني جسدي المعاقب بالحرم يا نورمينيا.

كرّاس اليوغا مقروء ومستعادة قراءته، قد أوضح لها التعامل مع «المعركة الصليبية بين قذارة المادة وصفاء الروح»، فتتشبث بصميميتها؛ إنه أمر مرعب حقاً. المادة اللعينة لجسدها تشطرها في غضب وخراب ضد يقظة روحها، قاطعة اطمئنان حياتها، اتزانها، متخلية عن تواجد أي تنسيق بين رغبتها وغرائزها. كل شيء مضطرب؛ فمن ناحية هي أرملة، مثال للفضيلة، ومن ناحية أخرى أنثى شابة لها احتياجاتها. حالة خطيرة، تتطلب في وصفة في الكراس «تركيزاً قوياً في التفكير والتمارين اليومية».

لم يحلّ الأدب التصوفي والتمارين المؤلمة شيئاً، وهي أيضاً أشد ألماً للدونا فلور، الممتلئة الجسم بل البدينة. ولكي ترى ما إذا كانت ستحظى بالاتزان الرثائي الموعود، أخضعت نفسها خلال

أسبوعين، لالتواءات عبثية جداً. الدونا داغمار، بناءً لطلبها، كررت عدة دروس، والدونا فلور لاذت بالصبر والأمل، ولم توفر أي إطراء لمناهج اليوغا الرائعة! وقد أنقصت وزنها أربعة كيلوغرامات. كان الأمر مع الدونا فلور، فشلاً كلياً، فهي لم تهزل. وبدلاً من الهدوء والاتزان، حظيت بالتَّعب فقط، ومع هذا فالجسد المتألم لم يكن أقل شراهة وحيوية في دقته العاجلة. وبالقدر نفسه لم تقنعها التحليلات العلمية اللامعة من الدونا جيزا، والأسماء غير المفهومة الجديرة بدكتور في الكلية: عقد، ليبيدو، الوعي الباطني، عوامل الرفض الباطني، التابو:

– بالنسبة إليكِ يا فلور، أرملة زاخرة بعوامل الرفض الباطني والعقد، الجنس هو تابو.

تابو أو غير تابو، وعي أو لاوعي أو وعي باطني، بتأثير عدم الاستجابة الباطنية والعقدة أو بالرغبة البسيطة للمرأة، كان ذلك القنوط طوال الليل أحلاماً شهوانية تجرجرها في حفلة ماجنة. ولم تكن محادثة الغرينغا لتجدي نفعاً. إذ لو كانت تسعى وراء أمورها العصية على الإدراك لخرجت إلى الشارع وضاجعت أول ذكر تعثر عليه، محطمة بوحشية عوامل الرفض الباطني وعقد النقص، خانقة في أحد أسرة شقة للعازبين التابو اللعين، لكي تلحق العار الدائم بها وبذكرى الميت.

الدونا نورما بحكمتها الشعبية الحسنة، التجربة الحيّة، الإدراك الإنساني دخلت إلى الموضوع مباشرة قالت:

– «هذا بسبب الافتقار إلى الرجل، يا قديستي. فأنت صبيّة، لا تعانين مرضاً خطيراً، ولستِ مخصيّة على ما أعرف، ما الذي تريدينه؟ حتى الراهبات يتزوجن ليتحمّلن العفة. يتزوجن من المسيح، ومع هذا هناك بينهنّ من يضعن قروناً للمسيح»، وابتسمت إذ تذكرت: «أنت تذكرين تلك الراهبة في المنسك التي ارتبطت بالخباز وانتهت فنانة مسرح؟ مضى على ذلك وقت طويل، ألا تذكرين؟ لم يتكلم أحد في أمر آخر...».

حتى ولا صورة الراهبة في مقصورة أحد المسارح كانت لتفرح الدونا فلور، المتفجِّعة والمصرّة على موضوعها غير مبالية باستطراد الصديقة:

– لكنني يا نورمينيا، أرملة...

– أوتعتقدين أن الأرملة ليست أنثى؟ فالأرملة كما أعرف، تفكر في الرجل، تحلم بالرجل، تنظر إلى الرجل... فدعكِ من هذا...

– أنت تعرفين أنني لست من اللائي يعشن وراء الزواج. ذات مرة أنتِ انتقدتني، ونعتّني بالفظة...

– حدث. أعرف أنكِ لستِ امرأة مستهترة ... لكنني سأكلمكِ بصراحة: أنتِ أرمِلة تركنين إلى الفرار، وأصبحت لا تُحْتَملين. مضى عام وأنتِ أرملة، وبدلاً من أن تتحسَّني، ازددت سوءاً، كأنكِ ترملتِ البارحة. كنتِ قبلاً تضحكين إذا تحدثنا عن خطبة أو زواج. بعدها أصبحت ترفضين حتى سماع فكاهة. فيستبد بك الغضب...

– أنت تعلمين جيداً لماذا... حتى إن محتالاً جاء...

– ألمجرد أنّ المدعوّ الدوق – الدوق أم الأمير؟ – تسكّع ههنا، صرت أسوأ من راهبة! وإذا كان قد اقترب منكِ فلأنه وجدكِ لقمة طيبة. الآن، لأن السيد آلويزيو قام بمحاولة، أمر ليس في البال، أغلقتِ على نفسكِ في المنزل، لا تخرجين تقريباً، لا تواجهين رجلاً، كأن الرجل صار وحشاً ضارياً.... وفي النهاية السيد آلويزيو لا يريد سوى...

– أعلم ما الذي يريده...

– يريد أن ينام معكِ يا عزيزتي... لكن الأمر واضح... كثيرون يريدون ذلك، وكثيرون تتآكلهم العزلة. أنت أرملة ممتازة، ويوجد الكثير من الجبناء ذوي العيون المتَّقدة...

– هل لديّ يا ترى، وجه امرأة وقحة لكي يجرؤ هؤلاء الوقحون...

– ومن قال إنهم بحاجة لأن تكون المرأة وقحة ليريدوا النوم معها؟ بالرغم من وجهكِ الشبيه بوجه الجلاد...

– لكن يا نورمينيا، ما الذي أستطيع فعله؟

– أنتِ بحاجة لأن تطفئي هذه النار، أيتها المرأة... فإذا كنتِ لا تنامين براحة، إذا كنت غير مرتاحة، إذا افتقدتِ الاطمئنان، فلأنكِ تعانين ناراً شقية تحرق لكِ ذيلكِ...

– ما هذا يا نورمينيا، معاذ الله...

– لكن أليس هذا هو بالضبط؟ أليست هي الحقيقة؟

– وما الذي تريدينني أن أفعل؟ أن أُتعس نفسي وأتحول إلى مستهترة؟ أنا لست امرأة عديمة الحياء، لم أولد لكي يكون لي عشيق، هذه الأمور بالنسبة إليّ تحدث مع زوجي فقط... لأنني أحلم بهذه السخافات، أرغب في الموت... ترى هل أبدو امرأة بغياً لتقولي هذا...

– لا تكوني بلهاء، ما الذي قلته أنا لتشعري بالإهانة؟

– أما قلتِ...

– قلت وأكرر إنكِ تعانين ناراً تحرق لك ذيلكِ، أو كما قالت، ابنة صديقة لي، لأمها: «أماه، فرجي صار موقداً، إنه يشتعل» وأنتِ تقريباً مثلها. ولكن هذا لا يعني إنكِ لستِ رصينة... خلاف ذلك... رصينة جداً، وإلا كنت، مع هذه النار كلها، قد فتحتِ فخذيكِ... إنكِ رصينة وتبدين رصينة أكثر من اللازم، تبدين مغرورة... لا تحفلي بالسحنة التي ترسمينها على وجهكِ حين ينظر رجل إليكِ...

– وهل عليَّ أن أضحك، وأقول: «تعال ونم معي...»؟ أفضل الموت، لم أمضِ إلى السرير إلا مع زوجي...

– ويجب عليكِ أن تمضي مع زوجكِ وحده...

– زوجي مات...

– مات الأول... لا شيء يمنع أن يكون لكِ آخر. فأنتِ شابة يا فلور، ولم تبلغي الثلاثين...

– سأكملها في نهاية السنة...

– كفاك أيتها البنت... إن ما تعانينه، ليس مرضاً ولا خبلاً، يوجد فقط علاجان يا ابنتي: زواج أو خلع العذار. وآنئذٍ تدخلين راهبة إلى أحد الأديرة. وفي هذه الحالة كوني حذرة من الخبازين وباعة الحليب والبساتنة، ومن القساوسة كيلا تزرعي قروناً لربنا الإله.

– لا تمزحي يا نورمينيا...

– إنني لا أمزح يا فلور. فلو كنتِ خالعة العذار، بوسعك الاستمرار أرملةً مرتدية السواد تتسكعين ههنا، تستسلمين لشخص أو لآخر، تلهين، تفرّجين عن نفسكِ. لكن بما أنكِ لستِ من هؤلاء، وأنك بالفعل رصينة، يجب أن تتزوجي، لا يوجد شيء آخر تفعلينه...

– رغبة المرأة الأرملة، يا نورمينيا تذهب في متاع المتوفى، فالأرملة ليس لديها الحق في تذكر ليالي الغلمة، ولا ذكريات السرير، فكيف بالحري أوهام الخطبة والزواج بزوج آخر. كل هذا ليس أكثر من إهانة لذكرى المرحوم وشرفه.

– رغبة المرأة الأرملة تماثل رغبة العذراء أو المرأة المتزوجة نفسها، إذا لم تكن أكثر من ذلك، أيتها البلهاء. هكذا كانت تجيبها الدونا نورما قوية وصاحبة عزيمة. فزواج جديد ليس إهانة لشرف المتوفى. وأي امرأة تستطيع الصلاة لذكرى زوجها الميت، وأن تغدو سعيدة في الوقت نفسه بصحبة زوج ثان. فوق هذا كله فهي الدونا فلور التي كان زواجها الأول غير عادي وليس مفرحاً دائماً، حتى لا يقال الأسوأ.

محادثة مستفيضة وخيرة والصديقتان بمفردهما، في حميمية ذات تقدير حقيقي، شقيقتان ما كان لهما أن تتفاهما بهذا المقدار. أقتنعت الدونا فلور أخيراً. وربما كانت قبلاً، في مداولة قاسية مع نفسها، لم تعترف بذلك قطّ، لو لم تنتزع الدونا نورما خمار المفاهيم المسبقة عن حداد نتن زائف في الرغبة.

– لكن يا نورمينيا، ماذا يفيد إذا وافقت؟ من سيريدني عروساً؟ إن أحداً لا يريد فضلة رجل متوفٍ، وأنا لن أُقدّم نفسي... سوف أموت في هذا الاستنزاف.

– انزعي اللافتة، وأنا أعطيك ستة أشهر...

– أي لافتة؟

– هذه التي تحملينها على وجهك: «أنا امرأة أرملة إلى الأبد، متُّ بالنسبة إلى الحياة والزواج». انزعيها، وعودي إلى الضحك، لتصبحي مثل كلّ الناس. وأراهن أنه في أقل من ستة أشهر...

جرت هذه المحادثة في مكان بعد بضعة أيام من الكارنفال الذي حدث في ذلك العام متأخراً في آذار/ مارس، بعد شهر تقريباً من الذكرى الأولى لترمل الدونا فلور.

في صباح تلك الذكرى الجنائزيّة، ذهبت الدونا فلور إلى المقبرة، مع دموعها وزهورها، متباطئة قرب القبر لوقت طويل كما لو أنها عثرت هناك على الفرج والهدوء. كان يوماً من أيامها الأكثر اطمئناناً في زمن الترمّل المضطرب كله، شاعرة أنها حزينة فقط، وبشوق إلى المتوفى. شوق عميق مريح.

كانت أيام الكرنفال أشد ألماً لها. في الموسيقى والأغاني، كثير من تلك الموسيقى والأغاني ذاتها في الكرنفال السابق، ووافتها ذكريات الأحد المرعب. وعندما أسندت مرفقيها إلى النافذة لتشاهد مرور حلقة أو جمعاً، زيه بيرير، زابومبا، آفوشيه، كانت تتذكر الميت على أرض ساحة «الثاني من تموز»، بين الشمعدانات والزينة، مرتدياً الزِّيّ الباهيَّاني.

عندما وقفت آفوشيه أبناء البحر، بكل عظمة الكومبارس لديها، أمام «مدرسة الطَّهي مذاق وفنّ» مطيعة المرأة القبيحة، والزنجية أندريزا ده أوشوم، قابضة على بيرق ملكة المياه، رقصت خطوة ساحرة – النوافذ مكتظة، الشارع مزدحم والأكف متحمسة – انفجرت الدونا فلور بالبكاء وسقط كل الألم وكل الغياب عليها دفعة واحدة. فمنذ سنة حين كان جسد الميت ممدداً على السرير

الحديدي، كانت لا تزال لديها نيّة في التلصص على مرور آفوشيه من فوق كتفيْ الدونا نورما والدونا جيزا، والحياة والموت داخل صدرها. الموت جد حديث وقاسٍ لا يزال متواصلاً كوصمة حياة. ومع مرور الوقت كانت الدونا فلور تعير حساباً كاملاً للفراغ النهائي، للغياب الحاسم. في الكرنفال السابق، وبحضور الميت ، كان بإمكانها التلصص على آفوشيه، بنظرة سريعة أقلّه. مع هذا، في هذا الكرنفال الآخر، كانت لا تحتمل، بالنسبة إليها، الرؤية المجيدة لأبناء البحر في إيقاع الأتاباكي. ومع جهلها للتكريم الذي تتضمنه تلك الصافرة، ذلك الانقطاع للمسيرة، تلك الرقصة، في دلع أندريزا الشبيهة بمركب فوق الأمواج، تكريم من آفوشيه لمن يتذكرونه دائماً كشريك وصديق توفي منذ سنة، حتى مع كل هذا لم تتمكن الدونا فلور من أن تمسك نفسها في النافذة؛ كانت لا ترى سوى الجسد العاري النازف، ميتاً إلى الأبد.

كرنفال صعب وحياة أكثر فأكثر صعوبة. لقد اغتنم المتوفى المرح الصاخب ليندمج في غمّ الرغبة غير القانعة، فنما العذاب شديداً عنيفاً بحيث لم تعد الدونا فلور قادرة على تحمّله في صمت أو وحدة. لم يعد بوسعها أن تحتفظ بسرها لوقت أطول، مهشمة الصدر، دائخة الرأس ومنهكة. إنه تدمير يا دونا فلور. فتحت نفسها للدونا نورما التي ضمنت لها خطبة وزواجاً في مهلة سريعة إذا كانت مستعدة لذلك، من دون قناع ولا لافتة. طلبتا التوكيد من الدونا جيزا. لكن الغرنيغا أعطت أهمية ضئيلة للخطبة والزواج، فهما مطلبان ملحان شرعيان وغير إنسانيين؛ كانت تقرأ الأمير كروبتكين وتمزج الماركسية بالتحليل النفسي. بزواج أم بلا زواج، في رأي مدرّسة الإنكليزية، لدى الدونا فلور «عقدة ذنب» تعذبها، ولن تتحرر إلا عندما تقطع علاقتها بالمحرمات، « بأية طريقة تم ذلك». ثم نصيحة أشدّ خبلاً! علاقة جنسية حرة، نزوة، مغامرة في نهاية الأمر، لكن على الفور. إلّا إذا كانت الدونا فلور مجنونة في مصح أو أكثر الأرامل استهتاراً واشتعالاً.

كانت الدونا نورما تقدم دعماً ومواساة. تخلت الدونا عن خلط الخجل بكراهية العالم، والنزاهة بالعبوس، وهي ستكون قادرة على المراهنة بالمال على أنه في أقل من ستة أشهر ستكون الأرملة وخاتم الخطبة في إصبعها، أقلّه مخطوبة.

لم تراهن الدونا جيزا؛ لماذا ينبغي للدونا فلور أن تنتظر ستة أشهر لتقطع علاقتها بالشؤون المريعة؟ لماذا هذه البلاهة مع كل هؤلاء الرجال الطّلقاء في العالم؟ ولو راهنت أيضاً لخسرت: فدائماً تقريباً في مباراة المعرفة من خلال الكتاب أم المعرفة من خلال الحياة، فهذه الأخيرة هي التي تنتصر.

ولأن الدونا فلور بدأت تصبح أكثر إنسانية، وأصبحت علاقاتها أكثرمن مجرد تهذيب، متبادلة الابتسام والحديث مع هذا وذاك، رصينة دائماً إنما لطيفة وحذرة، ربما بمحض الصدفة (على الأرجح)، يبقى أنه بعد شهر من هذه المحادثة مع الدونا نورما والمناقشة مع الدونا جيزا، أصبح واضحاً الاهتمام النزيه والنيات الشريفة للدكتور تيودورو مادوريرا، الشريك في «الصيدلية العلمية» عند زاوية كابيسا،وتحولت إلى موضوع رئيسي في النقاشات الواسعة. ألحت الدونا دينورا بحماسة وانتصارية على الحصول على التهنئة:

– تنبأتُ بذلك منذ أشهر إذ رأيته في كرة البلّور وقلت لجميع الناس: سيد فاضل، رجل خير، دكتور ذو مال. ألم يكن ذلك حقيقة؟ بشارتي يا سيدت الدونا فلور!

– «يا له من مكسب، إنها محظوظة» – جوقة الصديقات والإشبينات المذهولات، يثرثرن مجمعات.

11

لا أحد يعرف متى بدأ الصيدلي يهتم بالدونا فلور؛ فليس من السهل تحديد بدء الحب بالساعة والدقيقة، خصوصاً عندما يكون هذا الحب نهائياً لدى الرجل، حب حياته، مؤلماً وقدرياً، غير مرتبط بساعة أو تقويم. في يوم حميمي، بعد بعض الوقت، اعترف الدكتور تيودورو للدونا فلور، بخجل مضحك، أنه كان معجباً بها حتى قبل ترمُّلها بوقت طويل؛ فمن المختبر الصغير في الجانب الخلفي من الصيدلية، كان يراها تعبر الساحة، متتبعاً خطواتها في كابيسا، بنظرة متأملة. «لو صمّمت يوماً على الزواج، فلن أتزوّج إلا من امرأة كهذه: جميلة ورصينة»، كان يحدث نفسه قرب أنابيب التجارب وقوارير العقاقير. إحساس نقي أفلاطوني، لا شك، فهو لم يكن رجلاً يتأثر

بامرأة متزوجة ويُورطها في أفكار أقل نبلاً، رامياً إياها بعينيّ الشّر أو بتعبير أفضل «بعينين آثمتين بالشهوة».

إن أول من لاحظ ميل الصيدلي هذا، كانت الدونا إيمينا، مع أنها سيدة قلّما تهتم بحياة الآخرين؛ لم تكن تبغي سوى ما هو ضروري لكي تبقى على مستوى الأحداث التي تجري في الجوار. فإلى جانب الأخريات، الشرهات لأيّ وشاية كانت الدونا إيمينا رصينة وتقيَّة.

حدث ذلك في يوم السخرية عند الطلاب الجدد في الكليات الجامعية، في بداية نيسان/ أبريل، عندما يجتاز الطلاب الشوارع والجادات الرئيسة محتفلين ببدء السنة الدراسية. ففي موكب طويل، تحت ضربات القدامى، سار الجدد برؤوس حليقة بالموسى، متدثرين بالشراشف، مقيّدين بعضهم إلى بعض بحبل كحبل العبيد وهم يساقون حاملين ملصقات انتقاد للحكومة وللإدارة، مع نكات حول غلاء المعيشة والحياة الباهظة وعجز السياسيين.

جاء الاستعراض من كلية الطب في تيريرو ده جيسوس عبر المدينة في اتجاه بارّا، متوقفاً في أماكن معيّنة مثل ساحة كاسترو ألفيس وسان بيدرو وبييدادي وكامبو غراندي، حيث تجمعات الفضوليين الكبرى، وحيث كان القدامى يقدمون المسرات للمشاهدين، مع طرف فنيّة من الطلاب – الحيوانات في أعلى مراتب الحمير.

تحرك سكان الأحياء المجاورة لساحة «الثاني من تموز/ يوليو» ولكابيسا إلى سان بيدرو عندما سمعوا الأبواق والمزامير المعلنة، في لاديرا ده سان بينتو. وفي جمع مرح، سارت كل من الدونا نورما والدونا آميليا والدونا ماريا ده كارمو والدونا جيزا والدونا إيمينا والدونا فلور.

وحسب معلومات الدونا إيمينا، الدقيقة والحقيقية، كان الدكتور تيودورو متواجداً بالقرب من منصّة البيع في صيدليته، غير مبالٍ بالأبواق، وبالطلاب المتنكرين بزيّ أساتذة وسياسيين وبمعمودية المبتدئين. كان يتحدث مع الموظّف والفتاة العاملة على صندوق المحاسبة، حين لمحهم. وقد بات متوتراً جداً بحيث أن الدونا إيمينا استغربت تصرفاته وبقيت تراقبه متتبعة جولاته المريبة خطوةً خطوةً. فما إن رأى مجموعة النساء حتى ترك بسرعة مركزه المريح بحركة رجل واثق من

نفسه، مبتعداً عن منصّة البيع، ومنتصباً في وقفة صلبة تقريباً لكي يحيِّيهن، بصباح خير رنان وودي، ثمّ، وهذا تفصيل مهم، أخذ مشطاً من جيب الصداري، ومشط به شعره – ولم يكن بحاجة إلى ذلك، إذ إن شعره المسرّح كان يلمع بأكمله تحت طبقات الكريم اللماع. لقد اختفى مظهره الهادىء، فإذا ببائع العقاقير في اهتياج المراهق. «لقد رأيته الآن مرتدياً السترة لكي يلقي علينا التحية فقط». قالت الدونا إيمينا وهي تسأل نفسها عن سبب كونه بهذا القدر من الجهد والحميمية.

انحنى ليحيي الجمع طويلاً ورشيقاً بقميص أبيض ناصع البياض، وصداري رمادي، وسلسلة عريضة من الذهب من الجيب إلى الجيب في انحناءة متقنة، تحبس قطعة نقدية أثرية محترمة هي أيضاً من الذهب، إرث عائلي، والسروال كامل الاستقامة، والحذاء لماع من الدهان كثير الأهواء، وخاتم الدرجة العلمية.

أجابت الصديقات المتوَدِّدات، على تحيته. فالصيدلي كان شخصية مرموقة في الجوار، ملحوظاً معتبراً. وحسب شهادة الدونا إيمينا أيضاً – غنيّ بالأشياء الصغيرة، كما أثبتت – فعينا الدكتور تيودورو لم تبصرا سوى الدونا فلور، متعاميتان عن الأخريات؛ نظرة، إذا لم تكن نظرة شره فهي أقلّه نظرة طمع. «إنه يلتهمكِ بعينيه، يأكلكِ»، هكذا علقت الملاحظة الماهرة، للدونا فلور، بالتعبير الدقيق لتلك النظرة.

حين لم يعد يراهن من داخل المنصّة عبر إلى الأمام؛ ثم قدم إلى الرصيف أمام المؤسسة، وأخيراً، بعد تردد قصير وتحذير لموظفيه، غادر إلى الشارع خارجاً في أثر الرفقة الظريفة.

اتخذ له مكاناً على مقربة من الصديقات عند مشارف الساعة الكبيرة لسان بيدرو، محاولاً أن يكون حذراً. وإذ سحب السلسلة الذهبية، ابتسم راضياً من الدقة السويسرية لساعته الكبيرة. الدونا نورما والدونا آميليا، لكي لا تفوتهما أي تفصيلة من السخرية، ارتقتا مقعداً خشبياً مستطيلاً في حديقة صغيرة، وبقيت الأخريات على مقربة منهما، واقفات على رؤوس أقدامهن. ومن حيث كان، شبه مختفٍ بقاعدة الساعة، أخذ الدكتور تيودورو يتتبع بشيء من العبادة كل حركة تقوم بها الدونا فلور.

وتأكدت الدونا إيمينا، وهي تضعه تحت المراقبة، من أن الصيدلي لم يرَ أي شيء، تقريباً، من مسرحية التسلية. فالطلاب الجدد المصبوغون بلون القرميد الزاهي كانوا يرقصون رقصة الماكابرا، والقدامى يطلبون بإلحاج الجعة والكازوزا من البارات والدكاكين. وإذا كان الدكتور تيودورو قد ابتسم، كان ذلك صدى لضحك الدونا فلور، وتصفيقه كان جواباً على تصفيق الأرملة، وهو يتأملها ذاهلاً. وشدّت الدونا إيمينا تنورة الدونا نورما التي كانت تصفّق فوق أحد المقاعد الخشبية المستطيلة لتصرفات بلهاء من طالب يمتطي حماراً (كان الحيوان ينتهز العرض ليأكل فضلات القمامة في أوساخ الشارع). في البدء لم تفهم الدونا نورما الرسالة النابضة بعيني صديقتها وأصابعها. وأخيراً، إذ لاحظت الصيدلي نازعاً سترته مذهولاً، شاركته الذهول والانبهار.

– انظري!... قالت متفاجئة. هل هذا ممكن؟

وفي الحال انتبهت الدونا آميليا والدونا ماريا ده كارمو إلى تصرفات الدكتور تيودورو المفاجئ وهو شبه متوارٍ وراء الساعة، يتأمل الدونا فلور. بقيت الدونا جيزا وحدها بعيدة، مستسلمة إلى قراءة الملصقات في السخرية؛ وحسب ما تقول، التظاهرات الطلابية تتضمن مادة ثمينة لدراسة الروح الجَماعيّة. ولم تكن الدونا جيزا تُضيّع فرصة للدراسة، فقد ولدت مع قدر كله معرفة وكله تفسير (من خلال العلم الأكثر عصرية). وبالنسبة إلى الأخريات، مع هذا، فالمادة الأثرى والأوضح كانت تصرّفات صاحب الصيدلية الغريبة.

– أيتها البنات... انظرْنَ تصدِّقْن!

تابع العرض طريقه إلى بييادادي، وهن يتبعنه. لكن الدونا نورما، بحجة نقل رسالة، أطالت الطريق، وقامت بدورة من شارع خلفي. «هيّا نوضح هذا الأمر، والآن بالذات». وللحظة واحدة بقي الدكتور تيودورو متردداً، في ظل الساعة النّصب، ثم انتهى به الأمر إلى أن رافقهن بخطى متباطئة كمن يمضي بلا عجلة، على سجيته.

الدونا نورما والصديقات الأخريات أمسكن أنفسهن بالكاد عن الضحك، ما عدا الدونا فلور الغافلة كلياً عمّا يحدث، والدونا جيزا في تحليلها حول «ميل الشبان إلى القضية العامة». وفجأة

توقّفن، حيث ذهبت الدونا نورما لتعطي الرسالة المذكورة، في أحد منازل العائلة. وإذ أخذ بالمفاجأة، وهو على مسافة أمتار قليلة، اضطر الدكتور تيودورو إلى متابعة الطريق وحده. فمرّ بالقرب من الصديقات متجنباً التحديق إليهنّ متظاهراً بعدم رؤيتهنّ على نحو يثير الشفقة. كان مرتبكاً، يخمّن الابتسامات ونظرات الهزء، ولا يدري أين يضع يديه، فاعتراه الخجل واتجه إلى الزاوية راكضاً تقريباً. في مروره لم تتمالك الدونا ماريا ده كارمو نفسها، من إطلاق ضحكة رخوة أفلتت منها:

– هيه... همست الدونا نورما.

– إلى أين يمضي الدكتور تيودورو وهو مسرع هكذا؟ سألت الدونا فلور إذ رأته يختفي في الزقاق.

– أتريدين القول إنكِ لا تعرفين، يا محتالة؟ أي أمر هو هذا؟ هل ستحتفظين بالسرّ أم أنكِ ستخبرين صديقاتكِ؟ أو أن لا ثقة لكِ؟

– ماذا، يا امرأة؟ إنكن تخترعن أشياء وأشياء... ما الأمر هذه المرة؟

– لا تقولي إنكِ لم تنتبهي حتى الآن...

– ما هو، حباً بالله؟

– إن الدكتور تيودورو متيم بكِ...

– من؟ الصيدلي؟ أنتن صغيرات العقول، إنّكن عصبة من المجنونات... أين شوهد ذلك؟.. ومن؟ الدكتور تيودورو، الرجل الزاهر بالحياء... إن هذا لأمر يدعو إلى السخرية...

– أمر يبعث على السخرية؟ إنه فقد خجله يا عزيزتي، ويمضي منفعلاً...

مضين وراء عرض الطلاب المرشحين لدخول الجامعة، وهن يتندرن ويضحكن، والمسكينة الدونا فلور في حلقة من العذاب. لكن أثناء العودة إلى المنزل، وجدت الدونا نورما بمفردها مع الأرملة، فكلمتها بجدّية. لقد لاحظت في تصرفات الصيدلي، كما قالت للدونا فلور، شخصاً محترماً

يحترم الشكليات. فلم يسمع عنه أنه يطلق نظرات إلى الزبونات كما لم يشاهد متتبعاً شارعاً ما، في قميص بلا سترة، وممرراً مشطاً على شعره، متخفياً خلف ساعة عامة، في انفعالات مراهق صغير. كانت عينه مثبتة على الدونا فلور. لم يكن ذلك لغو إشبينات، ولا مجرد اختراع، حتى إن الدونا نورما بقيت بمنأى عن عبارات الاستهزاء، إذ ما دام الدكتور تيودورو رجلاً فاضلاً رصيناً، فليس خليقاً التعامل باستخفاف مع موضوع جدِّي كهذا، في سخرية واستهزاء. شخص مثله، يا ابنتي، نادر جداً، مواطن ناضج في عمر مناسب للدونا فلور، فاعل في الحياة، دكتور بدرجة وخاتم، مالك صيدلية، يفيض عافية، لو اخترعوه لما كانوا اخترعوا أفضل منه.

– هل ترين حقاً يا نورمينيا إنه مهتمٌّ بي؟ لا شيء من هذا. فمن الذي يريد أن يأكل خبزاً غير طازج، لحماً مفروماً، متاع متوفٍ؟ لا أحد...

قاست الدونا نورما صديقتها من أعلى إلى أسفل وقالت:

– ليباركِكِ الله... .

لأن الدونا فلور بانفعالها الناتج من النبا الجديد، بين فضولها وخجلها لكن لا شيء فيها من الخبز غير الطازج، خبز العشية العفن الطعم، ناهيك عن ذلك اللحم الفاسد. بل خلاف ذلك، كانت بشرتها ناعمة كخلاسية في نحاس عتيق قطعي، ثبات في الوجه المليح النضر، بدون معطِّر، فتيّ، عبير الأزهار المتفتحة، امرأة ولا كالنِّساء!. فضلة؟! ربما كان لها زوج تنام معه في سرير حديدي. لكنها امرأة مشتهاة أكثر من العذراوات الرقيقات، لأن الفضيلة ليست كل شيء، كلا! مع أنها تتمتع بالكثير من الاحترام والسمعة. ففي الأساس، ليست شيئاً ما على وجه التقريب، قشرة هشّة، قطرة دم، تأوّه وفوق كل شيء، مفهوم مسبق قديم. وإذا كانت ثمينة إلى هذا الحد، فلأنها انتفعت بألوف الدعايات، وعلاقاتها مع الجيش والإكليروس، الشرطة والدعارة، الجميع يصنعون من قشور امرأة ملك العالم. لكن ما قيمة فتاة عذراء بلهاء وجاهلة إذا ما قورنت بامرأة أرملة، اشتياقها مكوّن من المعرفة والغياب، من الحاجة والعوز، من الجوع والصَّوم، واضح وسفيه؟ «اسمعي يا فلور، لاتكلميني عن هذا بعد الآن، فمن أجل فضلات كهذه، ليس الدكتور تيودورو وحده يتحسر، لكن ثمة كثيرون لا نعرفهم». إن ما كانت الدونا نورما تريد معرفته لهو أمر آخر.

– وأنتِ، ما رأيك؟ كيف يبدو لكِ؟ هل ستكونين قادرة على أن تحبيه؟

أولاً لم تشأ أن تأخذ في عين الاعتبار مسألة مشاعرها قبل التأكد من وجود ميل عند الصيدلي إليها، كي لا يصبح ذلك استهزاءً والتباساً، وهي ليست مستعدة لنوازع التضليل ولأن تُذلّ نفسها، كما حدث قبلاً مع تلك القصة عن الأمير ومع مثالب السيد آلويزيو. لكن تحت ضغط الدونا نورما المصرّة على إجابة فورية، في إلحاح صديق، اعترفت الدونا فلور بأنها لا تستطيع أن تقف موقفاً لامبالياً من الصيدلي فهو فارس لطيف المعشر، شخص مميز وكفوء، ورجل حسن المنظر، يملأ العين. يذكرها بأحد فناني السينما. الشبه خفيف لكنه كافٍ ليدل عليه في رشاقته. وفي النهاية، لو كان الأمر حقيقة، ممكناً ومحتملاً لأدركت الدونا فلور ما تستشعره نحوه... ما الذي ستشعره إزاء المتوفى؟ هذا لا، فقد كان مختلفاً... وهي نفسها أصبحت أخرى، ليست نفسها تقريباً، فمنذ أكثر من ثماني سنوات، تسع على وجه التقريب، عرفته في حفلة المقدّم، وفجأة، من دون أن تزن تصرفاتها وبدون تفكير أعطته قلبها (ثم، بفرح، ثدييها وفخذيها في ضوضاء الساحة وفي عتمة الشاطئ). كانت مجنونة به؛ ضائعة إلى درجة الاستسلام له، ومنحه كلّياً ومجاناً كل ما طلبه، ناكثة قروح الدونا روزيلدا، التي جعلت من نفسها عدواً للحب ومعارضة عنيدة للزواج.

الآن هي امرأة أرملة حطّت رحالها ومتبصّرة، غير قادرة على الشبق، على الأحاسيس والأفعال غير المتبصّرة التي كانت تغتفر حينما كانت لاتزال فتاة صغيرة في سن تبادل الحب، والتي هي غير مقبولة من سيدة في الثلاثين وفي خمار الحداد حتى ولو كانت تحترق بشعلة في الداخل. سنرى مع الزمن ما إذا كان سيوُلد إحساس بحب ناضج ومطمئن، على أرضية تفاهم عشق رصينة، بعيداً عن التَّصرفات العنيفة في سن الشباب في الزوايا المظلمة، عند مداخل السلالم. ربما يولد مثل هذا في أرض ذات براءة سريَّة؟ لحب قد تراه الدونا فلور أو كانت ترى ذلك ممكناً. فالدكتور تيودور ليس سمجاً ولا دميماً، فلا تكنّ له كرهاً، إنما تراه جذاباً، كما ثبت لديها. وهنا تحقّقت الدونا نورما من وقوع الخطبة والزواج، ورأت مسبقاً الدونا فلور سعيدة كما كانت تستحق دائماً، وكما لم تكن سعيدة يوماً.

– آه! كم سيكون ذلك رائعاً يا عزيزتي! والآن لا تكوني بلهاء، لا تسجني نفسكِ في المنزل، ولا تعبسي...

لأن الدونا فلور، بعد أن اعترفت بوجود اهتمام لديها بالصيدلي، عزمت على إخفاء ذلك بعدم التجول أمام مستودع الأدوية عارضة حميتها، وعينيها التعبتين من القلق، وتقشفها القاسي وبالصوم القسري. هذا لن يكون أبداً يا نورمينا.

قضت الدونا نورما وقتاً طويلاً في إقناع الأرملة بألا تكون بلهاء وتتصنّع وضعاً لامبالياً. فمن كانت مثل الدونا فلور، متوقدة اشتعالاً، محتاجة إلى الزواج والزواج حالاً حتى لا تنتهي امرأة هستيرية أو مجنونة – وديعة، أو، حسناً، كيلا تخرج هنا وهناك تهب نفسها لأي كان، في ممارسة حياة شقق العازبين كأرملة سهلة تملأ بالقرون جمجمة الميت حتى تصبح نبتة متشابكة الغصون برّية فجّة في قبره المشرّف. وإذا كانت بالطبع متلهفة لحرارة الرجل ولاهتزاز السرير، لم تعد تستطيع أن تتظاهر بدور الأرملة الوفيّة حتى الموت، بحداد أزلي، بالزهرة المدفونة في محمل المتوفى، زهرة ذابلة عند أقدام الميت، لا نفع لها.

– لا تنفع إلّا للتبوّل...

كان من الأفضل أن تصممي دفعة واحدة وتختاري زوجاً للعيش معه حياة فاضلة شريفة، فتستعيدين نفسكِ في الحب والفرح، محتفظة بذكرى زوجك الأول وعظامه، من دون أن تتكلمي كثيراً عنه كي لا تجرحي شعور خليفته. والحقيقة أن الدونا فلور بدت في الأشهر الأخيرة كما لو كانت نسيت اسم المرحوم ولقبه. ولأن الإشبينات كن يلعنّه ويغطين ذكراه بالإهانات، فالدونا فلور المثيرة للجدل، كانت تذكره طوال اليوم. وبعد ذلك أغلقت عليه داخل نفسها، كجوهرة ثمينة نادرة، فيما الصديقات والجارات تركنه بسلام في ضريحه. وإذا تذكره أحد فما كان يقول شيئاً. ثم تتالت الأمور، فانتزعت صورة الميت من الغرفة بالطبع، مع ضحكته السافلة الزاخرة بانعدام الحياء (وأيضاً لماذا الإنكار؟ بلطفه الذي لا يقاوم) محتفظة بها في قعر الصندوق وفي قعر القلب. في جدار الغرفة حضور الثاني، وأي ثانٍ، يا ابنتي! رجل جميل في زهوة الشباب، بالغ الأناقة!

تتزوج، ومن دون تاخير؛ تعيش معه حياة فاضلة وشريفة، كما كانت بطبيعتها وبالتزامها، بدلاً من الاشتعال في أحلام متوحدة تعض الشفتين، تصك الأسنان، تردع نفسها فقط بسبب الخوف والإدراك المسبق. فالدونا نورما لم تكن تسمح بأن تفقد الدونا فلور فرصة فريدة رائعة كهذه؛ إذ من المستحيل أن تحظى بفرصةٍ أفضل منها، وأن تضيعها من أجل خجل زائف، من أجل بلاهة، من أجل سخافة ، أبداً، أبداً، أبداً.

وهكذا، بعد درس العشيّة الذي علّمت الدونا فلور فيه التلميذات وصفة حلوى الجيلو وجوز الهند المسماة «كريم الرجل» وهو اسم أثار نكاتاً – «أوه، يا له من كريم لذيذاً جداً!» جاءت الدونا نورما لتأخذها وتجرجرها إلى كابيسا، بحجة شراء الأزهار. شراء صعب جداً، دزينة من زهور أنجيليكا المنتقاة بعناية. لم تستطع الدونا نور أن تجهز الباقة، دائماً غير راضية إزاء استغراب البائع، الزنجي العجوز كوزميه ده أومولو، لأن الدكتور تيودورو المختفي في أعماق الصيدلية، لم يكن يظهر. بعد الزهور، ذهبتا إلى آكاراجيه فيتورينا ولم يظهر الصيدلي عند منصة البيع. لكن الدونا نورما لم تكن ترضى بالهزيمة. فاقتحمت من دون إعلان، الصيدلية إلى الداخل، جارّة الدونا فلور وهي في أزمة، لتطلب من موظف الصندوق طرداً من القطن. كانت الدونا فلور تريد أن تنشقّ الأرض وتبتلعها، والدونا نورما كانت تصرخ وتتكلم بحمية، هل رأيتم مثل هذا المشهد المضحك؟

في عمق الصيدلية، في المختبر الصغير، من خلف القوارير الكبيرة الزرقاء والحمراء، كأحد النقوش في كتاب كيمياء، شاهدتا الدكتور تيودورو يطحن أملاحاً وسموماً في جرن من الحجر. كان قد خلعَ نظارتيه، وهو شديد اليقظة، بعد السحق، يزن في ميزان صغير من موازين الألعاب، مقادير دقيقة من المسحوق والأملاح. ومركِّزاً اهتمامه في غموض صنع الوصفة، لم يعر انتباهاً لحضور السيدتين في الصيدلية، كما لو أن صوت الدونا نورما لم يصل حتى إليه في تكرارها لحالة مذكورة في الصحف.

ترك الميزان ووضع في أنبوب الدراسات مسحوق المعادن التي سحقها، في مقادير دقيقة، مضيفاً إليها عشرين قطرة بالضبط من سائل بلا لون، وفي الحال صار كل شيء دخاناً محمراً اكتنف علم وسحر الرأس الأسمر والقوي للدكتور.

ولم تتوانَ الدونا نورما عن القول بصوت متملّق:

– لاحظي، يا عزيزتي فلور، الدكتور تيودورو يبدو ساحراً يكتنفه كلّياً الإنكسوفر...

ارتجف الدكتور لدى سماعه الاسم، ليس اسمه، بل اسم الدونا فلور. وإذ رفع عينيه من فوق النظارتين (النافعتين فقط للنّظر القريب)، تحقق من حضور الشعر بين العقاقير، فاهتز من خفايا أعماقه، اعتراه برد في أسفل حوضه. أراد أن ينتصب واقفاً. فبات ذاهلاً دائخاً، وهناك وقع على الأرض أنبوب الدراسة متناثراً إلى ألف شظية والدواء الذي كان جاهزاً تقريباً (دواء لتخفيف حدة السعال المعقد عند الدونا زيزيه بيدريرا، وهي عجوز من البلّور، في شارع دا فوركا) تحوّل لطخة معتمة على الأرض، فيما الدخان الدموي استمر حول وجه الدكتور الصارم.

– آه ! يا إلهي... قالت الدونا فلور.

ولم يُقل شيئاً غير ذلك ولم يحدث أي شيء، إنما الدونا نورما ضحكت وهي تدفع حساب القطن، فكم كانت مضحكة شخصية بائع العقاقير وهو شبه منتصب في المقعد، ويده في الهواء كما لو أنه لا يزال يسند الأنبوب الزجاجي، والنظارتان منزلقتان على أنفه، أبكم ومصعوقاً.

أما هي فكانت خجلة جداً، ميتة من الخجل والارتباك. خرجت الدونا فلور عبر الباب الخارجي، في حين ألقت الدونا نورما نظرة متآمرة على الصيدلي الرومانسي، كحبل يدفع إلى غريق وحاول الدكتور تيودورو التلفظ بكلمة ما، فلم يستطع.

أدركت الدونا نورما الدونا فلور عند الناصية، ألا تزال لديك شكوك حول تأثيرك على الصيدلي؟ أم أنك تريدين، في إصرار عبثي من أرملة تقرضها الرغبة، تتأوّه في حومة الحداد، مرشحاً أفضل نسباً وطبقةً وطبيعة؟ من المستحيل أن تحصلي على شخص أفضل، يا قديستي، دكتور بدبلوم وخاتم بفص كريم حقيقي، يملك مؤسسة، جميل، مظهره كله مؤلف من صداري وذهب، قوي الصحة، معتدل العادات، سيد خيِّر، أربعيني فخور !

رجل أربعيني رائع: كل ما أظهرته الكرة البلّورية وورق اللعب المتَّسخ للدونا دينورا مساء النبوءة، اكتشفته الصديقات والإشبينات لدى الدكتور تيودورو نقطة نقطة، من دون أن ينقص فيها شيء ولو بسيطاً: المال الوفير واللقب الجامعي والطبيعة والشكل والشخصية والسلوك الفاضل والتصرفات الراقية، كل شيء؛ ومع هذا، عندما كن في السابق يبحثن في كل الأماكن عن الوجه المطابق للمواصفات التي أعطتها العرافة ، لم تفكر أي واحدة منهن في الصيدلي. كيف يفسَّر مثل هذا العمى أمام مثل هذا الوضوح؟ كان يكفي التطلّع كي يرينه؟ هل أصاب العمى جميع الإشبينات والصديقات أم أن هذا السرد التفصيلي هو خداع، خطأ مميت يُفرح النمّامات؟ لم يكن خطأ ولا خداعاً، بل هو نوع من البلادة الجماعية التي منعت الإشبينات والصديقات من أن يرينه في عمق الصيدلية، بنظّارتيه فوق أنفه، والسلسلة الذهبية، منحنياً فوق العقاقير، يمزج سموماً ليحوّلها إلى أدوية، موزعاً الصحة على المنازل بأسعار زهيدة.

إنّ كاتب قصة زيجات الدونا فلور وأفراحها وميولها، كان مخلصاً للحقيقة عندما لم يضع الدكتور تيودورو في لائحة المرشحين الذين اقترحت الإشبينات ترشيحهم، إذ ولا واحدة منهن تذكرت الصيدلي الذي لم يُر اسمه في قصة تلك المحادثات الممتعة حول ترمّل الدونا فلور، حينما أردن جميعهن إلهاءها. وعلى كل حال لم يخسر الدكتور كثيراً بذلك النسيان، وإلا كان له نصيب المساهمة في الحلم الذي يجعل الدونا فلور تراه في حلقة رقصة السيرينادا التي يتحلّق فيها البلهاء المتطلعون إلى يدها. وذلك أفضل بالنسبة إليه. حتى في الأحلام لم يظهر في دور مضحك، فلن يدمر نفسه في تقدير الأرملة.

لكن، أي عمى هو ذاك؟ لِم نسيْنه ولم يكتشفنه عند منصّة بيع الصيدلية، إلى جانب الزجاجات الزرقاء والحمراء، محاطاً بتلك الرائحة، رائحة الأدوية، مع إبرة الحقن الجاهزة لوخز أذرع وأوراك النساء العجائز، زبوناته؟ فإذا كنّ كثيراً ما يرينه ويتعاملن معه، فلماذا لم يبصرنه؟

لأنهم كانوا يعرفونه معارضاً عنيداً لفكرة الزواج. لهذا، لم يحسبن الصيدلي، في عداد العازبين في الشارع، كما لو أنه كان متزوجاً وله امرأة وأولاد. حتى الدونا نورما في بحثها الدقيق عن عريس لماريا المُحبَطة، جارتها التي تتبناها، لم تفكر فيه ولو للحظة. الدكتور تيودورو؟ هذا لم

يتزوج ولم يرغب. لذلك لا فائدة من التوقف عنده وإضاعة الوقت. حتى لو أراد بناء منزل، فلن يستطيع، مع الأسف!

كانت الحقيقة معروفة جداً وراسخة، لهذا لم يكن هدف السخرية والوشاية مثل الآخرين من الذين لم يتزوجوا وهم معروفون، في كل هذه القصة من ترمّل الدونا فلور.

الدونا دينورا، إمبراطورة التملّق والتنبؤ، كانت تتنقل يومياً أمام الصيدلية العلمية، تكشف مرتين في الأسبوع عن عجيزتها المترهلة (آه! الخيلاء العابر للطبيعة الإنسانية: تلك العجيزة اليابسة ذاتها التي طالما غنّاها في شعره المقفى الشيطاني المعلم روباتو حينما كان مراهقاً، شاعر المدرسة الشيطانية، فكلفت رؤيته ولمسته، شيكات وكميات من المال من السادة الأثرياء في التجارة) أمام الصيدلي من أجل حقنة مؤلمة مضادة للروماتيزم، مع هذا فإن عينيها كقارئة بالغيب القادرتين على استشراف المستقبل، لم تتبيّنا في السيد الأسمر الذي يقبض على جلدها الرخو، الأربعيني الفخور المذكور في النبوءة، لأنها كانت تعرف أفضل من أي كان، أنه من المستحيل أن يتخذ زوجة.

ليس لأنه مثلي أو عاجز جنسياً أو عازب يكره المرأة. قسماً بالله، حتى ولا مرّت في خاطرها شبهة من هذا النوع، إذ إن الدكتور تيودورو، الرجل المسالم الودود، المحب للحياة الطيبة، كان قادراً على التخلي عن تواضعه المألوف ويقدم براهين عن ذكورته، بتحطيم وجه السافل الذي يتجرأ على اهانته من خلال التشكيك برجولته.

إنه رجل ذو فحولة، لكنّه رصين. وإذا ألحّ أحد ما على إثبات دقيق وغير قابل للنقاش في هذا الشأن، يكفي إجراء مقابلة في زقاق دو سابوتي مع المرأة القوية الأنيقة الخلاسية أوتافيانا داس دورس أو تافينيا مانيمولينسيا لتتخلّى لقاء بعض النقود النحاسية عن تحفظها تجاه زبائنها المنتقين: قاضيان، وثلاثة تجار من المدينة السفلى وقس محروم، وأستاذ في الطب وصيدليّنا الفاضل.

من أجل مظاهر النظافة ذات الجودة، الرصينة الجدية إضافة إلى كونها سيدة تستقبل في منزلها المضياف، كانت أوتافا خليقة باختيار الدكتور تيودورو لها وتردده عليها. وكان لا يتخلَّف عن المواعيد أيام الخميس بعد العشاء. وزبائن تافينيا نخبة مشهورة ومحافظة، لكل منهم نهار معيّن

(أو ليلة معيّنة) وكل واحد منهم له عاداته وأذواقه، وأشياؤه المفضلة – أحياناً غريبة جداً – كمثل ما يفضله القاضي لاميرا، النهم تقريباً. وهي لطيفة مع الجميع، تريحهم فتلبي طلباتهم، مزودة إياهم برضى كامل. وبالنسبة إلى المحترمين العاديين والذين هم بدون مشاكل، مثل الدكتور تيودورو والماجنين القدامى، فإنها تجعل كلاً منهم مسروراً راضياً.

عند الساعة العشرين بالضبط، من كل يوم خميس، كان الدكتور تيودورو يجتاز الباب فيُستقبل بتقدير خاص ومجاملة. فيأخذ مكانه على كرسي هزّاز قبالة أوتافيانا التي كانت تحيك خفي طفل وليد، محتسياً ببطء شراباً مقطراً وخاصاً من الفاكهة من إنتاج راهبات دير دا لابا. كانا يجريان حواراً مفيداً، مستعرضين أحداث الأسبوع في المجلات وعلى صفحات الصحف. ففي احتكاكها ومجالستها اللامعين، كانت تافينيا تكتسب مسحة من الثقافة. كان حديثها مبهجاً، مثقفاً، وفي زقاق دو سابوتي كانوا يستشيرونها في أي موضوع كان. وكانت مع الآخرين أصحاب الفضائل الأخلاقية تنتقد العادات الراهنة، هذا الهراء الذي يجوب العالم! شباب متحلل وغير جدير بالثقة!

هكذا كان يفعل الصيدلي منتهزاً فترة الهضم، مصغياً ومتقبلاً مفهوم الخلاسية المثالي، «هذا العالم هالك يا دكتور، ولا يوجد قديس يصحِّح الأمر». كانا يذهبان بعد ذلك إلى الغرفة يتنشقان الأوراق المعطرة، وعند أوتافيانا يتمدد الدكتور تيودورو فوق سرير شراشفه نظيفة جداً، وله الحق بتكرار الفعل. فكيف يُشَكك بفحولته، إذا كان دائماً تقريباً يستعمل ذلك الحق، فيكرر الوسيم المجتهد المتعة الطيبة؟

ولم يكن ذلك يكلفه زيادة في السعر. فمن المفيد أن نعرف أن تافينيا مانيمولينسيا لم تكن تستوفي على عدد المرّات، بل على الليلة، فتقبض مقابل ليلة بكاملها، حتى عندما تكون حرّية الزبون محدودة بسبب المراقبة العائلية، فيخرج بسرعة، مستفيداً فقط من المدة القصيرة بكذبه. كان السعر باهظاً والتعرفة مرتفعة، متعة غالية؛ لكن كل هذه المعاملة المثلى، كل ذلك اللطف والكفاءة كان يستأهل التبذير.

كان الدكتور تيودورو يبقى حتى منتصف الليل، وأحياناً يأخذ إغفاءة على السرير فوق الفراش المحشو بقش الباريغودا، الناعم الدافئ، مع أوتافيانا التي تراقب نعاسه. وقبل أن ينصرف،

كانت تجلب له أيضاً صحناً من المونغونزا، صحناً من الأرز المحلّى بالسكر، وصحناً من الكانجيكا وكأساً جديداً من المشروب لكي «يجدد قواه»، كما كانت تهمس، في ابتسامة دلع، المومس الخلاسية المحترمة.

لم تسجل الإشبينات اسمه في اللوائح، حتى ولم يتناولنه بنكات الزواج لعلمهن أنه مكرِّسٌ نفسه لأمه، وهي عجوز مشلولة، ليس لها سواه في الدنيا. وحينما أصيبت بالجلطة وعدها الدكتور تيودورو المتخرّج حديثاً بأن يبقى عازباً طالما بقيت هي على قيد الحياة. كان ذلك أقل ما يمكن فعله ليبرهن لها عن امتنانه.

فقد أباه وهو في الثامنة عشرة وكان حينها يستعد لامتحان القبول في كلية الطب. أراد قطع دروسه، والاستقرار إلى الأبد في مدينة جيكييه حيث يسكنون، متسلماً دوره في منصّة بيع المتجر الصغير للأقمشة، وهو إرثه الوحيد من أبيه، علاوة على ديون متراكمة والسمعة الطيبة. لكن الأرملة الهشة في الظاهر والقادرة في الباطن، لم تقبل التضحية. فطموح المتوفى الوحيد كان في أن يتخرّج ابنه، والشاب تيودورو برهن عن كونه طالباً ممتازاً، وتكهّن الأساتذة له بنجاحات عظيمة. أجرى امتحاناته وتابع تحصيله العلمي. وقد تحملت أمه مسؤولية المتجر الصغير. وكان ثمة تبديل، فبدلاً من الطب، درس الصيدلة وسنواتها المنهجية أقلّ بثلاث سنوات من سني منهج دراسة الطبّ.

كانت الأرملة وحيدةً تعمل ليلاً ونهاراً، في جهدٍ متواصل؛ أدارت المنزل والعمل مسدِّدةً الديون وضامنة المصروف الشهري للابن الأكاديمي. حاول هو مراراً أن يتوظَّف لكن أمه عارضته قائلة: «إن وقتك مخصَّص لدروسك، وابقِ العمل إلى ما بعد التخرّج».

عندما شاهدته دكتوراً بالخاتم والدبلوم مرتدياً رداء أسود في جلال براءة الدرجة العلمية، لم تتحمل ذلك الفرح. وفي الليلة ذاتها لدى عودتها إلى الفندق، أصيبت بجلطة، وأنقذت بمعجزة لكنها بقيت إلى الأبد مشلولة.

عندما رآها تواجه الموت، أقسم الصيدلي الشاب في تصرف بطل درامي مخلص على أن يبقى عازباً دائماً في صحبتها طالما هي حيَّة. وفي اليوم التالي، في أول عطلاته تراجع عن وعده

لفيوليتاسا، حبيبته التي وعدها بالزواج، ولم يتَّخذ بعدها حبيبة أخرى. لم يبقَ له من المرح والتّسلية سوى البوق، وهو آلة موسيقية تعلّمها عندما كان لا يزال في المدرسة الثانوية، في معهد القيثارة البلديّ.

بعد أن باع المتجر في جيكييه ليدخل شريكاً في الصيدلية المتردّية الأوضاع في إيتاباجيبي التي كان يملكها طبيب انتهى نهايةً محزنة؛ فإذ أصيب بضعف شيخوخة مبكر، ارتكب أبشع أنواع الشذوذ، مما اضطر عائلته إلى إدخاله المصح. استاجر الدكتور تيدورو منزلاً قريباً من المتجر، وعاش من أجل عمله فقط ومن أجل أمه المشلولة، التي لا نفع منها على الكرسي بعجلات، بنظرتها المرتعبة وصوتها الأبح الأجش والتي تغير على ابنها الذي لطالما جلس قربها ليلاً، يجرب عزفاً منفرداً على البوق، ليخفف عنها وحدتها الرهيبة.

بقي سنوات وسنوات قلّما يخرج من الحي، لكنه جعل من نفسه شعبياً محترماً. وتعرف إلى الموسيقي آجينور فوميس فانخرط مع بوقه في أوركسترا للهواة، بحيث يجتمع حول المايسترو الكفوء أطباء ومهندسون ومحامون، وقاضٍ ومستخدمون في المتاجر وصاحبا متجرين. في أيام الآحاد يتجمّعون أحياناً في منزل أحدهم وأحياناً أخرى في منزل آخر، للعزف، سعداء بآلاتهم الموسيقية وبمؤلفاتهم.

وبإدارة صاحب اللقب الشاب، استعادت الصيدلية ازدهارها القديم وذاعت شهرته مع الوقت كرجل مستقيم طيب.

ظهرت طالبات زواج كثيرات وحمْنَ حول بوق الصيدلي الشاب، لكنه بجدِّيَّته وعجزه عن اختلاس الوقت للفتاة التي هي برسم الزواج لم يعطِ أياً منهن وعداً أو أملاً ما. فاهتماماته كمحب كان يستبقيها كلها للمشلولة: زهور وعلب الشوكولا، والذكريات الرقيقة وسوناتا ألّفها المايسترو تكريماً لتلك العبادة للولد والأم، «أمسيات ايتاباجيبي مع الحب الأمومي».

مات الطبيب المجنون قبل أن يستعيد عافيته، وعالج الدكتور تيودورو التركة، فحلّ معضلات مختلفة كما اعتنى بممتلكات أهله. وربما لهذا السبب توهمت الأرملة أن تزوجه ابنتها

الصغرى، وهي غانية مخيفة. ولحسن الحظ منعه الوعد الذي قطعه على نفسه. فلم يكن قادراً على أن يتصور نفسه فجأة زوجاً للبدينة الدميمة، وبهذا الشكل كان الأمر بمثابة عقاب للأرملة. وكانت تعامله كحماة، فارضةً نفسها على حياته. وفي تنبه للخطر، لم يكن أمام الدكتور تيودورو إلا وسيلة واحدة؛ أن يأخذ حصته في الشركة، وينسحب من الصيدلية وينجو من خطر الخطبة.

حين تساءل عما يفعله بالمال الذي تسلّمه، زوّده أحد معارفه بنصيحة ممتازة (وأحد معارفنا، إذ سبق لنا في مناسبة أخرى أن رأيناه متنقلاً في شارع تشيلي حيث كاد يتعثّر بالدونا روزيلدا وحتى إنها كالت له شتائم فخمة، ذلك المندوب الفطن للعقاقير والمختبرات، روزالفو ميديروس)، تتعلّق الصيدلية العلمية، وهي مؤسسة مزدهرة في موقع جميل كانت موضوع نزاع من تلك النزاعات القذرة بين ورثة على تركة مثيرة للخصومات ولشجار عائلي أخرق، وفرصة ممتازة لمن يملك المال؛ صفقة مهمة.

وهذا ما فعله الدكتور تيودورو إذ ابتاع حصة اثنين من أصل خمسة ورثة، نقداً وديناً. فانخرط في شركة مهمة، واجتاز أوقاتاً رديئة في البدء متحرراً من قيود السندات والفوائد المرتفعة. وكان مفيداً له في ضائقته المصرفي سيليستينو الذي أوصاه به عضو آخر في أوركسترا الهواة، الدكتور فنسلسلاو بيريس دا فيغا، الذي كان عازفاً جيداً على الكمان بقدر ما كان جيداً بمبضعه المشهور. وأحسّ البرتغالي في الحال أن الرجل جدي فنظرته وأنفه لا يخيبان، ففتح أمام الدكتور تيودورو إمكانات إصلاح السندات، مسهّلاً أمامه حياته.

إنه رجل ذو نفقات زهيدة (يُخْتَصر ترفهُ في ممرضة خبيرة لأمه، وفي البوق وفي الزيارة الأسبوعية لتافينيا مانيمولينسيا)، ومع دعم المصرفي، اجتاز الصيدلي من دون مجازفات كبيرة فترته الأولى في كابيسا، وكان لا يزال مديناً. وقبل سنة من استلطافه الدونا فلور، دفع مع تنهيدة فَرَج، السند الأخير.

إنه الآن شريك، ليس في الصيدلية الصغيرة في إيتاباجيبي، بل أيضاً، في مستودع أدوية في وسط المدينة!. ومع أنه الشريك الأصغر إذ لا يمتلك سوى أربعين بالمائة من رأس المال، فقد

كان يأمر وينهى في المؤسسة، حيث إن الأشقاء الثلاثة ما كانوا على معرفة بعمل الصيدلية، ونادراً ما تطأ أقدامهم الصيدلية العلمية (اللهم إلا لطلب سلفة على الحساب).

وأكثر من ذلك، فالصيدلي الذي يعطي لقبه للمؤسسة، يحوز لهذا السبب ولعمله اليومي على قسط أكبر من الأرباح. إنه مطمئن، ينتظر يوماً سيأتي، إن عاجلاً أم آجلاً، يشتري فيه الحصص الأخرى عندما يبذر الأشقاء الكسالى العاطلون ممتلكاتهم الأخرى من الإرث. لقد كسب الدكتور تيودورو احترام الحي وتقديره خصوصاً احترام الإشبينات وتقديرهنّ.

عندما ظهر في كابيسا، مستقيماً في ملابسه الدكناء، وقوراً عازباً يخطو نحو الأربعين، كانت الإشبينات في انتظاره، فبدأن العمل على تقصّي داخليته وكذلك علمه – «يا لها من يد رشيقة جداً بإبرة الحقن»، «وصفاته الطبية أفضل من وصفات أطباء كثيرين» – ورُحن يدقّقن بتفاصيل حياته؛ من دروسه المسددة بعمل الأم في المتجر الصغير في جيكييه إلى العزف المنفرد على البوق، فن العازب ومتعته، مع الدموع في فصل الجلطة الدرامي عندما أقسم الدكتور على أن لا يحب أي امرأة من أجل رعاية أفضل للمشلولة.

تعمقت الدونا دينورا المتشككة المدقِّقة المصرّة على التفتيش في صغائر الأمور في الاستقصاء حتى إيتاباجيبي حيث قابلت الممرضة نفسها وأخذتها إلى العجوز المعوقة في كرسيها. هذه التضحية البنوية، التي تستحق سوناتة ولحناً وقصيدة، فرضت نفسها على اغتياب الإشبينات اللواتي تركن الصيدلي في سلام مع عاداته الصارمة وأمه المريضة.

لقد اعتدْن الالتزام البنوي المهيب، فلم يحسبن أي حساب للتبدل النوعي العميق الذي جرى قبل بضعة أشهر، حين توفيت أم الدكتور تيودورو على كرسيها ذي العجلات الذي استخدمته لأكثر من عشرين سنة، وأصبح الابن المتحرر من الوعد المميت أهلاً للزواج. لكن بالنسبة إلى الإشبينات لم يكن الصيدلي على قائمة المكائد والوشوشة، فقد كان بالنسبة إلى جميع الناس «الرجل المستقيم هو الدكتور تيودورو».

أي ذهول، أي دهشة سادت، عندما انفجر نبأ اهتمام بائع العقاقير بمدرّسة الطَّهي وكأن القيامة قد قامت. آه! الخائن! الإشبينات اصطففن في تشكيل المعركة، احتللن جميع المواقع الستراتيجية ما بين الصيدلية العلمية «ومدرسة الطَّهي مذاق وفن». وبين النظرات والابتسامات كان على الدكتور تيودورو أن يجتاز بخطاه المقاسة وبسترته الرمادية وربطة جأشه الصارمة، عابراً أمام النافذة حيث تردُّ الدونا فلور بابتسامة سريعة لطيفة على تحيّته المحترمة لكن المتيّمة. آه! الخائن، السفيه المتصنّع؛ هكذا كانت تقول نظرات الواشيات وحركاتهنّ!

وإذ بقي في المنزل البعيد في إيتاباجيبي ذاته، لم يعد يسرع كي يستقل الترام والمصعد حالما تغلق الصيدلية أبوابها. لم تعد أمه المقعدة تنتظره بقلة صبر متوترة. صار يتغدّى ويتعشى في مطعم البرتغالي موريرا، دائراً حول كابيسا وماسييل وسودريه، كما لو أنه لا يستطيع الابتعاد عن جوار الأرملة. وكان يرسل إليها بحركة تودّد من بعيد، من دون أن يفرض عليها حضوره الوقور! لكن كيف يستطيع أن يحافظ على وقاره ضمن الحدود، فيما الإشبينات حوله، في كل خطوة يتعثر بإحداهن وهو يصغي إلى تلميحات الدونا دينورا؟

كان الدكتور تيودورو الصريح التصرفات عدو الغش والتصنّع. فأحسَّ أنه غير مرتاح؛ لقد أصبح الوضع لا يحتمل بالنسبة إليه. وتنبهت الدونا نورما إلى ذلك.

– إنه حتى يستثير الشفقة... ابتسمت الدونا فلور باستلطاف.

فأضافت نورما: «لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا.. سأجد وسيلةً ما...».

أعدت الدونا نورما نفسها لحديث مفصّل مخلص مع الصيدلي المتيّم، لكي يقرر ما سيفعل نهائياً. ولم تخفِ الدونا فلور نفسها كونها أيضاً مهتمة، تتكلّم عنه بودّ، وتقبع في النافذة في الساعة التي يعبر فيها الدكتور الشارع.

– سأتكلم معه...

– هل أنتِ مجنونة أيتها المخلوقة؟ سوف يظن أنني أرسلتكِ إليه، وأنني مبتذلة، امرأة تقدّم نفسها...

– لا تكوني بلهاء... دعي الأمر لي...

لكن الدونا نورما لم يبلغ بها الأمر حد اتخاذ المبادرة، لأن الدونا فلور في ذلك المساء عينه اقتحمت منزلها وقد كادت أنفاسها تتقطع، وفي يدها أوراق رسالة والمغلّف. ورق أزرق مذهب الحواشي معطر بالصندل، عمل متقن جميل. إعلان محدّد وجمل غزل في لغة برتغالية سلسة، وكشف بالممتلكات والخصائص يضعها الواحدة بعد الأخرى تحت قدميْ السيدة، عرض نيّات شريفة بكلمات نبيلة، ونفحة عشق حقيقي تسير في حدود التبصّر المستقيمة، ما يجعل تلك الوثيقة طلباً للحب مرتعشاً منعشاً.

13

إذا كان الزواج الأول للدونا فلور قد تحقق بعجلة وبسرعة، باحتفال خجول محدود، ففي الثاني حدث كل شيء كما يجب بالنظام وبالبريق المطلوب. الأول لم تكن فيه خطبة، إذ انتقل مباشرة من الغرام (الفاحش) إلى الزواج مروراً بالسرير (قبل الأوان المفروض). احتُفل به في ظروف غير سارة من العجلة والحرج الناتجين من الحاجة إلى غطاء من ضمان الدولة والكنيسة بعد أن التهم الحبيب عذرية الفتاة سلفاً، معيدة بذلك الاعتبار إلى شخصيتها. إذاً، لم يكن طبق الفاكهة كاملاً، أقلّه حصلت على اسم عائلة حسن.

حدث الزواج الثاني من خلال دعوات مطبوعة، وخبر في عمود الأخبار الاجتماعية في صحيفة «المساء» مع إشارة مديح للدكتور تيودورو – «المشترك في جريدتنا المحترم المشهور» – ومع موسيقى وزهور وأضواء وناس، أناس كثيرين في كنيسة القديس بنتو حيث ألقى الدون جيرونيمو المشهور عظة من أبلغ العظات، فيما ألقى القاضي الدكتور بينيو بيدريرا في احتفال الزواج المدنيّ، بأناقته تلك عن المفاهيم، خطبة قصيرة ودودة، وتنبأ بحياة من السلام والتفاهم للعريسين الجديدين، «مع أنغام الموسيقى، صوت الآلهة». ذلك أن القاضي ذا العظام المعرّقة

والمشهور هو زميل العريس في أوركسترا الهواة المجتمعة تحت لواء عصا المايسترو آجينور غوميس، حيث يتميَّز القاضي بالعزف على النَّفير.

وهكذا، حَظِيَ زواج الدونا فلور الثاني بكل ما افتقر إليه زواجها الأول؛ ومن حسن حظ العروسين أن الدونا نورما، نظّمت كل شيء بقدرتها ووسواسها، فأتى كل شيء كما يتوجب أن يكون تماماً وفي الوقت المناسب، مع أجود الأصناف بالسعر المناسب. فقد وظّفت في ذلك جيرانها المتحمسين لمساعدتها.

وما الذي عجزت عنه الدونا نورما؟ لقد حصلت على كل شيء، خصوصاً حضور الدونا روزيلدا، ومصالحتها التامة مع ابنتها. كما جاء أيضاً من نازاريت شقيق الدونا فلور وزوجته. لم يتغيّب سوى روزاليا وأنطونيو مورايس، لأن الميكانيكي أصرّ على الالتزام بقراره بعدم العودة إلى باهيا إلا حين تكون الحماة «قد أخذت عطلة دائمة في الجحيم».

هذه المرة لم يكن لدى الدونا روزيلدا انتقاد لتأتي به. كان زواجاً حسب ذوقها، سواء على صعيد الاحتفال أم الصهر نفسه. وأخيراً صهر يقترب من النموذج الذي كانت تحلم به في ذهابها البعيد في لاديرا دو آلفو؛ واضح أنه ليس بالضبط الأمير الكامل، فالمثالي بلغته تقريباً مع الطالب بيدرو بورجيس. لكنّه في النهاية دكتور له موارده، شريك في صيدلية غنيَّة جداً وحسنة الموقع. رجل مستقيم حسن المعاشرة، شخص له وزنه في الحياة، وليس مجرد قدم تزحف فتتسخ بالدهان، مثلما هو زوج روزاليا، وأقل منه شأناً مشرد تافه، محتال مثل زوج فلوربيديس الأول. بوسعها أن تعرض الدكتور تيودورو هذا بلا خجل على معارفها من النخبة، فهو شخصية مميزة، صهر من الصفوة، وثري!

في الزواج الثاني لم يكن هناك الحب وحده، وهذا هو الصحيح. فليس مناسباً لأرملة أن تحب، في زاوية أو في عتمة أحد الأبواب في تحلّل وتماسك القبلات والعناق، يمسكها من هنا ويأخذها من هناك. يده على ثدييْها ثم تنزلق إلى الفخذين. فذلك قلّة حشمة وحياء، مباحثة في حب فتاة عذراء إذا كانت نيّات الحبيب جدِّيَّة، فتمنحه بعض الأمور سلفاً. لكنها غير محتملة ولا أخلاقية عندما يتعلق الأمر بأرملة ما.

هذا هو السبب في أنه، عند إعلان الدكتور تيودورو من خلال رسالته الأدبية النبيلة، قرّر الأطراف – مع النصح واستحسان الأقارب والأصدقاء – أمر الخطبة المحترمة القصيرة الأجل التي يستطيع أثناءها الدكتور تيودورو والدونا فلور أن يتعرفا إلى بعضهما البعض بشكل أفضل، فيقيسا مزاياهما ونواقصهما ويقتنعا بأن زواجهما سيكون مناسباً. وقال السيد سامبايو، السفير المفوّض أنه أخذاً في الاعتبار تجربة الدونا فلور السابقة المريرة فلا يجوز لها الإقدام على خطوة جد جدية من هذا النوع من دون ضمانات نجاح أكيدة.

كانت خطوة جدية للغاية؛ حتى أن الدونا نورما نفسها، بكل استعدادها وقدرتها، لم تتشجع على تقديم النصائح منفردةً لصديقتها حول كيفيّة الإجابة على الأوراق الزرقاء والمذهبة، العابقة بعطر الصندل والعشق. وبالنسبة إليها، الدونا فلور بلا شك صديقتها الحميمة وأختها وهي مطلعة على أسرارها، على ظرفها الملحّ كأنثى شابة حبيسة قيود الترمُّل. كان ذلك الزواج الحل المناسب لجميع مشاكل الصديقة. أما الإجابة عن الإعلان الحار والأنيس فلا يمكن أن ينحصر بكلمة: «أقبل» ثم ماذا بعد؟

من الضروري انتهاز الفرصة لوضع الأمور في نصابها فتُحدَد التصرفات، والمواعيد والمُهل بحيث لا تقع الدونا فلور ضحية العجلة كما لا يطول أيضاً الوضع المضحك بحيث يصبح معه الصيدلي عديم التجربة أخرق، ويصبح الرجل صاحب الشأن المحترم فجأة بمثابة المهرّج مسبباً سخرية الإشبينات اللائي سيطاردنه في الشارع ويحصين عليه نظراته وتنهداته، ويتسلين على حسابه.

وهكذا نعرف لِمَ لَمْ تستدعي الدونا نورما، الدونا جيزا المثقفة العارفة والصديقة الحميمة وحدها، وإنما شاءت أيضاً الاستماع إلى زوجها زيه سامبايو لتلقى دعمه. وقد فكرت في البدء في الخالة ليتا والعم بورتو، وأن تلتقي في نازاريت داس فارينياس أو في الريو أمها والأقارب الآخرين للدونا فلور. لكنّهما، هي والأرملة اتفقتا على عدم جدوى حضور العجوزين الطيبين في المداولات الأولية للمسألة. أما إذا وصلتا إلى لحظة الخطبة المهيبة، فهنا نعم، سوف تستدعيان الخالة ليتا من حديقتها، والعم بورتو من لوحاته الملونة ومناظرها الطبيعية ليسمعا من طالب الزواج نيّاته وطلبه.

كانت ليلةً مضطربة. كان على الدونا نورما، لكي تضمن أمر الاجتماع، أن تطلب من الدونا آميليا أن تنوب عنها في زيارة ابنة عم لها في الدرجة الخامسة أو السادسة في المستشفى، بعد أن ولدت حديثاً. وقد شكت الدونا آميليا وهي في طريقها إلى المستشفى من دون رغبة منها:

– نورمينيا هذه لم تكن مضطرّة لأن تهتم بهذا الأمر، لأن فلور لديها عائلة... اقترحت نفسها وسيطاً إنها مكيدة لي. كانتالدونا اميليا تقول في نفسها وهي في طريقها إلى المستشفى رغماً عنها.

اضطرت الدونا جيزا من جهتها أن تلغي أحد التزاماتها: لقاء موسيقي في منزل بعض الأصدقاء الألمان حيث كانوا يستمعون، وسط المَرَح، إلى أسطوانات لبيتهوفن وفاغنر، في صمت مهيب وهم يحتسون الكحول. أمّا السيد سامبايو فقد جاء من غير رغبة، بالقوة؛ فما كان من عاداته حشر نفسه في حياة الآخرين، ناهيك عن موضوع شخصي مثل الزواج. لكن بما أن الأمر يتعلق بالدونا فلور، الأرملة الشريفة، والتي كان يكن لها تقديراً كبيراً – يا لها من امرأة جميلة وجذابة – فالسيد سامبايو لم يكن يستطيع كبح أفكاره الجسورة –، فقد قرر الخروج من عزلته وتجاوز مبادئه ليخدمها.

افتتح هذا المؤتمر التاريخي (كما ستقول الصحافة) بقراءة جديدة للرسالة، بصوت عالٍ ومع تعليقات السيد سامبايو:

– «رجل راقي المشاعر، إنه يروق لي»، لخص تاجر الأحذية رأيه.

ثم الموافقة العنيدة للدونا فلور:

– أجل، اعتقد أنني موافقة... لِمَ لا؟ أجده لطيفاً...

«لطيف؟ رجل مثله، خزانة من زجاج» – احتجت الدونا جيزا، التي كانت تحب استخدام كلمات سوقية باهيانية في لغتها الأجنبية.

اتفقوا في النهاية بناءً على اقتراح من الدونا نورما، على انتداب السيد زيه سامبايو ليتفاوض بقدراته باسم الأرملة مع الصيدلي حول جميع الإجراءات معلناً الموافقة، نعم، مع إنهاء فوريّ لتلك التظاهرات العامة ومارّاً على الخطبة الوقورة، مستبقاً اللقاء مع خالة الدونا فلور وعمّها حيث يجعل الالتزام رسمياً.

وهذا ما حدث وصار بإمكان الدكتور تيودورو التردد إلى منزل الخطيبة ثلاث مرّات في الأسبوع: أيام الأربعاء والسبت والأحد. فيصل الأربعاء والسبت بعيد العشاء ويبقى حتى العاشرة ليلاً؛ طبعاً تحدث هذه اللقاءات دائماً في حضور طرفٍ ثالث لكي لا نفسح في المجال أمام أقل إشاعة تقلل من احترام الأرملة. في الآحاد، كان النظام أكثر مرونة: يبدأ مع الغداء في ريو فيرميليو في منزل الخالة والعم، وينتهي في السينما بصحبة آل سامبايو أو آل رواس.

يجب ألا نطوي صفحة محضر هذا الاجتماع التذكاري قبل أن نسجّل فيه استياء الدونا جيزا من تلك القيود وعدم موافقتها عليها. غير موافقة مع تفخيم القسم الأكبر من الإلحاحات المضحكة جداً والبلهاء، وفي رأيها هو إيمان بسلفية القرون الوسطى الجامدة، الإقطاعية المحزنة. لكن زيه سامبايو بالذات، وهو رجل مجرّب، كان يتفهم الضرورات الآيلة إلى الحيطة من دون أن يلطخ السمعة الحسنة لجارته.

كل شيء يشير إلى أنّ الدكتور تيودورو رجل شريف – سلوكه السابق وكلماته الراقية في رسالته – ومع هذا يتوجب عليهم أن يضمنوا الأرملة ضد أي إساءة محتملة. تصوّر أن الصيدلي، بعد أن يندسّ نهاراً وليلاً في منزل الدونا فلور المجرّدة من الدفاع، بعد أن يسبر أغوارها، في نزهات ورحلات، هنا وهناك، لا أحد يعلم إلى أين يذهبان بمفردهما، تصوّر أن ينصرف السافل فجأة، كما حدث مرّات عديدة في حالات مشابهة؛ ما الذي سيحلّ بالشرف وبسمعة الجارة النقية؟ من أرملة مثال الجدية والدماثة تصبح مرحاضاً عاماً يدخله من يشاء وينصرف لتضحك الدونا جيزا في حكمتها، من هذه العادات، لكنه هو، جوزيه سامبايو، حريص على السمعة الأخلاقية للدونا فلور، وكان برأيه أن...

قرون وسطى، إقطاع... محاكم التفتيش المقدسة – أين رأينا امرأة في الثلاثين، أرملة، سيدة مصيرها، مالكة أموالها التي تكسبها من عرق جبينها، تحتاج إلى شاهد لدى استقبالها عريسها، فارسها الذي يشارف الأربعين؟ لا يوجد مثل هذا التخلف إلا في البرازيل.. أما في الولايات المتحدة، فسيكون ذلك نكتة عامة...

أصغى السيد سامبايو إلى الغرنيغا بصمت، محدّقاً إليها، مانحاً إياها الحق في قرارة نفسه: كل هذه الاحتراسات وهؤلاء الشهود، لم تكن سوى بلاهة لا اسم لها، ففي النهاية لكل إنسان الحقّ بأن يعطي ما يعود له، لمن يشاء ومتى يشاء.. وكم كان سيكون جيداً لو أن جيزا الغرنيغا، التي تتفوّه بكلام لا فائدة منه وبنظرة مستقبلية تعطيه قليلاً ممّا لديها لتضع قيد التطبيق نظرياتها، لامبالاتها إزاء هذه القناعات، هذه التفاهات... لكن، لا جدوى! مجرد كلام كثير وسخط، علم زاخر وآداب وفيرة؛ ليست سوى صخرة . أقلّه حتى يبرهن العكس. إذا كانت تعطي فلا بدّ أنها تفعل ذلك في كتمان مطلق! لا أحد ولا حتى الدونا دينورا، تمكّن أن يجد عليها أي شبهة. ولا واقعة واحدة، ما خلا طالب زواج وضعته قيد الاختبار. كان ثرثاراً جداً، هذا صحيح، لكن بلا جدوى، كل شيء ذاب في لا شيء. الغرنيغا المبتسمة، كانت سعيدة في حياتها مع جميع العلامات الجسدية والخلقية، ذات كرش متخمة، تعتني بنفسها جيداً، ومهما جهدت الإشبينات فلا يكتشفن ثغرة واحدة في حياتها.

من يدري، ربما لم تكن تمنح شيئاً، ربما كانت جادة في الحقيقة... وفي النهاية كان ذلك عزاء، استخلصه الحزين السيد سامبايو، مختتماً أيضاً المؤتمر.

في اليوم التالي، مخالفاً عادته مرة أخرى، تريَّث السيد سامبايو في الخروج من المنزل إلى متجر الأحذية. ما زال أمامه ساعة من الوقت يلتقي فيها الدكتور تيودورو في الصيدلية، ليفي بالتزاماته سريعاً بشأن المهمة التي يرغب فيها.

كانت محادثة ودّية مع أن البداية كانت صعبة جداً، ملأى بإشارات الأصابع وكتمان الحقائق، ولم يعرف السيد سامبايو كيف يدخل في الموضوع، والدكتور تيودورو هو الذي بدأ المكر والخداع. تفاهما، ولكن بنيّات حسنة متبادلة؛ صاحب المتجر لأن المسألة تعجبه، والصيدلي المستعد لأي اتفاق للزواج من الأرملة، في غرام الرجل الناضج.

تمّ اللقاء في المختبر، في عمق الصيدلية، بعيداً عن الأنظار والأسماع، لكن ظاهرياً فقط، لأن الدونا دينورا، في مراقبتها الدائمة حتى في تلك الساعة الصباحية لاحظت الدنو الحذر للسيد سامبايو والطريقة المريبة في تأخره داخل المختبر (حتى ولا في علاج السفلس يتأخر هكذا) ثم دخلت دون تردد إلى الصيدلية بذريعة حقنتها ضد الروماتيزم (في الحقيقة ما كان يجب أن تتناولها إلا في اليوم التالي وفي جدول المواعيد المسائي).

كان ذعر المتآمريْن عند رؤيتهما وجه المرأة السليطة الظاهرة اعترافاً كافياً لها، هذا إذا لم تكن التقطت أذنيها جزءاً من حديثهما.

– انتهت المسألة، يا عزيزي الدكتور، تهانينا، للجانبين، لك ولها... فكلاكما تستحقان كل خير...

في الحال تنقَّل الخبر على كلّ الأفواه، كالنار في الهشيم، وانتشر في الشوارع المجاورة، حتى إن الدونا فلور تلقّت التهاني قبل أن تعرف بنجاح المهمة التي حمّلتها للسيد زيه سامبايو.

وليلة السبت انتظاراً للقاء طالب الزواج من الأرملة، اجتمع شمل جمهور صغير وحيوي من مشاهدي الحفل أمام منزل الدونا فلور؛ ووقفت الإشبينات كالأعمدة بدون خجل عند العتبة الخارجية لمنزل الأرجنتيني، يتلصَّصن على قاعة الزوار في مدرسة الطَّهي.

كانت الدونا فلور تترقب بابتسامة هادئة الزيارة المثيرة. وقد وجدت نفسها، كما هو مفروض، محاطة بأدنى أقربائها، كالخالة والعم، وبأخلص أصدقائها (بمن فيهم الدونا دينورا، التي تهدد بحرب لا هوادة فيها، إذا لم تكن مدعوة). كانوا ثلاثة أو أربعة أزواج، الدونا ماريا دو كارمو والفتاة ماريلدا (المضطربة وكأن يدها هي التي ستُطلب للزّواج) وعلى أفضل مقعد جلس الدكتور لويس إينريكي، وهو شخصية من الإدارة العامة ورجل آداب كفوء، صديق العائلة، أي نموذج للقريب الثريّ. وفي الخارج أخذ جمهور مراقبي الحفل يتزايد عدداً وهياجاً.

ظهر الدكتور تيودورو في الساعة المحددة دقيقاً دقَّة ساعته السويسرية، مظهره كمظهر أحد اللوردات، يكفي أن تراه لتعرف ذلك، بالزهرة في عروته. كان شخصية رائعة جعلت جميع

الإشبينات يرتعشن. واستقبلته بحفاوة الخالة ليتا، وبعدما حيّا الحضور، توجه إلى المكان الذي – حسب البروتوكول الصارم – عيّنوه له؛ على الكنبة العريضة إلى جانب الدونا فلور التي كانت متألقة في فستان جديد، فاتنةً بسيطةً بخديها المتورّدِيْن خفراً، ومزدانة بالذهب والنحاس. لا أحد يمكنه التكهن، وهو يراها هادئة وساكنة هكذا، كم كانت في أعماقها تعاني الهم ، مسحوقة ، كما لو أن اشتياقها كان يتضاعف في أيام الأمل والشكّ تلك. كانت في النهاية، ستصل إلى نهاية النفق الطويل، والليل الأسود وصحراء الصراع والوحدة: قريباً لن تبقى وحيدة في الليالي المجنونة.

جلس الدكتور تيودورو على حافة الكنبة العريضة. وران سكوت عميق وانتظار، لحظة مهيبة لا تنسى وشديدة الإزعاج. وجال الصيدلي بعينيه في الغرفة المزدحمة، وابتسمت الدونا نورما لتشجعه. وعندئذٍ انتصب من جديد واقفاً ثم توجّه في كلامه إلى الدونا فلور وإلى الخالة والعم قائلاً: «كم سيكون سعيداً فيما لو منَّتْ عليه بقبوله عريساً لها زوجاً في المستقبل وفي مهلة قصيرة، مستعدة لتكون رفيقته على طريق الحياة، طريق ملأى بالحجارة، مرصوفة بالعقبات والعثرات، والتي ستتحوّل عندئذ إلى فردوس بدعمها وبلسمها...».

كانت كلمة الخطيب التي تسبق المعركة، تليق بالمجاز الجامعي في الطبّ أو السياسة، في مؤلَّف غير مطبوع للدكتور تيودورو يرشح بالبلاغة: «يا له من رجل جدِّيّ متكامل الفضائل»، فكرت الدونا ماريا دو كارمو وهي من بين الحاضرين التي تعاملت أقل ما يمكن مع طالب الزواج. في هذه الأثناء تابع خطابه مؤكداً أنه يشعر بأنه على عتبة الفردوس إذ يجد نفسه هنا بين الخالة والعم وأعزّ أصدقاء حياتها؛ وكم يتحسّر لعدم وجود الشقيقة وزوجها والشقيق وزوجته ناهيكم عن المكرّسة المحترمة، العجوز، القديسة أم الدونا فلور...

جعل ذلك الذكر للدونا روزيلدا الدونا آميليا تغصّ تقريباً وتفلت منها ضحكة مائعة: «انتظر وسرعان ما سترى قداسة العجوز..» ووضعت يدها على فمها، زائغة العينين كي لا تحدّق إلى الدونا نورما أو الدونا إيمينا.

كان الدكتور تيودورو، باختصار، يرغب، في حضور كل هؤلاء الشهود أصحاب المراتب العالية، في طلب يد الدونا فلور كزوجة. قال ذلك بكثير من العذوبة بحيث لم تتمالك الدونا نورما

نفسها فصفقت، ما استثار سخط السيد سامبايو: فمتى كانوا يصفقون في لحظات كهذه، حيث يتطلّب الوضع أقصى تهذيب وأشد رصانة؟ لكن الدونا فلور، وضعت الأمور كلها في نصابها حين نهضت هي الأخرى مادّة يدها رافعةً وجهها إلى طالب الزواج، لتمنحه موافقتها:

– أنا أيضاً أرغب في الزواج بك...

ما إن لامس العريس وجه العروس حتى حدثت موجة من العناق، من التهاني والتبريك، قبلات من النساء. واقتحم الجمهور المتطفل المنزل، وسمع الدكتور تيودورو بعض الملامات:

– أيها المخادع، يا قديس الشجرة الخاوية...

كانت مائدة الحلوى والأطعمة المالحة مترفة، فاندفعت إليها الإشبينات ولا من يردعهنّ. وقدّمت ماريلدا والخادمة المشروبات الروحية المحضّرة في المنزل من البيض والبنفسج والزبيب الرومي، وثمر الأومبو والآراسا، فكانت لذيذة إلى درجة جعلت الصيدليّ يقول بمكر لطيف:

– آه! هذه المشروبات الروحية ممتازة. إن راهبات دير لابا قد صنعنها أليس كذلك؟

ذلك أن المذاق لم يكن غريباً عنه، فطالما ذاق مثله في منزل مضياف آخر، مريح بحرارته الإنسانية. ضحكوا من يقينه ولم يقبلوه كمجرد افتراض بل اعتبروه شبه إهانة؛ إنه يعرف شيئاً عن مواهب الدونا فلور؟ فهي ليست طاهية لا تبارى، صانعة لا تنافس، بل هي أيضاً معلِّمة في المشروبات الروحية؛ فمشروبات الراهبات، راهبات لابا أو راهبات ديسترو أو بيردونز هي مشروبات صيدلية أيها الدكتور، لا تقارن بمشروبات عروسك، حتى ولا من بعيد...

لم يكن يعرف شيئاً عن موهبتها في المشروبات الروحية فارتبك لائماً نفسه في نقد ذاتي معلناً توبته حتى كاد يمدّ يده لتلقي ضربة القصاص. أجل، كان يعرف، بشهرتها الملكية في المطبخ، فلم تكن مجرد أستاذة التوابل عرضاً، إنما، كانت كفوءة، فنانة حقيقية في هذا المجال. ولسوء الحظ لم تجد من قبل فرصة البرهنة على براعتها في هذه اللذائذ. لكن سيأتي وقت الثأر. سوف يسمن، بالتأكيد.

هكذا جرت حفلة الخطبة المرحة. هكذا هو العالم، جاء الدكتور تيودورو ليقف في قاعة انتظار سرير الدونا فلور، على عتبة انتظارها. إنه نادم، فلم تكن لديه لا التجربة الغرامية ولا الغزوات النسائية، وكان يقتصر تعامله الحميم جداً مع النساء في لقائه الأسبوعي بأوتافيانا. وإذا كانت تافينيا مانيومولينسيا، في بداية زياراته الأولى، تستقبله آنذاك، علاوة على النقود الرنانة، بكلمة عذبة، فإن الوقت يختَزَل ذلك العمل بما اعتاده من اللطف والودّ والاهتمامات المريحة، في الحلوى والمشروبات الروحية، في المحادثة ثم في السرير، وهو عارٍ من الكلمات اللطيفة وحنان العاشق.

عند الوداع قدمت الدونا فلور خدها مجدداً لقبلة عفيفة (مذعورة أو خجولة، وفوق ذلك منكمشة) من عريسها المنتظر. بيد أنها أحسّت بالرعشة في يدها لدى ملامسة أصابعه الرطبة. وظنت أن الدكتور تيودورو كان هو أيضاً يحترق في داخله، مثلما تحترق هي.

في تلك الليلة حلمت به، وحده؛ رأته عملاقاً أسمر قوياً، لا يُغْلَب، عريض الصدر، متطلّب الرغبات – على حد تعبير الدونا جيزا – أتى ليختطفها.

هكذا جرى تحضير ترتيبات زواج الدونا فلور. ففي الشوارع في الجوار ما عادوا يتكلمون إلا في هذا الموضوع. ليس من باب النقاش، بل بموافقة جماعية. لم يظهر صوت مخالف؛ فالجميع استلطفوا ارتباط الصيدلي بالأرملة ورأوا أن كلاً منهما جدير بالآخر.

في البدء حدَّدت الدونا فلور مهلةً لا تقل عن نصف سنة قبل الزواج. وكان هذا من المقترحات النادرة التي جادلها فيها العريس. لماذا كل هذا الوقت ولديها جهاز حاضر وليس هناك، إذا لم يكن جهاز العروس معَدّاً، معضلات لأي مشكلة؟ وأقرّته الصديقات والإشبينات على موقفه والدونا فلور نفسها اعتبرته محقاً فاختصرت المهلة إلى ثلاثة أشهر من الخجل وعناء الشوق.

ثلاثة أشهر من الصفاء، اعتاد الواحد منهما الآخر بسهولة وتفاهما، يوماً بعد يوم. في هذه الفترة، في سهرات المحادثات الطويلة، بالاشتراك مع الدونا نورما أو صديقة أخرى، صمما جميع تفاصيل حياتهما المشتركة التي ستبدأ قريباً.

اتفقا على أن يسكنا في منزل الدونا فلور ليس لأن ذلك يريح الدكتور تيودورو لقربه من الصيدلية، إنما لأن الدونا فلور رفضت، جازمة، إنهاء أنشطة مدرستها كما اقترح هو بحجة أن الصيدلية تدرّ عليهما ما يكفي ليعيشا برفاهية متواضعة، فلماذا الإصرار على ذلك العمل المتعب؟ لكن الدونا فلور اعتادت عملها وبالتأكيد لا تريد العيش بدون تلميذاتها، تلك الزمر الصاخبة والضحكات والديبلومات، خطاب التخرج ودموعه و... مالها الخاص. حتى أنها رفضت مجرد مناقشة الموضوع.

فيما عدا ذلك كانا على وفاق تامٍ. حتى بالنسبة إلى السرير الحديدي نفسه الذي تكنُّ له تقديراً سرياً، والذي أعجبها شكله القديم، ويخيفها مآله؛ إذ ربما أنّ الدكتور لا يريد النوم على السرير حيث طالما امتلكها زوجها الأول، لكن ذلك، لم يكن مثار نقاش. فعندما وضعا ميزانية لائحة بما سيشتريانه لتجهيزالمنزل كما يحلو له (مثلاً طاولة مكتب صغير حيث يكتب ملاحظاته ويحتفظ بأوراقه) أخذا يتفحصان قطعةً إثر قطعة ويقرران حتى بلغا غرفة النوم فاقترح الحصول على فراش جديد لأن القديم صار مليئاً بالتكتّلات من أعلى ومن أسفل. وهناك فرشة برفاصات، شيء حديث، رائع. وهو نفسه كان عنده فرشة مثلها، لكن مفردة لعازب. وبالنسبة إلى السرير، فالأجدر بهما طلاؤه، ما داما سيطليان المنزل وبعض المفروشات. وانتهى الأمر عند هذا الحدّ.

ألف أحدهما الآخر وصارت الدونا فلور تحسّ حنواً تجاه ذلك الرجل الهادئ الطيب الوقور النّظامي المصرّ على أن يكون كل شيء في مكانه وفي الوقت المحدد، لكن العاجز عن إظهار قسوةٍ ما، الزاخر بالرغبات والذي بلا شك ميت بحبها وها قد بدا، عند وصوله ولدى انصرافه (أصبح يأتي يومياً، منهياً تلك السخافة التي انتقدتها بشدّة الدونا جيزا، عن الزيارات الثلاث فقط في الأسبوع) يقبّلها من شفتيها، برقّة. كان فمه القوي يمسّ فم الأرملة مساً. أما هي فكانت تتشهّى عضّة، قبلة حقيقية.

ذهبا في ليلة من الليالي إلى السينما، ولكن كما كان يحدث كلما كانا يخرجان مع آل رواس، فيصلون متأخرين، والعرض قد بدأ والقاعة ملأى فلم يحظوا بأمكنة لأربعة في الصف ذاته، وبقي كل من الدونا فلور والدكتور تيودورو في صف أمامي، غير مرتاحين، فالشاشة قريبة جداً،

لكنهما وحيدان في الصف ويدُ كلٍ منهما في يد الآخر. ثم أبرز لها شفتيه الوديعتين، ففتحت شفتيها وقبلته بشكل حقيقي. كانت تلك قبلتهما الأولى، قبلة رجل لامرأة، أما سائر قبلاتهما فقد كانت قبلات أخوية غير طبيعية. كان قد بقي أمامهما أسبوع قبل أن يضعا اللمسات الأخيرة أمام القاضي والكاهن، وتنتهي إجراءات الزواج. وكما لو أنّ تلك القبلة دشّنت حميميتها، ودمرت الحياء والإحساس بالخوف من العار فقد جعلت تلك الخطبة ألذ وأجمل.

كانت الدونا فلور تحلم كل ليلة بتلك القبلة الحقيقية، معطية في أرقها، الحقّ للدونا جيزا، إذا كانا سيتزوجان بعد أيام، فلِمَ، بحقِ الشيطان لا يرويان دفعة واحدة الجوع والظمأ اللذين يلتهمانهما؟ ولم يفعلا، طبعاً، بل لم يتكلما في ذلك قطّ، حتى ولا تلميحاً. لكن من تلك القبلة توالدت قبلات أخرى، ويداهما تضغطان ورأساهما مقترنين في عتمة السينما. في تلك الليلة نامت الدونا فلور هادئة مرتاحة بعد أرق أشهر عديدة.

هكذا وصلت الدونا فلور شريفةً هادئة، إلى يوم زواجها الثاني. وبدا المنزل، آية في الجمال، جديداً بلوحاته الزيتية والثريا البرّاقة المتدلّية من السقف، حتى لافتة المدرسة استعادت إشراقها. إعادة ترتيب للأثاث القديم بحيث يتكامل مع الأثاث المستقْدَم حديثاً، مثل طاولة المكتب الصغيرة ومقعدها الدائري. وعلى السرير الحديدي (الأزرق الآن) فرشة برفاصات، رائعة الروائع!

وأُزيلت من على جدران الغرفة الصور الملوّنة للدونا فلور وزوجها الأول، ووضع مكانها، عشية الزفاف، إطار تخرّج الصيدلي حيث يقف وسط زملائه يبتسم بالثوب الجامعي الأسود في زي الدكتور. فلم يكن من الحكمة إبقاء المتوفى متصدراً المنزل كما أسرّت الدونا نورما للدونا فلور. كانت محقة. لكن الدونا فلور لم تكن ترغب أيضاً أن تبقي صورتها على الحائط: صورة فتاة، الفتاة التي كانتها «بلا عقل بلهاء مغتمة في سن المعاناة، زوجة مقامر»، وليست كما هي الآن: أسمن قليلاً وأشدّ استقراراً، زوجة دكتور، ناضجة لتغزو السعادة.

اجتمع المدعوون وملأوا الكنيسة خصوصاً المصرفي سيليستينو، المشغول كثيراً، والذي وصل متأخراً – كما حدث في الزواج الأول – في اللحظة الأخيرة في كنيسة سان بينتو. في بداية الليلة المقمرة، حين همّ العروسان بدخول سيارة الأجرة التي قادتهما إلى خارج المدينة، من أجل

شهر عسل هادئ في سان نوميه ده باريبي، على الخليج الأخضر المزرقّ لباهيا جميع القديسين، تحت النجوم التي لا تُحصى في السماء الصافية، مع موسيقى الجداجد وجوقة الضفادع – كان الجميع، حتى الدونا روزيلدا، يقولون:

– أجل لقد أصابت في هذه المرة، سوف تكون سعيدة.

أجل هذه المرة، قالها الجميع بلا استثناء.

القسم الرابع

حياة الدونا فلور، منتظمة ووادعة، بلا مخاوف ولا منغَّصات، مع زوجها الثاني الطيّب، في عالم الصيدلة وموسيقى الهواة، اللامع في الصالونات، والذي تذكره جوقة الجيران بالسعادة.

(مع الدكتور تيودورو مادوريرا في عزف منفرد على البوق)

أبناء أورفيو

أوركسترا الهواة

تتشرف بدعوة سعادتكم وسعادة عائلتكم الفائقة الاحترام لحضور كونسرتو احتفالي بعيد تأسيسها السادس الذي سيقام في حدائق قصر الزوجين تافيرا بيريس القائم في ساحة غراسا، رقم 5، الأحد القادم، الساعة 20.30

البرنامج

القسم الأول

1 – بيرجر – *Amoureuse* – فالس.

2 – فرانز شوبيرت – *Marche Militaire* – فالس.

3 – أ. جيّيه – *Loin du bal* – فالس.

4 – فرانز دردلا – ذكريات – عزف منفرد على الكمان برفقة البيانو – العازف المنفرد: الدكتور فينسزلاو فيغا؛ على البيانو: السيد هيليو باستو.

5 – أوسكار شتراوس: *pot-pourri* ، *Rêve de valse*

القسم الثاني

1 – فرانسيس تومية: *Simple aveu* .

2 – أوتيلو آراوجو: مرثاة، عزف منفرد على الفيولونسيل برفقة الأوركسترا. العازف المنفرد: السيد الكوميندادور أدريانو بيريس.

3 – غراتسيانو: فالتر، *Passionato Gemito*

4 – آجينور غوميس: تغريد فلوريبيدس، أغنية بصوت واحد مع عزف منفرد على البوق برفقة الأوركسترا. العازف المنفرد: الدكتور تيودورو مادوريرا.

5 – فرانز ليهارت: الأرملة الطروب POT – PURRI . عازف البيانو: المايسترو آجينور غوميس.

1

بعدما تأكدت مرة أخرى من الترتيب المطلق والنظافة التامة، خرجت الدونا فيلو ببطء، بخطوتها الثقيلة كامرأة بدينة:

– كونا على سجيتكما، يا ملاكيّ... لست بحاجة إلى أن أقول لكما: طابت ليلتكما... – على الرغم من أنها كانت تريد أن تصبح خبيثة كانت طيّبة القلب وذات مشاعر أموميّة. عرفت الدكتور تيودورو عندما كان لا يزال طالباً، مزامناً ورفيقاً لابنها، الطبيب جوان باتيستا – هل تعلمان كم زوجاً من العرسان، وأنتما من بينهم، قد قضوا شهر العسل في هذه الغرفة، بعد وصولنا إلى سان توميه؟ سبعة عشر... أو ثمانية عشر؟ حتى إنني لم أعد أتذكر، ينبغي إحصاؤهم...

وجهت ابتسامة إلى الدونا فلور، وغمزة من عينيها إلى الصيدلي:

– ناما نوماً هنيئاً، مطمئناً... ثم أطلقت ضحكة عريضة، هزّت لها وجنتيها، وتركت صداها في المنزل، جالبة من الغرفة الأمامية صوت الدكتور بيمنتا موبخاً «ها هي فيلو تعذّب الضيفين»:

– إذهبي ونامي أيتها المرأة... دعي الآخرين بسلام...

– أرى فقط ما إذا كانا بحاجة إلى شيء ما... – نظرة أخيرة، عند الباب: – حبيبيَّ الرائعين...

أخيراً، ها هما، الدونا فلور والدكتور تيودورو وحدهما في حجرة فسيحة، خجلين، مضطربين. كبت تراكم طوال النهار مع نكات الإشبينات، ومزاح التلميذات. المزحات البلهاء، ونوادر الجيران. ساهم المصرفي سيليستينو بنكات يقشعرّ لها البدن. امتزج زفاف المرأة الأرملة، بتوابل المزحة الخشنة، وملح الأمثال السوقية. وحتى الدونا فيلو، السيّدة الأفضل والمضيافة، كانت

تخرج عن جديتها وتمزح، طالبة من الصيدلي أن يكون حذراً. أما في الغرفة فكان الانفعال يتزايد، وهما شديدا الاضطراب، وبقيا أبكمين، من دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر.

توجه الدكتور تيودورو إلى النوافذ الكبيرة المفتوحة على الحديقة، في قصد خفي لإغلاقها. بالنسبة إليهما، كان الليل قد تسرّب إلى داخل الغرفة بأكملها؛ ضوء القمر والنجوم ونقيق الضفادع وأصوات عدد من السرطانات الكبيرة والصغيرة، ولمعان السمك الشبيه بشفرة الفولاذ في حلكة البحر، والفراشة ذات اللون الأزرق البحري ببقع ذهبية، المصرّة على الدوران حول الثريا. كان النسيم يأتي من بين أشجار جوز الهند والمانغا والخفافيش تُسقط بصمت، ثمار السابوتي في طيران منبسط ذي ظلال وأشباح في مستنقع الجداجد والضفادع.

قررت الدونا فلور بتصميم، أنه يجب إزالة ذلك الحاجز الذي كان يفصل بينهما، المأزق البدائي والسخيف، فاقتربت من زوجها الباسط ذراعيه على إطار النافذة، فتغلّب الدكتور تيودورو على وجله، وضمها إلى صدره، وبيده الطليقة أشار إلى ضوء القمر:

– هل ترين، يا عزيزتي ؟ – قال «عزيزتي» بجهد ينم عن بقية من الخوف – هناك في الأعلى؟ إنه نجم الجنوب العابر...

هذا ما كانت تريد رؤيته دائماً، منذ كانت فتاة:

– أين؟ أرني إياه، يا عزيزي...

رفعت صوتها لتقول «عزيزي» ورددت بعد ذلك، بصوت خفيض: «عزيزي...» أضاء وجه الدكتور تيودورو:

– هناك... انظري جيداً يا عزيزتي...

لماذا يا حبي، هذا الخوف، وهذا الرعب؟ لماذا لا تأخذني بذراعيك، لماذا لا تقبلني من فمي، لماذا لا تحملني إلى السرير؟ ألا ترى كيف أنتظر فاقدة الصبر؟ ألا تتبيّن الجوع في وجهي،

ولا تسمع قلبي الذي فقد اعتداله؟ ألا تتكهن باشتياقي؟ كان لدى الدونا فلور أيضاً رؤى نجومها في سمائها الليلية وعلم فلك سرّي.

احتضنها أمام النافذة وشدها إلى صدره. فكر الدكتور تيودورو، وهي إلى جانبه كيف سيتصرّف كي لا يؤلمها، كي لا يجرحها بتصرّف غير محتشم أو فظ. كن حذراً يا تيودورو، لا تتعثّر، ولا تتسرّع، فيمكن بأقل تصرف خاطىء أن تخسرها. قد تسبب لهذه المخلوقة المستقيمة جداً، صدمة لن تبرأ منها أبداً. لا تخلط في السرير، بين زوجتك وبين امرأة سهلة، أو عاهرة عديمة الحياء. فمع امراة مومس يدْفَع الرجل بدل متعته، من أجل الرذيلة، ويمكنه أن يسيء التصرّف أو يقدم على أي شيء من دون أن يأخذ في الحسبان التهذيب والعفّة. ومن أجل التهتك، توجد البغايا ومهنتهن البائسة. أما الزوجات فهنّ مصونات للحب. والحب، كما تعرف، يا تيودورو، هو مزيج من ألف شيء مختلف ومهم، خصوصاً الرغبة، لكن رغبة من الروح كما في المادة. كن حذراً بألّا تحوّلها إلى منتهكة للحياء قذرة. فالزوجة تستحق الاهتمام والدراية، خصوصاً في أمور على هذا القدر من الحساسية، وليلة الزفاف هي دائماً نقطة انطلاق حاسمة من أجل حياة سعيدة أو تعيسة، وبشكل خاص، عندما تكون الزوجة قد عانت تجربة مريرة في زواج أول كارثي.

حسبما أخبروه، كانت التجربة الأولى جلجلة حقيقية، لم تجلب لها سوى العذاب والمهانة. ومن أجل ذلك، يجب أن تكون زوجاً رقيقاً وحنوناً بحيث تستطيع انتزاع المعاناة من قلب زوجتك الممزق، حتى آخر ذكرى للسفالة أو لقلة الاحترام. نعم، لسوف يعطيها كل ما ينقصها، ولن يألو جهداً لإزالة أي عامل يسبب لها العذاب والامتهان.

في تلك الساعة من الرغبة المكبوتة، من السعي إلى التفهم والحنان، كل مع أخطائه في شبكة من الالتباسات، متلمساً طريقه بتؤدة، يرحلان في السماء كملاحيْ فضاء رابطيْ الجأش، وهكذا يستطيعان الالتقاء ثانية في مدار النجوم بالهدوء اللازم وبعض الحميمية.

كان الدكتور تيودورو أليفاً مع خريطة السماء، ومع خريطة الكون، يعرف أسماء الأبراج والأقمار التابعة والنجوم المذنّبة، وعدد النجوم وعظمتها في المجرّات – بإصبعه يشير، في زوايا

اللانهائي، إلى النجمة الأشد صفاءً – وفي الحال يأخذها بمعرفته وبيده الكبيرة ويضعها على يد زوجته الصغيرة، في إطار النافذة.

في تلك الليلة من الزفاف، أعطاها ما لا يستطيع عاشق أن يعطيه لمعشوقته، أعطاها عقداً من النجوم بنور إلهي، وبحجومها وأوزانها ومعاييرها وموقعها في الفضاء الإهيليجي وبعدها الدقيق. بإصبعه الحامل خاتم الدكتوراه اصطفاها في السماء ، واضعاً إياها في نظام من العظمة، فراحت النجوم الشفافة تلمع في حضن الدونا فلور.

تلك النجمة الكبيرة في شعرها، الزرقاء تقريباً، والمقطوفة من حاشية الأفق، التي تلمع أكثر، أكبر من الجميع، آه! يا حبيبتي، إنكِ كوكب الزهراء، المسماة على وجه الخصوص نجمة المساء أو المسائية، حين تشتعل في الشفق وفي الليل، ونجمة الصباح أو النجمة الصباحية، أو نجمة دالفا، عندما تظهر مع الفجر فوق البحر. في اللاتينية، أوه! أيتها المحبوبة، يا نجمة البحر ، النجمة التي ترشد الملاحين...

لم يكن درساً في علم الكون، مدعياً وساذجاً، لا. كان درساً متقداً، طريقة قمع الخجل مقدماً لها سحر الليل وحبه. الدونا فلور، مغطاة بالنجوم والعلم، حانية رأسها على صدر الدكتور، مستعيدة اطمئنانها، ومتمتعة بمثل هذه المعارف، أرادت أن تعرف:

– أليست فينوس أيضاً إلهة الحب؟ امرأة بلا ذراعين؟

أشياء أخرى كانت ترغب في قولها له: « بنورها تضيء سريرنا، هي نجمتنا الطيّبة، فلا تخف، يا عزيزي، فلن تُلحِق بي الإهانة إذا ما اتخذتني باحتدام مجنون، وانتزعت بحدة واشتياق، هذا الثوب الذي أرسلته إليّ روزاليا من الريو، لأصبح عارية، فتحملني مغطّاة فقط بالنجوم ونرحل بغلة وحصاناً فحلاً، في هذا الحقل من أشجار المانغا والكاجو، في هذا البحر من الزوارق والمراكب».

لكن أين تجد الشجاعة لتقول ذلك؟

شدّ الدكتور المبتسم على يدها في حركة جريئة. كانت يده ترتجف. «أجل، كانت إلهة الحب في الميثولوجيا اليونانية، وتمثالها المشهور، إبداع العبقرية الكلاسيكية...».

تحققت الدونا فلور مجدداً، من أن ما ينقصه هو الجرأة ليصير متوحشاً مجنوناً، ويهدم السور الذي يفصلهما. رجل بهذه العظمة في المعرفة الغزيرة ولا يعرف كيف يأخذها ويمتلكها، فيما هي، آه! تيودورو، رغم أنك تحترق بنار الرغبة، لا تقدم على أدنى مبادرة. ها قد اجتازت تقريباً حدود اللازم، إذ ليس من حق الزوجة تقديم نفسها لإثارة الزوج من دون أن تصبح عديمة الحياء، فتضاهي امرأة بغياً، متحللة من الحشمة. المبادرة تقع على الزوج، يا عزيزي تيودورو.

كان يتابع جهده بصعوبة كبيرة. فبعد أن أعطاها عقداً من النجوم كزينة، ها هو يقدّم لها الآن ثروات الاحتكارات في هذا العالم، والانكسار وصراع الشعوب ضد التروستات.

– يُقال إن، ثمة حقلاً نفطياً كبيراً جداً هنا، تحت الأرض؛ فثروة مثل هذه كافية ليتحوّل شعبنا قادراً....

أنهار من النفط وأبراج وحفّارات وآبار، كلها عند قدميْ الدونا فلور؟ ما الذي لم يعطه لها في هذه الليلة الزوجية؟

أراحت الدونا فلور رأسها على صدر زوجها. وفي الخارج، استمرّت الليلة عابقة برائحة الياسمين، التي رافقتها في سيارة الأجرة في الطريق إلى المنزل الكبير الذي يقطنه الدكتور بيمنتا والدونا فيلو في مكان بعيد عن سان توميه ده باريبي. ليلة مقمرة في سماء قريبة ومتوهّجة حيث النجوم تتوالد ، مجهولة، لكنها كانت مصنَّفة من قبل العلم الغزير المتعدد الأشكال للصيدلي («الدونا جيزا وحدها توازيه في المعرفة»):

– حسناً هنا فوق، فوق أشجار الجينيبابو، نجمات ماريا الثلاث...

كان القمر المكتمل يمزّق مياه البحر المعتمة والكثيفة، وبحر الخليج في وداعة مطمئنة. مصابيح القوارب، مذنبات ضالة وحمراء في اتجاه مزروعات قصب السكر الخضراء، والتبغ عند

ضفتيْ نهر باراغواسو، حيث احتضرت مدن وقُرى في الزمن القديم.

بحر داخلي، وديع في صفاء، فاتر وهادئ، والنسيم الرقيق بين شجرة الجاكيرا وجذع شجرة فروتا – باون. الدونا فلور تأملت جمال ضوء القمر يغطي المياه والرمال والزوارق، والمراكب، بحر الخلود إلى الراحة والسلام.

ليس البحر المحيط، خارج الميناء، الشرس والخطر، ذو اللجج والتيارات الغوّاصة، وذو حالات المدّ المضللة؛ إنما بحر طليق ذو رياح منفلتة، وأعاصير مجنونة، بحر العواصف – في طريق المنازل الصغيرة اللاشرعية في ايتابووا، حيث الحب يندفع بحبور – بحر العنف غير المنضبط. ليس هذا عطر الياسمين، لكنها رائحة البحر، رائحة نفّاذة للطحالب والمحار، ومذاق الملح. لماذا تتذكر؟

لماذا تتذكر، طالما أن ليل باريبي هي عذبة إلى هذا الحدّ مع النجوم، والقمر المكتمل والبحر الأسود والهادىء، وسلام العالم فوق الزوجين القلقين؟ تيودورو، أرني بسرعة نجوماً أخرى، إمح بصوتك ومعرفتك ذكريات وقت مظلم، ميتٍ ومدفون. ارسم على مجرّة الضوء طريقنا العريض، وهذا النهر الهادئ، وهذه المياه الراكدة، وهذه الحياة في الخليج، حياة سعيدة ندشّنها اليوم على مهل. ارتجفت الدونا فلور، وعيناها نديتان.

إنكِ تشعرين بالبرد، أنتِ ترتجفين، يا عزيزتي. من الجنون البقاء هنا عرضة للندى؛ الأمر خطر، قد تصابين بنزلة صدرية. هيّا بنا ندخل ونغلق هذه النوافذ. ابتسم الدكتور تيودورو بابتسامته الطيّبة ثم سألها وهو مرتاب جداً: – ألا ترين أنه قد حانت الساعة، يا حبي؟

ضحكت هي أيضاً، مختبئة وراءه في لعبة خفر وخبث: «أنت الذي يأمر، يا سيدي». كان لطيفاً للغاية ورشيقاً، عملاقاً طيّباً، أحسّت بدعمه، وبحمايته. أعطته ذراعها، إنه زوجها؛ رجل خيّر، قويّ وهادئ، كم كانت تفتقده. زوج حقيقي، ملائم. مثل بحر الخليج هذا، من دون عنف، من دون هياج، لكن، من يدري؟ ربما مع نجوم مخبأة، مع ثروات غير مشبوهة، طارئة.

وضعا دعامات الخشب في النوافذ، وهي أيضاً ساعدته. وأضحى الليل أكثر حميمية في الغرفة، ملجأ مريحاً في معيار خجل الزوجين. كيف سيكون الأمر الآن، يا إلهي؟ سألت الدونا فلور نفسها، عندما انتهيا.

ولكي تفعل شيئاً ما، أخذت الدونا فلور ترتّب ثيابها وثيابه في خزانتيْ الملابس. الخفان عند قوائم السرير، وفوق الشرشف، البيجامة البهيّة الصفراء للدكتور وقميص النوم ذو الدانتيل والمطرّزات، هدية الدونا إينايدي. بهذه المطرّزات الرفيعة المستوى تصالحت والصديقة إينايدي، متناسية مسألة الدكتور آلويزيو المحامي بالممارسة والموبَّخ، الدكتور الزائف...

الدكتور تيودورو، آه! دكتور حقيقي، ذو شارة وخاتم، وكان يراقبها ذاهبة وقادمة من الخزانة. عرضت عليه قميص النوم، متناولة إياه من الكتفين: «جميل، ألا ترى ذلك؟» عند رؤيته، شعر بالبرد في أعلى رقبته. «حاذر يا عزيزي، لا تدع كل شيء يضيع بتصرف فظ، او كلمة نابية...» أوصى العريس نفسه مرة أخرى. فالحذر والتبصّر ضروريان في هذه الأيام السبعة من شهر العسل، في فردوس سان توميه في الأماكن البعيدة من باريبي، في منزل آل بيمنتا. سبعة أيام هناك، مع البحر والحديقة، والكسل، والتنعّم. لكن شهر العسل هذا، سيدوم العمر كلّه.

أراد القول للدونا فلور: «شهر عسلنا سيدوم العمر كله». فلماذا هما وجلان ومرتبكان إلى هذا الحدّ؟ كانا كما لو أنهما قد استهلكا فجأة، كل الحميمية التي اكتسباها عندما كانا خطيبين. علماً أنهما كانا زوجاً وزوجة، بمباركة كاهن القديس بينتو، وتهاني القاضي الأعجف والموسيقي، وكانا قبل الزواج قد تبادلا القُبل، الشرهة والمتأوّهة، في السينما وفي المنزل، شاعرين بالاشتياق والحرارة، مصعوقين في الرغبة الفجّة. لماذا إذن هذا الخجل، لماذا البقاء هناك بدون صوت وبلا عمل، كشخصين أخرقين، عندما أصبحا في النهاية بمفردهما، رجلاً وامرأة في ساعة اكتمالهما وسيرورتهما؟ إنه يريد أن يقول لها، لحبيبته: «شهر عسلنا سيدوم العمر كله»، لكنه قال، فقط بنيّة حل عقدة الكرب والصمت تلك:

– بينما أنتِ تبدلين ملابسكِ، سأدخل هناك...

خرج إلى الحمّام حاملاً البيجامة والخفّين، كما لو أنها عملية هروب.

«لن تراني عندما أتعرّى من قميص النوم». لن يرى جسدها الفتي، مثل جسد الفتاة العذراء، ونهديها المشرئبين مثل نهديْ الفتاة العزباء إذ إنهما لم يُرْضِعا، فرجها بلا تشوّهات الحبل، وبلا علامة الوضع، وردة من النحاس والمخمل.

لكن، ماذا يهم؟ فهو سيرى جسدها في نهاية امتطاء الجياد، في بزوغ الفجر، في إشراقها الصباحي. إن ما يهم الآن هو ما يشعره الشاب الملتهب ناراً إلى الأبد. وإذ تكهّنت الدونا فلور بالاقتراب، أطبقت عينيها، وقلبها في اضطراب.

كانت تتصور مع هذا، كيف سيكون الأمر، إذ كانت متزوجة، وحتى قبل أن تكون، رحلت في المتعة في سرير من رائحة البحر والعاصفة. كان لديها تأكيد بالكيفية التي ستصير إليها، لأنها تحتفظ بذكرى وفيّة ودقيقة، في الفكر وفي كل شيء بسيط في جسدها. لكن لحظة واحدة، وزوجها الجديد، سيعبر حدود التهذيب الرفيع والخجل، منتزعاً الملاءات وقميص النوم، في زحمة المداعبات والكلمات الحارة، وفي إعصار الفمين الجائعين واليدين الخبيرتين، ويسحب منها الخجل والشعور والعار، مدركاً أرضية حقيقتها النديّة. تحسّ بجسد زوجها لصق جسدها، في السرير.

في كل مرة، كان عليه أن يقتحمها لكي يدخل عليها. كانت تنكمش وتنغلق في حشمة، كانت تغطي، كقشرة معقدة، بؤرة الرغبة. كان من الضروري اجتياز هذا الحاجز، إعادة إحياء شبق الأنثى لديها، تلك الشهوة المكبوتة. مع هذا، وبعد أشهر طويلة كأرملة شريفة (آه! شابة ومحرومة)، أشهر لم تكن سوى ليل فسيح من الارق، حين لم تكن فريسة الأحلام المؤلمة، في شوارع الفسق، وليل من الضياع، ومن السهاد القاتل، تحول غلاف الحياء القاسي هذا، غطاء هشّاً ورقيقاً، ولم تعد قادرة على مقاومة أقل نداء.

كانت تنتظر، بقلب خافق، وعينين مغمضتين، حركة خشنة من الزوج، ينتزع فيها الملاءة وقميص النوم، مستعرضاً إياها بأكملها. لأنه، مثلما تعلمت على حساب حيائها الضائع، لم يسبق

أن شوهد أحد يمارس الحب بقميص النوم، وهو يرتدي ملابس أو مغطى أيضاً حتى بنسيج قطني خفيف جداً وشفاف.

وفي الحال أتيح لها أن ترى، ليس أمراً عبثياً، بل شيئاً مختلفاً. فبدلاً من أن ينزع الغطاء عنها، غطّى هو نفسه أيضاً، وتحت الملاءات، شدها بذراعيه إلى صدره. أخذ رأسها (الشعر أزرق تقريباً لشدة ما هو أسود) وأراح رأسها على صدره العريض كرصيف مرفأ، مقبّلاً إياها برقة، على الخدّ، وبعد ذلك في الفم، قبلة لطالما توقعتها وانتظرتها الدونا فلور في النهاية.

وإذ أُخذت بالمفاجأة، تركته يمضي في سبيله، وفي القبلة خُرقت القشرة الهشّة والرقيقة للحياء. نزلت يد الزوج من الورك إلى الفخذين، من فوق قميص النوم، ولمس حاشية النسيج القطني؛ ثم، وقبل أن يتسنى للدونا فلور أن تنتشي، أزال الدنتيلات والكشاكش. ومن دون أن يضيع وقته على تعريتها وخلع ملابسه، أو في المداعبة والغنج، والملاءة دائماً تغطيه، اعتلاها وامتلكها فوراً، بشوق، وبقوة وإغواء. جرى كل شيء سريعاً جداً وباحتشام شديد الاختلاف عما عرفته الدونا فلور، ولهذا بالضبط ضاعت ولم تدركه في امتلاكه إياها وهو جد أبكم وعابس. وما إن دخلت، بالكاد، حقل الرغبة حتى سمعت نشيد النصر في الطرف الآخر من الحقل. أحست الدونا فلور أنها مقهورة، مع رغبة شديدة في البكاء.

لكن هذه الخيبة فسحت لها بالمجال لكي تقيس سلّم المشاعر كلّه والرقة لدى الدكتور تيودورو.

وكما هو معلوم، كان بلا أية تجربة في التعامل، في السرير، مع الزوجة (بصفته أعزب) وعلى وجه التقريب ولا أية تجربة مع عشيقة أو مع حبيبة، لكونه قد تردد فقط على بغايا، ويخشى أن يتعرض لخيانة قسمه. حتى الخلاسية نفسها والنظيفة أوتافيانا، ولوقت طويل خُصص بابها المفتوح لرغبته، كانت بئراً يودع فيها كل أسبوع أهليته كرجل، حتى ولم تكن يوماً رباطاً حنوناً أو غراماً متقداً، إنما فقط حاجة لطيفة، عادة مسرّة للطبيعة الوحدانية عند الدكتور.

إضافة إلى ذلك، من المعروف أيضاً أنه من أجل مبادئ راسخة وقناعات إيديولوجية، كان الصيدلي يصلي في كتاب تجاوزه الزمن، (Gratias Deo) يؤكد أن الزوجة هي زهرة حساسة مصنوعة من العفّة والبراءة، خليقة بأقصى حدّ من الاحترام. فمن أجل قلّة الاحتشام، من أجل المتعة الحيوانية ولذّة الجسد، ثمة مومسات يتقاضين ثمن ذلك. فمعهن، أجل، وبالدفع لهن، يمكن أن تحل مكابح الفسق من دون أن يسبب لهن إهانة أو غماً. فهن أراضٍ قاحلة، جدباء. لكن مع الزوجة هذا لا يجوز. فلهذه الأخيرة، التقدير الكبير والحب النقي، الجميل والنزيه. فهي أم أبنائنا.

على الرغم من ذلك، وهو مرتبك بمثل هذه العقائد المتخلفة، ومع كثير من التحديدات والجهل، اكتشف أنه ترك الدونا فلور غير راضية ومتوترة.

في حين، وكما هو معروف أيضاً، في الزيارة الأسبوعية لأوتافيانا، كرر الدكتور تيودورو، عدة مرّات، فعله بمرح. هكذا أيضاً فعله مع الدونا فلور في السرير الاحتفالي المصنوع من الجاكاراندا الناعمة المعطر بالخزامى. ففي تلك الليلة من الزفاف، في منزل آل بيمنتا، ويجدر القول، مع هذا، إنه كرره بسرور أفضل، وليس بإلزام، أجل، راضياً بالفرصة السانحة لهذا التكرار. وهو فطن ومسؤول، كي لا يتركها هذه المرة على عتبة المتعة، وقد نجح بذلك.

تمكن من ذلك على الرغم من تجربته الضئيلة في دقة هذه الحسابات والمقاييس ، لأنه لم يكن يوماً مهتماً قطّ بأن يعرف إذا ما كانت أوتافيانا أو أية امرأة أخرى، تبلغ النشوة، عندما يبلغها هو بالتجربة، إذ إنه كان يسعى ويدفع ثمن نشوته وليس نشوة الأنثى.

عرف، مع هذا، كيف يواكب الدونا فلور في ازدياد استسلامها، فبدت له هذه اللعبة ممتعة جداً مارسها بنشوة لم يشعر بها قط من قبل، حتى عندما كان، يسمح لنفسه، استجابة لنزوة تافينيا وليس بمبادرة منه، ببعض الممارسات الاباحية، كالتي كان يسمح الرجل لنفسه القيام بها مع عشيقة أو مومس، ولكن ليس مع زوجته. فمع الزوجة، الأمر مختلف، إذ يقتصر الحب معها على أمور نظيفة، واستمتاع هادئ، سرّي تقريباً، لنقل نقيّاً، محتشماً. لكن ليس إلى هذا الحد من الحشمة وقلة الإثارة للنشوة، كما لاحظ الدكتور تيودورو عند سماعه الدونا فلور تهمس في تنهيدة امتنان:

« تيودورو، يا حبي...».

فأسرع إلى امتلاكها وأدركها، لأنهما التقيا معاً أخيراً موحَّدين في عناق لصيق وفي قبلة عميقة، تغمرهما، والتنهدات ولواعج الحب والبرد، لأنّ الملاءة، في حمى ممارسة الحب، انزلقت تحت السرير، تاركة الزوجين منكشفين، والدونا فلور منشرحة، تاركة وردتها النحاسية ظاهرة للعيان (يا له من خجل لطيف! وكأن الدكتور تيودورو لمحها في نظرة منحرفة).

وإذ أبدى امتناناً لكثرة ما منحته من نفسها ومن متعة، قبّل خدّها الملتهب، وغطى جسدها بالملاءة الخجلى والشرشف الدافئ. آنئذٍ، في النهاية، بإمكانه أن يقول لها كل ما يريد وقد قاله، كزوج سعيد، بكل حنايا النفس:

– شهر عسلنا سوف يدوم إلى الأبد... سأكون وفياً لكِ العمر كله يا عزيزتي، ولن أنظر أبداً إلى امرأة أخرى، وسأحبكِ حتى ساعة موتي.

– آمين! – رددت الضفادع في ضوء قمر باريبي – آمين! آمين! – كأنه عزف منفرد على البوق.

– وأنا أيضاً، العمر كله – أكدت هي، مقتنعة بتأكيدها، منتشية وخالية من الغم، لكن غير متعبة، لا بل قادرة على جولات جديدة، إذا أراد الإثارة.

لكن الدكتور تيودورو قد انسجم مع نفسه تحت الملاءة والشرشف، معلّقاً:

– غريب... حينما أرادت الدونا فيلو منذ فترة قصيرة، إجبارنا على الأكل، لم أكن جائعاً، والآن، إنني لقادر على ابتلاع الحلوى، يا للحماقة...

– إذا شئتَ، أذهبُ إلى هناك في الداخل وأجلب شيئاً ما. يوجد كثير من الحلوى وكثير من الفاكهة... سأذهب...

– لا، أبداً... لا تفكري في هذا...

لقد اكتشف أن ذلك لم يكن جوعاً، بل عادة طبق الحلوى. قبل الخروج ليلاً إلى تافينيا، كانت المعدة تطلب. انتهاك العلاقات مع الزوجة، بالاحتفاظ معها بعادة مارسها في منزل عمومي لامرأة بغي، لينجّه الله ويحفظه. في قبلة أخيرة وعفيفة، تمنى لها نوماً هادئاً:

– نامي يا حبيبتي، لا بد أنكِ منهكة من التعب، كان يوماً مرهقاً...

كاد أن يقول لها: «كانت ليلة متعبة...» لكنه لا يزال خائفاً من أن يلحق بها الإهانة، فاحتفظ بالخبث لنفسه، واسترخى ونام على الفور. لكن الدونا فلور لم تنم. فقد بقيت، في الحقيقة، مستيقظة طوال الليل، حتى الفجر، لاهية شغوفة. وإلى جانبها، كان يغط الدكتور تيودورو بنوم هادئ وعميق، يصدر صوتاً أبحاً كان يكمل ملامحه كرجل قوي، نبيل، وجميل هو زوجها.

لمست بيدها، صدره العريض، ووجهه المطمئن، في دغدغة خفيفة كي لا توقظه. وكانت لديها الرغبة في أن تختبئ فيه، أن تنام بين ذراعيه، حبيسة ساقيه. لكنها لم تجرؤ. فكل رجل له صفاته، فلا يوجد اثنان متشابهان، كما أكدت تلميذات معيّنات ذوات تجربة واسعة، مثل المغناجة ماريا أنطونيا التي أعلنت: « في السرير، لا يوجد رجلان متشابهان، فلكل واحد طريقته، وميله، وقدرته، بعضهم عارفون والبعض الآخر لا. لكن إذا عرفنا الاستفادة، آه! جميعهم طيبون، ومع أيٍ منهم، أبله أو عليم، متوحش أو رقيق، يُطفأ الظمأ وتتفتح الزهرة...».

إنه رجل آخر، مختلف، نقيض. زاخر بالكياسة وبالإدراك، ودود جداً، يا لها من رقة! يعود للزوجة أن تتاقلم مع ما يرغبه زوجها. كان هذا صعباً في المرة الأولى مع الأول، وقد نجحت. فلماذا لا تنجح الآن، وقد أصبح الأمر أكثر يسراً؟

لقد كان لدى الاثنين، الدكتور تيودورو والدونا فلور، كل ما هو ضروري لحياة أكثر عذوبة وأكثر سعادة. وليس الجميع فقط يقولون ذلك، في أغلبيتهم، فالدونا فلور أيضاً قد أدركت ذلك.

كان عطر الحديقة يتسرّب من شقوق النوافذ. وفي الخارج ليل الخليج الساجي، من دون رياح هوجاء، ومن دون عواصف طارئة، من دون شغب ومن دون ما هو غير مألوف؛ خليج

الهدوء. حياة سعيدة، توازنٌ وضمانة، لا عوزٌ ولا تبذيرٌ، ولا خوفٌ ولا مرارةٌ، ولا عذابٌ مذل. أخيراً، بعد دورات كثيرة وجهد كثير، سوف تعرف الدونا فلور طعم السعادة.

– تيودورو... – همست من قلب فرح وواثق – ستكون طيّباً، ستكون مستقيماً، مستقيماً جداً...

أجابت جوقة الضفادع بأبواق السحر وفي انسجام:

– آمين! آمين! كان ذلك في ليل باريبي، مع نجوم القوارب ومصابيحها.

2

كانت الدونا فلور معتبَرة دائماً، وهي تعتبر نفسها، ربّة منزل، منظمة ودقيقة، وحذرة. ربّة منزل جيدة ومديرة جيدة لمدرستها في الطَّهي، حيث تتجمع كل الأحمال، تعتمد فقط على مساعدة الخادمة المعتوهة والمحبطة ومساعدة صديقتها ماريلدا الصغيرة، المهتمة بالأطباق والتوابل. لم تردها قطّ شكاوى من تلميذة، ولن يقع حادث يعكر صفو الصف، ما عدا، بالطبع، الأحداث الناجمة عن زوجها الأول الذي كان متخماً بما يعرف، ولم يكن يعير تقديراً لجدول المواعيد، ولا لعمل الغير أو لحساسية أشخاص رقيقين. وقد خلقت تصرّفاته الماجنة مع التلميذات أكثر من مرة مصاعب ومشاكل للدونا فلور، فضلاً عن نوبات الصداع، والأحزان والإهانات.

في الحقيقة، لم يكن لدى الدونا فلور، معرفة بالقاعدة والمنهج، ولا انضباط في المنزل وفي المدرسة، أو مقياس وأنموذج. كان من الضروري أن تعيش مع الدكتور تيودورو لكي تنتبه وتعرف كم كانت انضباطيتها ضعيفة، واعتناؤها ضئيلاً وغير كافٍ، وكيف أن كل ذلك كان يتم عرضاً، بلا قانون ولا رقابة.

لم يسنّ الدكتور تيودورو قانوناً ورقابة في الحال وبصرامة، حتى إنه لم يتكلم في مثل هذا. ولكونه رجلاً مطمئناً ويقظاً، ذا ثقافة متينة، لا يعرف كيف يفرض، ولم يفرض؛ ومع هذا، فقد حصل على كل شيء بلا مباهاة، من دون أن يشعر الآخرون أنهم مرغمون، بيدين من حديد وبكفين ناعمتين من حرير .هكذا كان رجلنا الصيدلي.

كانت رؤية المنزل معبرة بعد شهر ونصف من شهر العسل. الفرق كبير! والدونا فلور أيضاً فعلت شيئاً مختلفاً، محاولة التلاؤم مع زوجها، وسيدها، لاستيعاب مقياسه الدقيق بتقويم ودقة. وإذا كان التغيير في داخلها، أكثر رسوخاً، وأقل ظهوراً، ففي المنزل جعلته واضحاً، بحيث كان يكفي أن تنظر لترى. فقد بدأ ذلك بالخادمة. كانت الدونا فلور قد تعاقدت معها، في بداية ترملها، نزولاً عند إلحاح الجيران ونصحهم: «منذ متى تستطيع أرملة شابة ورصينة البقاء وحيدة في منزل، من دون رفقة، ومن دون دفاع ضد لص أو متشرد؟». لم تكن سعيدة في هذا الاختيار، لكنها قبلت توسّل الدونا جاسي. فصوفيا تلك، ذات المظهر الموحي بالبلادة، هي في أعماقها خداعة، تقوم بالعمل في وقت الفراغ وبلا مبالات، مطمئنة أنها لن تحاسب مهما عملت. فالدونا فلور ليست من الذين يطردون الأشخاص خصوصاً إذا ما كان موصى بهم من أعز صديقاتها. ورغم أنها لم تكن راضية عن عمل تلك الكسولة، اعتادت عليها. فهي غير سيئة وطيبة القلب.

في اليوم الخامس بعد العودة من شهر العسل في نواحي باريبي المنعزلة، إثر ذلك الأسبوع من الحميمية الرقيقة، ذهبت الدونا فلور بسرعة إلى ريو فيرميليو حيث كانت الدونا ليتا تعاني الربو. وتبعها الدكتور تيودورو ليلاً لزيارة المريضة وليعود بزوجته إلى البيت. لكن عندما وجدت الدونا فلور أنّ خالتها لا تزال تتنفّس بصعوبة، ولأنه كان يوم جمعة (لا توجد دروس أيام السبت) قررت البقاء لكي تهتم بالعجوزين، ولم تعد سوى يوم الأحد مساءً، عندما انتهت الأزمة وعادت الخالة ليتا إلى حديقتها. استمر غياب الدونا فلور أقلّ من ثلاثة أيام وفي هذا الوقت القصير تغيّر المنزل، حتى بدا أنه منزل آخر. أولاً الخادمة. فقد تم استبدالها بخادمة أخرى. وبدلاً من صوفيا، الخلاسية القذرة، جيء بمادالينا، وهي امرأة ناضجة، نظيفة وقوية. ولولا بشرتها السمراء، المدلهمة، وشعرها الجعد، لقيل إنها قريبة للدكتور. فهي طويلة ورشيقة مثله، ومثله أيضاً لطيفة في التعامل وراسخة في العمل.

أوضح الدكتور تيودورو، بصوته المؤكد إنما اللطيف، أنه اضطر لصرف صوفيا؛ فعلاوة على كونها خادمة رديئة، لم تكن تطيعه، وتجيب بنبرات استخفاف وبزمجرات سليطة على أوامره الصارمة بتنفيذ نظافة جدية في المنزل الرديء التكنيس باستمرار. لم يستشر الدونا فلور، لأنه لم يشأ إزعاجها بهذا الأمر التافه، فيما كانت هي مستنفَدَة مغتمّة عند قدميْ المريض، ولأنه كان يجب

أن يطرد ناكرة الجميل فوراً، غير مستعد لسماع غش الخادمة وتعسّفها. فحين أعطاها أوامر بكنس المنزل، خرجت الفاضحة إلى الممر ساخرة، ملقبة إياه «الدكتور مسهّل (للمعدة)».

أحستّ الدونا فلور أنها مضطربة؟ فما خطرت في رأسها قط فكرة طرد صوفيا، رغم إهمالها وتصرفاتها الفظة.

– مسكينة...

كانت تشفق عليها، فكيف تصرفها من دون توضيح للدونا جاسي، التي أوصتها بها؟ وفي الوقت نفسه، كيف تتجاهل حقاً الدكتور تيودورو؟ لم يكن ممكناً لزوجها، الرجل المحترم وذي المركز، تحمّل سلوك سيِّيء من المدبّرة، وهي، الدونا فلور، المرأة الصبورة، التي كانت تسامحها.

– مسكينة؟ – قال الدكتور تيودورو متعجباً. إنها وقحة، غير خليقة بطيبتك، يا حبي... أحياناً يا فلور، يريد الشخص أن يكون طيّباً، فينتهي به الأمر إلى أن يصبح أخرق..

الدونا جاسي؟ إذا كان على أحد أن يعتذر، فهي الدونا جاسي التي يجب أن تعتذر على الصفاقة في أن توصي بهذه القذرة التي لم تكتف بانتهاك طيبة السيّدة، بل أرادت أن تسخر من السيّد. فهمت الدونا فلور أن الدكتور لم يطرح الموضوع في نيّة مناقشته؛ فقد أعلمها فقط كيف حلّ المسألة. ففكرت بأنه يوجد رجل في المنزل، مالك وسيّد،. ثم ابتسمت: «زوجي، سيّدي». حسناً فعل، وهي أيضاً لا تسمح بأي انتقاص من الاحترام لزوجها. «الدكتور مسهّل»، أين توجد مثل هذه الوقاحة؟

بالنسبة إلى الآخرين، لم يكن النقاش ممكناً حيال هذه النقطة؛ فالمدبّرة الجديدة كفؤة في العمل. ولم يتعاقد الدكتور تيودورو معها بطلب من جارة. أصرّ على شهادات إثبات الشخصية مع إفادات حسن سلوك، وتثبّت منها بالهاتف. هذا، أجل، كان ترتيباً وفعالية. لم تكن النظافة من إنجاز الخادمة الجديدة فقط، وإنما أيضاً كل شيء في مكانه، في الواقع في مكانه المحدد، ليس اليوم هنا وغداً هناك، من دون أن تعرف أين تعثر على الحاجات ذات الاستعمال الفوري، حيث إن الدونا فلور تكون منهمكة بالدروس:

– ماريلدا، يا ابنتي، هل رأيتِ كتاب الوصفات؟ صوفيا لا تعرف أين وضعته...

تحتج ويداها في المرق:

– صوفيا، أين وضعتِ أنتِ الخفّاقة؟ رباه، في هذا المنزل يختفي كل شيء...

لقد اختار الدكتور، بكفاءة نادرة وذوق، لكل شيء موضعه وأصدر أوامر صارمة إلى الخادمة؛ في نهاية الدروس، بعد تنظيف المطبخ، كان يريد كل قطعة في مكانها المحدد من قبله، مع قصاصة من الورق كُتب عليها بحرف طباعي اسم كل قطعة: «سكين الخبز»، «قاطع البيض»، «حجر التفتيت»، «هارون» وإلخ، وهكذا، ليست فقط حاجات المدرسة إنما حاجات المنزل: «راديو»، «أصيص الزهور»، «زجاجات المشروب»، «درج قمصان د.تيودورو»، «درج الملابس الحميمة للسيّدة».

– ربّاه! – قالت الدونا فلور إزاء كل هذه الكفاءة – وأنا التي كنت أظن أنني أعددت المنزل مرتباً... كان فعلاً فوضى، عدم الترتيب. تيودورو يا عزيزي، لقد قمت بمعجزة...

– ليست معجزة يا عزيزتي، إنما فقط قليلٌ من النهج الذي كان مفتقراً. لقد حدث أنني، مع أمي المقعدة كنت ملزماً بالاعتناء بالمنزل واعتدت النظام. في منزلنا أيضاً من اللازم أن يكون المرء منهجياً لأن الأمر يتعلّق بمنزل عائلة ومدرسة، في الوقت نفسه... ما دمتِ مصرّة على الاحتفاظ بالمدرسة. وبالنسبة إليّ، كما سبق وقلت لكِ، انتهي من هذا الشغل... أنتِ لستِ بحاجة، فأنا أكسب ما يكفي من أجل...

– لقد تناقشنا حول هذا، يا تيودورو، وقررنا ألا نتكلم في الموضوع. لماذا العودة إلى هذا النقاش؟

– لديكِ الحق، يا فلور واعذريني إذا ألححت... لن أعود إلى المداولة في هذه المادة ما لم يكن الأمر بدعوة منكِ. كوني مرتاحة، يا عزيزتي، وسامحيني، فلم أشأ الإساءة إليكِ..

«يا عزيزي» من هنا و«يا عزيزتي» من هناك، بود وتهذيب، لأن التعامل اللطيف والمجاملة، حسب رأي الدكتور تيودورو، هما متمتان للحب، لا غنى عنهما. وما توجه إلى زوجته قط من دون التفاتة ودّية، مترقباً منها التهذيب البشوش في التعامل. اقترب منها وقبّل خدها، معتذراً عن استحضار الموضوع المزعج إلى حيّز المداولة.

اقترح على الدونا فلور، عندما كان خاطباً، إغلاق المدرسة، وتصفية الدروس والتلميذات، والديبلومات والوصفات، ودورة الصباح والدورة المسائية. في حساب مفصّل لممتلكاته ومركزه في شركة الأدوية والعقاقير المركّبة في الصيدلية، أظهر الدكتور تيودورو عدم جدوى الاحتفاظ بالمدرسة حيث إن الدونا فلور لم تعد بحاجة إلى المال من أجل النفقات والنزوات؛ فهو كان، لحسن الحظ، في ظروف تتيح له ضمانة ما لا غنى عنه وما يمكن الاستغناء عنه، حتى ترف محتشم معيّن، من دون تبذير، إنما بدون ضائقات التقتير. فهي لم تعد بحاجة لأن تعمل، فالصيدلي حين طلب يدها، التزم بأن يعيلها ما يغطي المصاريف، جميعها. وما كان يسهّل الأمر، هو أنها لم تكن ذات تبذير وتبديد.

لم تقبل الدونا فلور. تمسكت في رأيها وأبقت على المدرسة، معلّقة الدروس فقط خلال الأيام القصيرة من شهر العسل في سان توميه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التلميذات، بعد عودة الزوجين، رحن يداعبن المدرّسة في جو من الضحك والنكات الخبيثة، وأحياناً رقصات شعبية مع غناء، وفي ضرب على الطبل من ماريا أنطونيا، التي أرادت أن تعرف أياً من الزوجين «هو الأنشط، وأيهما الأقوى والأكثر لذة جنسياً ». وفي العودة إلى الحديث مع الدكتور إثناء الخطبة، أغلقت الدونا فلور المسألة؛ كانت تفضّل البقاء أرملة على إنهاء المدرسة. فمذ كانت بنتاً اعتادت امتلاك نقودها. ولولا ذلك لما تدبّرت أمرها للاحتفال بالزواج الأول وفي مناسبة الترمل؟ عندما هربت من المنزل كان معها نقود دفعت منها ثمن الأثاث وأوراق الزواج، وعقد الإيجار ونفقات الأيام الأولى. ولولا المدرسة، لما تسنّى لها الصمود عندما ترملت فجأة؟ فالمرحوم لم يترك لها شيئاً إلّا الديون؛ لم يكن ثمة فرع لمصرف في سالفادور إلّا وكان فيه سند بتوقيعه الأنيق، ولا صديق أو أحد من معارفه لم يطعنه السافل. وفوق كل هذا مات في قلب الكرنفال، وفي فترة النفقات الكثيفة والمميتة.

لولا المدرسة، لعاشت الدونا فلور في بؤس كامل، بدون فلس من أجل الدفن وغيره. لهذا كله كانت تعطي أهمية كبيرة لعملها، ولمدخراتها، ونقودها النحاسية في مخبأ سرّي.

لا إغلاق للمدرسة يا عزيزي، إذا أردتني فليكن مع مذاق وفن. فليس باستطاعتي أن ألبي هذه الرغبة، أطلب شيئاً آخر، أسدده لك بألف قبلة، أرتمي بين ذراعيك، إنما المدرسة فهي ضمانتي. هل تدرك يا تيودورو؟ إن العمل فيها ليس شاقاً ولا مميتاً، بل إنه بهجة وتسلية: ساعدتها المدرسة على تحمّل وقت الترمل الفارغ، وقبلاً، آه! قبلاً، في سنوات زواجها الأول حالت دون يأسها. فقد وجدت في الدروس والتلميذات راحة لتحمّل الأيام السوداء والمضطربة. كم من صديقة رائعة حظيت بها حول الطبّاخ وكتاب الوصفات، وهن ذوات قيمة أكثر من المال؟ كلا، لن تتخلى عن المدرسة، التي تكسب بها خبزها وتقضي فيها وقتها الوقور.

عندما يكون الدكتور في الصيدلية (كان يخرج من المنزل قبل الثامنة، ويأتي لتناول الغداء ثم القيلولة، ويعود حيث يتأخر هناك إلى ما بعد السادسة مساءً) كانت المدرسة انهماكاً مسرّاً ومربحاً. من دون دروس الطَّهي، قل لي أيها الدكتور، في أي شيء أوظف الوقت الخاوي؟ في الوشوشات والوشايات مع الإشبينات، تحت إمرة الدونا دينورا، في المهنة المقرفة بملامة الجميع، وتملّق حياة الغير؟ أو في شبك ذراعيّ على النافذة، كعارضة أزياء في واجهة لإبهاج المارّة، مستمعة إلى كلمات شائنة، متحدثة مع هذا وذاك، تلوكني أفواه الناس، ما يمنحني شهرة المرأة المفتتنة؟

ثمة من كان يحب هذا العرض الفارغ. ففي الشارع نفسه، عند الناصية بالضبط، كانت الدونا ماغنوليا وهي خلاسية شقراء بفضل البابونج، تقضي وقتها أمام النافذة، بابتسامتها الثابتة كدمى السيلولويد. كانت تنتصب كطعم طوال النهار، وكلها مغلّفة بإغواء سافر لعبور المارّة الوديع. إنها جارة حديثة الوصول، انتقلت منذ وقت قصير مع زوجها، الشرطي السرّي، الأنيق في تفاخره بقرنيه الجميلين. وحسب ما تقوله الدونا دينورا وإشبينات أُخَر ذوات حاسّة شم رفيعة المستوى ومعلومات دقيقة، كان المخبر عشيقاً وليس زوجاً، وقد حصل على ماغنوليا المشقرّة بالوراثة عن

سالفيه، في المركز المختلف والمتنوّع الخصائص، لكن الجميع بلا استثناء، كانوا مشابهين له في القرون، في مواظبة وانسجام خليقين بكل تمجيد.

وبما أن الدونا فلور لم تكن قطَ ملازمة للنافذة ولا صاحبة مكائد، فكيف تقضي وقتها يا دكتوري العزيز؟ فهل تريدها مع التلميذات في المدرسة أم عارضة نفسها في شارع تشيلي، وهو طريق مستقيم، ودرب قصير يختصر المسافات إلى شقق العازبين في منعرجات أجودا؟ احتفظ بما عندك إذاً، لا تكرر مثل ذلك الاقتراح، فالدونا فلور فخورة بالمدرسة وبشهرتها وبمفهومها الحسن. لقد كلّفها هذا الصيت جهداً ومثابرة، إنه رأس مالها.

وافق الدكتور أخيراً موضحاً أنه هو وحده من سيتحمل جميع نفقات المنزل والحاجيات الشخصية للدونا فلور. وأرباح المدرسة تعود إليها بالتخصيص ولن يقبلها ضمن نفقات الزوجين، لذلك اتخذ تدابير أخرى بالنسبة إلى هذا المال. فالاحتفاظ به في المنزل، ملصق بصمامات الراديو أو موضوعاً في صندوق قديم للأحذية أو خلف مرآة مقصورة الزينة أو تحت الفراش، هو دعوة للصوص، خصوصاً الآن، حيث إن هذا المال السليم يتراكم شهرياً في كسب محترم. ذهب الدكتور تيودورو مع الدونا فلور إلى الصندوق الاقتصادي وهناك فتح حساباً بدفتر يحمل الاسم الشخصي لزوجته، حيث أودعت توفيراتها.

– هكذا سيدرّ عليكِ فوائد يا عزيزتي، ثلاثة في المائة، بصورة دائمة يعني شيئاً ما. إن مالكِ في الصندوق مضمون، من دون الخوف من اللصوص.

ماذا ستفعل بهذا المال المودع في المصرف، حباً بالله؟ شعرت الدونا فلور فجأة كأن المال شيء غير نافع، إذ لم يكن في متناول يدها، فلا تستطيع البحث عنه خلف الراديو، من أجل شراء، صدقة أو دفع. لكن الدونا نورما، المجرّبة في هذه الأمور، ضحكت من المفهوم المصرفي الباطل للجارة. راكمي مالكِ في الصندوق ودعي النفقات على حساب الزوج. وما دمتِ تحوزين دفتر حسابكِ ودفتر الشيكات فلن تكوني معتمدة على الدكتور من أجل كل دبوس ولا من أجل فستان تفاهة أو قبعة قمامة. لا تعيشي خلف الزوج، توشوشين له، والصينية في يدكِ، للحصول على

قروش من أجل هذه النفقات الصغيرة والمتضاعفة؛ فالنقود عن طريق التوسل لها مذاق الإحسان المذل.

كانت الدونا نورما تعرف هذا الطعم المرّ، حيث إن السيد زيه سامبايو كثير الزمجرة وبخيل نوعاً ما. لهذا السبب بالذات، وعلى حساب ميزانية خليقة باختصاصي في المال، – مع مضايقات ووشوشات، وحسابات، وتوفيرات، خبطات متنوعة، من أخطاء في العد، في الجمع، في الطرح، في المجموع، عشرون ألف هنا، خمسون هناك، – وإذا لزم الأمر، اليد الليلية في جيب الزوج، كانت الدونا نورما تحوز هي الأخرى، على جوارب نادرة تتيح لها جوانب معيّنة من الأناقة وإثارة اهتمام زبائنها الكثيرين من الإشبينات والأولاد المتبنّين، العجزة، المرضى، والعمال العاطلين، والسكارى والمحتالين، ودزينات الأولاد، المفضّلين لديها.

– على سبيل المثال يا عزيزتي؛ يأتي يوم ميلاد الدكتور وأنتِ لا تملكين فلساً في جيبك. هل ستطلبين منه مالاً لتشتري هدية له؟ هل فكرتِ: تيودورو، حبيبي، إعطني بعض النقود لكي أشتري لك سروالاً داخلياً وأقدّمه لك في عيد ميلادك؟ أنا يا حلوتي، لا أعطي زيه سامبايو مثل هذه المناسبة.

كانت الدونا فلور موافقة على هذا، بالتأكيد. لكن ما كان يزعجها هو وضع المال في المصرف، كرقم مسجّل في دفتر صغير وليس نقداً حيّاً في متناول يدها. فإذا فقدت جواربها فجأة، فكيف تعالج الأمر في هذا الدفتر الصغير البارد، في هذا الحساب ذي الفوائد؟ كانت لديها عاداتها القديمة، يجب أن تغيّرها الآن، إذ إن في قول الصديقة، عاداتها القديمة كانت عادات إنسان فقير، عادات زوجة موظف بائس، وفوق هذا كله مقامر يبدد لها مكاسب المدرسة، يعيش في ممارساته على حسابها، قوّاد أكثر منه زوجاً؛ كانت عادات أرملة بلا سند يعيلها بعمله، منتزعة منه ما يدفع للأكل، للملبس، لإيجار المنزل وللنفقات الأخرى. عادات الغجري، والناس التافهين، ولقد قال الدكتور: عادات الفقراء، بلا مال للمصرف وللفوائد ودفتر الشيكات، حسب ما أكدته الدونا نورما.

أما الآن، فقد تغيّر المركز الاجتماعي للدونا فلور وكذلك ثروتها. وإذا لم تكن ثرية قادرة على التبذير، فهي أيضاً ليست فقيرة كما كانت قبلاً؛ لقد ارتقت دفعة واحدة عدة درجات، من

أرضية الفقراء إلى المراتب العليا للجوار الأكثر نموّاً: الأرجنتينيان صاحبا معمل السيراميك والدكتور إيفيس وعيادته الطبيّة ووظيفته العامة وآل سامبايو مع متجرهم الجيّد للأحذية وآل روّاس ذوو المظهر الباعث على الحسد – وفي الوقت نفسه مع الأرستقراطية في الجوار، من أجل إسعاد الدونا روزيلدا التي حصلت أخيراً على صهر حسب مقاسها. وحسب قول السيد فيفالدو صاحب منشأة دفن الموتى، محقق محترم، حريص دائماً على الوضع المالي للأصدقاء، فالدكتور تيودورو متوازن، رصين ومحب للعمل، وسيمضي بعيداً:

– لن يلبث أن يمتلك الصيدلية كلها...

هكذا فُتح باسم الدونا فلور في الصندوق الاقتصادي، حساب يتزايد كل شهر، وهكذا كانت بداية تدبير مضمون للمبادئ في حياتها. وكما كان يقول الصيدلي، إنّ الفوضى والاضطراب والعادات غير المضبوطة تقود الزوجين إلى النقاش وإلى عدم التفاهم وإلى الخطوة الأولى للتنافر الزوجي وللمتاعب وللتباعد بين الزوجين.

كانت الدونا نورما تعتبره نظامياً أكثر مما هو منهجي، مصرّاً على أن يكون كل شيء في موضعه وفي يومه بالضبط، وعدواً للارتجال والمفاجأة. والعيب الوحيد (حسبما تراه الدونا فلور) في هذا الرجل المتعدد الصفات، هو أنه مستقيم طيّب وذو تهذيب رفيع، يعامل زوجته بكل احترام. فمن الأفضل، على كل حال، إن يكون نظامياً قاسياً، من أن يكون فوضوياً ومضطرباً مثل الدونا نورما، دائماً متأخرة، لا قيمة للوقت عندها.

ضحكت الدونا فلور وهي تستمع إلى الصديقة التي تطري، في انفعالها غير المنضبط، توازن الدكتور ونظامه: «زوج من هذا النوع أيتها المحظوظة، ليس ميزة ههنا، فقد سقط من السماء على حين غفلة». حتى إن الدونا جيزا نفسها، الحقيقة العلمية الفجّة التي تزيّن الحي، مع اتهامها إياه بالإقطاعي، اعترفت بمزاياه:

– بالنسبة إليكِ فلورزينيا، من كنت تريدين الأمان قبل أي شيء، من المستحيل أن تجدي أفضل منه.

في الواقع، في نظام تبعث رؤيته الفرح، بمساندة وإدارة من زوجها الطيّب، مع جميع التفاصيل في المحاور اللازمة، في اليوم المحدد لكل شيء، والساعة الدقيقة، كانت الدونا فلور تعطي الانطباع عن نفسها كمثال الزوجة السعيدة، لجميع الجيران.

سارت حياتها مطمئنة وبلا طوارئ، حياة هادئة وناعمة، يخضع وقتها لتخطيط دقيق، وبرمجة كاملة؛ السينما مرّة في الأسبوع، أيام الثلاثاء، في عرض الساعة العشرين. وإذا ما وُجد فيلم أحدث إثارة في الرأي العام وفي رأي جريدة «المساء» كانا يذهبان مرّتين، لكن نادراً وليس أبداً في العروض النهارية؛ فالدكتور لم يكن يحتمل فوضى وضوضاء الفتيات والفتيان، بهياجهم الصاخب.

مرّتَان في الأسبوع، أقلّه، بعد العشاء، كان يجرّب بوقه لمساء أيام السبت، وهو مساء مقدّس، تجتمع فيه الأوركسترا في منزل أحد الموسيقيين. كانت اجتماعات مرحة جداً وودودة، حول المائدة الدسمة لوجبات العصر – ربّة المنزل تبالغ في ضيافة الهواة – مع مرطبات وعصير الفاكهة للسيدات، وجعة بلا حساب للسادة، وأحياناً كأس من الكاشاسا إذا كان الطقس بارداً أو إذا كان الطقس حارّاً جداً. فيجلس الحضور، من المعجبين بالمايسترو أو المقدّمين، «حضور منتقى» من الأصدقاء، يصغون إلى مقاطع من الصوناتا والغافوتا، الفالس والأغاني المنفردة، في انفعال التسلسل الموسيقي والألحان المتسقة، والمهيبة، من العزف المنفرد المعتنى به؛ ساعة من الفن الراقي.

في الليالي الأخرى الخالية من الارتباطات، كانا يقومان بزيارات أو يستقبلان زواراً. وإذا كانت الدونا فلور قد أهملت علاقاتها، أثناء زواجها الأول، فإنها الآن ترعاها بانتظام مطلق.

مرّتان في الشهر، وفي يوم محدد، على سبيل المثال، كانتا لا بدَّ منهما في منزل الدكتور لويس إينريكي، حيث تجلب الدونا فلور أقراصاً من الحلوى ومعجنات الذرة والعسل وطبقاً من حلوى جوز الهند الأبيض أو الكيندين، تفاهة، لكن لذيذة.

انخرط الدكتور تيودورو وهو مفعم بالفخر، في حلقة رفيعة المستوى تجتمع في قاعة الصديق اللامع، وكلها من أناس ذوي وجاهة، مثل الدكتور جورجي كالمون السكرتير السابق للولاية، والدكتور جايمي باليبرو محامي الجمعية التجارية، والمؤرخ جوزيه كالازانس من الأكاديمية والمعهد الجامعي، والدكتور زيزيه كاتارينو (الاسم يقول كل شيء) والدكتور روي سانتوس، وهو سياسي وأستاذ وأديب، وآخرين في إدارة معهد التاريخ في الأكاديمية الإيالية للآداب.

كانت بالنسبة إلى الدكتور تيودورو، ليالي راقية جداً، باعثة على الاغتباط الروحي، إذ يجد نفسه مع «شخصيات بارزة»، مستمعاً إليها باحترام ومدلياً برأيه بحذر في محادثة محيطة بكل شيء حول المواضيع العميقة التي هي قيد المداولة. «تلمع الأفكار في رونق الجمل البرّاقة»، حسب قوله هو «في هذه الجولات من الارتقاء المطرد، في هذا الحوار مع مثقفين ذوي اختصاص». في أثناء ذلك كانت الدونا فلور، في حلقة الزوجات، تتكلم حول الخياطة والطَّهي أو تعلّق على آخر الجرائم المنشورة في الصحف.

بالنسبة إلى الصيدلي، كانت الزيارات إلى الدكتور إنريكي ذروة المبتغى، بينما كانت الدونا فلور تفضل أن يذهبا ليلاً إلى قصر غارسيا، كوخ الدونا ماغا باترنوسترو الثرية، وهي شخصية من أفضل شخصيات النخبة وتلميذة سابقة. فهناك تجد الدونا فلور نفسها في معشر السيدات الأكثر تباهياً في مناقشة الأزياء والأعراف والأحداث الاجتماعية، مع تجوال مبهج في حياة الغير، لكن ليس حياة أي من الجارات، إنما حياة النخبة، طبقة النبلاء واللوردات، وكان ثمة حكايات وقذارات يندى لها الجبين.

ومن عادات الزواج الأول، القديمة، احْتُفظ بالغداء يوم الأحد في ريو فيرميليو مع الخالة والعم، من دون أي عادة أخرى (تجدر الإشارة إلى أنه خلال الزواج الأول لم تكن هناك تقريباً عادات، فقط الضوضاء وكل ما هو طارئ).

تغيرَّت العادات، والحياة لا تتحقق بالحركة فقط إنما بالثبات أيضاً، وأصبحت هادئة ومطمئنة، حياة سعيدة، في الرأي العام لدى الجيرة وفي ابتسامة الدونا فلور.

في أيام الأربعاء والسبت، عند العاشرة ليلاً، دقيقة أكثر، دقيقة أقل، كان الدكتور تيودورو يمارس الحب مع زوجته في احتدام رصين وفي لذة ثابتة، ويتكرر ذلك أيام السبت ليصبح الأمر اختيارياً أيام الأربعاء.

استهجنت الدونا فلور في البدْء، مقارنة مع عادات سابقة معيّنة، الكتمان الذي كان يسيطر على العناق الانفعالي في السرير الحديدي، فوق الفراش الجديد ذي الرفّاص (الجدير بالمشاهدة). لكن احتشامها الخلقي وحياءها الذاتي، ما لبثا أن تأقلما مع رغباتها كأنثى متقدة ومع الطريقة اللاهبة والدقيقة، ولنقل المحترمة والمميّزة، التي كان الدكتور يأخذها فيها، تحت ملاءات السرير، برغبة راسخة وحمية غير مألوفة.

في سرير الأزواج (في رأي الدكتور تيودورو) الرغبة لا تحول دون الحياء، والحب لا يمنع الحشمة، فكلاهما مصنوعان من مواد نقية، حتى في حميميتهما الزوجية السريّة.

أيام الأربعاء والسبت، في الساعة ذاتها بشكل لا يتغيّر، كانت الدونا فلور تلاحظ حركات زوجها السرية والمكررة، في السرير. هكذا وهو شبه منتصب لكي يضمها إليه، والشرشف يغطي ذراعيه المفتوحتين والكتفين، كان الدكتور يبدو مظلّة بيضاء واسعة يحرس حياءها كامرأة، فيحميها حتى في تلك اللحظة السامية من الانخطاف. مظلّة، رؤية من دون غرابة، صورة مكبوتة، يا له من احترام.

كانت الدونا فلور، مطبقة عينيها كي لا ترى، تتصوره عندئذ، زوجها تيودورو، مثل طائر هائل الجناحين ذي مخلب قوي، نسر أو كوندور، في طيران متوازٍ فوقها، ليحملها ويعتليها ويضاجعها في الجو. انفتحت الدونا فلور شيئاً فشيئاً أمام هياج الطائر الجارح. وإذ أحسّت به يدخلها، مخلباً قوياً في احشائها الرطبة، وهي الحبيسة والطليقة، شعرت وكأنهما يرتفعان سوية معاً تغمرهما نشوة متبادلة.

إنما لم تكن نشوة عفيفة جداً، لأن الدونا فلور عندما تفتحت، تحللت أيضاً من التفكير الذي كان يستبد بها.

هكذا كانت ليالي الحب لدى هذين الزوجين الطيّبين ، مع تكرار مضمون للعملية يوم السبت، وجعلها اختيارياً يوم الأربعاء.

3

لدى عودتها إلى نازاريت داس فارينياس، بعد إقامة طويلة في باهيّا، ، وكشاهد يقظ على الأوقات الأولى للحياة الزوجية الجديدة للدونا فلور، عبرت الدونا روزيلدا للدونا نورما عن قلقها وعن مخاوفها.

صهر ممتاز، تحت جميع المظاهر، الدكتور تيودورو. لا يوجد أي شك حيال هذا. لكن هل ستكون الدونا فلور على مستوى القرين ذي الخصائص الكثيرة؟ لِمَ لا؟ – اهتاجت الدونا نورما، الوفيّة لصديقتها، غير قابلة بأي انتقاد لها. فالدونا فلور في رأيها خليقة بالزوج الأكثر تكاملاً، والأوفر جمالاً وثراءً. لكن شعلة هذه الحماسة المتقدة لم تكن تظهر لدى الدونا روزيلدا . فرغم أنها أم، ولديها دائماً ميل إلى إعطاء العذر لابنتها والوقوف إلى جانبها، لم تكن تجد لها الاندفاع اللازم لتسلق المستويات الضرورية، لم تكن تشعر أنه لديها طموح للنفوذ الاجتماعي، والاستفادة من مركز زوجها ومن رصيده ومن اعتباره ومن مسؤوليته ومن علاقاته. فلو كانت تشبه الدونا روزيلدا لخرجت من المنزل، وهي متأبطة ذراع الدكتور، متنقلة بسهولة بين القاعات والحدائق وحميمية قصور غراسا وبارّا ومعاشرة أفضل الناس في باهيا، وهو حلم السيدة العجوز. أما قُدّمت الدونا فلور إلى آل تافيراس بيريس، أوَلم يقبّل يدها المليونير آدريانو، الحصان الأبيض السوقي، ألم تخصّها، بابتسامة سارّة إنما باعثة على النفور، الدونا إيماكولادا، السيدة الأولى في المجتمع، ديكتاتورة الأناقة؟

ماذا فعلت الدونا فلور، مع هذا، لكي تستجيب إلى هذه الفرص السانحة التي يوفرها لها لقب الدكتور والصيدلية الزاهرة والبوق الحنون؟

لا شيء، ثلاث مرات لا شيء. بل عكس ذلك، تابعت إعطاء دروس الطَّهي كامرأة فقيرة تعاني عوزاً، رغم نشاطها هذا الذي انعكس سلباً على التقدير الاجتماعي للزوج (زوج امرأة تعمل و هو يعاني بؤساً في الحياة، أو هو بخيل قذر، هكذا يورد قاموس الدونا روزيلدا)؛ استمرّا في ذلك المنزل الصغير فيما هما قادران على أن تكون لهما إقامة أكثر ارتياحاً وفي شارع ملحوظ.

فلتعذرها الدونا نورما، لأن الدونا روزيلدا لم تقل ذلك بنيّة إلحاق الإهانة بأحد ، لكن شوارع هذا الحي التي كانت أنيقة ونبيلة في الماضي لم تعد، وفي الأيام الحاضرة، سوى شوارع أناس بسطاء، مع بعض استثناءات طفيفة. وفيها، تعد على البنان في تلك الأزقة، السيدات اللواتي يمثلن المجتمع.. صحيح أن امرأة الأرجنتيني الدونا نانسي، هي من طبقة راقية وأصل طيّب، لكن من غيرها؟ كانت تصر على رأيها بنظرة استفزازية تجاه صديقة الدونا فلور.

– البقية... قذارة...

كانت الإقامة في ريو فيرميليو أكثر سوءاً، بعيدة عن كل شيء، مع سكان الضاحية، حيث كان كل من أختها وصهرها يصرّان على الإقامة، في آخر العالم، ضاحية تقريباً، وعادية، حيث يخرج الرجال في أيام الآحاد يعرضون أنفسهم في الشوارع بالمنامات والأخفاف. يا للسوقية، الدونا لاوريتا زوجة الدكتور لويس إينريكي، التي جاءت لزيارة الدونا ليتا، شعرت بالعار لذلك السلوك الصباحي المعيب، أي العرض المخجل للمنامات السيئ الذوق والقذر. وقد عبّرت الدونا لاوريتا عن سخطها بكلمات اشمئزاز:

– لا أعلم كيف يستطيع المرء السكن في مكان كهذا، حيث الأغنياء أنفسهم يصبحون شبيهين بالفقراء، كل شيء من سقط المتاع.

لكنْ في العودة إلى المسألة التي نوقشت قبلاً، ما هو موقف الزوجين الحديثيْ الزواج؟ الدكتور تيودورو يكاد يجنّ رغبة بتغيير السكن، والدونا فلور البلهاء، معاندة هناك في ذلك الثقب. أما الدونا روزيلدا فكانت تهزّ رأسها قائلة:

– من يولد من أجل عشرة فرنكات لن يصل إلى سنتيم...

وبالأحرى، أدّت هذه القصة عن تغيير مكان السكن إلى العودة المفاجئة للدونا روزيلدا إلى نازاريت، حيث استجوبتها الدونا فلور ذات صباح:

– أمّاه، من أين اتتك فكرة القول لتيودورو إنني أريد الانتقال؟ إعرفي وللمرّة والأخيرة، بأننا، أنا وهو، راضيان جداً بمنزلنا ولن ننتقل.

الدونا روزيلدا، متناسية تصرّفاتها كسيدة عظيمة، بصقت إلى جانبها في حركة سافلة:

– وماذا يهمني؟ كل خنزير في زريبته.

بذلت الدونا فلور جهدً لتمسك نفسها:

– اسمعي يا أمي. أنا أعرف لماذا هذه القصة حول منزل أكبر. فأنتِ تريدين البقاء هنا إلى الأبد. لكن يمكنك انتزاع هذا من رأسكِ، فأنا لست موافقة. تستطيعين المجيء لزيارتنا متى شئتِ، فتقضين بضعة أيام. لكنْ أن تسكني معنا ، فهذا لن يحصل. وإنني أكلمكِ بصراحة: حضرتكِ يا أمي وُلدتِ لتقطني بمفردكِ... سأقول لكِ...

خرجت الدونا روزيلدا في اندفاع، من دون أن تشأ سماع البقية، وبالأحرى القسم المفرح من الخطاب، إذ إن الدونا فلور، لكي تعوّض على أمها تلك الصراحة الخشنة، قررت تخصيص مرتب شهري صغير لها. «نقود لدبابيسكِ يا أمّاه، من أجل أعمال البر التي تقومين بها»، كما تسنّى لها أخيراً إعلامها، عندما رافقتها إلى رصيف شركة البواخر الباهيّانية، بعد ذلك بأيام.

أُحبط مرّة أخرى مخطط الدونا روزيلدا في الإقامة مع ابنتها، فلم تردها قبلاً، وهي أرملة، ولا تريدها الآن وهي حديثة الزواج، وإذا كانت الدونا روزيلدا في المحاولة الأولى أظهرت نفسها مُهانة، وقد قطعت علاقاتها عملياً بالدونا فلور، فهذو المرة قد بلعت الصفعة. فإغواء الحياة الجديدة لابنتها، مع بريق علاقاتها وسهراتها، كان طاغياً أكثر من اللازم. عادت إلى نازاريت، هذه حقيقة، لكنها قللت من زياراتها إلى العاصمة. فإذ أقامت ضيفة في «مؤخرة العالم» ذاك، في ريو فيرميليو، كانت تأتي باكراً، قبل الغداء، إلى منزل ابنتها، لتثير حفيظة الجوار، في تزعّم عصبة الكائدات. وكانت تمكث ثمانية، عشرة أيام، الوقت الذي يجعلها غير محتملة، من المشاجرات مع أختها، ثم تمضي مجدداً لتحيل حياة ابنها وكنّتها في ريكونكافو إلى جحيم. في نازاريت، كانت انهماكاتها المتعددة تُلخّص في وصف المستوى الاجتماعي السعيد للدونا فلور («تعيش في مآدب غداء

وحفلات، صديقة حميمة للدونا إيماكولادا تافيرا بيريس»)، في مديح للصهر الدكتور وكل ما يمثله، من قسطه الوافر في الذكاء إلى حالته المالية التي يُحْسَد عليها، والحضور الخليق بالبوق الخارق للمألوف، تروي تفاصيل التمارين الأسبوعية لأوركسترا الهواة، وتذوب في ابتسامات، ويسيل لعابها في تعليقات:

- تلك، أجل، إنها لموسيقى...

كانت تقول ذلك لتمجّد الأغاني ذات الصوت الواحد، وذات الإيقاع المنفرد، الكونشرتو من مجموعة راقية، يتعايش هويندل، ليهار وشتراوس مع أوتيلو آراووجو ومع المايسترو آجينور غوميس، وهما مؤلفان موسيقيان محليّان أقل شهرة في العالم الخارجي، لكنهما ليسا أقل إلهاماً. كانت تقولها أيضاً في تظاهرات ازدراء للموسيقى الأخرى، موسيقى السامبا والأغاني، موسيقى الأغاني الشعبية، موسيقى «زيه بوفينيو» - مع بصقة احتقار - ولعازفي القيثارات والكافاكينيو الأكورديون والطبول، زمرة المشرّدين. عندما تقول ذلك، تضع مسافة، تسجل فرقاً بين أوركسترا الهواة - التي ينتسب إليها الدكتور فينسزلاو بيريس دافيغا، الطبيب الجرّاح المشهور، الدكتور بينيو بيدريرا، قاضي العاصمة، والمليونير صاحب شركة لبيع السلع بالجملة، مع قصر في غراسا وسيارة مع سائق وحامل لقب الكومينداور من البابا آدريانو بيريس - الحصان الأبيض - زوج إيما كولادا النبيلة، تلك «التي هي قبل الأولى دائماً، عين الهر النادرة» (تعبير موفق لسيلفينيو لامينيا، مذيع الراديو ومحرر «الاجتماعيات» في جريدة الشاعر الخجول أودوريكو تافاريس)، عن الدونا إيماكولادا تافيرا بيريس، بوجهها الشبيه بوجه الحصان الهرم ونظارتيها ومدبّرة منزلها السويسرية والمشردين الذين يعزفون على أدوات موسيقية في الهواء الطلق وفي اضطراب، وهم سكارى حتى الثمالة.

خلال الزواج الأول لابنتها (إذا كان يمكن تسمية ذلك زواجاً) كان عليها أن تتحمل العرق والكلام البذيء من أولئك المشردين والعاطلين، ذوي الخدود التي تنم عن المجون والدلع: جينر آوغوستو، كارلينيوس ماسكارينياس، دوريفال كايمي. ومن مرّة لأخرى، كان رجل متخرّج في جامعة وينتمي إلى عائلة، يحشر نفسه في تلك الزمرة ويصبح أسوأ من الجميع مثل الدكتور فالتر دا سيلفيرا، الذي تتذكر الدونا روزيلدا وجهه المليء بالحقد، والذي سمعت في نازاريت ثناءً على مستوى

القضاء وهذا المستوى الرفيع في الإلمام بالقوانين، وهو رجل مهيب. ليصدق من يشاء، إلّا هي، الدونا روزيلدا، التي رأته ينفخ في المزمار وصلة من السيري – بوسيتا، فيا له من صفيق!

لقد أصبحت مناهضة للموسيقى. وبسبب تلك الزمرة من التافهين، اتخذت موقفاً عنيفاً معادياً مع أول نبأ عن مزايا صهرها الجديد: «شخص لا يرجى منه إصلاح، عازف المزمار». مرّة أخرى بالتأكيد، سوف ترتبط ابنتها البلهاء، عديمة العقل والحياء، بشخص محتال لكي تعيله، تحمله على ظهرها، تموّل له رذائله وعشيقاته بالنقود التي تجنيها بعرقها من المدرسة. لقد استشاطت غضباً من المعزوفات الليلية والأغاني، إذ إنه حتى لقب الدكتور، الذي أهالت عليه الدونا نورما، العليمة بمواطن ضعفها، وأفضلياتها، فخفخة في الرسالة التي أعلمتها بخطبة الأرملة، ولا حتى خاتم الدرجة العلمية ذاك قد أثّرا فيها. إنه دكتور وذو معرفة معترف بها، كتبت الجارة. لكنَّ الدونا روزيلدا لم تبدِ حماساً:

– واحد آخر من هؤلاء السكارى... يقضي الليل في الشوارع بصخب وتهتك بمال المرأة البهيمة... سترين، وهو أيضاً مقامر. إن كل ما يريده هو العيش عالة على غيره، هي في العمل وهو في الفساد.

أما عن لقب الدكتور، فقد أبدت تحفظاً:

– صيدلي.. دكتور مكسور القدم..

كانت تميّز بين اختصاصات التخرّج. وفي نظرها ليس الجميع في الدرجة والمرتبة نفسها:

– الدكتور في الحقيقة، من الدرجة الأولى، هو الطبيب، المحامي، المهندس المدني، أما طبيب الأسنان والصيدلي، المهندس الزراعي، الطبيب البيطري، كل هؤلاء، دكاترة من الدرجة الثانية، دُكيترون... أناس بلا عقل ولا كفاءة للدراسة حتى النهاية.

كل سوء النية هذا تجاه الصهر المستقبلي الذي كان لا يزال مجهولاً وقد انتقدته بشدة، سببه معرفتها أنه موسيقي هاوٍ. ففي باهيّا فقط، بعد تأكدها من الوضع المالي الجيد للصيدلي،

الشريك في منشأة راسخة مثل الصيدلية العلمية، في زاوية شارع كارلوس غوميس مع شارع كابيسا (الموقع وحده يساوي ثروة) مسؤوليته، وسلوكه وتصرفاته، والدائرة الأنيقة والواسعة من علاقاته، زال الانطباع الزائف الأولي لديها، تاركاً الحماة مشوّشة الفكر بين البوق البليغ والمزمار الشعبي المصنوع من شجر الغابة وأوركسترا الهواة مع المعزوفات الليلية في ضوء القمر.

ارتفع الصهر سريعاً جداً في نظرها. لم يكن الأمير الكامل الساحر الذي شوهد يوماً في بيدرو بورجيس، الطالب البارايي، مع أنهاره، جزره وحقول أشجار المطاط، ثراء ألف ليلة وليلة. إلا أنه ماذا يمكنها أن ترغبه كأرملة فقيرة، في الثلاثين من العمر؟ إن الدونا روزيلدا راضية أبعد من كل توقعاتها، اعترفت للدونا نورما:

بهذا الرجل، حتى أنا، أتزوج... فهو مواطن مقدَّر، وأي سلوك! هذه المرّة لقد وفقت. وأيضاً مضى وقت طويل... إنه سيّد يتمتع بتهذيب شديد!

تهذيب راقٍ جداً؛ الدكتور تيودورو طيّب القلب ومحترم، إنما كان يدعوها «حماتي العزيزة»، وهو يريد أن يعرف في كل لحظة إذا ما كانت بحاجة إلى شيء ما، جالباً لها أقراصاً للسعال، شراباً للبلغم المزمن وأهداها مظلّة جديدة، عند رؤيته لها شاكية مظلّتها الضائعة – عتيقة من عهد السيّد جيل – في اضطراب النزول من الباخرة في المرفأ.

وصلت الدونا روزيلدا بنيّة حضور الزفاف، في زيارة لعدة أيام. لكنْ، عندما تعرَّفت إلى صفات الصهر، وضعت في حسابها إمكانية الحياة بصحبة الزوجين، مصممة على أن تكون ضيفة عليهما بصورة نهائية، هاجرة نازاريت داس فارينياس، وأعمال الإحسان التي يقوم بها المحترم فالفريدو موزيس، والنادي، والكنيسة، ورئاسة الثرثرة البلدية القاسية.

لقد كانت تشعر بالراحة في المدينة الصغيرة، كما لاحظ الجميع. فهناك كانت شخصاً حاضراً، شخصية نافذة، تكابر بشكل واسع، تصبّ جام نزواتها ومزاجها السيّئ على الكنّة التي هي الآن في أقصى درجات الصبر، وفقدت الآمال بحدوث معجزات من قبل القديسين. سيدتنا أم الحزانى أصبحت عمياء وصمّاء إزاء توسلاتها ونذورها؛ فلكي تتحرر، كان متبقياً لها فقط انتظار

الموت. موت الحماة، مفهوم... أحياناً كانت سيليستي الطيّبة تمني النفس بهذا الحدث المهيب. آه! السهر على الميت منتظر بفارغ الصبر! ستكون السهرة الأكثر احتفالية في نازاريت، ولسوف يتكلم الناس عن حراسة جثمان السيدة العجوزة والصلاة عليها في ريكونكافو كلها، وستصل الأصداء إلى العاصمة. كانت سيليستي مستعدة لتحمل كل النفقات والقيام بكل الاعمال اللازمة.

كانت على ما يرام في نازاريت، لكنّها، مع هذا الصهر الجديد، كانت تفضّل سالفادور، ولكي تبقى هنا أعدت الدونا روزيلدا خطة لحملتها. فراحت تتصرف بتملق موحية بأنها على أتم الاستعداد للخدمة وطيبة القلب، وتكريس نفسها للصيدلي. والدكتور تيودورو، مبدئياً، قد تأثر. وفي حديث مع صديقه روزالفو ميديروس، ممثل المختبرات، قال له إنه قد كسب بزواجه، ليس الزوجة الأكثر اكتمالاً وحسب، إنما أيضاً أمّاً ثانية، حماته، تلك العجوز القديسة.

– مَنْ؟ – لم يصدّق روزالفو ما سمعه – من هي العجوز القديسة؟ الدونا روزيلدا؟ – بدأ يضحك مثلما فعلت الدونا آميليا في يوم الخطبة. يسمع المرء مثل هذه الآراء... الدونا روزيلدا، مخلوقة قديسة. هل تيودورو بهذه السذاجة...

لكن الدكتور تيودورو نفسه لم يخدع لفترة طويلة. فسلاطة اللسان، وحب المكيدة، والإثارة الدائمة للدونا روزيلدا فرضت نفسها على ابتساماتها المتكلفة وكلماتها الآثرة. فبدأ الصهر يدرك مغزى الضحكة المنفلتة والخبيثة من الدونا آميليا وروزالفو. حدث هذا عندما حدَّثته الدونا روزيلدا، بكثير من الأدب، عن عدم ملاءمة المنزل الصغير، مع الغرف القليلة جداً. فلماذا لا يستأجر مسكناً خليقاً بإمكاناته وعلاقاته؟ أكثر اتساعاً، مع غرف أكثر عدداً؟

وأفهمته، بمهارة، أن الدونا فلور لم تكن قانعة بذلك المنزل الذي يفتقر إلى أسباب الراحة، المليء بالذكريات المؤلمة، ولأنها لم تكن تريد إزعاج زوجها، لاذت بالصمت محبطة.

استغرب الدكتور تيودورو الاقتراح الفاسد من الحماة، وأكثر من ذلك أيضاً، الغضب المزعوم للزوجة. ألم تكن الدونا فلور هي من أبرز ملاءمة ومزايا البقاء هناك؛ الإيجار رخيص، الإيجار نفسه منذ ثماني سنوات، وموقع المنزل، على مسافة خطوتين من مستودع الأدوية، علاوة

على أنه صار عنواناً معروفاً لمدرسة الطَّهي مذاق وفنّ، وفيه مطبخها الموافق للتلميذات، مع موقد على الغاز وآخر على الحطب. فلماذا منزل أكبر إذا كانا اثنين فقط؟ لماذا السعي إلى مزيد من الجهد والنفقات، إذا كانا هنا قادرين على استيعاب المرح، هي وزوجها ورغبتهما في السعادة؟ هكذا ناقشت الدونا فلور وهي ما زالت عروساً، متواضعة ومتعقلة.

لماذا إذا هذا التبدل المفاجئ؟ لماذا المضيُّ إلى التبذير في منزل كبير يتطلّب جهداً كبيراً وهو غالٍ؟ لماذا هذا الترف فوق قدراتهما؟ لكي يجعل المرء نفسه شخصاً مهماً؟

تحدَّثت الدونا روزيلدا، في فصاحتها المضطربة، عن ميزة أن يجعل المرء نفسه «شخصية معتبرة». وكان الدكتور تيودورو حسّاساً إزاء النقاش، شاعراً بغيرة ناتجة من الامتياز والتقدير، خائفاً من نقد المجتمع. أما الدونا فلور التي، لم تكن تولي اهتماماً إلى مثل هذه الأمور، فقد فقالت له – حينما تناقشا حول المدرسة – لا تُقاس قيمة الرجل بشكله، وبمظهره، بل بما هو في الواقع وما يساوي.

ما دامت هكذا، لماذا تبدو مغايرة، مع شكاوى ومطالبات؟ أصغى الدكتور تيودورو بانتباه إلى كلام الحماة السمج، ولم يشأ التداول في الموضوع:

– ما كنت أدري، يا حماتي العزيزة، بهذا القصد لزوجتي العزيزة ولا أرغب في مناقشته، لكنْ بوسعي القول لها سلفاً إن كل شيء سيُحَل وفق ما ترغب فلور.

ترك الدونا روزيلدا مغلّفة بالتفاؤل، وانسحب كئيباً إلى مستودع الأدوية. وإذا كان تبدُّل رأي الدونا فلور قد فاجأ الدكتور تيودورو، فإن تصرّفها أزعجه. فلماذا لم تقل له هي بالذات، بإخلاص وصراحة؟ لماذا أوفدت الدونا روزيلدا ناطقة باسمها؟ ولم يكن الصيدلي يرغب في أي شك، في أي سوء تفاهم على أقل الأمور شأناً بينه وبين الزوجة. كان يعدّ نفسه ليزوّدها حين يستطيع بما يرضي رغباتها، حتى ولو بدت له نزوات، ضمن حدود إمكانياته وحتى مع بعض التضحية. لكنه يلحُّ على الإخلاص، الصراحة، الثقة. لماذا إذا وجود أطراف أخرى، لماذا الوسطاء بينهما إذا كانا زوجاً وامرأة؟

كان الدكتور تيودورو، في عمق الصيدلية يحرّك سكيناً لسحق العقاقير، يجزئ مواد، يزن مقادير دنيا في ميزان خاص بالدقة، ويشعر أنه متألم وحزين. لماذا انعدام الثقة هذه؟ فعلى الزوج والزوجة ألّا تكون لكل منهما أسرار ولا وسطاء بينهما. نيترات البيزموث، أسبرين، أزرق الميتيلين، جوز موسكادا، المقادير الدقيقة، لا غراماً واحداً أكثر ولا غراماً واحداً أقل، هكذا الزواج. يفترض أن يطرح الموضوع بصراحة، قبل أي شيء.

في الغرفة ليلاً، بمفرده مع الزوجة، فيما كان يبدل ملابسه محتمياً برأس السرير الحديدي، قال لها:

– يا عزيزتي، أرغب أن أطلب منكِ أمراً واحداً...

وكانت الدونا فلور قد اندست تحت الملاءات منتظرة فقط قبلة الزوج لتغمض عينيها وتنام:

– ماذا، يا تيودورو؟

– أرغب منكِ، حينما ترغبين الحديث في أمر ما معي، كلميني أنتِ بالذات لا ترسلي أحداً بدلاً منكِ... لم يكن صوت الدكتور ينم عن غضب، ونبرته أكثر اتجاهاً إلى الكآبة.

رفعت الدونا فلور صدرها، إنها لمفاجأة. استندت إلى مرفقها والتفتت إلى زوجها وهو يدسّ ساقيه في سراويل المنامة:

– أية قصة هذه، متى أرسلت أنا..

– أرى أن على الزوج والمرأة أن يكونا صريحين الواحد مع الآخر، وليسا بحاجة إلى «خذ وهات».

– تيودورو يا عزيزي، إعمل معروفاً وأوضح هذا بسرعة، فلست أفهم شيئاً...

اقترب إلى جانب السرير وهو يرتدي المنامة المخططة، ثم جلس عليه:

– إذا كنتِ تريدين تغيير المنزل، فلماذا لم تقولي لي شخصياً؟

– تغييرالمنزل؟ أنا؟ من قال لك؟

– حسناً، إنها أمكِ، الدونا روزيلدا. قالت لي إنكِ كنتِ تشكين، غير راضية بالمنزل، ومشمئزة...

نظرت الدونا فلور إلى زوجها الجالس على حافة السرير، وهو جد رصين، وبعض الحزن في عينيه، وقد زوّردها برغبة في الضحك: «يا له من رجل كبير ولا يعرف الخبث»:

– أمي؟ وأنت ظننت بأنني أرسلتها لتقول ذلك؟ إنك لا زلت جاهلاً أمي يا تيودورو. إن ما تبتغيه هي، أنا أعرفه... لماذا يتوجب عليّ أن أطلب منزلاً أكبر؟ إنها هي التي تريد، فمع حجرة إضافية تقيم عندنا إلى الأبد. لينجني الله ويحفظني.

– لكنْ ما دام الأمر هكذا يا عزيزتي، فمن أجل استضافة أمكِ، بوسعنا ربما...

أمسكت الدونا فلور نفسها عن الضحك ونظرت إلى زوجها محدقة إليه:

– علينا أن نستخدم الصراحة، كل منا إزاء الآخر، هكذا قلت يا تيودورو. قل لي، لكن قل لي الحقيقة، ولا تكذب، هل تحب أنت أن تعيش المرأة العجوز معنا إلى الأبد؟

لم يكن الدكتور تيودورو رجلاً يتقن الكذب، ولا يهين الآخرين، خصوصاً أم الدونا فلور:

– إنها أمكِ، حماتي، إذا شاءت هي ووافقتِ أنتِ.

– إذن، إعلم يا عزيزي، بأنني لا أريد ولست موافقة. إنها أمي، أحبها، إنما هنا، تعيش معنا، حتى ولا بكل مال العالم. فلا يوجد من يتحمّل هذه العجوز. وأنت يا تيودورو ما زلت تجهلها بشكل صحيح.

تناولت يد زوجها:

– في هذا المنزل يا عزيزي، أنا وأنت فقط، ولا أحد سوانا. فمن هنا لا نخرج إلّا إلى منزل يكون خاصتنا. وبالحري، الأفضل، حينما يكون بقدرتنا، هو شراء هذا المنزل ذاته...

تنفّس الصيدلي مخففاً عنه ما يحسّ به من ضيق. فمن أجل الدونا فلور سيكون قادراً على التضحية، وحتى احتمال الدونا روزيلدا ومكائدها. لكن لحسن الحظ، فقد اتضح كل شيء. إن الدونا فلور لن تتغيّر، المتواضعة في رغباتها، والمقتصدة في نفقاتها، الفطنة. وعندما وقفت الدونا روزيلدا على تطوّر رأي الدكتور تيودورو، تحولت القديسة العجوز إلى سم. وزوج الأخت، المدعو مورايس، لم يبق، بدون سبب، في الريو، غير مستعد للعودة إلى باهيّا إلا حين تغادر الحماة، لأن الأمل الوحيد المتبقي هو الموت. إذ في مسألة الدونا روزيلدا،في رأيه، لا يوجد أي تعديل.

الدكتور تيودورو، مع هذا، أقل تجربة وأكثر لطفاً، ذو تهذيب رائع، قال في رقة أخيرة:

– أمور المرأة العجوز... مسكينة... في عمرها...

داعبت الدونا فلور يد زوجها، الرجل كثير الطيبة:

– ليست مسألة عمر يا عزيزي... فهي هكذا دائماً... إنها أمي، ليس بوسعي الكلام عنها، فالابنة لا تستطيع... لكنها دائماً في مثل هذا الطبع، مذ كنت فتاة صغيرة... حتى ولا أبي تحمّلها وكان قديساً، فإذا دسّت نفسها ههنا يا تيودورو فإننا سننتهي إلى الخصام...

– نحن الاثنين؟ أبداً، يا عزيزتي، أبداً...

تطلّع إليها بحنان وهو متأثر تقريباً:

– لن نتخاصم أبداً... فلن يخبئ أحدنا شيئاً عن الآخر، مهما حدث. سنأخذ في الحسبان كل شيء، كل شيء...

قبّلها من شفتيها بشكل خفيف. فرددت الدونا فلور بهمس:

– كل شيء...

ابتسم الدكتور تيودورو وهو راضٍ كلياً، ونهض ثم مضى يطفئ الضوء. «كل شيء يا تيودورو؟ هل تعتقد أن هذا ممكن؟ حتى الأفكار الخفيّة أكثر من غيرها، حتى تلك التي يخفيها

الشخص عن نفسه ذاتها، يا تيودورو؟» رأت الدونا فلور صدر زوجها القوي تحت المنامة، عظمتيْ الكتفين العريضتين، قمة الرأس الصلبة، عضلات الذراعين، فعضّت على شفتيها، وحاولت إبعاد تفكيرها، إذ إن اليوم هو الاثنين ولم يكن يوم هذه الأمور. فالدكتور نظامي يواظب على هذا وفي كل نظام كامل. إنه جد طيّب وسخي، إنما جد مرهف ويقظ، ومتيّم جداً بها إلى درجة تحمّل الدونا روزيلدا... مثل هذه العبادة تكافأ باحترام نظاميته، وتوقيته الصلب، وقواعده، وأعرافه.

- «ليس كل شيء يا تيودورو، فأنت لا تعرف أي بئر معتمة هو قلب المرء».

4

اكتشفت الدونا فلور عوالم مجهولة لا تكتنفها الريبة، وتسللت إليها تحت ذراع زوجها، لتصبح شخصية لامعة، كما كتب عنها، بشكل عادل ولطيف، صديقنا المتطلّب سيلفينيو، في تقريره عن حفلة آل تافيراس بيريس، الذي لا بدَّ من الإشارة إليه. لم يسبق أن خطر في بالها أن ثمة عالماً مؤلفاً فقط من الصيادلة، محكم الإغلاق وساحر؛ بشؤونه الخاصة، ونظرته الخاصة إلى الحياة، ولغته الذاتية، وجوّه العابق بالنيترات وكلوريد الزئبق. عالم عاصمته وقمته الجمعية الباهيّانية للصيدلة، مع مقر خاص بها في طبقة بكاملها من مبنى، محدد مع عوالم أخرى مهمة تقريباً مثل الأطباء، طائفة قوية وقادرة، منتفعة من عمل الآخرين. فما الفائدة من وجود الأطباء - كان قادة علم الصيدلة يتساءلون - إذا لم يُوجد الصيادلة؟ لماذا إذا هذا الوضع المتأزم، هذا التبجح؟ ومثلهم المتكبرون، ممثلو المختبرات؛ لكن الباعة المتجولين كانوا لطفاء، بحقائبهم وأدويتهم والنكات الأخيرة. جميع هؤلاء الناس، من الجامعة ومن عالم التجارة، بألقابهم، وأموالهم، وادعاءاتهم، كانوا يسيطرون على حقل واسع من المعدين والباعة ، بمرتبات بائسة.

عندما كانت تمر أمام الصيدلية العلمية، أو تدخل إليها لتشتري أنبوباً من معجون الأسنان أو صابونة معطّرة، لم يسبق للدونا فلور أن لاحظت الرائحة القوية لذلك العالم من العقاقير. عالم كان يعمل فيه زوجها بجدّ، مدعوماً بشارة الدكتور (وأكثر من ذلك بالمعارف الناتجة من الممارسة الطويلة في المختبرات ومنصّات البيع)، وبقدرته على العمل وباستقامته، ساعياً إلى الحصول على مركز مالي وشهرة علمية معيّنة. مركز متواضع، اسم متواضع، إنما كافيان في الوقت ذاته ليفتحا

للدونا فلور أبواب ذلك العالم من اليود والسولفات، وليجعلاها مفيدة للبرامج الثقافية والمسلّية للجمعية الباهيّانية للصيدلة: الجمعيات العمومية في المركز الخاص، مع مطالعة ومداولة بالمقترحات والأعمال حول مواضيع علمية أو مهنية، ومآدب الغداء، في أوقات احتفالية – تسلّم الإدارة الجديدة، يوم الصيدلي – وحفلات يجتمع فيها المدراء والمشتركون (مع عائلاتهم) في «أخوية الطبقة» الصاخبة كما ردد المعصوم الدكتور فيريرا، في خطابه المنزّه عن الخطأ. من دون أن ننسى حفلة الرقص التي تُقام في نهاية السنة، في كانون الأول/ديسمبر، قبل عيد الميلاد.

واظبت الدونا فلور، بدون مغالاة، في الاجتماعات والحفلات. وأقامت علاقات مع زوجات زملاء زوجها، فزارت بعضهن وزارها البعض الآخر، كما تم تبادل الود هذا مع ثلاث أو أربع صديقات وتلميذة واحدة فقط: الدونا سيباستيانا، الزوجة والذراع القوية للدكتور سيلفيو فيريرا، الأمين العام للجمعية ومشجعها الإعلامي الرئيسي، وهي امرأة ضخمة الجسم مرحة، لها صوت كالرعد وضحكة معدية، والدونا ريتا، زوجة تانكريدو فينياس، صاحب صيدلية سانتا ريتا، التي شكلت مع زوجها زوجين هزيلين لطيفين، هو يدخن السيجارة إثر السيجارة، وهي بسعال خفيف من سلّ ما عولجت منه نهائياً، والدونا نيوزا، نيوزوكا الشقراء ذات العينين الفرحتين، امرأة ر. ماسيدو وشركائه. تأسست هذه الشركة من قبل موظفين في التجارة، شعرت الدونا نيوزا بانجذاب إليهم. فكانت تنظمهم مجموعات وتطلق عليهم أسماء الأدوية الأكثر حداثة حسب الموضة. ف– »إكسير الإنيامي» كان الخلاسي الغليظ ، و«بروميل» يشبه ولداً يافعاً جداً وهشاً، لا يزال أمردَ وبريئاً، جوهرة ثمينة من مجموعة نادرة. و»مستحلب سكوت» كان فلاحاً قادماً حديثاً من أراضي قشطلة، بخدّين كالتفاحة. أما«فريازا» فكانت صحة المرأة، وكانت ترافقها عندما تكون هي في طور النقاهة من إلتهاب الكبد. أما منظّم عملية الهضم «جيستيرا»، وصابون «كابوكلو» – فكان زنجياً صغيراً أزرق، آه يا سيدتي العذراء! «الطلق المضمون»، «الشافي العجيب». هذا الأخير مثّل خيانة من الدونا نيوزا لطبقة الباعة النشطة في الصيدلة، التي كانت حتى ذلك الحين أمينة لها: طالب في مدرسة إكليريكية ظريف، في عطلة في الجوار، كان له، بنظر نيوزوكا الشرهة مذاق مضاعف للخطيئة ضد قانون البشر وضد شريعة الله.

جاءت الدونا باولا، زوجة الدكتور آنجيلو كوستا صاحب صيدلية غواياس، لدراسة الطَّهي في مدرسة «المذاق والفن». كانت التلميذة الوحيدة المتحدّرة من الجسم الصيدلي. تلميذة أخرى، هي الدونا بيرينيسي، بدأت المرحلة الدراسية لكنها سرعان ما تنازلت، لأنها غير قادرة على التمييز بين الفيليه وشريحة من فخذ العجل.

مع الدونا جيرتوديس بيكر، زوجة الدكتور فريديريكو بيكر، مالك شبكة مستودعات الأدوية هامبورغ – أربعة في المدينة العليا وواحد في المدينة السفلى، وآخر في إيتاباجيبي – وممثل المختبرات الكبرى الأجنبية والرئيس الدائم تقريباً للجمعية، ملك المغنيزيا والأوروتروبين، لم تتبادل الدونا فلور الزيارات. فلم تكن الدونا جيرترويس تنزل عن عرشها إلّا مرّة واحدة في السنة، متنازلة لتلمس في حفلة كانون الأول/ديسمبر الراقصة، بأطراف أصابع يدها، تلك البورجوازية الصغيرة القلقة والجشعة التي كان لزوجها علاقات عمل معها. أما الدكتور فريديريكو، فإذا لم يكن يأتي إلى مآدب الغداء مع المياه الغازية والنبيذ من ريو غراندي، فإنه ما كان يتخلّف عن اجتماعات الجمعية، فيترأس اجتماعاتها وتكون له الكلمة الأخيرة.

كان ألمانياً قصير القامة، ذا عينين زرقاوين عذبتين ونبرة فظّة، وقد راجت أساطير حول ثروته ولقبه كصيدلي، الذي حصل عليه من المدرسة الألمانية البعيدة عندما كان صاحب ثلاث صيدليات. وكان يحبّ الأطفال، فيتوقف في الشارع ليعطيهم أقراص الحلوى التي كان يحملها دائماً في جيوبه.

بعد مرور شهرين تقريباً على زواجها، صعدت الدونا فلور للمرّة الأولى السلالم التي تؤدي إلى غرف الجمعية الباهيّانية للصيدلة، في الطبقة الثانية من مبنى على الطراز الكولونيالي في «تيريرو يسوع». وفي الطبقة السفلى أُقيم «مركز الإيمان الروحاني»، «أمل وإحسان» في منافسة ضارية مع الصيادلة، حيث إن وسطاء روحانيين وإخوان النجوم يقومون بشفاء جذري من جميع الأمراض على قاعدة وصفات ميتافيزيقية، مهملين العقاقير المنزلية، والأدوية المصنّعة والحقن.

وكانت الدونا فلور ستحظى بالفرصة الوحيدة التي تشهد فيها المداولة المؤثرة التي ستثار في تلك الليلة في اجتماع الجمعية الباهيّانية للصيدلة، حول عمل الدكتور دجالما نورونيا، خازن

النادي: «عن الحسنة المتزايدة لاختصاصات الأطباء وما ينتج عن ذلك من تراجع الوصفات المزورة، والعواقب غير المرئية الناجمة عنها».

لقد وجدت طبقة الصيادلة نفسها منقسمة إزاء تلك النزعة لدى أغلبية الأطباء، حيث إن بعضهم متحمسون للأدوية المصنّعة والمعبأة في مختبرات الجنوب، والبعض الآخر من أنصار العقاقير المركّبة التقليدية، المحضّرة مقاديرها بأناة في أعماق الصيدليات، والتراكيب المكتوبة والملصقة على الزجاجات والعلب، حيث يضمن الصيدلي الإنتاج بتوقيعه.

خلال الأسبوع ، لم يتكلم الدكتور تيودورو عن موضوع آخر، فهو نفسه أحد أبطال المدرسة التقليدية. «ما دور الصيدلي، عندما لم يعد هنك سوى مستحضرات طبية؟ لن يكون سوى بائع على منصّة البيع، مجرد بائع في صيدلية»، كان سيصرّح بذلك في الاجتماع بطريقة تثير الشفقة.

في الميدان المضاد، المدافع عن تصنيع الأدوية (وحتى عن تأميمها) انسجاماً مع الأزمنة المعاصرة والتقنية المتقدمة، تسنى للدونا فلور فرصة سماع الدكتور سينفال كوستاليما، الذي كانت اكتشافاته الخاصة بكليات الطب عن نبات الجوروبيبا قد منحته شهرة ذائعة الصيت، والكلمة السيّالة والحماسية لإيميليو دينيز الذائع الصيت.

– إنه ديموستين ! برادو فالاديس!

كان الحزب الذي انضم إلى صفوفه المناضلة، هو أيضاً غني بذوي المعرفة، وتكفي الإشارة إلى اسم الدكتور أنتيوجينيس دياس، المدير السابق للكلية، مؤلف الكتب، ابن الثماني والثمانين من عمره، والمحتفظ بشيء من النضارة ما يكفي حيث يؤكد:

– أدوية من صنع الآلة لا تدخل صيدليتي...

توقف عن الاهتمام بصيدليته منذ عشرين سنة، وما كان أبناؤه يشترون ويبيعون أدوية مصنّعة فقط، إنما كانوا أيضاً ممثلي المختبرات القوية في سان باولو، في باهيّا. كانوا يشيعون:

«إن العجوز رجل خرف».

ربما كان الجاحدون على حق، فالعجوز كان ذا عقل بسيط، يضحك من دون سبب. لكنَّ الدكتورين آرليندو بيسوو وميلو نوبري كانا لامعين وكفؤين بصفتهما عالمين من الدرجة الأولى! – والدكتور تيودورو نفسه، الذي لا يجب أن يكون اسمه موضع نسيان ظالم، لكونه البطل الشهير لهذه الوقائع التاريخية المتوضعة للعادات. خصوصاً عندما أسر هو بالذات إلى زوجته أنه يمتلك سيطرة كاملة على المادة المتداول فيها، مبرزاً مرةً أخرى أهمية الجمعية العمومية. كان بإمكان الدونا فلور أن تعتبر نفسها سعيدة لكون الفرصة قد أُتيحت لها لحضور المداولة التاريخية.

تاريخية وأكاديمية، مثلما قال الدكتور تيودورو نفسه للدونا فلور، فلا هو ولا أيّ كان من المدافعين الأشد حرارة عن عملية الوصفات الطبية المركّبة باليد سيترددون في الحصول لصيدلياتهم على ما تنتجه المختبرات. فما العمل أمام المنافسة، إذا أهملوا الاستفادة في منشآتهم من هذه الأدوية اللعينة الرائجة حسب الموضة؟ كان موقفه في المداولة إذن مبدئياً بحتاً، مجانياً ونظرياً، لا علاقة له بالمتطلبات الفعلية للتجارة، لأنه يا عزيزتي فلور، لا يمكن دائماً التوفيق بين النظرية والممارسة، فالحياة فيها تناقضات مستعصية.

لم تشأ الدونا فلور تعميق هذا التناقض بين النظرية والممارسة، موافقة منها على تأكيد الدكتور: «ولهذا السبب بالتأكيد لا يزال مركز المدافعين عن عملية الوصفات الطبية التقليدية جديراً بالثناء». وفي ما خصها هي، كانت مقلّة في الأدوية وفي عافية جيدة، ولا تذكر متى كانت مريضة (ما عدا الأرق أيام كانت أرملة).

كانت في الواقع ليلة تستحق الذكر، كما أعلن الدكتور تيودورو وكما أعلنت عنها الصحف. باختصار، شكا دكتورنا عند رؤيته خطبه الحاسمة وجميع خطب الآخرين قد اجتزئت وحُولت في جملة واحدة باهتة مع أسماء غير مكتملة: «تداخل في النقاش، من بين آخرين، الدكاترة كارفاليو، وكوستاليما، وأ. دينيز، ومادوريرا، ود. بيسووا، ونوبري، وتريغيروس». لقد ذكر فقط، خطاب الدكتور فريديريكو بيكر مع بعض الأهمية، ونال بعض الثناء على «وضوح بيانه، ومعارفه القيّمة، ومنطق تفكيره». لماذا كل هذا الازدراء للثقافة من قبل الصحافة ، لماذا كل هذا الاقتصاد

في المساحة – كانت ردة فعل الدكتور تيودورو – فيما كانت تعرض على صفحات بكاملها الجرائم الأشد فظاعة وفضائح لنجمات السينما، وطلاقهن العبثي كنموذج سيّئ لفتياتنا؟ مقابل ذلك، كتب محضراً واسعاً، مع تحليل رحب للمداولة، في المجلة البرازيلية للصيدلة في سان باولو (السنة الثانية عشرة، المجلد الرابع، صفحة 179 إلى 181) التي تموّلهاالمختبرات الكبرى، لم يكن يخفي موقف المجلة لمصلحة المنتجات المصنّعة، لكنه لم يتوانَ عن الاعتراف بالقيمة الحقة « للمداخلات اللامعة للدكتور مادوريرا، الخصم الذي لا يلين والعلّامة الذي نحييه». « لا يلين وعلامة « المجلة البرازيلية للصيدلة هي من أكدت هذا، وليس نحن، أصدقاءه، الذين نؤيد الدكتور بلا شروط.

لقد بذلت الدونا فلور جهداً كبيراً لتتابع ولتدرك المداولة المندفعة؛ والحق يقال إن هذا لم يكن ممكناً. وحباً بزوجها وبنفسها أيضاً، كانت تريد أن تركز اهتمامها على الخطباء، لكنها تجهل كيف تستخلص المخارج النظرية والتراكيب، فترنّ في أذنيها تلك الكلمات والجمل بلغة ميتة قاسية، ولم تستطع تركيز انتباهها على الخطب.

شردت بتفكيرها في مواد أقل فلسفة، متنقلة بين مشكلات المدرسة، مع القال والقِيل المسلّي جداً من قبل ماريا أنطونيا (حدا بها الأمر أن تبتسم في وسط المجادلات الصاخبة للدكتور سينفال كوستاليما، ذي نبتة الجوروبيبا) والقلق على ماريلدا التي هي في كل مرّة أكثر عناداً وقلّة صبر في تصميمها على عرض نفسها أمام مكبرات الصوت، نموذج – حسب الدكتور تيودورو – التأثير السيّئ لممثلات السينما على الشبيبة. لقد أصبحت وقحة وغير مطيعة، وأقامت علاقات مع شخص من الوسط الإذاعي. أوزفالدينيو ميندونسا، هو الشخص الذي لوّح لها ببرامج ومخبوءات. وكانت الدونا ماريا ده كارمو بدورها، تمارس مراقبة كلّية على أقل الخطوات والحركات من قبل التلميذة، فارضة عليها العقاب ومانعة إياها من الخروج من المنزل.

عندما تنبهت الدونا فلور إلى ذلك، لم تكن ماريلدا أمام مكبّر الصوت ، بل الدكتور تيودورو. حاولت تتبع مجادلته متفهمة النقاشات التي كان يربك فيها الخصوم، والوجه الحزين، والمحيّا الحذر، والحركات المهذبة حتى عندما تكون نارية. فقد كانت صورة رجل وقور، صورة

مواطن متكامل يقوم بواجبه – في هذه اللحظة – واجبه كصيدلي، مشرّفاً ديبلومه كدكتور (حتى ضد مصلحته كتاجر).

كان يقوم دائماً بواجبه، دائماً كان مواطناً متكاملاً. ليلة، بالكفاءة والرصانة نفسها، قام بواجبه كزوج تجاه زوجة في السرير. وإذ كانت متوترة، وفي ذروة حساسيتها (كانت ماريلدا وصلت وهي تعاني نوبة من البكاء والنحيب وتتكلم عن الانتحار: «إما الغناء في الإذاعة وإما الموت»، وهنا مكانها الذي تتعصّب له) عبّرت لزوجها، بشكل محتشم، وبدلع واستثارة، عن رغبتها في تكرار عملية الحب، الاختياري في تلك الليلة ، لأنه يوم الأربعاء. أحسّت بتردد خفيف لدى الدكتور، لكنْ، بما أنها قد قطعت صلاتها بالحشمة والخجل، وعبرت عن رغبتها، أصرت. ومن دون أن يتردد استجاب الدكتور لرغبتها قام للمرّة الثانية بواجبه بشكل ممتع.

فهمت الآن الدونا فلور، في غرفة المداولات، سبب عدم تصميم زوجها: كان يرغب تجنّب التعب، يريد إبقاء جسده وعقله براحة من أجل الجمعية في الليلة التالية. فبين واجباته المختلفة كان يوزع وقته وجهده.

لم يتعبه تكرار الليلة السابقة، فقد كان ثابتاً على المنبر يثابر بلغة لاتينية سيّئة (أم لعلها الفرنسية تلك اللغة؟): «لاناتاغلوكوزيداث مساوية لإيتانويكو غلوكوز ثم ديجيتو كسوس ثم ديغو كسيجينوليدا»، تركيبات ترن في السمع كقصائد بربرية.

وإذ راته مهيباً وحزيناً، بيونانيته ولاتينيته، وإصبعه إلى أعلى، والزملاء يستمعون إليه بانتباه واهتمام، أدركت الدونا فلور أهمية زوجها. إنه ليس أياً كان، قالت ذلك الدونا روزيلدا والجيران عن حق. يجب أن تفتخر به، وتشكر العناية الإلهية التي بعثت إليها زوجاً طيّباً جداً، إنه هبة من السماء. لقد حققت أكثر مما كانت ترجو في الوقت المناسب، عندما أصبحت حالتها كأرملة، لا تحتمل ، وهي على أهبة تسليم نفسها لأي رجل وقح، وتشجيعه على فتح أبواب منزلها وفخذيها لأول مغامر باهت اللون متوسل، مثل الأمير إدواردو المختص بالأرامل. ولقد حمانا الله، إذ أنقذنا!

لو لم يظهر الصيدلي على منصة البيع في الصيدلية العلمية في يوم المهرجان الكرنفالي للطلبة الجامعيين الجدد، لكانت هي، الدونا فلور، بدلاً من أن تكون هناك، محاطة بالتقدير، في تلك الغرفة حيث يناقش دكاترة بارزون مواضيع في المعرفة، امراة متنقلة من يد إلى يد في شقق العازبين، في تهتك وشذوذ، فاقدة لشرفها ولصديقاتها ولتلميذاتها، ومنتهية من يدري أين... إنها ترتعد رعباً من ذلك التفكير. كفّاها في نهاية خطاب الدكتور تيودورو لم تصفّقا حماساً وحسب إنما امتناناً. فقد أنقذها هو، إنه رجل محترم. يجب أن تعتز به كزوج لها.

من الطاولة التي عاد إليها، حيث يجلس الرئيس وأمناء السرّ ، كان الدكتور تيودورو يبحث بعينيه عن زوجته فتلقى التشجيع بابتسامة، مكافأة أكبر لجهده وبريقه. واستمرت المناقشة؛ كان الدكتور نوبري يشغل المنبر ، برأسه ذي الدماغ الكبير من دون شك، لكنّ بصوت هامس وغير منتم إلى جنس، في نغمة ضعيفة، كدعوة لا تقاوَم للنعاس.

أرادت الدونا فلور التفاعل، لكنَّ جفونها كانت تتثاقل في كل مرّة أكثر من ذي قبل. كان أملها الأخير هو الدكتور دينيز، الخطيب المشهور، الأستاذ الملحوظ، مؤلف «غالينيكا ديجيتاليس – كومونيا وستابيليستا»، كرسالة تعتبر حاسمة. لكن لا هو ولا الآخرون الذين شاركوا في المداولة استطاعوا تجنّب نعاس الدونا فلور فالدونا سيباستيانا كانت غارقة في نوم عميق؛ صدرها العظيم يعلو ويهبط والهواء يندفع من فمها بصفير. والدونا ريتا صاحبة العينين الضيقتين ، كانت من آن لآخر تحرّك جفناً فتستيقظ بوجل. والدونا باولا تقاوم أحياناً، ثم تستسلم، ورأسها يستريح على كتف زوجها. وحدها الدونا نيوزا، بعينيها العميقتين اللتين تحيط بهما بقع صفراء، نضرة ومرتاحة كانت لا تشعر بحرارة ولا برتابة التراكيب والمفاهيم، كما لو أن كل ذلك العلم كان مألوفاً لديها. فعيناها ترافقان الفتى الموظف في الجمعية في ذهابه وإيابه، يعبئ بالماء كأساً موضوعة على المنبر، من أجل الخطباء. وقد اختارت له لقب: 914، وهو حقنة مشهورة جداً ضد السفلس.

مالت الدونا فلور برأسها، وقد تركز النعاس في قمتها، وبدا لها أنها تصغي من بعيد إلى صوت زوجها. وثمة جهد يجلب الصوت إليها، فالدكتور تيودورو يخطب للمرّة الثانية. إنني لا أفهم شيئاً من هذا يا عزيزي، تراكيب الكيمياء وعلم النبات، إنها نقاشات مكثّفة. سامحني إذا لم

أستطع مقاومة النعاس، فأنا مجرّد ربة بيت، جاهلة، ولم أُخلق لهذه القمم. أيقظها التصفيق، وضرب الأكف، فابتسمت لزوجها وأرسلت إليه قبلة بطرف أصابعها. لم تدم الجلسة طويلاً، والنساء المتحررات اجتمعن في جمع مبتسم للتوديع.

– كان الدكتور تيودورو رائعاً... علّقت الدونا سيباستيانا (معروف أنها غفت طوال الوقت).

– الدكتور إيميليو، يا له من أعجوبة! كررت الدونا باولا جملاً سمعتها في اجتماعات سابقة؛ الدكتور تيودورو رجل عالم.

وإذ هبطت السلّم متأبطة ذراع زوجها، قالت له الدونا فلور:

– جميع الناس امتدحوك، يا تيودورو. طمروك بالإطراء. الجميع أحبوك وقالوا إنك كنت على ما يرام...

– إنها طيبة من الزملاء... لكنّ ربما قلت شيئاً ما غير مجدٍ... وأنتِ، ماذا ترين؟ قال وهو يبتسم بتواضع.

ضغطت الدونا فلور على يد زوجها الطيّب، الكبيرة المشرّفة:

– رائع. لم أفهم كثيراً، لكنني أُعجبت. ولقد استبدت بي الخيلاء حينما كانوا يثنون عليك...

وكادت تقول له: «إنني أستحقك يا تيودورو»، لكن ربما هو، مع كل يونانيته ولاتينيته، لم يكن ليفهمها.

5

إذا كان عالم الصيادلة اكتشافاً غير منتظر، فما بالك بعالم الموسيقى السرّي لأوركسترا الهواة، الذي تسللت إليه الدونا فلور من باب البوق الضيّق.

أولئك السادة الوقورون والمحترمون، وجميعهم مستقرّون في الحياة، مع ألقاب جامعية أو أصحاب محلّات، وشركات ومكاتب – جميعهم، ما عدا أوربانو الملقب بالمسكين المتسامح، عازف الكمان، وهو بائع بسيط في متجر بيروت – أنشأوا نوعاً من جماعة مغلقة، بخصائص طائفة دينية. « ديانة الموسيقى السامية، تصوّف الأنغام، بآلهتهم، ومعابدهم ومؤمنيهم ونبيّهم، والمؤلف الملهم والمايسترو آجينور غوميس»، حسب التحقيق الصحفي الذي أعدّه فلافيو كوستا، الصحافي الشاب، الذي كان يتدرب مجاناً على صفحات «أو جيستا مودرنو» التي يملكها الكريم ناصيف (لم يكن يأخذ مقابلاً من الصحفي الناشئ على تعليمه). وقد احتل التحقيق حول الهواة، الصفحة الأخيرة من «أولوجيستا» بأكملها، مع كليشيه في الوسط على ثلاثة أعمدة للأوركسترا بكاملها وفي بذلات توحي بالرصانة، في حدائق قصر الكوميندادور أدريانو بيريس، الذي استقبل على الفور، في اليوم التالي لصدور الجريدة الدورية، الزيارة اللطيفة لمديرها الذي جاء ليكلّمه على المصاعب التي لا تُحصى لجريدة رصينة كجريدته. فمن المحال الاستمرار، إذا لم يكن بالوسع الاعتماد على تفهّم الرجال الذين هم مثل صاحب اللقب الممنوح من الفاتيكان، صاحب القلب والحقيبة اللذين يشفقان على هذه المآسي التي تعانيها الصحافة.

كان يعرض الصحيفة مع التقرير («ولد ذكي هذا المحرر، موهوب، لكنَّ صبياً مثله، أيها الكوميندادور، في هذه الأيام، يتقاضى ثروة في الشهر»)، ففك المليونير حقيبته، متحنناً لرؤية نفسه قرب الفيلولونسيل وسط إخوانه من الطائفة. طائفة لها التزاماتها وعاداتها، طقسها الصارم وحفلات فرح أسبوعية: التمارين في أمسيات يوم السبت.

وإذ خرجت من جو القدور والملاط والمقرصة والمناخل وأصص البورسلان الملأى بالأوكسيد والسموم والزئبق واليود، كانت الدونا فلور تتطور الآن بين الزغاريد وأنغام النقر بالأصابع والبافانا والغافوتا والعزف المنفرد والرقيق جداً، وتتابع عن كثب الفيولونسيل والمزمار والكمان والبوق الصغير والناي والجوقة الموسيقية وبوق زوجها، كل هذه الآلات المطيعة لقيادة بيانو المايسترو آجينور فوميس، اللطف بذاته. غادرت الدونا سيباستيانا والدونا باولا، والدونا ريتا، والنهمة نيوزوكا، من أجل مخالطة السيدات الأكثر أناقة في النخبة، زوجات أولئك اللوردات. وعنهم اعتاد المصرفي

سيليستينو القول، حينما يضطر إلى الإصغاء إليهم في كونسرتو («آه! حياة مصرفي... هناك من يفترض أنه يتمتع باللذائذ، من دون التفكير بالإزعاجات والصفعات...»).

– كل نشاز من أحد هؤلاء المهووسين يساوي ملايين...

كان أولئك السادة العظام يتحوَّلون، في أمسيات أيام السبت، إلى أطفال مرحين لا يقلقهم شيء، طليقين من الالتزامات والإلزامات والزبائن والأشغال، ومن المال الذي يكسبونه بسرعة وشهيّة؛ فيضعون جانباً المسافات الاجتماعية، ويتآخى بائع الجملة مع مهندس في البلدية ذي مرتب هزيل، والجرّاح الشهير مع الصيدلي المتواضع، والقاضي شديد الوقار أو صاحب «المتاجر الشمالية» – ثمانية مخازن في المدينة – مع البائع الأجير في متجر صغير.

وكانت أيضاً، السيدات الملحوظات جداً والأنيقات يفتحن حميمية منازلهن لزوجات الموسيقيين الآخرين بمعزل عن ثروتهن وأصلهن الاجتماعي، مستقبلات الجميع بالود نفسه، بمن فيهن السيا ماريكوتا (لماذا سيا وليس دونا؟ لأنها هي نفسها قالت: «أنا لست سوى السيا ماريكوتا وهذا جيد»).

زد على ذلك، إن السيا ماريكوتا ما كانت تاتي قطّ، إذ لم يكن لديها ملابس ولا أحاديث على قياس أولئك «النبيلات الخائبات»، كما كانت توضح لجيرانها في زاوية أحد الشوارع، في تخوم لابينيا مع ليبردادي:

– ما الذي أفعله هناك؟ لا يتكلمن إلا على الأعياد والاستقبالات ومآدب الغداء والعشاء وشراهة تسبب مرض القلب. فعندما أفكر في الأولاد هنا في المنزل وهم لا يستطيعون إملاء بطونهم بشكل سليم... وعندما لا يتكلمن على الطعام والشراب، إنما بأحاديث غير محتشمة: امرأة فلان متورّطة مع فلان، وفلانة ضُبطت في إحدى الشقق المشتبه فيها، وإن أخرى خالعة العذار. وبطريقة ما فإن هؤلاء السيدات لا يحسنّ سوى الأكل وتحريك اردافهن على السرير. أمر لا يصدق.

في ثورتها، لم تكن الدونا ماريكوتا («أنا لست دونا، نادوني السيا ماريكوتا مثل أية امرأة خادمة في منزل») السيا ماريكوتا لا تجامل في كلامها، فهي قاسية وجارحة:

– كلهن غارقات في الترف وفي الحرير وفي الملابس الأنيقة... ليبقين هناك مع زيفهن، سأواصل العيش من دونهن... أوربانو يذهب إلى هناك، لأنه لا يستطيع العيش دون مثل هذا التمرين... لو كان الأمر يعود إليّ لما ذهبت إلى منزل أي ثري، ولعزف هنا بالذات، في دكان السيد بييه، مع مانيه سابو والسيد بيبي إي كوسبي (كانت تفتح ذراعيها معبرة عن العجز) لكنْ ما بوسعي فعله؟... فهو حقاً رجل فقير...

ولكثرة ما رددت اللقب بتهكم، فإن السيد أوربانو أصبح معروفاً كرجل ضفدع، ومنها جاءت الشهرة الوضيعة. أما مانيه سابو، فكان معلماً في العزف على المزمار ، والسيد بيبي إي كوسبي (اشرب وابصق) هو صاحب سانفونية قديمة كان يملك الأكورديون. والاثنان كانا في أيام الآحاد يعزفان ألحان الأغاني الشعبية ويشربان العرق في دكان السيد بييه، نقطة التقاء المجتمع الأكثر أناقة لتلك الأزقة. وكان السيد أوربانو أيضاً يظهر غالباً ويحوز على التصفيق هناك بكمانه، مع أنّ ذلك الجمهور يعطي الأفضلية لأكورديون مانيه سابو و لسانفونية بيبي إي كوسبي. ولا تفهم السيا ماريكوتا شيئاً في الموسيقى، فكانت تدمدم لكونها كوت بذلة زوجها الزرقاء، الوحيدة والعتيقة (السروال ملمّع عند الوركين):

– إذا كانوا لا يستطيعون التمرين من دونه، فأقلّه يجب أن يدفعوا بدل النشاء... هذه الأوركسترا لا تقدّم إلا الإنفاق، ولا أرى الرجل الفقير يكسب شيئاً منها...

كان يكسب سلام الروح، وماريكوتا الممتعضة تحلّق في الموسيقى مع رائحة الثوم ونتوءات بشرتها وصخبها في الكلام. التمرين، أيام السبت، مكرراً الموسيقى ذاتها بصورة دائمة، بادئاً درس لحن جديد آخر من أجل المجموعة المختارة،.كان أوربانو بوبري أومين يرتاح من بؤس الحياة، ومثله جميع السادة الآخرين في الأوركسترا، الأقوياء، والرجال الأثرياء. كان البعض يحتفظ بالوقار في سلوكه، وآخرون يتجرّدون من جميع هذا الوقار الزائف مع تركيزهم وهم بلا سترات على التمرين، وتناول الآلات الموسيقية، وكلهم يبدون فرحاً داخلياً وإلهاماً صافياً يزيل من تفكيرهم الشقاء اليومي والمسكنة.

كان الدكتور فينسزلاو فيغا، الجرّاح الجليل، يبتسم برضا من الحياة والإنسانية، بعد النغمات الأولى وكأس الجعة الأولى. فكل تعب الأسبوع في غرفة العمليات، وهو يشق صدوراً وبطوناً، يلبي طلبات المرضى، وهو منحن فوق الموت، في صراع في كل لحظة، قاس وعبثي، يزول مع النغمات الأولى، ما إن يهتزّ قوس الكمان. والدكتور بينيو بيدريرا يقطع وحدته، وهو عازب يبغض البشر، ويعثر في مزماره مجدداً على ذكرى حب في عهد المراهقة، بعينين مائلتين إلى اللون الأزرق، ومتصنعتين. أدريانو بيرس، الحصان الأبيض، المليونير، تاجر الجملة الكبير، الشريك في عدة مصارف، والمدير في شركات وصناعات، والكوميندادور من قبل البابا، كان يقف متواضعاً إلى جانب الفيولونسيل القادر، مزيلاً هناك آثار أسبوع من الطموح الضاري والمضاربات والعمل مع الزبائن والمساهمين والموظفين – جميعهم لصوص! – في لهفة إلى الكسب في كل مرّة أكثر، وخوفاً من أن يخدع، وحزناً على الوقت القصير أمام هذا التعطش إلى المال والسلطة، وأيضاً التعايش الإلزامي مع الدونا إيماكولادا تافيرا. لم يكن متواضعاً فقط، بل سخياً وإنسانياً أيضاً، مبتسماً للبائع الفقير جداً إلى جانبه، متحرراً من الفاضلة جداً الدونا إيماكولادا، والآخر متحرر من السيا ماريكوتا.

وكما السيا ماريكوتا، كانت الكوميندادورة نادراً ما تأتي إلى التمارين. ليس لنقص في الفساتين والمحادثة، هذا واضح، بل لنقص في الوقت. فسعادتها ملتزمة بألف عمل إلزامي، إذ إنها الأولى في الأهمية بين سيدات المجتمع الراقي، وأيضاً لأنها كانت ترى تلك التمارين بلا نكهة، وإزعاجاً لا ينتهي، وتكراراً أزلياً للأنغام؛ الموسيقى نفسها خلال أشهر، شيء لا يُحتمل!

هكذا أفضل، من دون حضورها، من دون الرؤية المحزنة لهذا الوجه المقرف المغطى بالكريم، وللصدر المغطى بالجواهر وللبشرة المترهلة. هكذا كان أكثر سهولة على السيد آدريانو كي يطفئها من عينيه ومن ذاكرته؛ هي والابنتين والصهرين. الابنتان، كارثة؟ مسكينتان تعستان تقتصر حياتهما على الفساتين وحفلات الرقص. أما الصهران ، فعبارة عن اثنين من الجيغولو، كل منهما بلا فائدة وسافل، واحد في الريو يبذّر المال، والآخر يبعثر في باهيّا مال السيد آدريانو، من عرقه ودمه وحياته. كان تاجر الجملة مرتاحاً من كل هذا: من ملايينه المتراكمة، من منافسيه في التصفيات التجارية القانونية والتفليسات، من الفراغ، والأنانية، والحزن، ومن عائلته. هنا، إلى جانب

الفيلونسيل، كان يرتاح، إلى جانب السيد أوربانو. الاثنان متساويان كما كانتا متساويتين، في الحقيقة، السيدة السامية الدونا إيماكولادا والمستفزة السيا ماريكوتا، وكلاهما فظّتان وقبيحتان.

كان أولئك السادة المحترمون يجتمعون في كل يوم سبت، مستسلمين للموسيقى والجعة، فرحين ومقهقهين. وكل سبت، في منزل مختلف، حيث تقدم ربّة المنزل وجبة العصر السخية، ومائدة غنية في منتصف فترة ما بعد الظهر. وبشكل عام، كانت زوجتان تأتيان أو ثلاث، وبعض الأصدقا والكثير من المعجبين الآخرين إذ «يجب إرضاء جميع الأذواق» (كما همس السيد زيه سامبايو، بعد عودته من أحد أيام السبت هذه والتي جاء إليها ليلبي الالتماس الموسيقي من الصيدلي). كانت الدونا فلور مثابرة في الأوقات الأولى، وقد استُقبلت بحفاوة لطيفة. وهناك سطعت كامرأة وديعة وبشوشة.

في العالم النخبوي للموسيقى الطريفة – وهنا يأتي التوصيف لمن يستحقه، لأن الدونا جيزا لم تكن موافقة، كما سيُرى لاحقاً –، في هذا الوسط المشبع بالمشاعر الرائعة، حيث لا مكان لعدم المساواة في المال والأصل الاجتماعي، وحيث تختفي الفروق الطبقية وفروق الثروة لتشكل طائفة عليا من أبناء أورفيو، إخواناً في الفن. وفي حميمية أخوية، كان الجميع، بمن فيهم بوبري أومين الفقير الذي كان هناك «الكمان العبقري»، ينادون بعضهم بالأسماء الأولى أو الألقاب: لالاو، الغيتار الصغير، أزرينيامري وراوول داس مينيناس (راوول ذو البنات)، الحصان الأبيض، والشيء ذاته تقريباً بين السيدات. كن يلقبن أنفسهن إيلينينيا، جيلدوكا، سوسوكا، توكينيا، ويدعين الدونا فلور بـ– «قديستي»، السمراء الجميلة، الرائعة الجمال، ويطلبن منها مشورات في فن الطَّهي. ولم يكن ذنبهن، إذا كانت الدونا فلور لم تتدخل أحياناً في النقاش بسبب عدم توافر موضوع لذلك أو لأنها تجهل بعض الموضوعات السارّة والمستديمة في ذلك الوسط. وفي النهاية، فهي لم تكن تلعب البريدج، ولم تكن عضواً في الأندية ولم يكن حضورها إجبارياً في الجمعية. في فجوات الصمت هذه كانت الدونا فلور تفتش عن زوجها بعينيها وهو ينفخ في مزماره، سحنتها مطمئنة وسعيدة. فتبتسم آنئذٍ، قليلة الاهتمام بمحادثة السيدات، غير آبهة لعزلتها.

عندما أخبرها الدكتور تيودورو أنه تم اختيار منزله للتمرين اللاحق، اعتبرت الدونا فلور هذا الأمر مسألة شخصية؛ فهي لن تبقى مدينة لأحد. وعندما لاحظ زوجها حماستها، كانت قد دعت الله والجميع، مستعدة لإنفاق حتى مدخراتها الشخصية على الطعام والشراب. كان من الصعب ضبطها. أرادت أن تظهر لأولئك الثريات أن الآخرين أيضاً يحسنون الاستقبال.

حاول الدكتور تيودورو اختزال الحفلة: تقدّم بعض الحلوى والأطعمة المالحة، علاوة على الجعة الإلزامية. وإذا شاءت أن تكون لطيفة وتفرح المايسترو، تعدّ طبقاً لذيذاً من المونغونزا، وهو طبق مفضّل بشكل خاص عند السيد آجينور:

– على كل حال، هو يستحق... لديه مفاجأة لكِ... يا لها من مفاجأة!

ومع هذا، وبالرغم من تلميح زوجها، فإن الدونا فلور قدّمت طعاماً فاخراً وقد امتلأ المنزل بالمدعوين. كانت المائدة رائعة: آكاراجيه وآبارا، موكيكا ده آراتو في أوراق الموز، وحلوى جوز الهند وآكاسا وبيه ده موليكي وأقراص مقلّية من السمك المقدد وفطائر من الجبن وكمٌ من الأطعمة الاخرى وأطباق كثيرة ومختلفة، إضافة إلى قدر كبير من المونغونزا محضرة من الذرة البيضاء. يا له من مشهد! واستقدمت من بار مينديز صناديق الجعة والكازوز بالليمون والفريز والغوارانا.

كان التمرين مؤثراً للغاية ، ومع أنه لم يحضر إلا اثنتان من بين زوجات الهواة، هما الدونا إيلينا والدونا جيلدا، فإن المنزل قد غصَّ بالناس، وكان الجيران في إثارة، والتلميذات متوترات والإشبينات في هذيان (كادت الدونا دينورا تموت بعد ذلك من عسر الهضم).

رُكزت الأوركسترا في غرفة الدروس، حيث جلس، إضافة إلى الموسيقيين، بعض الأشخاص البارزين: دوم كليمينتي، الّونا جيزا، الدونا نورما، والأرجنتينيان (الدونا نانسي ارتدت ملابس الاحتفال، في أناقة يحلو لك أن تراها)، الدكتور إيفيس المختلج كثيراً، كما هو دائماً يتظاهر بأنه يفهم في كل شيء، معلناً قواعد حول الموسيقى ومشيراً إلى أوبرات وكاروزو. «حقاً، إنه صاحب صوت جميل!».

حدثت لحظة من الترقب، عندما أعلن المايسترو آجينور غوميس والعصا في قبضة يده، أن لديه شيئاً يكشفه، مفاجأة المنزل، تقدمة. في فترة ما بعد الظهر تلك، وللمرّة الأولى، سوف يتمرّنون على قطعة من تأليفه، وهي معزوفة بصوت واحد غير مطبوعة وحديثة، ألفها بشكل خاص «احتفاءً بالدونا فلوريبيديس بايفا مادوريرا، الزوجة المعبودة لأخينا في أورفيو، الدكتور تيودورو مادوريرا». اعترت الحضور جميعاً قشعريرة، وساد بشكل كامل، الصمت الذي كان حتى ذلك الوقت غير محترم، تقطعه الضحكات والأحاديثً.

ابتسم المايسترو الطيّب؛ بالنسبة إليه، كان أولئك الموسيقيون الهواة مثل امتداد لعائلته، ومع الأنغام الراقصة للبافانا والغافوتا، والفالس، والمقطوعات ذات الصوت الواحد، كان يحتفل بمباهج حياتهم، وبأوقات الفرح الأكبر والأحزان العميقة. فإذا مات أبٌ أو أمٌ لأحدهم، او وُلد لهم ، وإذا اتخذ أحدهم زوجة له، مثلما حدث مع الصيدلي، كان المايسترو يطلق العنان لوحيه ويؤلّف صفحة موسيقية تضامنية على نية هذا الصديق سواء أكان سعيداً أم تعيساً.

– «الهمسات الناعمة لفلوريبيدس»، أعلن المايسترو، مع الدكتور تيودورو في عزف منفرد على البوق.

بالتأكيد إن هذا لشيء رائع. لكنّ التمرين هو تمرين، ليس كونشرتو حتى ولا عرضاً. وإذا كان الأمر في كل وصلة، تعتبر فيها الأوركسترا مدوزنة الأوتار جيداً، فإن المايسترو كان يقاطع الواحد والآخر، في ذلك العمل الموسيقي غير المطبوع، وكانوا يمضون خطوة خطوة أو بشكل أفضل، نوطة نوطة، وخصوصاً الدكتور تيودورو العازف المنفرد على بوقه. ولم يكن سهلاً مرافقة الألحان، والإحساس بمتعتها، وبجمالها الناعم، كما هي المحتفى بها، الوديعة والرقيقة.

ومع هذا، فقد تأثرت الدونا فلور بتصرّف المايسترو وعاطفة الصيدلي، الذي كان يرتجف تقريباً في السعي إلى السلّم الموسيقي الكامل الذي يحيي فيه الزوجة. أمامه منصّة النوطات الموسيقية وهو في توتر أعصابه، صارم تقريباً، ينضح جبينه عرقاً، ويداه باردتان، لكنه على استعداد للتعبير في الأنغام الحزينة من البوق، عن فرحه كرجل منتصر في حياة مليئة ومكتفية: بماله وصيدليته ومعرفته وفصاحته وسلامه ونظامه وموسيقاه وبزوجته الجميلة والشريفة والاحترام

العام. كان يسعى إلى ذلك النغم ويجب أن يبلغه. أخفضت الدونا فلور رأسها، وأحسّت، مع كل هذا التشريف، بأنها مضطربة ومرتبكة.

لحسن الحظ، جاءت فترة الراحة، فتسلّى المايسترو بالأكل وتكرار المونغونزا، وأكل الآخرون حتى التخمة من تلك اللذائذ، مبللين بالجعة، والكازوز والغوارانا، وكل شيء بشكل كامل.

6

رُندة من الألحان

اندمجت الدونا فلور، دمثة وأنيسة، في عالمَيْ الصيدلة وموسيقى الهواة، والملابس الأنيقة الجديدة، عازمة على ألّا تشعر بالانزعاج في الأوساط التي أدخلها إليها وضعها الجديد. فعندما كانت شابة، قبل زواجها الأول، كانت مدعوة فقيرة في منازل ثرية، في قصور أناس مهمين، كانت دائماً الفتاة الأكثر أناقة، ذات ذوق رفيع، ووحدها شقيقتها روزاليا كانت تقارن بها، ولا واحدة أخرى، مهما كانت أكثر منها ثراءً ومجوناً.

بيئات أخرى، شؤون أخرى وأحاديث أخرى، علاقات أخرى. ضرورات وارتباطات ومن وقت إلى آخر التزام بحفلة شاي أو بزيارة أو بتمرين. وفي طريقها إلى مسكن مدير في جمعية الصيدلة أو أحد أعضاء أوركسترا الهواة كانت الدونا فلور تمر وسط هتافات الجيران، فخورة في أناقتها وحسن ذوقها، بلطف وخيلاء ممتعين. زاد وزنها قليلاً، ومع بلوغها الثلاثين من العمر، أصبحت ظريفة وأنيقة، قطعة سمراء من هؤلاء اللواتي يثرن الشهية.

– شابة جميلة... كان يدمدم السيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى، من بين أسنانه. لقد ازداد اللحم ، وتكورت العجيزة... قطعة ملوكية... الدكتور شراب هذا، رجل محظوظ...

– يعاملها كملكة، يعطيها كل شيء، يغذيها كالنبلاء، قالت الدونا دينورا التي سبق لها ورأت الدكتور تيودورو في كرة البلّور ولا تزال معجبة به. إنه صورة الرجل...

ولاحظت جارة وصلت حديثاً، هي الدونا ماغنوليا، الدائمة الوقوف أمام النافذة، والخبيرة في الحسابات حيال فعاليات المارة:

– سمعت أن كل شيء فيه كبير، قائمة طاولة حقيقية...

– من قال لها ذلك؟ لا أحد؛ نظرة واحدة وهذا يكفي، تصبح عليمة بالمقارنات، نتيجة الممارسة المتواصلة والفعّالة.

– إذ إن الاثنين تعادلا في الشخصية والطيبة – كان هو صوت الدونا آميليا – هل رأى أحد زواجاً أفضل منه؟ الواحد مخلوق للآخر وأخذا وقتاً طويلاً ليلتقيا...

– كان يجب أن تعاني هي أهوالاً مع الأول، عديم الحياء، والعابث...

– هكذا تستطيع إعطاء قيمة أكثر للذي عندها الآن... بوسعها أن تقارن...

لم تشأ الدونا فلور أن تقيس ولا أن تقارن مهما كان الأمر، إنها تريد فقط أن تعيش حياتها. أخيراً حياة الوقار والاطمئنان، في مسرّة التعامل الراقي. لماذا لا يتركنها في سلام؟ في السابق، كنَّ يأتين ليبدين شفقة عليها، في وقاحات التحسّر، ويبدين إشفاقاً على حظها. والآن يكلن لها المديح على نجاحها، على قرارها المدهش في ذلك الزواج، على سعادة الأزواج المثاليين.

كان الشارع يتتبع عن كثب خطوات الدونا فلور؛ فساتينها وعلاقاتها مع النخبة والتدبير الجديد لحياتها، مع زيارات ونزهات وسينما، والاقتراع المقبل لجميعة لصيدلة. لكنه، لوحظ اهتمام الجيرة بالموسيقى، وهو موضوع برز، في الوقت نفسه تقريباً، مع حفلات التمرين الرائع لأوركسترا الهواة، ومن قبل ماريلدا، طالبة علم التربية.

في البدء، اقتصرت المناقشة على مفاهيم أكاديمية ومدعية، في إلحاح أخّاذ وفظّ، نزاع بين الدكتور إيفيس المعجب بالأوبرا، والملحاحة الدونا جيزا، وهما ذروتان في الحي. وقد ساهمت في إنعاشها، الدونا روزيلدا الوقحة والوفظّة، في إحدى زياراتها القصيرة . لكن الذي أعطى المداولة نفحة دراماتيكية وعاطفية هي الشابة ماريلدا، باستبدالها المخطط الثقافي البحت

بواقعية الصدمة بين الأجيال، بين الوالدين والأبناء، بين القديم والجديد (كما يقول فيلسوف من الجيل الأكثر شباباً).

وبينما كانت الدونا جيزا، ترفض بعد تمرين أوركسترا الهواة، تصنيف «الموسيقى ذات المعرفة» (شاكرة جداً لمفاهيم الدونا روزيلدا القديمة) الذي أطلقه الدكتور إيفيس مستشهداً بالفالس، وبالمارشات العسكرية والأغاني المنفردة الصوت، أثناء لقاء سرّي مع الشابة ماريلدا التي كانت تتآمر ضد سلام العائلة وهدوء الشارع، مع المدعو أوزفالدينيو ومع سيد يدعى ماريو آوغوستو، مدير راديو آمارالينا المدشن حديثاً، بحثاً عن مواهب ذات تكاليف متدنية.

بالنسبة إلى الدونا جيزا، فإن الموسيقى ذات المعرفة هي فقط الموسيقى العظيمة الخالدة لبيتهوفن وباخ وابراهمز وشوبان وبعض المؤلّفين الموسيقيين النادرين والمرموقين. سيمفونيات أينما وردت وسوناتات، موسيقى يجب الاستماع إليها في صمت واحتفاء، من أجل الأوركسترات الكبرى، ومدراء الجوقات المشهورين، ومترجمي الطبقة العالمية. من أجل متذوّقين قادرين على الإصغاء والفهم. فهي إذ تربّت على عبادة هذه الموسيقى وصفائيتها المتعصبة، وتمسّكها المغالي بالشكليات، كانت تصنّف كل ما عداها، قذارة «لمن لا يمتلك ثقافة موسيقية». ليكن واضحاً: في ذلك التحديد العنيف – « قذارة» – لم تكن الدونا جيزا تقصد الموسيقى التي يُقال عنها شعبية، المعبّرة عن الشعب، المتوهّجة والصافية. وهي تكنّ احتراماً وتقديراً للسامبا والأهازيج، للموسيقى «الروحانية» وللكوكو والرومبا، التي كان من السهل الاستماع إليها حتى ولو كانت رديئة العزف، بحركتها المريعة وكلمات السامبا الأخيرة ذات الأهزوجة. أما الذي لم تكن تحتمله، فهو حماقة هذه الموسيقى عديمة القوة والشخصية، المعدّة في رأيها، من أجل الذوق الرديء لدى الطبقة الوسطى، غير القادرة على تحسس الجمال والتأثر مع الأساطين العظام. كانت الدونا جيزا تنفعل عند سماعها تلك التسجيلات على ضوء خافت في منازل الأصدقاء الألمان، في تلك السهرات الليلية المفعمة بالكثير من الذوق الروحي.

كان الدكتور إيفيس يعترض على ذلك: هذا ادعاء فارغ ! غرينغا معتدّة بنفسها! والأوبرات – قولي لي، بروفسور دونا جيزا–، ريغوليتو، حلّاق إشبيلية، المهرّج، الغواراني للخالد كارلوس

غوميس – اسمعي يا دونا جيزا، الموسيقي البرازيلي، المولود في كامبيناس والذي يحمل اسم الوطن الحبيب إلى مسارح العالم الخارجي وسط التصفيق؟ كيف تصنفين هذه الروائع، بقطعها ذات الصوت الواحد، وثنائياتها ومنشديها متوسطي الصوت بين الرخيم والنافر، وأصواتها ذات الطبقات الصوتية الخفيفة، ومنشداتها الرئيسة؟ فإذا كانت هذه ليست موسيقى ذات معرفة، فما هي إذن؟ ربما سامبا ورومبا، أهازيج وتانغو؟

انتبهي دونا جيزا، لأن الدكتور إيفيس في هذه المادة (كما في بقية المواد الأخرى) هو قمة. وسأل بصوت مرتفع وبلهجة انتصارية: أين عثرت على شيء أكثر صفاءً من أوبريت جيدة مثل الأرملة الطروب، وأميرة الدولارات أو كونت لوكسمبورغ. إن ثقافة الطبيب الموسيقية راسخة على قواعد محددة، وناتجة من معرفة معاشة. فعندما كان طالباً، ذهب إلى الريو في قافلة، وشاهد من الرواق الأعلى في المسرح البلدي، ببطاقات مجانية، بعض الأوبرات التي عرضتها وأنشدتها «فرقة نابولي الموسيقية الكبرى». وافتتن بالعروض، وبالألحان وبأصوات الباريتون والسوبرانو والتينور والكونترالتو. لم يستمع إليها في اسطوانات يا دونا جيزا، بل بحضوره الجسدي، مشاهداً إياها على المسرح تسطع في توهّج عبقريتها: تيتو شيبا، غاللي كورزي، جسيوس غافيريا، بتسانتسوني منشداً ترافياتا، توسكا، مدام باترفلاي العبد (لعزيزنا كارلوس غوميس، يا عزيزتي). ثم شاهد بعد ذلك جميع الأفلام الرائعة في السينما – لم يستثن أياً منها – وأفضل الأوبرات المقدّمة من قبل جان كيبورا ومارثا إيغرث، ونيلسون إدي وجانيت ماكدونالد. فهل شاهدتها الدونا جيزا؟ جميعها من دون أن تضيع أي واحدة منها؟

في حماسته، دندن الدكتور إيفيس مقاطع معروفة، وحتى إنه عرض خطوة باليه. كان الأمر معه في الواقع الحي وليس عبر الأسطوانات والاختلاقات، لأنه في ما يخص الثقافة الموسيقية لا يدين لأحد...

– هذا ثقافة؟ (رفعت الدونا جيزا يديها شاعرة بالإهانة ليس لشخصها، وإنما لمفاهيمها الشرعية). الثقافة هي شيء آخر أيها الدكتور، إنها أكثر جدية... والموسيقى أيضاً، الحقيقية والعظيمة... شيء مختلف تماماً...

بقيت الدونا نورما، التي طُلب منها بإلحاح أن تكون حكماً، محايدة، معترفة:

– إنني لا أفهم شيئاً في هذا المجال... فما عدا السامبا والمارشا وموسيقى الكرنفال – إذ إنني أعرف هذه كلها... – فأنا صفر... الأوبرا، شاهدت واحدة، عندما مرت شركة بيللورو كافاللارو تجمع نيكلاتها، من دون فنانين تقريباً. شيء محزن. لم تكن أوبرا كاملة، إنما مقاطع من «عايدة».

– أنا أيضاً شاهدت هذا... – سجل الدكتور إيفيس علامة أخرى.

– إنني لا أفهم شيئاً لكنني أسمع كل شيء، لأن أي شيء يفرحني، حتى الجرس أراه جميلاً عندما يقرع في الجنازات. أتقبّل كل شيء، كونشرتو وأوبيرا، الأوبريت شيء لا يصدق، وأنا مجنونة ببرنامجٍ موسيقي في الإذاعة. والأمر المؤكد، هو أن لا شيء يساوي، أو يقارن بأغنية لكايمي. لكنْ بالنسبة إليّ، كل شيء مقبول، كل شيء يفرح ويمرر الوقت، حتى هذه التمارين التي يقوم بها الدكتور تيودورو، يكفي ألّا يعيرها المرء انتباهاً شديداً...

وبالنسبة إلى الدونا روزيلدا، كان تجديفاً مقارنة موسيقى أوركسترا الهواة، الرائعة للآذان المرهفة، بالأصوات النافرة للفتيان على الكمان. إنكِ لشخصية طيّبة يا دونا نورما، موفقة في زواجكِ وثرية، لكن أذواقكِ هي أذواق أناس سوقيين... في الجانب الآخر، تتصرّف المدرّسة، لكونها أميركية، كصاحبة كرسي في الجامعة. قد تكون الدونا جيزا هناك في بلدها عرفت شيئاً أفضل، أكثر شمولاً للعلم، أسمى من أبناء أورفيو، أما الدونا روزيلدا، فإنها ترتاب في ذلك وتجهله. وفي نظرها كانوا لا يضاهون حتى يثبت خلاف ذلك. فبعض السادة من أولئك، هم من أعلى المراتب.

كانت الدونا فلور ترافق كلمات المداولة مبتسمة وصامتة، ولا تفتح فمها إلا لتدافع عن تمارين أوركسترا الهواة المعتبرين من الدونا جيّزا قمة الضجر.

– لا تكوني مغالية...

– حسناً، أليس الأمر هكذا؟ ويجب أن يكون الأمر هكذا، إذ إنه تمرين. أين شاهدت، أحداً يوجه دعوة عامة لسماع تمرين على الموسيقى؟

– الذنب لا يقع عليهم، المذنبة هي أنا التي دعوت... ففي تمارينهم يحضر من يريد، أصدقاء وأشخاص الأسرة. حين تُقام حفلة كونشرتو، سوف أدعوكِ وعندها سترين...

بقيت الدونا جيزا متشائمة:

– في كونشرتو، من يدري؟ لكن حتى مع هذا أظن أن هؤلاء الهواة، أعذريني يا فلور، لا يساوون شيئاً كبيراً...

كانوا يساوون، وكثيراً، حسب تقارير الصحف ونقّاد الموسيقى، الذين هم في النهاية ملزمون بتفهم الموضوع. فكل عرض للأوركسترا – في موسم الإذاعة أو في محفل مدرسة الموسيقى – كانوا ينشرون الإطراء. أحد هؤلاء النقّاد، وهو شخص يدعى فينركايز، المولود في حضن الموسيقى حسب ما يقول، إذ إنه من أصل ألماني، ، قارن، بكثير من الحماسة، أبناء أورفيو «بأفضل الأوركسترات الحقيقية في أوروبا، التي لا تسمو عليها، والعكس صحيح». عند وصوله من ميونيخ، كان فينركايز هذا متحفظاً في تقييماته. فالمدارات الاستوائية قد غيرته ففقد تحفظه ولم يعد البتّة إلى شتائه الجليدي. والدكتور تيودورو يمتلك ألبوماً يجمع فيه برامج الحفلات الموسيقية، والأخبار والإطراءات ومقالات حول الأوركسترا، والكثير من القصاصات الصحفية. بعد الزواج أصبحت الدونا فلور هي من تهتم بهذا المستودع الخاص بالإنجازات وبهذه المستندات عن المجد الصغير لزوجها. الخبر الأخير الملصق هناك يقول إن المايسترو آجينور ألّف أغنية ذات صوت منفرد على شرف الزوجين تيودورو مادوريرا، إنه إنجاز رائع وهو حالياً قيد التمرينات يقوم أبناء أورفيو بتنفيذها. «ما دام الكلام عن أبناء أورفيو، فمتى تهبنا هذه الأوركسترا الممتازة نعمة كونشرتو مطالب به بكل إلحاح من قبل عشاق الموسيقى الجيدة في باهيّا؟» كان الصحافي يتساءل. وكما يرى، فالهواة كان لهم أصدقاء مخلصون، كثيرون ومتعصبون.

كانت الدونا فلور منهمكة بمناقشة الأوركسترا ولم تهتم بمشكلات ماريلدا. والخبر الأخير حول الصدام بين الأم والبنت، حصلت عليه الدونا فلور من الفتاة نفسها وأشارت إلى الواقع الخطير في كون ماريلدا قد تعرّفت بواسطة أوزفالدينيو، إلى ماريو آوغوستو من إذاعة آمارالينا الذي وعدها بأن يستمع إليها، وإذا أعجبه صوتها، سيتعاقد معها على برنامج أسبوعي. وأوزفالدينيو لم يحصل على شيء من راديو سوسييدادي للأسف.فقد فاتت الدونا فلور الأحداث اللاحقة لأنها كانت منشغلة كثيراً في تلك الأيام، ولم تستطع أن تولي الاهتمام اللازم لماريلدا. وهي لم تعرف بنجاح المراهقة في التجربة مع المذياع إلا بعد المأساة. لقد جُنَّ ماريو آوغوستو بصوت الشابة، فوقّع معها عقداً على برنامج بمرتب عال، وفي توقيت جيد، يوم السبت ليلاً. مركز صغير، لكنْ ماذا كان بوسع مبتدئة

أن ترغب أكثر من ذلك؟ أسرعت ماريلدا راكضة إلى المنزل، متفجّرة حماسة، وفي حقيبتها مسودة عقد. مزّقت الدونا ماريا دو كارمو الورقة:

– ربيتكِ وهذّبتكِ لتكوني امرأة مستقيمة، لتتزوجي. وما دمت أنا على قيد الحياة...

– لكنكِ يا أمّاه قد وعدتني... – تذكرت ماريلدا الوعد المقطوع لها من الأرملة في اليوم الذي رأتها فيه تغني في برنامج لطلاب جدد – قلتِ إنني عندما أبلغ الثامنة عشرة...

– لم تبلغي الثامنة عشرة ...

– بقيت فقط ثلاثة أشهر...

– لن أَدعكِ تفعلين هذا أبداً، ما دمتِ تحت سقفي. أبداً !

– تحت سقفكِ؟ إذن سترين.

– أرى ماذا؟ هيّا، قولي.

– لا شيء.

وسعت أيضاً لترى الدونا فلور، ذات الصدر الحار والنصيحة الطيّبة والمريحة. لكنَّ الجارة كانت قد خرجت بعد الدرس المسائي. وماريلدا في عجلة من أمرها، إذ هبط المساء وكان الضغط أكثر من أن يحتمل، فهربت من المنزل.

لقد جمعت بعض الخرق، وأزواجاً من الأحذية ومجموعة «جريدة الأغاني» وصور فرانسيسكو ألفيز وسيلفيو كالداس، ووضعتها في حقيبة سفر، واستقلّت الترام منتهزة فرصة وجود أمها في الحمام. ذهبت رأساً إلى راديو آمارالينا. وعندما علم ماريو أوغوستو أنها هجرت عائلتها وهي وقاصرة لم تبلغ بعد سن الرشد ، حذّرها وهو يشعر بالمسؤولية جداً ولا يريدها حتى هناك في المبنى؛ لتتصرف قبل فوات الأوان، فهو لا يريد مواقف معقدة. خرجت ماريلدا إلى الشارع وسارت على غير هدى تبحث عن أوزفالدينيو. ذهبت من عنوان إلى آخر، من راديو سوسييدادي إلى مكتبة

شركة تجارية، حيث كان العامل في الإذاعة يجعل منه محطة له. ومن هناك تابعت طريقها إلى المدينة السفلى حيث عقد موعداً مع بعض الذين يرعون نشاطه، آل ماغاليابيس القادرين. أوزفالدينيو؟ العامل في الإذاعة؟ لقد انصرف، ربما إلى الاستديوهات، التي كانت تعرف عنوانها؟ ومن هناك ذهبت مجدداً إلى راديو سوسييدادي، في شارع كارلوس غوميس، ركبت مصعد لاسيردا ومشت في شارع التشيلي، وإذ قطعت ساحة كاسترو ألفيس، في النهاية، وهي تنضح عرقاً ومصابة بالدوار، وقفت عند باب محطة الإذاعة. لم يكن أوزفالدينيو هناك. لكنَّ البوّاب سمح لها بانتظاره وحتى إنه تدبّر لها كرسياً.

بقيت هناك ساعات، منهكة ويعتريها الخوف، لكنها ما زالت زاخرة بالغضب ومستعدة لكل شيء، تشاهد فنانين معروفين يجتازون الباب أمامها ومغنين مشهورين، وبينهم سيلفينيو لامينيا، مع زهرة في عروة سترته وخاتم كبير في خنصره. بعضهم كان يتطلّع إليها متسائلاً: من هي هذه الفتاة الجميلة جداً؟ والبوّاب بين الفينة والأخرى يبتسم لها ويقول (من يدري، ربما يريد تشجيعها):

– لم يصل بعد، لكنه لن يتأخر. فقد حانت ساعة وصوله..

في حوالى الساعة الثامنة، وقد اكتمل الليل، سألت البوّاب وعيناها متقدتان وقلبها فزع، أين يمكنها أن تتناول القهوة وتأكل شطيرة. في البوفيه الخاصة بالإذاعة ذاتها، فدخلت. هناك وقد سمعت مغنين وممثلات، معبوديها، ازدادت تصميماً وقررت الانتظار طوال الحياة، إذا لزم الأمر، لتحقق قدَرها كنجمة. رجعت إلى مكان البوّاب وفكرت: «أمي المسكينة، في هذه الساعة يجب أن تكون على شفا الاحتضار من القلق»، وهي تمزج الإشفاق والندم بالحنق والجرأة. بعد ذلك بقليل انصرف بوّاب فترة المساء فقال لها الذي جاء بعده إنه لا يعتقد بعودة أوزفالدينيو.

– في هذه الساعة؟ لن يأتي...

ها قد أزفت الساعة التاسعة والنصف، وعندما تمكنت بصعوبة من حبس البكاء، اتكأ شخص بلا أسنان، على المنصة الخاصة بالبوّاب، بعد أن رمقها بإلحاح، وأخذ يتحدث ويضحك مع البوّاب، وأخبره عن مآثر القمار، التي تجري هناك ، في التباريس. فجأة سمعت ماريلدا الشخص

يتكلم عن أوزفالدينيو، وعرفت أنه كان صديقه في اللعب منذ نهاية فترة ما بعد الظهر، على طاولة الروليت. وكان فرحاً جداً، حسب قول الأثرم.

- تباريس؟ ما هذا وأين يقع؟

ضحك الشخص. وهو يحدّق إليها بشرهٍ غير لائق:

- هنا، قريب جداً... إذا شئت أخذتكِ إلى هناك... -

كان يريد أن يرى الفضيحة، ليتمتع بالدموع والمهاترات، فأوزفالدينيو ذاك كان مهلك الفتيات.

اجتازا الساحة، حاول الاثرم أن يعرف ما إذا كانت ماريلدا الزوجة او الخطيبة أو مجرّد صديقة. فلكي تكون زوجة، كانت صغيرة جداً، ولتكون حبيبة، كانت مغتمّة كثيراً... عند باب الكباريه التقيا ميراندون، الذي كان منسحباً إلى بالاس. وعند مروره رأى ماريلدا بنظرة خاطفة، واستمر سائراً. لكنه عرفها فوراً وعاد مسرعاً:

- ماريلدا! أي شيطان جاء بكِ إلى هنا؟...

- آه! سيد ميراندون، كيف حالك؟

كان ميراندون يعرف الأثرم جيداً:

- صديق السوء، ماذا تفعل أنت هنا مع هذه الفتاة؟

- أنا؟ لا شيء... لقد طلبت مني...

- لتأتي إلى هنا؟ إنها لكذبة منك... وغضب ميراندون.

اعتذرت ماريلدا من الآخر، فهي طلبت منه، أجل.

– لتأتي إلى هنا، إلى التباريس؟ ماذا تفعلين؟ قولي لي.

أخبرته بكل شيء، وأخيراً، عاد بها إلى المنزل حيث لم يكونا جد بعيدين، ذهبا ليلتقيا الدونا ماريا دو كارمو وهي مثل المجنونة، قد أُغمي عليها، تذرف الدموع، منبطحة على السرير تصرخ من أجل ابنتها. وإلى جانبها الدونا فلور والدكتور تيودورو والدونا آميليا. تسلمت الدونا نورما قيادة زمرة البحث والإنقاذ، تساعدها الدونا جيزا، فانتزعت السيد زيه سامبايو من سريره (استبد به الغضب) وغادروا في اتجاه الإسعاف العام والشرطة والمشرحة.

عند رؤيتها ابنتها، عانقتها الدونا ماريا دو كارمو، مبدية حناناً عليها، في بكاء ارتعاشي. بكت الاثنتان وقبّلتا بعضهما بعضاً، مع طلبات مشتركة للصفح. انسحب الدكتور تيودورو منفعلاً، خشناً تقريباً، رغم أنه كان يعارض الدونا فلور بدعم الدونا ماريا دو كارمو في عزمها الأول غير المتسامح لاستعمال العنف وضرب الهاربة.

حاولت الدونا فلور منعها والسيطرة عليها من أجل قضية ماريلدا؛ هي أيضاً حينما كانت فتاة صغيرة، تناولت من ذلك الدواء، ولم تستفد شيئاً من تلك المعالجة. فلماذا تعاند الدونا ماريا دو كارمو وتخالف هواية البنت؟

أي هواية حتى ولا نصف هواية! الدكتور تيودورو جاء ليؤيد الأرملة، فالبنت كانت بحاجة إلى درس يعيد إليها عقلها ويعلّمها الطاعة. بلغ الأمر بهما، الزوج والمرأة، أن انفعلا تقريباً، وكل منهما تمسك في رأيه. الدونا فلور في الدفاع عن ماريلدا المسكينة والدكتور تيودورو في الدفاع عن المبادئ في واجبات الأبناء إزاء الوالدين، وهي قضية مقدّسة. لكن المناقشة لم تستمر طويلاً ، إذ إن الدكتور سيطر فوراً على نفسه وقال:

– عزيزتي، إن لكِ رأيك وأنا أحترمه، من دون أن أوافق عليه. وأنا لي رأيي وعليه تهذّبت، وهو الذي يفيدني، فليبق كل منا على رأيه. لكننا لن نتناقش في هذا، ما دام ليس لدينا أبناء – «ولن يكون لدينا أبناء»، كان بوسعه أن يضيف، إذ وهو ما زال خاطباً، كشفت له الدونا فلور، قبل الزواج، حالتها كعاقر.

لم يتبق بينهما أثر للامتعاض، فكلاهما قد انحنى على ألم الأرملة وهي تتوسل الموت إذا لم تصل ابنتها حالاً.

وصلت ماريلدا وكانت الأمور التي سبق ورأيناها.. انسحب الدكتور تيودورو المغلوب على أمره. وخرجت أيضاً الدونا آمبليا والدونا إيمينا، وبقيت فقط الدونا فلور مع الأم والابنة وكانت القضية منحلّة، دفعة واحدة وإلى الأبد؛ ماريلدا فازت بحقها أمام المذياع. بقيت الدونا فلور دقيقة فقط، ما يكفي لتضمن الاتفاق والمباركة الأمومية لمخططات نجمة المستقبل، ثم انتقلت لتلتقي في غرفة الزوار إشبينها ميراندون.

– يا إشبيني، لماذا اختفيت ولم تظهر قطّ؟ لا أنت ولا الإشبينة مع الولد؟ ما الذي فعلته أنا ويسيء إليك ؟ إنني أسأل بالضبط قبل أن أشكرك على الصنيع الحسن الذي أتيته لماريا دو كارمو ولماريلدا. لماذا تشاجرت معي؟

– لم أتشاجر، لماذا يجب أن أتشاجر يا إشبينتي؟ فإذا لم آت فهو لأنني كنت منهمكاً في العمل...

– لهذا فقط، لكونك منشغلاً؟ أعذرني يا إشبيني، لكنني لا أعتقد.

نظر ميراندون إلى الليل الشفاف والسماء البعيدة:

– إن إشبينتي تعلم أنه لا يجوز لأحدٍ أن يحشر نفسه بين الزوج والمرأة. إنني أعلم أن إشبينتي تعيش راضية، وفوق كل هذا، فإن هذا هو ما أريده. وأنتِ تستحقين كل هذا وأكثر منه بكثير. وإذا لم آتِ فليس ذلك لضآلة صداقتنا.

كان ذلك حقيقة، ابتسمت الدونا فلور وانتقلت إلى قرب الإشبين:

– لديّ شيء ما أرغب في طلبه منك...

– أنتِ تأمرين ولا تطلبين يا إشبينتي...

– لن يتأخر يوم تقديم الكارورو في عيد كوزمي وداميان، ذلك إلزام...

– لقد فكرت بهذا، حتى إنني قلت ذات يوم للمعلمة: «تُرى هل ستكون هذا العام وجبة كارورو في منزل الإشبينة؟».

– ما هو رأيك أيها الإشبين؟ ما الذي تراه؟

– حسناً! إنني أقول لكِ أيتها الإشبينة، إن أحداً لا يستطيع أن يسير في طريقين في الوقت نفسه، طريقاً في الذهاب، وآخر في الإياب. فالإلزام لم يكن من قبلكِ، كان من قبل الإشبين، وقد دفن معه، والوفاء بالنذور يُقَدَّم بالقناعات – أتى بوضع معيّن – وإذا كان هذا رأيكِ أيتها الإشبينة، كوني مرتاحة إذن، فأنتِ لا تتصرفين بشكل سيئ مع القديسين ولا تقطعين قاعدة من النصف...

أصغت الدونا فلور وهي تفكر، شاردة الذهن كأنها تقيس إجراءات العيش:

– إنك مصيب أيها الإشبين، لكن ليس فقط للقديسين على المرء أن يفي بحساباته. فلديّ رغبة في الإبقاء على هذا الإلزام، وإشبينك أخذ القاعدة على محمل الجد، ثمة أشياء لا يستطيع المرء إلغاءها.

– ماذا إذن أيتها الإشبينة؟

– حسناً، فكرت أنه بإمكاني تحضير الكارورو في منزل الإشبين. وأنا أذهب إلى هناك، في النهار، وأرى الولد، وآخذ اللازم، أطهو الكارورو ونأكل. أدعو نورمينيا ولا أحد سواها.

– حسناً، ليكن هكذا أيتها الإشبينة. فالمنزل هو منزلك والأمر لا يتطلّب منكِ إلا إصدار الأوامر. ولو كنت أكيداً من أنني سأحصل على المال، لقلت لك ألا تحملين أي توابل. لكن لا أحد يتنبأ بليلة الربح وليلة الخسارة؟ ولو عرفت لكنت ثرياً. فخذي معكِ القرع وهذا أكثر ضمانة.

دخل الدكتور تيودورو هادىء الأعصاب. كان قد سبق له وعرف ميراندون بالاسم، وهو على علم بشهرته وأفعاله، فتبادلا مجاملات قصيرة.

– إنه إشبيني يا تيودورو، صديق طيّب.

– ينبغي أن تأتي لزيارتنا... قال الدكتور، لكن لم تكن دعوة، إنما مجرد جملة لطيفة؛ وإذا جاء، فصبراً.

عاد ميراندون إلى حياته الصاخبة، وحظيت ماريلدا من أمها على الموافقة على زيارة السيد ماريو آوغوستو، لكي يناقشوا معاً شروط العقد وتاريخ البدء.

– هيّا بنا يا عزيزتي... قال الصيدلي.

كان الوقت متأخراً، لكنْ مع هذا، ومن أجل الراحة من كل تلك الانفعالات والخيبات، راح الدكتور تيودورو يبحث عن البوق ومجسّم النغمات. وأخذت الدونا فلور مكانها على كرسي وبدأت ترفو أكمام وياقات قمصان الدكتور، فكل يوم كان يبدل الملابس البيضاء.

في الغرفة الهادئة والدافئة، كان الدكتور يتمرّن على المقطوعة الموسيقية ذات الصوت الواحد التي ألّفت احتفاءً بالدونا فلور. وهي منحنية فوق الخياطة، تصغي شاردة الذهن قليلاً، وتريد أن تنظم أفكاراً مشوّشة، بعيدة، ورأسها ينأى إلى هناك، في موسيقى أخرى.

ساعياً إلى السيطرة على الأنغام الهاربة من الآلة الموسيقية، والإمساك بالصوت الأكثر نقاءً وحرارة، متغلّباً على مقامات النغم في اللحن الصعب وقد بات هادئاً كلياً، ابتسم الدكتور تيودورو: في النهاية، ما همه من الأسلوب الصحيح أو الزائف التي تتبعه الدونا ماريا دو كارمو لكي تهذّب ابنتها العنيدة؟ فهو ليس أخلاقياً وسيكون أحمق إذا اختلف مع زوجته الحبيبة، الجميلة جداً والطيّبة جداً، من أجل جميع أسباب الغير. وحلّق النغم الصحيح، ينبض في الهواء، وحيداً، منسجماً، وصافياً.

هربت الدونا فلور إلى انغام موسيقية أخرى، ليست النغمات الكلاسيكية الرفيعة لباخ وبيتهوفن والسيمفونيات والصوناتات كما كانت الدونا جيزا تهرب إلى الضوء الخافت عند أصدقائها الألمان، لكن نغمات الألحان الشعبية، والقيثارات التي تعزف السيريناتا وآلات الكافاكينيو البوهيمية

والأكورديونات ذات الضحكات البلّورية. يجب أن تتاقلم الآن مع أوركسترا الهواة، ومع اللحن الشجي من آلات الأوبويها والفيلونسيل ومع ائتلافات البوق المحترمة. فاستحضار ألحان أخرى تجعلها شاردة الذهن، تائهة في دروب مظلمة، في لغز تقاطع الطرق، وهذا أمر غير جائز. يجب أن تنسى، في تمارين البوق وفي مقامات النغم في الأوركسترا، ذكريات الألحان الميتة والزمن الذي مضى، الذي كان ولم يعد موجوداً.

واهتزّ نغم البوق فوق قمصان الدكتور..

7

روايتان نسائيتان فقط. أقله اللتان علمت بهما الدونا فلور. لكنها تضع يدها في النار بالنسسبة إلى إخلاص زوجها لها، ولا تعتقد بوجود أي ذيل لتنورة أخرى في حياة الدكتور.

إحدى تينك القصتين، التي تورّطت فيها ميرتيس روشا ده آراووجو، ابنة الريو الملتهبة، لم تؤد إلى شيء – مجرد التباس وإحباط – إحباط عابر لم يدم إلا يوماً واحداً، إذ إن الجسورة لم تكن لتضيع وقتها؛ هزّت كتفيها، ومضت في طريقها. فقد كانت متزوجة من موظّف في مصرف، وبما أنه قد نُقل إلى باهيّا، بمرتب أفضل ومركز أفضل، أبدت مرتيس حسرتها أمام الصديقات الحميمات، وهي تعسة بهذا النفي إلى مدينة خالية من الإغواءات الذكورية ومن الحرية المعهودة في ريو ده جانيرو، حيث كانت قد حققت بعض الشهرة في أنشطة الخيانة الزوجية. وإذ كانت حرة ومن دون أبناء، كرّست وقتها وميلها الطبيعي للهو الناجع. أمسيات ممتعة في رفقة فتيان طيّبين ذوي كفاءة عالية وإغواء جسدي، من دون حصول أي خطر، وكل شيء يجري في كتمان تام. كيف يمكنها أن تجد في باهيا الصفات الذكورية لشاب مثل سيرجينيو، على سبيل المثال، «آية بذاته»، وأمانة المواعيد الغرامية المريحة عند الدونا فاوستا؟ شعرت إينيس فاسكيز دوس سانتوس، وهي باهيّانية فخورة بتقدم بلدها، بأنها أهينت من الاحتقار، فمدينتها ينظر إليها كقرية صغيرة حيث لا يوجد أحد تخون معه زوجها ولا مكان تمارس فيه فعلتها بطمأنينة. لماذا كانت ميرتيس تشتم باهيّا من دون أن تعرفها؟ وفي نهاية الأمر لم تكن سالفادور قرية صغيرة جداً ولا على هذا القدر من التخلُّف...

كانت إينيس تعرف ذلك بالتجربة وكان يمكنها أن تؤكد، انطلاقاً من معرفتها التامة، أن ثمة ظروفاً ملائمة لممارسة الخيانة الزوجية مع ضمان للطمأنينة والسرية. فثمة شقق لممارسة الجنس سرّية جداً وأكواخ خفيّة بين شجر جوز الهند على الشواطئ الموحشة، مع النسيم والبحر. فيا له من حلم. أما بالنسبة إلى الفتيان، فيوجد الكثير منهم!

أخذت إينيس فاسكيز دوس سانتوس، وعيناها تطفح بالنزوات، وهي تعضّ على شفتها بأسنانها الصغيرة، تتذكر، بلهفة المشتاق، أحد النزقين سيئي الطباع، وهو مقامر مدمن لكن ذو كفاءة عالية في السرير وحمية لا تنسى! لقد عرفت إينيس ، فتياناً كثيرين من ذوي القلب المتقلّب.

سأقول لكِ يا عزيزتي، «ما عرفت حتى اليوم شبيهاً له، وما زلت أحتفظ بمذاق بشرته وأتحسس وراء الأذن طرف لسانه، وأسمع ضحكته عندما يأخذ نقوداً».

– يأخذ نقوداً؟ كانت ميرتيس ترغب دائماً في التعرف إلى جيغولو.

أعطتها إينيس المعلومات والعنوان: «مدرسة الطَّهي مذاق وفنّ» بين كابيسا وساحة «الثاني من تموز». المديرة هي زوجته، وهي امرأة، شابة طيّبة، ليست قبيحة، بشعرها الأملس ولونها النحاسي. فلتدخل ميرتيس كتلميذة والدروس تساعد على قتل الوقت، وبعد وقت قريب سيقدم لها نظره ويده وسحره كسحر جنّي البحر. وعليها ألا تنسى أن تكتب لها في ما بعد، مخبرة وشاكرة. لم يكن لدى إينيس شكوك حول النتائج السيئة للزواج، المفيدة بالأحرى لجميع الشركاء، خصوصاً للزوج الذي احتفى بالأمر؛ بشهادة الدكتوراه في فن الطَّهي، بوسع ميرتيس أن تقدّم له وجبات طعام باهيّانية من أفضل مذاق. فالمدرّسة كانت من الدرجة الأولى، معلّمة في الفن، ولديها يدان ساحرتان.

ما ارتابت الدونا فلور قط، لا قبلاً ولا الآن بالعلاقة الجنسية بين المرحوم وإينيس تلك، كانت في ذلك الوقت تبدو رصينة هزيلة، متهافتة على التوابل. ولولا الطيش اللاحق لميرتيس المتمرّدة، ربما لم تعرف أبداً ذلك الغش من قبل المرحوم. لكنْ واحدة أكثر، واحدة أقل، وهنّ

كثيرات. والآن الدونا فلور كانت متزوجة من رجل ذي قماشة أخرى، ذي قواعد أخرى في السلوك، رجل طاهر.

أما ميرتيس، فعندما تركّزت في باهيّا، ذهبت إلى المدرسة لكي تنتسب إليها. أرادت الدونا فلور إقناعها بأن تنتظر بدء الزمرة الجديدة، وكانت تجد نفسها منهمكة حالياً في الكارورو، حيث أعطت الإيفو والفاتابان، من دون الكلام عن بعض الحلوى التي تقدَّم بعد وجبة الطعام مثل حلوى جوز الهند، والبيجو والأمبروزيا. لكن ميرتيس كانت في عجلة من أمرها، يستحيل عليها أن تنتظر. اخترعت عودة قريبة إلى الريو، والوقت قصير في سالفادور ولن تسنح لها فرصة أخرى لكي تتعلّم بعض الأطباق أقلّه؛ فزوجها كان مجنوناً بالطعام المعدّ بزيت الدينديه. والدونا فلور الخرقاء، وعدتها بأن تعلّمها في العطلات الفاتابان والشينشين والآبيتي أقلّه، لكنها لم تعلّمها، لا تلك الأطباق الشهيّة ولا غيرها، إذ كان مرور ميرتيس بالمدرسة مروراً سريعاً. وعندما لم ترَ زوج المدرّسة في اليومين الأولين، سألت عنه في اليوم الثالث إحدى الزميلات التي قالت لها إنه من الصعب رؤية الدكتور أثناء الدروس، حيث هو سجين الصيدلية في ذلك التوقيت ذاته. «دكتور؟ في الصيدلية؟» لم تكن تعرف أنه صيدلي، فتلك المجنونة إينيس كلّمتها فقط عن الخصائص الرياضية للباهيّاني، ولم تقل لها شيئاً عن عمله خارج السرير. حتى إن ميرتيس امتلأت أملاً بأن تتعرف في النهاية إلى جيغولو حقيقي. وفي ذلك النهار وبطريق المصادفة، بعد هذا الحوار بوقت قصير، احتاج الدكتور تيودورو إلى أحد المستندات، فجاء ليأخذه. توسّل آلاف الأعذار وهو شديد التهيّب ويحرّك أصابعه كثيراً، ومرّ بين التلميذات.

من هو؟ أرادت ميرتيس أن تعرف.

– الدكتور تيودورو، الزوج. إنني أقول من الصعب أن يأتي هو وعلى الأثر من يُرى؟ هو ذاته...

– زوجها؟ زوج المدرّسة؟ هذا؟

– ومن يجب أن يكون؟

عاد الملحاح إلى الصيدلية وهو ما زال يعتذر، والورقة المستردة في يده.. هزّت ميرتيس رأسها ذا الشعر الأملس والأشقر البلاتيني (حسب آخر موضة)؛ إما أن إينيس كانت بلهاء بحيث يتوجّب تغييرها، وإما أن شيئاً ما قد حدث. بالتأكيد إن المدرّسة تعبت من غش الجيغولو فطردته، إذا لم يكن هو قد أخذ يتعاطى مع أخرى. ليكن كما هو، فالدونا فلور كرّست نفسها لنمط مضاد، لرجل رصين ومحترم، حسب رأى ميرتيس، غير مفيد ومستحيل: إن الشخص الباعث على التقيّؤ، لم يلحظ حتى بريق شعرها، فمرّ بها من دون أن يراها. وأيضاً، قبل أي شيء... لم يكن هذا الأبله خليقاً بأن يكون زوجاً، قد يكون من ذوي القرون بلا مستوى وبدون إحساس بالعدل، ومن الذين يثأرون للشرف بإطلاق النار وطعنات السكين، الرجعيين والمحبّين للمآسي. لم تعد إلى المدرسة ولم يبدُ لها ضرورياً تقديم تبريرات للمدرّسة. وفوق هذا كانت مقلّة في الطعام (لتبقى هزيلة، على القالب، بشكلها كغاوية رجال). تابعت بحثها وتقصيها وإذ بها تعرف بموت فحل إينيس الناري وبالزواج الجديد للأرملة من ذلك الشخص الأعمى. أجل، ومن أسوأ حالات العمى، من العمى الذي يغلق عينيه على الحياة، غير القادر على تبيّن نور الشمس والشعر بلون الفضة.

لقد عرفت الدونا فلور بتفاصيل تلك المهزلة من خلال صديقتها إينايدي وهي بدورها صديقة إينيس فاسكيز دوس سانتوس منذ أوقات التلمذة، ولهذا كانت موضع سرّ الالتباسات الباهيّانية لميرتيس روشا ده آراووجو، التي لخّصت إحباطها بجملة أدبية:

– إنها مغامرتي مع شخص متوفٍ... فهذا ما كان ينقص في لائحتي.

جملة وشكوى: لكي تعرف الدكتور تيودورو: «تلك التفاهة التي صارت رجلاً!»، أحرقت أصابعها في موقد الدونا فلور، في حمل المقلاة لإعداد الآراتو. يا له من عمل مضحك!

بالنسبة إلى الدونا ماغنوليا، ومن نافذتها التي تتطلّع منها باستمرار، بنظرة جسورة جداً! إن كون الرجل رصيناً ومسؤولاً لم يكن يجعلها تسحب اهتمامها بالدكتور، مولية إيّاه الاهتمام الحار ذاته. في غرسها بذور القرون، وهي مزارعة كفوءة كما هي ابنة الريو المتحذلقة، عشيقة الشرطي السرّي، تعلّمت أن تبدّل عشاقها، في اللون، وفي المظهر وفي العمر، كونها عدوة لأية رتابة. وفيما ميرتيس المتتبعّة لنمط معيّن، لا تفكر إلّا في فتيان بلا عقل، لم تكن ماغنوليا المعادية للمذاهب

الحازمة، تقتصر على تركيبة واحدة، وعلى شكل واحد. اليوم أسمر، غداً أشقر، وبعده شخص أسمر اللون، كان المراهق القلقيلي الخمسيني أشيب الشعر. لماذا تكرار الأطباق بالتوابل نفسها، ومن مطبخ واحد فقط؟ كانت الدونا ماغنوليا انتقائية.

أربع مرّات في اليوم، أقلّه، في الذهاب والمجيء من المنزل إلى الصيدلية وبالعكس، كان «الأربعيني الأهيف القد» (حسب الكرة البلّورية للدونا دينورا) يمرّ تحت النافذة حيث كاتالدونا ماغنوليا، وهي في رداء مكشوف أعلى الصدر، تزرع ثديين عاتيين وجد كبيرين ومستديرين بقدر ما هما معروضان للنظر. وفتيان المدرسة الثانوية إيبيرانغا، القائمة في شارع قريب، حوَّلوا اتجاه طريقهم، لكي يقوموا بعرض جماعي مستمر تحت النافذة حيث ينمو ذانك الثديان القادران على إرضاعهم جميعاً. وكانت الدونا ماغنوليا تحن عليهم، كم هم جميلون مع أرديتهم الخاصة بالطلبة الثانويين، فيرتفع أصغرهم على أطراف أقدامه من أجل متعة الرؤية، وحلم اللمس. «دعهم يتألمون ليتعلّموا»، الدونا ماغنوليا تحاضر تربوياً، وتعمل بحيث تعرض بشكل أفضل الثديين والصدر (إذ لا تستطيع إبراز أكثر من ذلك في إطار النافذة).

كان صبيان المدرسة الثانوية يغتمون، وكان عمال الصناعة في الجوار يتأوهّون وكذلك الباعة المتنقلون وشبان مثل روكي، بائع الأطر وعجائز مثل ألفريدو في عودته مع قديسيه. وجاء أناس من بعيد ومن سيه ومن جيكيتايا ومن إيتاباجيبي ومن تورورو ومن ماتاتو في حجيج، لمجرّد رؤية تلك الروائع التي جرى الكلام عنها. عند الثالثة بعد الظهر بالضبط اجتاز الشارع متسوّل، تحت الشمس:

– صدقة لمسكين أعمى العينين...

أفضل صدقة كانت رؤية إلهية في النافذة؛ حتى مع خطر كشف القناع، منتزعاً النظّارتين السوداوين، زرع عينيه دفعة واحدة وهما منفتحتان على اتساعهما في تلك النعم الإلّهية، ممتلكات الشرطي. وحتى لو طارده الشرطي ووضعه في السجن، بتهمة الاحتيال والزيف في التسوّل، سيكون الأعمى الزائف قد نال مراده.

الدكتور تيودورو وحده، في أبهة بذلته البيضاء، لم يكن يرفع عينيه إلى السماء المعروضة في النافذة. فيحني رأسه في تحيّة ذات تهذيب رفيع، وينتزع القبعة وهو يتمنى لها صباحاً طيّباً أو مساء طيّباً، غير مبالٍ لزرع الثديين اللذين كانت الدونا ماغنوليا تحوطهما بالدانتيل لتحصل على تأثير أفضل، لكي تثير ذلك الرجل المخلوق من المرمر وتدمّر ذلك الوفاء الزوجي، المهين. وحده الأسمر الجميل، ذو... المستقيم كقائمة الطاولة بالتأكيد، كان يمرّ من دون أن يظهر لا تأثراً ولا انفعالاً ظاهراً، لا فرحاً ولا ذهولاً، من دون أن يرى، وحتى من دون أن ينظر إلى ذلك البحر من الإغراء. آه! إن هذا لكثير! إهانة متمرّدة، تحد لا يحتمل. إنه أحادي الزواج، كانت الدونا دينورا تؤكد ذلك، وهي العليمة بجميع التفاصيل في حياة الدكتور. فهذا الرجل لن يخون زوجته، وهو لم يفعل ذلك حتى مع تافينيا مانيمولينسيا، المرأة العمومية المحدودة جداً في زبائنها. لكنَّ الدونا ماغنوليا لديها ثقة في مواطن سحرها؛ «يا عزيزتي العرافة، سجلي ما سأقوله لكِ، لا يوجد رجل أحادي الزواج ، نحن نعرف ذلك، أنا وحضرتكِ. دققي النظر في كرة البلّور وإذا كانت أهلاً للثقة، ستريك الدكتور في سرير إحدى شقق الغرام – سرير سوبرينيا، ولأكون دقيقة، وإلى جانبه جداً كلياً، صديقتك ماغنوليا فاتيما داس نيفيس».

أوَلم يتأثر الدكتور بعينيْ الجارة الملتهبتين، وبصوتها الدافىء وهي ترد التحية، بالثديين المزروعين في النافذة المتناميين في الظل وفي الشمس وفي رغبة الأولاد وفي تأوّه الرجال الهرمين؟ لكن الدونا ماغنوليا ما كانت تبالي، فلديها أسلحة أخرى ستوظفها، ستشن هجوماً فورياً. وهكذا، في فترة ما بعد ظهيرة حارّة ورطبة، حيث الهواء الثقيل كان يؤمل بالنسيم وبملذات السرير والأرجوحة، اجتازت الدونا ماغنوليا باب الصيدلية، حاملة في يدها علبة حقن من أجل إغواء جديد للقديس أنطونيوس، مرتدية ملابس الصيف، خرقة من القماش الخفيف، تظهر مع مرورها كنوزاً وإسرافاً.

– هل تستطيع أيها الدكتور أن تحقنني بحقنة؟

كان الدكتور تيودورو يقيس نترات في المختبر، والمريلة الملطخة ببقايا الهيدرو كاربونات تجعله أيضاً أكثر طولاً وتزوّده بوقار علمي. بسطت له يدها بعلبة الحقن بابتسامة. فتناولها هو ووضعها على الطاولة، وقال:

– لحظة واحدة...

بقيت الدونا ماغنوليا واقفة تتأمله، في كل مرّة كان يبهجها أكثر. الشخص المطلوب، في السن اللائقة، ذو قوة شديدة وإقدام. تنهّد وهو يترك المساحيق وورقة التركيب، ورفع عينيه إلى الجارة:

– ألم؟

– آه! أيها الدكتور... وابتسمت كما لو أنها تقول له إن وجعها قوي وهو السبب.

– حقنة؟ تفحّص الورقة المتواجدة في علبة الحقن – هه... خليط من الفيتامينات.. للاحتفاظ بالتوازن.... هذه العقاقير الجديدة... أي توازن يا سيدتي؟

كان يبتسم بلطف كأنه كان يرى مضيعة للوقت والمال في علاج الحقن ذاك.

– الأعصاب أيها الدكتور. إنني جد حسّاسة، لا يمكنك أن تتصور.

تناول الأبر بملقط، مسترجعاً إياها من الماء الساخن، متنبّهاً لنقل السائل إلى وعاء الحقن، هادئاً وبلا عجلة من أمره. كل شيء دفعة واحدة وفي مكانه. بيتان من الشعر معلقان فوق طاولة العمل، كانا إعلاناً للمبادئ معروضاً بوضوح: «مكان واحد لكل شيء وكل شيء في مكانه». قرأت الدونا ماغنوليا، كانت تعرف شيئاً واحداً ومكاناً واحداً، ورمقت بخبث وجه الدكتور. إنه رجل واثق من نفسه، شخص مهم!

بعد أن غطّس في الكحول كمية صغيرة من القطن، رفع الحقنة:

إرفعي الكم...

زوّدته الدونا ماغنوليا بملاحظة، في صوت دلع وخبث:

– ليس في الذراع، كلا أيها الدكتور...

أسدل الستارة ورفعت تنورتها، عارضة لعينيْ الدكتور ثراءً أكبر حجماً وأكثر فتنة من الذي تعرضه يومياً في النافذة، عجيزة ويا لها من عجيزة، من تلك التي تثير... ما تحسست الوخزة، كانت يد الدكتور خفيفة وواثقة. أمدّها القطن اللاصق بالجلد في إصبع الدكتور، بإحساس بارد مسرّ. وانسابت قطرة من الكحول على أعلى فخذيها، فتنهدت مجدداً.

مرّة أخرى أخطأ الدكتور تيودورو في ترجمة ذلك التأوّه اللذيذ:

- أين يؤلمكِ؟

ما زالت تمسك بطرف الفستان متباهية بالوركين اللذين لا يقاوَمان، ورمقت الشخصية المشهورة جيداً في عينيها: تُرى، هل إنك لا تفهم، لا تفهم شيئاً؟

لم يفهم حقاً:

- ماذا؟

هنا انفعلت، فتركت حافة الثوب، مغطّية الورك المستاء، ومن بين أسنانها تكلمت:

- هل أنت أعمى حقاً، هل أنت لا ترى؟

تساءل الدكتور في قرارة نفسه، وفمه شبه فاغر، ووجهه جامد، وعيناه مثبتتان، إذا ما كانت قد جُنَّت. واستنتجت الدونا ماغنوليا سؤاله، إزاء لحظة البلاهة هذه:

- أو إنك فعلاً أخرق؟

- يا سيدتي...

مدّت يدها ولمست وجه العالم في علم الصيدلة، وبصوت الدلع مجدداً، تخلّت عن كل شيء:

- ألا ترى أيها الأبله، إنني متيّمة بك، يسيل لعابي، مجنونة بك؟ ألا ترى؟

وراحت تقترب منه بنية الإمساك بالرجل الحذر هناك بالذات، فأقلّه في التمهيد للأمر، حتى ولا طفل يُخْدَع عندما يراها باسطة الشفتين، والضعف في عينيها.

فقال الدكتور في صوت خفيض لكنه فظّ العبارة:

– أخرجي!

– يا خلاسيي الجميل! – وانقضَّت عليه.

– أخرجي! – دفع الدكتور عنه تينك الذراعين الشرهتين وذلك الفم النهم، مدافعاً عن مبادئه، وعن قناعاته التي لا تتزحزح – أخرجي من هنا!

جليل في فضيلته التي لا تلين، وبإبرة الحقن والمريلة البيضاء والوجه الغاضب، كأن الدكتور فوق قاعدة تمثال كامل، نصب ساطع البريق للخلق المنتصر على الشر. لكنَّ الشر، أو البذيئة والوضيعة الدونا ماغنوليا، لم تنظر إلى البطل المهذب بعينيْ الشعور بالذنب والندم، بالاحتقار والغضب والسخط. أبله، مخصي! ستدفع الثمن لي أيها السيد الموزة المتهرّئة، أيها السيد الجدي الأرعن العجوز! – وخرجت لتحيك المكيدة.

مسكينة الدونا ماغنوليا، ضحية الإحباط والمصادفة، وقعت في الشباك التي نصبتها لأن النتائج غير المتوقعة لمكيدتها كانت غير متوقعة، إذ فشلت كل خططها في الانتقام. وهي مريضة ومهانة (في حيائها، في شرفها كعشيقة رصينة) طلبت إلى الشرطي السرّي «مطاردة ذلك الخلاسي القذر، الصيدلي»، فهو رجل عديم الحياء قدّم لها عروضاً، مكرراً لها كلاماً بذيئاً، يدعوها إلى الذهاب معه لرؤية ضوء القمر على رمال آبايتيه. كان السافل يستحق درساً وبعض الضربات الملائمة بالعصي، ربما ليلة في السجن مع بعض اللكمات لكي يتعلم احترام نساء الآخرين.

لم يقل شيئاً في البدء لكي يتجنّب الضجة ولكي لا يسبب نفوراً لزوجته، الطيّبة جداً. لكنْ في ذلك اليوم بالغ الشخص المذكور في الأمر... فلقد ذهبت إلى الصيدلية لتناول حقنة وأراد السافل أن يضع يده على نهديها، مجبراً إيّاها على الخروج راكضة.

استمع الشرطي السرّي إلى القصة كلها بصمت، والدونا ماغنوليا التي تعرفه جيداً، كانت ترسّخ يقينها في كل مرّة أكثر في وجه رجلها؛ سيدفع الدكتور لها غالياً ثمن الإهانة، أقلّه ليلة في السجن. في ذلك المساء تخاصم الشرطي مع أحد زملائه، نتيجة أخطاء في الحساب في مبلغ زهيد، بضعة آلاف ريس سُلبت من لاعبي القمار. وفي الحوار القاسي جداً الذي سبق تبادل اللكمات والصفعات، نعت عشيق الدونا ماغنوليا رفيقه باللص، ومنه سمع اكتشافات مرعبة: «لصٌ أفضل بكثير من رجل ذي قرون، مثلك». وأضاف على الأثر براهين عن مغامرات حديثة معيّنة للدونا ماغنوليا. وباختصار، أعلمه أن خمسة من بين زملائه في الشرطة كانوا يتناوبون على مهمة زرع القرون على جبين الرجل الفاضل. هذا من دون الكلام عن مفوّض الآداب. فلو وضعوا له مصباحاً في كل قرن، لأدى الأمر إلى إضاءة نصف المدينة، من ساحة دا سيه إلى كامبو غراندي. قد لا يكون لصاً، لكنه كان عار الشرطة. واستمرا في اللكمات.

أجرى صلحاً مع رفيقه، وقد أصبح شرفه نظيفاً في العراك، ومنه ومن آخرين سمع معلومات مرعبة؛ هل تناهى إلى سمعك الكلام عن امرأة عاهرة تدعى ميسالينا؟ ليست هي من المنطقة، كلا، إنها من التاريخ، وكانت المذكورة، حسناً، أمام الدونا ماغنوليا، فتاة عذراء طاهرة...

اغتمَّ الشرطي وأقسم على الثأر. إذا هو ادعاء تهديد الدونا ماغنوليا للصيدلي:

– بقرة! ستدفعين الثمن !

هكذا كان يصغي بارتياب إلى الرواية بكاملها، وما كادت الدونا ماغنوليا تنتهي من ذكر ثدييها اللذين دافعت عنهما ضد الهجوم الزائف للدكتور، حتى كبل يديها وطلب منها اعترافاً كاملاً. ضربٌ مبرح من شرطي ماهر، من شخص ذي تجربة ومذاق. فروت الدونا ماغنوليا كل ما فعلته وما لم تفعله، خصوصاً مسائل قديمة، من دون أن يكون لها أي ارتباط بالشرطي، والحقيقة الكاملة لعلاقاتها بالدكتور تيودورو. حقيقة كاملة، في حدود. إذ عندما برّأته لم تتخلّ عن إبداء الرأي حول الدكتور، إنه حسن الهيئة ولكنه بلا أي فائدة، إذ إن أحداً لم يوجه إليها إهانة عدم النظر إلى مؤخرتها المستنفرة دائماً.

كان ثمة اضطراب في الشارع وضوضاء. وجلبت الصفعات والصرخات والشتائم، إلى أمام منزل الشرطي السرّي، حشداً متطفّلاً من الجيران والإشبينات وتلامذة المدرسة الثانوية. الإشبينات وبشكل عام الجيران، كانوا يؤيدون الضرب، الذي تستحقه، وقد مورس بشكل جيّد، مع عيب وحيد؛ لقد تأخّر كثيراً. وعانى فتية المدرسة الثانوية من كل لكمة، من كل لطمة كأنها كانت على أبدانهم بالذات، حيث إن ذلك البدن الطري والناعم الذي كان يمتلكه كل منهم في أسرّتهم المتفردة كمراهقين، مضت عليها ليالٍ كانت تنام فيها، أنثى متواجدة في كل مكان، راعية أولاد كلية الحضور، معلّمة الحب، في أكثر من الأربعين سريراً للفتية في وقت واحد، في الحلم ذاته وفي مقتبل العمر.

في تلك اللحظة، تسلل إلى منزل التحرّي كل من الدونا فلور والدونا نورما، فيما اكتفى الآخرون بالتصفيق أو الانتقاد، فلا يريد أحد إثارة مشاكل الشرطة.

صرخت الدونا نورما:

– أيها السيد تياغو، ما هذا؟ هل تريد قتل المرأة المنكوبة؟ هيّا، إطلق سراحها...

أجاب الرياضي وهو يوجّه بعض الضربات الأخيرة:

– إنها لتستحق أن أنتهي منها، هذه البقرة...

– يا لها من مسكينة... إنك لوحش أيها السيد... قالت الدونا فلور وهي منحنية على المسحوقة ضحية القدر.

– مسكينة؟ – لم يتحمل الشرطي هذا الظلم – هل تعلمين ما الذي اخترعته هذه المسكينة حول زوجكِ؟

– حول زوجي؟

– جاءت لتخبرني أن الدكتور كان يركض وراءها وأنه أراد الإمساك بها اليوم في الصيدلية. وحينما ضيّقت الخناق عليها اعترفت بأن ذلك كله كان أكذوبة، وأنها أرادت أن تدبَّر

مكيدة له، ولكي أمضي في التوضيح، هي من سعت إليه تراوده عن نفسه وهو لم يلمسها. هذا من دون الكلام عن البقية.

وسأل بصوت حزين:

– هل تعرف السيدة كيف كانوا يدعونني؟ «عار الشرطة».

في تلك الليلة، فيما هما يعدّان نفسيهما للخروج إلى السينما ، قالت الدونا فلور للدكتور تيودورو مبتسمة، وهي أمام المرآة، تضع مسحوق الأرز على وجهها:

– إذاً، أنت هو، أيها الدكتور، من يقدم العروض لزبوناتك اللواتي يذهبن إلى الصيدلية لأخذ حقنة... أردت الإمساك بالدونا ماغنوليا...

رمقها بنظرة ثابتة واثقاً من أنها كانت تمزح: فالدونا فلور لم تأخذه على محمل الجد، كل ذلك الذي يبدو هزلياً بكليته. وبقدر ما شاءت التأثر بوفاء الزوج، لم تتمكن من إبعاد صورة الدكتور تيودورو وجهاز الحقن في يده، وذات الصدر الكبير ماغنوليا، عديمة الحشمة، تحاول تقبيله. زوج مستقيم كان هناك، مهذّباً كل التهذيب. لكن، ما العمل إذا كانت تلك القصة تبدو مسلّية، ساخرة أكثر منها بطولية؟

– مجنونة... بأي حق ظنّت هي أنني سوف أدنّس مختبري، وأراود زبونة عن نفسها؟

– في هذه الحالة لم يكن ذلك إساءة تصرّف يا عزيزي، فهي ذاتها من كانت تقدّم نفسها...

– كيف كان بوسعي النظر إلى أرملة أخرى، ما دمتِ أنتِ، عزيزتي؟ قالها بصوت خفيض.

لا يوجد رجل أكثر وفاءً واستقامة، فمدّت الدونا فلور له شفتيها وقبّلها قبلة خفيفة.

– أشكرك يا تيودورو، فأنا أفكّر الشيء ذاته إزاءك.

في الشارع، في الزوايا، عند تناول جرعات من المشروب في بار مينديز، كان الرجال يعلّقون على الضرب المبرح، وعوامله وآثاره. الدونا ماغنوليا في منزل الأقارب، في حمام من الماء والملح، فالتحرّي ملأ وجهها بالكدمات. أثار السيد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى المسألة، هل كان الدكتور تيودورو عاجزاً أم لا؟ فالمرأة البغي لا تؤكده فقط، إنما بصوت عالٍ (بالأحرى بصرخات) أيضاً – هيّا نتفق على هذا – إن خصياً وحده سيكون قادراً على رفض إغواء ماغنوليا وروائعها. أخذ يروّج للتشكيك في فحولته، وهذا يروج. وقد أُثير مويزيس ألفيس صاحب مزرعة الكاكاو، فدافع عن الصيدلي:

– أخرق؟ إنها لكذبة من عديمة الحياء هذه. رجل رصين، ذو مسؤولية، هل تريد منه أن يغازل المرأة الآثمة فوق العقاقير؟

ومع هذا استمر فيفالدو في انتقاده:

– رفض امرأة بمثل هذه الفتنة... في الصيدلية أم في أي مكان كان... إذا ظهرت هناك، في «الفردوس المزهر»، مع النيّات نفسها فلن أتردد...

لقد جرى الاتفاق على تفصيل واحد: سواء أكان عن عجز جنسي أم عن زهد، فالدكتور تيودورو تصرّف بشكل سيئ عندما طردها من دون تعيين موعد للقاء معها.

– الله يعطي الجوز لمن لا يملك أسناناً...

ووصلت أصداء النقاشات المنفلتة في الزوايا وفي البارات، المشتعلة في الجعة والكاشاسا، إلى أسماع الدونا فلور وأيضاً الإطراء العام من الصديقات والجارات.

– لو أن جميع الأزواج كانوا هكذا، لكانت الأمور جيدة...

اغتاظت الدونا فلور من النميمة الموجهة إلى زوجها فأخبرت ماريا أنطونيا ، وهي تلميذة سابقة مثيرة للصخب وقوّادة، قدمت لزيارتها لا لشيء إلا لتتحدث بالأمر:

– إذا شاء أحد ما أن يعرف إذا كان حقاً رجلاً. فليأت إلى هنا وأنا اطلب إليه أن يريه...

– أن يريه؟ – قالت ماريا أنطونيا ضاحكة.

ضحكت أيضاً الدونا فلور. ومع أنها قد أُثيرت من التلميح الخبيث، لم تستطع إمساك الضحكة إزاء فظاظة الموقف.

ذات صباح، بعد ذلك بوقت قصير، استقبلت زيارة ديونيزيا ده أوشوصي مع ولدها البدين ليتناول البركة من العرّابة. كانت تأتي، مؤخراً، قليلاً ونادراً جداً. أخبرتها عن الحزن الذي انتابها عند اكتشافها وجود امرأة أخرى في حياة زوجها: إذ كان يتوقف هنا وهناك في الشاحنة، فتورّط مع امرأة في جوازيرو. تقصَّت ديونيزيا الأثر في رسالة شريرة، وأثارت هياجاً، وهددت بطرد الخائن خارج المنزل. مجرّد تهديد يا إشبينتي. من هو الرجل الذي ليس لديه مغامرات مع امرأة، ولم يخن زوجته قط؟ لكنها تألمت كثيراً، حتى إنها هزلت، والآن فقط بدأت في التحسّن، إذ إن الزوج لم ينته من المرأة وحسب، بل لم يعد ينام في جوازيرو.

واستها الدونا فلور: مَنْ لم يعان بسبب هذه التناقضات؟ فهي، الدونا فلور، ليس منذ وقت طويل أيضاً كانت عرضة للانزعاج الناجم عن اكتشاف سببَّ لها جرحاً وألماً.

– الدكتور أيضاً ؟ حتى هو؟ لقد قلت لحضرتك أن لا أحد ينجو من عقبة تضعها امرأة...

– مَنْ؟ تيودورو؟ كلا، إن قلقي ليس منه، لكنه مختلف. يا إشبينتي ديونيزيا، إن تيودورو هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة... هو رجل رصين، ومن أجله أضع يدي في النار...

تنبهت الدونا فلور فجأة وكادت تعترف لديونيزيا. فإن القصتين النسائيتين اللتين حدثتا مع الدكتور تيودورو، فإنّ القصّة الوحيدة المحسوسة بين بداية ونهاية، والوحيدة التي سببت لها جرحاً وآلمتها بعمق، لم تحدث مع الزوج الثاني، وإنما مع الأول: تلك القصة القديمة، التي ظهرت الآن فقط، بين إينيس فاسكيز دوس سانتوس والمتوفى. وعندما تتذكر الدونا فلور، ماغنوليا أو ميرتيس، فإن الهزيلة والماكرة إينيس هي التي تنتصب أمامها، تلك المستهترة، تلك العاهرة!

استمرت التمارين على المعزوفة قرابة ستة أشهر إلى أن اعتبر المايسترو المتطلب أن الشروط الكاملة للتنفيذ قد توافرت: عمل من تأليفه مهدى إلى لطف الدونا فلور وطيبتها «الهمسات الناعمة لفلوريبيديس» كان ولده العزيز.

جميع أيام السبت عند المساء، مع الشمس أو المطر، في منزل هذا أو ذاك، كانوا يجتمعون لتكرار الألحان من أجل الكونشرتو المقبل الذي حدد موعده ومكانه بعد أسبوع، في منزل آل تافيرا بيريس.

مضت تلك الأشهر في سلام من الرب، بلا حوادث جديرة بأن تذكر، باستثناء ربما بداية ماريلدا «أمام مذياع الشعب، مذياعات راديو آمارالينا، محطة المقدمة الأكثر شباباً واستماعاً إليها»، فتحرك الجيران، وأثير الجوار. كان الأمر كما لو أن جميع تلك الشوارع والأزقة تدشّن بصوت الفتاة عبر المدينة، لكثرة ما كان الهياج والتوتر كبيرين.

كانت الدونا نورما، تقود جوقة المشجعين، بعثة صاخبة كانت موجودة في الإذاعة في هذا اليوم السعيد. فقد تلقت من الجيران مبلغا قيماً من أجل الذكرى؛ من السيد صامويل داس جوياس – كان يبيع جواهر وكمّاً من الأشياء الجميلة لديه في هذا العالم: أجواخ، أقمشة استوائية، كتّان، مفروشات، عطورات، كلها بالتهريب وبثمن بخس – اشترت ساعة يد جميلة، حديثة ومبتكرة، مع كفالة لستة أشهر ، «سويسرية، ستة عشر حجراً، في منتهى الرخص». كان صامويل يؤكد بأنه لم يبعها إلّا اكراماً لزبونته الطيّبة الدونا نورما. في المساء، لاحظ السيد سامبايو، حين عُرض عليه الشراء الاستثنائي، أن زوجته كانت مرّة أخرى عرضة للخداع من قِبل البائع الجوّال العجوز، الذي كان يبيعها منذ عشرين سنة وسيظل يبيعها حتى يودّع أحد الاثنين الدنيا.

– وإذا ماتت هي أولاً، فهو الهرم صامويل، القادر في ساعة الاحتضار على أن يبيعها المشح الأخير، بالتهريب...

فالساعة لم تكن سويسرية ولا وافرة الأحجار، إنها مصنوعة في سان باولو، لكنْ ليس لهذا السبب هي رديئة، «فيجب الانتهاء من هذه الطريقة في الكلام بشكل رديء عن الصناعة البرازيلية

الجيدة مثل أي صناعة أخرى». هكذا كان السيد سامبايو الوطني يصل إلى النتيجة.

في يوم البدايات، كما هو طبيعي ومُدْرَك، أصاب الدونا ماريا دو كارمو توتر عصبي عند رؤيتها ابنتها أمام المذياع والمذيع يعلن مزاياها، «صوت رقيق هو صوت الطائر الاستوائي». والدونا فلور أيضاً مسحت دموعها. فقد كانت تكنّ لماريلدا حنان الأم، وقد ناضلت لتراها هناك، وهو إنجاز في حدّ ذاته، حتى أنها أثارت إزعاجاً للدكتور تيودورو بسببها. وإذا كان نصر ماريلدا يخصّ جميع الجيران، فإنه كان بشكل أساسي للدونا فلور. ولتحتفي بها جلبت الحلوى إلى المائدة المقدَّمة في منزل الشابة، حيث فُتحت في تلك الليلة زجاجة شامبانيا (مقدَّمة من أوزفالدينيو).

إضافة إلى بداية المغنّية الشابة، التي حظيت بتعاطف من نقّاد الإذاعة والجمهور، حدث أيضاً سفر الدونا جيزا إلى الولايات المتحدة، بشكل طارئ، فاسحة المجال لتعليقات وافرة. حتى الدونا دينورا، رغم مهارتها في التنبؤ بتفاصيل جميع الناس، لم تتوقع قط مثل هذا النبأ؟ توفي في نيويورك شخص يدعى مستر شلبي وترك ممتلكاته إرثاً للدونا جيزا. مَنْ كان هذا المستر؟ ولماذا أوصى بثروته لمدرّسة للغة الإنكليزية المقيمة منذ سنين كثيرة في البرازيل؟ لم يستطيعوا توجيه الأسئلة إلى الدونا جيزا، فهي قد سافرت ليلاً، من دون إعلان مسبق وبدون مراسم الوداع. فانتشرت الإشاعات الأشد غرابة، حول الميت وثروته. فقالوا إنه زوج مطلّق وغرام قديم. الدونا جيزا تنهش ثروة هائلة، ورثة مليونير، إنما مليونير أميركي ثري بالدولارات وليس بألوف الريس. انهارت كل الإشاعات عندما جلب البريد رسالة جويّة إلى الدونا نورما، التي قبل أن تفضّها، تفحّصت طويلاً تلك الطوابع الأجنبية والخط المألوف جداً، خط الدونا جيزا، القوي والصعب، الشبيه بخط الدكتور. كانت لتعلن فيها عودتها المقبلة. فقد حملت أزهاراً إلى ضريح ابن العم («ابن العم؟ ليصدق من يشاء... كان زوجاً، إذا لم يكن شيئاً آخر». كانوا يكيدون في الزوايا وفي البارات، الإشبينات والمستمتعون بالحياة الرغيدة من دون أن يبذلوا أي جهد. وقد وضعت شؤونها في نصابها. في الواقع ورثت – قريبته الوحيدة – لكنَّ الإرث كان يقتصر على سيارة مستعملة، وأغراض للاستعمال الشخصي وللمنزل وبعض الأسهم القليلة في شركات نفطية في الشرق الأوسط (مهتزّة والأسهم في خطر). باعت كل شيء ولم يكد المصفّى يكفي لتسديد نفقات السفر. التركة التي تركها ابن العم المشكوك في أمره هي فقط «بوسيه»، وهو كلب صيد من جنس أصيل، وعما قريب سيكون في

شوارع باهيّا، لأنّ الدونا جيزا تحضّر الأوراق لتأتي به. ومن هنا، كل ما حدث في تلك الأشهر، جدير بأن يسجل في وقائع أخبار الدونا فلور وزوجيها الاثنين. وخارج هذا كانت التمارين، واجتماعات جمعية الصيدلة، ودروس «المدرسة»، وزيارات للأقارب والأصدقاء، والذهاب إلى السينما، وممارسة الحب في أيام الأربعاء والسبت.

لم تعد الدونا فلور تحضر التمارين بالمواظبة عينها التي كانت في البداية، من دون أن تعتبرها، في الوقت نفسه، نوعاً من السخرة، مثل بعض زوجات أعضاء الأوركسترا ذوات الرأي المسموع. وعلى الرغم من أنها كانت صديقة لزوجها ومتضامنة مع واجباته وأفراحه، كانت من وقت لآخر تقوم بعمل لتتهرّب من التمرين. لأنهم في الواقع، الشغوفون بالموسيقى وحدهم ، كانوا يجدون في هذا التمرين الرتيب للألحان، السلام الداخلي، وابتهاجاً غير محدود. وفي الوقت عينه، لم يعودوا بالمواظبة نفسها، فيما يتعلق بحضور الاجتماعات المليئة بالمعرفة لجمعية الصيدلة، وبنظرياتها ومداولاتها. فلماذا ترغم نفسها على الذهاب؟ من أجل الصراع طوال الليل ضد النعاس الخبيث والحتمي، ساعية لأن تبقى يقظة، وتصبح في النهاية مغلوبة بعار الوشوشات؟ لم تقاوم خلال انعقاد الجلسة بكاملها، حتى ولا عندما قدّم الدكتور تيودورو أطروحته المثيرة للجدل حول («إبدال الوقايات الطبيعية في علاج الأرق بالمنتجات العضوية»)، مع أن تلك الليلة كانت ليلة إثارة، ذات مداولات عنيفة، حيث كانت سمعة الدكتور العلمية على المحك. وقد أدركهم الفجر وهم يتناقشون، وعندما قدّم زوجها ذراعه لها وهو مهتاج وسعيد، استيقظت هي مع التصفيق، وكادت تعتذر لكونها غفت، كما لو أنها تناولت جرعات من علاج طبيعي، وقالت أيضاً:

– يا عزيزي...

لكنه، لشدة الانشراح الذي اعتراه ، لم يلحظ عينيها الحمراوين، ووجهها المستيقظ فجأة.

– أشكركِ يا عزيزتي، يا له من انتصار!

لقد دمّر دفعة واحدة وإلى الأبد، هذه العقاقير، قائماً بواجبه كمواطن وصيدلي. وفي الصيدلية كان يبيعها، هذه السموم الخطرة، حاصلاً منها، ومن على منصّة البيع، على أرباح وفيرة

لأنها كانت في إطار الموضة. فهو صيدلي علّامة ومثقَّف، وفي الوقت ذاته، مالك صيدلية قادر وناجح، لم يكن يشعر أنه مذنب أو منزعج من التناقض الظاهر في تصرّفه، لأنه كان يلاحظ بضمير الأخلاقية النبيلة ذاته، الذي لا يلين ، وأخلاقية التاجرالتي لاتقل أهمية.

إنه الحدث الحقيقي، الذي احتل أعمدة الصحف وكان مثار التعليق في أعلى الحلقات مستوى، محرّكاً الخيّاطات ومحلّات الأزياء والخياطين؛ والذي لا بد من ذكره هنا (في العالم الحالي، من يدري إذا كنا لن نلجأ ذات يوم إلى الكوميندادور آدريانو بيريس، صاحب المال؟). كان كونشرتو أوركسترا الهواة أبناء أورفيو في القصر في حفلة كوميندادور البابا، الماهر في العزف على الفيولونسيل. فقد كان وصف تلك الأمسية من أمسيات الفن في سطوعها الكامل، يبدو لنا مهمة مستحيلة، تفوق قدرة قوانا وهذا الأسلوب المتواضع. وإذا أراد أحد أن يعرف، على سبيل المثال، عن فساتين السيدات، عن جمالهن وأناقتهن التي لا تضاهى، فإننا نرسله إلى مجموعة صحيفة الشاعر تافاريس، حيث يستطيع قراءة التغطية التي قام بها سيلفيو لامينيا، اللامع على الدوام والحكم في هذه المادة الحساسة. أما بالنسبة إلى الكونشرتو المذكورة، فلدى المهتمين أراء عبّر عنها في الصحف من قبل الناقدين فينركايز وجوزيه بيدريرا، إضافة إلى تعليق إيليو باستو، رجل الأدوات الموسيقية السبع، الذي كان علاوة على كونه عازف بيانو كان يمارس الآداب والفنون الجميلة. وقد جمعت الدونا روزيلدا في نازاريت القصاصات التي مدحت كلها تقريباً الدكتور تيودورو و«تنفيذه المحكم في العزف المنفرد الصعب على البوق في المقطوعة ذات الصوت الواحد التي ألّفها آجينور غوميس، إحدى النقاط العالية في الكونشرتو» («نوطات كونشرتو» في «جريدة باهيّا»).

في تلك الليلة، شوهدت الدونا فلور في أبهى حالاتها، في أعلى مراتب السلَّم الاجتماعي، منوَّرة وملحوظة «... زينة لطيفة، فمن هو الخيّاط الباريسي الذي وقّع فستانها المصنوع من النسيج الأرجواني، والمكشوف الرقبة والكتفين، ملقية بظلالها على الكثير من النساء؟»، كما كتب في مقالته سيلفينيو، الولد المدلل للمجتمع الراقي. كانت صفوة المجتمع كلها حاضرة، الناس الأكثر أهمية في باهيّا وشخصيات السياسة والمال والثقافة، من المطران الأول إلى رئيس الشرطة، وبينهم مفرطون في تقليد الأزياء ومزعجون، هؤلاء المخادعون الذين اختبروا بنجاح عملية مهر الزواج، بدءاً بصهريْ القائد. من مشارف ساحة «الثاني من تموز/ يوليو»، علاوة على الدكتور تيودورو، وحده

السيد زيه سامبايو، زميله في الحصان الأبيض في نادي أصحاب المتاجر ورفيقه القديم في المدرسة، تلقى دعوة، ورفض الذهاب.

– كلا! حباً بالله... دعوني بسلام، إنني أشعر بتوعك رديء، يلزمني شيء من الراحة... اذهبي أنتِ بمفردكِ يا نورما إذا أردت...

من الواضح أن الدونا نورما لم تذهب بمفردها إنما مع الدونا فلور والدكتور (كيف يستهان بدعوة مميزة كهذه؟ وحده زوجها، المنطوي على نفسه والمعادي للمجتمع، وحش من وحوش الغابة).

– أريد كل شيء حسناً وأفضل ما يمكن... قال القائد للدونا إيما كولادا.

كان كل شيء حسناً ومن أفضل ما يمكن، فالدونا إيماكولادا بإمكانها أن تكون محرّضة قاسية، لكن الحق يجب أن يقال، فقد كانت تحسن الاستقبال. وجرى التعاقد مع (جائزة الذهب) المهندس المعماري جيلبيرتو شافيس لينفذ ديكورات الحدائق حيث من المقرر أن تعزف الأوركسترا.

– لا تخش النفقات أيها الشاب، أريد شيئاً رائعاً، مع منصة وكل شيء. أنفق الذي تراه مناسباً... – القائد البخيل مع الموظفين ومع المصاريف الخفيفة، كان يفتح أربطة حقيبته، ويسحب دفتر الشيكات.

كانت تلك الكلمات المعسولة موجهة إلى المعلّم شافيس. فعدم الاهتمام بالنفقات كانت تعنيه. أنفق ثروة، لكنْ يا للجمال! كانت تبدو حديقة من قصص الخرافات، والمسرح المدرج الصغير كان جرأة هندسية لم تُرَ قطّ في باهيّا: « جيلبيربيت، سجلوا جيداً: جيلبيربيت وليس جيلبيرتو ولا جيلبيرت، كما يلفظ الأثرياء المشبوهون – أظهر نبوغه المغالي في الحداثة» (سيلفينيو مرّة أخرى وليست المرّة الأخيرة بالتأكيد).

عندما دخلت الدونا فلور فتحت فاها ولم تستطع قول سوى كلمة واحدة: «رائع». كانت الدونا إيماكولادا والقائد يستقبلان المدعوين. وكانت هي ملفوفة بخرق آتية من أوروبا، تمسك بنظارتيها، وهو سيئ الهندام بالسموكنغ، بالقميص ذي الصدر الصلب والياقة ذات الطرف المقلوب.

وعند رؤية الدكتور تيودورو والبوق في قبضة يده، ووجهه ببقع البهاء الأبيض ينفرج عن ابتسامة قالت:

– تيودورو العزيز! ا سنقدّم النوطة اليوم. كان سعيداً بالكونشرتو وبالتورية.

كانت الدونا إيماكولادا المنتصبة والمستقيمة، تمدّ أطراف أصابعها لقبلة الرجال، ولانحناءة النساء كما لو أن هؤلاء وأولئك، جاؤوا ليطلبوا البركة منها. فيا لها من امرأة دميمة! – قالت الدونا نورما عندما رأت من بعيد نظارتيْ زوجة القائد بممسكيهما.

– لكنها محسنة جداً... رئيسة جمعية الإسعاف لمجموعات أفريقيا وآسيا... حتى إنها كتبت إليّ حول هذا الموضوع. لقد تلقى الدكتور تيودورو منذ زمن بعيد رسالة سائلة إياه معونة للبعثات الكاثوليكية في تينك القارتين موقعة منها.

ثم شاهدوا أوربانو بوبري أومين، لامعاً في بذلته السموكنغ الحديثة الخروج من عند الخيّاط (دفع ثمنها القائد عندما عرف أن عازف الكمان لن يستطيع القدوم إلى الكونشرتو لعدم حيازته بذلة خاصة به)، وصندوق الكمان في يده. لقد خرج من المنزل رغم سخرية زوجته وكان يسعى إلى التخفّي بين الأشجار، لكي لا يراه احد. قاده الدكتور تيودورو إلى المدرج حيث تركا آلتيهما الموسيقيتين. كان الوقت محدداً في الساعة الثامنة، وقد أزفت التاسعة عندما استطاع المايسترو آجينور غوميس جمع الموسيقيين وأعطى إشارة البدء للكونشرتو. لكن المدعوين الذين كانوا يحتسون جرعات من الخمرة في القاعات والحدائق، لم يلبواالنداء بسرعة، وكان من الضروري أن يأخذ الكوميندادور نفسه المذياع ويصرخ بحنق، وبصوت فظ:

– سيبدأ الكونشرتو، خذوا أماكنكم في الحال ، هيّا، هيّا...

ومَنْ لا يلبِي ذلك النداء، الذي هو أمر وليس دعوة؟ توقف الضجيج واحتلّ السادة والسيدات المقاعد، وبقي كثير من الرجال واقفين على أمل الهروب. إنه استعراض حقيقي للأناقة؛ فالنساء يعرضن مجوهرات ثمينة وفساتين تكشف الصدر والكتفين بجرأة، والسادة جميعاً في حيوية، والمايسترو يشدّ سترته. في الصف الأول على مقربة من الدونا إيماكولادا جلست كل من الدونا فلور

والدونا نورما وكبير الأساقفة ، حسب ما قاله الجميع من الكاردينالية. رفع المايسترو أجينور غوميس العصا وهو متأثر من رأسه إلى قدميه (يجب أن أكون معتاداً، غير أنني في كل كونشرتو، أكون كما لو أنه الكونشرتو الأول).

استُمع إلى القسم الأول بانتباه واستحسان. مارش شوبيرت، بتفخيم وخصوصية، وبعده الكمان المتقن للدكتور فينسزلاو فيغا، في لحن الموسيقي دردلا، فانتزعا تصفيقاً وحتى هتافاً بالإطراء من متذوقين وعارفين معيّنين مثل الدكتور إيتازيل بينيسيو، «ثنائي الطبيب والفنان» (سيلفينيو). وكان المايسترو غوميس سعيداً ينضح عرقاً.

في الاستراحة، تدافع المدعوون، كجياع برابرة، إلى المقصف الفاخر، وللمرّة الأولى في حياتهما شاهدت الدونا فلور والدونا نورما الكافيار وتذوّقتاه. وأعجبت الدونا فلور، كمعلّمة في الطَّهي، بطعم الكافيار الذي يجري الكلام عنه كثيراً: «إنه شيء غريب لكنني أحببته». ولم توافق الدونا نورما، فقالت وهي ممتعضة، للصديقة (أحببت، أجل، الشمبانيا، وقد احتسيت كأسين):

– هذا الشيء له رائحة كريهة وطعم حامز، لا أدري ما هو...

ضحكت الدونا فلور أيضاً ، وبما أن الدكتور تيودورو ابتعد ليأتي بأوربانو بوبري أومين وإجباره على أن يتناول شيئاً، تذكرت قولاً للمرحوم زوجها الأول، عند عودته من الريو في رحلة لم تعرف الدونا فلور أين، وقد شبع من المسمَّى كافيار وقال عندما سألته أي مذاق يجده فيه:

– فيه مذاق السعوط... إنه لذيذ جداً!

انفجرت الدونا نورما من الضحك، وهي عرضة القليل من الدوار. لقد كان المتوفى مخبولاً، كلامه قذر، شخص لا تمكن معالجته لكنه مرح جداً، لا يُنسى! «يا ابنتي، المرحوم كان ظريفاً ويفهم في هذه المذاقات...».

عاد الدكتور تيودورو متأبطاً ذراع الرجل الفقير، وأسرعت الدونا فلور في إعداد الطبق، من دون أن تنسى كميّة صغيرة من الكافيار. كان من الصعب نوعاً ما جمع المدعوين أمام المسرح في

القسم الثاني من الكونشرتو. ثم ما لبث عشاق الموسيقى ان احتلوا مقاعدهم، لكنهم كانوا أقلّية في ذلك الحشد من الناس الأثرياء، الذين كانوا يأكلون ويحتسون الخمرة. لكنَّ القائد أصدر أوامر صارمة للخدم، وأخيراً، عزف المايسترو والأوركسترا الاعتراف البسيط. فبعد موسيقى فرانسيس توفيه، وصلت لحظة الذروة في الكونشرتو. العزف المنفرد على الفيولونسيل نفذه القائد آدريانو بيريس، الحصان البيض. عند ذلك، ساد صمت حقيقي؛ حتى في غرفة الأواني وفي المطبخ، توقف الخدم عن العمل وعلّق النادلون خدمة تقديم الشراب حتى نهاية الوصلة. وأعطت الدونا إيماكولادا شخصياً الأوامر في شأن الصمت المطبق.

حتى فارس البابا، المليونير اللاذع، متناسياً كل شيء، العالم وسكانه، ومركزاً اهتمامه على الفيولونسيل فقط، أصبح حميماً مع الفرح والطيبة، وتحول فجأة إلى كائن إنساني. علت موجة من التصفيق الحاد عندما انتهى. كان السيد آدريانو الواقف على المسرح والمشير إلى المايسترو وإلى الزملاء في الأوركسترا، منحنياً يشكر. وكانوا يصرخون «برافو» و«أعد»، ليس المتضلّعون فقط، بل كذلك المتطفلون على الموسيقى. الجميع كانوا يصرخون، وقد برز بقوة تصفيق وإطراء الانتهازي آليريو دو آلميدا، الذي لا يفهم شيئاً في الموسيقى: كانت أعماله متوقفة على كلمة من الحصان الأبلق.

وكما قال بعد ذلك، الرجل الفقير، كان يجب أن تكون وصلة القائد الأخيرة في البرنامج، حيث إن مدعوين كثراً قد غادروا الأوركسترا وانتقلوا إلى الغرف يشربون الخمرة ويتحدثون. ولم يجرؤ الذين جلسوا على المقاعد على الخروج، فاستمعوا إلى بقية الكونشرتو غير منتبهين والبعض منهم بقلة صبر. ومن آن لآخر، كان أحدهم يتشجَّع ويعتذر من جيرانه ثم يخرج، ويتسلّى داخل القصر. ومع هذا، فإن أبناء أورفيو لم يلحظوا هذه المغادرة، فتابعوا عزفهم بالانسجام نفسه والجودة ذاتها. وأبدى متعبّدو الموسيقى انزعاجهم من التحرّك والوشوشات المتزايدة. والتفتت الدونا نورما إلى الوراء محاولة إسكاتهم حين بدأ الدكتور تيودورو عزفه المنفرد على البوق (عيناه في اتجاه الدونا فلور). والتفتت أيضاً الدونا إيماكولادا المضيفة اليقظة، وتفرّست بنظارتيها، في فاقدي الصبر. كان ذلك كافياً ليسود الصمت ويبقى الناس في أماكنهم. تصاعدت أنغام البوق في الهواء وحلّقت فوق الحديقة، وراحت تنسج هالة من الحب حول شعر الدونا فلور الأسود المائل إلى الزرقة. كانت

عيناها نصف مغلقتين تصغي وتتذوق، من خلال ذلك العزف المنفرد، ما أعطاه لها زوجها الطيّب. فقد كانت هناك حيث لم تتصوّر قطّ أنها قد تتوجد، جالسة في حدائق المنزل الأكثر أرستقراطية في باهيّا، وإلى جانبها مصغ بلطف، نيافة المطران الأول بردائه الأرجواني المصنوع من فرو الفقم.

لقد جاء لها زوجها بالكثير: السلام والأمان، والاطمئنان والنظام والرفاهية، كل ما كانت ترغب به وما استطاع هو تقديره، دون أي إزعاج أو قلق. والآن كان يبحث في أحشاء البوق الصغير عن النوطة الخفيضة لحبه، ولحماسته. إن أي امرأة لا تستطيع أن تتوق إلى زوج أفضل. ولقد نظرت الدونا نورما، وسط موجة التصفيق إلى صديقتها: كانت ثمة دمعة على خدّ الدونا فلور: «دمعة السعادة»، فابتسمت الجارة الطيبة، راضية هي أيضاً بنجاح الدكتور:

– لقد عزف الدكتور تيودورو بشكل إلهي...

– لقد كان زوجكِ جيداً... أضافت الدونا إيماكولادا ذاتها، من المقعد القريب.

وما إن اختفت آخر أنغام الأوركسترا في مقطوعة «الأرملة الطروب» وهي الوصلة الأخيرة في البرنامج، حتى بدأ الرقص في قاعة الاستقبالات الكبيرة، وحيًّا المستمعون في الحديقة، وفي مقدمهم المطران الأول، المايسترو والموسيقيين المحيطين بقائد الأوركسترا. لم تمسح الدونا فلور الدمعة عن خدّها، وحين شاهدها الدكتور متأثرة، تأكد أنه نال جزاء الأشهر الستة من التمرين. ثم جاؤوا من الغرفة الكبيرة حيث ارتجلوا حفلة راقصة، يبحثون عن إيليو باستو لكي ينتزع من البيانو ألحان السامبا والفوكس، والتانغو والبوليرو.. واقترح الدكتور تيودورو والبوق في قبضة يده، الانسحاب: تجاوز الوقت منتصف الليل... طلبت الدونا نورما خمس دقائق فقط، الوقت اللازم لتناول كأس شامبانيا: «أعبدها!».

احتست كأسين. وفي سيارة الأجرة كانت تضحك من دون أن تعلم لماذا، راضية في الحياة. وأمسكت الدونا فلور يديّ زوجها بكلتا يديها، زوجها الطيّب. وعلّقا على الكونشرتو والحفلة، كلاهما رائعان. كثير من أنواع الأكل والشرب، وكل شيء من أفضل الأصناف، فالقائد صرف مالاً باهظاً.

– كان ثمة إفراط... حتى كافيار... من الصنف الحقيقي، روسي... قال الدكتور.

غمزت الدونا نورما، في جو الانشراح الناتج من الشمبانيا، الدونا فلور توجهت في الكلام إلى الدكتور تيودورو، بصوت مفعم بالخبث لا يفهمه غير الاثنتين:

– والكافيار يسرّك أيها الدكتور؟

– أعلم أنه شيء من الآلهة، واليوم تذوّقته، لماذا يجب أن نضيع فرصة كهذه، حين يكون في وسعنا أكل طعام شهي وغالٍ جداً. لكنني سوف أعترف لكِ، يا دونا نورما، لا أستطيع ملاءمة تذوّقي مع مذاق...

– وأي مذاق ترى أيها السيد في الكافيار؟

كانت الدونا نورما تبتسم بمكر، في ابتهاج تام، ومنشرحة جداً. وخفضت الدونا فلور رأسها، من يدري، فقد يكون ذلك لإخفاء ابتسامة. وحاول الدكتور تيودورو أن يقارن مذاق الطعام الحديث الطعم، فلم يعثر على شيء يقارنه به.

– بصراحة، لا أذكر شيئاً له المذاق نفسه؛ والكلام بيننا، يا له من مذاق رديء!

رديء؟ – تقلّصت الدونا نورما من الضحك – أنا أيضاً أرى... لكنْ هناك من يراه جيداً، أليس كذلك يا فلور؟

لكن الدونا فلور لم تضحك، كان وجهها متحصّناً في الظل، من يدري أحزينة هي أم متأثرة فقط؟ كانت تتأمل الليل كأنها لا تسمع ضحك الصديقة. ضغطت على يد زوجها وقالت له بنصف صوتها:

– الموسيقى رائعة وكذلك تنفيذك يا تيودورو.

– هذا أفضل ما أُحسن فعله... فأنا هاوٍ، ولا شيء أكثر من ذلك.

لماذا أفضل من ذلك؟ من أنا لألحّ عليك يا عزيزي، لتكن مهما كنت؟ ماذا قدّمت لك أنا، أي ممتلكات وضعتها في صحن الميزان الزوجي للتوازن مع ممتلكاتك الثمينة؟ من المال إلى المعزوفة الموسيقية ذات الصوت الواحد على البوق، من المعرفة إلى التهذيب الرفيع، وهذا الصفاء، هذه الحشمة؟ لم أقدّم لك شيئاً، لم أضف شيئاً لك، وأنا لست شبه شفافة وصلبة العود، إنني لا أملك ضياءك الجلي، إنني مخلوقة أيضاً من الظلال، من مادة ليلية قصيرة الأجل. إنني جد صغيرة لتساميك يا تيودورو.

عند محطة الترام، منتظراً وسيلة النقل، رآهم أوربانو بوبري أومين، يمرّون. في يده صندوق الكمان وصرّة بالأطعمة المالحة والحلوى للسيا ماريكوتا.

9

البروفسور إيبامينونداس سوزا بينتو، حذر ومستبد ، كان يحب الأمثلة والجمل الجاهزة، واجداً في هذه الأمثال والأماكن المشتركة، تلخيصاً لحكمة القرون، والتعبير عن الحقائق الأزلية.

– ليس للسعادة تاريخ، ومع حياة سعيدة لا تؤلف رواية. أجاب لما سأله شيمبو، أحد أقارب المرحوم، عن الدونا فلور، التي لم يرها منذ عدة سنوات، منذ ذلك الكرنفال العبثي («منذ متى، سنتين أم ثلاث؟») ودفن المتهتك الفرح.

– لقد تزوجت مجدداً وهي سعيدة... مضى عليها سنة تقريباً، حيث ربطت مصيرها بمصير الدكتور تيودورو مادوريرا...

– وماذا حدث لها ايضاً؟

– على حد علمي، لا شيء... – وحتى لا يضيع الفرصة، ذكر المثل: كما يقال، السعادة ليس لها تاريخ...

وافقه شيمبو، صاحب التجربة في الحياة:

– هذا صحيح تماماً. فحينما يحدث شيء فهو دائماً لكي يشوش عقل الناس... فإذا أخبرتك... إصغ...

فتح شيمبو قلبه. في عمره ذاك، وكان طاعناً في السن، أيها البروفسور! تورّط بعلاقة حب مع فتاة في التاسعة عشرة من عمرها – ليست عذراء، لكنها تكاد أن تكون. استعمل الخطبة وسرق عفّتها، لكنه فعل ذلك بشكل متسرع تاركاً بعض الرواسب التي كان شيمبو قد اختُص بها. فكانت النتيجة، يا عزيزي البروفسور: تكور خصر الفتاة وها أنا أتحمل المسؤولية... البروفسور إيبامينونداس سوزا بينتو، صاحب السيرة النقية، لم يكن عنده نصيحة ولا مواساة لقلق الرجل اللامع، ولعدم وجود رأي حصيف، هنأه على هذا الحدث السعيد.

نحن أيضاً لا نملك عزاء أو نصيحة حكيمة للمعلم شيمبو، سوى الوقت والمكان. ومن كل هذا الحدث استفدنا فقط من الحقيقة الكامنة في القول المأثور: في الوجود السعيد للدونا فلور وللدكتور تيودورو لم يحدث شيء يستحق السرد، ما دمنا لا نرغب إطالة هذه الواقعة، بتقرير يومي عن سعادة هادئة وتافهة، مادة ليست أدبية.

الدونا فلور بالذات، مخبرة شحيحة في مراسلاتها العائلية القليلة؛ ففي رسالة إلى أختها روزاليا، عشية العيد الأول لزواجها من الصيدلي، قالت لها إنه ليس لديها شيىء مهمّ ترويه لها. فكانت تملأ الصفحات بأخبار الأقارب والجيران (في خلال تلك السنوات انتهى الأمر بروزاليا أن عرفت أسماء أولئك الناس جميعاً من خلال أختها). الخالة ليتا وأوجاعها الاعتيادية، والعم بورتو الذي لم يكن يشيخ، والدونا روزيلدا المقيمة دائماً في نازاريت، مسكينة سيليستي! وماريلدا، من نجاح إلى نجاح، الآن في إذاعة سوسييدادي ومع وعد بتسجيل أسطوانة. عن الدونا نورما روت لها قصة، طرفة («من اللازم أن تعرفي نورمينيا شخصياً، إنه لأمر جدير بالاهتمام»). دُعيت يوم ثلاثاء للذهاب يوم السبت التالي إلى حفلة عمادة، فرفضت «لأن يوم السبت سأكون مضطرة للمشاركة في دفن». «كيف بوسعكِ أن تعرفي أن في يوم السبت سيكون ثمة دفن يا نورمينيا، إذا كنّا لا نزال في يوم الثلاثاء؟» كيف... كان أحد معارفها على مشارف الموت، وبالتأكيد سيفعل ذلك في يوم الجمعة ليلاً، ليُدْفَن يوم السبت وهكذا يستفيد من الأسبوع الإنكليزي. جلبت الدونا جيزا خلال

عودتها من نيويورك كلباً، من هذه الكلاب «التي تحسن جيداً توظيف ألسنتها»، وللدونا فلور جلبت هدية جميلة، دبوساً لكنْ، «تصوّري فقط يا روزاليا، ما الذي أعطته الغرينغا المجنونة لتيودورو؛ قميصاً ممتلئاً بنساء عاريات، هل فكّرتِ في الدكتور مرتدياً ثياباً كهذه؟ وهو كرجل مهذّب، لم يقل شيئاً، حتى إنه شكر من دون أن يغضب، لكنني احتفظت بالقميص في قعر درجي كي لا يراه كل ساعة فيسخط على جيزا التي هي مع كل هذا طيّبة القلب جداً. أما الدونا دينورا فكانت مريضة، ولا تخرج من المنزل، «تصوّري عذابها، مع المفاصل الجامدة، روماتيزم شرس، تعرف الأشياء عن طريق شخص ثالث». صارت تقتصر على كشف البخت بورق اللعب للزائرات، وتتنبأ بمصائب لجميع الناس، في انفعال. حتى إنها وجّهت تهديداً للدونا فلور ، وهي تستشير ورق اللعب: «قالت لي أن أحتاط للأمر إذ لا يوجد خير يدوم إلى الأبد، ما رأيت قطّ فماً يطلق مثل هذه اللعنات».

وإذ خلصت إلى هذه الأمور الروتينية، لم يعد عندها شيء لتخبرها إياه: «لم يحدث أي شيء، دائماً الحياة الصغيرة نفسها من دون أشياء جديدة». قرر الدكتور شراء المنزل الذي يسكنان فيه، لكن أحد الوريثين للصيدلية صمم على بيع حصته والذهاب إلى الريو. استشار الدكتور تيودورو الدونا فلور: «ما الذي يبدو لكِ مصيباً أكثر ومعقولاً؛ الحصول على المنزل أو على حصة في الصيدلية؟». وحين سألها أجرى معها نقاشاً ليبرهن أن تلك الحصة ستضمن له السيطرة على المؤسسة، وسيصبح الشريك الحائز أغلبية الأسهم. أما بالنسبة إلى المنزل فسيشتريانه في ما بعد، حين يستطيعان. فليس أمام المالك أي مخرج آخر، إلا البيع، فعائد الإيجار شيء باعث على الضحك.

في الحقيقة، لقد كوّن الدكتور رأياً وصمم على كيفية التصرّف بشكل أفضل، وإذا كان قد طلب مشورة الدونا فلور فإنه فعل ذلك بداعي اللطف والتهذيب؛ «الوقت يمرّ والدكتور لا يتغيّر، اللطافة ذاتها وكذلك النظام ذاته والمعاملة نفسها، دائماً بالتساوي، كل يوم وراء الآخر. بإمكاني القول عن الذي سيحدث في كل لحظة، على مرّ الساعات، وأعرف كل كلمة، لأن اليوم مساوٍ للغد».

وإذ تنقضي الحياة هكذا، هانئة وهادئة، في هذا الإيقاع البطيء والذي لا يتغيّر، كيف تخشى التبدّل، كيف تأخذ على محمل الجد توقعات كاشفة البخت الهاوية والعرجاء، هاوية في أوراق اللعب أكثر مما يهوى القائد آدريانو بيريس نفسه الفيولونسيل؟ بالإضافة إلى أن الدونا فلور، لم تكن تخشى حدوث طارئ يقطع رتابة الأيام المتساوية في السعادة والوداعة. «حتى إنها لخطيئة، يا شقيقتي، أن أتكلم هكذا ونحن نعيش مثل هذه الحياة، بعد أن أكلت الخبز المرّ. لكنَّ الشيء ذاته ينتهي يومياً بأن نتعب، حتى عنما تكون الأمور على أحسن حال. عزيزتي روزاليتا، لا أذيع سراً إذا قلت لك، إنه على الرغم من هذه الحياة السعيدة جداً، المحسودة عليها من الجميع، أصاب أحياناً بقلق لا رأس له ولا ذنب، يصعب تفسيره، شيء لا أدري ما هو... الطبيعة السيئة لشقيقتك التي لا تحسن أن تقدر كما يجب كل ما منحته لها السماء من دون أن تكون أهلاً له: حياة مطمئنة وزوج طيّب».

في تلك المناسبة، وبما أنها قد ذهبت إلى القداس في كنيسة القديسة تيريزا، مع عظة دوم كليمينتي («لماذا، أيها الرب لا يملأ السلام قلوب البشر؟»)، توجهت بعد القداس إلى غرفة محفوظات الكنيسة في نيّة دعوة الكاهن إلى الذكرى الأولى لقرانها بالدكتور تيودورو. سوف لن تكون حفلة بكل ما في الكلمة من معنى: سيجتمع الأصدقاء الحميمون فقط حول كأس شراب وبعض الحلوى، محتفلين في الوقت ذاته، باختيار الصيدلي للمرّة الثانية أميناً لمديرية الجمعية الباهيّانية للصيدلة المنتخبة حديثاً.

– سأكون هناك، بكل سرور، لأهنئكما على هذا العام من الانسجام الزوجي، هذا الاتحاد المثالي المبارك من الله...

انسحبت الدونا فلور، والكاهن الأبيض، منتقداً عظته المتشائمة نوعاً ما، يبتسم بفرح: هوذا شخص، الدونا فلور، قلبه مسكون بالسلام، هوذا أخيراً كائن إنساني قانع وسعيد بحياته، مكذّباً عظته المفعمة بالغموض والشكوك. في الطريق، توقفت الدونا فلور أمام المجموعة الغريبة المؤلّفة من صورة مفرطة في الزخرفة للقديسة كلارا مصنوعة من الخشب القديم والشعبي حيث نُحت ذلك الملاك بسخرية وصراحة شبيهتين بوقاحة وسخرية المتوفى. مسكينة القديسة؛ مهما كانت قداستها

كبيرة ومحرمة ومهما بلغت من العفة والطهارة، فهي لم تقاوم نظرات الوقح الآسرة، فاستسلمت له، متنازلة عن وقارها وحياتها ، مستعدة لفقدان خلاصها الذي قد فازت به، مبادلة الجنة بالنار، لأنه لا قيمة، من دونه، للجنة وللحياة؟

هناك أمام المجموعة غير المألوفة المصنوعة من الخشب والإغراء، وقفت الدونا فلور طويلاً، بلا حراك، ورفعت سفينة الحجر والجص، مركب فسيح، المرساة وغادرت، مندفعة في الرياح في بحر أزرق من السحب ، عبر السماء.

10

تألقت الدونا فلور وكانت الحفلة الصغيرة من أكثر الحفلات نجاحاً توجت العيد الأول «للقران السعيد بين روحين توأمين»، كما قال بأسلوب رصين، الدكتور سيلفيو فيريرا، الأمين العام (أُعيد انتخابه) للجمعية الباهيّانية للصيدلة، رافعاً كأسه نخب الزوجين، «عزيزنا الجزيل التقدير الأمين الثاني وقرينته المحترمة، الدونا فلور مثال الخصال الحميدة والفضائل». كانت الدونا فلور قد أبلغت دوم كليمينتي بحضور «بعض الأصدقاء المقرّبين»، لكنْ لدى اجتيازه الباب، وجد الكاهن أن المنزل مزدحم، وليس بالجيران فقط. فقد جلب صيت الدكتور تيودورو ولطف الدونا فلور لذلك الاحتفال الحميم عدداً معتبراً من الأشخاص: مسؤولي الطبقة الصيدلانية وزملاء أوركسترا الهواة وممثلين تجاريين وتلميذات حاليات وسابقات لمدرسة مذاق وفنٌ، إضافة إلى أصدقاء قدامى، بعضهم وجهاء محترمون مثل الدونا ماغا باترونسترو الثرية، والدكتور لويس إينريكي، « العقل الذهبي». وقبل أن يحيي الزوجين بالذات، عانق دوم كليمينتي « الأديب السعيد»: فكتابه تاريخ باهيّا قد حاز جائزة معهد « أمجاد مرغوبة تكرس قيمة حقيقية» (أنظر جونو سيلفيرا، «كتب ومؤلفون»، في صحيفة «المساء»). في الجانب الثقافي، علاوة على خطاب الدكتور فيريرا، الغني بالاستعارات المختارة من علم البيان، كان ثمة القليل من الموسيقى. الدكتور فينسيزولا فيغا قدَّم معزوفتين لصوت واحد بالكمان، استقبلتا بالتصفيق. واستقبلت أيضاً بالتصفيق والحماسة، المغنية الفتيّة ماريلدا راموزاندرادي، « صوت المناطق الاستوائية الحنون» بالرغم من انعدام التآلف الموسيقي: أوزفالدينيو وحده رافق الإيقاع على الطبلة.

في هذه الساعة المرتجلة من الفن، قدّم الدكتور تيودورو شيئاً جميلاً، عارضاً وصلة من الإحساس الحقيقي؛ عزف بالبوق، النشيد الوطني بأكمله، منتزعاً التصفيق الحماسي في النهاية. إضافة إلى هذا، أكلوا وشربوا، ضاحكين ومتحدثين. انغرس الرجال في قاعة الزوّار، والنساء في الغرفة الأخرى، رغم احتجاجات الدونا جيزا، التي كانت تعتبر هذا الفصل بين الجنسين عبثاً «إقطاعياً ومحمدياً». فهي وسيدتان أو ثلاث فقط جازفن في الاشتراك في الحلقة الذكورية حيث انسابت الجعة وتتالت النكات التي تعرضت لرقابة الدونا دينورا التي كانت متألمة لكنها رابطة الجأش.

– إن ماريا أنطونيا هذه هي امرأة متهتكة... تدسّ أنفها في وسط الرجال، تصغي للسفاهات... وتجرّ معها الدونا أليسي والدونا ميزيتي... أما بالنسبة إلى الغرينغا، فهي أسوأ الجميع... أنظرن كيف تمدّ عنقها لكي تستمع.

في المقابل، أنظرن إلى الدونا نيوزا ماسيدو (وشركائها)، إنها مثال للسلوك الحسن في حلقة النساء، تتفحص بكتمان، وتعطي انتباهاً لراميرو، وهو فتى يافع في سنيه السبع عشرة، ابن الأرجنتيني صاحب معمل السيراميك. فلولاها لما وجد المراهق من يسلّيه، إذ إن الشبان الآخرين يحيطون بماريلدا ويطلبون منها الرقص معهم، سامبا وفالس وتانغو ورانتشيرا، بينما لا يرغب هو إلّا في سرد أخباره عن صيد السمك «اصطدت سمكة حمراء، وزنها خمسة كيلو غرامات».

– أوه! – قالت بذهول – خمسة كيلوغرامات؟ يا له من شيء هائل! وماذا اصطدت غير ذلك؟ أي اسم يعطى لصيّاد جسور؟ «زيت كبد سمك القد» سيكون ذلك حسناً، وتألقت عينا نيوزوكا.

عندما وصل الأرجنتيني مع زوجته وابنه، وجد عند الباب السيد فيفالدو صاحب مؤسسة دفن الموتى «الفردوس المزهر». فمضيا معاً يهنئان صاحبيْ المنزل، وفي العودة إلى غرفة الرجال، علّق بيرنابو، بصراحته الفظّة نوعاً ما، على أناقة الدونا فلور، التي كان فستانها يثير غيرة جميع النساء الحاضرات، وأيضاً المتوتر ميلتينيو، المخنّث الذي يعمل أحياناً «مدبرة منزل» – بالأحرى

مدبرة ممتازة – لدى الدونا جاسي، مستعاراً ليساعد في الحفلة. (الدونا فلور تبالغ اليوم، فهي تشع إناقة).

– إن المال هو ما يجعل المرأة جميلة. قال السيد هيكتور بيرنابو. لاحظوا أناقة الدونا فلور وكم هي بارعة الجمال...

نظر السيد فيفالدو، وهو كان يحب أن يراقب النساء ويقيس الأطراف، والانحناءات، والنتوءات.

– في الحقيقة، كانت دائماً أنيقة ولطيفة. ليست فائقة الجمال، هذا أكيد، والآن هي امرأة أكثر، فهي في القياس المضبوط. مجنون هو من يحب الفتاة الصغيرة، فعشر منهن لا يقارن بسيدة في ريعان العمر، وهي تنزع لاقطات المشابك...

– تفرّس في عينيها... – قال الأرجنتيني، وكما يُرى هو أيضاً ذوّاقة.

عينان فاتنتان، ضائعتان في المدى، كما لو أنهما مستسلمتان لأحلام شهوانية. أراد السيد فيفالدو أن يعرف أية أفكار رقيقة كانت تلهم الصيدلي بحيث جعلت الدونا فلور حالمة بهذا القدر. كانت تمضي من غرفة إلى أخرى، ملبية طلبات مدعويها، لطيفة مرحة، سيدة منزل كاملة؛ كانت تقوم بكل ذلك بشكل آلي. ربت السيد فيفالدو بيده ذراع الأرجنتيني؛ ليس المال هو الذي يجعل المرأة جميلة، يا سيد بيرنابو، إنها المعاملة، إنها راحة النفس، السعادة. فتانك العينان الساحرتان وتينك الوركان الغاويان تعود إلى السلام السعيد لحياتها. كان تعبير نظرها غريباً... متى رآها قبلاً بتلك النظرة الشاردة نفسها، كما لو أنها تنظر إلى قلبها بالذات؟ كان السيد فيفالدو يبحث في ذاكرته ووجد: تلك النظرة نفسها في ليلة السهر على المرحوم. بتعبير مماثل، مع أنها كانت تتقبل التعازي، كما هي اليوم وهي تتقبل التهاني، كانت عيناها تنظران إلى ما وراء الزمن، كما لو أنه لا يوجد حولها لا دموع حداد ولا ضحكات احتفال، إنما الوحدة فقط. تنبّه السيد فيفالدو إلى أن جمالها يأتي من داخلها أيضاً، في بُعْد لم تكن تدركه.

في الغرفة حيث تجتمع النساء، عُرض مرّة أخرى موضوع الحياة السعيدة الحالية للدونا فلور. بعض السيدات الحاضرات، زوجات أعضاء الأوركسترا وزوجات الصيادلة، كنَّ يعرفن عن ذلك الزواج الأول الكارثي وعن الزوج المحتال.

لم تكن الجارات والمتطفلات يرغبن في أمر آخر عدا الإخبار والمقارنات: أخبرن وقارنّ بما يكفي. بالنسبة إليهن لم تكن ثمة ملهاة أفضل؛ حتى ولا النكات السفيهة التي تجعل الرجال (وعديمات الحياء مثل ماريا أنطونيا) يضحكون بقهقهات، في الغرفة الأخرى، ولا البقاء حول ماريلدا يطلبن منها أغنيات سامبا قديمة، أغنيات فالس قديمة، في ساعة الاشتياق، مثل الدونا نورما، والدونا ماريا دو كارمو، والدونا آميليا، والفتيان (متيّمون جميعهم بماريلدا)، فلا شيء يمكن مقارنته بلذة الثرثرة. الزواج الأول، إعرفن أيتها الصديقات الغاليات كان الجحيم في الحياة. فهذه السعادة في الزواج الثاني ما زالت أكبر وأغلى، ولها قيمة أكثر، مقارنة بخطأ الزواج الأول، الذي كان استفزازاً، مصيبة، شقاء! كم تعذّبت الشهيدة المسكينة بين يدي وحش مغلّف بالشرور والرداءة، شيطان؛ بلغ به الأمر أن ضربها.

– يا إلهي ! – وضعت الدونا سيباستيانا المتأثرة، يدها على صدرها الواسع.

كم تعذّبت! كل ما يمكن أن تعانيه زوجة مرهفة الحسّ ، في ضعة شارع المرارة. تعمل لكي تؤمن حاجات المنزل والأسوأ من هذا، إدمان المتهتك القمار، حيث إن القمار بصفته عمومياً وعلنياً هو أردأ الرذائل وأغلاها ثمناً. وبالقدر الذي فيه الآن سعيدة، كانت في ما مضى تعيسة!

من غرفة الأواني كانت الدونا فلور تستمع إلى ذكريات حياتها هذه، وعيناها غارقتان في غمام بعيد. مع الدونا جيزا في حلقة النكات، ومع الدونا نورما في حلقة الساهرات، لم يفتح أحد فمه للدفاع عن المتوفى. وفي حوالى منتصف الليل، انصرف آخر المدعوين. والدونا سيباستيانا ما زالت في تأثر السرد عن أخبار الشهداء والقديسين والذي دام سبع سنوات – كيف تحمّلت، المسكينة؟ – ثم لمست خد الدونا فلور في حنان وقالت لها:

– حسناً إذ تغيّر كل شيء والآن لديكِ ما تستحقينه...

أبهرت ماريلدا بنورها كنجمة الطلبة الشبان، وراحت تدندن أغنية تانغو خاصة بالسيريناتا: «الليل في ذروته، السماء مبتسمة، الطمأنينة كأنها حلم...»، الأغنية التي دفنتها الدونا فلور مع الميت. رافق الدكتور تيودورو، مع ابتسامة رضا، المدعوين إلى الباب ، وهم جمع صاخب متورّط في نقاش لا ينتهي حول أثر الموسيقى في علاج أمراض معيّنة. وكان الدكتور فينسيزلاو فيغا والدكتور سيلفيو فيريرا غير موافقين. وحتى لا تفقد المداولة رونقها رافق رب المنزل الأصدقاء حتى الترام. ولم يعد يُسمع غناء ماريلدا. وعندما أصبحت وحدها، أدارت الدونا فلور ظهرها لكل ذلك: الحلوى وزجاجات الشراب وانعدام الترتيب في الغرفتين وأصداء الأحاديث في الرصيف والبوق مع الغناء الشحيح والحزين. ذهبت إلى غرفة النوم، فتحت الباب وأضاءت النور.

– أنت؟ قالت في صوت حار لكن بلا مباغتة، كما لو أنها كانت تنتظره.

عارياً مثلما رأته الدونا فلور في فترة ما بعد الظهر من ذلك الأحد في الكرنفال عندما جاء رجل المشرحة بالجثة وسلّموها إياها، كان فادينيو مستلقياً على السرير، ومبتسماً. أشار إليها بيده. ابتسمت له الدونا فلور مجيبة لابتسامته. فمن يستطيع مقاومة لطافة البوهيمي وذلك الوجه المفعم بالبراءة والسفالة، أوعينيْه الداعرتين؟ حتى القديسة لا تستطيع، فكيف تستطيع الدونا فلور، المخلوقة البسيطة.

– يا جميلتي... – ذلك الصوت العزيز، الكسول والبطيء.

– لماذا جئت اليوم ؟ سألت الدونا فلور.

– لأنكِ دعوتني. واليوم دعوتني كثيراً بحيث إنني جئت... كما لو أنه قال إن النداء كان جد بعيداً وقوياً لدرجة أنه اخترق حدود الممكن والمستحيل.

– ها، أنذا، يا حبيبتي. جئت حالاً... – تناول يدها وهو يهمُّ بالنهوض.

جذبها إليه، وقبّلها. في الوجه، لأنها أبعدت فمها:

– في الفم، لا. ليس بالإمكان أيها المجنون.

– ولماذا لا؟

جلست الدونا فلور على حافة السرير، وتمدد فادينيو مجدداً بكل ارتياح، فاتحاً فخذيه قليلاً وعارضاً كل شيء: تلك المحرّمات غير المحتشمة لكن الجميلة. وكانت الدونا فلور تلين مع كل تفصيل من ذلك الجسد: خلال ثلاث سنوات تقريباً لم تره وهو بقي كما هو، كما لو أن الوقت لم ينصرم.

– إنك كما كنت تماماً، لم تتغيّر ولا بالقدر الزهيد. أنا، سمنت.

– إنكِ جميلة جداً، أنتِ تعرفين جيداً... أنتِ تشبهين بصلة، كثيرةِ اللحم والعصارة، شهية للعضّ.. هذا النذل فيفالدو على حق... وطريقته في النظر إليك، الوقح! ...

– اسحب يدك يا فادينيو، ودعك من الكذب... ففيفالدو لم ينظر إليّ قط، دائماً كان محترماً... هيّا، اسحب يدك...

– لماذا يا حبي؟... أسحب يدي، لماذا؟

– هل نسيت يا فادينيو، إنني امرأة متزوجة وإنني رصينة؟ وحده الذي يستطيع أن يضع يده عليّ هو زوجي...

– وأنا من أكون، يا حبي؟ إنني زوجكِ، ها قد نسيتِ؟ وأنا الأول، لديّ الأولوية...قال غامزاً بعينه بغنج.

كانت تلك معضلة جديدة، لم تفكر فيها الدونا فلور ولا تعرف كيف تجيب:

– إنك تخترع قصصاً... فلا تترك لي هامشاً للنقاش...

في الشارع، صدى الخطى الثابتة للدكتور تيودورو يعود إلى البيت.

– ها قد جاء يا فادينيو، هيّا انصرف... كنت مسرورة، لا تعرف مدى سروري لرؤيتك... كان ذلك أمراً حسناً جداً.

– انصرف، أيها المجنون، فهو قد دخل المنزل، سيغلق الباب.

– لماذا يجب أن أذهب، قولي لي؟ أجاب فادينيو وهو في وضعه المريح.

– لقد وصل وسيراك هنا، ما الذي سأقوله له؟

– بلهاء... فهو لا يراني، فأنتِ وحدكِ مَنْ يراني، يا زهرة ضياعي...

– لكنه سينام على السرير...

– لا أستطيع منعه، لكن إذا ضغطنا قليلاً فهو يستوعبنا نحن الثلاثة... قالها بحسرة.

– ما الذي تظنه عني، قالت هذه المرة بغضب. أم إنك لم تعد تعرفني؟ لماذا تعاملني كما لو أنني امرأة بغي، عاهرة؟ كيف تجرؤ؟ ألا تحترمني؟ فأنت تعرف جيداً أنني امرأة شريفة...

لا تغضبي يا حبي... لكنكِ أنتِ من دعوتني...

– أردت فقط رؤيتك والتحدث إليك...

– لكننا لم نتحدّث بعد...

–عد غداً وسنتحدث...

– لا أستطيع أن استمر ذاهباً وعائداً... أم لعلكِ تظنين أنها رحلة قصيرة، مثل الذهاب من سانتو آمارو إلى سوق سانتانا الأسبوعي؟ فلا يكفي فقط القول «سأذهب إلى هناك وأعود تواً؟»، فما دمت قد جئت سأبقى مقيماً هنا... يا حبي.

– لكنْ ليس هنا في غرفتي، على السرير، حباً بالله. أنظر يا فادينيو، حتى ولو لم يرك، فأنا أصبح ميتة من الخجل. لا أستطيع ذلك. وأخذ صوتها غصة بكاء. فهو لم يتحمّل قط رؤيتها تبكي.

– حسناً، سأنام في الغرفة، غداً نحل هذا. لكنْ قبل ذلك أريد قبلة.

سمعا الدكتور في الحمام يغتسل، ثمة بقبقة ماء، فأدارت الفاضلة له خدّها.

– كلا، يا حبي... من فمكِ، إذا أردتِ أن أخرج...

لن يتأخر الدكتور. ماذا أفعل غير الخضوع لإلحاح الطاغية، أسلّمه شفتيّ؟

– آه ! يا فادينيو، آه !... – ولم تقل شيئاً بعد ذلك، فالشفتان واللسان والدموع (من الحياء أم من الفرح؟) ممضوغة في الفم الشره والمجرب. آه! هذه، كانت قبلة!

خرج هو مع عريه الكامل، جميلاً وفحلاً! وبرٌّ أشقر يغطّي ذراعيه وساقيه وغابة الشعر الأشقر في الصدر وأثر طعنة الموسى على كتفه اليسرى والشارب الوقح ونظره الداعر. خرج تاركاً القبلة تحرق فمها (وأحشاءها).

اجتاز الدكتور تيودورو الباب وقام بالإطراءات الواجبة:

– حفلة من الدرجة الأولى يا عزيزتي. كل شيء كان كاملاً، لم ينقص شيء. هكذا أحب أنا، بلا زلّة... وراح يبدل ملابسه وراء السرير الحديدي، فيما كانت هي ترتدي قميص النوم.

– لحسن الحظ أن كل شيء جرى بشكل حسن يا تيودورو.

لكي تحتفل بالعيد السنوي، اختارت، تلك الليلة، قميص النوم الموشى بالدانتيل والمخرّمات التي ارتدتها في ليلة الزفاف في باريبي، وهي عمل من إبداع الدونا إينايدي، ومنذ ذلك الوقت أودعته الخزانة. رأت نفسها في المرآة جميلة ومثيرة للرغبة. كانت لديها الرغبة بأن يراها فادينيو، حتى ولو لنظرة خاطفة.

– سأذهب لأشرب الماء في الداخل، أعود خلال دقيقة يا تيودورو.

قد يكون الآخر نائماً من تعب عبور المسافات الطويلة. وحتى لا توقظه، مشت في الممر على أطراف أصابعها. كانت تريد رؤيته فقط للحظة واحدة، فتلمس وجهه إذا كان نائماً، وتظهر له (من بعيد) بقميص النوم الشفّاف إذا كان مستيقظاً. فلم يتسن لها سوى أن تلمحه مغادراً عبر

الباب، عارياً ومسرعاً. بقيت متوقفة ومتجمدة، وفي قلبها وجع؛ ها هو يعود مهاناً، وهي إلى الأبد وحيدة. لن تحظى بعد اليوم بوجهه الرقيق حيث تتركز الشفتان، ولن تعرض أبداً قميص النوم أمامه (لكي يمدّ هو يده وينتزعه ضاحكاً) لن يحدث أبداً بعد الآن. فقد غادر مهاناً. لربما هكذا أفضل. بالتأكيد هكذا أفضل. كانت امرأة مستقيمة. فكيف يمكنها أن تنظر إلى رجل آخر، حتى ولو كان ذلك الرجل، فيما زوجها ينتظرها على السرير، مرتدياً المنامة الجديدة (هدية العيد السنوي للزواج)؟ هكذا أفضل؛ انصرف فادينيو إلى الأبد. فقد رأته، وقبّلته، ولم تكن تريد أكثر من ذلك. هكذا أفضل، رددت، هكذا أفضل. وسارت إلى الغرفة بعد أن فكّت وثاقها. لماذا هذه العودة السريعة جداً؟ لماذا العودة هكذا فجأة، إذا كان عليه، من أجل المجيء، أن يعبر الفضاء والزمن؟ من يدري فهو لم يمضِ نهائياً؟ من يدري، ربما خرج في نزهة، ليطلق نظرة في ليل باهيّا، يرى كيف يسير القمار، كيف يمارسونه في غيابه. ربما خرج في جولة تفتيشية، في دورية، من «بالاس» إلى «الدوقات الثلاث» من «آباشينيو» إلى منزل زيزيه دا مينينجيتي، من «التباريس» إلى كهف باراناغوا فينتورا.

القسم الخامس

عن المعركة المريعة بين الروح والمادة مع أحداث غريبة وظروف مذهلة من غير الممكن أن تحدث إلّا في مدينة باهيّا وليصدّق من يريد.

(مع كورس من التام تام

والأغوغوس وإله الإيشو

في أغنية ساخرة:

لقد أغلقت الباب

ثم عدت وفتحته).

مدرسة الطَّهي: مذاق وفنٌ

أطعمة واشمئزازات آلهة الأوريشاس

(معلومات مستعارة من ديونيزيا ده أوشوصي).

كل يوم أربعاء يأكل الكارورو الإله شانغو، وفي أيام الأعياد يأكل سلحفاة أو خروفاً (آجابا أو آجوتان).

إيوا، إلهة الينابيع لديها اشمئزاز من الكاشاسا ومن الدجاج. إيّا ماسيه تأكل الحبش. من أجل أوغون يحْتَفَظون بالتيس والأكيلو الذي هو ديك في لغة التيريرو. أومولو لا يحتمل السراطين. أوشون يحب الأخطبوط وحلوى الميليندري والحيوانات المرجانية وسمك الآكارا والإيبيتيه، معَدّاً مع البطاطا الحلوة والبصل والقريدس. يرافق ذلك لحم الماعز، الذي يُقدّم مع دقيق الذرة بزيت الديندية وعسل النحل.

أوشوصي، المتمتع بأكبر قدر من الاحترام، ملك الكيتو، والصيّاد شديد الاشمئزاز، الذي يواجه الخنزير البرّي في الغابة ، لكنه لا يأكل السمك إذا كان ذا جلد، لا يطيق البطاطا والفاصولياء البيضاء، ولا يريد نوافذ في بيته. فنافذته هي الغابة. ولا تقدموا للمحاربة يانسا التي لا تخشى الموت ولا أرواح الاغونز، لا القرع ولا الخسّ ولا فاكهة السابوتي، فهي تأكل آكاراجيه. أما إلى نانان، الكارورو المبتلّ جيداً، الفاصولياء مع الذرة لأوشوماريه.

إن الدكتور تيودورو وهو مؤمن بكبير الآلهة أوشالا سيرى في الحال بطريقة جدّية وبرصانة، عندما يكون مشرقاً ببذلته البيضاء ويتناول بوقه مثل صدّاح منتخب، إنه يشبه أوشولوفان، أوشالان العجوز، كبير الآلهة، أب الجميع. أطعمته مكوّنة من البطاطا والذرة البيضاء والكاتاسول والآكاسا. أوشالان لا يحب التوابل، لا يستخدم الملح ولا يطيق الزيت.

يقولون إن آسوبا ديدي هو من دبّر اللعب للمرحوم وتحدّاهم لثلاث مرّات، ويؤكدون أن قديس فادينيو هو إيشو ولا أحد سواه. فإذا كان إيشو هو الشيطان، فكيف يثبت ذلك؟ ربما هو لوسيفير الملاك الساقط، الثائر الذي واجه القانون وارتدى النار. طعام إيشو هو كل ما يتذوّقه الفم ويأكله، لكنْ من الشراب نوع واحد فقط هو الكاشاسا الصافية. في المنعطفات يبقى إيشو جالساً فوق الليل ليأخذ الطريق الأصعب، الأشد ضيقاً وتعقيداً، الطريق السيئ في القول العام، إذ إن إيشو يريد أن يعرف فقط اللعنة. والإيشو الأشد ملعنة هو ايشو فادينيو.

1

كان مدير اللعبة على وشك أن يعلن الكرة الأخيرة، فالوقت فجر واللاعبون متعبون. وكانت مدام كلوديت تتنقل في يأس، من لاعب إلى آخر، تمدّ يدها المستعطية لهذا وذاك. لم يعد بإمكانها أن تعطي صوتها ونظرها نفحة إغراء، ومسحة سحرية ووعداً بالتسديد العذب. لم يعد لديها أي أثر للكرامة، لا شيء سوى الخوف من الجوع، من الموت جوعاً. ولم تعد تقول في نبرتها الباريسية الصافية:

« ,»Mon chéri, Mon petit coco, Mon chou

كانت تشحد، من فم ذي أسنان نخرها السوس، فيشة، أقله فيشة بقيمة خمسة آلاف ريس. ليس لتقامر بها، إنما من أجل الحصول مجدداً على ما يضمن لها أن تأكل في اليوم التالي. ولو كانوا قد أعطوها بعض الفيشات عندما تسللت، خادعة مراقبة البوّاب أو مثيرة أحاسيسه، (كانت لديه أوامر لمنعها من الدخول) لوضعت «الفيش» على الروليت لتتضاعف بالتأكيد، وحصلت على نقود من أجل الإيجار المستحق عن زريبة الخنازير في المنزل ذي الطبقتين في ببلورينيو حيث كانت تقيم مع الفئران والحشرات التي كانت تصعد إلى السرير. وكانت كل صباح تستيقظ على الصراخ والإزعاج، وتهديدات الطرد الفوري من النتن فيدورينتو وكيل السيدة إيماكولادا تافيرا بيريس، مالكة ذلك الكوخ القذر وأكواخاً أخرى كثيرة. كان القائد يدفع لها بدلاتها لقاء أعمالها الخيرية.

الإيجار، من يدري؟ ربما يمكنها الحصول على مهلة يوم أو يومين، إذا أبدى النتن فيدورينتو استعداده «لفرج كربته» كما كان يقول، وتجاوبت هي مع حاجاته. ثمن مرعب،

حسب ما يقول الذين يعرفون فيدورينتو: على الرغم من انحلالها، كانت مدام كلوديت عبيراً وزهرة أمامه. فهي تقترب من السبعين – إذا لم تكن قد بلغتها بعد – قرعاء على وجه التقريب، شعرات نادرة، بقايا أسنان، عينان يغشاهما التكثف، لم يعد لديها شيء مما يلزمها لكي تمارس مهنتها المشرّفة التي كانت فيها يوماً ذات جلالة سامية، عندما كان الزبائن يصطفّون بالطابور في قاعة بنسيون النساء حيث كانت تمارسها بإتقان. نزلت من الباخرة في سالفادور في ريعان سحر الأربعين من عمرها، وكانت تبدو كأنها في الخامسة والعشرين، في طريقها إلى بونيس آيريس ومونتيفيديو وسان بالو والريو ومؤثرات باريس والدعارة الرفيعة في باهيّا، في وقت جد بعيد لم تكن مدام كلوديت تحتفظ منه إلا بذكرى واهنة، ومن غير أن يفيدها ذلك الواقع السعيد حتى ولا من كونه مصدراً للفرح. كانت تنحدر شيئاً فشيئاً. من شارع إلى شارع ومن بنسيون أوروبا في ساحة التياترو، قمة الأناقة، حيث كان عقداء الكاكاو يمزّقون أوراق النقد من فئة الخمسمائة، ويتعلمون في دروس مكثفة، الرقة الغاليّة الفرنسية في المتعة، إلى هبوط في الطبقة والسعر، بعد رحلة طويلة في الزمن، إلى الدرك الذي لا يرحم، إلى القذارة الأخيرة في درك المنحدرات، في زواريب جوليان وبيلار وفي أزقة كارني بودري، وفي النهاية، لم تحصل حتى على هذا. عاشت آنئذٍ في غرف بائسة مع جوعها المرير. وفي الأرصفة المعتمة قدّمت نفسها ببعض النيكلات في الزوايا الأشد ظلاماً. ذات مناسبة، قال لها بشفقة أحد الزنوج في بدء سريان مفعول الكاشاسا وهو يعطيها بعض النقود:

– إذهبي وربّي أحفادكِ أيتها الجدّة، فأنتِ لا تصلحين لتكوني عاهرة..

لم يكن لديها لا أحفاد، ولا أقارب ولا حتى صديق واحد، لا أحد. لا فساتين أنيقة ، والخرق الأخيرة كانت خليطاً من رقع وقذارة. فقد باعتها قطعة إثر قطعة، باعت كل ما كانت تملكه. وآخر قطعة مجوهرات احتفظت بها طويلاً (كانت إرثاً من العائلة) بددتها ذات فجر منذ عشر سنوات (مدام كلوديت تخلّت منذ فترة طويلة تقريباً، عن عدّ الأشهر والسنين)، عندما صارت في انحدارها تمارس في شارع سان ميغيل، بغاءً رخيصاً. فادينيو، شريك اللعب الأحمق إنما المقدام، قدّم لها أكواماً من المال وأخذ منها العقد الفيروزي الأزرق. ففي تلك الساعة، هناك أمام طاولة الروليت، في اللحظة المضبوطة التي تمّ فيها اللعب، ومع دوران الكرة الأخيرة، تذكرت مدام كلوديت، وهي بلا

فيش، بلا فينتين واحد وبلا أمل، فادينيو. ولم يكن يتوانى قط عن تقديم ولو فيش واحد أقلّه بعشرة توستون، سواء أكان كاسباً أم خاسراً، في ليلة حظ أو في ليلة نحس. وذات مرة، فجّر المصرف في كازينو التباريس على وجه التقريب، فخرج وجيوبه محشوّة بالمال، ومضى إلى المنطقة ليحتفل مع عصبة من الأصدقاء، محتسياً الخمرة هنا وهناك. بلغ به الأمر حد التوزيع على النساء كملك من ملوك التاريخ، أوراقاً نقدية من فئة الخمسة والعشرة آلاف ريس، وبعضها من ذات العشرين والخمسين ألفاً. كان ثمة هذيان والمشردات حملنه بانتصار. فلو كان فادينيو حيّاً، لو كان هناك، لكان أعطاها فيشاً واحداً أقلّه، ضامناً لها شريحة من اللحم مع الفاصولياء وكميّة من اللفائف، فاعلاً ذلك لها وللآخرين، مع تلك الابتسامة الماكرة، مع لطف سليط، وهو يقول لها: «بتصرفكِ يا مدام، بخدمتكِ» وتجيب المدام: Merci mon chou وتمضي إلى اللعب. لكنْ آه! فقد مات شاباً، خلال كرنفال، إذا لم تخنها الذاكرة المستنفَدَة.

في اللحظة ذاتها التي تذكرته فيها، آنئذٍ، حدث ذلك: كان شاستينيه، مساعد مدير اللعبة المتقن لعمله، يجمع ويدفع مكاسب الكرة الأخيرة، ويداه ممتلئتان بالفيش – بمائة وبمائتين، بخمسمائة، فيشة الخمسمائة كانت من اللؤلؤ، رائعة الجمال – عندما شعر بألم مبرح يخترق جسده. أطلق صرخة خشنة وقصيرة، وفتح يديه، فتدحرجت الفيش على السجادة، فأسرع المحتالون ، وحدث اضطراب من قبل الرجال والنساء وهم منحنون على الأرض يتصارعون. وحدها مدام كلوديت، مذهولة ومحبطة، غير قادرة على الانخراط في المعمعة، بقيت جامدة، فيما شاستينيه الذي استفاق من الصدمة، ركع على الارض ليجمع ما تبقى. وغرانوزو أيضاً، رئيس القاعة، وصل راكضاً لينقذ ما يستطيع إنقاذه.

حصل الجميع على فيش، ما عداها هي المصعوقة. فأحسّت بيد تدس لها من فتحة الثوب، إحدى الفيش الكبيرة، من اللؤلؤ، من ذات الخمسمائة، وهو مبلغ يفيض لدفع إيجار الغرفة ويضمن لها وجبات الغداء لمدة خمسة عشر يوماً. «بتصرفكِ يا مدام، بخدمتكِ»، بدا لها أنها تسمع ذلك الصوت المليء بالمكر والسلاطة. وأجابت كالعادة: «Merci mon chou». اتجهت نحو الصندوق لتحرر ثروتها، عجوز طاعنة في السن ومعانية، ليست في وارد البحث عن توضيح. لقد

وضع أحد اللاعبين ، بسخاء وسرعة، في فتحة الثوب إحدى الفيش المرغوب فيها. «Merci mon vieux» ، وليكن ما كان.

2

استيقظت الدونا فلور خائفة. فالدكتور تيودورو قد استحمّ وحلق شعر ذقنه وبدأ يرتدي ملابسه.

– نمتُ أكثر من اللازم...

– يا عزيزتي، يجب أن تكوني منهكة من التعب، وهذا أمر طبيعي. فليس مزاحاً أن يعدّ المرء مأدبة مثل مأدبة البارحة وبعدها يستقبل أناساً ويلبيّ طلباتهم... يجب أن تخلدي إلى الراحة. فلماذا لا تبقين في السرير؟ إنني أتدبّر أمري مع الخادمة...

– في السرير؟ لكني لست مريضة...

نهضت من على السرير الحديدي، أعدّت نفسها بسرعة؛ كانا يتناولان القهوة في الصباح معاً، والدونا فلور تحرص على وضع الكسكوس على النار، فهي وحدها تحضّر المعجنات حسب مذاق زوجها، خفيفة وناعمة، ولهذا السبب تستخدم حفنة من دقيق التابيوكا. لقد كانت متعبة، نعم، لكنّ ليس من الحفلة، إنها متعبة من الليلة المؤرقة، فأذنها كانت تسترق السمع مثلما كانت في الأوقات الأخرى، في انتظار الخطوات في الشارع، في ساعات متأخرة من الليل. وإضافة إلى القلق: هل لاحظ تيودورو بعض الاختلاف في تصرّفاتها خلال الاحتفال الحميم الذي اختتما به الاحتفالات المتألّقة لعيد زواجهما، لم يكن يوم أربعاء ولا يوم سبت، لكنّ الدونا فلور ارتدت قميص النوم الذي ارتدته ليلة الزفاف والدكتور قال لها:

– يا لها من ذكرى لطيفة جداً يا عزيزتي. ثمة مناسبات تفرض نفسها، فاغفري لي إذا كنت أطلب المزيد اليوم، متجاوزاً الروزنامة... لقد كان دائماً حذراً ومرهف الحسّ، فأي امرأة لا تصبح أسيرة إغوائه؟

وافقت الدونا فلور، لكنْ مشاعرها كانت مضطربة، وشفتاها المضغوطتان، وفمها المشتعل، ولسانها المضطرم الذي كان يحتفظ بمذاق فادينيو الحاد وطعمه الحارق، والقبلة التي كان الدكتور يبدأ بها دائماً، بدت لها ضعيفة وجافّة. استسلمت وهي مضطربة، قاطعة التنسيق الصحيح والكامل الذي كان يجمعهما في متعة عفيفة إنما عنيفة. ولكونها مضطربة، لم تتبع زوجها كالعادة، فبلغ الذروة قبلها، بينما لم تنجح الدونا فلور، إلّا في المرة الثانية، (لأنه كان ثمة تكرار للعملية) في تحرير أعصابها المتوترة. لم يسبق قط أن حصل هكذا، في مثل عدم الانسجام هذا، منذ ليل الترددات في بيريب. لحسن الحظ، إذا كان هو قد استشفّ أنها غريبة وأنوف، فقد عزا ذلك إلى التعب، والجهد المبذول في احتفالات العيد السنوي. في الصباح الباكر، عندما كان الضوء ما زال ملطخاً بالليل قادماً ليطلي الجدران، سمعت الدونا فلور خطوات في المدى، وعندها نامت في نعاس ثقيل، كأنها قد ابتلعت حبوباً منوِّمة. وإذ استيقظت متأخرة عن العادة، دسّت قدميها في الخفيّن، وارتدت الرداء الموشى بالزهر فوق قميص النوم، ومررت المشط على شعرها، ثم خرجت إلى المطبخ. وعند اجتيازها الغرفة، رأت الشيطان ممدداً على الكنبة، في عريه غير المحتشم. كان يجب أن يستيقظ حتى قبل أن تحضر الكوسكوس (من المطبخ كانت تصل الرائحة اللطيفة للقهوة المصفّاة من قبل الخادم). لمست الدونا فلور كتف فادينيو، ففتح عيناً واحدة، مهمهماً:

– دعيني أنام، وصلت منذ قليل...

– إنك لا تستطيع النوم هنا، في الغرفة...

– ماذا في الأمر؟

– ها قد قلت لك، إنني أصبحت مرتبكة... وأتى بحركة تنم عن قلة الصبر:

– ما لي ولهذا؟... دعيني بسلام...

– إنك قد بدأت بطرقك الفظّة.. إفعل معروفاً يا فادينيو...

– حسناً، أيتها البلهاء. سأنام في الغرفة.. هل خرج زميلي؟ قال بعد أن فتح عينيه، وابتسم لها بكسل.

– زميلك؟

– دكتوركِ... ألسنا نحن الاثنان متزوجين بكِ، زوجيك؟ إننا زملاء يا حبي... كان يتطلّع إليها بمكر وقلّة حياء.

– فادينيو، إنني لا أقبل هذه النكات... قالت بصوت مرتفع.

– هل تكلمتِ معي يا دونا فلور؟ جاء صوت الخادم من المطبخ.

– أقول إنني سأصنع الكوسكوس...

– لا تغضبي يا حبي... – قال فادينيو وهو ينهض.

مدّ يده ليمسكها بها – أوه! يا له من عري غير لائق – لكنها هربت.

– إنك فاقد العقل...

التقى الرجلان في الممشى، وإذ رأتهما يعبران الواحد قرب الآخر، شعرت الدونا فلور بحنان نحو الاثنين، المختلفين جداً لكنَّ كلاً منهما زوج لها امام الله والناس. «الزميلان»، فكّرت وهي تضحك من المفارقة الظريفة. لكنها ضبطت نفسها في الحال: ربّاه! إنني أغدو ساخرة أكثر من فادينيو. غير أن السافل كان يغمزه بعين تآمرية، فيما يسحب لسانه من فمه نحو الدكتور، ويقوم بحركة يد داعرة. فاعترى الدونا فلور الغضب. وقالت في نفسها: لا، لاأستطيع تحمّل مثل هذه النذالات، هذه النكات القذرة والتصرّفات الصبيانية والفظاظات والإساءات. لقد حان الوقت ليتعلم فادينيو كيف يتصرّف في منزل محترم.

وصل الدكتور حليق الذقن، يرتدي صدرية وسترة جديدتين:

– لقد تأخرنا قليلاً اليوم، يا عزيزتي...

«يا إلهي! الكوسكوس». وركضت الدونا فلور إلى المطبخ.

3

مع نهاية الدرس الصباحي، عندما أُجريت القرعة لاختيار مَنْ منهن ستأخذ وعاء مربى بابا – ده – موسا إلى منزلها، أحسّت الدونا فلور بحضوره قبل أن تراه.

لم تكن حتى ذلك الوقت، قد اعتادت واقع كونها الوحيدة التي تستطيع أن تراه، وإذ شاهدت فادينيو قرب الطاولة، عارياً كليّاً ومعروضاً أمامها، ارتعشت. لكنْ بما أن التلميذات لم تكن لهن ردات فعل إزاء الفضيحة الوقحة، تذكرت امتيازه: كان زوجها الأوّل غير مرئي للآخرين. سعيداً أيضاً. واصلت التلميذات الضحك وإطلاق النكات كما لو أنه لا يوجد بينهن رجل عاري الجسم، ينظر إليهن ويقيسهن بعين طبيب يتفحّص مرضاه، متوقفاً إزاء الأكثر جمالاً بينهن. ها قد عاد مرّة أخرى يعكر الدروس، ويحشر نفسه بين التلميذات، كما في السابق. وما دام الكلام في هذا الأمر، فإنه يتوجب على فادينيو تقديم إيضاحات، وتقارير عن قصص قديمة، مثل قصة تلك الخائنة إينيس فاسكيس دوس سانتوس، المعتدة بنفسها. وبعنفوان كبير وخفة ملحوظة، استدار بتمهل ثلاث مرّات حول الشهية زولميرا سيمويس فاغونديس، وهي باهيانية ذات ردفين بهيّين، طليقين مستقلين، ونهدين من البرونز (هكذا كانا يبدوان له أقله)، والسكرتيرة الخاصة للرجل المهم القادر، السنيور بيلانتشي مولاس، الخاصّة جداً، كما كان يقال. وإذ استحسن الردفين بجلاء وتمجيد، أراد فادينيو أن يتيقن دفعة واحدة من لغز النهدين، هل هما حقاً من البرونز أم ذلك لمجرّد الصلابة الخارجة على المألوف؟ فارتفع كثيراً في الهواء، رافعاً قدميه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، متلصصاً إلى فتحة فستان أميرة الأمة الساحرة. أُصيبت الدونا فلور بالخرس، والذهول؛ فلم تره حتى الآن يطير في الهواء بالسهولة نفسها لسيره على الأرض، وبأفضل وضع يناسبه، واقفاً على قدميه أو ممدداً أفقياً، منحنياً أو رأسه إلى أسفل – كما في تلك اللحظة حيث كان يتأمل نهديْ الفتاة الرشيقة. ولم يكن متاحاً للتمليذات أن يرينه، هذا مؤكد، إنما ينبغي لهن أن يشعرن بشيء ما في الهواء، إذ كن متوترات أكثر من المعتاد، يضحكن ويتكلمن كيفما كان الأمر، في نوع من الاستشعار. لقد أصبحت الدونا فلور ثائرة، ففادينيو تجاوز الحدود. تجاوزها، في الواقع، عندما لم يكتف بالتلصص، ودسّ يده في الفتحة لتبقى في النهاية على المادة الخام لتلك المخلوقات الإلّهية: هل هنَّ من لحم ودم أم معجزة؟

– آي – تاوهت زولميرا – إنهم يلمسونني... فأضاعت الدونا فلور صوابها إزاء كل هذه السفالات، وانفجرت في صرخة:

– فادينيو!

– مَنْ؟ ماذا؟ كيف؟ ماذا يجري؟ ماذا حصل؟ – كانت التلميذات المنفعلات واللواتي يشعرن بالدوار، يحطن بالرفيقة والمدرّسة – ماذا قلتِ يا دونا فلور؟ وأنتِ يا زولميرا؟

– أحسست بشيء ما يمسك بي ويعصر صدري...

– هل أحسست بألم؟

– كلا... لكن بلذة...

استعادت الدونا فلور نفسها بجهد، واختفى فادينيو مع صرخة ألمها.

4

كرر فادينيو لها مرّتين أو ثلاثاً في ذلك المساء، بصوت ماكر وابتسامة ساخرة:

– هيّا بنا نرى من يستطيع أكثر من الآخر يا قديستي... أنتِ مع دكتوركِ وكبريائكِ، وأنا...

– وأنت، مع ماذا؟

– أنا، مع حبي...

كان ذلك تحدياً، والدونا فلور، قوية بإعلانه قبل ذلك بقليل (سوف لن ينالها إلا برضاها) قررت أن تقبل وأعدّت نفسها لخوض المجازفة، واثقة من إرادتها المستقلة، وروحها الجريئة. فمن اجتاز أيها المتكبّر، جحيم الترمّل، من دون أن يحرق نفسه، لا يخشى الأشخاص الأنذال ولا الذين يغوون النساء.

– إنني أضع شرفي فوق كل شيء...

شرع فادينيو في الضحك:

– إنكِ تتكلمين مثلما يتكلم الدكتور، يا حبي. قاطعة كلياً، وتقليدية كلياً، كأنكِ مدرّس...

كان دورها في الضحك:

– إنني مدرّسة، كنت مدرّسة قبل أن أعرفه وأعرفك. وتحديداً، مدرّسة يشار إليها بالبنان...

– مدرّسة أطعمة شهيّة ولستِ مدرّسة ليعتريكِ الغرور...

– هل ترى حقاً أنني أصبحت مغرورة؟ وأنني قد تغيّرت؟

– إنكِ لن تتغيّري أبداً يا حبي. غروركِ الوحيد هو شرفكِ. لكنْ بما أنني قد دنسته مرّة، فلسوف أدنسه مرة أخرى... حتى ولو كنتِ مدرّسة يا حبي، ففي المتعة أنتِ تلميذتي. وأنا قد جئت لأنهي تخرّجكِ...

في هذا الهزل، مع الضحك والنكات، ومع الرقّة، بقيا يتحدثان حتى ساعة العشاء تقريباً. الدونا فلور زاخرة بالعنفوان والافتخار: إن فادينيو لن يزعزع قط عفتها كمرأة شريفة، وإخلاصها كزوجة. في المرّة الأولى كانت مراهقة خجولة، لم تكن تعرف كيف تضبط انفعالاتها في حبها الأول ودنس شرفها مع نسيم المساء في إيتابووا. وهي اليوم امرأة جرّبت الألم والفرح، تعرف ثمن كل شيء ومعناه. وفادينيو سيتعب من الانتظار. لكنه لا يؤمن بتلك المقاومة التي لا تقهر:

– سوف تعطيني ما أبتغيه منكِ بأقل مما تتوقعين... كما في المرّة السابقة... وأنتِ تعلمين لماذا؟

ثم أوضح بعجرفة وسفاهة:

– لأنكِ تحبينني، وفي الحقيقة، في أعماقكِ الدفينة حيث أنتِ بالذات لا ترينها، أنتِ متلهّفة للقيام بذلك...

فادينيو مفعم بالمكر والخيلاء، والدونا فلور راسخة في حشمتها الجوهرية:

– هذه المرّة سوف تخسر... وقتك وكلامك المغلف بالطيبة...

كان الوقت في نهاية فترة ما بعد الظهر الهادئة، مليئاً بالسحر. ومع هذا بدا صعباً ومزعجاً. فعندما خرجت الدونا فلور، بعد الدروس المسائية، من الحمام وذهبت تتعطر أمام المرآة وتسرّح شعرها، وهي شبه عارية، لا ترتدي غير رافعة النهدين والسروال الصغير، تناهت إليها جلبة استحسان من مكان ما في الغرفة. مع أنها قبل أن تدخل الحمام وتخرج منه، تفحّصت الغرفة متيقنة من غياب أي من زوجيها. فالدكتور لا يزال في الصيدلية، وفادينيو متوارياً منذ الفضيحة التي سببها في الصباح. لكنه كان هناك، جالساً فوق خزانة الثياب، متدلّي الساقين. مع عتمة المساء وفي ذلك الظل، كان يبدو شبيهاً بذلك الملاك المحفور على الخشب الموضوع في ممشى كنيسة القديسة تيريزا. نظرته غارقة في كتفيْ الدونا فلور بنهم، وكانت شراهته تبدو كأنها تنزلق كالزيت عليها، فوق جسدها الرطب. «يا إلهي!»، همست الدونا فلور، متناولة الرداء لترتديه على عجل.

– لماذا تختبئي يا حبيبتي؟ أتنسين أنني أعرفكِ، كلكِ، كلكِ بكاملكِ؟ أين هو الموضع الذي لم أقبلكِ فيه؟ أي غباء هذا؟ أي حماقة... وفي قفزة راقص – يا لها من خفّة في الحركات! – وجسده عارٍ، اجتاز الضوء والظل وهبط برشاقة على السرير الحديدي فوق الفراش الجديد ذي الرفّاص:

– إن هذا الفراش الجديد يا عزيزتي هو سحابة، إنه جيد أكثر من اللازم. تهانيّ. تمدد مسترخياً، وسبحة من الضوء كانت تكشف ابتسامته الراضية في وجهه الشهواني المليء بالإغواء. وفي الظل كانت الدونا فلور تتأمله.

– تعالي إلى هنا يا فلور، تعالي واسترخي إلى جانبي، هيّا بنا نتمتع قليلاً. نامي هنا، هيّا بنا نتدحرج على هذا الفراش الجميل...

كانت الدونا فلور لا تزال ممتعضة مما أحدثه مع التلميذات – تلك السخافة من فادينيو في دسّ يده في نهديْ زولميرا. استحسنت ذلك تلك الفتاة الرديئة ، طالما أنها، حتى دون أن ترى عديم

الحياء، صارت واهنة على وشك الإغماء. ردت الدونا فلور بقسوة:

– ألا يكفيك ما فعلته ؟ ولم يرضك هذا، فجئت أيضاً لتختفي من أجل التلصص عليّ؟ إنك لم تتعلم شيئاً في هذا الوقت، كان بوسعك أن تستفيد...

– لا تغضبي يا حبي... نامي هنا، إلى جانبي.

– ولديك الشجاعة أيضاً لتدعوني إلى النوم معك؟ ما الذي تظنه بي؟ إنني عديمة الشرف والحياء؟

لم يكن فادينيو يريد نقاشاً:

– لمَ تغضبين يا حبيبتي؟ لم أقم سوى بإلقاء نظرة خاطفة على قطعة صغيرة من جسد الفتاة... بدافع الفضول فقط لأعرف كيف تكوّنت نزوات بيلانتشي مولاس. قِيل إنه يرضع من أثدائها – ضحك وبعد ذلك أخفض صوته – تعالي يا حبي، إجلسي هنا قرب زوجك الحبيب، ما دمتِ لا تريدين النوم، هل أنت خائفة؟ إجلسي لنتبادل حديثاً قصيراً، ألستِ أنتِ القائلة بالذات إنه من الضروري أن نتحدث؟

– أجلس أنا وبعدها تريد أن تأخذني عنوة...

– آه! لو كنت أستطيع... إذا أنت تظنين أنه لو كان بإمكاني أن آخذك عنوة، من دون موافقتك، كنت هنا أتملقكِ، وأضيع الوقت؟ بالقوة يا حبي، لن أريدك، احفظي هذا لأنها كلمة فادينيو...

– هل محظور عليك أخذي عنوة؟

– محظور عليّ؟ ومِنْ قبل مَنْ؟ لا يوجد إله ولا شيطان ليمنعني مهما كان. هل أنتِ لا تدرين هذا أم أنكِ عشتِ معي سبع سنوات ولم تعلمي شيئاً عني؟

– فلماذا إذن؟

– هل أخذتك يوماً عنوة؟ مرّة واحدة؟ قولي لي...

– أبداً...

– إذن؟ أنا أمنع ذاتي، فما احتجت قط لأن آخذ امرأة رغماً عنها، وذات مرّة شاء ميراندون الإمساك بزنجية صغيرة بوحشية، في بقعة رملية في منطقة أونياون، لم أدعه يفعل ذلك... فأنا يا حبي لا أريد إلا ذلك الذي يُعطى عندما يكون العطاء برغبة حسنة، من القلب. عنوة، أي طعم يمكن أن يكونه سوى الطعم الرديء؟

رمقها طويلاً، وعاد إلى الابتسام:

– أنك أنت من يرغب بذلك، يا فلور الصغيرة الجميلة، وأنا أكاد أجنّ شوقاً لأتذوقك... لكنكِ أنتِ من سيقرر، من سيستسلم، إذ إنني لاأريدك إلا إذا أنت رغبت أيضاً. فلا أريدك بمذاق الكراهية يا حبي.

كانت تعرف أنها الحقيقة الناصعة؛ ارتفع الاعتزاز من صدر زوجها (الأول) كهالة من نور، مشرقاً؛ ليست هالة قديس، في الحقيقة، إنما هالة رجل فحل ومستقيم. فارتاحت الدونا فلور عندئذ على حافة السرير، مع فادينيو الممدد إلى جانبها، يتأملها. الأعصاب مسترخية على سجيتها، عزلاء. وما كادت تجلس، حتى كان الغشّاش ينحدر بيده إلى خصرها ثم إلى أسفل بطنها، فنهضت غاضبة:

– إنك حقاً تافه بلا كرامة... لقد أقنعت نفسي بأنك تتكلم من قلبك، وأنك كنت رجلاً يحافظ على كلمته... وفي الحال كذّبت ذلك، فأنت تدسّ يديك...

– وهل على سبيل الافتراض أمسك بكِ عنوة، آخذك عنوة؟ لأنني فقط وضعت يدي على سرتكِ؟ إجلسي هنا واصغي يا حبي، لن ألتهمك بالقسوة، لكن هذا لا يعني أن لا أفعل كل شيء، كل شيء، وأستخدم جميع الوسائل من أجل أن تعطيني أنتِ برغبتكِ ذاتها. وفي كل مرّة أستطيع

فيها لمسكِ سألمسكِ، وحينما لا أستطيع منحكِ قبلة، سأقبلك. إنني لا أخدعكِ، يا فلوري. فلسوف أفعل كل شيء، كل شيء وبسرعة، فأنا أكاد أجنّ شوقاً إلى حبك وظمأً إليك.

كان ذلك تحدياً: شرفها كامرأة شريفة ضد سحر فادينيو وطراوة لسانه واعتزازه بنفسه، وقلّة حيائه.

– إنني لا أكذب، يا فلور، سأفعل أي شيء لإغوائك، وإذا ما توقع دكتوركِ أقل من ذلك، فسيتوج رأسه بإكليل من القرون. وبالأحرى يا حبي فإنه مع رأسه الكبير والعالي، سيصبح جميلاً وسيكون مقروناً من أفضل نوع.

هذا تحدٍ؟ حسناً جداً، أيّها السيد زوجي الأول والفحل النموذجي، دون جوان الشقق المشبوهة والمنطقة، المجرّب في إغواء الفتيات والنساء المتزوجات: مهما تعاظم شأن دهائك، لن تحصل عليّ هذه المرة. على الرغم من دهائك، وحلاوة لسانك، وكلامك المنمّق كله، أيّها الغبي، لن أدعك تخدعني وتتجاوز حدك. فأنا امرأة شريفة، لن أوسخ اسمي ولا اسم زوجي. إنني أقبل التحدي. وهكذا فكّرت وقررت، وعادت لتجلس على الفراش.

– لا تتكلم هكذا يا فادينيو، فهذا كلام مسيء... احترم زوجي... دع هذه الأحاديث، وهيّا بنا نتكلم في أمور جدّية. فإذا كنت قد دعوتك كما قلت أنت، فذلك من أجل أن أتحدث معك، لأن الاشتياق إلى رؤيتك، والتكلم معك يضيّق عليّ الخناق أحياناً. ولم يكن ذلك بنية سيئة. فلماذا تحكم عليّ بهذا الشكل الرديء؟

– أنا؟ متى أسأت الظن بك؟

– كنت امرأتك طوال سبع سنوات، وأنت كنت تسير طليقاً في الشارع ولم يكن الأمر في القمار فقط، كنت تعيش في أسّرة جميع النساء الضائعات في باهيّا، ولم تكتف بهذا. فقد خضت مغامرات مع فتيات ونساء متزوجات هن أسوأ من البغايا.. وما دمنا نتكلم عن هذه المثالب، اكتشفت الآن فقط أنك كنت تلاحق امرأة مسلولة تدعى إينيس، كانت منتسبة إلى المدرسة منذ زمن بعيد...

– إينيس؟ الهزيلة؟ بحث عن الاسم والشخصية في الذاكرة الممتازة، ذاكرة من هو دائم الاستقراض للمال، وهناك عثر على الهيفاء إينيس فاسكيس دوس سانتوس بوجهها النهم وشراهتها – تلك؟ عظم خالص وجلد... ليس لها أي أهمية، لا تهتمي لهذا يا حبي، هي فقط تعطي مكافأة ومن أسوأهن. فوق كل هذا، مضى وقت طويل على ذلك، لماذا تأتين الآن بهذه العثرة القديمة جداً؟

– عثرة قديمة ربما، شيء مضى لكنني ما علمت بها إلّا بالأمس فقط. هل تتخيّل عاري يا فادينيو؟ أنت ميت ومدفون، وأنا متزوجة من جديد، وأفعالك عديمة الحياء لا تزال تتعقّبني... لهذه الأمور وغيرها دعوتك، لأنه لا تزال هناك حسابات يجب أن تُصَحح. وليس من أجل ما تفكر فيه...

– لكنْ يا حبي، مهما كان الأمر، فها أنذا هنا، وأي سوء في أن نتمتع للحظة؟ هيّا بنا ننتهز الفرصة ونروي عطشنا. وأنتِ مشتاقة إلى ذلك. أما أنا فلا يمكنك أن تتخيلي...

– كان عليك أن تعرفني، وأن تعلم بأنني لست أمرأة تخدع زوجها. فطوال سبع سنوات مارست دور الشيطان معي وأسأت إليّ بكل الوسائل. جميع الناس يعرفون ذلك ويتحدثون عنه في الشارع...

– وأنتِ تعطين اهتماماً لهذه الزمرة من العاهرات؟

– لقد سخرت مني كثيراً. فلو كنت امرأة أخرى، لتركتك وكللتك بالقرون والعار. هل فعلت ذلك؟ كلا، لقد تحمّلت بثبات، لأنني امرأة مستقيمة. الشكر للرب يا فادينيو. فلم أتطلّع إلى أي رجل طالما كنت حياً...

– إنني أعلم هذا يا حبي...

– ما دمت تعرف هذا، كيف تريدني أن أخدع تيودورو زوجي خصوصاً معك، وهو رجل مستقيم وطيّب. إنه يأخذني في راحتيْ يديه، وهو رجل رصين، ما خانني قط مع امرأة أخرى. إطلاقاً يا فادينيو، إطلاقاً. ذات مرّة، حتى... – أوقفت الجملة عند منتصفها.

– حتى ماذا يا حبي؟ – توسّل هو إليها بصوت رقيق جداً – أخبريني البقيّة...

– حسناً ثمة نساء كثيرات كنَّ يلاحقنه وهو لم يعرهن أي اهتمام...

– هذا القدر من النساء؟ لا تبالغي يا حبي، كانت امرأة واحدة، وهي ماغنوليا، أشهر عاهرة في باهيّا، وقد لعب دوراً معيباً. فهل رأيت يوماً رجلاً مثله، دكتور وكل شيء، يقف مثل صبي قاصر، خائفاً من النساء، وما كان ينقصه إلا أن يستغيث. يا للعار... هل تعلمين أي اسم أطلقوه عليه بعد ذلك الإخفاق؟ الدكتور كليستير، يا عزيزتي...

– هذا يكفي فادينيو. إذا أردت المحادثة بشكل مستقيم، حسناً ، لكنْ إذا جئت إلى هنا لتسخر من زوجي، فهذا لن يكون... وليكن في علمك أنني أحبه كثيراً وأقدّر أكثر من اللازم الطريقة التي يعاملني بها، ولن أدنّس اسمه...

– أنت هي من أراد الكلام يا عصفوري الصغير. لكنْ قولي الحقيقة؛ مَنْ هو الذي تحبينه أكثر؟ لا تكذبي... أنا أم هو؟...

كان يضع رأسه في حضن الدونا فلور وهي تعبث بشعره. ولكونها ضائعة في نزواتها لم تجب عن السؤال المحرج.

– لن أخونه أبداً يا فادينيو، فهو لا يستحق...

كان فادينيو يتنفّس بشكل خفيف، مع ابتسامة بريئة كطفل. ولمست الدونا فلور صدره، غابة من الشعر الأشقر، والدفء اللذيذ. فقال وكان ذلك تأكيداً ولم يعد سؤالاً:

– إنكِ تحبينني أكثر يا حبي. أنا متأكد.

– هو وحده يستحق حبي...

يد الدونا فلور على الندب على الكتف؛ كانت تحب أن تستشعر ذكرى العراك السابق الذي بلغ علمها، الجرح الواسع والعميق، عراك المراهقة، عند هروبه من المدرسة. ففادينيو معتد بنفسه

وزير نساء. يا له من رجل جميل!

كانت عذوبة المساء تتسرّب إلى الغرفة في ظلال ونور، في نعاس يسببه النسيم.

– يا حبي، قال لها بلهفة المشتاق، كنت أتحرّق شوقاً مجنوناً إليكِ، شوقاً شديداً بحيث كان يثقل على صدري مثل طن من التراب. وكان قد مضى وقت طويل وأنا أرغب بالمجيء، منذ أن دعوتني للمرّة الأولى. لكنكِ قد حبستني بالموكان الذي أعطاكِ إياه ديدي، والآن فقط استطعت التحرر منه وجئت... ولأنكِ الآن دعوتني بشكل حقيقي وبرغبة، وكنتِ بحاجة إليّ حقاً...

– وأنا أيضاً بدا لي ذلك طويلاً... لم يكن مفيداً بشيء أن تكون سيئاً يا فادينيو، كدت أموت عندما متّ أنت...

أحسّت الدونا فلور بشيء في داخلها، رغبة في الضحك أو البكاء من دون فرق، لكنْ بصمت، بشكل خافت. وكان فادينيو يداعب بيده ذراعها، وقفا رقبتها ووجهها، ويمررها على رأسها المسترخي على حضنه، ساعياً إلى موضع أكثر ارتياحاً، باحثاً عن موضع أكثر إثارة على فخذيها، مزوداً إياها بحرارة وبرغبة في النوم. رأس جميل ذو شعر أشقر. أخذت الدونا فلور تحني وجهها شيئاً فشيئاً، وفادينيو يرفع رأسه، وفجأة أخذ فمها ولكن ليس عنوة.

انتزعت الدونا فلور نفسها من القبلة ومن ذراعيه حيث كانت عرضة لفقدان مقاومتها.

– يا إلهي! آه! يا إلهي! ..

لم يكن تحدياً طائشاً. لم يكن بوسعها أن تسمح لنفسها بدقيقة واحدة من الاسترخاء، بأي عدم اكتراث، إذا لم تشأ أن يصل النذل إلى غاياته. فأخذ فادينيو يصفّر متراخياً، ونهض بابتسامة ساخرة وراح يعبث في أدراج خزانة الثياب، بفضول خالص أو، من يدري، لكي يسمح للدونا فلور بأن تستعيد، بقايا قوة إرادتها، وقرارها المعلن.

عندما عاد الدكتور مساءً، كانت الدونا فلور قد استعادت كل حشمتها الفطرية وعززت تصميمها على أن تبقى خليقة بزوجها، تصون، من دون أن تلوّث، اسمه وشرفه، وتُبقي جبهته نقية تشع منها الأفكار وتزدهر بالمعارف. «لن ألطّخ أبداً الاسم الذي قدّمته إليّ، ولن أخونك أبداً، يا تيودورو؛ أفضّل أن أموت قبل أن أفعل ذلك».

المهم هو أن لا تسهّل الأمر، ولا تسمح للماكر بأن يثير حواسها، ويحصل على تواطؤ المادة الشريرة والمنحطة، مادة قادرة – كما علّمتها دعاية اليوغا في الأوقات الجائعة من الترمّل – على خيانة مشاعرها النقية وأن تبيع شرفها. وإذا حاول فادينيو مواصلة رؤيتها، فيجب أن يتمالك نفسه في حدود الاستقامة، والعلاقات الأفلاطونية، لأنه من غير المسموح للدونا فلور ولزوجها القديم بإقامة علاقات أخرى. فهي لم تخف – ولم تحاول حتى أن تفعل – الحنان الذي تكنّه للمرحوم السابق، حبها الأول والكبير. كان هو الذي أطلعها على ملذات الحياة، جاعلاً من الفتاة الصغيرة الساذجة من لاديرا دو آلفو، شعلة ذات ألسنة لهب عالية، معلّماً إياها الفرح والعذاب. لقد أحسّت نحو فادينيو بحنان دفين، بالغ الأثر، بشيء لا يمكن إدراكه، مزيج من الطيّب أو الرديء، بإحساس صعب التحليل ومستحيل التفسير بالنسبة إليها بالذات.

كانت راضية، سعيدة لرؤيته، هذا الشيطان؛ للتكلم معه والضحك من اختلاقاته ومن أفعاله السخيفة. سعيدة حتى مع تأوّهات القلب الذي يعاني الجزع مجدداً، في انتظارها له طوال الليل، يقظة لخطواته في سكون الشارع، وهي تعاني الأرق. كانت تمرّ في ظروف صعبة كما كانت قبلاً. لكن الآن ليس كل ذلك أكثر من صداقة رقيقة من دون متطلّبات أخرى، وبلا التزامات كبيرة، وبدون قلّة احتشام في السرير. السرير، آه، هنا الخطر! مسرح الكمائن، وأرض الهزائم.

إنها اليوم، متزوجة مجدداً، سعيدة مع زوجها الثاني، ليس بإمكانها أن تقيم مع الأول سوى علاقات نقية، كما لو أن ذلك الهيام الخالي من الوقار والخارج على المعايير في شبابها قد تحوّل مع موت فادينيو، إلى ميل خفي لعشاق رومانسيين، مجردين من عنف اللحم، ليصير روحاً نقيّة غير مادية (الأمر الذي كان يفرض نفسه لأسباب عديدة). فالسرير والنشوة الجسدية مع الثاني فقط، مع الدكتور تيودورو، في أيام الأربعاء والسبت، مع تكرار الحب مرتين في كل من اليومين.

ولفادينيو، كان يبقى وقت للحلم وقت فارغ وسط الكثير من الغبطة، أو، مَنْ يدري؟ ناتج من الكثير من السعادة. فإذا وافق هذا الأخير على أن يواجه الوضع هكذا، فيحترم مثل هذا الاتفاق، فجيد جداً: هذا الشعور الأفلاطوني الزاخر بالعذوبة والحضور الرصين والمرح للفتى، يصبحان عطراً ونعمة في حياة الدونا فلور، المنضبطة جداً في نظام متكامل، يخفف من وطأة تلك الرتابة التي تبدو جزءاً مكملاً للسعادة.فميراندون، الفيلسوف والأخلاقي (كما تأكد ذلك هنا بشكل أخوي) أعلن يوماً، في لهجته الباهيّانية الأصيلة:

– السعادة هي بالأحرى مضجرة، ومرهقة جداً، باختصار: قلق...

بالمقابل، إذا لم يرد فادينيو أن يخضع لمثل هذه التحديدات، فالدونا فلور لن تراه بعد الآن، ستقطع دفعة واحدة علاقاتها ومشاعرها – لأنه، حتى ذلك العطف الروحي، مع أنه بريء، لا إثماً ولا عدم تقدير، كان يهدد الجبين المشع لزوجها المتكامل والمحترم. هكذا، وإذ طمأنتها هذه التأملات، وقد استعادت حيويتها، وبعد أن مصّت قرصاً من أقراص النعناع لتنظّف فمها من طعم الفلفل والعسل لتلك القبلة الفاضحة، استقبلت الدكتور تيودورو بالوداعة الودودة نفسها، بالقبلة الرقيقة نفسها في جميع الأمسيات، وتناولت السترة والصداري وجاءته بسترة المنامة الباعثة على البرودة. كان الدكتور يرتدي سترة المنامة فوق القميص وربطة العنق، للعشاء، لكي يكتب ويقرأ لسكريتارته، ولكي يعزف على البوق. فقد كان يتصرّف على سجيّته. أثناء تناول الطعام، لاحظت الدونا فلور في صوت زوجها وتصرّفاته رصانة شديدة بلغت حدّ الوقار. كان الصيدلي معتاداً هذا النمط من الشكليات، كما هو معروف. لكنه، في ذلك المساء، أظهر وجهه المقطّب، والتزام السكوت، ، قلقاً غير مطمئن. كانت الدونا فلور تراقب زوجها فيما كانت تمرر إليه طبق الأرز وتقدّم له ضلعاً محشواً (محشو بالفاروفا مع البيض والنقانق والفلفل الحلو). كان الدكتور يعاني معضلة جدية، من دون شك، والدونا فلور الزوجة الطيّبة والمتضامنة مع زوجها، سرعان ما أصبحت مضطربة هي أيضاً.

عندما جاء دور القهوة (مصحوبة بأقراص التابيوكا، مَنّ منزل من السماء)، تكلم الدكتور تيودورو أخيراً، وبجهد:

– يا عزيزتي، أرغب في التحدث إليكِ بموضوع ذي أهمية بالغة، لفائدتنا المشتركة...

– تكلم ، يا عزيزي...

لكنه تريّث، وكأن شيئاً يردعه، مفتشاً عن الكلمات. أي موضوع صعب سيكون هذا الموضوع – كانت تتساءل – ليجعل الدكتور متردداً؟ وإذ التفتت إلى انزعاج زوجها، نسيت كلياً مشكلاتها الخاصة الناتجة من الزواج المزدوج.

– ما الأمر يا تيودورو؟

رمقها وسعل:

– أريدكِ أن تكوني كلياً على سجيّتكِ، أن تقرري كأفضل ما يبدو لكِ وترينه مناسباً.

– لكنْ، ما الأمر، يا إلهي؟ تكلم دفعة واحدة يا تيودورو...

– إنه يتعلّق بالمنزل... فهو معروض للبيع...

– أي منزل؟ هذا الذي نسكنه؟

– نعم. أنتِ تعرفين أنني كنت قد جمعت النقود لنشتري هذا المنزل حسب ما كانت رغبتكِ. لكنْ فيما كنا سننهي الصفقة، وكل شيء على أتم وجه...

– أعلم... الصيدلية...

– ... ظهرت فرصة سانحة للحصول على حصة أخرى من الصيدلية، الحصة التي توفر لي أغلبية الحصص بالضبط، وتضمن لنا ملكية الصيدلية... ولم يكن بوسعي التردد....

– لقد فعلت حسناً، تصرّفت بالصورة الصحيحة، وما الذي قلته أنا لك؟ «يبقى المنزل إلى ما بعد»، أليس كذلك؟

– الذي حدث الآن يا عزيزتي، هو أن المنزل عُرض للبيع وبثمن بخس...

– عُرض للبيع؟ لكنْ الأفضلية كانت لنا...

– كانت، نعم...

شرح لها الموضوع: لقد تورّط المالك في مزرعة في كونكيستا، وصمم على تربية قطيع من الماشية، دافعاً مالاً وفيراً على العجول والبقرات، ودخل في مضاربة على حيوانات بقرية . هل كانت الدونا فلور تعلم ما هي المضاربة؟ هل سبق وسمعت بها؟ حسناً، في هذه المضاربة سيذهب أيضاً المنزل الذي تحلم به ملكاً لها.. فالمالك وضعه برسم البيع وبمبلغ متدن. وبالنسبة إلى الأفضلية، حسب قوله، رغم كونها مستأجرة قديمة وممتازة، فقد خسرت الدونا فلور حقها في الادعاء لأنها تخلت عن الشراء، بعدما أُغلق ملف الصفقة في دائرة السجل العقاري. وليس بإمكانه أن ينتظر انتهاء الدكتور تيودورو من امتلاكه جميع حصص ورشة الصيدلية، لكي يفكر آنئذٍ في المنزل. كان ينوي بيعه في الحال. بماذا يفيده العقار ذو الإيجار الباعث على الضحك، حيث آل مادوريرا يعيشون بالمجان تقريباً؟ العمل الجيد كان في تربية الثيران، الثور المقاوم، ذلك الذي كان لحمه يساوي كثيراً. انسحب إلى المزرعة، وسلم أمر بيع المنزل إلى قسم العقارات في مصرف صديقه سيليستينو. والمرشحون للشراء، بهذا الثمن المغري، هم بالتأكيد، كثر.

كيف عرف الدكتور تيودورو كل ذلك؟ إنه لأمر بسيط جداً: أخبره سيليستينو بأمره، في المركز الرئيسي للمصرف. قال للصيدلي بالهاتف، «دع هذه العقاقير وتعال على وجه السرعة»، وعرض عليه الموقف، منتهياً بسؤاله: لماذا لا تقوم يا تيودورو بجهد وتشتري المنزل؟ هذه صفقة ممتازة، من المستحيل عقد صفقة أفضل، فالمجنون يقدّم العقار عملياً مقابل لا شيء، ما هو ضروري فقط للمضاربة بالعجول.

– عندما تتوقف المضاربة بالعجول، سوف تقضي، يا سيد تيودورو، على الكثير من الناس الطيّبين... فلن يخرج من هنا، من المصرف، أي سنتيم من أجل هذه المضاربة... إشترِ المنزل يا عزيزي، ولا تناقش.

كان البرتغالي على حق بالنسبة إلى المنزل وإلى المضاربة، والدكتور أيضاً، كان مرتاباً من تلك العملية المجنونة في اقتناء عجول وبقرات وثيران. لكنْ من أين يتدبّر المال إذا كان قد انفق منذ فترة وجيزة، جميع مدخراته، على شراء حصة في الصيدلية وأخذ نقوداً من المصرف بمساعدة من سيليستينو ذاته، بسندات ذات مهل محددة؟

كان المصرفي يعتبر الصيدلي نمطاً شريفاً من الناس، زاخراً بالاستقامة، غير قادر على إلحاق الإساءة بأي كان. لم يكن رجلاً ليقترف المجازفة في عملية مصرفية من دون أن يكون واثقاً من قدرته على التغطية المطلقة – الدكتور تيودورو لم يقامر قطّ. ابتسم سيلستينو: كم هي الحياة مليئة بالمفاجآت! فالدونا فلور، الوديعة ذات الحضور الورع والمواهب المطبخية التي لا تضاهى، تزوّجت من الرجلين الأكثر تضاداً، أحدهما نقيض الآخر. تخيّل نفسه يقدّم نقوداً على سبيل القرض لفادينيو، مثلما يفعل الآن مع الصيدلي. اليد المتوترة للفتى ستمسك بقلم الحبر وتوقّع جميع الأوراق التي توضع أمامه، إذا كانت مثل هذه التواقيع ستدرّ عليه بعض أوراق الألف ريس من أجل الروليت.

– تدبّر قليلاً من المال لتكملة الثمن المطلوب وأنا أضمن لك البقية على رهن المنزل ذاته. أنظر...

أخذ قلم الرصاص وأجرى بعض الحسابات. يدفع الدكتور ما يتوافر لديه ولن يقلق بشأن بقية المبلغ؛ رهنٌ على مهلة طويلة، بفوائد منخفضة، مع جميع التسهيلات. إن ما اقترحه البرتغالي كان عملاً تجارياً من والد إلى ابنه: كان سيلستينو يعرف الدونا فلور منذ زواجها الأول، وقد أكل من طعامها، ويكنّ لها تقديراً كبيراً. وكان يقدّر أيضاً الدكتور تيودورو، الرجل الخيّر، ذا الشخصية المستقيمة. في خطابه القصير، لم يشر إلى فادينيو، في تقدير منه للزوج الثاني ولكون السافل ميتاً. لكنه في تلك اللحظة تذكر صفاته وقلّة حيائه، وجعلته هذه الذكرى يبتسم راضياً ويمدد مهلة الرهن لستة أشهر أخرى.

– أشكر لك اقتراحك، ولن أنسى كرمك يا صديقي النبيل، لكنني في هذه اللحظة لا أملك أي مال قيد التصرّف لكي أكمل رأس المال اللازم. وليست لديّ الوسيلة للحصول عليه أيضاً. وإنها

لحسرة كبيرة، إذ إن فلوروبيديس ترغب كثيراً في حيازة المنزل. لكنْ لا توجد وسيلة...

– فلوروبيديس... – همس سيليستينو، «ما هذا الاسم العبثي» – قل لي شيئاً أيها السيد الدكتور مادوريرا، هل أنت في المنزل تدعو امرأتك فلوريبيديس؟

– في العلاقة الحميمة، كلا. أدعوها فلور مثل الجميع.

– حسناً... – قطع توضيح الدكتور بحركة منه، فوقته كان ثميناً كمصرفي – إذ إنه يا عزيزي، حسب ما أخبرتني، لدى الدونا فلور أو الدونا فلوريبيديس مثلما تفضّل حضرتك، بعض المدخرات المعقولة جداً في صندوق التوفير... أكثر من أن تكون كافية لتكملة المبلغ، مع الرهن، اللازم لشراء المنزل...

لم يتذكر الدكتور نقود زوجته:

– لكنْ هذا المال مالها، ثمرة عملها، ولن ألمسه أبداً، فهو مال مقدّس...

مرّة أخرى، نظر بازدراء إلى الصيدلي الجالس أمامه؛ كان فادينيو يأخذ نيكلات زوجته ليقامر بها، وأحياناً ينتزعها منها بالقوة، وبوحشية. حتى إنه كان يضربها، كما نُمي إليه.

– مشاعر جميلة يا دكتور، خليقة بالبلاهة التي تتحلّى بها... – انتقل البرتغالي من اللطافة القصوى إلى الخشونة التامة – أي حمار هو أنت، حمار مثل أي مواطن من هؤلاء الذين يحملون بيانو ويكسرون الحجارة في الشارع... قل لي إذن: ماذا يفيد مال الدونا فلور هذا، الموضوع في دفتر الصندوق؟ فهي ترغب في أن يكون لها منزلها الخاص، وأنت الآن أيها الفارس النبيل في تردد غبي – نعم، غبي يا سيدي – يترك فرصة وحيدة تفلت منه... ألستما متزوجين مع التزام المشاركة في الممتلكات؟

ابتلع الدكتور تيودورو الإهانات: الغبي، الحمار وغيرها، فقد كان يعرف البرتغالي وهو مدين له بفضائل فوق كل شيء.

– لست أدري كيف أتكلم معها...

– لا تدري ماذا؟ إذن، اغتنم ساعة السرير لأنها الأفضل لمناقشة الأعمال مع الزوجة يا عزيزي. فأنا لا أناقش هذه المواضيع مع زوجتي إلّا عندما نكون نحن الاثنين نائمين، وأكون دائماً على ما يرام. إسمع، إنني أمنحك مهلة أربع وعشرين ساعة، وإذا لم تأتِ غداً في الوقت نفسه، سآمر ببيع المنزل لمن يعطي أكثر... والآن، دعني أتابع عملي...

ليس في السرير، لكنْ على الطاولة، مع أولى ظلال الليل، أمام أقراص التابيوكا البيضاء المبللة بحليب جوز الهند، روى الدكتور تيودورو حديث المصرفي للدونا فلور، مقلّداً إياه في الكلمات النابية والفظاظة:

– حسب رأيي، لا تلمسي هذا المال الموجود في الصندوق...

– وماذا أفعل به؟

– نفقاتكِ... الشخصية...

– أي نفقات يا تيودورو، إذا كنت أنت لا تدعني أدفع شيئاً؟ حتى المبلغ الشهري لأمي... إنك تدفع كل شيء وتغضب عندما أحتج أنا. وفي هذا الوقت كله، لم أفعل شيئاً إلّا إيداع النقود في الدفتر؛ سحبت فقط مرّتين، شيئاً زهيداً، مرّة، لشراء تفاهتين لك. لماذا الاحتفاظ بهذا المال بلا فائدة؟ إلا إذا كان لتابوتي، حين أموت...

– لا تتكلمي أشياء سخيفة يا عزيزتي... الحقيقة هي أنني، كزوج، أستوعب ما أنا ملزم به...

– ولماذا لا يكون لي الحق في المساهمة لشراء منزلنا؟ أم إنك لا تعتبرني رفيقتك في كل شيء؟ تُرى هل أنفع فقط للترتيب والاعتناء بملابسك، وأعداد طعامك والذهاب معك إلى السرير – كانت الدونا فلور مندفعة – خادمة أو عشيقة؟

إزاء الانفجار غير المتوقع، أصبح الدكتور تيودورو فاقد القدرة على الكلام، وشيء ثقيل يضغط على صدره، يده تمسك بالشوكة وفيها قطعة من قرص التابيوكا. وأخفضت الدونا فلور

صوتها، وفي تحسّر الآن:

– إلا إذا كنت لا تحبني، وتحتقرني كثيراً بحيث أنك لا تريدني أن أساعدك في شراء منزلنا...

ربما طوال الوقت الذي مضى على زواجه، أكثر من سنة، لم يحدث أن تأثّر الدكتور تيودورو بهذا الشكل . فصاح في خجل مفاجئ:

– أنتِ تعرفين جيداً أنني أحبكِ يا فلور، وأنكِ حياتي. كيف تشككين؟ لا تكوني ظالمة.

وكانت لا تزال مهتاجة، فأعلنت:

– ألست امرأتك؟ زوجتك؟ حسناً إذاً، إذا لم تذهب غداً إلى المصرف، سأذهب أنا وأعقد الصفقة مع السيد سيليستينو...

نهض الدكتور تيودورو، واقترب وضمها بشغف إلى صدره. انكمشت الدونا فلور في صدر الدكتور العريض، هي أيضاً متيّمة. فجلسا على الكنبة المستطيلة، الدونا فلور في حضن زوجها، الوجه في مواجهة الوجه، في حنان شهواني تقريباً. إنكِ الأجمل والأكثر استقامة، والأشد رصانة من بين الزوجات...

– الأجمل، لا يا عزيزي تيودورو... رمقته بعينيها الطافحتين بالطيبة والمبللتين بالسعادة.

– جميلة، كلا... لكنني أؤكد لك، آه! هذا أؤكده لك، أنني رصينة، وأنني امرأة مستقيمة.

وبعد أن قالت هذا، وضعت شفتيها على فم الدكتور وأخذته بفمها في قبلة حب؛ فزوجها الطيّب هو الوحيد الذي يستحق حنانها ونشوة جسدها.

خيّم الليل كلياً على الغرفة وفي منتصف عتمتها رمق فادينيو المشهد. ثم وضع يده على جبينه، قلقاً، وأدار ظهره، وخرج إلى الشارع.

بدءاً من ذلك الحديث بين الدونا فلور والدكتور تيودورو، بدأت الأحداث تتسارع بإيقاع أكثر فأكثر شدة وإرباكاً.

تعاقبت في المدينة أمور غريبة، بإمكانها ترويع حتى المخلوقات الأكثر ألفة مع المعجزة والسحر، مثل الرائية بالغيب أسباسيا القادمة يومياً من الشرق، موطنها الحقيقي، إلى بورتيس دو كارمو، حيث كانت «الوحيدة التي تستخدم نظام العلم الروحاني في الحركة»؛ مثل الوسيط المشهور جوزيتي ماركوس («ظواهر الاسترفاع والإيكتوبلاسما») الذي كانت حميميته مع العالم الثاني معروفة؛ مثل رئيس الملائكة القديس ميغيل دو كارفاليو، في خيمته الخاصة بالمعجزات في بيكو دو كالافاتي؛ مثل الدكتورة نايير ساكان «الحائزة دبلوم من جامعة جوبيتر»، في شفاء جميع الأمراض بالخطوات الممغنطة في شارع كينزي ميستيريوس؛ مثل مدام ديبوراه، من ميرانتي دوس أفليتوس، الحائزة أسرار رهبان التيبت في حالة حمل متواصل ناتج من الاتحاد الروحي مع بوذا الحي، «وكشف سامٍ للمستقبل» قادرة بمواهبها كعرافة «أن تتنبأ بزيجات ثريّة لفترة قصيرة وتضمنها وأن تعلن الأرقام الرابحة في اليانصيب»؛ هذا، من دون الكلام على تيوبالدو، أمير بغداد، وقد صار عجوزاً خرفاً.

ليست هذه المهارات فقط هي التي كانت تنشر الرعب والخوف. فقد أصاب الذهول، مع لغز باهيّا، أولئك الذين يخلقونه ويحافظون عليه، وكان محط ودائعهم عبر الزمن: آلهة في ميثولوجيا الزنوج البرازيليين – ساحرات وسحرة، يالوريشا، بابالوريشا، وعرافون بلالاو واكيكيري، شخصيات مرموقة ، أوبان وأوغان. حتى ولا الساحرة الأم الربة ذاتها، الجالسة على عرشها في آشيه دو أوبو أفونجان، ولا مينينينيا دو كانتويس، في بلاطها في آشيه يامازيه، ولا العمّة ماسي دا كازا برانكا، في آشيه إيان ناسو المحترم، ولا هي بالذات مع المعرفة المستقاة من مائة وثلاث سنوات من العمر، ولا أولغا ده يانسا الراقصة برشاقة في التيريرو الخاص بها في آلاكيكو، ولا نيزينيا ده إيوان، ولا سيمبليسيا ده أوشوماريه، ولا سينيا ده أوشوصي، ابنة القديس من أبيها المتوفى برو كوبيو دو إيلليه أوغونجان، ولا جوانجيزينيو دو كابوكلو بيدرا بريتا، ولا إيميليانو دو بوغوم، ولا مارييتا ده تيمبو، ولا كابوكلو نيفي برانكو ده آلميدا ده زومينو رينازارو غانغاجتي، ولا لويس دا موريسكوكا، ولا أي واحد منهم، استطاع السيطرة على الموقف وتفسيره بشكل مرضٍ.

لقد رأوا حرب القديسين تشتعل، في منعطفات الدروب، في ليالي الماكومبا، في أماكن التيريرو وفي اتساع السماوات وفي أعمال السحر من دون سوابق وأعمال سحر لم تُر قطّ، أعمال سحر تحمل الموت، شيئاً قبيحاً وسحراً في كل زاوية. من جهة، آلهة الأوريشا غاضبة، مجتمعة كلها ، ممثلة لكل أنواعها وأممها، وفي الجهة الأخرى، الإله إيشو يدعم بمفرده ذلك الروح المتمرّد (إيغون) ، الذي لم يقدّم إليه أحد ملابس ملوّنة ولا دماء الديوك والبقر، ولا ثوراً بأكمله، حتى ولا رداء من آنغولا. فارتدى ملابس الرغبة مع خرق الشغف الأزلي ولم يكن يرغب كتضحية ابتسامة وعذوبة الدونا فلور. حتى الألهة يانسا (إيباهيه) التي تطرد الأرواح، والتي لا تخاف آلهة الإيغون وتواجهها، والتي تأمر الأموات المحاربة ذات الصوت الذي ينضج الثمار ويدمّر الجيوش، لم تتمكن من فرض جبروتها وجسارتها. فذلك الكاهن – الساحر التابع للإله إيشو انتزع منها سيفها وسلطتها. فقد انقلب كل شيء، كل شيء اصبح بالمقلوب، كان ذلك زمن الضد، زمن منتصف النهار في الليل والشمس في الفجر. فسجدت الآلهة التابعة ليالوريشا وبابالوريشا في ساعة الصلاة، وبدت لحظة معيّنة لم تعد تريد التدخل: يعود للمسحورين أن يجدوا القرار في نار المعركة. بابالو ديدي وحده فقط، لأن آسوبا ده أومولو، ساحر إيفان، حارس منزل أوساايين، وفوق كل هذا لكونه أخذ مركز كوريكوي أولو كوتوم في تيريرو الإله إيغون في آموريرا، حاول مرّة أخرى أن يلفّ نفسه بقش موكان فيما الإيغون مستيقظ من نومه بواسطة الحب. فطلب منه تحقيق رجاء ديونيزيا ده أوشوصي لكن دون جدوى، كما سنراه في ما بعد.

لا يُقال إن كاردوزو إي سا، قد ارتعب، فليس هو المواطن الذي يرتعب ولا تعتريه المخاوف والاندهاشات السهلة. لكنه عانى انفعالاً، نعم! هذا ما عانى منه، فليس ثمة أفضل من إخفاء الواقع والقول إن المعلم كاردوزو إي سا، فوجئ، فقد قيل كل شيء، والعادي ينتج من إفراط غير العادي، وعن مناخ المدينة العبثي. ففي تلك الأيام، هاجم الشعب، في صحوته وغضبه، مركز الاحتكار الأجنبي للطاقة الكهربائية، مصرّاً على تأميم المنجم والنفط، وأجبر الشرطة على الفرار وأنشد نشيد الثورة الفرنسية (المارسيلياز) من دون أن يعرف الفرنسية. كل هذا كانت بدايته في تلك المناسبة.

لم تعر الدونا فلور انتباهاً فورياً للوضع، خلافاً لبيلانتشي مولاس، الذي جعله دمه الكالابري، يستشعر به ويعين له اتجاه الأحداث ومجراها في تلك الليلة الإياسكينية. فإن بضعة أيام كانت كافية لإقناع بيلانتشي. وإذ أرتعب الأخير، هذا الرجل الذي لا يخاف والعديم التأثر الحميمي، رجل العصابات العصري على طريقة شيكاغو، هذا المقامر الفظ – ارسل سائق سيارته آوريليو، وهو يتمتع بثقته الكاملة، إلى تيريرو الأم أوتافيا كيسيمبي، من أتباع يالوريشا وهي من أمّة الكونغو، وذهب هو نفسه يبحث عن الفيلسوف المتصوّف والمنجّم كاردوزو إي سا، وهما الكائنان الوحيدان القادران على حمايته من هذا الخطر الكبير وإنقاذ مملكته وجلالته.

جلالة ومملكة، نعم، لأن بيلانتشي مولاس كان عاهلاً على أقوى احتكار في باهيّا، ملكاً للقمار والأعمال غير المشروعة، السيد الشرعي للروليت وللعبة الأرنب الفرنسية والبكارا والإياسكينيه في بالاس كما في التاباريس، في آباشادينيو، في المنازل الكبيرة والبيوت الصغيرة حيث مديرو أعماله يبقون متنبهين إلى المعطيات والورق، إلى مديري الألعاب ورؤساء القاعات ويجلبون إليه حصيلة يومية وسمينة من الدورة، من لعبة الواحد والعشرين، من لعبة السبعة والنصف. كازينوهات نادرة جداً كانت خارج سلطته، واحد أو اثنين فقط: الدوقيات الثلاث، مينينجيتي، وكر باراناغوا فينتورا. وفوق جميع المنازل الأخرى كان يبسط المخالب الشرهة والمقوسّة (تعتني بها جيداً مشذبة الأظفار الخصوصية الخلاسية الصغيرة التي صنعها الهرم باريروس أبو المحامي تيبورسيو ذاك، وهو اختصاصي في هذا الأمر)؛ فقد درب سبعاً وثلاثين خلاسية، جميعهن ساطعات ومتغطرسات كل منهن أكثر من الأخرى.

والأمبراطورية الواسعة الشرعية (في المظهر) للعبة البيشو؟ وحده بيلانتشي كان مسموحاً له أن ينشئ مثلها بضمانة الشرطة، وإذا تجرأ أحد المغفلين على منافسته، فعلى الفور تمارس السلطات الضابطة دورها على الهامشي التعس، بالقسوة الصارمة. لم تعرف ولاية باهيّا رجلاً أكثر منه سلطاناً، مدنياً أو عسكرياً، أسقفاً أو كاهناً – ساحراً. فقد كان بيلانتشي مولاس يأمر وينهى. فهو مدير حاكم على أشد الأمبراطوريات تعقيداً والأكثر ثراءً، أمبراطورية القمار، على رأس جيش من التابعين: معلّمي القاعات، مديري الألعاب، المفتشين المصرفيين، اللاعبين لحساب النادي، القوّادين، الجواسيس، رجال التحريات في الشرطة وحرسه الخاص. كان البابا لطائفة دينية لها ألوف

المؤمنين الخاضعين والعبيد المتعصبين. بإكرامياته كان يدعم ويثري شخصيات لامعة في الإدارة الرسمية، وفي الوسط الثقافي وفي القطاع العام، بدءاً من رئيس الشرطة، فضلاً عن مساهمته بأعمال الخير وتمويله بناء الكنائس. فماذا كان يساوي أمامه كلٌ من الحاكم والمحافظ وآمري القوى البرّية والجويّة أو الغواصات، والمطران بتاجه وخاتمه؟ لم توجد سلطة على الأرض قادرة على إصابة بيلانتشي بالخوف، الإيطالي العجوز ذي الشعر الأبيض والضحكة البشوشة والعينين القاسيتين، الصارمتين تقريباً، الذي يدخّن لفافة أزلية بمبسمٍ من العاج، ويقرأ فرجيل ودانتي، علاوة على القمار. كان يحب الشعر والخلاسيات.

7

كان الزنجي أريغوف مضطرباً، يلاحقه النحس أكثر من اللازم. فقد آلمه عنقه منذ شهر تقريباً، منذ اليوم الذي نزل فيه وهو مفلس، سلالم المنزل ذي الطبقتين حيث تقبع غرفته كشخص عازب، واصطدمت رجله بصرّة النحس. سحر شرير، قدر موضوع أمامه ليسمم حياته. مزّق الورقة، ونثر الفاروفا الصفراء، والريش الأسود للدجاجة، والأوراق الطقوسية، وقطعتين نقديتين من النحاس، وقطعة من ربطة عنقه ما زالت جديدة. وفرت له ربطة العنق المسار الصحيح؛ انتقام زاييرا، كائن جاف، غير قادرة على تحمل إهانة من دون أن تنتقم مباشرةً.

ذات ليلة، فقد أريغوف الرصانة والأناقة اللتين يتمتع بهما كشخص نبيل، وصفعها صفعتين في التباريس، لكي تألف هي تصرّفات الناس، ولا تعود وتفقده صبره. كانت زاييرا محمدية من أمّة الموسورومين، لكنها تمارس السحر كواحدة من الكابوكلو والأنغولا ولديها علاقات جيدة مع سحرة الأنكيسي. فمن هو الذي أعدّ لزاييرا هذا المصير السيِّىء الأكثر عنفاً؟ بالتأكيد شخص مدرب، خبير في الأذية. لم ينجح أي تآمر لردعه، فقد استولى الساحر على حظ الزنجي وحبسه في قعر بئر وراح المسكين يتسوّل في كازينوهات القمار، خاسراً كل شيء. قامر بأفضل ممتلكاته؛ الخاتم الكبير من الفضّة الحقيقية، والسلسلة الذهبية مع حجاب من خشب مستورد من غينيا، وقرن صغير من العاج، والساعة التي حصل عليها من بحّار أشقر من إحدى البواخر، ربما هي مسروقة من قمرة مليونير، جد جميلة وقوية بحيث أن الإسباني من «سيتي»، مع كل خبرته بالمجوهرات، صفّر من الانفعال عند رؤيتها، عارضاً عليه أكثر من خمسمائة ألف ريس ثمناً لها بدل أن يرهنها.

زاييرا، الزنجية الشيطانية المنتمية إلى الماندينغا، المولودة في وسط أعمال السحر، قضت على حظه. وتساءل أريغوف القلق، أين هي بقية ربطة عنقه المصنوعة من النسيج المسرد؟ بالتأكيد مربوطة بقدم كابوكلو أو قدم أحد الإنكيسي، إلى جانب صورته تلك الصغيرة، المعَدّة لبطاقة الهوية: الزنجي مبتسماً مظهراً السن الذهبية. لقد قدّمها أريغوف لها برهاناً على الحب الذي يكنّه للهجينة عديمة القلب وهو يتصوَّر الآن وجهه المثقوب بالدبابيس في المخبأ الذي يعتمده الكاهن – الساحر في الغابة، من أجل أن يتفاعل السحر كل صباح ويطفئ بضربة وإلى الأبد نجمته الحسنة.

كان قد استحمّ بالأوراق وصلّت من أجله إيبيتانيا ده أيغون. وكان على الكاهنة إيّامورو أن تغير غطاءها ثلاث مرّات، لأن الأوراق كانت تذبل ما إن تلمس جسدها، ولأن الأذية التي أصابت عنق أريغوف كانت قوية جداً. وفي دوامة هذا الألم، مضى الزنجي في شارع تشيلي مفكراً في مرارة الحياة. فمشى من المطعم وكانت وجهته الفورية منزل تيريزا. لقد دعاه فالدوميرو لينس إلى العشاء بعد المساء المنكوب، في كهف زيزيه مينينجيتي، حيث خسر الزنجي آخر نيكلاته، وأكل أريغوف الزاخر بالغضب، دفعة واحدة الغداء والعشاء ووجبة الليل.

– إنك جائع كثيراً يا أريغوف، ماذا يجري؟ – سأله الآخر إزاء هذه الشهيّة المفرطة.

– ربما لن يكون باستطاعتي أن آكل بعد الآن... أجاب الزنجي بتشاؤم حاسم.

– هل أنت مريض؟

– من النحس يا أخي الصغير. فقد أوثقوا حظي بقدميْ شخص كابوكلو، هذا إذا لم يكن تابعاً لأوريشا أنغولا، فإن ذلك الشخص الشرير هو من أناس الإينكيسي. إنني مستَهْدَف أيها الصديق.

أخبره عن مآسيه: انهارت جميع التوقعات، ولم يصب أيٌ منها: لا الزهر ولا الورق ولا طاولة الروليت، كان يخسر دائماً. وقد بدأ مشاركوه في اللعب ينظرون إليه بطرف أعينهم، كما لو أنه تحوّل إلى نحس.

– إن نحسي يلاحقني يا شقيقي الصغير...

رواية زاخرة بالتفاصيل، على أمل أن ينجده فالدوميرو لينس، وهو شاب مقتدر ورفيق مرح ويقرضه بعض المبالغ للعب الليل. وأخفق المسعى، إذ بدلاً من المال، خدمه الصديق بتقديم النصائح إليه: لا توجد إلا وسيلة واحدة للفرار من نحس أسود كهذا، وهو الهرب من القمار لبعض الوقت. فاترك مدّ الحظ العاثر يمضي، تبتعد قوة المصير المهمل. وإذا عاند، فلسوف ينتهي به الأمر مفلساً، يرهن سراويله الداخلية. فهو، فالدوميرو لينس، تعلّم أن يحترم الحظ والنحس وحملته واقعة معيّنة إلى أن يبقى أكثر من ثلاثة أشهر من دون أن يرى ورق لعب، ولا مكعّبات أو طاولة الروليت.

وفي ارتقائه شارع تشيلي، استصوب أريغوف رأي صديقه؛ فالعناد لن يتحول إلى أكثر من حماقة بحتة، عناد رجل مخبول، ومن الأفضل زيارة تيريزا دا جيوغرافيا، وهي بيضاء تحب الزنوج المتعافين، والسبب في توجيه الصفعات إلى زابيرا. وعندما سيتمدد على السرير إلى جانب تيريزا البيضاء، يشرب على مهل عرقاً مع ليمون حامض، فينسى هزائمه، ويترك نحسه على السجادة. نعم، لقد هُزم الزنجي أريغوف هذه المرّة ، ولم يبقَ له إلا الهروب المجلل بالعار. إن فالدوميرو لينس لمصيب، وهو رجل مجرّب يسدي النصيحة الحسنة.

وبالنسبة إلى الجغرافيا الإباحية لتيريزا، لم يكن أريغوف راضياً كلياً. فلم يكن من عادته ولا من دواعي سروره، الهروب من معركة حتى ولو كان الوضع ميؤوساً منه، حتى مهزوماً مسبقاً. تذكر فالدوميرو آخر، صديقه المثالي الذي لا يمكن لأحد أن يخلفه؛ فادينيو ميت لسوء الحظ، وكان فعّالاً وجسوراً، لا يضاهى في مادة القمار وبشكل عام. هو، أجل، كان يمكن أن يفيده لو كان حيّاً.

فمنذ سنين كثيرة، في إحدى الليالي، بعد أسابيع من النحس العبثي، عندما بات بلا فلس ومن دون أن يكون له مورد للحصول عليه، دخل أريغوف التباريس وتحادث مع فادينيو، وكان متشامخاً في السمو والفيش، يراهن بأرقام مرتفعة. فأخذ منه الزنجي فيشاً وكنماذج على الفوز، كسب ستة وتسعين كونتو في بضع دقائق، ولم يُر من قبل البتة أمر مشابه. كانت ليلة هذيان؛ أمر

أريغوف بتفصيل نصف دزينة من البذلات دفعة واحدة، قاذفاً مبالغ كبيرة في وجه الخيّاط. ليلة خيالية من العربدة المدهشة في شقة كارلا، دفع هو جميع تكاليفها، إنها ليلة أسطورية في ذاكرة القمار في باهيّا.

أمر غريب! كان يتذكر فادينيو وسفاهته، لكن لم يكن يبدو له أنه يسمع بوضوح ذلك الصوت المشحون بالسفاهة.

إذن، أيها الزنجي الفار، أين دسست شجاعتك؟ في مؤخرة البيضاء؟ إن من لا يتعقب الحظ لا يستحق الكسب، وأنت تعلم هذا. منذ متى أنت تلميذ فالدوميرو لينس؟ ألم تكن أنت أستاذاً عندما جاء هو ليلعب القمار للمرّة الأولى؟ توقف أريغوف في منتصف شارع تشيلي، كشخص أبله، فبدا له صوت فادينيو شديد الحيوية وقريباً. بدأ القمر، طالعاً من البحر، يغطي بالذهب والفضة مدينة باهيّا.

– دع عظام البيضاء إلى ما بعد، أيها الزنجي الجبان، إنك خائف من السحر، إذن فأنت لست ابن شانغو؟ دع البيضاء إلى ما بعد، عندما تكسر النحس، فالليلة ليلتك في الاحتفال.

فادينيو الرهيب! كانت لديه الهواجس الأكثر جنوناً، كان هو نفسه في الحظ وفي النحس، الابتسامة نفسها الماكرة والسليطة. من يدري، فكر أريغوف، قد يكون فادينيو في أعلى القمر ينظر وهو يدير ظهره إلى النحس متجرّداً من السلسلة الذهبية، ومن الخاتم الفضي، ومن الساعة التي طمع بها الإسباني من «سيتي»؟

– أين شجاعتك أيّها الزنجي؟ أين أريغوف الفحل، ثلاث مرّات؟

فالدوميرو لينس، الحذر والمقامر الرفيع المستوى، نصحه بألّا يثابر ضد النحس وأن يبقى مختبئاً في سرير العشيقة المشرقة جداً والحكيمة جداً؛ كانت تيريزا تحفظ في الذاكرة أنهار الصين وبراكين الأندس وقمم الجبال. عندما شاهدت الزنجي أريغوف هائلاً وعارياً، ارتعشت من الإثارة، وحيت في الوقت نفسه قمة هملايا ومحور الأرض: تيريزا قليلة الحياء! مع هذا القدر من النحس ومع تيريزا التي تنتظره، وحده المجنون كان سيعود في تلك الليلة إلى لعب الورق.

– إذهب فأنا أضمن لك الربح أيها الزنجي المائع... كان صوت فادينيو يهمس في أذنه.

بحث عنه أريغوف حوله، لأنه كان يتخيل أنه يسمع نفسه. كان كما لو أن صديق الماضي يأخذه بيده ويقوده إلى سلالم آباشادينيو القريب جداً.

– لم أخف قط من الأشباح... – قال الزنجي.

كانت تيريزا تنتظره وهي تمضغ الشوكولاته المغمسة في البحيرات الكندية، وفي روافد الأمازون. وبدون أي فلس في جيبه، تسلل أريغوف إلى آباشادينيو، واتجه إلى طاولة الإياسكينيه. كان أنطونيو ديدينيو، مساعد مدير اللعبة، يهيء مجموعات من ست رزم من أوراق اللعب ليبدأ ويجرّب حظّه. ووجوه الخاسرين التي كانت حوله لم تعكس أي حماسة. ولم يكن ثمة صديق واحد يستطيع أريغوف الحصول منه بالتملق على فيش أو مال. أعلن أنطونيو ديدينيو حصيلة لعب بمائة كونتو وقلب ورقتين على الطاولة: البنت والملك.

– على البنت (في ورق اللعب)... – سمع أريغوف أمر فادينيو.

لا أحد يقرضه حتى ولا خمسة آلاف ريس. كان هناك رجل أنيق مزدهٍ ببذلة بيضاء، وفي يده فيش، يبدو أنه معتاد جو البيت، لكنه مجهول هناك، ربما هو من المنطقة الداخلية. سحب أريغوف من ربطة عنقه، الدبوس المستبصر، مفتاح يخترق قلباً، هدية من تيريزا. لكن الذهب كان زائفاً والأحجار البراقة كانت زجاجاً بلا قيمة، هكذا حطّ من شأنها الإسباني من «سيتي»، رافضاً قبولها كرهن. واتجه إلى الثري ذي البذلة البيضاء عارضاً الهدية:

– أيها السيد العزيز، اقرضني فيشاً، أي فيش، واحتفظ بهذه الجوهرة كضمانة. ولسوف أدفع لك في الحال، اسمي أريغوف والجميع هنا يعرفونني.

أعطاه اللورد فيشاً من ذات المائة:

– احتفظ بدبوسك، إذا ربحت إدفع لي وادعو لك بالتوفيق.

وضع الفيش فوق البنت وأريغوف وحده كان ينتظر ، حيث إن أحداً من الحلقة لم يشأ المجازفة، لأن الإحباط كان عاماً. حتى الرجل ذو البزة البيضاء آثر أن يراقب اللعب. قلب ديدينيو الورقة الأولى: كانت البنت. جمع ريغوف الفيش، وقلب ديدينيو أوراقاً جديدة، وللمصادفة، كانتا البنت والملك. وضع أريغوف ماله مجدداً فوق البنت.

سحب أنطونيو ديدينيو ورقة من المجموعة، فكانت الورقة الأولى مجدداً البنت. أوراق جديدة والمصادفة تكبر، وهي جديرة بالملاحظة: فللمرّة الثالثة شوهدت البنت والملك على الطاولة. وأريغوف مصراً على البنت وراهن معه الرجل ذو البزة البيضاء. اقترب الفضوليون الأوائل. سحب أنطونيو ديدينيو ورقة من المجموعة: أمر لا يصدق، كانت الورقة الأولى وللمرّة الثالثة هي البنت. بنت الديناري التي ذكرته بتيريزا. فقالت إحدى البغايا وهي متوترة: «ربّاه!». كانت متوترة ليس بسبب تكرار ظهور البنت ثلاث مرّات فقط، إنما لأنها كانت دائماً الورقة الأولى ، دون حسبان أن الاوراق نفسها عادت ثلاث مرّات: البنت والملك. وليس ثلاث مرّات فقط، بل اثنتيْ عشرة مرّة سقطت البنت والملك فوق الطاولة واثنتيْ عشرة مرّة أسعفت البنت المدعو أريغوف، وكانت دائماً الورقة الأولى التي تُقلب. ولم يعد الآن، الرجل ذو الرداء الأبيض وحده، لكنَّ آخرين عديدين راهنوا على هاجس الزنجي الذي كان يضع ثلاث أوراق نقداً من فئة الكونتو على كل مرحلة من اللعب، وهو الحد الأقصى المسموح به.

كان أنطونيو ديدينيو شاحباً شحوب الموت، وقلبه يعتصر من الخوف، فحضَّر مجدداً مجموعة أوراق اللعب. وكان لولو مفتش القاعة، إلى جانب ديدينيو الآن، يتابع خلط الأوراق يقظاً. ازداد الجمع المهتاج حول الطاولة، وأتى أناس من البكارا والروليت. عرض أنطونيو ديدينيو مجموعة أوراق اللعب على اللاعبين، وسحب منها ورقتين؛ تزايد شحوبه وارتجفت يداه لأن الورقتين كانتا البنت والملك. ابتسم أريغوف: لقد كسر النحس وقطع دابر الحظ السيِّيء بذكرى فادينيو. فإذا كان ثمة عالم آخر، وإذا كان الأموات في العالم الثاني، متغيرين في السماء أو في الفضاء، كما يقول أختصاصيون في الموضوع، ربما كان فادينيو يراه من فوق القمر الذي يسيل ذهباً وفضّة فوق البحر والمنازل. وهو فخور بالتأكيد بإقدام صديقه أريغوف الزنجي الفحل المنتصر على النحس والسحر. لكن فادينيو كان، على ما يبدو، موجوداً هنا في الغرفة ذاتها، قرب أريغوف، عائداً بين

الأحياء. لكن الزنجي، إذ قرر، بعد أن أجرى حسابات عميقة ملتبسة، تغيير الورقة والمراهنة على الملك (من المستحيل أن تظهر البنت بعد، من المستحيل كلياً) سمع الصوت الغاضب لصديقه، بأمر قاسٍ:

– على البنت، أيها الزنجي ابن العاهرة. وأودعت يد أريغوف، بالاستقلال عن إرادته، كما لو أنها تطيع قوة عليا، الفيش على البنت. سحب أنطونيو ديدينيو مطبقاً أسنانه وعيناه مرتعبتان، الورقة الأولى: البنت. حركة عامة، هتافات، ضحكات متوترة وكان يصل في كل مرّة أناس آخرون ليروا المستحيل. فانتصب إلى جانب لولو، جيلبيرتو كاشوراو، مدير الوكر، بملامحه المرتابة ككلب يحرس القطيع، مستعدّاً لكشف القناع عن المكيدة (ليس بوسعها أن تكون شيئاً آخر إلا عملية غش وغش خشن) التي تكررت أمامه وبشكل عبثي مرّات عديدة، وانفجر البنك. كانت البنت، متحمسة ومرحة، دائماً هي الورقة الأولى. فأين هي عملية الغش، الخشنة أو الرفيعة، يا كاشوراو؟ فالتفت أنطونيو ديدينيو مرتبكاً إلى المدير، منتظراً أوامره، لكنْ كاشوراو اكتفى بالنظر إليه بارتياب ولم يقل شيئاً. فأعدّ مساعد مدير اللعبة أوراق لعب جديدة متمهلاً، أمام نظر الجميع وأعلن بضيق شديد:

– البنك مائة كونتو...

قلب ورقتين: البنت وملك. كان ثمة صمت مثل صمت الموت والجميع الآن يريدون المراهنة على البنت. وصل أناس من الشارع ومن التباريس، حيث وصل النبأ المذهل. ولم تدم طويلاً حصيلة اللعبة الجديدة. أسرع لولو مندفعاً إلى الهاتف بأمر من جيلبيرتو كاشوراو، فتحوّل المستحيل في الغرفة واقعاً مكرراً؛ البنت تتكرر ودائماً الأولى. قال رجل المصرف بصوت مرتفع:

– إنني منصرف وإلا سأصاب بشيء ما، فقلبي لن يقوى. أنا ألعب منذ أكثر من عشر سنوات في إيليوس وإيتابونا، في بيرانجي وفي آغوا بريتا. ولقد رأيت أعمال غش كثيرة، غشاً من جميع الأنواع، لكن مثل هذا ما رأيت قط. وأقول أكثر من ذلك: إنني أرى ولا أصدق. همّ أريغوف ليدفع ثمن الفيش للرجل ويدعوه إلى وجبة الليل في منزل تيريزا، لكنه رفض.

– لينجني الله ويحفظني. إنني أخاف السحر. وهذا لا يمكن أن يكون إلا من عمل السحر. فابق على فيشك، إذ إنني سأبدل فيشاتي قبل أن تختفي أو وتتطاير.

رجع لولو ثانية ثم ما لبث أن ظهر إلى جانبه وجانب كاشوراو الوجه الحذر لزنجي طاعن في السن يضع نظارات، هادىء جداً، إنه البروفسور ماسيمو سالس، وكيل أعمال بيلانتشي مولاس الرئيسي، ورجله الحائز ثقته. فعند تلقيه المخابرة الهاتفية من لولو، رفض الرجل المهم أن يصدّق القصة التي ليس لها قدم ولا رأس. عاد لولو بالطبع إلى معاقرة الخمرة وهو يفعل ذلك الآن خلال أوقات العمل، إنه سوء تصرف لا يغتفر. ولأن بيلانتشي، كان يسند رأسه الأشيب إلى ثديئ زولميرا سيمونز ماغونديس الدافئين، في حميمية لذيذة، أرسل ماسيمو سالس لكشف خفايا الخبر الغريب. والأصح هو أن كل ذلك ليس أكثر من انتكاسة جديدة للولو.

– إذا كان سكراناً أيها الأستاذ، فلا تتردد في عمل الخير: اطرده في الحال، وأخبرني هاتفياً بالنتيجة...

وما كاد وكيل الأعمال يحظى بالوقت المتاح للإلمام بالظاهرة وجدّية لولو المعتدلة حتى كانت حصيلة اللعبة ذات المائة ألف كونتو تذهب في الهواء، بين أصابع أريغوف. تطلّع أنطونيو ديدينيو، وهو يمسح العرق عن جبينه الذي لا يسري فيه الدم، إلى الثلاثي الذي كان أمامه. كان لديه أبناء ليرعاهم وهو لا يصلح لوظيفة أخرى،. آه يا ربي! كان الثلاثة ينظرون إليه بأطراف أعينهم، وهمس الأستاذ: «تابع». كان ماسيمو سالس بملابسه الزرقاء، ونظارتيه اللتين هما بلا إطارين، وخاتمه ذي فص الياقوت، يبدو أستاذاً جامعياً محترماً بشعره الجعد الذي صار أبيض من الدراسة والمراقبات العلمية. فقد كان رجلاً وقوراً يحب الشكليات بحيث أن الجميع كانوا ينادونه بالأستاذ، بمن فيهم بيلانتشي، كما لو أنه حقاً يحمل شهادة في المخالفات وفي الفيش وأوراق اللعب. ففي هذا المقعد الجامعي كان في الواقع قمة وفعالية كليّة وعلماً ملحوظاً ودكتوراً ملائكياً. حضَّر أنطونيو ديدينيو، ضحية القدر، مجموعة جديدة من ورق اللعب وتكرر كل شيء كأنهم في كابوس. وكما قالت أميسينا (اسمها الجميل كان مؤلفاً من آمي، ده آميريكو، أبيها ، وسينا ده روزينا، أمها) وهي مومس تتعاطى قراءة «تقويم الفكر» وغيره من المنابع الإيكزوتيريكية، التي تتعلق ب–

«الإشارة المرتقبة لنهاية العالم». وجّه ماسيموسالس بضعة أسئلة لكاشوراو وللول، ثم، تاركاً الجمع الغفير من البنات، توجه نحو الهاتف.

هذا هو السبب الذي دفع بيلانتشي مولاس إلى الظهور في القاعة، وزولميرا متأبطة ذراعه. ابتعد الناس ليسمحا له بالمرور ورؤية ماله يذوب مع الإياسكينية، فانفجر بنك المائة كونتو في وجهه. فأبعد بيلانتشي مولاس أنطونيو ديدينيو، بإشارة منه كملك، وعلى مرأى من جميع الحضور، وأجرى فحصاً على مجموعة أوراق اللعب؛ فأوراق الملك الإثنتا عشرة كانت مكدّسة في قعر العلبة، كانت هي الأوراق الأخيرة. الموظفون الثلاثة – ماسيمو، بوضعيته كدكتور، والكلب الحارس للقطيع جيلبيرتو ولولو مفتش الغرفة تبادلوا نظرة عليمة. وأنطونيو ديدينيو رأى نفسه بريئاً ومداناً. رمق بيلانتشي مولاس، وعيناه باردتان، زرقاوان من القسوة، مساعد مدير اللعبة أولاً والموظفين الثلاثة، وبعدها الجمهور المجتمع حول الطاولة، بوجوههم الشرهة والمشدودة العضلات، واللاعبين في الحدود النهائية للعبث . وقبالة الجميع، الزنجي أريغوف، قمة هملايا، العلو الشاهق، ومحور العالم، حسب تعبير تيريزا، جغرافيا صديقة للزنوج. كان أريغوف يبتسم وهو مغطى بالعرق والفيش.

ابتسم بيلانتشي مولاس لزولميرا، للقسم الخلفي من جسدها، وأعدّ هو نفسه مجموعة جديدة من ورق اللعب وأعلن افتتاح اللعبة كأنه ينشد قصيدة:

– الافتتاح بمائتيْ كونتو.

على الرغم من أن بيلانتشي مولاس، سيّد القمار، سيّد المشنقة والسكين القاطع، صاحب الجلالة وكل ما يُعرف عنه، لم يساو تكراره شيئاً ، وحتى لم يغيّر الحظ الذي لم يعد حظاً، بل بات أعجوبة؛ فقد جاءت ورقتا البنت والملك، وحلّت البنت ورقة أولى. وعندما انفجرت الحصيلة قبل أن تصل مجموعة أوراق اللعب إلى منتصفها، تفحّص بيلانتشي مولاس العلبة مع بقية أوراق اللعب؛ هناك في النهاية («نهاية العالم...» كررت آميسينا، النبوءة) كانت معاً الأوراق الاثنتا عشرة للملك غير المفيدة. ترك بيلانتشي مولاس أوراق اللعب، وهمس بشيء ما وترجمه جيلبيرتو كاشوراو بصوت عالٍ:

– يُعَلّق اللعب لهذا اليوم...

انسحب أريغوف وسط تظاهرات التعاطف، يتبعه المعجبون ونساء ملتهبات ومنطقيات. بدّل فيشاته واشترى شامبانيا، ثم أخذ طريقه إلى منزل تيريزا البيضاء المثيرة لشبق زنجي ذي طاقة في الجغرافيا وفي لعب الداما. ذهب الزنجي زاخراً بالخيلاء والاعتزاز. فلا النحس ولا السحر، يستطيعان أن يفعلا شيئاً ضده، ولا حتى غضب زئيرا الساحرة. وراح بيلانتشي مولاس يفكر بالأمر. كان لولو يهزّ يديه، وجيلبيرتو كاشوراو يحسّ أنه غير قادر على الإيضاح، لكنه كان متفقاً مع ماسيمو سالس: كانت ثمة عملية احتيال وتزوير وغش أسود. وأنطونيو ديدينيو الغارق في بحر من البنات، ينتظر العقوبة. كان ضرورياً توضيح كل شيء، قال الأستاذ المهيب. وقلّص بيلانتشي مولاس كتفيه: افعلوا اللازم، تحقيقات واستقصاءات، استدعوا الشرطة إذا لزم الأمر. أما هو فكان يشعر بقلق غامض، وكان دمه الكالابري حسّاساً إزاء الغموض والانبعاثات البعيدة وكحال ثدييّ زولميرا سيمونز فاغونديس، البرونزيين والمخمليّين. فالسكرتيرة الأولى، السيدة الأولى، الأثيرة لدى بيلانتشي مولاس، تلوّت فجأة في ضحك ودلال:

– شيء ما فوق صدري، أوّاه يا بيكيتو، يوجد شيء ما يدغدغني، أوّاه، يا له من أمر غريب... حتى لكأنه يبدو شبحاً...

رسم بيلانتشي مولاس إشارة الصليب.

8

كانت أياماً مضطربة بالركض الجامح والإرهاق. الدكتور تيودورو والدونا فلور كانا منهمكين، يركضان من مكان إلى آخر، من المصرف إلى دائرة السجل العقاري، ومن دائرة السجل العقاري إلى مكاتب متعددة في البلدية. وقد وجدت نفسها مضطرة لوقف الدروس حتى نهاية الأسبوع، وهو لم يظهر تقريباً في الصيدلية. لقد أنذر سيليستينو الدونا فلور، بصراحته البرتغالية الاعتيادية:

– إذا أردتِ حقاً شراء المنزل، دعي لبضعة أيام هذه القذارة، الدروس. وإلا فوداعاً...

لقد ظهر مرشح آخر، ولولا رغبة المصرفي الطيّبة لخسرا، مرّة أخرى، الفرصة في كسب الصفقة. والآن، كان كل شيء شبه منته، ولم يبق إلا التوقيع النهائي الذي ستحتاج الدائرة العقارية لبضعة أيام لتحضيره. لكنَّ العربون قد دُفع للمالك القديم ولهذا استخدما مال دفتر صندوق التوفير، توفيرات الدونا فلور. جابت الدونا فلور، وهي متأبطة ذراع زوجها، مدعومة بقوته ومعرفته، نصف باهيّا، في نهاية ذلك الأسبوع. حتى إنها لم تعد إلى المنزل إلا خلال ساعات الأكل والنوم، ولم تستطع الخلود للراحة. كيف تنام بوجود فادينيو؟ كان يقبع إلى جانبها منذ وصولها، وهو أكثر فأكثر وقاحة، على استعداد لأن يحملها على الفحش والخيانة الزوجية؟

زانية؟ زانية كيف؟ كان الشرير يتساءل، طالما أنا زوجكِ؟ أين شوهدت امرأة تصبح زانية لكونها استسلمت لزوجها الشرعي؟ ألم تقسم هي على الطاعة أمام القاضي والكاهن؟ هل رأى أحد، يا وردتي، زواجاً أفلاطونياً كهذا؟ سخافة... فلدى الملعون كلام معسول، ولسان دافئ، ومنطق وبلاغة، وحجج قادرة على تشويشها، وكان صوته يهدهدها:

– يا حبي، ألم نتزوج لكي ننام معاً؟ إذن؟

كانت الدونا فلور لا تزال تشعر بثقل ذراع الدكتور، وتشمّ رائحته الناضحة بالعرق في لاديراس، بحثاً عن المكاتب. كان صوت فادينيو يقضّ مضجعها – كيف ترتاح إذا كان يتوجب عليها أن تبقى يقظة، إذا لم يكن في وسعها التخلّي عن نفسها ثانية واحدة وإلّا تعرضت للخطر؟ خطر الانسياق مع الموسيقى الكامنة في صوته، تدوّخها كلماته، وتلمسها يده الغادرة، بشفته. وعندما تنبّهت إلى الأمر، كانت أسيرة ذراعيه، وكان ينبغي لها أن تفلت منه بعنف. فما مكنته منها ولن تمكنه أبداً. لم تعطه ما يبتغيه، أو أقلّه، لم تعطهِ كل شيء، لأنها سمحت له بشيء ما في هذا الوقت الزاخر بالأيام المتعبة: دغدغات خفيفة وبريئة. هل ستكون هكذا جد خفيفة وبريئة؟ فذات يوم، على سبيل المثال، وصلت بعد الظهر، منهكة من دوائر الدولة ودائرة السجل العقاري (كان الدكتور قد ذهب إلى الصيدلية يحضّر وصفات طبيّة)، تجرّدت من فستانها، وخلعت حذاءها وجوربيها وتمددت على السرير الحديدي، وبقيت بحاملة الثديين والغلالة فقط. كان هناك صمت ونسيم في المنزل فتنهدت الدونا فلور.

– إنك تعبة، يا حبي؟ – كان فادينيو ممدداً إلى جانبها.

من أين جاء؟ أين كان مختبئاً بحيث أن الدونا فلور لم تره؟

– تعبة جداً... فمن أجل اكتشاف ورقة في إحدى الدوائر الرسمية تفقد فترة ما بعد الظهر... لم أفكر بهذا قط...

لمس فادينيو وجهها:

– لكنكِ مسرورة يا حبي...

– أردت دائماً أن يكون لي منزلي...

– أنا أردت دائماً أن أعطيكِ هذا المنزل...

– أنت؟

– ألا تصدقين؟ لديكِ الحق... اعلمي إذن، أنّ ما كنت أرغبه أكثر من أي شيء آخر، هو: أن أستطيع إعطاءكِ هذا المنزل ذات يوم. فكان لا بدَّ أن أكسب يوماً الكثير من المال في ال– 17 بحيث أتمكن من الشراء... وكنت سأصل إلى المنزل مع سند التمليك، من دون أن أقول شيئاً قبل ذلك... إنما لم يتح لي متسع من الوقت... وإلا... إنكِ لا تصدقين، أليس كذلك؟

– لماذا لا أصدقك؟ سألت الدونا فلور وهي تبتسم.

أحسّت بفم فادينيو على ارتفاع وجهها، فأرادت تحرير نفسها من ذراعيه اللتين تحيطان بها:

– دعني...

لكنْ لكثرة ما توسَّل إليها سمحت للرأس الأشقر بالبقاء إلى جانب رأسها ورضيت بأن يرتاح في كنف صدرها. بشكل بريء، هذا واضح.

- أقسم على ألا تحاول...

- أقسم...

كانت لحظة عذوبة، والدونا فلور تتحسس نَفَس فادينيو في رقبتها ويداه تحميان استراحتها، إحداهما تدغدغ وجهها، وتلمس شعرها، وتخمد تعبها. ولشدة ما هي متعبة غفت. وعندما استيقظت، كانت عتمة الليل قد وصلت وكذلك فعل الدكتور تيودورو:

- نمتِ يا عزيزتي؟ يجب أن تكوني منهكة من التعب، مسكينة... علاوة على إنفاق توفيراتكِ، هناك أيضاً هذا الشغل الشاق...

- لا تقل أشياء بلهاء يا تيودورو... وغطّت نفسها بالملاءة، خجلى.

فتَّشت عن فادينيو في شبه العتمة المخيّمة على الغرفة، فلم تره. لقد غادر بالتأكيد عند سماعه خطى الدكتور. تُرى هل يغار من تيودورو؟ سألت الدونا فلور نفسها بابتسامة. لقد نفى فادينيو ذلك، هذا واضح، لكنْ لدى الدونا فلور شك في ذلك. ارتدى الدكتور تيودورو سترة المنامة، فنهضت الدونا فلور وارتدت المبذل، فأخذ زوجها يديها:

- يا له من شغل مجهد، هيه، يا عزيزتي؟ لكنَّ الأمر يساوي الجهد، فالآن نمتلك منزلنا. ولن أرتاح أنا، مع هذا، ما لم أدفع الرهن وأودع في الصندوق كل المال الذي وظّفته أنتِ في الصفقة.

معاً، ملتصقان بعضهما ببعض تقريباً، ويد الصيدلي على خصر الدونا فلور، خرجا من الغرفة إلى قاعة الطعام. وهناك التقيا الدونا نورما الملهوفة لسماع المستجدات حول شراء المنزل. قالت الجارة عند رؤيتهما متحابين هكذا:

- إنكما تشبهان حمامتين صغيرتين... فابتعد الدكتور عن زوجته وهو خجل.

في اليوم التالي، صباحاً، عادت الدونا نورما لتناقش الدونا فلور في شؤون الخياطة. وتندّرت مشيرة إلى العنق العاري:

– مغازلتكِ هذه مع زوجكِ أصبحت فاضحة...

– هيه؟ ماذا؟

– لقد رأيتك البارحة، أنتِ والدكتور في ذروة الهيام، قادمين من الغرفة، وكنتما لا تزالان متماسكين؟

– إنكِ تتكلمين عني وعن تيودورو؟ سألت وهي لا تزال جزعة.

– وعمن يجب أن يكون إذا لم يكن عنه؟ إنكِ تصبحين كاذبة؟ والدكتور لا يزال يتصرّف برصانة... وقبل العشاء، هيه؟ والوظيفة تواصلت بعد ذلك؟ وأيضاً كان عليكما أن تحتفلا بشراء المنزل...

– أي حديث هذا يا نورمينيا... إنك تخطئين، لم يكن هناك...

– آه يا صغيرتي، ليس هذا. مع كل علامات الامتصاص هذه في العنق، وكل واحدة أكثر جمالاً، وتقولين لي إنه لم يحدث أي شيء. كنت أجهل أن الدكتور من النوع الذي يمتص الدماء...

مررت الدونا فلور يدها على عنقها وركضت إلى مرآة الغرفة. علامات حمراء تعتريها الزرقة، احتلت جانباً بأكمله من العنق. فضيحة.

آه! فادينيو، الناكث باليمين، أحمق وظالم... أحسّت دغدغة على الشفتين فاحتجت. لكنه سألها أي سوء جرى في لمسه عنقها، إذ لم تكن أكثر من قبلة، كان يلامس بشرتها بفمه. ففي الدغدغة نامت الدونا فلور، آه يا فادينيو يا لك من امرئ لا تنفع معه أية وسيلة! ابتعدت عن المرآة، وارتدت بلوزة ذات ياقة مرتفعة تخفي العلامات الفاضحة. ماذا سيقول الدكتور لو رأى هذه العلامات ذات اللون الأحمر الذي تخالطه زرقة، دلائل على شفتين أخريين ليستا شفتيه، وهما بالأحرى غير قادرتين على مثل هذه التهتكات والتصرّفات الماجنة؟ رجعت إلى الغرفة:

– نورمينيا، يا ابنتي، حباً بالله لا تمزحي مع تيودورو حيال هذه الشؤون.. فأنتِ تعلمين كيف أنه خجول جداً... إنه جد رصين..

– من الواضح أنني لن أذهب في التنكيت مع الدكتور، لكن لكي يخرج من رصاته، يا فلورزينيا، ما من شك بأنه سيخرج... كان متحفظاً في أوقات أخرى، يا عزيزتي، والآن قد تحرر... ها هو يشبه فادينيو، ولم يتبق له إلا أن يفعل الأشياء على مرأى من الجيران...

أحسّت الدونا فلور برنة ضحكة وحضور ما، ولم تنتبه الدونا نورما، لحسن الحظ؛ فالشرير ظهر في الهواء وإلى أعلى مستوى مرتدياً ذلك القميص المخصص للنسوة العاريات الذي جلبته الدونا جيزا من أميركا للدكتور. لم يغط القميص إلا الصدر فقط، والباقي ظاهر، وبدون احتشام أيضاً.

9

أي سوء في هذا، يا حبي؟ ماذا بكِ؟ اتركي يدي حيث هي، فلن أنتزع منكِ شيئاً، حتي إني لا أداعبك، فيدي جامدة لا تتحرك، ماذا بك؟ – كان يُبقي يده بشكل رصين على أعلى مؤخرتها المستديرة، لكنْ عندما حصل على الموافقة الخرساء، لم تتمالك اليد نفسها، فراحت تتحرك جيئةً وذهاباً من الوركين إلى الفخذين – قطاع أرضي شاسع يغزوه شيئاً فشيئاً. وهكذا، مع اليدين والنَفَس والشفتين والكلمات السلسة، ومع النظرة والضحك والاستنباط والظرف ومع التحسّر والمشادة والتدلّه، حاصر فادينيو القلعة التي كانت الدونا فلور تزعم أنها لا تخضع، محطماً أسوار الوقار والفضيلة. وفي تقدّم متواصل وراسخ، وفي حصار عنيد، كان يقلص ميدان المعركة شيئاً فشيئاً. فكان يحتلّ في كل لقاء موقعاً جديداً، فتسقط التحصينات، مستسلمة بالإغراء أو بالحيلة: اليد العليمة أو الشفتان ذات الوعود الكثيرة، وكلها بدون جدوى – «قبلة واحدة يا حبي، قبلة واحدة...». استسلم الثديان، والفخذان، والعنق، والردفان المصقولان كالحرير. فكل هذا أصبح الآن ملكه، أرضاً محررة من الرقابات على اليد وعلى القبلة وعلى دغدغة فادينيو. وحينما تنبهت الدونا فلور للأمر، كان شرفها وشرف الدكتور محجوزين في آخر معقل، وهو الوحيد الذي لم يمس. أكثر من ذلك، كان قد استولى على أرض المعركة المتقدة هذه، من دون أن تدرك ذلك أو بالكاد. كانت الدونا فلور على استعداد للاحتجاج على العلامات ذات اللون الأحمر البنفسجي في عنقها، وهي علامات فسق وإثم، مستعدة لمنع أي حميميات. لكنه أغرقها بالقبل، هامساً لها الإيضاحات أو ساخراً من وقارها ورصانتها، وما لبث أن عضّ أذنها، فارتعشت من المداعبة.

لقد أصبح ملحاً وضرورياً أن تضع حداً بسرعة ودفعة واحدة لكل تلك العلاقات الملتبسة التي أصبحت جد بعيدة عن التقدير الرقيق للصداقة الغرامية البريئة، وللمشاعر الأفلاطونية التي كانت الدونا فلور تتخيّل أنها ممكنة عندما عاد فادينيو. وعند قياسها للخطر، امتلأت الزوجة الفاضلة بالخوف، معدّة نفسها لوضع حد لذلك الموقف العبثي. هل شوهدت يوماً امرأة مع زوجين؟ وفكرت وهي جالسة على الكنبة المستطيلة، في حساسية الموضوع – يجب أن تخوض النقاش بمرونة شديدة لكي لا تؤلم فادينيو، لكي لا تسبب له الإهانة، وفي النهاية هو جاء تلبية لندائها – عندما ظهر المحتال واحتضنها. وفيما كانت الدونا فلور تبحث عن مادة لبدء الحديث، دسّ فادينيو يده تحت ملابسها، محاولاً بلوغ ذلك المعقل الأخير بالضبط، والذي كان لا يزال سليماً، كان يؤوي كرامتها كامرأة وشرف الدكتور.

– فادينيو!

– دعيني أرى ذلك الموضع الخالي من الشعر، يا حبي... إنني أموت اشتياقاً لكنزك... فهو ملك لي...

– وقفت الدونا فلور، عنيفة ثائرة تكاد تنفجر من الغضب. فادينيو أيضاً انفعل وأصبح اللقاء حاداً وكريهاً. وربما لم يكن فادينيو يتوقع ردة فعل جد خشنة من الدونا فلور، ظنّاً منه أنه قد امتلك كل شيء.

– إبعد يدك عني، لا تلمسني بعد الآن... وإذا كنت لا تزال تريد أن تراني وتتحدث معي، فيجب أن يكون من بعيد، كشخصين يعرفان بعضهما بعضاً ولا شيء أكثر... ها قد أنذرتك بأنني امرأة شريفة وأنني سعيدة جداً مع زوجي...

أجاب فادينيو ساخراً:

– زوجكِ، هذا الأحمق، هذا الأبله... لا يملك إلا الحجم... ما الذي يفهمه هو من هذه الأمور، هذا الإنسان البليد؟...

– تيودورو ليس جاهلاً مثلك، ليس سافلاً، إنه رجل عميق المعرفة...

– عميق المعرفة... قد يكون لديه قدرة صنع دواء سائل... لكنْ من أجل ما هو حسن، من أجل المتعة، يجب أن يكون أكبر رجل بليد في العالم... يكفي النظر إليه، فهو خصيّ...

واجهت الدونا فلور فادينيو بعينيها، فهو لم يرها قط بهذا السخط:

– ليكن معلوماً لديك أنك مخدوع جداً، فمن يستطيع أن يعرف عن قدرته سواي؟ وإنني لأكثر من راضية... ولا أعرف رجلاً أفضل منه. في كل شيء وفي هذا أيضاً... وأنت لا تصل إلى قدميه..

– بوف! – قال فادينيو، بصخب مبتذل وقلة احترام.

– دعني وشأني، أنا لست بحاجة إلى شيء منك... ولا تلمسني أبداً بعد الآن...

كانت مقررة ألّا تسمح له بأي حميمية، لا اليد ولا العنق، ولا تلك القبلات المزعوم أنها بريئة، حتى ولا أن يتمدد إلى جانبها من أجل «التحدث بشكل أفضل». إنها امرأة شريفة، زوجة رصينة.

– بما أنك راضية مكتفية، لماذا دعوتني؟

سبق وقلت لك إنه لم يكن من أجل هذا... ولقد ندمت على استدعائك..

بعد ذلك، وعندما أصبحت وحيدة، سألت نفسها إذا لم تكن قاسية وعنيفة أكثر من اللازم. ففادينيو أصبح مغتاظاً، مُهاناً، حاسر الرأس. خرج من الباب ولم تره خلال ما تبقى من النهار كله. فعندما يعود في ساعة الغسق ستوضح له أسبابها بكلمات طيّبة. إنه دنيء وسفيه. لكنّ فادينيو، مع هذا، لديه أحياناً ردّات فعل غير منتظرة، فقد كان قادراً على إدراك وساوس الدونا فلور وعلى اختصار علاقاته عند الحدود المفروضة من اللياقة والشرف.

كانت الدونا فلور في جميع فترات ما بعد الظهر، بعد أن تنهي المهام اليومية وبعد الحمام، وهي مضمّخة بالعطر والمسحوق، تتمدد على السرير من أجل بضع دقائق من الراحة. وعندئذ، وبشكل لا يتغيّر، كان فادينيو إلى جانبها ممدداً، يتحادثان حول أمور مختلفة (وفيما هما يتحدثان، كان يجتاح التحصينات، ويضمها الى صدره، مليناً إرادتها). وعندما تصبح على وشك أن تحتج، كان يلهيها بالكلام عن الأماكن التي جاء منها، والدونا فلور ذات الفضول الكليّ، الزاخرة بالأسئلة، لم تكن تملك قوى للمحظورات:

– والأرض، من هناك، كيف تبدو يا فادينيو؟

– زرقاء كلها، يا حبي.

كان الغاوي يهبط بيده إلى الورك أو يرفعها إلى الثدي، والدونا فلور تريد أن تعرف:

– والله، كيف هو؟

– الله بدين.

– ابعد يدك من هنا، إنك تخدعني...

كان فادينيو يضحك، ويده تقبض على الثدي المنتفخ، وشفته تسعى إلى فم الدونا فلور. فكيف تعرف إذا كان ما يقوله حقيقة أم كذباً؟ إنه نَفْث من الجمر، حارق مثل الفلفل وعذب كالنسيم، أواه يا فادينيو الكذاب وعديم الحياء... هكذا كان هو يأخذها شيئاً فشيئاً، ولم يبقَ إلا المعقل الأخير، عفتها الأخيرة. في ذلك اليوم انتظرته بلا جدوى، فهو لم يأتِ. وتدحرجت الدونا فلور على السرير قلقة، متأرجحة بين الشك واللهفة. هل ارتحل في طريق العودة، مجروحاً في كبريائه، مُهاناً؟ هل انصرف إلى الأبد؟ فارتعشت لهذا التفكير. كيف تحيا مجدداً بدون حضوره؟ بدون جنونه، بلا ظرفه، بلا إغوائه؟

سواء أغَادَرَ أم لا، عليها أن تحيا من دونه، إذا شاءت البقاء امرأة شريفة ومستقيمة. هذا هو الحل الوحيد الممكن، فليس لهذا المأزق مخرج آخر. إنه قرار رهيب، اختبار يفوق كل حجم،

لكنْ ما العمل؟ القطيعة المريرة تفرض نفسها: فإذا واصل فادينيو بقاءه هنا، لن يكون ثمة قوة للاحتشام ولا تصميم على العفة، قادرة على منع حدوث ما يتعذر علاجه. لم تُخدع الدونا فلور: فلم تكن تلك الأحاديث سوى ذرائع للمداعبة، ولذلك الصراع المرعب جداً واللذيذ جداً؟

كيف تقاوم طلاقة لسان فادينيو؟ أما سبق أن أقنعها؟ أولم تترك الدونا فلور نفسها تقتنع، بأنه باستثناء الامتلاك الكامل كل شيء ليس أكثر من مزاح بلا سوء، وألعاب بريئة لا يترتب عليها الإخلال بالشرف ولا انعدام الاحتشام؟ فمن دون امتلاك، لم يحدث أي مس بالشرف، واحتفظت بكرامتها وبجبين الدكتور الشهير سليماً. للمرّة الثانية هدأ فادينيو هواجسها بالأغنية القديمة ذاتها الباعثة على النوم، الأهزوجة نفسها التي نوّمتها في أزمنة بعيدة من أزمنة الحب في ريو فيرميليو وفي لاديرا دو آلفو. لقد تركت نفسها تنام وعندما فتحت عينيها، كانت قد تأخرت وفقدت بكارتها كبنت عذراء.

ومجدداً وصل فادينيو الآن إلى رصيف مينائها الأخير، إلى المكان الأكثر سرية في كيانها. ومع أقل عدم احتراس من الدونا فلور، في لحظة اشتياق غير مسيطرعليه، سيسرق ليس ثمرة الكاباسو لفتاة عذراء، وحسب، إنما شرف زوج وحشمة زوجة. زوجة مثالية، وزوج مثال بين الأزواج الطيّبين. وعندما يكون المسكين أقل تشكيكاً، ستزهر جبهته بالقرون، وسيكون هذا ظلماً شديداً. لقد زُرعت بذور هذه القرون غير العادلة بيديْ فادينيو، بفمه المليء بالقبلات، بحرارته كرجل أيقظ لدى الدونا فلور رغبة وإثماً. أجل، لم يكن هناك سوى حل وحيد وصحيح؛ ليعد فادينيو من حيث جاء، هكذا فقط ستكونان مضمونتين، نزاهة الزوجة وجبهة الصيدلي. سيتمزق قلب الدونا فلور، ستتألم أكثر من اللازم، لكنْ أين هو الطريق الآخر، الباب الآخر للخروج؟ لقد أوضحت له بلطفٍ أسبابها، «سامحني يا حبي، من المحال أن نستمر هكذا، فلم أعد أستطيع. سامحني إذا دعوتك، كان ذلك كله بجريرتي، فوداعاً، دعني بسلام...».

في سلام؟ أم في بؤس؟ ليكن أي شيء، فأقله هي شريفة، امرأة مستقيمة وفيّة لزوجها.

لم يظهر فادينيو. لا في الغرفة في ساعة الغسق، ولا في القاعة في ما بعد، في ساعة العشاء. كان معتاداً المجيء ليأتي بتصرّفات السعادين، مجبراً الدونا فلور على أن تعضّ شفتيها

كي لا تضحك حينما يكون داسّاً نفسه في قميص النسوة العاريات، فيخرج راقصاً وعارضاً نفسه؛ أو كي لا تثور وهي تراه خلف مقعد الدكتور يضع له قروناً على جبينه بأصابعه، المفسدة!

قرون غير موجودة، إذ إنها لم تمكنه منها، محافظة على الشرف الحقيقي (والباقي كان مجرّد هراء، كما كان فادينيو يقول لها، وكما يعرف جميع الخبراء في هذه الأمور).

انتظرت حتى ساعة النوم ولم يأتِ. بالتأكيدّ غادر فادينيو مُهاناً، فقد كان فخوراً بنفسه وقاسياً، قادراً على مواجهة أشد المواقف صعوبة برأس مرتفع. من يدري، لقد ارتحل إلى الأبد. آه يا ربي، حتى من دون إن يودعني.

10

توارى فادينيو صباحاً وقضت الدونا فلور النهار محبطة ومفجوعة لعدم رؤيته، خائفة من أن تكون قد فقدته مجدداً، مع رغبة متناقضة بأن يكون الأمر صحيحاً، لأنها كانت تعرف، أن هذا الرحيل النهائي وحده، الدائم وإلى الأبد ، كان قادراً على إنقاذ سعادة منزلها. في حين، كان الدكتور المنهجي، في يومي الأربعاء والسبت، كما سبق وقيل وكرر، يحيّي زوجته، متمماً بفرح واجباته الزوجية، وهي مهمة لطيفة. مع تكرار عملية الحب في أيام السبت (علينا ألّا ننسى) وبالطقوس الدائمة نفسها، حيث اللذة لا تلغي الاحترام، احترام مغلفٌ بالوقار (وبالملاءة).

بعد عدم الانسجام في ليلة عيد الزواج، ليلة عودة فادينيو، استعادت العلاقات الحميمة بين الدونا فلور والدكتور تيودورو وضعها الطبيعي، حيث استستلمت لزوجها بخفر ورقّة، حاصلة منه على رضى غامر وكلي مكرراً في أيام السبت. أضف إلى ذلك، أن الدونا فلور لم تكن قط بهذه الحيوية في المتعة مع الصيدلي المندفع، كما هي حالها مؤخراً؛ في الحقيقة كانت تسلّمه نفسها بشهوانية أكثر منها بتواضع، وكان الدكتور يشعر بها مليئة بالرغبة والشغف، متخلية عن تحفظها المكتوم، لتسترسل في التأوه والتنهد وهي في قمة هياجها. وكان الدكتور يغتبط بمثل هذه البراهين على الحب والرضا، ويتعاظم حبه لزوجته مع مرور الوقت. وكانت ثمة ليلة من العربدة الإضافية، خارج نطاق النظام الصارم، بعد ذلك النهار الذي أكملا فيه الإجراءات، في مصرف سيليستينو وفي دائرة السجل العقاري الخاصة بمارباك، من أجل شراء المنزل. فهذا الحدث الاحتفالي نفّذه الدكتور

سعيداً، مرتئياً أن من الصواب أن ينتهك، لمثل هذا العامل، التدبير المنظّم للحياة الليلية لدى الزوجين. فهو من أحس، لدى خروجه من الغرفة في ذلك المساء، وذراعه تلفّ خصر الدونا فلور، ورأس زوجته منحنٍ على كتفه ، وبعد أن لاحظ الابتسامة الخبيثة على شفتي الدونا نورما، بنداء الحب منتشراً في الجو، آتياً من الدونا فلور ومثيراً لديها الرغبة والاشتياق. هو نفسه فكر في أن يحتفل باليوم المشهود، معتبراً أن«غلواً من وقت إلى آخر ليس إساءة ولا يهدد إطلاقاً الصحة البدنية أو الخلقية للزوجين (شرط ألّا يصبح عادة تتكرر، بالطبع)».

إذا كان شراء المنزل قد أثّر في الدونا فلور، حاملاً إياها على استفزاز زوجها والحصول على موافقته ومشاركته في ذلك العمل الإضافي، فهو لم يدرك ذلك. فالنار التي تحرقها لم تضرمها المعاملات المصرفية، ولا الرهن والإيصالات والمستندات. إن شراء المنزل يربطها ربما أكثر بالدكتور، ويجعل عاطفتها أقوى. لكن ما كان يدفعها إلى طلب متعة إضافية، خارج الليالي المحددة، هو اللهب الذي أوقده فادينيو، بمداعباته وبيده المتملقة وبقبلاته وبقلّة حيائه عند الغسق وبالعلامات الحمراء التي تخالطها الزرقة في العنق. أما الآن، فيما الدكتور ممدداً فوقها، متدثّراً بالملاءة، كانت الدونا فلور تطبق عينيها ولا تعود تبصر طائراً عملاقاً، إنما فادينيو الذي كان يمتلكها أخيراً، فيجعلها تئن وتتنهد. إنه لارتباك شيطاني. كانت تحتفظ لنفسها بالتأمل حول هذه المواقف المعقّدة، وقد أصبح لديها منها الكثير لاستنفادها. أما الدكتور، فكان يستعد لإدخال إضافة نصف شهرية إلى برنامج تسلياتهم الحميمة.

في ذلك الأربعاء يوم المشادة مع فادينيو، شعرت الدونا فلور أنها حائرة ومهتاجة، وبحاجة تامة إلى تهدئة أعصابها. فكّرت في فادينيو المختفي، ربما إلى الأبد. كانت العودة إلى الحياة الهادئة، نهاية الأيام المتوترة، عندما وجدت نفسها بين زوجين، كلاهما لديه الحق في حبها وهي لا تعرف كيف تتصرّف. وبلغ بها الأمر في لحظات معيّنة إلى أن تمزجهما وتخلطهما في تعقيد يستحيل حله. ربما تستطيع الآن أن تعود ثانية إلى الرتابة الهادئة التي كانت قبل عودة فادينيو، عندما كان جسدها لا يستيقظ إلّا أيام الأربعاء والسبت؟ هكذا، في مساء هذا الأربعاء ، مخبئة تحت الملاءات علامات قُبلات فادينيو في عنقها، ومغلقة قلبها على الخوف الناجم عن غيابه، احتضنت

الدونا فلور زوجها وبدأت معه الحركات الطقوسية السرية والممتعة. وما إن اعتلاها الدكتور، كمثل مظلّة مريحة، حتى رنّت ضحكة فادينيو في أذنيْ الدونا فلور وجعلتها ترتجف.

في البدء كانت الفرحة لرؤيته هنا، منحنياً على قضبان السرير؛ لم يرحل إلى الأبد كما خشيت الدونا فلور. ثم تحوّل الفرح إلى غضب شديد أمام ضحكته الساخرة، وهيئة الإشفاق الزائف تلك على وجهه الزاخر بالسخرية والاستهزاء. كان يتسلى برفع طرف الملاءة ليراقب المشهد بشكل أفضل. وكانت الدونا فلور تسمع صوته في داخلها وضحكته المتهتكة، ذات السخرية والهزء.

– أهو هذا الذي تسمينه متعة؟ أوهذا الدكتور العليم بكل شيء، معلّم العاهرات، ملك النذالة؟ هذه القذارة، يا حبي؟ ما رأيت قط شيئاً أكثر حماقة... فلو كنت أنا أنتِ، لطلبت منه، بدلاً من هذا، قارورة دواء من الشراب، يشفي من السعال ولذيذ أكثر... لأن ما يفعله، يا حبي، هو الشيء الأكثر تفاهة الذي رأيته...

كانت تريد أن تقول: «حسناً، إنني أحبه وكثيراً» لكنها لم تستطع. فالدكتور كان قد بلغ النهاية وهي قد ضاعت في ضحكات فادينيو، ميتة من العار (ومن الرغبة).

11

كانت الدونا فلور في محنة، ومرعوبة، تخاف على شرفها وعلى منزلها المعرض للخطر. ماذا يُقال إذا عن بيلانتشي مولاس؟ كانت أمبراطوريته تنهار كأنها تتعرض لزلزال أو ثورة.

لم يُر شيء مشابه منذ بدء العالم والمراهنات. فقد حدث، ما هو مؤكد، حظٌ خارق، ونحسٌ خارج المألوف أيضاً. فأكثر من مرّة، فجر مقامر غني وجسور، حصيلة اللعب في كازينو. إنها أحداث نادرة ودائماً محدودة، وثمة أيضاً غشاشون. لكن الغش أيضاً سرعان ما ينفضح، خصوصاً إذا استمر وتكرر. في عالم الشكوك، لا شيء مضموناً أكثر من حصول المساهمين في الكازينوهات والبيشو وألعاب القمار، على عائداتهم: يخسرون قليلاً لمصلحة بعض المحظوظين، ويكسبون كثيراً من اللاعبين الآخرين. إنهم السادة الكبار، يحيون منتفخي الأوداج. ليس ثمة عمل أفضل ، وأوفر ربحاً، إلا رئاسة الجمهورية. لقد انتفضت ضد بيلانتشي مولاس

أيضاً، ألعاب الورق والمكعّبات ولعبة الروليت، وحدث ما يصعب تفسيره. العبث الذي لا يمكن تصديقه، المستحيل، وكان من الضروري أن يرى المرء ليصدّق، ومع هذا رأى بعينيه أن الأرض تُستنفد، وأن أناساً كثيرين يكررون كلمات ذلك الرجل من إيليوس، وهو يشاهد دورة بنات أريغوف: «إنني أرى ولا أصدّق».

في مجال القمار، رأى الأستاذ ماسيمو سالس كل شيء في حياته، بما فيه أحد الرجال يموت معانياً من قلبه وهو يخسر ماله في الروليت، وآخر يقتل نفسه مبتلعاً قرصاً من السم، إنه موت بشع. وما ظنّ إطلاقاً أنه سيتعرّض لما هو غير قابل للتفسير، فقد كان رأسه بارداً، وقدماه على الأرض. عندما كان مراهقاً باع بطاقات قمار البيشو في بورتو أليغري، وفي ماناوس وكان مديراً لحانة تعمل خفية، ومساعد مدير لعبة قمار في الريو، وعامل منجم في رسيفي، وأدار لعبة قمار في ماسيّو وعاش من البوكر في مناجم الماس، وكان يعرف جميع الأسرار، وكل عمليات الغش.

– إذن بروفسور، ما الذي تقوله لي؟ ما هي نتائج تحقيقاتك؟ ما هو الشيء المحسوس؟ – صوت بيلانتشي، وعيناه شريرتان ويعتريه خوف.

لا شيء محسوساً، اعترف ماسيموسالس بعجزه. فالمكعبات وأوراق اللعب قد خضعت للفحوصات الأكثر دقة، وأيضاً الطاولات والعلب، ولا أي دليل. وجاءت الشرطة، مفوّض ذو شهرة وذو كفاءة عالية، ورجال تحرّيات عديدون، استجوبوا الموظفين، بإرشاد من ماسيمو. وبشكل مستنفد، من دون أي اعتبار للمركز وللعمر، وحتى للعلاقات الحميمة مع رب العمل. حتى دومينغوس بروبالاتو، الأخ بالرضاعة لبيلانتشي، لم يُوَفّر في هذا الشأن. وحدها زولميرا نجت من الإهانة، لكنْ مهما كان المرء، فإن البروفسور لا يبرّؤها:

– حاول أن تعرف إذا لم تكن من العصابة.

بالنسبة إلى ماسيمو، ليست المسألة سوى عصابة لصوص ومن أكثر العصابات تنظيماً، تستطيع القيام بذلك الغش الخارج عن المألوف. عصابة دولية. لأن الغشاشين المحلّيين تنقصهم

الكفاءة للقيام بمثل هذا العمل. حتى ولا غشاشو الريو أو سان باولو. وحدهم اختصاصيون أوروبيون أو أميركيون، من مونتي كارلو أو من لاس فيغاس، قد يكونون قادرين على عملية فساد مثل عملية البكارا. فخلال ليلتين متواليتين، على طاولة البكارا نفسها في التباريس، أصابت المراهنة حظاً في جميع المرّات وليس مرّة واحدة، وكسب العجوز آناكريون ثروة. هو وجميع الناس، إذ رافق جمهور حقيقي ضربة الحظ. ضربة حظ؟ بالنسبة إلى ماسيمو كان آناكريون مجرّد متورّط في جريمة لصوص.

أدار ألعاب القمار، باسم الكازينو، أفضل مدير للبكارا في المدينة، ربما في شمالي البرازيل، هو دومينغوس بروبالاتو. فهو ليس مجرّد موظف، إنما مواطن، إشبين، الأخ في الرضاعة لبيلانتشي مولاس. فقد وُلد في القرية نفسها، بفارق أيام، وأم دومينغوس أرضعت بثديها الوفير مليونير المستقبل. وبروبالاتو القادر على أن يقتل ويموت من أجل الأخ، كان فوق أية شبهة. وبالنسبة إليه، فإن العجوز آناكريون أكثر من مشتبه فيه. فمن أين يتدبّر الحدث والمال للعب؟ الجميع يعرفون الحالة البائسة التي انحدر العجوز إليها؛ رديئة بحيث اقتصر على بيع بطاقات قمار البيشو في مقهى رايموندو بيتاليما. وفوق ذلك – كان ماسيمو يجمع بأصابعه – فالعجوز كان يتمتع بالجرأة والخبرة. وقبل أن ينشئ بيلانتشي مولاس أمبراطوريته في باهيّا، كان آناكريون شخصيةً شعبية في حلقات القمار السرّي، مُطَارداً وكثير الغش. إنه مرن في تعقّب أثر أوراق اللعب، وفي سقوط الأصابع. فمن هو أقدم منه وأكثر منه مثابرة على طاولة الروليت وأمام البكارا في لعب الحلقة وفي الواحدة والعشرين وفي السبعة والنصف؟ إنه بطريرك.

مرّت السنين، وظهرت أجيال واختفت، والعجوز آناكريون وحده بقي كما كان، في أطوار رفيعة ومتدنية بالتأكيد، أطوار حسنة ورديئة، من دون أن يكون قد مارس أبداً مهنة أخرى غير القمار. تدرب في ظله فتيان، توقّفوا عن لعب القمار، وتحوّلوا أشخاصاً رصينين ومحترمين، مثل زيكيتو ميرابو وغيريرو ونيليتو وإدغار كورفيلو وحتى جيوفاني غيمارايس. وأحد رفاقه الأوائل، بيتنكورت، وصل بسرعة إلى منصب مدير مصلحة المياه، وهو مهندس كفوء. لم ينسَ صديقه، فاقترح عليه وظيفة مستديمة، ضمانة لأيام الشيخوخة. وإذ تأثّر آناكريون بكى وهو يحتضن بيتنكورت، لكنه لم يوقع العقد قط، ولم ويتسلّم مركز عمله:

– إنني لا أنفع إلا للعب القمار، وليس لشيء آخر...

البعض (قلّة لحسن الحظ) يشغلون مناصب هامة أو متزوجون من نساء ثريات، ما كانوا يجرؤون حتى على تذكر تلك الأوقات من أوقات الشباب والبوهيمية. آخرون ماتوا في شرخ الشباب وآناكريون يعيش متذكراً أسماءهم وأفعالهم؛ جُو المرح، أمير الظرف، ذو الطرافة والنكتة الرفيعة؛ وديفالدو ميراندا الجميل، وهو ثري وأنيق مهجّن؛ والبدين روسّي، فتى رشيق، مجنون بالسامبا والكاشاسا. ذات مرّة وقد اعتراه السكر، بال في وسط قاعة بالاس، أمام مرأى السيدات، ولم يُشنق إلا لأن آناكريون شهر موسى وتحول وحشاً ضارياً وضمن انسحابه؛ وفادينيو الذي لا يُنسى، صديقه الأعز، الأشد جنوناً وتسلية والأفضل والأكثر استقامة، شخصٌ رائع. نعم! الأكثر روعة! حتى مع كونه ميتاً ومدفوناً منذ أكثر من ثلاث سنوات، لم يكن يتحمّل رؤية العجوز آناكريون يسجل ملاحظات على بطاقات البيشو في عمق المقهى، ويعاني بؤساً شديداً. فقد ظهر له في المنام – حلمٌ يبدو واقعاً أكثر منه حلماً، إذ إن آناكريون لم يكنْ حتى نائماً، إغفاءة بعد الغداء الهزيل – ونصحه فادينيو بالذهاب بلا تردد إلى التباريس في ذلك اليوم بالذات. وفي اليوم التالي، وعلى الطاولة، كان دومينغوس بروبالاتو يراهن على النقاط وعلى النقاط فقط، طوال الليل. دائماً على النقاط وإيّاك من المراهنة على حصيلة اللعب. كيف يتدبّر نقوداً؟ كان يأخذ بعض النقود اقتراضاً من رايموندو، على حساب العمل؛ شخصٌ طيّب صاحب المقهى ولا يهتم لبضعة آلاف من الريسات. إضافة إلى ذلك، في الصباح التالي يصبح آناكريون المغطّى بالذهب، من جديد، زبوناً من زبائن البيشو وليس مستخدماً في بيع بطاقات البيشو، ويستفيد من فوائد نيكلات القرض في مراهنات مقهى رايموندو.

مقامر قديم ومجرّب، كان آناكريون يحترم الأحلام، معطياً قيمة صحيحة للهاجس الصالح، فكيف بالحري إذا كانت مقدّمة من صديق وفيّ جداً مثل فادينيو. في نهاية فترة ما بعد الظهر، عند دفع الحسابات، تدبّر أمره فأخذ بعض البقايا ورايموندو الطيّب لم يقل شيئاً. وبعدها حدث ما هو معروف، اندهاش وتعليقات في المدينة: ذلك الإنجاز في البكارا، لعبة النقاط المتكررة ليلتين بدون ارتياح، ودومينغوس بروبالاتو يفقد هدوءه للمرّة الأولى في مهنته الطويلة، وماسيمو سالس بهيئة رجل أبله، لا يزال يركض ساعياً إلى بيلانتشي مولاس. آناكريون نفسه في كل تاريخه المجيد

كمخالف للقانون، لم يرَ ما يضاهي حظه هذا ونحس خزينة الكازينو. لكنه لم يكن مفيداً له مناقشة ما حدث؛ فهاجس فادينيو هو أن يكون مشرّفاً وليس مبدداً في مناقشات تافهة. آناكريون، الذي كان يؤمن بالقدر وبالنجوم الحسنة، رجل ذو آفاق رحبة، وبالنسبة إليه، في ما يتعلق بالفيش وأوراق اللعب، المستحيل غير موجود.

حالما تسلل بيلانتشي مولاس إلى القاعة، قرأ الهلع في عينيْ دومينغوس بروبالاتو الحائرتين. وإذ قدم ليتموضع إلى جانب أخيه بالرضاعة، سمع صوته في وشوشة وفي يأس، كمن يسمع إدانته بالموت:

– رب الكلاب رأف بنا وإلا كنا هالكين.

قَلَب بروبالاتو ورقة اللعب، مجرد أداة للقدرية: ربح المقامر.

12

«أنا محطّم، أنا مستَنْفَد!» كرر بيلانتشي مولاس، عندما جاء، بعد آناكريون، دور ميراندون.

كان ميراندون، من بين جميع فتيان جيله، البوهيمي الوحيد الذي لا يزال مثابراً، يقضي لياليه في انفعالات القمار، كما لو أن الزمن لا يمضي. ذات يوم أحد، صباحاً، بينما كان في المنزل يرعى العصافير في أقفاصها، سمع ميراندون بوضوح رسالة فادينيو: في هذه الليلة، في روليت بالاس، إلعب الرقم 17. لم يكن لدى ميراندون قط، صديقاً أفضل منه. فهو وفادينيو كانا كشقيقين توأمين لشدة التصاقهما بعضهما ببعض. وأيضاً، لم يكن اسم فادينيو يفارق فمه ولا ذاكرته. فكيف ينساه؟ لم يكن لديه صديق مثله...؟

كان ذلك اليوم بالأحرى مختلفاً، فذكرى فادينيوكان تتمتع بقوّة الحضور، كما لو أنه كان هناك يساعد ميراندون في تنظيف الأقفاص، بينما كان الكوريو والكاناري يغنيان. وكان ميراندون مدعوّاً من قبل الزنجية أندريزا إلى الغداء على طبق ساراباتيل في بيتها. وطوال الطريق كان الصوت يكرر له التنبؤ وكرر الأمر أيضاً إلى المائدة ذات الخوان ذي القماش الأبيض حيث كان

يتوهّج السارابوليو وصلصة الفلفل. 17 كان رقم الحظ لدى فادينيو، لكنه لم يكن قط في مصلحة ميراندون. فخلال السنوات الثلاث الأخيرة، وتحية لذكرى صديقه المتوفى، جازف ميراندون عدة مرّات برأس ماله الزهيد على الرقم 17، ودائماً كان يخسر. وسيفعل ذلك مجدداً إذا رغب فادينيو، فصديقه كان يستحق أكثر من ذلك بكثير.

إلّا أنه، في ذلك الأحد لم يكن لديه أي رأس مال، ومن بين مدعويّ أندريزا: النجّار فالديمار، وزوكا، ومستخدم في المصلحة الريفية كان قد تأخر في قبض راتبه، وعامل البناء روفينو والمعلّم باستينيا – وحده روباتو فيليو ربما كان بإمكانه أن يتدبّر بعض النقود ليقرضه إياها. وعندما ذكر اسم فادينيو، أنشد روباتو وهو يرفع كأس الجعة، قصيدة الشاعر غودوفريدو الغنائية، لكنه كان مفلساً، لا يملك فينتيناً واحداً. نهض ميراندو، بمعدة ممتلئة وبروح خفيفة (لا شيء يضاهي ساراباتيل طيّباً لغسل الروح في يوم أحد) راح يجوب الشوارع سعياً إلى النقود، لكن من دون جدوى. فلو توافرت له كمية كافية لكان عليه أن يحتفظ ببعض منها للرقم 17. رقمه كان 3، لكونه رشيقاً مثل 32. اللعب على الرقم 17 كان هدراً للمال، وهو سيفعل ذلك كما لو أنه سيودع ضريح فادينيو أزهاراً. لكن، ما دام اليوم هو يوم أحد، فكيف يحصل على نقود؟ فكل الناس في كرة القدم أو في السينما، لا أحد في الشارع. صديقان أو ثلاثة من ذوي الفاعلية رفضا تمويل حظه، فكلهم متشائمون.

عندما فقد الأمل كلياً، تذكر إشبينته، الدونا فلور. فهو يلجأ قط إليها من أجل مسائل الميسر، إنما فقط، من أجل صحة الأولاد، ومرّة أخرى من أجل ترميم سقف في مسكنه لأن المالك رفض الوفاء بالتزاماته كمالك، مظهراً أنه محتال ومن دون قلب.

– المطر يتسرب داخل المنزل؟ فوق الأولاد؟ بالنسبة إليّ يا سيد ميراندون، بإمكانها أن تمطرمتى شاءت فوق أي كان؛ كما يمكن أن تتداعى الجدران أو السقف أو المنزل فماذا يهمني؟ هل تعتقد أنه منزلي؟ فهذا المنزل يبدو أنه ملكك، صديقي العزيز. لأنني منذ أكثر من عشر سنوات وأكثر لم أر لون نقودك...

وإذا ما التقى الدكتور تيودورو؟ منذ الزواج الثاني لإشبينته، لم يزرها ميراندون إلا مرّة واحدة، لأنه لم يشأ فرض حضوره على الصيدلي الذي لم يكن يحب بالتأكيد رؤيته، هو الشديد الشبه بفادينيو، نسخته أو صورته، ليس جسدياً – فأحدهما أشقر والآخر خلاسي – لكنْ أخلاقياً أو كما يفضل البعض، لا أخلاقياً. لم يبق أمام ميراندون سوى الخيار ما بين إزعاج الإشبينة أو التخلّي عن اللعب.

– انظري من يأتي إلينا... – قالت الدونا جيزا للدونا فلور، وهما جالستان على مقعدين على العتبة.

– « رباه! لقد ظهر ميراندون...» فكرت الدونا فلور في خوف. لقد جاء فادينيو المتوفى سابقاً إلى الإشبين، مرحاً وعارياً كلياً (تخلّى عن قميص النسوة المثيرات).

كلا، فميراندون يستطيع أن يراه. لا بأس. وبعد أن حيّا الدونا فلور والدونا جيزا، سأل الإشبين عن صحة الدكتور.

– إنها ممتازة. ذهب إلى الاجتماع في الجمعية الصيدلانية...

– وأنا الذي لم أكن أعرف أنكِ كنت هنا بمفردكِ... – قال فادينيو، لكن الدونا فلور سمعته وحدها ولم تبالِ للأمر.

تحدثت الدونا جيزا قليلاً، لكنها سرعان ما اعتذرت، متذرّعة بفروض اللغة الإنكليزية لتصحيحها. فجلس ميراندون على المقعد الفارغ:

– أعذريني يا إشبينتي، جئت إلى هنا لأزعجكِ، لكنني في عوز مريع...

– هل ثمة أحد مريض في المنزل، يا إشبيني؟

كاد يختلق مرضاً، أحد الأبناء محموم، بحاجة إلى دواء وطبيب. لكنْ لماذا تكدير الإشبينة علاوة على كسب نقودها؟

– كلا أيتها الإشبينة، لا أحد مريضاً... إنه اللعب حقاً...

– هكذا أفضل أيها الإشبين.

وراح ميراندون فجأة يروي كل شيء وبالتفصيل:

– ... صوته، هو نفسه أيتها الإشبينة، يأمرني بالذهاب إلى المقامرة، اليوم من دون إبطاء. يجب ألا أتخلّف عن الذهاب...

كانت الدونا فلور ترى فادينيو جالساً هناك على إطار النافذة، في ضوء فترة ما بعد الظهر، ويلقي عليها عينيْ الإغواء. وكانت تتصنّع عدم الرؤية، لكنْ ولو أنها لا تريد ذلك حقاً، فإن نظرها انحرف إلى عريه، وإلى بشرته البيضاء والملساء، والوبر الذهبي، وإلى جرح الموسى، والفم السخي.

– كم يلزمك يا إشبيني؟

– ليس الكثير...

ذهبت لتأتي بالنقود، فرافقها فادينيو إلى الغرفة حيث أخذها بين ذراعيه وقبّلها، ولم يكن بوسع الدونا فلورالمسكينة الصراخ، والإشبين في الباب ينتظر. وتلاشت مقاومتها في القبلة.

– أوّاه يا فادينيو... – أنّت في النهاية وهي نفسها كانت آنئذٍ تقدّم له شفتيها وقد أضاعت رشدها وحياءها.

كان فادينيو يجرّها إلى السرير، ساعياً إلى تجريدها من ملابسها. ولو لم تسمع خطى الإشبين داخل المنزل، لتخلت، ربما، في تلك الساعة، عن شرفها كامرأة متزوجة وكزوجة شريفة. فقد عادت إلى نفسها في اللحظة الأخيرة، واستعادت وضعيتها المحتشمة، وسحبت نفسها من القبلة وابتعدت عن فادينيو:

– يا له من جنون... وبوجود الإشبين...

– إنه في الخارج...

– إنه في غرفة الطعام... دعني، يا له من عار!

سوّت شعرها بأصابعها وأصلحت من هندامها. وفي غرفة العشاء كان ميراندون يشرب ماء، فأعطته المبلغ مبلَّلاً بالعرق الناضح من يدها.

– أشكركِ أيتها الإشبينة، حتى إنني لا أعرف كيف أشكركِ. إذا لم أكسب اليوم فلن أكسب أبداً بعد الآن. إنه لأمر مؤكد، كما لو أن الإشبين قربي ويزوّدني بالحظ.

أمام الباب المطل على الشارع، ضحك ميراندون وكشف مخططه:

– إنه يريدني أن ألعب على الرقم 17 وأنا سألعب على الرقم 3 وعلى الرقم 32، إذ إنني لست مجنوناً. فذات مرّة أيتها الإشبينة كسبت أربع مرّات متوالية على الرقم 32، وكان ذلك عظيماً.

– أبله!

– هل سمعتِ يا إشبينة؟ هل سمعته يتكلم؟ أكان صوته أم لا؟ قولي لي...

الدونا فلور، وجسدها متراخ، وقلبها يطرق بشكل غير منتظم، وفمها متقد وجاف، قالت بصوت خافت:

– لا تهتم له أيها الإشبين، لا تهتم، فهو أحياناً يتجنّى عليّ أيضاً...

لم يفهم ميراندون. وعلى أي حال، كان كل شيء في ذلك النهار مضطرباً، بلا تفسير وبلا معنى. مثل الليل الذي كان يولد فجأة ودفعة واحدة، في جوانب المغيب، متقدّماً على الساعة، من دون انتظار ألوان الغسق الحمراء التي تخالطها الزرقة، لليلة زرقاء كلها. ساعة ميراندون حددت ساعة اللعب، ولم يكن بوسعه أن يخسر جولة واحدة، حتى ولا كرة واحدة.

– وداعاً يا إشبينتي، غداً سأعود وأدفع لكِ...

– لا لزوم لذلك أيها الإشبين. إذا كسبت إشترِ أقراص حلوى للأولاد، إعطها لهم باسمي...

توقفت ثم تابعت بصوت خافت:

– ... وباسم إشبينك...

أزهرت قبلة فادينيو على وجهها كأنها كانت نسيم تلك الليلة الزرقاء.

– حتى اللقاء القريب، يا حبي... إنني آتٍ في الليل لأنتزعك من السرير... فانتظريني... انتظريني بلا تردد...

13

كانت يوم أحد مساء، والقاعات مكتظة باللاعبين والفضوليين. عزفت الأوركسترا الفوكس، وخرج الراقصون أزواجاً إلى حلبة الرقص. عرف منهم ميراندون، الأرجنتيني والدونا نانسي. وفي الصندوق، أبدل المائة ألف ريس التي حصل عليها من الدونا فلور بكمية موازية من الفيش ووضع في جيبه اثنين من ذوات القيمة المتدنية: «هذان للرقم 17، رقم فادينيو، بعد قليل». قسم الفيشات الأخرى إلى مجموعتين متساويتين؛ النصف للرقم 3، والنصف الآخر للرقم 32.

على طاولة الروليت، ابتسم للورنسو ماين – ده – فاكا، مساعد مدير اللعبة، أحد معارفه القدامى. وبيد واثقة، قذف بفيشة إلى الرقم3، وبأخرى إلى الرقم 32. فدار الفيشان في الهواء وسقطا كلاهما معاً على الرقم 17. في اللحظة ذاتها التي كان يعلن فيها لورنسو: « توقف الرهان».

ربح الرقم 17، بالطبع. ولم يكن ليتوقف عن الكسب، بالتأكيد، لو لم يأمر بيلانتشي مولاس – بعد منتصف الليل بفترة قصيرة، بذريعة عطل في حوض الروليت، بتعليق اللعب.

14

في شقة زولميرا، في المكان الذي ترتاح فيه الخلاسية وغبطة ثدييها المتوثبين، كان بيلانتشي مولاس يستمع إلى تقرير الأستاذ ماسيمو سالس: فككت طاولة الروليت قطعة قطعة،

وأخضعت لجميع التجارب، ولم يظهر أي عيب أو عطل، ولا أي علامة للغش.

– كنت متأكداً... كل هذا بلا طائل – قال الملك البائس بحسرة.

هناك في ذلك المسكن المعروف فقط من قبل قلّة من الأشخاص، كان يختبئ الرجل العظيم، صاحب المدينة، رئيس الحكومة، هرباً من الإلحاحات والإزعاجات. في مكتبه («بيلانتشي مولاس، متعهّد مهرجانات») كان ثمة صف دائم، من الصباح حتى آخر الليل؛ أناس من مختلف الأنواع، لجان من جميع الأشكال وكل مع لائحته ورسالته وطلبه ومشكلته وعاهته واحتياله. كان الجميع يتسابقون سعياً وراء المال. مالٌ لبناء كنائس وشراء نواقيس ومساهمات من أجل المستشفيات وأعمال البر وكذلك من أجل ملاجئ العجزة وإصلاحيات الأطفال ومساعدات لقوافل الطّلاب إلى جنوب البلاد وشمالها. صحافيون وسياسيون، شرهون وجشعون، محتاجون جميعهم إلى المال من أجل إنقاذ الوطن والأخلاق المسيحية، والحضارة والنظام، من التهديد الحتمي والقاتم بقلب النظام والإلحاد. أدباء مع مشاريع مجلّات ونسخ أصلية لكتب؛ «أنت أيها السيد صديق الثقافة، صديق الآداب والفنون والشعر؛ أنت «ميسان» بالذات القائم من بين الأموات». (كانت لدى بيلانتشي الرغبة في القول: «ميسان (نصير الأدب والفنون) هي العاهرة التي أنجبتك»؛ وبدلاً من هذا كان يرمي مبلغاً من عشرين أو خمسين ميليريس، حسب طالب المال، شاب مبدع هو أم عجوز ينظم قصائد). مصلحون وأخلاقيون وكاثوليك وبروتستانت وأصحاب فلسفة باطنية، جميع الذين يحاربون العادات السيئة والفوضوية والخطر الشيوعي والحب المتحرر من القيود البالية والتخلّي الجائر عن قواعد علم النحو البرتغالي (الضمير المنحرف في بدء الجمل) وقصر المايوهات الفاضح على الشواطئ (يعرض كل شيء حتى الأعضاء الحميمة). جمعية أمهات العائلة للمراقبة الدائمة ضد الكحول والبغاء والميسر، حيث إن أمهات العائلة وخصوصاً أنطونيا شينيلينيا، في بداية وظيفتهن الواعدة. الجمعية التي تحمي البعثات التبشيرية في أوقيانيا. الحملة ضد الأميّة، بخاصة الرائد كوزمي ده فاريا. جمعية التقوى التابعة للقديس جينارو والنادي الكرنفالي لسمراوات كابولا المرحات. مرضى بجميع الأمراض، من الجذام إلى السرطان، ومن الطاعون إلى البيري – بيري هو المرض الناتج من الجروح– إلى مرض القديس غويدو وكتائب العميان، ومقطوعي السيقان والأذرع، من دون الكلام عن المعتوهين وأولئك الذين يأتون طالبين مالاً، ببساطة خالصة بدون أية ذريعة، بوجوه

أشد نظافة من هذا العالم. كان بيلانتشي يرتاح من كل هذا في شقة زولميرا ودفء ثدييها، وهي ملجأ آمن جداً. فيها فقط كان يخفف من وقع الخوف المريع الذي يهاجمه ويسيطر عليه. وهناك يصغي إلى مساعديه: كلام لا طائل منه، بلاهات. ولأن ماسيمو سالس لا يريد أن يعترف بأنه مغلوب، عرض خطة جريئة وبسيطة: لماذا لا تُنتهز فرصة تفكيك الروليت ونرتب الأمر كما يجب؟ كيف؟ حسناً، كيف... نجعل حوض الروليت مائلاً بحيث يستحيل فيه أن تسقط الكرة الصغيرة في قطاع الرقم 17. إنها خدعة قديمة مثل لعب الروليت نفسه. بلا شك هي خطيرة، وغير شريفة بالتأكيد. لكنْ إذا لم يكن الأمر هكذا، فكيف نعمل للحصول على الدليل النهائي؟

كان ماسيمو يتمسك بموقفه الأول، إن جميع تلك الافتراضات العبثية التي يرى فيها بيلانتشي اليد السوداء للقدر الفظيع، ليست أكثر من عملية غش مرعبة، عمل عصابة – أجنبية! – متعاقدة مع مفتشي ومساعدي مديري اللعبة، مع أيغوف وآناكريون ومع ميراندون.

أي عصابة؟ وأي أجانب؟ « أنا مرهق ومحبط». بالنسبة إلى بيلانتشي مولاس كل ذلك الحديث الذي يقوله ماسيمو سالس كان مضيعة للوقت ولا شيء أكثر. لا عصابة ولا عملية غش. إنه أسوأ من ذلك؛ فأعداؤه، من أجل تدميره، أطلقوا يد القوى الخارقة، التي لا يمكن السيطرة عليها لأنها خارج نطاق الأرض. ففي طريقه الذي لم يكن دائماً سهلاً، زرع بيلانتشي أحقاداً دفينة وعداوات مميتة، وحينما لزم الأمر، كانت يده ثقيلة وقاسية بحيث ترك في مروره آثار جراح وقسماً بالانتقام. وهو يرى نفسه الآن واقفاً حائراً وسط السحر وأعمال الشياطين. فبيلانتشي لم يكن يخشى البشر، ولا الصراع. لكنَّ ذلك الغانغستر العصري، ابن عصر الأنوار والتقنية ذاك، كان يختبىء تحت الأغطية مع أول دوي للرعد، خائفاً من لمعان البروق، لأنه مجرّد ولد من كالابريا، فلاح صغير، ابن الخرافات والبؤس.

–أنا ملعون ! أنا مسحور!

– جيد جداً! قال ماسيمو سالس، الذي لم يكن يخشى إلا البشر ولا يؤمن بأرواح العالم الآخر، باحثاً، كمفكر حر ومتشكّك، عن تفسير عقلي ومنطقي في كل ظاهرة. حسناً، لنوضح الأمر. فلنجعل الروليت مائلة ثم نرى. إنه عمل ممنوع وغير نزيه، أنا أعلم، ولا تسرّك مثل هذه

الوسيلة، ولا أنا تسرّني. إن الأمر هو بصدد وسيلة متطرّفة على كل حال، وما هو أشد منها رداءة هو ما يفعلونه بك أيها السيّد، ألا يبدو لك ذلك؟ فإذا كسب الرقم 17 مع الروليت وهي في وضع مائل، وأنت تعرف جيداً أيها السيّد، أنه مستحيل، سأوافق معك: يكون ماجرى من عمل الشيطان ونستسلم للحل مع سحرة الماكومبيروس.

رفع بيلانتشي مولاس كتفيه؛ إذا كان ذلك لاكتشاف البرهان ومن أجل ذلك فقط، فليقم ماسيمو بما يراه مناسباً ويعدّل الروليت وبأكبر قدر من السرية والحذر.

– سأتكفل أنا نفسي بهذاالعمل، أركن إلى الراحة.

– ولليلة واحدة فقط....

– موافق، هذه الليلة فقط.

غادر ماسيمو وهو يفرك يديه، لينفذ مهمته الدقيقة. وكان كل ذلك يبدو لبيلانتشي مولاس غير مفيد. فقد أزف الوقت ليضع فيه ثروته وقدره في أيدٍ أكثر فاعلية من يديْ ماسيمو وأيدي الشرطة. وإذا وُجد أحد ما قادر على اكتشاف تفسير لذلك اللغز، فهذا الشخص هو كاردوزو إي سا، الفيلسوف المجرب الكبير الذي يخطط فكره السامي إلى العالم الثاني، في الفضاء اللانهائي، كوميض في الفضاء الكوني، كاشفاً الماضي والمستقبل، لأنه كان يعيش في الوقت نفسه الأمس واليوم والغد، في القمم المضاءة وفي الهاويات المظلمة. لم يعد لدى زولميرا أي شك: كان ذلك قدراً، والشيطان طليقاً. لم تقل له شيئاً في السابق كي لا تزيد قلقه، خصوصاً وأن لدى بيكيتو الكثير من أسباب القلق: ففي بالاس، عند العشية، وساعة تعليق اللعب، كما حدث معها سابقاً، لمس شخص غير مرئي ثدييها ودغدغها. ولم يكتف بذلك – يا للرعب، فاندسّ تحت تنورتها وقرصها في مؤخرتها:

– أنظر يا بيكيتو... هنا...

رفعت تنورتها. كانت تلمع تحته البشرة ذات اللون النحاسي حيث استطاع أن يرى، علامة أصابع فادينيو الحمراء المائلة إلى الزرقة. دليل قطعي:

– حادث فظيع! قال الكالابري، ومحولاً الضعف إلى قوة، غاص في ذلك الغموض المعتم.

15

كان فادينيو دائماً هكذا، أحمق ووقحاً، ولم يتغيّر في سنوات غيابه:

– سآتي هذه الليلة لأنتزعكِ من السرير. انتظريني...

كما لو أن الدونا فلور كانت آخر البغايا، داعرة لدرجة أن تستسلم للمجون أمام زوجها الذي يعتريه النعاس. فعلى السرير الحديدي كان الدكتور تيودورو ينام بهدوء وطمأنينة، وجهه مشرق وتنفّسه منتظم يشخر على إيقاع البوق.

وكانت الدونا فلور تتأمل وجه زوجها الجليل فتسيطر عليها موجة من الحنان؛ لا يوجد رجل أفضل منه، إنه زوج كامل المواصفات. فصممت، بروح قوية، وأخلاق نقية، على أن تقطع، دفعة واحدة وإلى الأبد، تلك الخدعة المشكوك فيها وغير القابلة للاستمرار، وغير الخليقة بوضعها وبشرفها. فآثرت، على سبيل الحيطة، أن تنتظر في غرفة الاستقبال: فلن تتعرّض للمجازفة برؤية نفسها بين ذراعيْ فادينيو في الغرفة عينها التي ينام فيها زوجها الآخر (الطيّب والنزيه). لأنها، كعبدة لحواسها، وأمام جسدها الضعيف كمادة شريرة، تخشى الدونا فلور من أن تستسلم فجأة. فإرادتها لم تعد تطيعها، وقواها تخار عندما يظهر فادينيو. وإذا ما اقترب منها، يعتريها دوار وتصبح فضيلتها تحت رحمة الغاوي، فهي لم تعد تملك جسدها، والمادة الجامحة لم تعد تطيع روحها، إنما رغبة فادينيو.

ما زالت حتى الآن لم تمكّنه منها، هذه حقيقة بحتة، لكنْ ربما لأنه في الأيام الأخيرة ما كان فادينيو يراها تقريباً، فهو مستسلم للعب، غارق في حياة الفساد. كما في تلك الليلة حيث كان قاطعاً وحاسماً جداً: «انتظريني، سوف أجيء وانتزعك من السرير». لم يكن لديه اعتبار لأي شيء، فقد وعد بالمجيء وبقي في بيت اللعب، إذا لم يكن في أحد بيوت النساء. الدونا فلور تمشي في الغرفة، تفتح النافذة، وتختلس النظر إلى الشارع، وتعدّ الدقائق. قسم على الحب، وهيام معلن، وكلام كاذب. فالدونا فلور هناك وحيدة تنتظره، وهو غير قادر على أن يضحّي بلعبة قمار واحدة. ربما سيأتي بعد الكرة الأخيرة.

لكن اللعب قد انتهى. فالدونا فلور تعرف جدول المواعيد، وجميع تفاصيل الكازينوهات أليفة جداً لديها، وانتظار فادينيو هذا بدأ منذ سنين طويلة. أين هو، أي حفلة تحجزه، من أجل من نكث بوعده المقطوع للدونا فلور؟ فادينيو، لماذا تتلاعبه هكذا بمشاعري، لماذا لا تأتي، طالما أنك قد

وعدتني بأن تأتي وأنا أنتظرك على الرغم مني؟ ماذا تهمني، الحشمة والشرف والمنزل السعيد والزوج النبيل؟ إن ما يهمني فقط هو حضورك، فلماذا وعدتني...؟

في صباح اليوم التالي، وأثناء درس الطَّهي، كادت الدونا فلور متوترة وغير محترسة، وكادت أن تفقد مكيال الأرز. وفي آخر الغرفة كان صوت زولميرا سيمونز فاغونديس يدوي وهي شديدة الانفعال:

– أيتها البنات، إنه سحر، وأنا خائفة... إنكنَّ لا تتذكرن أنني في يوم سابق هنا، أحسست بشيء ما يمسّد ثديَّ؟ تصوروا أن هذا الأمر يتكرر الآن...

– شعرت التلميذات بإثارة شديدة.

– ماذا؟ كيف؟ أخبرينا...

– البارحة ليلاً كنت في بالاس...

– إنكِ لا تضيعين حفلة سواريه في بالاس...

– هذا يشكل جزءاً من عملي...

– إن ما أردته أنا هو عمل كهذا...

– أخبري يا زولميرا...

– حسناً، البارحة ليلاً، كنت في بالاس مع رب عملي وحدث شيء غريب ما في الروليت. كان الرقم 17 يكسب وحده...

كانت الدونا فلور تصغي وهي في وضع تأملي.

– في لحظة التعقيدات الشديدة، أحسستُ بالشخص عينه غير المرئي يلمس ثديَّ وبعدها.. – أخفضت صوتها – ... قرصني قرصة شديدة في الوركين...

– قرصة من الشخص غير المرئي؟ لا تقولي هذا... – شككت إحدى السيدات وهي قليلة التأثر بالقسم الخلفي الجاف من الجسم.

– ألا تصدقين؟ حسناً، ما زالت لديّ العلامة.

لم تشأ زولميرا أن يعتبروها كاذبة، فرفعت تنورتها وعرضت الورك الذي يثير الغيرة حتى من الزميلات ذوي المؤخرات الجيدة. كانت العلامة الناتجة من أصابع فادينيو قد بهت لونها. وخرجت الدونا فلور من الغرفة في صمت.

وانتظرته طوال النهار. لكن فادينيو لم يأتِ. حتى ولا في الليلة الثانية. فكل ذلك الهيام كان كذباً، وهذيان الحب كان كذباً ونفاقاً. الدونا فلور تنتظره وهي تعاني الأرق، وأثره واضح في القمار أو تحت تنورة زولميرا يقرص مؤخرتها. إن فادينيو شهواني وغير مسؤول، متصنّع وغير وفيّ، بدون قلب. الدونا فلور محررة من أي تناقض، وفي الوقت نفسه من الحشمة والرغبة، لكنها حزينة.

16

لم يتبجح الأستاذ ماسيمو سالس في ساعة النصر. على العكس من ذلك، عزا نجاحه، بتواضع، إلى المثل القديم، وهي صيغة مبرهنٌ عليها: «للنصّاب، نصاب ونصف». إنه علّامة بلا عجرفة، عالم حقيقي بالآداب القديمة. ومن غير المفيد بعد الآن، تذكيره بقصص أرواح العالم الآخر والممسوسين وأعمال السحر. يكفي أن توضع الروليت بشكل مائل لكي تختفي جميع أعمال السحر عند فضح الغش، ولا يبقى الآن إلّا أمر واحد، هو اكتشاف المسؤول، رأس العصابة وتصفية الحسابات معه. وكان لورنس ماون – ده – فاكا يطلق الكرة الصغيرة في حوض الروليت وهو بريء من المؤامرة؛ ففي الأمس كسب الرقم سبعة عشر فقط ، واليوم لن يكسب مرّة واحدة في الليلة كلها. خفت حدة التوتّر في وجه بيلانتشي مولاس، فهو لم يكن يخشى سوى القوى الخارقة، ولا شيء غيرها. لكنْ أي قوة صوفية كانت هذه، إذا كانت عاجزة عن التغلّب على خدعة الروليت؟ فقد جرّد ماسيمو عملية الغش من قناع الغموض، وسيصل قريباً بيلانتشي بذراعه الطويلة وذات السطوة، إلى المسؤول، جاعلاً إياه يدفع مع الفوائد، مال الآخرين وتجرؤه ووقاحته، وفوق كل ذلك،

الساعات المليئة بالجبن والخوف الظاهر والهلع الذي يتوّج قلبه. بيلانتشي بين زولميرا ودومينغوس بروبالاتو، يبتسم للاعبين: الابتسامة الأكثر تودداً والأكثر بشاشة.

في هذه الأثناء، كان ميراندون سكران، ينام في شقة كارلا، في مقصورة الزينة الجميلة العابقة بالورود. ، وبالأمس، عندما أمر بيلانتشي مولاس، وهو في ضياع تام، بتعليق اللعب، لم يكن لورنسو ماو – ده – فاكا، مساعد مدير اللعبة، ودومينغوس بروبالاتو الحاضران، وحدهما اللذين شعرا أنهما تحررا من ذلك الكابوس الذي لا يمكن فكّ رموزه. كذلك الإشبين ميراندون، شعر، في وسط هذا البحر من الفيش، بالارتياح نفسه، لأن حظه كان يبدو له عبثياً ومثيراً للرعب. وفيما كانت الروليت تنشد الرقم 17، بقي ميراندون متأرجحاً بين النشوة والرعب. النشوة بسبب الحظ الجامح والرعب بسبب غياب أي حدّ لهذه الظاهرة الشيطانية. في تلك الليلة انهارت سدود الثروة وتدفق كل فيش الكازينو على ميراندون. لكنْ هل كان هذا الحظ حقاً،حظه؟ كل شيء كان موضع شك ومستغرباً: فصوت فادينيو في أذنه منذ صباح العصافير، ساعة تناول الترويقة عند أندريزا وفي الشارع. زيارته إلى الدونا فلور والكلمات الغريبة والجمل الغامضة وشتيمة المتوفى، كما لو أن فادينيو كان جزءاً من المحادثة بين ميراندون والإشبينة. ثم تلك الفيش السحرية، تسقط على الرقم 17 فيما اللعب على الرقم 3 وعلى الرقم 32. وفي منتصف الليل أراد ميراندون، بدافع العناد والفضول، المراهنة مجدداً على رقميه المفضلين وحمّلهما الفيش. لكنها مضت من تلقاء نفسها، ولا أحد يعرف كيف، لتظهر على الرقم 17. وأخيراً من كان ميراندون؟ لاعب قمار أم لعبة القدر؟

خرج من بالاس مليونيراً متعجرفاً وقلبه يعتصر من الغم. وتوجه إلى شقة كارلا، المكان الملائم للاحتفال بالمآثر الكبيرة مثل هذه، وهو منزل مرحّب في ساعات القلق. عهد بماله هناك إلى الإيطالية البدينة، وهي سيدة نقية الذمة وذات وسواس (لقد فوّضها، هذا واضح، بالإنفاق على الحفلة، بالشكل الذي تراه منسباً وبدون تقتير). كان يخشى مبالغة الحنان من جانب النساء ومن العطف المفاجئ لدى أصدقائه المضاعفين حينما يصبح سكران. لأن ميراندون في تلك الليلة هيّأ نفسه لسكرة حياته، ليدفن فيها عناصر تلك الأحجية، وقطع ذلك اللغز المربك. استمرت الحفلة التي أدارتها البدينة كارلا حتى الصباح، والذين قاوموا أكثر من غيرهم، مثل الأديبين روباتو فيليو وآوريو كونتريراس (دائماً مع زهرة في عروة السترة) والصحافي جوان باتيستا، تناولوا طعام الغداء في الشقة

في اليوم التالي، متمتعين بالفيجوادا الملكية المتخمة، مع الكاشاسا والنبيذ الأخضر. بعد تلك المسيرة الماراتونية، سقط ميراندون من الإعياء وتمّ نقله من قبل الفتيات على محفّة كجسد ميت. وجرّدته اللطيفات من ملابسه وأعددن له حماماً دافئاً، ثم ضمّخنه بالعطر والمسحوق الناعم، ومددنه في النهاية لينام على السرير فوق الفراش الذي تنام عليه صاحبة البطن الضخم، في المقصورة المخصصة لضيوف الشرف، المزينة بالساتين والورد.

لقد شعر ميراندون وبعض المدعوين شديدي الحساسية، مثل آميسينا – آمي ده أميريكو أبوها، وسينا دو روزينا أمها – بحضور قوة في الجو لا يمكن سحقها، تدير الحفلة. وإلّا، كيف يفسر بغير هذه، الوصلة التي قدمتها البدينة كارلا في رقصة الخمُرُ السبعة، وهو مشهد سامٍ ومرعب؟ كذلك، تكوّن لدى ماسيمو سالس، نفسه، المفكرُ الحر والجدي، انطباع بأنه مُرَاقب، عندما كان ينفذ في فترة ما بعد الظهر، في قاعة اللعب (بمساعدة من دومينغوس بروبالاتو فقط، الأخ بالرضاعة لبيلانتشي) بدقة وبوعي، وبإتقان فنان، المهمة الصعبة في تعديل ميل الروليت. أحياناً كان الإحساس قوياً جداً وغريباً، بحيث أنه اضطر لتأجيل العمل وتفحص الغرفة بعينيه، بحثاً عن الشاهد غير المرئي. وعند حوالى منتصف الليل، حينما بلغ اللعب ذروة حيويته، سمع ميراندون في أعماق نعاسه الثقيل من الإرهاق والكحول، الصوت نفسه الذي سمعه في العشية. في البدء غير دقيق، لكنْ سرعان ما أصبح واضحاً وشبيهاً بصوت فادينيو. كان الصوت يأمره بالعودة إلى طاولة الروليت، بشكل سريع: إلى بالاس، بسرعة، إمضِ الآن إلى الرقم 17. الرقم 17 والرقم 17 فقط. هيّا. وما إن فتح عينيه، حتى رأى ميراندون نفسه وحيداً مع خيالات الليل وذلك الصوت. فسدّ أذنيه بالوسادة وتغطى بالملاءات، منهكاً من الخوف، رافضاً الإصغاء. في ذروة الحفلة، في العشية، سأله آناكريون: «أنت أيضاً سمعت صوت فادينيو في أذنيك؟ إنه صديق لا يوجد مثله اثنان ،حتى وهو ميت لا ينسانا». لم يكن يريد ميراندون أن يسمع، لكنه أصغى، فسمع بوضوح؛ كان مأخوذاً، مسحوراً بروح سحرية جاثمة على كتفيه. يجب أن يذهب بأسرع ما يمكن إلى كاندومبليه الأم الكاهنة من أجل الصلاة على جسده وتقديم ديك للإلهة أوريشا، وربما تيس

فوق الوسادة، تابع الصوت تحذيره، كأنه يهدد. ولم يرَ ميراندون مخرجاً آخر، سوى طلب الإغاثة بأعلى صوته، ما سبب اضطراباً في الشقة. فاستماحت كارلا الطيّبة العذر من قاضي

الاستئناف الوقور، وهو زبون مخلص وواثق من كفاءته، وراحت تهدىء من روع الضيف المرتعب. وحينما احتضنته بذراعيها وخبأته بين ثدييها، أقسم لها ميراندون بروح أمه وبسعادة أبنائه، بأنه لن يعود أبداً إلى الميسر طوال حياته. ولن توجد قوة بشرية (أو خارقة للقوة البشرية) قادرة على جعله يلمس الفيش مرّة أخرى.

17

عندما رنّ جرس الهاتف كان جيوفاني غيمارايس قد لجأ إلى الفراش منذ أكثر من ساعتين. فقد اعتاد بعد الزواج النوم والنهوض باكراً، وهي عادات صحيّة للغاية في رأي زوجته. فلا شيء أكثر نفعاً وضرورة لصحة جيدة ولوظيفة تحظى بالنجاح، خصوصاً لمن أضاع سابقاً هذا الكم من الليالي، وهو يعيش حياة شاذة كان يلام عليها. إنه رجل – الصحافي المعروف جيوفاني غيمارايس – تبدّلت حياته كلياً وفي وقت قصير. وبين ليلة وضحاها، ما يثبت امتياز الزواج من امرأة نشطة ومتفانية، غير مستعدة للتسامح مع الإساءات والصفاقات. واحتفظ جيوفاني بمرحه الدائم وضحكته العفوية وأكاذيبه، ومبالغاته. في المظهر كان هو نفسه، بذيء اللسان، يعرف جميع التفاصيل عن المدينة: السياسية والمالية والمتعلقة بالخيانات الزوجية وبكل الأمورالحياتية. لكنْ في الظاهر فقط، لأن البوهيمي الذي لا يمكن إصلاح شأنه، المتسكّع ليلاً، المقامر، قد انتهى، أمام استغراب الكثيرين. ذات يوم، وقد ذعرت الأسرة من الأنباء التي وصلت من إقطاعية أوراندي، أرسلت إلى باهيّا أحد أبناء عمه وهو الجابي المشهور بميوله المحافظة، ليدرس وضع الابن المبذر. فحلّ ضيفاً على جيوفاني في شقته كعازب، في بييدادي، ومن أجل القيام بالمهمة الدقيقة خير قيام، رافق جيوفاني في أسفاره أسبوعاً لا يُنسى. وعند عودته لخّص التشخيص في كلمة وحيدة: «إنه غير قابل للإصلاح!».

في الظاهر، على كل حال، كان جيوفاني يبدد رواتبه وعائد إرثه في أوكار القمار وفي غيرها، يبدل النهار بالليل، ولا يظهر في المكتب إلّا ليقبض راتبه. فهو غارق في الديون، متعاطف مع الأفكار المشبوهة، مستغلاً سمعته كصحفي، وبريق ذكائه، ولطافته المشعّة التي جعلت منه صديقاً لجميع الناس؟ وعندما عاد الجابي، اعتبر أن إصلاح جيوفاني أمر مستحيل، إلّا إذا كان أخرق بشكل كامل لكي يتخلّى عن تلك الملذات، ومن بينها، خصوصاً ، الزينة اللطيفة في

منزل زازا، جوكونذينا المعروفة أكثر باسم «الشيء العذب الصغير». وكان الجابي يقول للأسرة والدموع في عينيه، وفي فمه ماء:

– لا تعلقوا الآمال... إنه امرؤ فاسد... لن يصبح مستقيماً أبداً.

غيرأنه قد تغير. ففي حين اعتُبر حالة يائسة، شخصاً لا يمكن إصلاحه، وقع بالحب وتزوج خلال شهرين . كثيرون أشفقوا على العروس: «مسكينة، سوف تلعن اليوم الذي تزوجت فيه، فجيوفاني هذا شخص مخبول». هكذا كانوا يقولون لأنهم لم يعرفوا الفتاة، في مظهرها الهادئ الخادع، ذات التصرّفات الخجولة تقريباً. بعد ستة أشهر من الزواج، وقد عاد الجابي المحافظ إلى السرتون، إلى العاصمة، هزّ رأسه: «مسكين جيوفاني!» وخرج مسرعاً إلى منزل زازا، فربما لا تزال كويزينيا دوسي حرة ومستعدّة للذهاب إلى الريف.

كان جيوفاني شخصاً آخر، ولم يعد يره أحد على طاولة اللعب أو في مقصف من أي نوع. كان يجازف، مرة كل شهرين، بعشرة توستونات على البيشو وهذا كان كل شيء. والنساء الجميلات على شاشة السينما فقط. وخلاف ذلك فهو سيّد ذو اعتبار سام وموظف محترم وأب لأسرة لا غبار عليه. يسير في الشارع متأبطاً ذراع زوجته، وبالذراع الأخرى ابنته لودميلا. لوحة مثيرة! لقد بدأت تظهر لديه بوادر الصلع، كذلك أفكار محافظة، وعادات بورجوازية وطموح لتملّك الأراضي والقطعان: باختصار، إنه رجل استوعبه المجتمع والأسرة والريف.

هكذا كان جيوفاني قد نام منذ أكثر من ساعتين، عندما رنّ جرس الهاتف. فغادر السرير شاعراً بالدوار بسبب النعاس، وتناول الجهاز: من كان يا تُرى؟

– هل أنت جيوفاني؟ – سألوا من الطرف الآخر للخط.

– أنا هو، نعم. من يتكلم؟

– إنه فادينيو من يتكلم يا جيوفاني. تعال راكضاً إلى بالاس والعبْ على الرقم سبعة عشر، إلعب بلا خوف لانك ستكسب، وأنا أضمن لك ذلك. لكنْ تعال بسرعة، تعال راكضاً...

- سأذهب في هذه اللحظة.

ارتدى ملابسه بسرعة، متجنباً إحداث ضوضاء. لحسن حظه، لم تستيقظ زوجته وليس لديه وقت للتوضيحات، مع مثل هذه العجلة للخروج. فقد نسي المفاتيح والوثائق ومحفظة النقود. وعند الناصية كانت تمرّ سيارة أجرة، فاستقلّها، وهمّ ليدفع أجرة الانتقال، عند باب بالاس، فتنبّه إلى عدم وجود محفظته.

- نسيت المحفظة...

- لا بأس أيها الدكتور... سأراك في الجريدة... - تعرّف جيوفاني إلى السائق. إنه الغجري، دائماً متواجد عند الفجر.

لقد عرف السائق ولكنه لم يعرف نفسه، جيوفاني غيمارايس. ما الذي أتى به إلى هنا، أمام باب بالاس، في الساعة الواحدة صباحاً؟ مخابرة هاتفية أيقظته، كانت من فادينيو، يوصيه بالرقم سبعة عشر. لكنْ فادينيو مات منذ بضع سنوات، قبل أن يتزوج هو، جيوفاني. إنه حلم بالتأكيد، نوع من أضغاث أحلام. لكنْ، سواء أكان حلماً أم كابوساً، ها إنه جاء إلى هنا، فقد حدث ما حدث - خرج من المنزل ليلاً خفية؛ أوّاه، من المستحيل تجنّب النتائج - ولم يتبق له إلّا الاستفادة من الهاجس. كان هواء الليل وهواء الحرية يغلّفانه، وشعر بأنه بطل تقريباً وهو يصعد السلالم إلى اللعب.

على الرغم من أن الساعة كانت متأخرة، كانت الحركة في الغرفة عظيمة، وبخاصة حول طاولة الروليت. وقد حُيي جيوفاني بحماسة ملكية:

- سعداء برؤيتك... ما هذه المعجزة؟

اقترب من بيلانتشي، وسأله:

- هل أستطيع تقديم سند؟ خرجت مسرعاً جداً فنسيت المحفظة ودفتر الشيكات...

- كما تريد... الصندوق هو صندوقك...

- الضروري فقط للتحقق من هاجس... حلمت بالرقم 17...

- الرقم 17؟

اتسعت الابتسامة في وجه ماسيمو سالس، لكنَّ بيلانتشي مولاس أحسّ بنكبة مفاجئة، بهاجس غير مسرّ. كتب جيوفاني السند، وبعد أن أخذ الفيش وضع اثنين على الرقم 17.

- اليوم لم يكسب ولا مرّة واحدة. علّق أحدهم.

تعالى صوت لورنسو مان - ده - فاكا:

- اللعبة قائمة...

دارت الكرة الصغيرة في حوض الروليت المائل. من المستحيل أن يكسب الرقم 17. كان وجه ماسيمو سالس مشحوناً بالخطر كوجه قديس، مشدوداً كوجه بيلانتشي مولاس.

- أسود. سبعة عشر. أعلن لورنسو مان - ده - فاكا، فجأة.

18

سبت مكتئب وماطر. من الصعب حقاً أن تبقى وحيدة مع حزنها. فلم يعد باستطاعة الدونا فلور أن تتحمل أكثر. فقد ذهب الدكتور تيودورو، بعد أن ارتدى المعطف المصنوع من المطاط، وأخذ معه المظلّة والبوق للتمرين في منزل الدكتور فينسيزلاو. اعتذرت الدونا فلور، بذريعة صداع نصفي شديد ومزعج، عن المشاركة في الأحاديث حول الأزياء والاستقبال الأخير، وحياة الآخرين. ولم تتآلف أيضاً مع رتابة التمرين. هذا ما لم تقله له، إنه واضح. خلاف ذلك، أبدت أسفها لعدم سماعها مرّة أخرى، التأليف الجديد للمايسترو آجينور غوميس الذي سرّها كثيراً، وهي معزوفة فالس احتفاءً بالدونا جيزا التي جعل الموسيقي من نفسه صديقاً لها: «تنهدات في ضوء القمر على الميسيسيبي».

كانت الدونا جيزا قد جاءت قبل قليل لتدعو الدونا فلور إلى عرض لأعمال الكابويرا في بعض الأراضي البور من أجل فرق الأمارالينا. وقالت لها: أيتها الغرينغا الماجنة، دائماً تأتين بأمور جديدة. كيف ألبي دعوتك، إذا كنت لم أذهب إلى التمرين، فجسدي تعِب وحيويتي متلاشية؟ وبالشيء نفسه أجابت الدكتور إيفيس والدونا إيمينا اللذين يثابران بصدق على الحفلات النهارية أيام السبت وفي السينما نفسها دائماً تقريباً. والدونا نورما أيضاً أرادت أن تأخذها إلى منزلها:

– تعالي وتفرّجي على البيسكا، فاللعب لا يحول دون الحديث.

– أشكركِ يا نورمينيا. فلو كنت على ما يرام لرافقت تيودورو. فقد تركته يذهب بمفرده...

– رأيته عندما انطلق في الترام. كان يسير منطوياً على نفسه، بهيئة رجل يشترك في دفن أحد الموتى. إن زوجكِ يعبدكِ يا فلور. قالت لها الدونا نورما موافقة على موقفها.

لقد كان من الظلم ألّا ترافقه إلى التمرين؛ فزوجها كان يطلب شيئاً زهيداً منها مقابل كل هذا الحب والعبادة. فيما الآخر... فلم تكن تريد حتى التفكير في أمر ذاك التافه. لماذا قلب الناس متناقض هكذا؟ لماذا رغبت بأن تبقى وحيدة؟ فأكبر متعة لدى الدكتور تيودورو هي أن يعزف على بوقه في التمارين، والدونا فلور معه بين الحضور، تسمعه وتشجّعه. ولماذا بقيت في البيت، إذا لم يكن بأمل مجيء الآخر من ليلته الأبدية في اللعب؟ ربما هذا صحيح. لكن أيضاً لكي تقول له الحقيقة كلها، لكي تطرده، لكي تقطع كل علاقة معه أياً كانت. هل الأمر هكذا حقاً؟ لكي تقول له هذه الحقيقة، أم: «خذني يا فادينيو، خذني، بكليتي، فما عدت أستطيع الانتظار». أي حقيقة من الحقيقتين ستقولها له؟ أوّاه، ففي معركة الروح مع المادة هذه ، ليست سوى مجرّد كائن بائس في حالة قنوط.

من المنزل المجاور سمعت صدى اغنية حب. إنها ماريلدا، الطالبة في علم التربية، ونجمة الإذاعة الشابة، والمخطوبة من دون إعلان عن طلب خطبتها الرسمي لأن طالب الزواج شاب ثري من أثرياء الكاكاو ذو مفاهيم متخلفة، أصرّ على أن تتخلّى عن عملها في الإذاعة، وأن تغني له فقط ولا لأحد سواه. إنه أمر مكلف جداً لماريلدا التي ترى نفسها أمام مكبّرات الصوت، تغطي

المدينة بصوتها الصغير الرخيم. فلماذا تدفع ثمناً باهظاً جداً من أجل هذاالخطيب؟ لقد جاءت إلى الدونا فلور تطلب نصيحتها. لكنَّ هذه الأخيرة لم تعد تستطيع تقديم النصح لأحد، حتى لنفسها، فهي مشوشة. ولم تعد الشخص المتماسك نفسه: فهي تعاني فصاماً داخلياً: شريفة لعوب من جهة، ولديها رغبة جامحة من جهة أخرى. غادر الدكتور تيودورو تحت المطر، حاملاً الباسون تحت معطفه الواقي من المياه. لم يكن لديه سوى شيئين مقدسين في هذا العالم: دونا فلور والموسيقى. ومن أجل زوجته والباسون، لسوف يضحي، إذا اضطر، بالعيادة والأرباح والمسائل المادية ومواقعه في المجتمع. إنه رجل مستقيم، وزوج مثالي. أما الآخر فقد كان رجلاً بشعاً وسيئاً. وهو على استعداد لأن يذلها مجدداً، فلا يضحي بشيء لاستعادتها ولا حتى بدقيقة من وقته البوهيمي. كان الأمر كذلك في المرة الأولى، لم يتخلّ عن شيء، ولم يتنازل عن شيء – من أجل دونا فلور، سوى عن بقايا ساعات فجوره. «انتظريني سأذهب وأعود حالاً»، ولا يعود أبداً. إنه شيطان مخادع ومحدث لبق.

– ماذا عليَّ أن أفعل يا دونا فلور؟ سألت ماريلدا. الغناء حياتي، بينما تقول أمي إن حياتي هي الزواج، أن يكون لك منزل وزوج وأولاد، وكل ما عدا ذلك فليس سوى نزوة. فماذا أفعل.

ماذا باستطاعة دونا فلورأن تقول؟ «انصرف أيها الملعون، دعني مكرمة وسعيدة مع زوجي»، أم «خذني بين ذراعيك، اخترق حصني الأخير، فقبلتك تساوي أي سعادة». ماذا أقول لها؟ لماذا ينقسم كل مخلوق إلى اثنين، ولماذا يجب أن نتمزق دائماً بين حبين، ولماذا يحوي القلب دائماً حبين متعارضين؟

– عليك أنت أن تختاري بين الاثنين: المهنة أو الزواج.

ولِمَ عليَّ أن أختار، لماذا لا أستطيع أن أتزوج واستمر في الغناء، طالما أنني أحب ذلك؟ لماذا أختار وأنا أحب الأمرين معاً؟ لماذا؟

لماذا، دونا فلور؟ من النافذة المفتوحة يدخل صوت العاشق بحثاً عن ماريلدا. يتجمد وجه الشابة، ويبان وجهها الناصع، فتغادر راكضة. تتبعها دونا فلور بنظرها: فادنيو هو الريح الذي

يبعثر شعرها ويغمر ساقيها.

– فادنيو! ليس مع ماريلدا. إنني أحذرك!

يجلس القرفصاء، باسماً، أمام قدميّ دونا فلور، حيث كانت ماريلدا جاثية، ويحتضن ساقيها، ملقياً رأسه على ركبتيها.

– اتركني بسلام... قالت له دونا فلور بصوت كئيب.

– لماذا تتصرفين معي على هذا النحو، يا حبيبتي. وأنت دائماً مستاءة.

– ويجرؤ هذا اللئيم على سؤالي لماذا، كما لو أنني لم أقل له السبب: «سأعود حالاً، انتظريني حتماً». ليل من القلق، أيام من المرارة، انتظار حزين. الخبر الوحيد عن هذا الحقير، هو ما رأته مسجلاً على الوجه الخلفي لزولميرا. نعم يا سيدي، وتجرؤ بعد ذلك أن تطرح أسئلة!

– أما قلت لي إنك لم تعودي تريدين أن تريني، وإنه عليَّ أن أغادر؟ عند ذلك ذهبت أقضي بعض الوقت مع بيلانتشي، يا لها من مزحة مضحكة...

– مع بيلانتشي أم مع سكريترته؟

هل تغارين، عزيزتي؟ لقد فكرت: أتوارى عدة أيام، فتتضرع إلى الله كي أعود، فهي تتوق بشكل جنوني إلى الارتماء في حضني، لم تعد تقوى على الانتظار.

– من قال لك ذلك؟ هذا كذب. أنا امراة شريفة، ارفع يدك...

ألهبت اليد والشفتان جسدها. شفتاه على فمها، ويده على المنطقة الأكثر حميمية في أسفل بطنها حتى آخر مخفض. وفيما كانت الإثارة ترتفع لهيباً في جسدها... سقطت المقاومات الأخيرة. وفي حين كانت تدعي أنها متمسّكة بالشرف ولا يمكن إخضاعها، سلّمته فمها حتى من دون أن تحاسبه على غيابه وعلى تنهدات زولميرا. فذلك الدوار الذي يسيطر عليها، جعلها عاجزة عن مقاومة تقدّمه، والدفاع عن الحد النهائي لشرفها. حبذا لو كان لديها أقلّه من تطلب منه أن

يساعدها! ففادينيو في عجلة من أمره، فقد وصل مسرعاً ويجب أن يعود إلى اللعب،: «هيّا بنا نتمتع على السرير يا حبي». إنها واقفة بين ذراعيه، غير قادرة على المقاومة، فما أهمية الشرف والزوجِ؟ «حيثما تريد يا حبي».

– هل أستطيع الولوج يا إشبينتي؟

اجتازت ديونيزيا ده أشوصي الباب فجأة ثم قالت:

– ماذا بكِ يا إشبينتي؟ إنك ممتقعة جداً...

شعرت الدونا فلور مجدداً أنها أُنقذت بأعجوبة، فهمست:

– الله قد أرسلكِ أيتها الإشبينة ديونيزيا. لا أحد سواكِ يستطيع مساعدتي. إجلسي هنا، إلى جانبي.

– ما بك يا إشبينتي؟ ما الذي تعانينه ؟ إنكِ ترتجفين...

أمسكت الدونا فلور أوشوصي بيد متوسلة:

– أيتها الإشبينة، أنا بحاجة إلى أحد يساعدني لكي أتحرر من فادينيو، يطرده ولا يدعه يقلق راحتي، إذ إنه منذ وقت وهو يزعجني، وما عدت أنا نفسي، وما عدت أعرف ماذا أفعل، فقد تلاشت إرادتي.

– المرحوم، إشبيني؟

– تدبّري أمراً يعيده إلى هدوئه، وإلا فلن أعرف يا إشبينتي ما الذي سوف يحدث... لن أستطيع أن أخبرك... فكل ساعة يريد أن يأخذني، وحتى الآن أيضاً عندما وصلتِ أنتِ، استسلمت، وكدت أن أذهب معه... وإذا استمرّ فلسوف ينتهي الأمر بأن يأخذني...

غطّت ديونيزيا فمها بيدها كي لا تصرخ:

– أوّاه يا إشبينتي، هذا امر طارىء، من الضروري أن نفعل شيئاً. سأذهب الآن بالذات لأتكلم مع الأب ديدي، ولحسن الحظ أعرف أين يقوم بواجبه. فلا يستطيع كل إنسان أن يعالج أمور السحر هذه. فقط لمن يستخدم عصا أوجيه. يا إلهي! أيتها الإشبينة...

– ديدي!؟ تساءلت الدونا فلور مستغربة. ثم تذكرت فجأة، الزنجي الهزيل في سوق الأزهار الذي أعطاها الموكان لضريح فادينيو. إذهبي أيتها الإشبينة، اذهبي بسرعة، فإذا كان ثمة من يستطيع إنقاذي، فإنه هو. وإلا فأنا هالكة يا إشبينتي وستحدث مصيبة بدون علاج.

– الآن بالذات...

خرجت ديونيزيا محمية بعقدها الحائزة عليه من أوشوصي، خائفة من أرواح الإيغون، قوية في الوقت نفسه في الرغبة بإنقاذ حياة الإشبينة. مصيبة بلا علاج، أي شيء آخر يمكن أن تكونه إلا الموت؟ اسرعي يا ديونيزيا، بسرعة أكثر، في الدروب الضيقة والسرية حتى أبواب مملكة إيفا، ففي معابرها ستلتقي الكاهن الساحر وقدراته.

– يا أبتاه، قالت محمية أوشوسي وهي تقبّل يده، المتوفى يريد أن يأخذ إشبينتي، فأنقذها، إحجز أرواح الإيغون في موته – ثم قصّت عليه ما تعرفه من قصة الدون فلور.

في تلك الساعة بالذات، عاد الدكتور تيودورو وهو مبلّل كلّياً. فهم لم يتمرنوا، بسبب المطر. احتسى جرعة من شراب روحي، حيطة ضد الزكام، وارتدى سترة المنامة، ثم أخذ البوق وعزف للدونا فلور مقطوعات موسيقية مختارة من مجموعتها المنتقاة. وما إن سمعته الدونا فلور حتى نهضت ثانية من وجلها وحزنها، من القرف من نفسها هي، المرأة المتزوجة ذات الفضيلة الهشة. لم يعد لديك ما تخشاه بعد الآن يا تيودورو، فأنا أحبك وأنا لك ولك وحدك، هذا السبت سنمارس الحب مرتين، اليوم وغداً وإلى الأبد. يجب ألّا يكون في أي قلب حبان في الوقت ذاته، فقد انتزعت نصف ذاتي وها أنذا مجدداً متماسكة ومتكاملة أصغي إلى صوت باسونك. ها أنذا، تيودورو، زوجتك الشريفة.

في الجانب الآخر من ليل باهيا، ثمة بريق يسطع، وفي هذا الوضوح يعزف الساحر بلالاو على البوكسينوس مع صلاة ديونيزيا، ابنة أوكسوسي. عند ذلك تحول المطر إلى عاصفة، ودوّى الرعد وانطفأت الأنوار وغضب البحر وراحت الآلهة أوريكساس، متقاطعة مع البرق والأنوار، تستجيب لنداء الابسوبا: الواحد بعد الآخر. كلهم قالوا نعم، ما عدا إكسو قال لا.

19

وصلت رسالة بيلانتشي مولاس إلى الزاهد كردوزو إي سا في كنيسة باسيون حيث كان يتأمل أمام ضريحه، كما كان يفعل في كل ذكرى لموته. ذاك الموت، يوم كان يدعى جواكيم بيريرا، أحد ملوك المال في باهيا توفي عام 1886 في منزله الفخم في كوريدور دي لا فيكتوار. سهرة جنائزية مثيرة، دفن حاشد شارك فيه ماسونيون وزملاء في تجارة الجملة، بحضور حاكم المقاطعة ومتفجعات محترفات، مع إقامة قداس أمام جثمان الفقيد. لقد تكاثرت قبور كاردوزو إي سا في أرجاء الأرض كافة. مومياء اكتشفت في الأهرام الكبير وأصبحت تحفة، وجسد مدفون في الثلوج الأبدية في جبال الألب التي كانت جيوش هنيبعل أول من اجتازها، جسد آخر في رمال الصحراء العربية وزولمار على صهوة جواده الأبقع. مات في فرنسا مرتين أقلّه، ومثلها في ايطاليا، وسجنته محاكم التفتيش حيث قضى تحت التعذيب في اسبانيا ككيميائي وكافر؛ غني وفقير، متسول وكاردينال، باع التمر في مصر على ضفاف النيل في ظل حكم رعمسيس الثاني؛ تأمل نجوم نصف الكرة الشرقي، يهودي ذو لحية بيضاء، إلهي فوشيه، عالم رياضي ولد ومات قبل المسيح. في باهيا، فضلاً عن القبر الدائم في كنيسة الباسين، يرقد أيضاً في كنيسة باياكو في جزيرة إيتاباريكا، حيث مات في الحرب ضد الهولنديين، في الثالثة والثلاثين من عمره، في العام 1638، عندما كان في جلد الرجل الجميل والقوي والماجن، خادم ملك البرتغال فرانسيسكو مارينيو ده إيسا، الآمر الأكبر والأول للساحل، خبير الهنديات.

كل هذه الخبرة الواسعة – وأكثر منها بكثير، لأن مجلدات عديدة كانت ضرورية لرواية مضاعفات حياته أو حيواته، جميعها ملأى بالإنجازات والغراميات – تجمّعت الآن في الهيكل العظمي الهش لأنطونيو ميلشياديس كاردوزو إي سيلفا (كاردوزو إي سا بالنسبة إلى الناخبين)، وهو

موظف متواضع في قسم الوثائق البلدية، ومعلّم في العلوم الخفيّة، ووريث مفتاح سليمان، وفيلسوف عالمي وهندي ونقيب الفلك.

– هيّا بنا يا سيّد كاردوزو، لأن رب العمل قال لي أنْ آخذك إليه بأية وسيلة. فالرجل متوتر جداً.. قال آوريليو.

– هيّا بنا، إنني كنت أنتظرك...

– أكنت أيها السيّد تعرف أنني قادم؟

ضحك الحكيم من السؤال، بقهقهة جليّة وطليقة، فلم يوجد أحد أكثر منه فرحاً ورضى، سعيداً كلّياً:

– ما هو الذي لا أعرفه يا آوريليو؟ فأنا أعرف ما لا يصلح والأمور الأخرى أيضاً، السلبي والمجهول.

بالنسبة إلى آوريليو، لم يكن يفكر في مناقشة لا السلبي ولا غيره من الأمور، فحضور كاردوزو إي سا البسيط قد جعله متوتراً. كان نقيب الفلك يمضي في السيارة إلى جانب السائق، وثمة من كان يحييه بشكل غير مرئي.

– مساء الخير أيها الفريق...

أين هو الفريق؟ كان جالساً هناك، أمام البحر، في طراوة المساء؟ أين يا سيّد كاردوزو؟ لم يتمكن آوريليو، من رؤية أي سيّد، بلباس عسكري أو بسترة بسيطة. ليس متاحاً للجميع أن يروه يا عزيزي، إنما للبعض فقط.

– احتراماتي سيدتي، إنني أقبّل قدميكِ.

وهذه أيضا تراها؟ أنيقة كلّها، قبعة ذات ريش وثوب ذو ذيل، كانت أجمل نساء زمانها، في زمن آخر. من أجلها قتل شابان بعضهما وهما في زهرة العمر. والآن يتمشى الثلاثة على

الشاطىء، متأبطي الأذرع، في غزل وضحك. عيناها غير مبصرتين وبائستان، إذ لا ترى حتى نفسها، في إشراقة جمالها.

– لينجني الله ويحفظني يا سيّد كاردوزو.

ضحك المعلّم بقهقهته، فالشارع مسكون بالأشباح، والسائق متوتر أمام مقوده، لا تريحه القيادة في ظل مثل هذاالغموض.

– إذن فالأمور ليست على ما يرام في اللعب؟ – سأل كاردوزو، فجأة.

– أوَكنت تعلم أيها السيّد؟ تُرى هل يعرف حقاً كل شيء؟

لكن هذا هو كاردوزو يخفي وجهه ويختبئ. ممن؟ من الفتاة الشقراء والرياضية التي كانت في طريقها إلى الشاطئ؟ منها فعلاً يا عزيزي؛ هل تعلم مَنْ هي؟ إنها جان دارك، وهل تعلم مَنْ هو كاردوزو إي سا؟ حسناً، إنه ليس سوى الكاردينال الفرنسي بيار كوشون، القريب جداً من البابا، والذي وقّع بيده الخائفة حكم الموت على الفتاة العذراء. إنه يراها في كل مكان، بعينيها البريئتين، ومسحة التضحية على محياها.

– كنت متردداً، طائشاً، لاأخلاقياً، جباناً...

في شقة زولميرا كان بيلانتشي، ساحرهندوستان، الوحيد القادر على جمع شظايا المستحيل، ينتظر بفارغ الصبر.

– لقد تأخرت يا سيد كاردوزو...

– لا أصل أبداً لا مبكراً ولا متأخراً، دائماً على الموعد تماماً.

ألقى التحية على زولميرا التي كانت ملفوفة بالشاش الضبابي، عرفها كاردوزو جيداً، في الماضي، عندما كانت في الأمازون تجتازالوادي على حصانها الجامح، وأحد نهديها مكشوف، رائع. كان دائماً فائق الروعة (كذلك الآخر)، إنما غير مكشوف، مع الأسف، فكّر كوردوزو. مع أن ذلك

كان صدفة حسنة تثير الكثير من التجسدات، مع أنه لم يصل بعد إلى أن يكون عديم الإحساس تجاه بعض ملذات الحياة المادية التعيسة.

– منذ يومين وأنا أفتش عنك...

– ماذا تريد مني؟ لأمر سريع أم لحل ما.

عينان شاخصتان إلى البعيد، والعرق يتصبب من جبهته العريضة وتحيط به السوائل. تركيز شديد. ثم:

– لقد شوهت اللعبة، أليس كذلك؟

التفت بيلانتشي إلى زولميرا وكأنه يقول لها: «أرأيت، إنه يعرف كل شيء». فأخبار المدينة وإشاعاتها تصل حتى إلى الكوخ الروحي حيث يسكن كاردوزو في فقره ومع خمسة أولاد (لم يطلب يوماً خدمة من أحد ولو بقيمة ريال واحد)، وفي هذه الأيام لا يدور الحديث إلا عن الأحداث التي جرت في القصر وفي التباريس وفي أبيكسادنيو وعلى طاولات الروليت والبكرا. لغزٌ أم غش، أعجوبة أم عملية احتيال، لم نسمع قطّ سوء حظ بحجم سوء حظ ببيلانتشي مولاس. بلغت هذه التعليقات، عملياً، مسامع المعلم. لكنه لم يكن ليصغي إليها، ربما كان ذلك سيمنعه من سماعها؟ ومتى كان كاردوزو إي سا بحاجة إلى السمع لكي يعرف؟ للتأكيد على فكرة ما.

– عندما تساءلت هذا الصباح، قبل أن أخرج من المنزل، قلت لنفسي: سوف يستدعيني بيلانتشي، فهو في الظلام وبحاجة إلى القليل من الضوء.

– إلى القليل؟ كلا، إلى الكثير من الضوء... يريدون القضاء عليَّ، يا كاردوزو، تصفيتي بضربة واحدة.

راح يعدد الأعمال المستحيلة وكاردوزو جالس أمامه يصغي بجرأة إلى التقرير المخيف. كان يومئ برأسه للموافقة على فكرة ما أو لتوقع حادثة أكيدة. كان كاردوزو إي سا، ينظر مواربة من خلال الألبسة الداخلية الشفافة، إلى فخذي زولميرا التي كانت تصغي بانتباه إلى رواية ملك

اللعب المأسوية وتستمتع بها. لم تكن تلك النظرة الشهوانية لتشوش كاردوزو لأن الجمال لا يشوش العاقل، فلا هو عمل لاأخلاقي ولا هو يتنافى مع القيم. فضلاً عن أنه يريح النظر.

نظر متعب: عيناه الافتراضيتان كانتا تريان عبر الفضاء وتمسحان الزمن، مركزتان على الماضي وعلى المستقبل. عندما أنهى بيلانتشي روايته عن سوء الحظ المفرط، كان كاردوزو قد استوضح كل شيء، عناصر المشكلة والمجهول فيها، مقدماً الجواب والحل:

– إنهم مريخيون... قال بشكل قاطع.

ثم سُمعت ضحكته المجلجلة كما لو أن كل ذاك لم يكن سوى مزاح، كما لو أنه لا يكلف ثروة يومية من خزائن بيلانتشي.

– مرّيخيّون؟... سيد كاردوزو، لا تُسمعني مثل هذه التفاهات... أنا أثق بك، فلا تسخر مني! ما علاقة المريخيين في كل هذا؟ إنهم أعداء، هذا صحيح. عمل سحر. فمن رأى مرِّيخياً من قبل، لا أحد يعلم إذا كان موجوداً، إنها الأرواح الشريرة، والإصابة بالعين الشريرة...

–إنك لم ترَه قط لأنك مبتذل وعامي... المريخيّون، لقد قلت لك... لا عدو ولا عمل سحر... فالمريخيّون جد فضوليين، يعيشون غائصين في كل شيء، وبالنسبة إليهم، ذهنيات متفوقة، لا يوجد لا حظٌ ولا نحسٌ...

– مريخيّون؟ – أرادت زولميرا أن تعلم، وهي جشعة دائماً في التعلّم. – على الأرض؟ منذ متى؟

فوق كل شيء، لن نرتبك ونقارن كاردوزو إي سا بكاشف بخت أو منجّم من هؤلاء الذين يسعون هنا بالأكوام، محنيي الظهر فوق كرّات البلّور، أو بمبصّرين ذوي علم بصريات مختصر، أو بمتنبئين لا قيمة لهم، قارئي أكفّ تافهين. إن كاردوزو إي سا كان بروفيسور الغموض وحكيم الديجور، عالماً في ما يتعدّى فيزياء الكواكب والنسبيّة.

– منذ وقت بعيد هبط المريخيّون على الأرض. ثلاثة بشريين فقط شاهدوا الهبوط...

– وهل كنت أيها السيّد أحد هؤلاء الثلاثة؟

ابتسم متواضعاً، وواصل كلامه:

– ذات يوم سيظهرون للعيان، وعندها ستصاب البشرية بصدمة... – ضحك طويلاً، إذ وجد سخافة لامحدودة في فكرة خوف البشرية – حتى الآن هم غير مرئيين. فقط بعض المصطفين...

– أنت أيها السيّد بما أنك تستطيع الرؤية، قل لي كيف هم. هل هم جميلون؟ سألته زولميرا بفضوليتها إلى المعرفة.

– بالمقارنة معهم نحن وحوش كبيرة مقرفة.

أصبحت الخلاسية ذاهلة، قلقة في ضياع.

–هل تريد القول يا سيّد كاردوزو إن المريخيّين هم الذين وضعوا أيديهم عليّ وقرصوني؟ فهم أيضاً يفعلون هذا؟

– هذا، ما هو؟ – طلب كاردوزو المهتم بالأمر بعض التفاصيل. أي يد، أي قرصات وفي أي نقاط من الجسد؟

روت زولميرا، كضحية بريئة لهذه الدعابة عبر النجوم، لهذه البذاءة من الإيكتوبلازما.

– أظهرت ذلك لبيكيتو، وهو رأى العلامات. أظهرت ذلك أيضاً للزميلات في درس الطَّهي، في مدرسة الدونا فلور. وقد تأثرت الدونا فلور بحيث كاد يغمى عليها.

أظهرت ذلك لجميع الناس، إنما لم تظهره فقط لكاردوزو إي سا فلماذا هذا التحفّظ معه؟ من دون فحص المكان (كما كان يقول الكاردينال كوشون) من المستحيل تحديد الظاهرة. فأجاب كاردوزو إي سا، وهو شديد الإثارة:

– المريخيّون؟ لا أعتقد... فهم لا يعملون إلّا عبر تحويل الأفكار.

تحويل الأفكار فقط؟ أي بلاهات... قدّرت زولميرا ذلك، وهي تعود إلى تقليم أظفارها. وفي ما خص بيلانتشي كانت لا تزال الشكوك تتملكه:

– مريخيّون؟ وإذا لم يكونوا؟

– دع الأمر لي وأنا أحلّ كل شيء...

كان بيلانتشي يثق في كاردوزو إي سا، فأتيحت له فرصة لاختبار العظمة العالمية لمعرفته. لكنْ من أجل موضوع بهذا التعقيد، ربما يجدر ألّا يقتصر الأمر على الصوفي الهندوسي؛ فليستشر، من يدري، قدرات سحرية أخرى. الأم أوتافيا، على سبيل المثال.

جدد كاردوزو إي سا تدخين غليونه، ونظرته تائهة عبر النافذة إلى الأفق، كان الصوت يأتي من البعيد: أنا أتمتع بنفوذ كبير لدى المرّيخيّين، فقد ذهبت برفقتهم منذ عدة أيام لزيارة المريخ، واجتزت كل الكرة الأرضية، ثمّة مدينة كلها فضة وأخرى كلها ذهب... هناك، الأسماك تطير في الفضاء والبحر حديقة من الأزهار...

في تلك اللحظة، لم يكن ينظر لا إلى فخذي زولميرا ولا إلى نهدها الوافر في الديكولتي المطرز، فقد نزل إلى المريخ في صحن من الضوء. «إنه في حالة انجذاب تام»، همس بيلانتشي بكل احترام، وراحت زولميرا ترتب مخرمات ثوبها الداخلي الشفاف.

20

فُتحت أبواب جهنم، واجتاز الملاك المتمرد عتبة غرفة نوم دونا فلور، وعيناه تشعان شهوة وفمه يقطر إغراء وهو عار كلياً. فإذا كانت القديسة شخصياً، لم تستطع أن تقاوم هذه النظرة، وإغواء هذه الضحكة وهذا الصدر المكشوف، فكيف للدونا فلور أن تفعل؟ أين أنت، ديونيزيا الوسخة، بعقدك أوشوسي؟ أسرعي، يا ديونيزيا، اسرعي إلى الساحر، اسرعي إلى السكران لتكبيل هذا التافه في ليل موته الأبدي. فإذا ما بقي هنا، لن يكون بإمكان دونا فلور أن تدافع عن شرفها وعن سمعة الطبيب. حياة كاملة نزيهة وسلوك مثالي والحشمة إضافة إلى المسؤولية، كل هذا الرأسمال الذي تحسد عليه يصبح في خطر: غداً ستصبح السمعة الطيبة لدونا فلور، رمز الفضيلة

على كل شفة ولسان، ممرّغة بالوحل والاحتقار. غدا، ستكون امرأة أخرى، يشار إليها بالبنان، معذبة بتأنيب الضمير والعار.

تستقبل الدونا فلور النظرة المليئة بالشهوة في أعماق كيانها، فريسة للإغراء. تستجيب لندائه، مسلمة نفسها برغبة جامحة. متنبهة وجريئة تجاه الخطر، مكرمة ومتقشفة وحازمة ، وعلى عجلة من أمرها للاستسلام قبل فوات الأوان.

فأية الاثنتين هي دونا فلور الحقيقية؟ أتلك التي تُغلق الباب بصخب وضجيج أم التي، بصمت وتؤدة، تشرع باب جسدها؟ والمطر ينهمر على السطح.

مساء السبت، وبعد ظهيرة من الصداع والصرع، زيارة ديونيزيا وعزف جوقة الباسون: لكن ذلك كله بدا بعيداًجداً! فوقت الدونا فلورهو وقت المعركة الذي لم يعد يُقاس بالساعات والدقائق، إنه وقت الرفض والرغبة، وهو طويل ومؤلم. ليلة السبت، ليلة تكرارعملية الحب مع الدكتور: إنه يعدّ نفسه في الحمام لعيد الأحاسيس الرصينة واللذيذة. كانت الدونا فلور تنتظره في ارتياح زوجة مطيعة ولطيفة. لكنْ آه! المكّار يرتاح عند اقدام السرير ويأمرها، وإصبعه موجه عمودياً:

– سوف لن تنامي هذه الليلة مع هذا التمثال، لأنني لن أسمح لك. حتى ولو اضطررت إلى إحداث ضجيج وتكسير كل شيء.

كان الأمر سخيفاً، متهوراً، لكنْ – ليفهم القلب البشري من يستطيع... – شعرت الدونا فلور أنها سعيدة لدرجة أنها ضحكت وسألته (بدلاً من أن تطرده شاعرة بالإهانة وساخطة):

– هل تغار منه؟ قل لي هل يشعر بيبي بالغيرة؟

– إنني أشتهيك يا حبي – أجاب برقة وهو ممدد على السرير بارتياح – لقد انتظرت أكثر من اللازم... أيُعقل أن أكون مضطراً للسعي وراء امرأتي الشرعية، وقد نمت معها خلال سبع سنوات؟ لقد انتهى الأمر، سوف لن أنتظر بعد الآن. فكيف أغار من زوجكِ (الشراب)هذا، إذا كنت لم أتعارك معه ولم أتنافس؟ تزوّج منك، فهو زوجكِ، وباستثناء الحب الذي لا يعني الشيء

الكثير، فهو حتى زوج طيّب، إنني أعترف. ولن أنتزع منه حقه. إنما، فليعذرني اليوم: فمن سيمارس الحب معك، هو بيبي الرائع، الاكثر تجربة واطلاعاً في هذا المجال. فلينتظر وعليه الانتظار طويلاً...

عارٍ كما ولد، الشفتان ملتهبتان والنظرة شهوانية ويده تتبع دربها، إنه يسيطر عليها: الدونا فلور هي عبدة لفادينيو، ليست حرّة إلّا في الكلام فقط، مجرد تضحية. أما كانت هكذا دائماً؟ كان اعتزازها وحياؤها يختفيان بين يديه، الدونا فلور مطيعة لأوامره كزوج ومالك. اعتزاز وحياء وحشمة وأخلاق فضيلة، ماذا يساوي كل هذا، طالما هو يرغب بولوجها ومن أجلها جاء (هل تعلم من أين، من حيث لا يعود أحد).

– كنت في غياهب الظلمات، سجيناً، مقيّد اليدين والقدمين، بذلت جهداً أكثر من اللازم لأفكّ وثاقي كي أجيء وأراكِ، يا حبي. لكنكِ دعوتني، وأنا أتيت، مجتازاً النار والبرد، الفراغ والنفي. أصل وترفضين إعطائي الخبز والماء لأشرب، لماذا؟

– آه يا فادينيو....

– لماذا تعاملينني هكذا، كما تعاملين كلباً؟ انتهى الأمر يا حبي. اليوم أو أبداً. عندما يأتي هذا الطنان الكبير، قولي له إنكِ لستِ على ما يرام، لستِ على استعداد. بعد ذلك سأهتم أنا ببشرتك الملساء.

– آه! هذا لا... إنني امرأة رصينة وشريفة، فلن أخون زوجي، كم مرّة قلت لك؟

يخرج الدكتور من الحمام، نظيفاً تفوح منه رائحة الصابون المعطّرة. مظهره مبهج وابتسامته صادقة ونظرته نزيهة. وفادينيو يقطف بيده وردة الدونا فلور الزرقاء. آه! دونا فلور، كيف يمكنك أن تكوني حقيرة إلى هذا الحدّ ؟

– تيودورو، يا عزيزي، سامحني اليوم، إنني لست على ما يرام، فأنا متعبة. لنؤجل هذا إلى الغد، إذا كان ذلك لا يزعجك.

– مريضة أنت؟ أبدى الدكتور قلقه. فمنذ المساء وهي تشكو. ألن تكون أكثر من وعكة بسيطة؟ أين هو ميزان الحرارة؟ والشراب والأقراص وصندوق الأدوية؟ لا يلزمني شيء من هذا، يا عزيزي، فلا تقلق، سوف أنام، وغداً سأكون على ما يرام، على ما يرام كلّياً...

– ... وتحت تصرفك... أضافت الدونا فلور.

كيف أستطيع فجأة أن أصبح هكذا، بلا أحاسيس وبدون اعتزاز وبلا احتشام وبلا أخلاق؟ – تستجوب الدونا فلور نفسها، شاعرة برقة لطيفة تجاه الزوج المذعور وبمذاق معيّن إزاء التمثيلية. قبّل وجهها. لكنَّ الدكتور تيودورو لم يقتنع؛ عليها أن تتناول قرصاً وبعض القطرات ومسكّناً أقله لتنام نوماً غير متقطّع، فتستيقظ مطمئنة ومرتاحة. سيمضي ليجلب دواء وماء. وحالما خرج شعرت الدونا فلور أنها أسيرة فادينيو.

– مجنون، اتركني، فهو عائد الآن...

اعتبر فادينيو نفسه موضوعياً ومنصفاً:

– إن زوجكِ الثاني هذا ليس سيّئاً... بل على عكس من ذلك. وأنت تعرفين يا حبي، في كل مرّة أستلطفه أكثر من ذي قبل... وأنتِ في ما بيننا نحن الاثنين مخدومة بشكل جيّد. هو للخدمة والاهتمام بك وأنا لأجعلك ترتعشين من الحب.

أتى الدكتور بقارورة ماء بارد و كأسين وزجاجة صغيرة مع سائل لا لون له:

– صبغة حشيشة الهر لتسكين الألم، عشرون قطرة في كوب من الماء وستنامين وترتاحين، يا عزيزتي.

رفع الجهاز الذي يعدّ القطرات بانتباه وهدوء مازجاً المسكّن بالماء. هل بدل أحد الكأسين فيما أدار الدكتور ظهره للحظة؟ من ؟ فادينيو أم الدونا فلور؟ لكنْ إذا كان هذا هو ما جرى، فكيف لم يميّز الدكتور، وهو صيدلي وكفوء، المذاق الخاص لحشيشة الهر؟ هل حدثت معجزة؟ إذا نعم، فنظراً للحد الذي بلغته الأمور، أنّ معجزة أكثر، أومعجزة أقل لن تسبب مفاجأة لأحد. وقد لا يكون

قد حدث أيضاً أي إبدال، لكن الدونا فلور، ببساطة، لم تشرب المسكّن ونعاس الدكتور العميق يعود فقط إلى المطر المنهمر على السطح وإلى ضميره النقي. بالكاد كان لديه الوقت ليقبّل زوجته.

– هيّا... – قال فادينيو. – ها نحن الآن، وحدنا...

– ليس هنا، لا... – توسّلت الدونا فلور. مبددة آخر آثار للحياء والاحترام تجاه زوجها الثاني – هيّا بنا إلى الصالون...

في الصالون، فُتحت أبواب السماء، وطلع نشيد الغبطة. «هل سبق لأحد أن رأى ممارسة حب بقميص النوم؟» الدونا فلور عارية مثله، كل واحد يتباهى بعري الآخر ومتكاملاً معه. اخترقتها لدغة من نار. للمرّة الثانية استولى فادينيو على شرفها: في المرة الأولى عندما كانت فتاة شابة، والآن وهي زوجة تيودورو (وليكن لديها أزواج أخر فلسوف يكمل). ومارسا الحب في ميادين الليل حتى حافة النهار.

لم يسبق أن وهبت نفسها هكذا، لأحد من قبل: بهذه الحرية وبهذا الاندفاع وبمثل هذه الشراهة المضطرمة والهذيان الشديد. آه! فادينيو، إذا كنت أنت جائعاً وعطشاناً، فماذا يُقال عني، أنا من يعيش نظاماً هزيلاً ومن دون طعام، بلا ملح وبلا سكر، زوجة عفيفة لزوج محترم وقنوع؟ ماذا تهمني سمعتي في الشارع وفي المدينة، واسمي المبجل؟ شرفي كامرأة متزوّجة ماذا يهمني؟ خذ كل هذا في فمك المضطرم ذي مذاق البصل النيء، أحرق في نارك حشمتي الفطرية، مزّق بمهمازيك حيائي القديم، فأنا ملكك وكلبتك وفرسك الأصيل وعاهرتك. كانا يتجامعان ويعيدا الكرة، يستغيث واحدهما بالآخر، يتناديان ويجيبان بعضهما بعضاً ثم يتابعان بأحسن حال. الكثير من الأمور التي أسفا على عدم القيام بها والكثير من الرغبات التي كان عليهما أن يلبياها ويشبعا منها، أدركاها، وبعضها تكرر. كان صوت فادينيو يقول لها أشياء كثيرة غير محتشمة: سفيهة ومحبوبة قذرة وجميلة. كان يذكّرها بعذوبة زمان مضى:

– هل تذكرين المرّة الأولى التي أحسست بك فيها؟ كان المتنزهون يأتون إلى الساحة، وأنتِ مستندة إليّ...

– أنت من شدني بين ذراعيه ويدك كانت...

كان يداعبها وقد اعترفت يده لها:

– شكلك الشبيه بجنية البحر، بطنكِ ذو اللون الفخّاري، ونهداك الشبيهان بثمرة الأفوكاتو. لقد أصبحت جميلة، يا فلور، وأنتِ الآن وافرة، مثيرة للشهية من الرأسِ إلى أخمص القدمين. أود أن أقول لكِ: لقد قطفت الكثير من الثمرات في حياتي، الغلّة جيّدة، لكن أياً منها لم تكن مثل ثمرتكِ، إنها الألذ طعماً، أقسم لكِ يا وردتي...

– أي مذاق لها؟ قالت الدونا فلور وقد فقدت كل حشمتها وأصبحت وقحة.

– لها مذاق العسل والفلفل، والزنجبيل...

كان يتكلم والدونا فلور تستسلم خائرة القوى: فادينيو الأشد جنوناً والأكثر طغياناً، نارٌ وهواء. فادينيو لا ترحل، أبداً. وإذا رحلت مرّة أخرى فلسوف أموت من الأسى. حتى ولو التمست منك ذلك وتضرّعت، لا ترحل، حتى ولو أوصيتك وأمرت، لا تتركني... فأنا أعرف جيّداً أنني لن أكون سعيدة إلّا إذا لم تكن هنا، إذا غادرت. فمعك لا توجد سعادة إنما فقط، العار والعذاب. لكنْ من دونك، مهما كنت سعيدة، لا أستطيع أن أعيش، ولن أعيش، آه!، لا تتركني أبداً.

21

يوم الأحد، كانا يتأخران في النهوض، وعندما استيقظت الدونا فلور في صباح ذلك الأحد الماطر، رأت وجه الدكتور منحنياً على وجهها، يراقبها بورع، ويده تتلمس خدّها:

– نمتِ جيداً يا عزيزتي؟ ليس عندكِ حمى...

ابتسمت الدونا فلور، وهي تتثاءب، راضية بحصولها على زوج طيّب جداً، وبالعناية التي يحيطها بها؛ فطوقت عنقه بذراعيها ومنحته قبلة، شاكرة:

– إنني بحالة جيدة الآن يا تيودورو. ما جرى كان لا شيء...

ارتخاء وكسلٌ وانشراح ورغبة في البقاء في السرير، في ذلك الحرّ وفي عبق ذلك الحب العميق من قبل الصيدلي. صباحٌ بدون التزامات، الفراش ذو الرقّاص، المطر على السطح، الحب المتفاني للزوجِ، الزوج القديس. والتصقت بصدره:

– يا له من كسل يا عزيزي...

– ولماذا لا تبقين مرتاحة؟ لم تكوني البارحة على ما يرام، فاخلدي إلى الراحة اليوم إلى وقت متأخّر. وإذا أردتِ سآتيك بالقهوة إلى هنا.

– لن أبقى إلّا إذا بقيت أنت أيضاً يا عزيزي. لن أبقى سوى بالقرب منك.

الدكتور تيودورو من دون خبث، ولد كبير رغم المركز الاجتماعي والمعرفة والعمر.

– يعني أنه (ضحك بخجل) إذا بقيت مستلقياً إلى جانبك فلن أتحمّل أي مسؤولية إذا...

الدونا فلور، بصوت دلع:

– إنني أجازف يا تيودورو... – خبأت وجهها في الوسادة.

كان وضعها في حالة فوضى إلى حد ما، ثديها يبرز بحرية قرب صدر الدكتور، ومنحنى وركها يظهر من بين الملاءات، عارضة لونها النحاسي العتيق. كانت نظرة الدكتور خجلى ونهمة، ويده متحفظة.

– لقد اصطدمتِ بالسرير، انظري العلامة... ثمة أكثر من واحدة.. لقد كان نومك مضطرباً.

توقف قلب الدون فلورعن الخفقان:

– أين؟

– هنا... يا عزيزتي المسكينة... وكانت يده تنتهز الفرصة لتصعد إلى أعلى الفخذين وما بعده.

محت الدونا فلور، بين ذراعي زوجها، آثار الكدمات الناتجة من النوم المضطرب (أو عن عدم النوم). فقد التقى فم كل منهما بفم الآخر وارتعشت هي: مذاق القبلة النقية إنما المخترقة لتلك اللذة غير المتوقعة لذلك العناق، والمطر على السطح، وحرارة السرير، وخجل الدكتور تيودورو، واليد عديمة التجربة وربما لهذا السبب هي أكثر لذّة، والرغبة في عينيْ زوجها الخفيضتين، وفي صدره اللاهث وكل ذلك في وضح النور، آه! يا للخجل! ارتعشت الدونا فلور مجدداً من النشوة. يا لها من بهجة. «زوجهاِ الطيّب للآلام والاهتمام». لهذا فقط؟ لكل رجل ذوقه الخاص، على حد قول الدونا أنطونيا، تلميذتها السابقة الخبيرة بالشؤون الذكورية، « لكل صفاته، بعضهم يعرفون والبعض الآخر لا. لكن إذا عرفنا كيف نستفيد من ذلك، آه جميعهم طيبون...». اجتاحت الرغبة الدونا فلور، رغبة مختلفة ناتجة من الكسل ومن خجل تيودوررو ومن انزعاجه.

– إنك مدين لي يا عزيزي...

– أنا؟ ماذا؟ – سأل الدكتورالمتهم البريء، أما كان حقاً ولداً كبيراً وأبله؟

هذا الجبين العريض لمثقف ذي أفكار عظيمة ورجل بالغ الحماقة! داعبت الدونا فلور جبينه بيد فضولية، وابتسمت بحنان. فهي لم تكن يوماً، بهذه العذوبة والتملق:

– أنت مدين لي، يا حبيبي، لقد افتقدتك البارحة...

– لا تكوني ظالمة، فَمَنْ هو الذي افتقد...

– إذا كنت أنا المدينة، فعليّ أن أسدد، لأنني لا أحب أن أكون مدينة. الدونا فلور تخفي وجهها بيديها، وتضحك بخبث.

ما الذي كان يتمناه الصيدلي المسكين غير ذلك؟ لقد خرج حتى عن رصانته:

– حسناً، سأستوفيه مع الفوائد...

الدكتور تيودورو، الرجل المنظم والمستوفي للقوانين والطقوس، اتخذ وضعيته الاعتيادية وتناول ملاءة السرير لكي يغطي الحب بالحشمة والاحترام الملائمين بين الزوجين. لكنَّ الدونا فلور لم تمنحه الوقت؛ فقد قذفت بالملاءة فجأة خارج السرير، ومع الحشمة والاحترام، رأى الدكتور نفسه بين ذراعيها. لم ينسَ قطّ هذا الصباح الممطر، هذا الأحد المبارك، يوم العطلة هذا المقدس ، هذا اليوم الفائض عن المألوف الذي لا يُضَاهَى، غير مألوف ورائع بكل معنى الكلمة.

بعد ذلك، لفّت نفسها الدونا فلور ككرة مصنوعة من الخرق، وعلى شفتيها ابتسامة، وفي هدهدة المطر نامت، في نعاس حسن نامت، جد مطمئنة وراضية بشكل لا يصدَّق.

22

لم يتغيّر شيء، ولا يوجد أي فرق، يوم أحد مثل جميع الآحاد الأخرى، والدونا فلور هي نفسها. تشبه نفسها تماماً. لقد عانت عقوبات الجحيم، متأكدة من أنه ستكون نهاية العالم؛ فثمة الكثير من هذه المفاجآت في الحياة...

من جهة أخرى، كانت مناوبة الصيدلية العلمية تجعل هذا الأحد مختلفاً نوعاً ما، إذ إن الدكتور كان سيلبي طلبات زبائن عديدين – صيدلية واحدة فقط فاتحة أبوابها لسكان كثيرين جداً. وهكذا، عندما خرجت الدونا فلور من الغرفة، لم تعثر على زوجها. كان لديها، رغم هذا، صباحٌ من أكثر الصباحات حركة.

أوّلاً، ماريلدا مع خطبتها التي هي في أزمة، والدونا ماريا دو كارمو، تعاني نوبات من التوتر تقريباً: الغناء أم الزواج؟ والجيران؛ كان ثمة إجماع بين النساء باستثناء الدونا جيزا. لكن الأميركية كانت معروفة بأفكارها الغريبة، ربما هي حسنة للولايات المتحدة، لكنها غريبة، إذا لم تكن خطرة على البرازيل. لم تكن تدافع عن الطلاق فقط، لكنها ذهبت إلى حد الإعلان بصوت مرتفع، في نقاش مع الدونا جاسي والدونا إينايدي، أن العذريّة ليست أكثر من شيء باطل وهي فعلاً مضرّة للصحة؛ فمصحات الأمراض العقلية، حسب قول الغرينغا، مليئة بالبنات العذارى، تخيّلي!

الأخريات كنَّ يكررن، بأخلاقية واقتناع، أن الزواج هو الهدف الوحيد الشرعي للمرأة المرسَلة من الله للعناية بمنزلها ولرعاية زوجها ولإنجاب الأولاد وتربيتهم، وهي راضية وموافقة، وفي مقدّمة هذا الجيش الغاضب الدونا ماريا دو كارمو، ورغبتها في أن ترى ابنتها مستقرة، كما تقول هي بالذات:

– من الضروري أن تستقرّ هذه البنت، في منزلها. فالإذاعة لا تقدم ضمانات وهي خطرٌ كبير.

خطرٌ؟ ثارت الحلقة: ليست خطراً واحداً فحسب، إنما هي أخطار مضاعفة تحيط بالمغنّيات وبالفنانات، وبالأحرى هن جنس يعاني الكثير من الالتباسات، ومن التصرّفات المشبوهة، في رأي الدونا دينورا، (شخصٌ كما نعلم، ذات أخلاق متصلّبة وصارمة، وفي كل مرّة أشدّ ضراوة في مقارعة انعدام الحياء والتهتك، لكنها متفهمة عندما يجري الكلام عن الفنانين، وعن المسرح، وعن الإذاعة. أما المدراء والمغنون والموسيقيون، فكانوا جميعاً أشخاصاً سفهاء وغواة نساء، عيونهم على البائسات، ومخالبهم حادّة).

منذ فترة وجيزة أيضاً، مغنيّة شابة، أدخلت إحدى المغنيات، فتاة من عائلة ممتازة – من أقارب الدونا إينايدي، «أشخاصٌ مميّزون جداً» – إلى أحد المشافي، وهي تنزف دماً، وعندما ذهب الطبيب ليرى سبب النزف تثبّت من أن ثمة عملية إجهاض غير ناجحة أجرتها لها امرأة فضولية في إحدى زوايا الشارع. ولم تمت الفتاة لأنها سُلّمت لرعاية الدكتور زيزيتو ماغالايس الذي يشهد الجميع على كفاءته. لم تمت، فالطبيب استعاد لها الحياة، لكنَّ العذرية التي التُهمت، لا يستطيع حتى الدكتور الجيّد زيزيتو، مع كل كفاءته، أن يمنحها إياها مجدداً. لا هو ولا أي كان، كما تقول الدونا دينورا «لم تُخْتَرَع حتى الآن قطعة غيار للعذرية».

– تصوري، أن الدونا نورما تعتبر أن من يخترع هذه القطعة سوف يصبح ثرياً. فيكفي أن يدخل المرء إلى صيدلية، إلى العلمية كي لا نذهب بعيداً، ويطلب: «دكتور تيودورو، أعطني غشاءين للبكارة جديدين، واحداً لي، والآخر لشقيقتي... وواحداً آخر أرخص، فهو للخادمة في المنزل...».

ضحكن جميعهن، مع أنه لا علاقة لكل ذلك بماريلدا. فالفتاة مستقيمة، حسب رأي الجيران. لهذا بالذات لم يكن بوسعها أن تتردد في الاختيار بين الزواج من صاحب المزرعة وعائدات العمل الهزيلة في الإذاعة. لذلك أيضاً، كان الذهول عظيماً، عندما طلبت ماريلدا النصح من الدونا فلور مرّة أخرى، فنصحتها هذه الأخيرة، في ذلك الأحد، بطرد الخطيب الرجعي والمتسلط، والبقاء في الإذاعة حيث لن يلبثوا أن يقدّموا لها مرتباً أفضل. وإذ رأت الدونا ماريا دو كارمو ابنتها قوية بهذا الدعم الميؤوس منه، ومستعدة لإلغاء الخطبة، جاءت تطلب توضيحات من الدونا فلور:

– لو كانت ابنتكِ، أشك ب... كأنك لست صديقة لنا...

تفاقم النقاش حتى شمل الجيران، لكنَّ الدونا فلور احتفظت بوجهة نظرها:

– إن هذه أفكار بالية...

انتهى طق الحنك بمناحة، فالدونا ماريا دو كارمو ذاتها مترددة بين نجاح ابنتها وضمانة الزواج. وحازت الدونا فلور رأي الأغلبية. ولخّصت الدونا نورما:

– سوف يتغير هذا حتى في الجحيم. فزمن الاسترقاق قد انتهى.

ذهبت الدونا فلور إلى المطبخ لتحضّر الغداء – في أيام الآحاد التي تكون فيها المناوبة، لم تكن تذهب إلى منزل الخالة والعم في ريو فيرميليو – فالتقت ديونيزيا ده أوشوصي:

– أعذريني، يا إشبينتي...

جاءت لتأخذ نقوداً وهي في عجلة من أمرها، إذ إن الإيغو كان في دورة دراسية وحلقة الإياوو في انتظارها ليرقصوا طوال الليل. وقبل ذلك كانت قد أنجزت أشياء كثيرة، فالواجبات كانت كبيرة، والفروض معقّدة. البابالو يقذف التعاويذ وآلهة الأوريشا قد استجابت. ومن أجل أن تضمن لها الطمأنينة، وتحررها من العين الشريرة، ومن أي مرض، ومن تهديدات الإيغون الموافق على إغوائها لتموت، ينبغي على الدونا فلور أن تقوم بتعويذة ذات أهمية، ليس مجرد مؤامرة أو عمل سحري ما. فإيشو، الذي يسيطرعلى المتوفى كان معارضاً، وواقفاً على أهبة الحرب. طلبت ديونيزيا من أوجيه

بألّا يقيم وزناً للنفقات. حيث إن الحالة هي حالة حياة أو موت، وبوجه إيشو المعارض والمدجج بالسلاح، لا يهم المال ويجب أن نسرع: فإشبينتها الدونا فلور في خطر مميت. أمام هذا الوضع، فإن آسوبا نفسه قدّم المال من أجل النفقات الأكثر إلحاحاً: خروف وعنزتان وإثنا عشر ديكاً وستة كونكينات وإثنا عشر متراً من القماش. من دون الكلام عن البقية، لائحة طويلة مكتوبة بقلم الرصاص على ورق بنّي. كل شراء مع كلفته وعشرين ألف ريس زيادة مرسلة إلى بيجي ده أوساين لكي يفتح دروب الغابة حيث يختبئ إيشو.

لكنْ، عندما وصلت ديونيزيا إلى منزل الدونا فلور وجدتها مرتاحة جداً، ومسرورة جداً، بحيث كانت تبدو أنها مختلفة عما كانت عليه مساء الأمس . هل أخطات في صرف مثل هذه النفقات؟ لقد فعلت حسناً، لأن الدونا فلور، وهي مذعورة، أمرتها باتخاذ جميع تلك الاحتياطات. أنا شاكرة يا إشبينتي لكل التعب الذي أسببه لكِ. الآن على كل حال، لم يعد ثمة شيء مهم، صواب أم خطأ فكل شيء قد حُلّ.

–هل توقف المتوفى عن تعذيبك؟

ابتسمت الدونا فلور بحرج وقالت:

– إو أنني لم إعد أخاف. لم أعد بحاجة إلى شيء.

والآن؟ من المستحيل توقيف العمل. أثناء الليل وعند الفجر يكونون قد قدّموا التضحية بالحيوانات، وعند أول إشراق للنور يضعون أمام كل أوريشا طعامه الطقوسي. في كل يوم أحد، عند المساء وفي الليل، تتواصل الفروض مع الأوريشا الحاضرة في التيريرو. والإلغاء والتوقف في الوسط وعدم الاستمرار لألغاء العمل السحري، مستحيل يا إشبينتي، في تعويزة بهذا البعد. نتائج مميتة وغير متوقعة، للقصاص الصارم للمسحورين، الذين يخرجون أحياء؟ حتى ولا هي بالذات ديونيزيا، بالرغم من أنها وسيطة بسيطة. فالآن، يجب الذهاب إلى النهاية، حتى ولو أن الإشبينة تعتبر نفسها متحررة من التهديدات. فالتعويذة هي ضمانة لاطمئنانها، ما دامت النقود قد أُنفقت، وما دامت الأوريشا قد شربت الدم الساخن للحيوانات في ساعة الذبح وتقبّلت القطع المفضلة من

لحمها مع انبلاج الصبح، وما دامت مغطّاة بسلاحها وشعاراتها، وصراخ يانسا يرجّع صداه في الغابة. وهذا الأمر بالنسبة إلى الدونا فلور كان التأكيد على أن المتوفى لن يعود أبداً بعد الآن لإزعاجها، وهو مقيّد بموته إلى الأبد.

أحصت الدونا فلور المبالغ، ووضعت بعض المال الإضافي، وشكرت مجدداً ديونيزيا المجدّة في العمل بلا تمنين وأرادت استبقاءها على الغداء؛ دجاجةٌ بالمرق الأدكن اللون وضلعُ خنزير مغمسَّ بالكونياك، وأقراص البوبا، وحلوى المائدة مانغا وسابوتي. لكنَّ ديونيزيا كانت في عجلة من أمرها للعودة إلى التيريرو، حيث يطلب أوشوصي في شخير الطبول جواده المفضّل

في أيام الآحاد التي يكون فيها مناوبة، بعد الغداء (الدكتور يأكل بسرعة، حتى من دون أن يتلذذ بمذاق الأطعمة المتقنة الإعداد، في قلق للعودة إلى الصيدلية، مستسلماً لرسائل الأولاد)، تبدّل الدونا فلور ملابسها، من دون أن تعير اهتماماً لاحتجاجات زوجها وتقوم بمرافقته، فتسلّيه في العمل في يوم الراحة. تقف إلى جانبه وراء طاولة البيع، تساعده على تصريف العمل وهي أنيقة، ترتدي ملابس الزي الشائع فتنم عن الذوق الحسن كما لو أنها في زيارة إلى الدونا ماغا باترونوسترو المليونيرة، أو في حفلة في منزل الكوميندادورة إيماكولادا تافيرا بيريس. فكل تلك الأناقة، وكل ذلك الجمال هما له وحده. الدكتور تيودورو كان يشعر أنه ممتن جداً.

هكذا في هذا الأحد: الرشاقة والبهاء، والسحر والدلع، والدونا فلور تتباهى بعقد من الفيروز العتيق، هدية فادينيو. لا شيء مختلفاً، يوم أحد شبيه بكثير من أيام الآحاد الأخرى في فترات مساء المناوبة. كل شيء مشابه؛ الشارع، الناس، الدكتور وهي الدونا فلور. لا أحد يشير إليها بالبنان، لا أحد يعرفها خائنة وخاطئة، حتى ولا الدونا دينورا التي تعمد إلى التنبؤ والخبث. الشمس ذاتها التي كانت قبلاً، المطر نفسه (الآن رذاذ خفيف من الماء) الأحاديث ذاتها والضحكات نفسها، التقدير الذي لا يتغيّر. لقد ظنّت أنها ستكون نهاية العالم، في الشارع وفي داخلها، وأنه ستصبح مخترقة القلب قبل الموت. وبدلاً من هذا، كل شيء مشابه؛ كم يُخدع الناس في هذه الحياة...

من وراء طاولة البيع، تبيع إحدى الزبونات، ويبتسم لها الدكتور تيودورو، وهو أخرق بالكامل ومغترٌ بنفسه لرؤيته لها وهي رائعة الجمال. وتبتسم له أيضاً وتسترق النظر إلى جبينه؛ لا

وجود لأية علامة لقرون. يا لها من حماقة، يا دونا فلور، ماذا يعني هذا التذوّق المفاجئ للتمثيلية؟

لا شيء تغير بينها وبين الدكتور على كل حال. فقط ذكرى الصباح على السرير، تجعلها أكثر حميمية في منابة بعد الظهر. وذكرى تلك الليلة على الكنبة، تبقى حية: ذاك الحب الجامح والعنيف، اوالقبلات الملتهبة، هللويا الصادرة من فادينيو. في المساء الساجي، في السلام الهادئ ليوم الأحد، لدغة الرغبة تعضّ جسدها. متى تراه مجدداً، الطاغية، الشرير، السافل، زوجها الأول؟ ليلاً بالتأكيد، عندما يكون الدكتور مرهقاً من العمل، وينام نوم المنصفين والسعداء.

في ذلك السلام العذب، زوجة طيّبة متضامنة مع الزوج الثاني، تقوم بواجبها في مساعدته في المناوبة، وفي انتظار الليلة الماجنة مع الزوج الأول، أقلقها تفكير مفاجئ. لقد قالت الإشبينة ديونيزيا إن فادينيو لن يعود أبداً إلى إزعاجها، مقيَّداً إلى الأبد في حبال العمل السحري. ربّاه، ماذا إذا كان الأمر صحيحاً؟

23

صلّت الأم أوتافيا كيسيمبي من أجل بيلانتشي. واستحمّ هو وزولميرا في حمام من الأوراق مع صابون جوز الهند. ووُضع ريش ديوك الأضاحي في تقاطع الطرق. دافعت الأم أوتافيا عن بيلانتشي في الجهات الأربع وفي الأبواب السبعة وطلبت إليه أن ينتظر النتائج. لكنَّ ملك البيشو كان في عجلة من أمره، فذهب يطرق أبواب زبائن آخرين.

كانت القارئة بالغيب آسيا، قادمة من الشرق مع نسائم الصباح، وما كادت تنتهي من ارتداء ثوبها كعرافة، حتى تلقت زيارة بيلانتشي، وبحوزته مبلغ كبير من المال. ومع أن العرّافة لم تتأثر بلمعان الذهب – كونها تعيش من نعم السماوات وفي صيام كلّي عن ملاذ هذا العالم – لكن كيف ترفض هذه البطاقات البنكية، خصوصاً وهو يطلب منها القيام بعمل صعب جداً؟

مستفيدة من «نهج العلم الروحاني المتحرك»، وهو امتياز تتفرّد به، ذهبت إلى البعيد ورددت بكلمات مبحوحة، متداولة مع نفسها كما لو أن أحداً يريد خنقها. لم يكن مشهداً من المشاهد المبهجة كثيراً، والأستاذ ماسيمو سالس ذو الطبيعة العقلانية والرأس الصلب كان يرغب بأن

ينصرف. لكنْ بيلانتشي استمرّ صامداً، في توقع متوتر، ممسكاً بيد زولميرا الخائفة، والمتأثرة بالأمر غير المعقول منذ أن أبدت كائنات غير مرئية، اهتمامها بنهديها وبوركيها (ومن يدري، بأكثر من ذلك؟). فزولميرا، السكرتيرة وموضع ثقة سيدها، تسلية للمغمومين!

عادت كاهنة الشرق من المدارات الكوكبيّة، منهكة وجاحظة العينين، وإذ حدقت ببيلانتشي، انتفض جسدها ومزّقت صرخةٌ صدرها الناحل – خشبة الخبز، تثير رؤيتها الحزن. طلبت مالاً أكثر، آه! إنه عمل شاق، فكل شيء شديد العتمة في الدوائر البعيدة، جد معتمة مثل حظ بيلانتشي! القليل من المال من أجل الشموع. ربما مع ذلك الدعم من الإضاءة، تتمكن هي من كشف القناع عن المكيدة. خبّأت الأوراق المالية في الدرج، وأضاءت شموعاً رمزية، وعلى ضوئها، ميّزت عيناها كمبصّرة أعداء بيلانتشي.

– أرى ثلاثة رجال عند حافة طريق والثلاثة يريدون لك شرّاً...

– آه! – أنّ بيلانتشي – قولي لي يا سيدتي كيف هم...

تأخرت قليلاً في جهدها كمستبصرة. لكن بيلانتشي كان في عجلة من أمره:

– انظري إذا لم يكن أحدهم أقرع والآخر ليس بديناً؟ الثالث...

– دعها هي نفسها تقول عن الثالث... – اقترح ماسيمو سالس، وهو مزعج من أسوأ نوع – وفي النهاية هي العرّافة؟

العرّافة، مع كونها في موقف مؤثّر، أطلقت نظرة على السافل الذي كان يعقد مهمتها. مَنْ قال إن مالها كسبه يسير؟ شخرت وزفرت وعضّت رسغيها ولطمت رأسها. هل كان سهلاً كسب المال من بيلانتشي؟ إنه عسيرٌ وخطر:

– أوّل الثلاثة، هو رجل أصلع. أعلن صوت خشن.

– شيء جديد عظيم... علق ماسيمو السافل.

– الثاني هو سيّد بدين، بدين جداً...

– والثالث، كيف هو؟ ألحّ المدعو ماسيمو.

– الثالث لا أراه حتى الآن جيداً، إنه لا يزال في العتمات...

لم يتمالك بيلانتشي نفسه:

– هذا هو بالضبط، دائماً هو مختبئ، ملعون! أنظري إذا لم يكن ذا شاربين وأنفه مكسور.

لكنَّ العرافة بالتأكيد، لم تسمع من المسافة البعيدة، ساعية إلى أن ترى:

– إنني أراه الآن. لديه شاربان و... انتظروا، فأنا أرى... لديه أنفٌ مكسورٌ...

– إنهم آل سترامبي، لا يوجد شك في ذلك – أراد بيلانتشي أن يعرف كيف يتصرّف لإبعادهم عن طريقه، هؤلاء آل سترامبي الذين لا يرحمون.

من أجل طردهم من باهيّا، من أجل سوقهم إلى مشاعر نبيلة من التسامح، وإلى الشرق الأبعد، أصرّت آسباسيا المنهكة، على كميّة باهظة من المال. وقد سحب بيلانتشي حافظة نقوده، لكنْ ماسيمو سالس وهو شخصٌ وسخٌ عديم الفائدة، دسّ نفسه مرّة أخرى حيث لم يكن مدعواً، وحصل على تخفيض جوهري.

بيديْ العرّافة وليس بالنحس في الميسر اتهم آل سترامبي. فتابع بيلانتشي طريق الجلجلة الخاصة به، طريق وعرة من قِبل العرّافة القارئة بالغيب. لاحظ ماسيمو سالس أن جوزيتي ماركوس كانت أقله جميلة وفتيّة، فهي استثناء في الأخوية المكوّنة عموماً من لوحات قديمة تافهة. لماذا، كان يتساءل الأستاذ، العالم الآخر يستخدم مثل هذه الفزّاعات؟ لماذا قاعات الاستشارة ومعابد الوحي، كانت بهذه القذارة، ورائحة الغموض بهذه القوة واستحضار الأرواح بهذا الإزعاج؟ استنتج ماسيمو الشكاك أن العالم الآخر يجب أن يكون قذراً ورائحته كريهة.

جوزيتي ماركوس، سليمة، هيفاء، شقراء، نظيفة. الغرفة الصغيرة حيث استقبلتهم، فيها أزهار في أصيص وأوعية للبصاق. بعد أن استمعت إليهم، تركتهم هناك مع زوجها ومساعد لها، وذهبت تصلّي في غرفة استحضار الأرواح والتنجيم. فأوضح زوجها، مستر ماركوس وهو أيضاً فتى لطيف المعشر يحمل شهادة في الاحتيال، أن جوزيتي لا تتقاضى شيئاً لقاء ما توزعه على الشعوب عن طريق وساطتها الروحانية. كل شيء مجاناً، فالأرواح لا تتلقى أي شيء وجوزيتي تتقبل فقط ما هو ضروري بشكل دقيق من أجل الحقن والأدوية (كل شيء باهظ الثمن اليوم، الحياة ترتفع تكاليفها بهذا الشكل) وأعمال الخير التي بها تستعيد العافية الواهنة بعد كل جلسة. عند انتزاع الإيكتوبلازما – لم تكن تحترز كما سيتحقق السادة شخصياً – فجسمها الواهي قد أصبح ضعيفاً جداً، بحيث يشكل خطراً على حياتها. كان بيلانتشي المشحون بالأمل والأسى، سخيّاً ومستر ماركوس ملأ جيبه.

في الغرفة الأخرى – الخاصة بالظواهر – المبطّنة بالستائر ذات اللون الأحمر المائل إلى الزرقة، كان ثمة شبه تام. كانت جوزيتي بالرداء الأبيض، ممددة على كنبة، فريسة لسوائلها. طلب زوجها من الاشخاص الأربعة الموجودين – بيلانتشي زولميروا ودومينغوس بروبالاتو وماسيمو – بأن يتعاونوا لصنع سائل مغناطيسي. هكذا فعلوا فأُطفئ مصباح صغير، هو الوحيد الموجود في الغرفة. في الحال دقَّت أجراسٌ صغيرةٌ، وسمع صرير ومواء وظهر في الأجواء ضوءٌ حول الستائر، انتزع من زولميرا صرخة هستيرية. أما بيلانتشي، فلم يستطع حتى أن يصرخ، وكان بروبالاتو يرتجف مبللاً بالعرق وأسنانه تصطك. هذا الضوء وتلك الأصوات كانت من الأخ لي أُو ذاته، الحكيم الصيني من سلالة مينغ الملكيّة، الحقيقي بشكل مطلق. وحسب ماسيمو سالس غير القابل للإصلاح، فإن الضوء والصوت لم يكونا من الحكيم لي أُو إنما من المحنّك ماركوس، وهو شخصٌ محب للحياة يتمتع بحياة طيبة على ظهر تلك الإيكتوبلازما الجميلة. لكنْ بما أن ماسيمو سالس ذو لسان سليط وغير مؤمن، فلم تكن لآرائه قيمة وليس لها رصيد كبير. ندوّنها هنا فقط على سبيل الدقة في السرد. فإن جوزيتي تستحقّ الإئتمان والثقة، متحولة إلى إيكتوبلازما ومدندنة كالأطفال لغة غريبة، ربما لغة صينية قديمة أو أكثر احتمالاً اللغة البرتغالية في ماكاو، لأنه يمكن فهمها مع

بعض الجهد. وحسب قول الحكيم لي أُو فإن سبب هذا التشوش كله كان سيدة إيطالية حاقدة، لم يتكلم معها بيلانتشي.

– شقراء أم سمراء؟ سأل الكالابري.

– سمراء وجميلة، في الخامسة والعشرين من العمر...

– في الخامسة والعشرين؟ إنها في حوالى الأربعين، أفعى. إنني لم أقترف خطيئة... إعملي معروفاً يا عزيزتي قولي للصيني إنني لم أقترف ذنباً...

كانت تدعى أنونتشياتا، تبدو مطارَدة وآنسة ساذجة، تسعى إلى الحماية؛ آه! يا لها من عاهرة شديدة العهر. هو، نعم، بيلانتشي، كان آنئذٍ فتى فقيراً في السابعة عشرة من عمره...

في اندفاع سنواته السبع عشرة المليئة بالسخرية، علّم وجه الخائنة بزهرة من الدم، مضيفاً بعض الجروح في الذقن، كإضافة أو كسلوك شيطاني. نجا بيلانتشي من السجن، فيما آنونتشياتا في المستشفى كانت تقسم على الانتقام، حيّة أو ميتة. والآن بعد سنين كثيرة، جاءت لتفي بوعدها بالحقد على ذلك المفجوع الإيطالي. آنونتشياتا كانت حبّه الأول: امرأة رقيقة جداً وفاجرة. وحتى اليوم لم يندم بيلانتشي على ما فعله. فامرأة هي زوجته لا يمكن أن تكون لرجل آخر. فهي له وله فقط. وزولميرا في العتمة تتشنج: كم يوجد من الآلام في هذا العالم!

حرر الحكيم الصيني، ببعض علب أخرى من الحقن، بيلانتشي من ذكرى آنونتشياتا ومن حقدها. فمن أجل التفاصيل المادية، مثل الثمن والدفع، استخدم كوسيط مستر ماركوس، وسيط الأرواح والمدير الروحاني لتلك الخيمة. لقد اختفت آنونتشياتا مع زهرتها من الدم والجروح في الذقن، لكن النحس استمرّ من دون أن يزول.

كبير الملائكة القديس ميغيل ده كارفاليو، متدثراً بنوع من الملاءة وعلى رأسه عمامة ، لم يصف أي سيماء ولم يذكر أي اسم، لكنه كان إيجابيّاً وفوريّاً. تناول يديّ بيلانتشي ونظر إلى

عينيه: في الفضاء الكوكبي عدوٌ شرسٌ يطارده، رجلٌ أهانه الكالابري بشكل خطير، وتحوّل إلى العالم الروحاني منذ زمن بعيد. كبير الملائكة تبيّنه على الفور بمصباحه الملائكي:

– إنه واقف وراء ظهرك.

حدثت حركة عامة من التقهقر وماسيمو سالس ذاته، وقف قرب الباب، في حالة من الشك...

– هل مات منذ وقت قصير؟

– أجل. والعراك كان بسبب امرأة... – استطرد كبير الملائكة، بعد أن تنفس بعمق قواه السحريّة.

تحقق بيلانتشي من هوية ديوجينيس ريباس. فقد سلبه زوجته، وهي خلاسية مدعية، ذات جمال خلاب، محظية رائعة وخداعة. فديوجينيس، ملّاك مقتدر ومشاكس، هدد بسكينه وتوعد. كان بيلانتشي قد أصبح سيّد الميسر القادر، ولكي يسكته، وبناء على طلب من الخلاسية التي كان ديوجينيس يتعقبها بالشتائم والإفتراءات – أمر بضربه، مكلفاً فريقاً من الاختصاصيين القيام بهذا العمل. وعند خروجه من بين أيدي الأطباء، اختفى ديوجينيس ريباس إلى الأبد، وعلم بيلانتشي عرضاً بموته المحزن والراهن، من البؤس. أما الخلاسية، محور المأساة، فقد أصبحت مع القت لا تُحتمل. فبدلها بيلانتشي بكميّة من ورق اللعب مع رجل سويسري.

بسيفه الملتهب، كنّس كبير الملائكة، ديوجينيس، الكثير الكلام والقليل الفعل وذا الروح البائسة والمقرون. لم يقبض كثيراً من المال، إذ لم يكن مستغلاً للمؤمنين، بل هو محسنٌ للإنسانية كما قال لهم. فلقد انسحب الديوث مع قرنيه، لكنَّ النحس بقي وفي كل مرّة أشدّ.

الدكتور نايير سابا، طبيبة تملك عيادة عامة للجراحة، تحمل ديبلوماً بتميز وتنويه، من جامعة جوبيتر، وهي أربعينية دميمة مثل الحاجة، كانت تشفي مرضى بحركات مغناطيسية. اكتشفت، في توافق النجوم ولقاء الثمن الملائم، أقله ستة أعداء لبيلانتشي عُرفت هوياتهم في الحال

من دون أقل احتمال للخطأ. وقامت دكتورة جوبيتر بتصفية الستة في مهلة قياسية، وعلى سبيل الإفادة أشفت بيلانتشي من قرحة في المعي الإثنيْ عشري، وأشفت بروبالاتو من روماتيزم مستديم. إنما لم تتغلّب على النحس في اللعب.

مدام ديبوراه، وهي ستينيّة، لم تكن، في رأي ماكسيمو، تساوي المال ولا حتى المشهد؛ إيجابيّة نوعاً ما، تشكو من آلاماً في البطن، (حامل منذ ثلاثين سنة. حملت وسوف تلد الأبوكليبس) مع زفير واضح من الكاشاسا والزكام المزمن، متدثّرة بخرق غجرية. لم تكتشف شيئاً جدياً سوى فتاة تدعى كارموزينا، وهو حبٌ قديمٌ لبيلانتشي هجرها بدون تحسّر أو إشفاق. فملك الميسر لم يكن يستبقي النساء الدميمات. وجدت مدام ديبوراه صعوبات في تصفية المرأة المذكورة، لكنها في النهاية تمكنت من ذلك، بمساعدة بعض جرعات من الباراتي تناولتها من قارورة زجاجية خاصة بدواء للسعال. بعد ذلك أرادت أن تبيع بيلانتشي توقعات لا تخيب للعبة البيشو. لكن النحس استمر ، هذا واضح.

الوحيد الذي لم يطلب مالاً كان تيوبالدو أمير بغداد، وهو عجوزٌ نحيلُ الجسم، أبيض كلياً، عيناه زرقاوان راسختان، ووجهه عابقٌ بالطيبة وفمه يوحي بالألغاز. لم يرد مالاً ولا أية إكرامية من أي نوع، ولم يُظهر بدوره أي عدو مرئي أو غير مرئي، سواء كان ذكراً أو أنثى. فإذا رآهم يحيطون بملك الميسر أو في بُعْد الأزل، احتفظ بالسرّ. قال فقط والدموع في عينيه، مربتاً كتف بيلانتشي:

– وحده معلّم اللامعقول يمكنه إنقاذك. هو وحده ولا أحد سواه.

– أين أستطيع العثور على هذا السيّد؟

عجوز تجاوز الثمانين عاماً، تنبأ بنهاية العالم مذ كان في العشرين من عمره وأقل، مقاوماً لعدم الإيمان وللاضطهاد وكذلك للسجن وللمصح العقلي، ولم يُغْلَب قطّ، نبيٌ لا يهدأ من العهد القديم، تيوبالدو أمير.

– إنه يوجد حيث لا ينتظره أحد...

وإذ قال هذا، أغمض عينيه واستسلم إلى النوم.

في شقة زولميرا، وفي وحدة خليقة بمفكر، رتب كاردوزو إي سا التفاصيل الأخيرة لمخططه في المعركة؛ كان قد حدد مقابلة مع المرّيخيين، إذ لديه أصدقاء بينهم.

– والآن؟ قال لبيلانتشي.

رفع ملك الميسر، المتعب والمتشائم، كتفيه:

– هل تعرف، على سبيل المصادفة، أين أستطيع رؤية المدعو معلّم اللامعقول؟ وهل سمعت شيئاً عنه؟

– معلّم اللامعقول؟ تريد لقاءه – هزّت قهقهة المتصوّف الغرفة.

– بسرعة.

– إذا ها هو أمامك. فأنا هو معلّم اللامعقول.

في البكارا، في الإياسكينية، في الكبير والصغير، في الروليت، يتابع أريغوف وآناكريون وجيوفاني غيمارايس والحشد هواجسهم، يفجّرون بنكاً تلو الآخر، ولا يخسرون أبداً. حتى ولا مرّة واحدة.

– أنت؟ إذاً، أسرع. فإذا دام الأمر أسبوعاً آخر سأصبح مفلساً وتوسلت إليه أيضاً زولميرا:

– أسرع يا كاردوزينيو.

ابتسم معلّم اللامعقول إزاء التعامل الحميم وإزاء السكرتيرة الدقيقة:

– كونوا مرتاحين، فالأمر سيتمّ حالاً.

فكرت زولميرا، «نظرة نسر، لا تقاوَم».

24

وصلت الدونا فلور والدكتور تيودورو من الصيدلية، ، في ساعة العشاء، يتأبط واحدهما ذراع الآخر. الكتور سيعود إلى العمل، بعد راحة قصيرة، ويبقى في المناوبة حتى العاشرة ليلاً. إنه لأمر متعب.

– عزيزي المسكين... قالت الدونا فلور.

– سوف تنامين اليوم باكراً يا عزيزتي، فالبارحة كنتِ محرورة. أوصاها زوجها الطيّب.

الدونا فلور راضية تماماً، مجدداً صافية الذهن وفرحة، ولم تعد متناقضة ومشطورة بنزاع بين الروح والمادة. مجرّد خشية واحدة: إذا لم يعد زوجها الأول؟ إذا لم يأت البتّة؟

لكنه عاد، وما إن ذهب الدكتور إلى الصيدلية (بالمعطف الواقي والمظلّة، إذ تزايد من جديد هطل المطر) حتى كان فلور وفادينيو على السرير الحديدي، ملتصقين فوق الفراش ذي الرقّاص.

– إنك ممتقعٌ مرهقٌ، أراك نحيلاً. هذا يعني أنك لم تنم مع هذا العيش في جو القمار والفحش. أنت بحاجة إلى الراحة يا حبي.

هذا ما قالته في فترة استراحة من المداعبة البطيئة، بعد الصراع الحامي والعاصفة. فادينيو ممتقعٌ، شديد الامتقاع، كأن الدم فارقه، لكنه مبتسم:

– مرهقٌ؟ قليلاً فقط. لكنكِ لا تتصورين كيف ضحكت على حساب بيلانتشي. من هنا فصاعداً...

– من هنا فصاعداً؟ هل ستعود أنت مع اللعب؟ ألن تبقى معي الليل بطوله؟

– ليلتنا هي الآن. بعد ذلك، يا حبي، هو دور زميلي، زوجكِ الآخر.

ردت الدونا فلور مشحونة بحب الذات، معيدة توضيح قرارات مأسوية:

– معه لن يكون أبداً بعد... كيف سيكون بوسعي؟ لن يكون أبداً بعد يا فادينيو. الآن نحن الاثنان فقط، ألا ترى هذا؟

ابتسم برقة، وهو مسترخٍ على السرير:

يا حبي، لا تقولي هذا... فأنتِ تعبدين أن تكوني مخلصة ورصينة، أنا أعرف. لكن هذا قد انتهى، فلماذا الخداع؟ وليس معي فقط، وليس معه فقط، معنا نحن الاثنين يا فلوري المخادعة. فهو أيضاً زوجكِ، له الحقوق نفسها التي لي. إنه شخصٌ صالحٌ، زوجكِ الثاني هذا، في كل مرّة أحبه أكثر... بالأحرى، عندما وصلت أنا أنذرتك بأننا سنتآلف جيداً نحن، الثلاثة....

– فادينيو!

– ما الأمر يا حبي؟

– إنك لا تبالي إذا وضعت لك قروناً مع تيودورو؟

– قرون؟ (مرر يده على جبينه) كلا، هذا لا يهدد ببروز قرون. أنا وهو متعادلان يا حبي، الاثنان لدينا الحق وكلانا تزوّج لدى الكاهن والقاضي، ألم يكن الأمر كذلك؟ إنما هو لا يستهلك ذلك، فهو أبله. إن حبنا يا حبي قد يكون حانثاً بالقسم الذي قطعه على نفسه إذا شئتِ، ليصبح أيضاً آثماً، لكنه شرعي، وأيضاً حبه، بوثائق وشهود، أليس حقاً؟ وهكذا، إذا كنا نحن الاثنان زوجيكِ ولنا الحقوق المتساوية ذاتها، فمن يخدع من؟ وحدكِ يا فلور، تخدعين الاثنين، لأنكِ لن تخدعي نفسكِ بعد الآن.

– أخدع الاثنين؟ ولن أخدع نفسي بعد الآن؟

أحبكِ كثيراً – آه! (صوت سماوي يدوّي في داخلها) – مع مثل هذا الحب لأراكِ وآخذكِ بين ذراعيّ، كسرت العدم لأكون أنا مرّة أخرى. لكن لا تطلبى مني أن أكون في الوقت نفسه، فادينيو وتيودورو، إذ إنني لا أستطيع. إنما أستطيع أن أكون فادينيو ولكِ فقط أكنّ حباً أمنحك إياه، أما الباقي كله الذي تحتاجين إليه فمن يمنحكِ إياه هو الآخر: المنزل الخاص والسعادة الزوجية

والاحترام والنظام والاعتبار والأمان. فهو من يمنحها، حيث إن حبه مخلوق من هذه الأشياء النبيلة (والمزعجة) وأنتِ بحاجة إليها كلها لتكوني سعيدة. لكي تكوني سعيدة، تحتاجين أيضاً إلى حبي، إلى هذا الحب غير النقي والخاطئ والأعوج والمتهتك والمضطرم الذي يجعلكِ تعانين. هو حبٌ عظيم بحيث يقاوم حياتي المهلكة، جد عظيم بحيث أنني بعد أن أختفي، أعود مجدداً إلى جانبك. لكي أمنحكِ الفرح و العذاب واللذة، أنا هنا. لكن لكي أبقى معك، وأكون ملازماً لكِ، وزوجكِ اليقظ، وأبقى مخلصاً لك، وأرافقك في زياراتك، أو إلى السينما، وأنام في ساعة محددة – من أجل هذا، لا يا حبي. كل هذا، هو من أجل زميلي النبيل، ولا يمكن للمرء أن يعثر على من هو أفضل منه أبداً. إنني زوج الدونا فلور الفقير، ذلك الذي سيوقظ اشتياقكِ ويعضّ رغبتكِ، المخبوءين في أعماق كيانكِ، في أعماق حياتكِ. إنه هو زوج السيدة الدونا فلور، يسهر على فضيلتكِ، وعلى شرفكِ، وعلى احترامكِ الإنساني. إنه وجهكِ الصباحي، وأنا ليلكِ، العشيق الذي ليس لديكِ إزاءه لا وسيلة ولا جرأة.. إننا زوجاكِ الاثنان، وجهاكِ الاثنان، نعمكِ وولاؤك. ولكي تكوني سعيدة أنتِ بحاجة إلينا نحن الاثنين. عندما كنت أنا بمفردي، كان لديكِ حبي وينقصك كل شيء، وعندما كان هو بمفرده، كان عندكِ من كل شيء بعضه، ولم ينقصكِ شيء، وتعذّبتِ أكثر. الآن، نعم، أنتِ الدونا فلور بكلّيتكِ كما يجب أن تكوني.

كانت الدغدغات تتزايد، والجسدان يحترقان بلهيب الرغبة:

– أسرعي يا حبي، لأن ليلتنا قصيرة. هيّا بنا نستهلك حبنا بسرعة ، فبعد قليل سأغادر إلى الضياع، لأنه قدري، وستكون ساعة زميلي فيكِ، شريكي، أخي. لي أنا اشتياقكِ ورغبتكِ السرّية ومجونك صراخكِ الأجش. له هو البقايا، النفقات والمناوبة والسهر على راحتك وشرفك والاعتبار والجانب النبيل. كله كامل يا حبي، أنا، أنتِ وهو، فماذا ترغبين أكثر من ذلك؟ والباقي ليس سوى خداعٌ ونفاقٌ، فلماذا تريدين أن تخدعي نفسك؟

وهو على وشك أن يتمكن منها، قال لها:

– إنكِ تعتقدين أنني جئت لجلب العار لك، مع أني جئت لأنقذ شرفكِ. فلو لم آت، أنا زوجكِ، مع الحقوق الشرعية، قولي يا فلوري، قولي الحقيقة ولا تخدعي نفسكِ؛ ماذا كان سيحدث لو

لم آت؟ جئت لأحول دون أن تتخذي عشيقاً لك وتمرّغي اسمكِ وشرفكِ في الوحل.

(ما فكرتِ قطّ، اما تقبلّتِ إطلاقاً ولا وافقت حتى على فكرة اتخاذ عشيق، فأنتِ امرأة مستقيمة، أرملة شريفة، زوجة نزيهة، مخلصة لزوجيكِ؟ وما الذي تقولينه لي عن أمير الأرامل، إدواردو المذكور، المعروف أيضاً باسم سيّد الآلام؟ ألا تتذكرينه بالقرب من العمود؟ كنت تقفين وراء النافذة تنظرين إليه ولو لم أُرسل بسرع ميراندون الذي كان في حداد لكنتِ قد سلّمت نفسك، زارعة حديقة من القرون على قبري!).

صوته السماوي وشهوته والطعم الحارق للزنجبيل والفلفل والبصل النيء وملح الحياة، الحقيقة الوحيدة.

فيا حبي، إنسي الآن كل شيء، كل شيء. هذه هي لحظة التمتع بالحب، فأنتِ خير من يعرف يا فلور، أن الحب هو مقدسٌ، إنه فعل رباني، فهيّا بنا يا حبي.

آه! فادينيو فاسد، هرطوقي، طاغية، هيّا بنا نسرع.

25

الرأس غارق بين ثدييْ زولميرا سيمونز فاغونديس المخمليين والبرونزيين، الصوفي كاردوزو إي سا...

كاردوزو أي سا؟ بذاته، فالأمر لا يتعلّق لا بخطأ ولا بتبادل أسماء، إنما باستبدال واقعي ومؤسف لأشخاص طبيعيين. بشكل واقعي وموقت. فليس بيلانتشي مولاس ملك القمار وأمبراطور البيشو وسيّد الحكومة وزولميرا، هو مَنْ كان ينحني، مستخدماً حقوقه الخاصة، على ثدييْ الخلاسية، ويتمتع بحرارتهما ورفاهما. فمَنْ كان يجرؤ على أن يفعل هذا، بلا تكلّف، كان رجلنا الخارق للمألوف دائماً، معلّم اللامعقول ونقيب الفضاءات المقدام، هذا الروح النقي غير المادي.

كيف بلغ كاردوزو إي سا تلك الارتفاعات والعظمة؟ بطلب ذلك . ففيما كان مكرساً نفسه لحل مشكلات بيلانتشي مرتاداً قاعات اللعب، عاقداً اجتماعات متواصلة مع الرؤساء المريخيين

(أحدها مقابلة مع المرشد العبقري، ديكتاتور المريخ المبهم والجدير، والمستحيل على أي كائن بشري) طلب ذلك من زولميرا بإلحاح وتملّق فأظهرت الصيغة القديمة مرّة أخرى فاعليتها.

لقد طلب في البدء، بفضول علمي بسيط وجدير بالتقدير أن يرى تلك العلامات المرسومة بأصابع غير مرئية على «ورطيك الأمازونيين الجميلين»، لم نعد نرى علامات، أجابت هي، بل آثاراً فقط. وعلى الرغم من هذا، أراد كاردوزو إي سا أن يرى الموضع ويدرس الظاهرة «في المكان». فمن دونه يستحيل التشخيص الكامل. إن العلم لدقيق.

أرته آنئذٍ المساحة، وهو أطال (العجلة عدو العلم) في درسها: اللون والصلابة والهندسة، فكل شيء في الحقيقة كان من المرتبة الأولى، كانت زولميرا تدعه يفعل هذا وهي مبتسمة وخجلى؛ أما كان كاردوزينيو تقريباً روحاً نقيّاً، متحرراً من ضعة المادة؟ على وجه التقريب.

– شبيه بجبال المريخ، في التركيب والوهاد. كشف جغرافي للكواكب.

لقد أشبع فضوله جزئياً من هذا القطاع، كونه على علم بالتفاصيل المتعلقة بالنهدين الثديين، رؤية تلك الروائع، المنحدرات والقمم، مقدماً لذلك أسباباً جمالية، فضلاً عن العلمية. وحيث أن بيلانتشي كان قد عودها على عبادة الشعر وكل ما هو جميل، فكيف ترفض أن توافق على توسل ملح ولبق، خال من أي أثر للسفالة، وصادر عن شخص جد مستقيم جداً؟ – تساءلت زولميرا ووافقت.

المعلّم كاردوزو إي سا، فنان محترم، تكلم فقط عن التأمل خلال لحظة «بروائع صانع الكون الأعلى» تلك، لكنه إذ رآها طليقة هكذا، كان تلذذه بالجمال عظيماً بحيث أنه أضاع رأسه دفعة واحدة وكلّياً. فإذا كان هو، الروح النقي اللامادي، قد استسلم إلى إفراطات المادة، فكيف يطلب من زولميرا، الإنسانية الهشّة، تصرّفاً صارماً؟ هكذا جرت الأمور، قدم الطلب وتمت الموافقة عليه. أكثر من ذلك، لو كان بيلانتشي مولاس سخياً في الواقع، ولو شاء أن يكافىء، كما يجب، الجهد الهائل للفلكي والكيميائي على عمله، لقدم زولميرا هدية لكاردوزو إي سا، معفية من أي وظيفة أو التزام تجاه اللعب وسيّده، سواء أكان طباعة على الآلة الكاتبة أم تسلية، متعهداً فقط بمهمة تأمين

النفقات (المرتفعة) للشخص المعزز. لأن النقيب العظيم، هو الذي وفى بكلمته وحلّ مسألة اللعب، منقذاً ثروة الكالابري، ومحرراً إياه من النحس ومن ارتباك المريخيين.

أمرٌ واحد أقله، مؤكد ولا يقبل النقاش: في ذلك اليوم حدث فرار جيوفاني غيمارايس وهو الأخير الذي انسحب. الأول كان آناكريون. فالبطريرك العجوز، معلم أجيال اللاعبين، الرجل الأشيب المحترم ، اتجه ذات ليلة، إلى كهف باراناغوا فينتورا، وفي ذلك المركز للقمار، حيث كل ورقة كانت معلَّمة، أحسّ مجدداً أنه مقامر. لأن الكسب بلا نهاية ليس لعباً، ليس صراعاً بينه وبين الحظ ولامعركة ضد الصرّاف وكرة الروليت، ولا ضد الورقة والمكعّب. تناول الفيش ووضع الورقة على الرقم وجمع الكسب، أي مذاق لذلك، أي سحر بليد؟ ماذا فعل هو، آناكريون، اللاعب الكامل، مربي الروليت، ليستحق عقاب هذا الحظ الذي لا يتبدّل؟

كان هذا كسباً وليس لعباً. فحماسة اللعب هي عدم المعرفة، إنها المجازفة، الحنق في الخسارة والفرح في الإصابة، إنها الربح والخسارة. إنها متابعة الكرة في حوض الروليت وفي سعيها المجنون إلى رقم الحظ الذي لا يمكن التنبؤ به، في كل مرة رقم مختلف. وعندما كان يتكرر صدفة، فيا لها من حماسة! فآناكريون ما عاد ينظر حتى إلى الكرة، فهي تسقط طائعة على الرقم الذي وضع عليه الفيش. وأوراق اللعب؟ والمكعّبات؟ فأي جريمة اقترفها ليستحق عقاباً كهذا؟

كان العجوز آناكريون مخلوقاً من قطعة واحدة، من النزاهة والحشمة، لاعباً لديه متعة اللعب ومتعة ألّا يعرف ويجازف. الآن لم يعد يجازف، إذ كان يعرف حتى قبل أن يبدأ. إنه عارٌ.

جمَّع أرباحه السهلة وذهب إلى باراناغوا فينتورا:

– هذا المكان – قال له الزنجي – ليس كازينو بيلانتشي، فلا ضرورة للإثارة.

ضحك الأثنان: هنا يلزم أكثر من الحظ، يلزم الشجاعة وعين يقظة لكي يتحاشى السرقة. لكن آناكريون لم يكن يبدي أي اكتراث للخسارة سواء بسبب قلة الحظ أو الغش. فما لم يكن يريده هو فقط ذلك الحظ العجائبي، والربح بلا متعة، وبلا نضال، وبلا فرح. هكذا هي الطبيعة البشرية. ومع أن أريغوف قد بدأ قبل الآخرين، فإنه تأخّر أيضاً بضعة أيام ليذهب إلى الدوقات الثلاث أو

عند زيزيه مينينجيتي، حيث كان اللعب لعباً حقيقياً. لماذا هذا التأخّر؟ لنتكلم بصراحة: الكسب اليسير يهدد بإفساد أخلاق أريغوف النزيهة. كان قد بدأ علاقة مع امرأة، يصرف المال مع عشيقة، غير آبه كلياً للعادات الطيّبة. فكان يغمر تيريزا بالهدايا، فاشترى لها مجسماً مصغراً للكرة الأرضية وعصفوراً يغرّد ليثير نعاسها. كان يريد مهما كلّف الأمر، أن تحمّل نفقات الإيجار والمخزن والنفقات الأخرى. لكن الجيوغرافيّة، محبطة ومهانة، جعلته يرى الجانب العبثي والمضحك للوضع: لقد كان عليها هي، تيريزا نيغريتودي، يقع واجب الإنفاق على المنزل وعلى الزنجي الفحل، فقد كان لديها اعتزازها وشرفها لتدافع عنهما. هدية من وقت إلى آخر، لا بأس، أما المساهمة في الإيجارفهذه عبثية بحتة. فبفضل تيريزا، رأى أريغوف، في الوقت المناسب، الهاوية أمام قدميه، ولم يعد يذهب إلى الكازينو من أجل القمار، إنما من أجل المال. فأين أصبح الرجل العنيد ومتعته كمقامر؟ فقد وجد نفسه مرة أخرى في الدوقات الثلاث، وعند زيزيه مينينجيتي، ومرّة أخرى فتحت له تيريزا، حضنها الأبيض وبحرها المزبد. أما ميراندون، فنعرف ما ألمَّ به: الوعد الذي قطعه على نفسه في لحظة من الرعب. فاستمر بوهيمياً، يروي الليالي بحكاياته وابتسامته، وزجاجت الكاشاسا؛ لكنه لم يعد يلعب إطلاقاً بعد ذلك، فلم يشأ أن يشعر مرة أخرى بالحضور القريب جداً للمستحيل.

جيوفاني غيمارايس، لدى عودته إلى قاعات بالاس، لم يعد قطّ المقامر القديم، فلقد جعل من نفسه موظفاً رفيع الشأن، وكان بوسعه، حسب مزاجه، أن يقضي بقية الحياة كاسباً على الرقم 17، لكي يحول مال بيلانتشي إلى أرض وعجول ومراع. لكنَّ زوجته والمجتمع كانا يلومان عودته إلى اللعب، والصحافي المحبوب، العضو الحديث في طبقات المحافظين، عاد إلى المنزل وإلى الرصيد المصرفي وإلى النوم باكراً، ولم يعد يخرج من بالاس إلى الدوقات الثلاث أو عند زيزيه، أو أيضاً إلى باراناغوا فينتورا. عاد إلى سريره الزوجي وإلى وقاره، مدفوعاً بأسباب جدية وممتازة، من دون شك، لكن ليست بمتانة أسباب أناكريون وأريغوف نفسها.

هكذا جرت، بشكل متواز، الأفعال الثلاثة التي بلغت مصيرها معاً: الاتفاق عبر الكواكب السيارة لنقيب الأكوان مع المريخيّين، ولعبة الطلب والعطاء، كتسلية بريئة فيها كان الصوفي والأمازون مستمرين لتمضية الوقت، ونفور أصدقاء فادينيو من القمار.

لم يزعزع انتصار كاردوزو إي سا، القناعات المادية للأستاذ ماسيمو سالس المتحفظ والعنيد. فكل شيء كان واضحاً بالنسبة إليه: إن كاردوزو هذا، بجنونه الظاهر وأحاديثه التي تجعل المستمع يستسلم إلى النوم وقوفاً، لن يكون بوسعه أن يصبح إلا رئيس عصابة زولميرا شريكته. فيجب أن يكونا على معرفة بعضهما ببعض منذ أمد بعيد وكانا عشيقين. وحده بيلانتشي، ذو القرن القديم، لم يلحظ شيئاً. وإذا لم يكن الأمر هكذا،ا فكيف يُفسَّر ما حدث؟

مفاجىء وغريب، كاردوزو إي سا، كاردوزوينيو بالنسبة إلى الحميمين، مثل زولميرا: مَنْ كان يعتقد إنه متآلف هكذا مع أمور الحب؟ ليس الحب في كوكبنا البائس والزهيد الأهمية فقط، بل أيضاً في الكواكب الأكثر تقدّماً، في المجرّات الأكثر ثراءً. إنه بروفسور الانضباط الناعم الذي يدرسه للطالبة النبيهة؛ نبيهة وفضولية:

– في زُحل، كيف هو الأمر، قل لي يا كاردوزينيو. كيف يقبّلون بعضهم بعضاً، إذا لم تكن لديهم أفواه، كيف يداعبون بعضهم بعضاً، إذا لم تكن لديهم أيدٍ...

وعلت قهقهة معلّم اللامعقول:

– سأريكِ الآن بالذات...

كان لدى زولميرا خشية من أن يكتشف بيلانتشي ذلك الود الروحي، ذلك الارتباط الصوفي للأرواح الشقيقة، ناظراً إلى الشرّ والرذيلة حيث لا يوجد إلا الفضول العلمي ولذة الجمال.

– لو دخل بيكيتو الآن ورآنا هكذا؟ فهو قادر على قتلنا. لقد أقسم على ذلك ذات مرّة...

– أفعل ذلك بيديّ ونصبح غير مرئيين. قال المتنور العظيم.

هكذا فعل ثم علمها بعض عادات قاطني نبتون، تلك الأشياء...

كان يزداد اصفراراً وإحباطاً يوماً بعد يوم، والدونا فلور منحنية فوق وجهه: ما بك يا فادينيو، يا حبي؟

– تعبٌ...

الصوت مخنوق، والعينان بدون بريق، واليدان هزيلتان. بالنسبة إلى الدونا فلور كان ذلك نتيجة لهذه الحياة التي لا قاعدة لها ولا نظاماً، فليس ثمة جهاز عضوي قادراً على تحمل هذا الاستنزاف الكبير والدائم. ففي المرّة الأولى حدث الأمر فجأة. وعندما كان الجميع يعتقدون أنه قوي ومعافى، متعاظم النشاط والطاقة، سقط فادينيو بين الأقنعة في عرض الكرنفال، في ملابس تنكرية لامرأة باهيانية بكامل حيويته. سقط فجأة ميتاً، وكان لا يزال فتياً وجميلاً، مزهوّاً بنفسه ومدّعياً، وفي الوقت ذاته كان قلبه ممزقاً، ومستهلكاً في داخله. جاءت الدونا فلور تشقّ طريقها بين المقنعين وجمهرة الناس، مدعومة بالدونا نورما والدونا جيزا، فوجدته قد توفي، مبتسماً إلى الموت، وإلى جانبه المولج بالمراقبة، كارلينيوس ماسكارينياس مرتدياً ملابس غجري، والغيتار (الكفاكينيو) السامي صمت فجأة. وكان الحداد في الساحة بكرات صاخبة وبأدوات الزينة وبألوان زاهية. لكنَّ الموت يأتي الآن شيئاً فشيئاً، الموت أو أي شيء آخر. في البدء ممتقع وعارٍ من اللحم، وبعدها مباشرة، أزرق ضاربٌ إلى السواد، مائع. أجل مائع وشفافٌ تقريباً. لم يكن هذا هزال المرض، فهو لم يكن يعاني ألماً ولا حمى. لأنه فقد الكثافة، تحول إلى كائن لا جسدي، وكان يختفي.

في البدء، لم تحفل الدونا فلور بالأمر، إذ كان فادينيو مهزاراً ومحبّاً للتصرّفات الصبيانية، شخصاً يستخف بالأمور، وربما كانت مجرد مكيدة يعدّها ليضحك من ذعر الضحية، ويسخر من رعبها. ففادينيو لم يفقد العادات القديمة. فقد عاد الماجن نفسه الذي كان قبلاً، يهزأ من كل شيء، ويلهو على حساب الآخرين. فقد نعتته الدونا روزيلدا، عن حق، بالمهزار المضحك.

فقد جاءت العجوز بصورة غير متوقعة مع حقائب كبيرة بنية، للبقاء فترة طويلة عند ابنتها. ابتلع الدكتور تيودورو الصدمة، وبتهذيبه الحسن، رحّب بالحماة في نبل وكبر: «إنكِ دائماً على الرحب في منزلكِ هذا». وبعد سنوات، ازدادت قسوة الدونا روزيلدا وأصبحت بئراً من السم، وما إن وصلت واجتازت الشارع إلى المنزل حتى بدأت:

– شقيقكِ شخصٌ مائع، فاقدُ الحميّة، فيه دم حشرة. زوجته تتآمر عليه، وهي تثير الأذى في العين. وأنا جئت لأبقى.

«ربّاه، امنحني الصبر...» تضرّعت الدونا فلور، وفقد الدكتور تيودورو أي أمل. ولذلك التهديد المخيف، «جئت لأبقى»، كان ثمة حلّان فقط: إما تسميم المرأة الموبوءة، وليس لديه شجاعةٌ لمثل كل هذا، وإما حدوث معجزة، ولسنا في زمن المعجزات. إنه خطأ الدكتور، كما نعلم وكما سيكتشف هو في الحال.

فبعد مضي أقل من أربع وعشرين ساعة على وصولها، رجعت الدونا روزيلدا إلى نازاريت، راكضة إلى الباخرة كما لو أن الجحيم بأسرها عضّت كعبيها. ليس الجحيم بأسرها، لكنْ بالتأكيد الشيطان أو إبليس أو رئيس الأرواح الشريرة، الخسيس، القذر، ليس مهماً الاسم واللقب؛ الشيطان، الأسوأ في ما بينهم، ذلك الذي كان ذات يوم صهرها من أجل شقائها وشقاء ابنتها. فلقد كان يشدّ شعرها ويوقعها أرضاً وطوال النهار يهمس في أذنيها بأسماء قبيحة، بشتائم فاحشة، مهدداً إياها بلكمات ورفسات على المؤخرة وبإيصالها إلى الجنون.

– هذا المنزل مسكونٌ بالأشباح، وهو ملعون! لن أطأ بقدميّ بعد الآن هنا... كانت تشكو وهي تجمع الحقائب.

« لقد حدثت معجزة، فالزمن ما زال زمن المعجزات... – فكّر الدكتور بخشوع، وهو لا يرى نفسه مستحقاً لهذه النعمة الوفيرة، لمثل هذا الإحسان.

– الملعون يسير طليقاً، لقد أراد قتلي...

وإذ استكملت معلوماتها، أسرعت الدونا روزيلدا مسرعة إلى الشارع.

– إنها خرفة... – شخّص الدكتور تيودورو، بارتياح وفاعلية.

ابتسمت الدونا فلور بالاتفاق مع الدكتور، متضامنة مع ارتياحه، وفي استجابة لغمزة عين من قبل فادينيو. وعند الباب، ضحك الشيطان بقهقهات استفزازية، لكنه أصبح نوعاً ما غير مادي

ومائعاً.

أخذ يزدرد ذلك الامتقاع، وفادينيو في كل مرّة أقل ماديّة، غازيّاً تقريباً، شفّافاً، وفي لحظة معيّنة، كان بوسع الدونا فلور أن ترى من خلال جسده.

– أوّاه يا حبي، إنك تتلاشى لتصير لا شيء...

شعرت الدونا فلور للمرّة الأولى أن فادينيو لا يقوى على التصرّف، وهو مرتبك وتائه. أين لهيبه، وقلّة حيائه؟

– لا أعلم يا حبي... إنهم يحملونني على الرحيل... وأكثر من هذا فأنا لا أريد الذهاب. تُرى هل ما عدتِ ترغبين فيّ؟ فأنتِ وحدكِ تستطيعين طردي. وبقدر ما تريدينني، ترغبين فيّ، بقدر ما تفكّرين بي، سأكون حيّاً وهنا. فماذا فعلتِ يا فلور؟

تذكّرت الدونا فلور الرقيّة. فلقد حذّرتها إشبينتها الدونا ديونيزيا. فالذنب كله ذنبها ، لأنها أسرعت إلى آلهة الأوريشا وتضرّعت بأن يحملوا فادينيو على العودة إلى موته.

– إنه العمل السحري...

عملٌ سحريٌ؟ سأل بصوت مبلل انتهى إلى همهمة.

أخبرته كلّ شيء، متذكّرة فترة ما بعد ظهر يوم سبت، فيما كانت بين ذراعيْ فادينيو، واحتفظت بشرفها السليم بفضل ديونيزيا ده أوشوصي، وكيف، بدون أمل، أوصت بالعمل السحري. فتطوع الكاهن ديدي للقيام بالمهمة، ديدي الذي وضع يده على رأس فادينيو، والده الصغير. ماذا فعلتِ يا فلور، يا وردتي الضائعة، ومن أجل ماذا؟

– لكي أُنقذ شرفي...

لم يكن ذلك ليفيد بشيء، لأن الأمر كان سيحدث بكل الحوال. وكانت قوة الرغبة الطافحة من لسان فادينيو أقوى من العمل السحري. وبعد كل ما جرى، أرادت الدونا فلور تعليق التعويذة،

لكنّ الأوان كان قد فات، ودم التضحية قد أُريق. آه! إنكِ أردت أن تطرديني، وبما أنك اردت ذلك، لم يعد لدي سوى الرحيل. فقوتي هي رغبتكِ، وجسدي هو اشتياقكِ، وحياتي هي مشيئتكِ. فإذا كنت لا تريدينني فأنا لن أعود موجوداً. وداعاً يا فلور سأرحل، لقد قيّدوني بموكان وانتهى الأمر.

اختفى من أمام نظرها، وتلاشى في الهواء.

27

ذهب فادينيو إلى هناك، ، نفاية الأوريشا، روح بدون قبر، في أرض المعركة تلك، في حرب القديسين.

فيا دونا فلور، لماذا لا تستغلين ذلك؟ إنها فرصتكِ الأخيرة، إنها المناسبة الأخيرة لكي تنقذي شرفك، وحشمة وفضيلة الشرائع الأخلاقية لشارعكِ ولعلاقاتك ولطبقتكِ الاجتماعية. ما زال لديكِ هذا المخرج، التعويذة الموصى بها من ديونيزيا والمنفذة من قبل ديدي، الساحر الكبير. ومع أنه مكلف لنا جداً تأييد أعمال السحر والآلهة، وخرافات الشعب التي تشكل خطراً على الأخلاق والفضيلة وقواعد المجتمع، والحضارة في نهاية المطاف، لكن ما العمل؟ إن المهم يا دونا فلور هو أن تسترجعي نفسكِ أمام الله وضميرك، مثل نعجة تعود إلى الحظيرة، نقية طاهرة. فذلك ليس ضرورياً أمام الناس، لأن هؤلاء يجهلون خطأك (لحسن الحظ).

إذا تركتِ فادينيو يرحل، سيكون من السهل نسيان تلك الليالي القليلة العديمة الاحتشام، والجماع المجنون وتأوّهات الحب. فكل هذا يمكن أن يصبح حلماً وهذياناً من الحمى، أضغاث أحلام أو مجرّد تفكير بسيط وأبله في الساعات الفارغة في حياة محتشمة وسعيدة. لن يُحسب عليكِ شيء، لن تندمي، وستعيشين في سلام مع زوجكِ ومع ضميركِ. إنها الفرصة الأخيرة يا دونا فلور، لتستعيدي الفضيلة والاخلاق والاحترام. دعي فادينيو بسلام في موته.

إلى أين تذهبين يا دونا فلور، وبأية قوى؟ لماذا تحررينه من الفراغ؟

لا أستطيع أن أحيا من دون حب ، من دون حبه. الأفضل أن أموت معه. فإذا لم يكن معي، سأمضي بيأس باحثة عنه في أي رجل يمرّ أمامي، سأبحث عن مذاقه في كل فم، وأركض

في الشوارع ذئبة جائعة. إنه حياتي.

28

ارتفعت المدينة في الأجواء وسجّلت الساعات، في الوقت نفسه، منتصف النهار ومنتصف الليل في حرب القديسين. واجتمع جميع آلهة الأوريشا لدفن فادينيو، الروح المتمرّدة وقوته على الحب. وحده إيشو دافع عنه. البرق والرعد والعاصفة، والفولاذ ضد الفولاذ، ودم أسود. جرى اللقاء في ملتقى الطريق الأخير، على حدود العدم.

في قمة المحيط، يمانجا باللون أزرق، وشعرها طويل من زبد وعناكب البحر. وفي ذيلها الفضي، نبت لها ثلاثة فروج، واحد أبيض بلون الطحالب، وآخر أخضر بلون الطمي، والثالث بلون الأخطبوطات السوداء. وفي مروحتها المعدنية، حرّكت الآلهة رياح الموت. كانت تقود أسطولاً من هياكل السفن، وكان يحييها جيش من السمك بلغتها الخرساء؛ أودويا!

كانت الغابات تنحني لأوشوصي، الإله الصيّاد، ملك كيتو. لقد امتطى في هذه الحرب، ثلاث مطيات؛ خنزيراً ذكراً في هجوم الصباح ، والحصان الأبيض في الهلال الأخير، وفرسه ديونيزيا عند الفجر، وهي من بناته الأكثر جمالاً، المفضّلة. وحيث كان يمرّ، حاملاً قوسه الأوفا وسوطه الإيروكيريه، كانت تموت الحيوانات، وكل ما كان حياً، فقد كانت حرباً لا غنى عنها. أفعى هائلة من نوع الكوبرا، أوشوماريه بألوان قوس قزح، ذكر وأنثى في الوقت نفسه. مغطّاة بالثعابين، والكاسكافيل والجاراراكا، أفعى سامة بلون المرجان، يتبعها خمس كتائب من المخنّثات. دفعت فادينيو إلى جسر قوس القزح. لقد كان فحلاً قوياً عندما دخل، وخرج فتاة منكودة الحظ، شفافة. مزق إيشو قوس القزح، برمحه المثلّث الأسنّة، ودست أوشوماريه ذيلها في فمها، لغزاً وخاتماً.

ضرب أوغون، المحارب غير المرئي، الحديد وسقى فولاذ السيوف. إيوا وينابيعها، نانا وشيخوختها، شلنغو، ملك الحرب، محاطاً بوزرائه الأوبا والأعيان الأوغان، في بلاطه البهي. إلى جانبه، أوشوم الفاتنة، مستسلمة للدلع؛ أومولو وجيشه المرعب، يقود الجدري الأسود والجذام الألفي، والبلغم النتن والصديد وجميع الأمراض. فادينيو، مسلول ومصاب بوباء، أعمى وأصمّ. مضغ إيشو

الأمراض، واحداً فواحداً، وهو الطبيب الساحر للقبائل الأفريقية. أوشالا كان اثنين؛ الفتى أوشوغويا والعجوز أوشولوفا. في خطوته الراقصة انحنى الجميع. وجاءت على رأسهم يانسا أم الحرب ، التي كانت تحكم الأموات. أخرست صرختها الشعب، ومزقت بخنجر قلب فادينيو.

أتوا جميعاً في تشكيل متراص، بسلاحهم وأدواتهم الحديدية وبشريعتهم القديمة. وإذ وجدوا أنفسهم قلّة رغم عددهم، استدعوا آلهة أمة غرونسي وأنغولا، وأقوام الإنكيسي الكونغوليين والمهجنين الكابوكلو. جميع القبائل من الجنوب إلى الشمال، ضد إيشو وإيغونه، وانطلقوا إلى المعركة الأخيرة. عندها، تعرّت عذارى المدينة وخرجن ليقدمن أنفسهن في الشوارع وفي الساحات. ثم ما لبث أن وُلد الأبناء بالألوف. كلهم متشابهون، لأنهم كانوا جميعهم أبناء فادينيو ، وكلهم عُسْرٌ ومتمردون. في البحر أبحرت بيوت ومنازل من طبقتين، كذلك منارة مدخل المرفأ وقطع الأرض المخصصة للبناء في أونياون؛ انتقلت قلعة البحر إلى تيريرو ده جيسوس، وتفتَّحت أسماك في الحدائق، ونضجت نجوم في الأشجار، وسجّلت ساعة القصر ساعة الرعب في سماء قرمزية مع بقع صفراء. شوهد آنئذٍ صباح مذنّبات يشرق فوق المواخير وكل مومس أصبح لها زوج وأبناء. وسقط القمر في إيتاباريكا على المستنقعات، والتجأ العشاق إليه وفي مرآته كانت تنعكس القبلات والإغماءات.

من جهة، القانون وجيوش الأفكار المسبقة والتلكؤ تحت قيادة الدونا دينورا وبيلانتشي مولاس. ومن جهة أخرى، الحب والشعر وجسارة كاردوزو إي سا الضاحك بين نهدي زولميرا، ملازم الحلم. جاء الشعب راكضاً في المنحدرات مع مشاعل النفط وروزنامة الإضرابات والثورات. وعند وصوله إلى الساحة أحرق الديكتاتورية مثل ورقة متسخة وأشعل الحرية في كل الزوايا. أمير الظلمات هو مَنْ قاد التمرّد وفي تمام الساعة الثانية والعشرين وست وثلاثين دقيقة انهار النظام والتقاليد الإقطاعية. ولم يبق من الأخلاق المعمول بها إلا فضلات، جُمعت في الحال ووُضعت في المتحف.

لكنَّ صرخة يانس أبقت البشر في رعب الموت. وفادينيو، بلا يدين، وبلا قدمين، وبلا تماسك، لم يبق منه الكثير: دخانٌ رمادي اللون ورمادٌ منثورٌ والقلب المكسور في المعركة. تقريباً لا

شيء. لقد كانت نهاية فادينيو وقدرته على الرغبة. هل سبق وشاهد أحدٌ، رجلاً ميتاً مارس الحب على سرير من حديد، يبعث من جديد؟

ثم حدث انقلاب في وجهة المعركة. إيشو بدون قوى، تحيط به الأركان السبعة من دون مخرج. الروح المتمرد في نعشه الرخيص وقبره المنسبط، وداعاً، وداعاً فادينيو إلى الأبد.

في ذلك الوقت، اخترقت الأجواء صورة فتحت الدروب المغلقة بإحكام، فهزمت المسافة والخداع – فكرٌ حرٌ من أي قيد: الدونا فلور عارية. تأوّهها الصادر عن الحب غطّى صرخة موت يانسا. في الساعة الأخيرة، عندما كان إيشو يتدحرج من أعلى الجبل كان ثمة شاعرٌ ينظم النقش على ضريح فادينيو.

اشتعلت نار من الفرح على الأرض وأحرق الشعب زمن الكذب.

29

في صباح أحد مشرق ولطيف، شاهد روّاد حانة ميNديز في كابيسا، الدونا فلور وهي تمرّ في كامل أناقتها، متأبطة ذراع زوجها الدكتور تيودورو. كان الزوجان ذاهبين إلى ريو فيرميليو حيث كانت الخالة ليتا والعم بورتو ينتظرانهما على الغداء. كانت الدونا فلور، بوجه مشبع بالحيوية وعينين خفيضتين، رصينة وجدّية كما يليق بالمرأة المتزوجة والشريفة، تجيب على تمنيات الصباح المحترمة.

قاس السيّد فيفالدو من مؤسسة دفن الموتى الدونا فلور من أعلى إلى أسفل:

– لم أكن لأفكر يوماً أن الدكتور «شراب» هذا سيكون قادراً على فعل كهذا.. إنه لا يبدو عليه ذلك، ومع ذلك

انظر...

قاطعه ألفريدو بائع الأيقونات:

– أي فعل ؟ فهو كصيدلي أقوى من الكثير من الأطباء...

– أنظروا... أي فتنة، أي امرأة جميلة! امرأة شهية ويبدو عليها أنها امرأة مكتفية، لا شيء ينقصها لا على المائدة ولا في السرير.قد تبدو امرأة تتخذ لها عشيقاً فتياً، وتزرع قروناً لزوجها...

احتج مويزيس ألفيس، زارع الكاكاو المبذر:

– لا تقل هذا! فإذا كان ثمة امرأة مستقيمة في باهيّا فهي الدونا فلور.

– إنني متفقٌ معك، فلا أحد ينكر أنها امرأة شريفة؟ لكن ما أريد أن أقوله هو أن هذا الدكتور، الذي يبدو كرجل أخرق، هو شخصٌ ماكر. إنني أرفع له قبعتي، فما فكرت قط أنه خليق بكل هذا. فالاحتفاظ بامرأة جميلة كهذه، جد فاتنة، يستوجب الكثير من الكفاءة.

وتابع بعينين متقدتين:

– أنظروا كيف تتهادى. الوجه رصين، إنما الردفان طليقان، أنظر إليها! حتى ليبدو كأن أحداً يلمسهما... إنه محظوظ جداً هذا الدكتور ...

تبتسم الدونا فلور بلطف وهي متأبطة ذراع زوجها المحظوظ. آه! لذلك الهوس لدى فادينيو، في أن يأتي إلى الشارع ويلمس نهديها وردفيها، ثم يحوم حولها كأنه نسيم الصباح، صباح مغسول من يوم أحد، حيث تمرّ الدونا فلور، سعيدة بحياتها، راضية بحبها.

وهنا تنتهي قصة الدونا فلور وزوجيها الاثنين، موصوفة بتفاصيلها وألغازها، واضحة وقاتمة مثل الحياة. كل هذا قد حدث، فليصدّق مَنْ شاء. حدث كل هذا في باهيّا، حيث أعمال السحر هذه وغيرها من التعويذات تحدث من دون أن تفاجيء أحداً. وإذا شككتم في الأمر، اسألوا كاردوزو إي سا، وهو سيقول لكم إذا كانت هي الحقيقة أم لا. يمكنكم أن تعثروا عليه في كوكب المريخ أو في أي زاوية فقيرة في المدينة.

سالفادور، نيسان/ابريل 1966